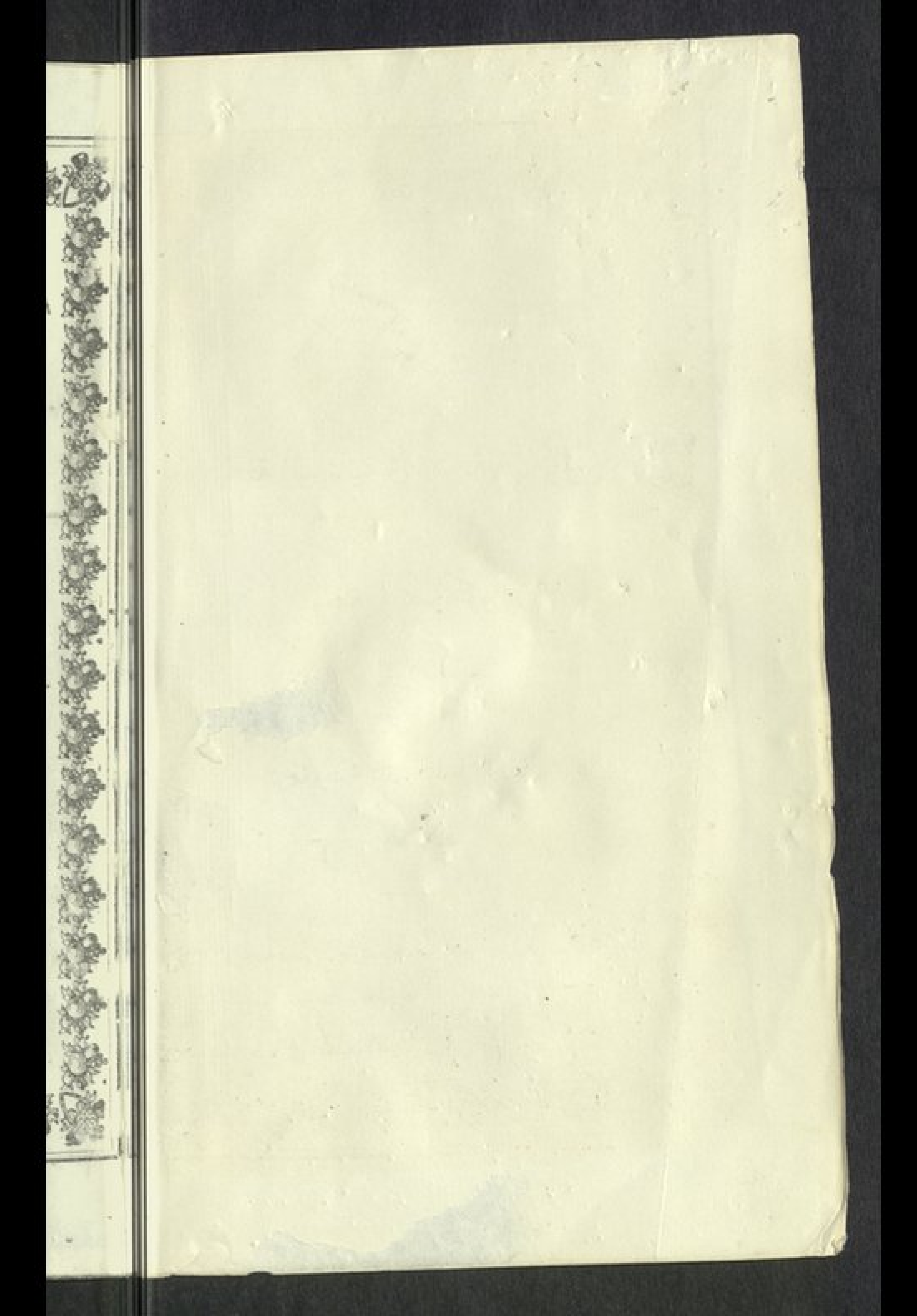



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY





كتاب

التحفة البستانية في الاسفار الكروزية

او

رحلة روبنصن كروزي

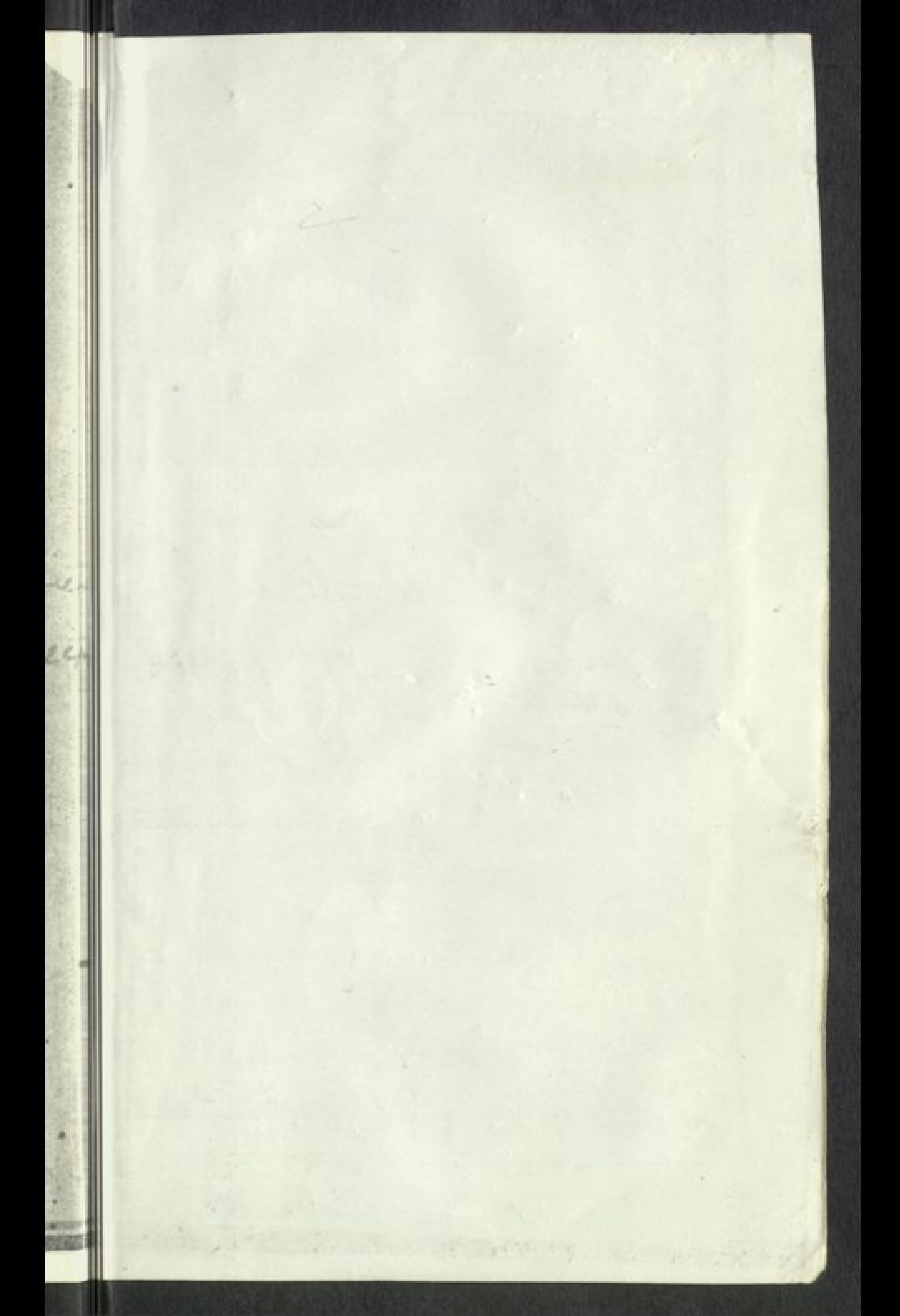
جزء اوّل

ترجمة وهذّبهُ المغفور له المعلم بطرس البستاني

طبعة ثالثة

برخصة نظارة المعارف العمومية الجليلة ٣٤ تموز سنة ١٣٠٥

طُبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٠٤



Hunter, J. P.

Defoe and the Indian

missionaries

Review of English Studies

v. 14 (1963) pp 243-24

مقدمة المترجم

اما بعدُ فهذه قصة لطيفة في رحلة روبنصن كروزي واخبار ما قاساهُ من الاهوال والمخاطر برًّا وبحرًا وما اخترعهُ من الادوات والوسائل تيسيرًا لاسباب معيشتهِ وتسهيلاً لتحصيل رفاهتهِ وهي عند الافرنج من اغرب القصص واظرفها والذها ولها المزية على باقي القصص من عدَّة اوجه وهي

اولاً انها مبنية على اساس صحيح وروايات صادقة . ثانيًا ان ما بها من الاخبار والحوادث ممكن عقلاً ومقبول نقلاً . ثالثًا انها مهذبة ومنزهة عن كلام السفاهة والخلاعة . رابعًا انها محتوية على حكم وآداب ونكت كبيرة الفائدة تحسن للخاصة والعامة وللاكابر والاصاغر . واذ كانت موضوعات هذه القصة متنوعة واساليبها متفننة وعربيتها مفهومة ولغتها مأنوسة ومعانيها مستظرفة كان لا يخشى على من تصفحها من الملل وكانت من احسن الكتب التي تقرأ في المدارس البسيطة تقوية للتلامذة واذ كانت مهذبة لابد من انها تكون اكثر قبولاً لدى جمهور هذا العصر الذي انفتح فيهِ باب المعارف لجنس النساء ايضًا والذي يجب فيهِ الانتباه الى تنظيف دواوين العرب وكتاباتهم ومجالسهم ما لا يليق من الكلام والاعمال احتشامًا مع هذا الجنس ومحافظة عليهِ . هذا وان من عرف ان ترجمتها وتهذيبها وطبعها كانت معًا وقد أُكملت في فضلات الوقت مدة خمسة اشهر مملوءة من الاضطرابات والهموم والمتاعب يسبل ذيل المعذرة على ما يعثر عليهِ من الخلل والتساهل والزلل ويعلم ان الوقت لدى قابل الانضغاط يطول ويقصر بحسب اجتهاد صاحبهِ وان فضلات الاوقات التي يصرفها كثيرون في الملاهي والكسل يمكنهم ان يصرفوها في اعمال مفيدة لهم ولابناء وطنهم

وكل امرء لا نفع فيهِ لغيرهِ   فسيَّانِ عندي فقدهُ ووجودهُ

[illegible] عن ذلك [illegible] حديث [illegible] عند [illegible]

[illegible] الاصحاب [illegible] وكان [illegible] اهل [illegible]

[illegible]

[illegible] عن هذا الامر [illegible]

[illegible]

اسفار روبنصن كروزي

الفصل الاول

عائلة روبنصن ومفارقتهُ والديهِ

حكى روبنصن عن نفسهِ قال وُلِدتُ سنة ١٦٣٢ في مدينة يورك من عائلة معتبرة من بريطان . وكان ابي غريباً في تلك البلاد واسمهُ كروتزنير . فاستوطن اولاً في هُول وصار ذا مالٍ كثيرٍ بواسطة التجارة . ثم انتقل الى مدينة يورك المذكورة واقام هناك تاركاً معاطاةَ التجارة . ثم تزوَّج بامي واسم عائلتها روبنصن وهي عائلة معتبرة جدًّا في تلك البلاد فدُعِيتُ باسم تلك العائلة اي روبنصن كروتزنير . ثم لمجاري عادة الانكليز في افساد الكلمات نُدعَى الآنَ او بالحري ندعو نفسنا ونكتب اسمنا كروزي وهكذا كان ارفاقي يدعونني دائمًا

وكان لي أَخَوان اكبر مني كان احدهما اميرالايٍ للمشاة من عساكر الانكليز الموجودين في فلندرس الذي كان قائدًا عليهم لوكهرت المشهور . فقتل اخي هذا في الحرب التي اضطرمت نارها بين الانكليز واهالي اسبانيا بقرب دنكرك . واما اخي الآخر فلا اعلم ماذا اصابهُ اكثر ممَّا يعلم ابي وامي ماذا اصابني

واذ كنت ثالث ابنٍ في العائلة ولم اتمرَّن على صناعةٍ اخذ رأْسي يمتلئ منذ صغري من افكار اللهو والمسرات . وكان ابي قد انهكهُ الكبر فعلَّمني اموراً كثيرة ممَّا من شأْن الاولاد ان يتعلَّموهُ غالبًا في بيوت والديهم والمدارس البسيطة المجانية الموجودة في الضيع . وكان قصدهُ ان يعلّمني الشريعة ولكن لم يكن شيءٌ يرضيني

الاّ التوجه الى البحر . فكان ميلي الى ذلك يتمادى في بعزم شديد جدًّا ضد ارادة ابي وامرهِ وضد توسلات امي ونصائح باقي الاصحاب . وكان ذلك الميل الطبيعي يجذبني بعنف شديد نحو الحياة التعيسة التي كانت مزمعة ان تصادفني

وكان ابي على جانب عظيم من الحكمة والرصانة فاخذ يقدم لي نصائح فاضلة وينذرني ان اعدل عمّا عزمت عليهِ . وفي ذات يوم صباحًا دعاني الى مخدعهِ الذي لم يكن يفارقهُ لمرض في رجليهِ واخذ يكلمني بحرارة ونشاط عن هذا الامر. وسألني هل يوجد عندك سبب غير حب السفر والجولان يحملك على مباينة بيتي وترك وطنك العزيز حيث يمكنك التداخل مع اصحاب التقدم والنجاح في امور الدنيا بواسطة الاجتهاد والجد وان تعيش مع ذلك عيشة راحة ولذة . ثم قال ان الذين يتغربون بقصد الربح يكونون اما من القوم الذين سدّت عليهم ابواب النجاح في بلادهم او من اصحاب الغنى والثروة العظيمة. فان هولاء يطلبون الارتقاء بواسطة جدهم في طلب الاسباب ويجعلون لانفسهم شهرة بواسطة اعمال خارقة العادة. ولكن هذه الامور هي اما اعلى او ادنى منك جدًّا وان حالتك هي متوسطة او بالحري هي في اعلى طبقة من الدرجة الدنيا. وانهُ قد وجد بالاختبار المستطيل ان هذه الدرجة هي احسن الحالات في العالم واكثرها موافقة لراحة الانسان لانها غير خاضعة للشقاء والمصاعب والاتعاب والاوجاع التي تلاصق عيشة من كان في الدرجة الدنيا ولا محفوفة بالكبرياء والنهم والطمع والحسد التي توجد في من هم في الدرجة العليا . ويمكنك ان تحقق ما لهذه الحالة من الراحة من ملاحظة هذا الامر وهو ان اصحاب هذه الحالة تراهم محسودين من باقي الناس وان الملوك كثيرًا ما تأسفوا من النتائج التعيسة الناجمة من ولادتهم للامور العظام ورغبوا ان يوضعوا في وسط طرفين اي بين العظماء والادنياء حتى ان الحكيم شهد لهذا الحالة بكونها دستورًا عادلاً للغبطة الحقيقية عند ما طلب ان يكون لا فقيرًا ولا غنيًّا

ثم قال اذا لاحظت الامور يظهر لك دائمًا ان مصائب الحياة يشترك فيها

القسم الاعلى والقسم الادنى من بني البشر . واما الحالة المتوسطة فان مصائبها تكون اقل وتقلباتها لا توازي تقلبات الحالتين الاخريين . اي ان اصحاب الحالة المتوسطة لا يكونون عرضة وهدفاً لامراض الجسد وقلق العقل كما يكون الذين بواسطة سوء التصرف والتنعمات والشراهة من الجهة الواحدة او بواسطة مصاعب العمل وتعذر الاحتياجات وقلة الاكل وخباثة الاطعمة من الجهة الاخرى يجلبون على انفسهم امراضاً وعللاً من شأنها ان تنتج بالطبع من معيشتهم وان الحالة المتوسطة تكون دائماً مقرونة بجميع انواع الفضائل والتمتعات . وان السلامة والصحة هما جاريتان لمن كانت احوالهم متوسطة . والقناعة والاعتدال والهدو والصحة والاتحاد وكل امر محبوب ولذة خالصة في بركات ترافق الحالة المتوسطة من المعيشة . وانه بهذا الطريق يسير الناس بسكوت وهدو في العالم ويخرجون منه براحة من ان يرتكبوا بتعب اليد او قلق الرأس او يبيعوا انفسهم للعبودية لاجل خبزهم اليومي او يزعجوها بامور من شأنها ان تنزع سلامة الضمير وراحة الجسد او يكدروها بالحسد او شدة الطمع في طلب امور عظيمة ولكنهم لما هم فيه من الراحة يسيرون الهُوَينا في العالم ويذوقون حلاوة الحياة من دون مرارتها ويشعرون بانهم سعداء ويتعلمون بالاختبار يوماً فيوماً معرفة ذلك والاشعار به

ثم الحّ عليّ بحرارة موعبة حبّاً وشفقة ان ارفع هذه المادة من رأسي ولا اطرح نفسي في اخطار لا تلزمني اذ كنت غير مضطر الى طلب خبزي . وقال انه يبذل جهدهُ في مساعدتي ووضعي في المركز الذي عرضه عليّ . وانني اذا لم اكن مرتاحاً جدًّا وسعيدًا في العالم يكون المانع من ذلك سوء حظي وذنبي . وانه لا يكون عليه لوم ولا مؤاخذة من جرى ذلك لانه قد تمّم واجباته نحوي بانذاري وتحذيري من امور عرف انها تكون مضرّة لي . وبالاجمال كما انه مستعد لان يعاملني بكامل المساعدة والمعروف اذا بقيت ثابتاً في البيت لا يريد ان يكون له ادنى يد في مصائبي بتشجيعه اياي في امر السفر . وختم كلامه بقوله انه يمكنني ان اتخذ

اخي نموذجا . فانهُ قدم لهُ هذه النصائح بعينها لكي يصدهُ عن التوجه الى حروب البلاد الواطية فلم يقدر على اقناعهِ لما كان لهُ من الرغبة المفرطة في دخول العسكرية فقتل هناك. ثم قال انهُ لا يكف عن الصلاة من اجلي الا انهُ يتجاسر ويقول اني اذا بقيت مصرًّا على عزمي وفعلت ما انا قاصدهُ فان الله لا يبارك عليَّ . واردف قولهُ هذا بقولهِ سيكون لك فرصة فيما يأتي لان تتذكر بانك قد تهاونت بمشورتي وتندم ولكن لا يكون لك عند ذلك من يمدُّ يدهُ لمساعدتك في التخلص من مصيبتك

وعند ما انتهى الى القسم الاخير من خطابهِ الذي هو بالحقيقة نبوي مع اني اظن انهُ هو نفسهُ لم يكن عالمًا بانهُ كذلك لاحظت ان الدموع كانت تتساقط منحدرة على خديهِ بكثرة وعلى الخصوص عند ذكرهِ اخي الذي قُتِل في الحرب. ولما قال انهُ سيكون لي فرصة للتذكر والندم ولا يكون حينئذٍ من يساعدني تأثر جدًّا حتى انقطع حديثهُ وقال لي ان قلبهُ امتلأ حتى ما عاد يمكنهُ ان يكلّمني

واما انا فتأثرت جدًّا من هذا الخطاب ومن لا يتأثر من خطاب كهذا وعزمت على اني ما عدت افتكر ابدًا في امر التغرب بل ابقى في البيت طبق مرغوب ابي. ولكن وا اسفاهُ لم يمضِ الا ايام قليلة حتى برد هذا العزم فنويت بعد اسابيع قليلة ان اهرب الى بلاد بعيدة واخلص من انذارات ابي ولجاجتهِ. الا انني لم افعل ذلك بالسرعة كما كانت تحركني حرارة عزمي الاولى بل انفردت بامي في وقت حسبتها فيهِ اكثر بشاشة من جاري عادتها وقلت لها ان قلبي مائل جدًّا الى التفرج على العالم حتى اني لا اقدر ان ابتدئ بشيء وأثبت ان اتممهُ . فالاوفق ان ابي يجيب سؤالي طوعًا ولا يحملني على الذهاب بدون خاطرهِ ورضاهُ . واذ قد بلغت السنة الثامنة عشرة من العمر فقد فات وقت دخولي في صناعة او في حرفة او في وظيفة كاتب عند احد الفقهاء . ولست اشك باني اذا فعلت ذلك لا اثبت الى ان اكمل مدتي بل ساهرب من عند معلمي قبل نهاية وقتي لاكون بحريًّا ثم رجتها ان تستأذن لي من ابي بسفرة واحدة الى الغربة فاذا رجعت بالسلامة ولم يعجبني ذلك لا اعود اسافر ابضًا بل ابقى في

البيت واعوّض باجتهادٍ مضاعف ما اكون قد اضعته من الوقت

فلما سمعت والدتي هذا الكلام استشاطت غضبًا وقالت لا فائدة من الكلام مع ابيك بهذا الشأن . فانهُ هو اعلم بمصالحك ولا يمكن ان يسمح بامرٍ ينتج لك منهُ هذا المقدار من الضرر . واظهرت العجب من افتكاري بهذا الامر بعد ذلك الخطاب الذي خاطبني بهِ وتلك العبارات الموعبة رفقًا وحنوًا التي بلغها انهُ حدّثني بها . ثم ختمت خطابها بقولها لي اذا اردت ان تعطل نفسك فلا حيلة في هذا الامر . ولكن يجب ان تعلم يقينًا ان ذلك لا يمكن ان يجوز رضاي ولا رضا ابيك وانا لا اريد ان تكون لي مثل هذه اليد في تلفك ولا ان اجعل لك فرصةً لان تقول ان والدتي رضيت حال كون ابي لم يرضَ

ومع ان والدتي لم ترضَ ان تبلّغ ذلك الى والدي بلغني فيما بعد انها اخبرتهُ بكل ما جرى بيننا من الحديث . وان ابي اضطرب من ذلك جدًا وقال لها متنهدًا ان هذا الولد اذا بقي في البيت يكون مرتاحًا سعيدًا واما اذا سافر وتغرّب فانهُ يكون اشقى الاشقياء ومن ثم لا يمكنني ان اسمح لهُ بالسفر

ولم افلت الَّا بعد ذلك بسنةٍ من الزمان. وكنت في تلك المدة مصرًا بعناد على عدم قبول شيء من المصالح التي عُرِضت عليَّ. وكثيرًا ما كنت أُحدِث والديَّ في امر منعهما لي عما اميل اليهِ طبعًا . ثم في ذات يوم فيما كنت في هُول حيث كنت اذهب احيانًا ولم تكن لي عند ذلك نية على السفر اتفق اني صادفت هناك احد اصحابي على همة السفر الى لندن في مركب لابيهِ. فاخذ ذلك الصاحب يحسّن لي على عادة البحرية ان ارافقهُ في تلك السفرة بقولهِ ان ذلك لا يكلفني شيئًا. فاجبت الى مرغوبهِ وتوجهت معهُ من دون مشورة والديَّ ولا اخبارهما بذلك ولا طلب بركة الله ولا بركة والديَّ ومن دون اعتبار الظروف ولا العواقب بل فعلت ذلك في ساعة نحس كما يعلم الله

الفصل الثاني

سفر روبنصن كروزي الاول في البحر

في اليوم الاول من شهر ايلول سنة الف وستمائة وواحدى وخمسين طلعت على ظهر مركب متوجه الى لندن . ولاعلم بوجود مسافرٍ ابتدأت مصائبهِ ابكر من مصائبي ولادام نحسهُ اكثر من نحسي . وحالما اقلع ذلك المركب وخرج من المينا ابتدأت الرياح تهبُّ والامواج تتعالى على هيئة مخيفة جدًا . واذ كانت هذه السفرة اول اسفاري في البحر اصابني في جسدي مرض لا اقدر ان اصفهُ واعتراني خوف شديد . فأخذت حينئذٍ اتفكَّر في ما فعلتهُ واتأمَّل بحكم الله العادل الذي وقع عليَّ لاجل رداءتي في ترك بيت ابي وتصورت امام عيني جميع نصائح والديَّ الصالحة ودموع ابي وتوسلات امي . واذ كان ضميري لم يصل الى الدرجة القصوى من القساوة التي وصل اليها فيما بعد اخذ يوبخني بصرامة على ازدرائي بالنصائح وتركي لواجباتي

ثم أخذ النوُّ يتزايد شيئًا فشيئًا وجعل البحر الذي لم اركبهُ الاَّ هذه المرَّة يرتفع متعاليًا جدًّا ولكنهُ لم يصل الى الدرجة التي رأيتهُ فيها مرارًا فيما بعد ولا التي رايتهُ فيها بعد ذلك بايام قليلة . الاَّ انهُ كان مع ذلك كافيًا لان يخيف بحريًّا حديثًا نظيري لم يقع نظرهُ قط على مثل هذه المناظر . فكان يتراءى لي ان كل موجة هي هاجمة علينا لتبتلعنا وان كل مرة كان يسقط فيها المركب كما كنت اظن في جوف البحر لايعود ينهض بعدها ابدًا . واذ كنت في هذه الحالة المريعة نذرت نذورًا كثيرة عازمًا اني اذا وصلت سالمًا الى آخر السفر ويسَّر لي الله ان اضع قدمي على اليابسة اذهب حالاً الى بيت ابي تائبًا كالابن الضاطر ولا اعود اضع رجلي في مركب ما دمت حيًّا . واني اقبل نصيحة ابي ولا القي نفسي ابدًا في مهالك كهذه . وظهر الآن صدق كلام ابي عن المعيشة المتوسطة وتذكرت كيف انهُ صرف جميع ايامهِ بسهولة وراحة ولم يلقِ نفسهُ قط في خطر انواء البحر ولا متاعب البرّ

فهذه الافكار الحكيمة الرزينة كانت تتردد في عقلي اذ كان النوء هائجاً وبقيت مدة من الزمان بعدهُ . وفي ثاني ذلك اليوم سكنت الريح وهدأ البحر وعند ذلك ابتدأت تلك الافكار تفارقني . الاَّ اني صرفت ذلك النهار بالغم والعبوسة لما كان باقياً فيَّ من تأثيرات مرض البحر . ولما اقبل المساء راق الفلك وصار هدوءٌ عظيم وكان منظر الشمس صافياً جدًّا عند غروبها كما كان عند ما اشرقت في الغد . فكان منظر البحر عند هدوءِ والشمس مشرقة عليهِ احسن المناظر التي وقعت تحت نظري . وعند المساء صحوت من مرضي ونمت نوماً هادياً في الليل وكنت اشعر بفرحٍ لا يوصف وانظر الى البحر متعجباً كيف صار هادياً بهجاً بهذا المقدار بعد ذلك الهياج الهائل بمدة قصيرة

والآن فلكي لا اتعب على عزمي الصالح تقدَّم اليَّ ذلك الصاحب الشاب الذي اغراني الى هذه السفرة ولطم كتفي برفق وقال كيف انت الآن يا صاح . اظن انك خفت الليلة الماضية عند ما هب علينا ملء طربوش من الريح . أما انا مصيبٌ في ظني . فاجبته عجباً نسي ذلك ملء الطربوش والحال انه كان نوءًا عظيماً . قال انسي ذلك نوءًا يا مجنون . ان ذلك ليس شيئاً عند من كان في مركب جيد . انت بحري جديد يا صاحب ادنى شيء يزعجك . هلمَّ بنا نشرب قدح عرق فننسى كل ما حدث . انظر ما ابهج الهواء الآن . ولاجل الاختصار في هذا القسم المكدر من قصتي اقول اني اجبته الى مرغوبه وسلكت طريق سائر البحرية فشربت عرقاً حتى سكرت . فضيعت في شرّ تلك الليلة كل توبتي وجميع تأملاتي في سيرتي الماضية وكل عزمي بالنظر الى المستقبل . واقول بالاجمال كما ان البحر رجع الى حالة الهدو والسكون عند ما كف النوء كذلك رجعت رغبتي السابقة الى مجراها ونسيت كل النذور والمواعيد التي صدرت مني في وقت ضيقتي عند ما انتهت حركة افكاري السريعة وزالت من بالي المخاوف والاهوال التي اعترتني عند ما كان البحر هائجاً . زد على انهُ كان يخطر ببالي احياناً بعض الافكار وكانت افكار الرصانة والعقل تحاول اوقاتاً الرجوع الى رأسي الاَّ اني

كنت ادفعها بغرور كانها وساوس ابليس . واذ كنت اصرف وقتي في الشرب ومنادمة الاصحاب لم يمضِ الاّ القليل حتى كنت انسيَ تلك الافكار دوريّات وادفعها عني . وفي برهة خمسة او ستة ايام فزت بالظفر على الضمير وانتصرت عليهِ بقدر مرغوب خاطر شابٍ يطلب التخلص من رشقات سهامهِ الحادّة . ولكن قد حُفِظ لي تجربةٌ اخرى لاقناعي . فان الله عزّ وجلّ من عادتهِ في كل احوال ان لايدع للانسان عذراً يعتذر بهِ . واذ كنت لم احسب ما مضى نجاةً قصد بعنايتهِ الفائقة ان يوقعني في تجربة اخرى من شأن النجاة منها ان تحمل اردأ واقسى شقيٍّ في العالم على الاقرار معترفاً بخطرها وعظم الرحمة التي انقذتهُ منها

وفي اليوم السادس من ركوبنا البحر وصلنا الى مكانٍ يقال لهُ موالي يرموث وكان الهواء ضدنا والبحر هادئاً فلم نقطع الاّ مسافة قصيرة بعد ذلك النوّ حتى اضطرنا الامر الى ان نرسي فارسينا هناك وبقي الهواء ضدنا مدة سبعة او ثمانية ايام . وفيما كنا هناك قدمت مراكب كثيرة من نيوكستل الى ذلك الموضع الذي هو مينا لجميع المراكب تنتظر فيها الهواء لركوب نهر التيمس . وبعد ان اقمنا في تلك المينا مقدار خمسة او ستة ايام اشتدّت الريح جداً ولكن اذ كانت موالي يرموث محطّاً اميناً ومرساة مركبنا جيدة وشراعاتهُ وباقي ادواتهِ قوية كنت ترى بحريتنا يصرفون وقتهم بالراحة والحظ كعادة سائر البحرية ولا يبالون بشيء ولا يخافون خطراً

وفي اليوم الثامن صباحاً قويت الريح فأخذ البحريون ينشرون القلع العلوية ويجعلون ما كان في المركب مرتَّباً مشدوداً لكي يعبر بقدر ما يمكن من الخفة والسهولة . وعند الظهر هاج البحر وتعالت امواجهُ جدًا فاخذ مركبنا يمشي بموخرهِ الى قدام وبمقدمهِ الى الوراء ثم دخلتهُ مياهٌ كثيرة وظننا مرة ومرتين ان المرساة قد انقطعت . وكان النوء عظيماً حتى صرت ارى الخوف والارتباك في اوجه النوتية انفسهم . وكان الرئيس مجهداً في التدابير اللازمة لاجل وقاية

المركب . وفيما كان يدخل ويخرج مارًا بجانبي سمعتهُ مرارًا يتكلم بصوت منخفض قائلاً يا رب تحنن علينا . لقد اشرفنا جميعًا على الهلاك . وصرنا جميعًا الى حالة التلف وما اشبه ذلك . واما انا فكنت في ابتداء هذا الاضطراب في حالة الخمول مضطجعًا في مخدعي كميّت لا اتحرك . ولا اقدر ان اصف كيف كانت حالتي في ذلك الوقت . ولم اقدر ان اجدد توبتي الماضية التي كنت قد رفستها برجلي وطردتها مقسيًا قلبي عليها . وكنت احسب ان مرارة الموت قد مضت وان هذا كالاول لا يكون شيئًا . ولكن عند ما سمعت ما سمعتهُ من الرئيس نفسهِ كما تقدم اعتراني خوف شديد . ثم خرجت من مخدعي ونظرت الى الخارج فكان المنظر كئيبًا جدًا لم أرَ مثلهُ قط . فان امواج البحر كانت كأنها جبال فوقنا تقع في كل ثلاث او اربع دقائق منفجرة متكسرة علينا . وكنت ارى الضيقة حولنا من كل جهة . ثم رأيت مركبين بالقرب منا مشحونين وسقًا قد نُشِرَت سواريها وقُطِعت من اصلها . وسمعت بحريتنا يصرخون قائلين ان مركبًا قدامنا على مسافة ميل منا قد امتلأ ماء ونزل الى قعر البحر . وكان مركبان آخران تائهين في البحر من دون سواري . ومع ان المراكب الخفيفة الوسق كانت في حالة احسن من البقية قد ضيّع اثنان منها او ثلاثة ومرّا بالقرب منا تائهين بقلع واحد امام العاصف . وعند المساء تقدم ثاني الرئيس والناظر الى الرئيس وطالبا منهُ ان يأذن لهما بقطع ساري المقدم فأبى فالحّ عليهِ الناظر بعبارات قوية قائلاً اذا لم نفعل ذلك يمتلئ المركب ماء ويغرق الى قاع البحر فارتضى اخيرًا . فلما قطعوا ساري المقدّم ارتخى ساري الوسط فكان يتحرك ويحرّك المركب بعنف شديد فالتزموا ان يقطعوهُ ثم قطعوا ساري المؤخّر فصار مركبنا قطعًا بلا سواري

ولا يخفى ماذا كانت حالتي في وسط تلك الاهوال التي لم يمرّ نظيرها برأسي . وبقدر ما يمكنني ان اتذكر كان اضطرابي وقلقي من جرى اقناعاتي الماضية ورجوعي عنها الى عزمي الاول الردي اكثر جدا مما كانا من الموت نفسهِ .

وهذا الاضطراب والقلق واهوال النوّ اوقعتني في حالة لا أجد كلامًا لوصفها . ومع هذا كنا الى ذلك الوقت لم نصل الى الارض لان النوّ كان لم يزل في ازدياد حتى ان البحرية انفسهم اقرُّوا بانهم لم يروا قط اردأ منه. وان مركبنا كان قويًا جدًا الآن وسنه كان كبيرًا فكان اكثره غائصًا في الماء حتى ان البحرية كانوا يصرخون المرة الاخرى قائلين انه ممتلئٌ ماء . ولاجل شدة النوّ وعظمه رأيت في المركب منظرًا لا يُرى مرارًا كثيرة وهو ان الرئيس والناظر واخرين معها اكثر انتباهًا مني طفقوا يصلّون وكانوا ينتظرون في كل دقيقة نزول المركب بهم الى قاع البحر . وعند انتصاف الليل فيما نزل واحد الى قعر المركب لينظر اذا به ينادي قائلاً المياه دخلت المركب ثم نادى آخر قائلاً انه يوجد نحو قامة ماء هناك . وعند ذلك ابتدأ الجميع يشغلون المضخات . واما انا فحالما طرقت هذه الكلمات اذني ظننت ان قلبي جمد داخلي فانطرحت الى الوراء بجانب مضجعي مغشيًا عليّ . فاتى واحد من البحرية ونبهني قائلاً قم ساعدنا فانك قبلاً ما كنت قادرًا على عمل شيء واما الآن فانك قادر على تشغيل المضخة كالبقية . فقمت للوقت وتوجهت اليها وكنت اشتغل من كل قلبي . وفيما كنت في هذه الحالة اذا بمراكب الفحم قد اشرفت علينا من بعيد ولم تكن تشاء ان تدنو منا . فامر الرئيس باطلاق مدفع الضيقة واذ لم اكن اعلم معنى ذلك خفت جدًا وظننت ان المركب قد انشقَّ شطرين او حدث امر مهول فأُغمي عليّ لشدة الخوف . واذ كان كل واحد مهتمًا في حياته لم يكن احد يلتفت اليّ ولا يسأل عمّا اصابني . غير انه اتى رجل الى موضعي على المضخة ورفسني برجله جانبًا ظنًّا منه باني ميت فبقيت مدة طويلة قبل ان استفقت من هذه الحالة .

ولم تزل المياه تزيد في جوف المركب حتى ايقنا بانه يغرق لا محالة . ومع ان النوّ كان قد ابتدأ يخف شيئًا فشيئًا كان المركب قد وصل الى حالة التلف حتى يئس الرئيس من نجاته واخذ يطلق على التوالي مدافع الضيقة طلبًا للاغاثة .

واتفق ان مركبًا صغيرًا خفيفًا كان قد سبقنا فارسل رئيسهُ قاربًا من قواربهِ لاجل انقاذنا . ولم يصل ذلك القارب الى مقابلنا الاَّ بعد مكابدة اتعاب واخطار عظيمة . فافرغ بحريتهُ جهدهم وخاطروا بأنفسهم لكي يخلصونا ومع ذلك لم نستطع النزول اليهِ لبعدهِ عن جانب المركب . واخيرًا ربط البحرية قطعة خشب الى رأس حبل طويل ورموهُ الى بحرية ذلك القارب وبعد تعب جزيل امسكوا طرفهُ فجذبناهم بالطرف الآخر الى القرب من مقدم المركب ونزلنا جميعًا الى القارب . واذ لم يكن لنا ولا لهم امل بالوصول الى مركبهم اطبق رأي الجميع على اطلاق عنان القارب بعد تحويلهِ نحو البرّ وتركهِ للقوة الدافعة والجاذفة بقدر الامكان وان رئيسنا ضمن لهم غائلة تشحيطهِ الى البرّ وقبل دركَ ذلك على نفسهِ . وهكذا بواسطة دفع البحر وجذف المجاذيف كان القارب يسير بنا قاصدًا البرّ الى ان وصلنا الى جوار ونترطون

واما ما كان من امر مركبنا فانهُ بعد خروجنا منهُ بربع ساعة تقريبًا رأيناهُ يغرق الى جوف البحر . واقرُّ بانهُ عند ما قال لي النوتية ها المركب قد ابتدأ يغرق كدت لا اجسر ان ارفع نظري لاراهُ . لان البحرية من تلك الدقيقة وضعوني في القارب ولا يحق لي ان اقول اني انا نزلت اليهِ وكان قلبي كأنهُ ميت داخلي وذلك من شدة الخوف واضطراب العقل والنظر الى ما كان مزمعًا ان يصادفني

وفيما نحن في هذه الحالة المكربة والبحرية يحاولون بكل جهدهم ان يدنوا بالقارب من البرّ الذي كانوا يطلّون عليهِ كلما ركبوا ظهر موجة رأينا جمعًا غفيرًا من الناس يركضون على الشاطىء لاستقبالنا ومساعدتنا في الخروج الى البرّ . ولكن تقدّمنا نحو الشاطىء كان بطيئًا ولم يتيسَّر لنا الوصول الى حدودهِ الاَّ بعد ان تجاوزنا منارة المركب في ونترطون واشرفنا على كرومر . وبعد مقاساة صعوبات واتعاب كثيرة خرجنا من هناك الى البرّ بالسلامة واخذنا نعدو حتى وصلنا الى برموث . فاحسن حاكم برموث ومن بها من التجار

واصحاب المراكب لقاءنا واجادوا مثوانا ثم اعطونا دراهم للتوجه الى لندن او الرجوع الى هُول تاركين ذلك لارادتنا . فلو كنت صاحب عقل لرجعت الى هول وذهبت الى بيت ابي كالابن الشاطر وكان ابي قبلني بكل سرور وذبح لي العجل المعلوف لانه اذا بلغه ان المركب الذي سافرت فيهِ قد غرق في موالي برموث فكيف يكون حاله اذ كانت اخبار سلامتي من الغرق فيهِ لا يمكن ان تصل اليهِ الاّ بعد ذلك بزمان طويل

وان سوء حظي كان يسوقني بعناد شديد وقوة لا تُدفَع . ومع اني عند مراجعة المادة في فكري كنت استصوب الرجوع الاّ انني كنت اشعر في الوقت ذاتهِ انهُ لا قوة لي على ذلك . ولا اعلم ماذا أُسمي هذا الحال . ولا اريد ان اقطع جازمًا بوجود قضاء سريّ شديد البأس يسوقنا جبرًا الى ما من شأنهِ ان يسبب هلاكنا مما يكون تحت ادراكنا ونظرنا فنقتحمهُ مع اطلاعنا على رداءتهِ . ولا شك بانهُ لم يكن ممكنًا لشيء غير شقاوة مثل هذه قد قُضي بها قضاء لا يُدفَع ولم يكن سبيل لي الى النجاة منها ان يسوقني الى هذه الورطات ضد تنبيهات عقلي الرائق وحجج ضميري المنفرد ومع وجود ما قد صادفني في اول سفري من العبر الواضحة لديّ

وان رفيقي الذي مدّ يدهُ قبلاً لمساعدتي في الشقاوة وهو ابن صاحب ذلك المركب كما علمت كان الآن اقلّ مني نجحًا . وهذه اول مرّة كلمني بها بعد سفرنا من برموث بعد ذلك بيومين او ثلاثة ايام . لاننا كنا قد تفرقنا في البلدة ونزلنا في حارات مختلفة . فلمَّا قابلتهُ رأيت ان غمّهُ قد تغيرت ومنظرهُ صار كئيبًا ووجههُ مقطبًا . ولدى المواجهة هزّ برأسهِ ذات اليمين وذات اليسار وسألني قائلاً كيف انت الآن . وعرّفني بأبيهِ واخبر اباهُ بان هذه السفرة هي اول سفراتي وذلك على سبيل التجربة والامتحان وان قصدي السفر الى اماكن ابعد . فالتفت ابوهُ اليّ وقال لي بصوت الشهامة والجدّ يا فتى ارى لك ان لا تسافر ابدًا في البحر بل ينبغي لك ان تتخذ هذه المصيبة دليلاً واضحًا

محسوساً على انك لست من رجال البحر . فاجبتهُ ولماذا يا مولاي . وانت ايضاً
اما تذهب الى البحر . فقال هذه مسئلة أُخرى . ان ركوب البحار هو مصلحتي
فاذاً هو من واجباتي . واما انت فها قد سافرت هذه المرة على سبيل التجربة
ورأيت ما اذاقك الله اياهُ من مرارة المصائب التي لا بد من ان تدركك اذا
بقيت مصرًا على عزمك . وربما كان اصابنا ما اصابنا بسببك كما اصاب تلك
السفينة المتوجهة الى ترسيس بسبب يونان . فاسأَلك ان تقول لي ما شأْنك
وما حملك على ركوب البحر . فاخبرتهُ بشيءٍ من قصتي وشأْني وللحال استشاط
غضباً وقال ما هي خطيتي حتى دخل هذا الشقي المنكود الحظ مركبي . ثم التفت
اليَّ وقال بغيظٍ انني لا اريد ان اضع قدمي على قدمك في مركب تركبهُ ولو
دُفع لي الف ليرا . فقلت في نفسي لعل ما حملهُ على هذه المطاولة المتجاوزة الحدَّ
ما لم يزل بقلبهِ من النكد والغم بسبب خسارتهِ . ولكن لم يمضِ الاَّ لحظة من
الزمان حتى استفاق من طياشتهِ واخذ يكلمني برصانة وهدوّ وينذرني بالرجوع
الى بيت ابي وان لا اجرّب الله لتلفي . وقال انهُ يمكنني ان انظر كيف يد الله هي
ضدي ثم اردف ذلك بقولهِ اعلم يقيناً يا فتى انك اذا لم ترجع فاينما توجهت
لا تصادف الاَّ المصائب وخيبة الآمال فتتم فيك كلمات ابيك التي انذرك بها

واذ كنت لم اجاوبهُ الاَّ قليلاً انصرف وانصرفت ولم اعد اراهُ ولا علمت
الى اين توجه . وكان في جيبي بعض دريهمات فاستخدمتها في السفر الى لندن برًّا
وفيما انا هناك وفي الطريق كنت في حيرة وارتباك عظيم لا اعلم ماذا اعمل
وكنت متردداً بين الرجوع الى البيت وركوب البحر وكان الخجل والعار
يقاومان كل حركة تدفعني الرجوع الى البيت . فكنت كلما خطر ببالي امر
الرجوع اتصور امامي العار وما سيعتريني من الخجل عند مقابلة ابي وامي او
احد معارفي وابناء بلدي . ومن هنا تبيَّن لي فيما بعد عظم جهل وحماقة طبيعة
الجنس البشري ولاسيما الشبان بالنظر الى العقل الذي ينبغي ان يكون مرشداً
اياهم في مثل هذه الاحوال . اعني كيف لا يخجلون من ان يخطئوا ولكنهم يخجلون

من ان يتوبوا وكيف لا يستحيون من الافعال التي يجب بعدل ان يحسبهم الناس حمقاء بسببها ولكنهم يستحيون من الرجوع الذي هو الواسطة الوحيدة لهم لاكتساب الاعتبار في اعين الآخرين

فبقيت مدة من الزمان في هذه الحالة المكربة . لا اعلم ماذا اعمل ولا كيف يجب ان اصرف حياتي في هذا العالم . وكنت لم ازل مصرًّا بعناد على كراهة الرجوع الى البيت . ولم يمضِ الاَّ القليل حتى نسيت الضيقة التي اصابتني وبذلك زالت تلك الرغبة الزهيدة التي كانت تحركني الى الرجوع فاخذت اهتم ثانيةً في امر السفر . وذلك المخص الشرير الذي حملني اولاً على مبارحة بيت ابي وساقني الى ذلك التهيل الحيواني بان اوسع دائرة اشغالي وسعادتي ورسم في نفسي ذلك الغرور الاحمق رسمًا لا يُمحى حتى صرت اصمَّ لا اقبل شيئًا من النصائح الصالحة ولا ابالي بتوسلات ابي ولا باوامره ونواهيهِ نعم ذلك المخص مهما كان هو الذي شخص امام عقلي اتعس الاشغال . وهكذا دخلت مركبًا قد وجّه مقدمهُ نحو شطوط افريقية او على قول البحرية سفرةً الى غوينيا

ثم لسوء حظي لم ادخل في جميع هذه الاسفار في سلك البحرية لاني لو فعلت ذلك كنت تعلمت اشغال البحر وربما ترقيت الى رتبة ثاني رئيس ان لم اصر رئيسًا وان يكن ذلك يكلفني اتعابًا اكثر من العادة بقليل . ولكن كما كانت عادتي ودأبي ان اختار الارداً هكذا فعلت الآن . واذ كان عندي دراهم في جيبي وثياب على بدني كنت اسافر دائمًا بزي خواجه . وهكذا لم اكن اعمل شيئًا من الاعمال في المركب ولا تعلمت عمل شيء . وكان لي حظ في اول امري ان اعاشر قومًا من ذوي الاعتبار في لندن وذلك يندر حصوله لمن كان شابًا ذا خلاعة وطياشة نظيري . فابليس من عادتهِ ان لا يغفل عن ان يلقي في طريق من كانوا كذلك فخاخًا يصطادهم بها في صغر سنهم . واما انا فلم يكن حالي على هذه الصفة . فاني اولاً تعرفت برئيس كان قد سافر الى شطوط غوينيا ولما صادفهُ هناك من التوفيق والنجاح كان عازمًا على التوجه

الى تلك الاطراف مرة اخرى . واذ اعجبه كلامي الذي لم يكن في ذلك الوقت غير مقبول وسمعني اتكلم عن ميلي الى التفرج على العالم قال لي اذا شئت ان ترافقني فاني لا ادعك تتكلف شيئاً من المصاريف بل اتخذك كعشير وجليس واذا اردت ان تأخذ معك بعض اشياء فاذا ربحت بها فيكون كل ربحها لك وربما تصادف هناك ما يعجبك ويقوي عزمك وآمالك . فشكرته على معروفه وعزمت على التوجه معهُ . وصارت بيننا صداقة قوية خالصة . وكان رجلاً اميناً لين الجانب هيّن المعاطاة . فاشتريت بعض امتعة قليلة الثمن كثيرة العدد وذهبت بها مع صديقي المذكور الى شطوط غوينيا وبواسطة همته وامانته بعتها وربحت بها ربحاً جزيلاً . وكان راس مالي اربعين ليرا كنت قد حصّلتها بواسطة من كنت اكاتبهم من اقربائي واظن انهم جعلوا ابي او اقله امي تدفع ذلك مساعدة لي في اول اسفاري . فهذا اول سفر يمكنني القول بحق اني توفقت فيه وما ذلك الاّ بموازرة صديقي الامين الصادق الرئيس المذكور الذي لا انسى معروفهُ نحوي ما دمت حياً . وفضلاً عن ذلك قد علّمني المساحة واصول سفر البحر ومسك حساب سير المراكب والرصد وبالاختصار اكتسبت منهُ اموراً كثيرة مما يفيد كثيراً البحريّ معرفتهُ . وكما كان يلتذ بتعليمي كنت انا التذ بالتعلم منهُ وبالاجمال صرت بهذه السفرة بحريّاً وتاجراً معاً . ورجعت منها ومعي من التبر الخالص كمية وافرة بعتها بعد رجوعي الى لندن بنحو ثلثمائة ليرا . وبسبب هذا التوفيق امتلأ رأسي من تصوُّرات التقدم وتعاطي الاسباب الاّ ان ذلك صار اخيراً واسطة لتلفي . هذا على ان هذه السفرة ايضاً لم تخلُ من مصائب اكتنفتني فاني كنت دائماً منحرف المزاج واصابتني حمّى محرقة ردية حصلت لي من شدة الحرّ هناك . وكان اكثر تجارتنا في السواحل والشطوط من طول خمس عشرة درجة شمالاً الى الخط نفسهِ

الفصل الثالث

في اسر روبنصن كروزي في سلّي

فصرت الآن تاجراً غوينوياً ولكن لعظم سوء حظي توفي الرئيس صديقي بعد رجوعنا بقليل فعزمت على السفر ثانية الى هناك فنزلت في نفس المركب وكان ثاني الرئيس في السفرة الاولى قد صار الآن رئيساً له بعد وفاة رئيسه المذكور وكان هذا السفر من انحس الاسفار التي مرّت برأس انسان. الاّ اني لم آخذ معي كل ثروتي الجديدة بل اخذت نحو مئة ليرا فقط وودعت المئتين الباقيتين عند ارملة صديقي المرحوم وهي ايضاً كانت تريد خيري وصالحي كزوجها. فالمصائب التي حلّت بي هذه المرّة هي عظيمة ومحزنة جداً. فاول مصيبة اصابتني هي انه فيما كان مركبنا سائراً نحو جزائر كناريا او بالحري بين الجزائر المذكورة وشطوط افريقية فاذ تبلج الفجر اقبل علينا طائف اي مركب فيه قرصان اي لصوص بحر من اهالي سلّي كان قد وضع ما امكنه وضعه من القلوع وجعل يجدّ في طلبنا مطارداً مركبنا. وللوقت نشرنا نحن ما عندنا من القلوع واطلقنا عنان المركب طالبين الفرار والنجاة. ولكن لما رأينا ذلك يسرع اكثر من مركبنا وتحققنا انه بعد ساعات قليلة سيدركنا اخذنا نتأهب للقتال والمدافعة والنضال. وكان محمول مركبنا اثني عشر مدفعاً ومحمول مركب القرصان ثمانية عشر مدفعاً. وبعد الظهر بنحو ثلث ساعة ادركنا العدوّ فاطلقنا عليه ثمانية مدافع واطلق هو علينا المدافع ثم ارتد قليلاً الى الوراء واطلق علينا الرصاص وكان فيه نحو مئتي رجل ولكن لم يصب احداً منا اذى. ثم حمل علينا حملة اخرى وبينما نحن نحمل عليه ولكنه وثب ثائراً على مركبنا من الجانب الذي كان خالياً من المدافع وقبّته مستأسراً اياه ثم ادخل اليه ستين

رجلاً من رجاله فاخذوا في الحال يقطعون في القلوع ويحلون الشراعات . فالعبنا فيهم الرصاص والبارود وكرَّرنا عليهم كرَّة الاسود وطردناهم مرتين عن ظهر المركب. وبالاختصار نقول انهُ اذا كان مركبنا قد تعطل وقُتل ثلاثة من بحريتنا وجُرِح منهم ثمانية وجدنا ان التسليم اسلم فسلمنا وهكذا أُخذنا جميعاً اسرى الى سلي وهي ميناء مشهورة في بلاد المغاربة

وقد عاملوني هناك باقلّ رداءة مما كنت احسب ولم يأخذوني الى داخلية البلاد الى بلاط الملك كما فعلوا بباقي بحريتنا بل ابقاني رئيس ذلك الطائف عنده . واذا رآني حَدَث السن خفيف الحركة ولائقاً بخدمته ادخلني في سلك العبيد . فعظم الخطب عليَّ جداً عند تحوُّل حالي من تاجر معتبر الى عبد دني. وصرت اتذكر خطاب ابي النبوي وقوله لي اني اكون تعيساً ولا يكون من يفرج عني . وحكمت ان تلك المصيبة ما هي الا تتميم لتلك النبوة وانهُ لا يمكنني ان اقع في حالة اردأ من تلك الحالة وان يد الله قد وقعت عليَّ فصرت الى العدم من دون منقذ . ولكن وا اسفاهُ لم يكن ذلك الا مقدمة لما كان مزمعاً ان يمرَّ برأسي من النكبات والمصائب كما سيظهر لمن وقف على ما يأتي من قصتي

فاخذني مولاي الجديد معهُ الى بيتهِ فانفتح لي باب الامل بانهُ متى سافر الى البحر يأخذني ايضاً معهُ . وانهُ اذا دارت الدائرة عليهِ في دوره واتفق ان احد مراكب اسبانيا او البرتوغال الحربية يستأسره أُعتَق انا بهذه الواسطة من عبوديتهِ . ولكن لم يَمضِ الا القليل حتى خاب هذا الامل وذلك عندما رأيتهُ قد سافر في البحر وخلَّفني في البيت لاجل تدبير الجنينة والقيام بخدمة بيتهِ كاحد العبيد . ثم لما رجع من السفر امرني ان انام في المركب واحرسهُ

وفيما كنت عند مولاي المذكور لم يكن شيء يهمني الا نجاتي وطريقة توصلني الى هذا المرغوب الا انني لم اجد طريقة فيها ادنى باب للرجاء حتى ان فرض ذلك كان عندي ضرباً من المحال اذ لم يكن لي رفيق اثق بهِ ولا

شريك في الاسر لا انكليزي ولا ايرلاندي ولا اسكوتلاندي بل كنت وحدي. وبقيت سنتين اعلّل نفسي بتصورات فارغة لم يكن ادنى باب للامل بنجازها وتميمها فعلاً

ثم بعد مضي نحو سنتين حدث امرٌ غير مألوفٍ ردّ الى رأسي فكر الاجتهاد في الحصول على حريتي . فان مولاي اقام في البيت اكثر من العادة من دون ان يعدّ مركبة للسفر وذلك لعدم وجود نقود بيده كما بلغني. وكانت له عادة اذا كان الهواء معتدلاً ان يأخذ قارب المركب ويتوجه كل سنة مرة او مرتين واحيانًا اكثر لاجل الصيد. واذ كان ياخذني دائمًا معهُ وياخذ ايضًا فتى اسمهُ فوريسكو كنا نجتهد في حظه. وصرت انا ماهرًا جدًا في صيد السمك حتى انه كان يرسلني احيانًا مع مغربيهٍ من بني عمهِ والفتى فوريسكو لنصيد له قدرًا من السمك

وفيما كنا ذات يوم ذي صباح جميل ذاهبين في طلب الصيد اذا ضبابة كثيفة جدًا قد طلعت علينا حتى لم نعد نرى البر مع انا لم نكن عنهُ على اكثر من نصف فرسخ . فكنا نشغل المجاذيف ونجري ولكن لا نعلم الى اين ولا في اي طريق . فصرفنا ذلك النهار كلهُ والليل بعدهُ على هذه الحالة المتعبة المرتبكة حتى اقبل الصباح واذا بنا قد توغلنا في البحر عوض ان نقرب من البرّ وصرنا بعيدين مقدار فرسخين عن الشاطىء. ثم بعد مقاساة اتعاب جزيلة وتطويح انفسنا في اخطار قوية ابتدأت ريح الشمال تهب عند الصباح وكانت تسوقنا حتى وصلنا الى مرسى مرسانا وقد خارت قوانا وقوى مولانا ايضًا من جهة الجوع

ثم ان هذه الحادثة جعلت مولانا يعزم على زيادة الاهتمام بنفسهِ. وكان لم يزل عندهُ القارب الطويل الذي كان لمركبنا الانكليزي الذي استأسرهُ كما ذكرنا آنفًا فعزم على انه لا يسافر ايضًا من دون حُكٍّ وزادٍ . فأمر نجار المركب وكان اسيرًا من الانكليز ان يبني قمرة على ظهر ذلك القارب تاركًا

وراءها فسحة لاجل تشغيل المجاذيف ورفع القلع الاكبر وفسحة قدامها كافية لان يقف فيها رجل او رجلان لاجل تشغيل القلوع. ففعل النجار كما امر مولاهُ . فكان ذلك القارب سريع الجري فيهِ مكان يسع مولاي مع واحد او اثنين من عبيدهِ ومائدة يتناول عليها طعامهُ وصندوقة صغيرة يضع فيها قناني مشروباتهِ مع الخبز والرزّ والقهوة وسمّاهُ بالكوثر وهو اسم نهر في الجنة تيمّناً وتبرّكاً

وقد ذهبنا مراراً كثيرة في ذلك الكوثر لاجل الصيد واذ كنت ماهراً في صيد السمك لم يكن مولاي يذهب من دون ان يأخذني معهُ . ثم اتفق ان مولاي عزم ذات يوم على الخروج في الكوثر طلباً للتنزه او الصيد برفقة اثنين او ثلثة من اصحابهِ المعتبرين في ذلك الموضع . فاستعد لهم اكثر من العادة وارسل الى المركب ليلاً مأكولات كثيرة وامرني ان اهيئ ثلاث بواريد وباروداً وخردقاً مما يوجد في المركب قائلاً ان مرادهُ صيد السمك وقنص الطيور ايضاً

فهيأت كل شيء طبق امرهِ وفي اليوم القادم غسلت الكوثر جيداً ورتبتهُ لاستقبال الضيوف واقمت بهِ صباحاً انتظر قدومهم واذا بمولاي قادم بعد قليل وحدهُ فقال لي ان الضيوف عرض لهم شغل فعدلوا عن الحضور . وامرني ان اخرج انا ومغربيٌ وغلام من اتباعهِ في الكوثر كجاري العادة ونصيد لهم سمكاً. وقال لي اسرع في الاتيان بالسمك الى البيت . وذلك لان اصحابهُ كانوا مزمعين ان يتعشوا عندهُ . فاجبتهُ حبًّا وطاعةً . وفي تلك الدقيقة اخذت افكاري القديمة تتاتيني في امر النجاة . لانني رأيت الآن ان مركباً صغيراً تحت امري ومطلق تصرفي . وحالما انصرف مولاي اخذت اتأهب ولكن لا للصيد بل للسفر ولم اكن اعلم ولا جال في خاطري من اين ولا اين اتوجه . ولكن اي طريق يخلصني من ذلك الموضع وتلك العبودية فذلك هو طريقي

واول حيلة استنبطتها هو اني قلت للمغربي جهز ما يلزمنا من المؤونات

والزاد اذ لا يجوز لنا ان نأكل من خبز مولانا . فقال صحيح ذلك . ثم اتى بسلٍ كبير مملوٍ كعكاً وبقصمات من الدون وثلاث جرار مملوءة ماء عذباً . واما انا فاذ كنت عارفاً بالموضع الذي كان فيهِ الصندوق والمتضمن قناني الشراب خاصة مولاي ففيما كان المغربيُّ على البرّ نقلتهُ مع السل الى الكوثر بقصد ايهامهِ بانهما كانا هناك قبلاً تحت طلب مولانا . وكان ذلك الصندوق قد غُصِب من قوم انكليز كما يظهر من نقانة شغلهِ . ونقلت ايضاً قطعة كبيرة من شمع العسل وربطةً من الخيطان وفأساً ومنشاراً وقدوماً . وجميع ذلك نفعنا جدًّا فيما بعد وعلى الخصوص الشمع لاجل الضوء . ثم احتلت حيلة اخرى على ذلك المغربي وكان اسمهُ اسمعيل ولكنهم كانوا يدعونهُ مولى فقلت يا مولى لا يخفى عليك ان بوارود مولانا هي في الكوثر اما يمكنك ان تحضر لنا قليلاً من البارود والخردق لعلنا نقتنص لانفسنا بعض طيور نأكلها فقبل هذه الحيلة ببساطة وخلوص نية وقال بلى . ثم ذهب وحضر جراباً كبيراً فيهِ نحو اقتين من البارود وكيساً فيهِ نحو ست اقق من الخردق مع قليل من الرصاص ووضع جميع ذلك في الكوثر . وكذلك انا وجدت شيئاً من البارود خاصة مولانا في القمرة الكبيرة فملأت منهُ قنينة اخرى . فلما انتهينا من التجهيز وصار عندنا كل ما يلزمنا اقلعنا من المينا في طلب الصيد . واذ كان من في القلعة التي في مدخل المينا يعرفون من نحن لم يعارضونا ولا سألونا . وما ابعدنا اكثر من ميلين عن المينا حتى طوينا قلعنا وجلسنا نصيد . وكانت الريح من الشمال الشرقي وذلك ضد مرغوبي . ولو كانت من جهة الجنوب لكنت وصلت لا محالة الى حدود اسبانيا وفي آخر الامر الى لسان قادس . الا انني شمّرت عن ساعد العزم لمبارحة ذلك الموضع الردي والحصول على حريتي كيفما مالت الريح وتركت ما بقي للقدَر والاقدار

فصرفنا مدة في الصيد ولكن لم نصد شيئاً وكنت اذا طلع سمك على صنارتي لا انزعهُ بل اردهُ الى الماء خوفاً من ان يراه المغربي . وعند ذلك قلت

المغربي لا فائدة لنا من ذلك ولا يمكننا ان نرضي مولانا بهذا العمل دعنا نتقدم ايضاً متوغلين في البحر فقال لا بأس على ما ارى افعل مما بدا لك . واذ كان جالساً عند مقدم الكوثر قام على الفور ونشر القلع وامسكت انا الدفة واخذنا نجري حتى ابعدنا مسافة ثلاثة اميال عن ذلك الموضع . ثم التفتُ ذات اليمين وذات اليسار وقمت كأني اريد ان اصيد وسلمت الدفة للولد ووثبت على المغربي وثبة الاسد وامسكتهُ بغتةً من وسطهِ وقذفته من المقدم الى لجة البحر . ولكن لم يمضِ الا كلمحة بصر حتى طفا حالاً سابحاً على وجه المياه لانهُ كان اسبح من بطة . فناداني طالباً الطلوع الى الكوثر وواعداً بانهُ العالم باسرهِ معي اذا اردت . واخذ يسبح بعزم وسرعة وراء الكوثر واذ كانت الريح خفيفة جداً ورأيت انهُ لا يمضي الا قليل حتى يدركنا دخلت القمرة وخرجت وبيدي بارودة فادرتها نحوهُ وقلت لهُ يا مولى اني لم اضرك قط بشيء ولا اضرك الآن اذا رجعت عما انت قاصدهُ فان البحر هادىء والبرّ غير بعيد فانت قادر ان تصل بسهولة سابحاً الى هناك . ولكن اذا اصررت على عزمك ودنوت من الكوثر فاني اطلق عليك هذه البارودة واردبك ميتاً لاني انا طالب الفوز بحريتي . ولوقتهِ دار بوجههِ راجعاً واخذ يسبح طالباً البرّ . ولستُ اشكُّ بانهُ وصل بسهولةٍ وسلامةٍ لانهُ كان سبّاحاً ماهراً

وكان يكفيني ان اغرّق الولد وآخذ ذلك المغربي معي ولكن لم تكن لي جراءة على ابقاء المغربيّ لعدم ركوني بهِ . ثم عند انصراف المغربيّ التفتُّ الى الولد وكان اسمهُ كسار فقلت يا كسار اذا كنت اميناً لي وصادقاً في خدمتي فاني اصيّرك رجلاً كبيراً . ولكن اذا لم تحلف لي بقاعدة دينك انك تكون اميناً لي ولا تخونني ابداً يضطرني الامر الى ان اقذفك انت ايضاً الى لجج البحر . فنظر الولد كسار اليّ متبسماً وكلمني ببساطة ضمير ونقاوة قلب زاد ركوني بهِ بحيث لم يبقَ لي سبيل الى اساءة الظن فيهِ ثم حلف لي بانهُ يكون اميناً صادقاً ويرافقني اينما توجهتُ فوثقت بهِ موكلاً اليهِ

• واذ كنت لا ازال ارى المغربي وهو يسبح وجهت مقدم الكوثر نحو البحر ضد الريح مبلطاً لاوهم الناس اني ذاهب الى فم الخليج لان من كان يظن اننا سائرون الى جهة الجنوب الى شطوط بلاد البرابرة حقاً حيث نوقع نفسنا في خطر من ان يحيط بنا قبائل كبيرة من السودان بقواربهم الصغيرة واطوافهم ويهلكونا واذا خرجنا الى البرّ نعرض انفسنا للوحوش الضارية فتفترسنا او لقوم برابرة من بني البشر هم اشدّ شراسةً من الوحوش نفسها فيهينوننا . ولكن لما اقبل المساء وخيّم الظلام غيّرت طريقي وحوّلت مقدم الكوثر نحو الجنوب الشرقي مائلاً قليلاً نحو الشرق لكي اكون دائماً قريباً من البرّ ومواجهاً له . واذ كانت الريح قوية والبحر هادئاً رائقاً كنت اسير بسرعة اظن اني في اليوم القادم عند العصر حين قربت من البرّ لم اكن بعيداً عن جنوبي سلي اقل من مائة وخمسين ميلاً . وذلك على بعد شاسع عن ممالك ملك مراكش وعن كل ملك غيره في تلك الاطراف . لاننا لم نكن نرى احداً هناك

ثم لشدّة ما اعتراني من الاهوال عند المغاربة والخوف من ان اقع ثانيةً بين ايديهم لم اكفّ عن المسير ولا خرجت الى البرّ ولا عرّجت الى ميناء . فسافرت على هذه الحالة والريح معي مدة خمسة ايام . ولكن بعد ذلك تغيّرت الريح وصارت تهبّ من الجنوب مضادة لي . واذ كان ذلك ما قوّى املي بتوقف ما ربما يكون ساعياً في طلبي من المراكب لاستنشاري اشتدّ عزمي وتقدمت الى البرّ حتى اقبلت على ميناً صغيرة على مصبّ نهر صغير . ولم اكن اعلم ماذا ولا اين ولاي طول ولاية بلاد ولا اي شعب ولا اي نهر . ولم أرَ ولا كانت لي رغبة في ان ارى انساناً او جماعة اناسٍ . بل كنت اطلب على الاكثر الماء العذب لشدة الاحتياج اليه . وكان وصولنا الى فم ذلك النهر . عند المساء . فنوينا ان نطلع الى البر سابحين حالما يخيّم الظلام وكنا نسمع اصواتاً هائلة وصراخاً رائماً وزئير اسودٍ ووحوش برية من اجناس مختلفة . واما الولد كسار فانه عند ما سمع تلك الاصوات المختلطة الهائلة كاد

ءوت من شدة الخوف وطلب اليّ بالحاجة ان لا انزل الى البرّ الاّ بعد طلوع الفجر . فاجبته الى ذلك وقلت له ولكن ربما رأينا في النهار اناساً اشدّ شراسةً واذى من هذه الوحوش الضارية . فضحك منها وقال انا نرميهم بالرصاص فيهربون منا . فسررت برأيته فيه من شدة البأس والحماسة وطلاقة الوجه والبشاشة فسقيته قليلاً من الشراب مما في الصندوق الذي كان لمولانا لافرح قلبه واطربه وقبلت رأيه لاني استصوبته . فارسينا هناك وصرفنا ليلتنا تلك في الكوثر واحييناها بالهدوّ والقلق والسكينة والارق . ولم يمضِ الاّ ساعتان او ثلاث ساعات حتى رأينا خلائق كثيرة هائلة من اجناس مختلفة لم نعلم ماذا نسميها قد نزلت الى الماء واخذت تسبح متمرغةً لتبريد ابدانها وكانت تعج عجيجاً هائلاً رائعاً لم يطارق قط اذني نظيرهُ في حياتي

وان كماراً لما سمع تلك الاصوات الرائعة خاف خوفاً شديداً وخفت انا ايضاً . وزاد خوفنا حين شعرنا ان واحداً من تلك الخلائق الهائلة يسبح متقدماً نحو كوثرنا . فلم نكن نراهُ لشدة الظلام بل كنا نسمع صوت زفيرهِ ولكننا لم نعلم هل هو حوت بحري هائل او وحش بري كاسر . فقال كمار انه سبع وربما كان ما قال . ثم ناداني قائلاً يا معلمي ارفع المرساة ودعنا نهرب من هذه الداهية . فقلت لا يا كمار بل يمكننا ان نرخي السكّان واصيبن خشبة في طرفه ونتوغل في البحر . فانها لا تقدر ان تتبعنا مسافة بعيدة . ولم اتمّ هذه العبارة حتى رأيت تلك الداهية موهما كانت قد صارت على مسافة طول مجذافين منا فارتعبت قليلاً من ذلك . وفي الحال بادرت الى باب الحجرة وتناولت بارودتي واطلقتها عليها فلما سمعت صوت البارود رجعت على عقبيها سابحةً الى البر

وما سمعناهُ من الاصوات الكريهة والعجيج الهائل القبيح على الشاطئ وفي تلك السواحل عند وصول صوت البارود اليها مما لا يمكن وصفهُ . والظاهر

ان تلك الخلائق لم تسمع قط مثل هذا الصوت . وعند ذلك ايقنت بانه لا سبيل لنا ان نخرج الى البرّ قبل طلوع الفجر حتى اننا كنا في ريب من الامان في النهار ايضاً . وذلك لان الوقوع في ايدي البرابرة ليس باقل رداءة من الوقوع في مخالب السباع الضارية والذئاب الكاسرة . وكنا كلانا خائفين من الوقوع في الخطر

الّا انهُ لم يكن لنا غنًى عن النزول الى البرّ هنا او في مكان آخر لان الماء العذب كان قد فرغ ولم يبقَ عندنا ولا ملء قدحٍ . فقال كسار اذا اذنت لي فانا آخذ جرّة وانزل الى البرّ وحدي فاذا وجدت ماء اتيت بقليل لنشرب الآن ثم بعد ذلك نرى ماذا نعمل . فقلت لهُ ولماذا تذهب انت ولا اذهب انا وتبقى انت في الكوثر . فاجاب بمحبة عظيمة جدًّا جملتني ان اتعلق به دائماً بعد ذلك وقال لانهُ اذا اقبل قوم من البرابرة يأكلونني وانت تسلم . فقلت لا يا كسار دعنا نذهب كلانا معاً فاذا اتى علينا قوم من البرابرة نقتلهم ولا ندعهم يأكلون ولا واحداً منا . ثم اعطيتهُ كسرة خبز يابس وكأساً مما كان في صندوق مولانا المذكور آنفاً وتقدمنا بالكوثر نحو البرّ بقدر الامكان ثم خضت وخرجنا الى الشاطئ ولم نأخذ معنا شيئاً سوى سلاحنا وجرّتين فارغتين لاجل استقاء الماء

وكنت اخاف من ان ينزل قوم من البرابرة بقواربهم من النهر ولهذا لم ادع كوثري يغيب عن ناظري . اما الولد كسار فانهُ اشرف من بعيدٍ على مكان واطئ على مسافة نحو ميل من الشاطئ فأخذ يعدو ذاهباً اليهِ هائماً على وجههِ على غير هداية . ولم يغب الّا قليلاً حتى رأيتهُ راجعاً نحوي ركضاً فظننت ان بربريًّا يطاردهُ او انهُ خائف من وحش بري صادفهُ . فركضت نحوهُ طلباً لنجدتهِ فلما دنوت منهُ رأيت شيئاً قد تدلّى على منكبيهِ فتفرست فيهِ واذا بهِ حيوان قد اقتنصهُ ولم اعلم ما هو غير انهُ كان كأنهُ ارنب الّا ان لونهُ لم يكن كلون الارنب وكانت ساقاهُ اطول من ساقي الارنب . وكيفما كان فاني

سررت به لان لحمهُ كان طيباً جداً . ولكن البشارة الجيدة التي اتاني كسار بها هي قولهُ لي انهُ وجد ماء عذباً ولم يصادف احداً من البرابرة

ثم رأينا بعد ذلك انهُ لا يلزمنا ان نكلف انفسنا هذا المقدار من التعب في طلب الماء . وذلك لاننا وجدنا انهُ عند هبوط المد وانخفاض مياه البحر التي لم تكن تمتدُّ الاَّ قليلاً في ذلك النهر الذي ارسينا مقابلهُ توجد مياه عذبة فيهِ على بعد قليل منهُ . ولما ارتاح بالنا من هذا القبيل اضرمنا النار وعملنا وليمة من ذلك الصيد . ثم جعلنا نتأهب للتقدم في طريقنا واقلعنا ولم نرَ اثر اقدام بشر في تلك الجهة

واذ كنت قد سافرت مرةً قبلاً الى تلك الاطراف كنت اعلم ان جزائر وِرْد لم تكن بعيدة كثيراً عن تلك الشطوط ولكن اذ لم يكن لي آلات اتوصل بها الى معرفة الطول الذي الآن فيهِ ولا كنت اعرف بالتحقيق او على الاقل إذكر ما هو موقع تلك الجزائر من الطول كنت غير عارف ما هو المكان الذي يجب ان اترقبها فيهِ ولا الزمان الذي ان احول فيهِ مقدم الكوثر نحو البحر في طلبها ولو كانت لي الوسائط اللازمة لكنت الآن قد كشفت بسهولة بعض تلك الجزر . فاخذت اعلل نفسي بالامل باني اذا ظللت سائراً بالقرب من هذا الشط الى ان اصل الى القسم الذي كانت للانكليز عادة ان يترددوا اليهِ طلباً للتجارة ربما صادفت مركباً من مراكبهم فاركبهُ واتخلص من تلك الحالة التعيسة

ثم بعد بذل الجهد في عمل الحساب ترجح عندي الظن بان المكان الذي صرت الآن فيهِ ينبغي ان يكون تلك البلاد المتوحشة الواقعة بين ممالك ملك مراكش والسودان التي لا يسكنها الاَّ وحوش البرية . وذلك لان السودان كانوا قد تركوها خوفاً من المغاربة وتوغلوا الى الجنوب والمغاربة لم يكونوا يحسبونها تستحق السكن لكونها عقيمة . ومن جملة ما حمل الفريقين على تركها كثرة النمورة والسباع والذئاب وغيرها من الوحوش الكاسرة

المجمعة فيها . على ان المغاربة كانوا يترددون اوقاتًا اليها طلبًا للصيد فقط فكانوا يذهبون اليها نظير عسكر الفين او ثلاثة آلاف معًا كل مرّة . وفي الحقيقة على مسافة نحو مئة ميل متواصلة على هذا الشاطئ لم نكن نرى شيئًا في النهار الاّ فلاة مقفرة غير مسكونة ولانسمع شيئًا في الليل الاّ عجيج وزمجرة وحوش ضارية

وقد تراءى لي مرّة او مرتين نهارًا أكني قد رأيت يحكو تاريف اي قمة جبل تاريف في كناريا . فكان امل الوصول الى ذلك المكان يمائلني بدهلة ليحملني على التوغل في البحر فحاولت ذلك مرتين ولكن كانت الرياح المضادة تصدّني وتدفعني بعزم نحو البرّ . واذ رأيت ان امواج البحر قد تعاظمت وعظمت على فلكي الصغيرة عزمت على الاخذ ايضًا في طريقي الاولى وعلى ان اداوم السير في جوار البرّ متمثلًا بقول الشاعر

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركهُ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُفُنُ

ثم بعد ما اقلعنا من هذا الموضع اضطرني الامر ان انزل مرارًا الى البر طلبًا للماء العذب . وفي ذات يوم باكرًا جدًا القينا المرساة قبالة راس صغير من الارض مرتفع قليلاً . واذا كان المدّ قد ابتدأ واخذ البحر يفيض وقفنا قليلاً قاصدين ان نتقدم ايضًا نحو البر . وفيما نحن في هذه الحالة كانت عينا كسار معهُ اكثر مني فدعاني بصوت منخفض وقال الاحسن ان نبعد اكثر عن البرّ ثم اردف ذلك بقوله هوذا بجانب تلك الاكمة الصغيرة وحش هائل رابض وقد استغرق في النوم . وفي الحال التفتُّ الى الموضع الذي اشار اليه فرأيت وحشًا عظيمًا جدًا جاثمًا على جانب الشاطئ مستظلاً في لحف تلك الاكمة فحققت النظر فيه فاذا هو اسد كبير جدًا هائل المنظر . فقلت لكسار يجب ان تخرج وتبطش به . فلاحت عند ذلك علامات الخوف على وجه كسار وارتعدت فرائصه وقال أ انا ابطش به انه يأكلني فمًا واحدًا وهو يعني لقمة واحدة . فكففت عن الكلام مع الولد الاّ اني قلت له امهلاً . ثم اخذت

اكبر بارودة عندنا فدككتها دكًّا محكمًا بالبارود ووضعت فيها رصاصتين وسندتها بالقرب مني ثم دككت بارودة اخرى برصاصتين ثم دككت بارودة ثالثة لانهُ كان عندنا ثلاث بواريد ووضعت في هذه خمس رصاصات صغار. فوجهت البارودة الاولى توجيهًا محكمًا نحوهُ قاصدًا اصابة راسهِ ولكنهُ كان قد وضع ساقهُ فوق خرطومهِ بقليل فأصاب الرصاص ساقهُ ممَّا يلي الركبة فكسر العظم. فوثب ثائرًا وهمر معربدًا ولكنهُ اذ كانت ساقهُ قد انكسرت سقط الى الارض. ثم طفر واقفًا على ثلاث قوائم وهمر همرة من اشنع ما طرق اذني من الاصوات في حياتي وقد اخذتني الحيرة من اني قد اخطأت رأسهُ. ولساعتي تناولت البارودة الثانية ومع انهُ كان قد اخذ في الانتقال اطلقتها عليهِ فاصابت رأسهُ فسقط منطرحًا على الارض يخبط في دمهِ من حلاوة الروح ولم يصوّت الاَّ قليلاً. فتقوّت عزائم كسار حينئذٍ وطلب مني ان اسمح لهُ بالتوجه الى البرّ. فقلت لهُ اذهب. وللحال قفز الى الماء وكان يسبح بيدهِ الواحدة وقد قبض بارودة صغيرة بيدهِ الاخرى قاصدًا البرّ. فلما دنا من السبع وضع فم البارودة في اذنهِ واطلقها في رأسهِ وبذلك انتهت حياتهُ

ولكن هذا الصيد لم يفدنا شيئًا لان لحمهُ لا يُوكل. فتأسفت جدًّا على اضاعة البارود والرصاص في حيوان لا ننتفع منهُ شيئًا. الاَّ ان كسار قال انهُ يريد ان يأخذ منهُ شيئًا وطلب مني الساطور. فقلت لهُ وماذا تريد ان تعمل بهِ. فقال اريد ان اقطع رأسهُ. الاَّ انهُ لم يستطع ان يقطع رأسهُ فقطع رجلهُ واتى بها الى الكوثر. وكانت كبيرة جدًّا. فجال في خاطري ان جلدهُ ربما يفيدنا لامر من الامور فعزمت على سلخهِ. اذا امكن. فذهبت انا وكسار واخذنا نشتغل في سلخهِ. وكان كسار امهر مني في ذلك لان معرفتي في امر السلخ كانت قليلة. وبالحقيقة اننا صرفنا النهار كلهُ في معالجتهِ. ولما فرغنا من نزع جلدهِ عن بدنهِ اخذنا الجلد الى الكوثر ونشرناهُ على ظهر قمرتنا في الشمس فجفَّ جيدًا في برهة يومين وفيما بعد استخدمتهُ نظير فراش وكنت انام عليهِ

ثم بعد هذه العاقة اقلعنا وكنا نسير نحو الجنوب من دون انقطاع مدة عشرة ايام واثني عشر يوماً ونعيش بالتوفير والتقتير لان زادنا كان قد قلّ جدًا ولم نعد ننزل الى البرّ الاّ اذا اضطرنا الحال الى ذلك لاجل استقاء الماء العذب . وكان قصدي في ذلك الوصول الى نهر غمبيا او سنيغال اي الى اي مكان كان في جهات راس دي ورد حيث كان لي امل ان اصادف مركبًا من مراكب اوربا لاننا اذا لم نفز بذلك لايبقى لنا سبيل الاّ الذهاب الى الجزائر او الهلاك بين السودان . وكنت عارفًا ان جميع المراكب القادمة من اوربا الى شطوط غوينيا او الى البرازيل او الى الهند الشرقي تصل الى ذلك الراس او تلك الجزائر . فعلّقت كل اماني على هذه المادة الوحيدة وهي ان اصادف مركبًا . لانه لم يكن لي واسطة للخلاص الاّ هذه الواسطة فقط

ثم بعد ما سافرنا نحو عشرة ايام الى جهة الجنوب كما تقدم القول ابتدأنا نرى ان الارض فيها سكان ورأينا في مكانين او ثلاثة اماكن ونحن مارّون اناسًا واقفين على الشاطئ ينظرون الينا فامعنا النظر فيهم فوجدنا انهم سود اللون عراة الجسم . وكنت قد ملت الى التوجه اليهم الى البرّ ولكن رأي كسار كان احسن من رأيي فانه قال لا نتوجه . الاّ انني مع ذلك تقدمت قليلاً نحو البرّ لكي اتكلم معهم فركضوا حالاً من امامنا على الشاطئ حتى ابعدوا عنا مسافة . ولاحظت فلم ارَ اسلحة بايديهم ما عدا واحدًا كان بيده عصا طويلة رفيعة قال كسار انها صعدة اي رمح قصير يرمونه مسافة بعيدة ويصيبون به . فبقيت بعيدًا عنهم وكلمتهم بالاشارات بقدر ما استطعت وطلبت منهم بالاشارة شيئًا للاكل . فاوماوا اليّ ان اقف بكوثري فيأتوني بشيء من الطعام فوطّأت قلعي واوقفت الكوثر فركض اثنان منهم الى داخل البلد ثم في اقلّ من نصف ساعة رجعا ومعهما قطعتان من اللحم اليابس وشيء من ذرة تلك البلاد . واما نحن فلم نعلم ماذا كان هذا او ذاك . ومع ذلك ارتضينا ان نقبلها . ولكن كان المشكل في طريقة التوصل اليها لانني لم ارد ان اخاطر بنفسي وانزل الى البرّ

ولا كان خوفهما منا اقلّ من خوفنا منهما . الاّ انهما استعملا طريقة موافقة لنا جميعاً وهي انهما انيا بذلك الى الشاطئ ووضعاهُ على الرمل وذهبا ووقفا بعيداً جدّاً مع البقية الى ان اخذنا هديتهما الى الكوثر ثم رجع القوم فدنوا منا ايضاً

فشكرناهم على معروفهم ولم يكن عندنا شيء لنكافيهم بهِ على ذلك المعروف . الاّ انهُ اتفق حصول فرصة في تلك اللحظة بعينها لعمل معروف عجيب معهم . وذلك انهُ فيما كنا لم نزل بالقرب من الشاطئ اذا بوحشين كاسرين يطارد احدهما الآخر بجرأة عظيمة نازلين ركضاً من الجبل نحو البحر ولم نكن نعلم افعلا ذلك لعباً ام غيظاً أوهو امر اعتيادي ام غير اعتيادي . ولكن ترجح عندي الظن بانهُ غير اعتيادي وذلك اولاً لان هذه الوحوش الضارية يندر ظهورها نهاراً . ثانياً لاننا وجدنا السودان قد خافوا منهما جداً ولاسيما النساء. فالذي كان معهُ الرمح لم يهرب منهما واما الباقون فانهم هربوا جميعاً ولكن بما انهما دخلا حالاً في الماء ظهر انهما لم يقصدا الهجوم على احد السودان . ثم غاصا متوغلين في البحر واخذا يسبحان ذات اليمين وذات اليسار كأنهما كانا قاصدين التروُّض والتنزُّه . ثم اخذ احدهما يتقدم نحو كوثرنا . وكنت قد هيأت لهُ مستعداً ان اقابلهُ بالرصاص وكنا قد دككنا جداً البواريد الثلاث التي عندنا. فلما صار مني على مسافة مرمى رصاصٍ اطلقت البارودة عليهِ فأصابت رأسهُ فغطس حالاً في الماء ثم طفا عائماً وكان يغوص تارةً ويعوم اخرى كأنهُ في حالة النزع . ثم رجع على عقبيهِ قاصداً البرّ الاّ انهُ بسبب الجرح المميت الذي اصابهُ وما دخل جوفهُ من المياه مات قبلما ادرك الشاطئ.

ولا يمكن وصف ما حصل عند اولئك السودان المساكين من العجب والحيرة عندما سمعوا صوت بارودتي ورأوا نارها . فكاد البعض يموتون خوفاً وقد سقط البعض على الارض مغشياً عليهم من شدَّة الرعب . ولكن لما رأوا ذلك الوحش الهائل قد مات وهو غريق في الماء تشجعوا واشتدت عزائمهم فاشرت

اليهم ان يأتوا الى الشاطىء فأتوا واخذوا يفتشون عن جثة ذلك القتيل. فوجدته لم ممتدلاً عليهِ من مياه البحر التي كانت قد صبغت بدمهِ وربطهُ من وسطهِ بحبلٍ سلمتهم طرفهُ فجرُّوهُ بهِ الى الشاطىء. ولما امعنت النظر فيهِ وجدت انهُ نمر غريب في منظرهِ وتبقُّعهِ وطول ذنبهِ وازبرار شاربيهِ وظرافة لونهِ. واما السودان فانهم رفعوا ايديهم نحو السماء متعجبين جدًّا من الحادثة المستغربة ومن الآلة التي استعملت بها على قتلهِ. واما الوحش الآخر رفيقهُ فلما رأى نار البارودة وسمع صوتها هرب خوفًا سابحًا الى البرّ وما صدق ان وصل الشاطىء حتى اخذ يعدو راكضًا الى مغارةٍ في تلك الجبال. ولم يمكنني ان اعرف أكان نمرًا نظيرهُ ام من جنس آخر من الوحوش وذلك لبعدهِ القاصي عني

ثم لاح لي ان اولئك السودان كانوا يريدون ان يأكلوا لحم النمر فاكرمت عليهم بهِ معروفًا مني اليهم فقبلوهُ بالشكر الجزيل والفرح واخذوا في الحال يشتغلون فيهِ. واذ لم يكن معهم سكين سلخوهُ بقطعة خشب حادَّة باوفر سرعة وسهولة مما يمكننا ان نعملهُ نحن بواسطة سكين. ولما انتهوا من سلخهِ واخذوا في تقطيعهِ عرضوا عليَّ قطعة من اللحم فأبيت قبولها متظاهرًا باني اريد ان اوفرها لهم الَّا اني اشرت اليهم باني اريد الجلد فاعطوني اياهُ حالاً بكل رضى وقبول. ثم اعطوني معهُ كثيرًا من زادهم فقبلتهُ منهم شاكرًا الَّا اني لم اكن اعلم ما هو. ثم طلبت منهم ماء قالبًا فم جرتي الى اسفل وقاعدها الى اعلى اشارة الى انها فارغة والى اني اريد ان يملأوها. فنادوا حالاً بعض اصحابهم واذا بامرأتين قد اقبلتا ومعهما وعاء كبير من فخار كانهُ خابية قد شُوِيت بالشمس كان مملوءًا ماء. فوضعوا ذلك على حافة البحر كما فعلوا قبلاً فارسلت الولد كسار بجراراتنا الثلاث فملأهنَّ ورجع بهنَّ الى الكوثر. وكانت النساء عريانات بالكلية كما كانت الرجال

فصار عندنا الآن فلقاس وذُرَة وان تكن رديئة وماء. ثم ودَّعت اصدقائي السودان واخذت أسير ليلاً ونهارًا مدة عشرة ايام من دون انقطاع

حتى اقبلت على راس من الارض قد امتد الى مسافة بعيدة في البحر وكان بيني على بعد نحو اربعة او خمسة فراسخ واذ كان البحر هادئًا تمامًا ابعدت عن الشاطىء متوغلاً فيه لكي احيد عن ذلك الرأس . واذ ملكت الرأس وصرت على مسافة نحو فرسخين عن البر اشرفت على ارض على جانبه الآخر الى جهة البحر فتحققت ان ذلك الرأس هو كاب دي ورد اي رأس الخضراء وان تلك الارض هي الجزائر المسماة جزائر دي ورد . وكانت لم تزل بعيدة جدًا . فوقعت عند ذلك في حيرة عظيمة واخذت افكار اليأس والقنوط تقاتلني وكنت اقول انه اذا قامت عليَّ عاصف فربما لا يتيسَّر لي الوصول ابدًا الى احد الاماكن المذكورة

وفيما كنت غائصًا في بحار الفكر ومترددًا مرتبكًا في امري لا اعلم ماذا اعمل طلبت نفسي الاختلاء والانفراد فدخلت القمرة تاركًا الدفة بيد الغلام كسار وجلست هناك متوحدًا كئيبًا منكسر الخاطر كاسف البال . ولكن لم يمضِ الأقليل حتى صاح بي كسار بغتةً قائلاً بصوت مهوس مرتعد يا معلمي يا معلمي هوذا مركب بقلع . وكان المسكين يظنُّ بجهلٍ ان ذلك المركب هو احد مراكب مولاهُ قد أُرسل في طلبنا فخاف خوفًا شديدًا . واما انا فلم يخطر ببالي شيء من ذلك لاني كنت عارفًا باننا قد ابعدنا ولم يبقَ علينا خطر من ان تدركنا . فلما سمعت صوتهُ خرجت على الفور من القمرة وتطلعت فابصرت حالاً ذلك المركب وعرفت ما هو . اي انهُ مركب برتوغاليٌّ متوجهٌ كما لاح لي الى شطوط غوينيا في طلب العبيد . ولكن لما امعنت النظر في حركة جريهِ ابنت في الحال بانهُ قاصدٌ جهةً اخرى فاخذت اسير بقدر ما يمكنني من السرعة لعلي ادركهُ لاني كنت اريد ان اواجه رؤَساءَهُ واكلمهُ قليلاً اذا تيسر لي ذلك

وكان ذلك المركب يسرع في جريهِ فخال لي اني مع كل جدّي وجهدي وسرعة كوثري لا اقدر ان ادركهُ وانهُ لابد من ان يتوارى عن نظري قبل

ان ارفع له علامة الاستغاثة والضيقة. ولا اقدر ان اصف ما حاق بي من القنوط واليأس في تلك الساعة . ولكن الظاهر انه كانت منهم التفاتة فراونا وظهر لهم بواسطة النظارة ان كوثرنا اوربيٌّ وانه ربما كان مختصًا بمركب قد ضيع . فخففوا القلوع واخذوا يسيرون الهوينا لكي يمكننا ان نصل اليهم . فسررت واشتدت عزائمي عندما رأيت ذلك ونشرت لهم راية كانت لمولاي وقد بقيت في الكوثر واطلقت بارودة علامةً للضيقة . واخبروني فيما بعد انهم رأوا الراية ودخان البارودة الا انهم لم يسمعوا صوت البارود . وعند ما رأوا هاتين العلامتين اوقفوا المركب في وسط البحر واقاموا هناك في انتظارنا الى ان ادركناهم بعد ذلك بثلاث ساعات من الزمان

وعند ذلك حدثوني بلسان البرتوغال فلم افهم ثم بلسان اسبانيا فلم افهم ثم بلسان فرنسا ولا بهذا فهمت واتفق انه كان في المركب رجل من سكوتلاندة فاتى اليّ وناداني فاجبته وقلت له انا رجل انكليزي واخبرته باني قد كنت في سلي اسيرًا بيد المغاربة فافلتُّ منهم حتى صرت الى هنا . وعند ذلك طلبوا اليّ ان اطلع الى المركب فطلعت فترحبوا بي وحيُّوني بالسلام وقبلوني بكل معروف واكرام واطلعوا كل ما كان لي من الامتعة والادوات ووضعوها في المركب بالحفظ والامان . ولا حاجة الى القول ان نجاتي هكذا من تلك الحالة التعيسة التي كنت فيها كانت لي وكنت احسبها دائمًا سبب شكر وفرح لا يوصف

وحالما صرت على ظهر المركب عرضت كل ما املكهُ على رئيسو مترجيًا اياهُ ان يقبلهُ مني وفاء لجزء من معروفهِ نحوي بانقاذهِ اياي . فأبى قبول ذلك تكرمًا وقال انه لا يأخذ مني شيئًا بل انما يحفظ لي كل مالي حتى اذا وصلت الى برازيل يسلمني اياهُ تمامًا . ثم اردف ذلك بقولهِ اني خلصت حياتك على نفس الشروط التي عليها اريد ان الآخرين يخلصون حياتي اذا اصابني لاسمح الله ما اصابك . وربما اتفق ان يكون نصيبي في احد الاوقات ان أُقبل في نفس الحالة التي قبلتك فيها وعدا ذلك اذا اخذت منك كل ما تملك يدك

فاذا وصلت بك الى البرازيل التي هي على بعد قاصٍ من بلادك فانك تموت هناك جوعًا وماذا اكون قد عملت حينئذٍ الأ اني اكون كأني قد اعدمت الحياة التي اوجدتها . لا يا سنور انكليز لا يا سنور انكليز . اني آخذك الى هناك رحمةً واحسانًا . والاشياء التي لك تبقى تحت تصرفك فتستفيدها لمشترى ما يقوم بأودك ولدفع اجرة المركب الذي سترجع فيهِ الى وطنك

الفصل الرابع

سفر روبنصن كروزي الثاني في البحر وانكسار المركب بهِ

وان ذلك الرئيس كان على جانب عظيم من الاستقامة والوفاء كما كان من المعروف وكرم الاخلاق . فانهُ تمم كل ما وعدني بهِ من دون ادنى خللٍ ولا تقصير . ونبَّه على ملاحيهِ ان لا يمسوا شيئًا من امتعتي ووضع يدهُ على كل شيء لي وسلمني قائمة مدققة بمفرداتهِ بالتفصيل من دون ان يغفل عن ذكر شيء حتى ولا عن ذكر الجرار الثلاث الخزفيَّة

ولما كان بعلةٍ من حسن كوثري وجودتهِ طلب ان يشتريهُ مني لاجل خدمة مركبهِ . فسألني عن ثمنهِ فقلت لهُ اني لا اريد ان اطلب منهُ ثمنًا معيَّنًا بعد كل ما ابداهُ نحوي من المعروف والكرم بل اترك المادَّة لمعرفتهِ وارادتهِ . فقال انهُ يعطيني بهِ سفتجةً قيمتها ثمانون قطعة من الثمانية تُدفَع لي في برازيل . وانهُ متى وصل الكوثر الى هناك فاذا تقدم مشترٍ ودفع اكثر من ذلك يعطيني الفرق مهما كان . وهكذا تممنا عقد المبيع . عرض عليَّ ستين قطعة من الثمانية ثمنًا لغلامي كسار فابيت القبول كارهًا ذلك لا لاني لم ارد ان اعطيهُ اياهُ بل لاني كنت اكره جدًا بيع حرية هذا الولد المسكين الذي ساعدني بامانة

هذا مقدارها في امتلاك حريتي ونجاتي من الاسر . فلما بيّنت هذا السبب للرئيس عذرني واقرَّ بانهُ سبب مقبول . ثم قال انهُ يوجد طريق متوسط وهو انهُ يعطيهِ صكًّا باطلاق سبيلهِ وعتاقهِ مدة عشر سنين اذا صار مسيحيًا . واذ رأيت ان كسار مائل اليهِ وراضٍ ان يذهب معهُ اجزت لهُ البيع على الشرط المذكور

وكان سفرنا الى برازيل هينًا لطيفًا . فبعد نحو اثنين وعشرين يومًا وصلنا الى موضع يقال لهُ بلسان البرتوغال كاب دي تودس لوس سنتوس اي مينا جميع القديسين . فلما صرنا هناك قلت في نفسي ها قد نجوت من حالة هي اشقى ما يوجد في الحياة والآن ماذا ينبغي لي ان اعمل فيما يأتي

ولا اقدر ان انسى معروف ذلك الرئيس نحوي ما دمت حيًا . فانهُ ابى قبول شيء اجرة للمركب واعطاني عشرين ريالاً ثمن جلد النمر واربعين ريالاً ثمن جلد السبع . وحال وصولنا امر بتسليم كل ما لي في المركب واشترى مني ما اردت بيعهُ من امتعتي كصندوق القناني وبارودتين وما بقي عندي من الشمع وبالاجمال اقول اني بعت كل وسقي فبلغت قيمتهُ نحو مائتين وعشرين قطعة من الثمانية . وكان هذا رأس مالي عند نزولي الى البرّ في برازيل

وبعد ما اقمت مدة في برازيل عرَّفني الرئيس برجل صالح امين صادق نظيرهُ كان لهُ حقل ومعمل للسكر فاقمت عندهُ مدة تعلمت فيها زرع قصب السكر وكيفية استخراجهِ . وكنت ارى الفلاحين على جانب عظيم من الراحة والرغد وان كثيرين منهم يصيرون اغنياء في وقت قصير فعزمت ان اسكن بينهم واكون فلاحًا زرَّاعًا نظيرهم اذا أُذن لي بذلك . وكنت في هذه الاثناء اجتهد في ايجاد طريق لجلب ما كان لي في لندن من النقود . واستنادًا على ذلك بعد ما حصّلت كتابة تعلن باني قد نظمت في سلك التبعة اشتريت اراضي بقيمة ما كنت انتظرهُ من المال واخذت ادبّر طريقة للزرع والسكن

بقدر ما كنت احسب انهُ سيأتيني من لندن من النقود

وكان لي جار من لسبون من اعمال البرتوغال قد وُلِد من ابوين انكليزيين يقال لهُ وِلس وكان في حال كحالي تقريبًا . وقد دعوتهُ جاري لان ارضهُ كانت لصيقة بارضي . فكنا نصرف اوقاتنا معًا بالانس والحظ . وكان رأس مالي كرأس مالهِ قليلاً زهيدًا . وقد اقتصرنا في مدة سنتين على زرع اشياء للاكل فقط . الاَّ اننا اخذنا في الزيادة شيئًا فشيئًا . وكانت ارضنا تحسن وتزيد عمرانًا حتى زرعنا في السنة الثالثة شيئًا من التبغ اي التتن واخذ كلٌّ منا يهيئ قطعةً من ارضهِ لزرع قصب المص او السكر في السنة المقبلة . غير اننا كلينا كنا في حاجة الى من يساعدنا فاخذت اتأسف على ما فرط مني من الخطإ في سياحتي بغلامي كسار

ولكن واأسفاهُ ان ارتكاب الخطإ ممن هو مثلي لم يأتِ قط صوابًا ليس بامر نادرٍ وعجيب . الاَّ انهُ لم يكن لي سبيل الاَّ التجلد والثبات . فاني دخلت في عمل منافٍ جدًّا لميلي الغريزي ومضادٌّ على خطٍّ مستقيم للعيشة التي تروق لناظري وقد تركت حبًّا بها بيت ابي رافضًا كل نصائح ابي الصالحة . وقد وضعت قدمي الآن على اول درجة من سلَّم الحالة المتوسطة او الطبقة العليا من عيشة الدنيا التي كان ابي قد اشار عليَّ بها فلم اقبل مشورتهُ ولو رضيت بها لكنت الى الآن باقيًا في البيت ولما كنت كابدت ما كابدتهُ من الاتعاب والمصائب التي مرّت على رأسي . وكثيرًا ما كنت اناجي نفسي والومها قائلاً انهُ كان يمكنني ان اتعاطى اعمالاً كهذه في انكلترا بين معارفي واصدقائي ولم تكن لي حاجة الى الابتعاد مسافة خمسة آلاف ميل لكي اتعاطاها بين اقوام غرباء برابرة وذلك في البرية في مكان بعيد لا يمكنني ان اسمع فيهِ شيئًا من معارفي ولا عنهم

وهكذا كنت انظر الى حالي متأسفًا جدًّا . ولم يكن لي من يكلمني الاَّ هذا الجار وذلك احيانًا فقط . ولم يكن لي عمل اعملهُ الاَّ بكدّ يدي . وكنت اقول

ان عيشتي اشبه بعيشة رجل قد أُلقي في جزيرة موحشة مقفرة لاساكن فيها غيره . وكم كان ذلك بكل استحقاق وعدل . وان الله بعنايته الفائقة قد يضطر الذين يقايسون حالتهم بمن هم في حالة اردأ الى البدل وذلك لكي يقنعوا بواسطة اختبارهم بانهم كانوا في حالة سعيدة . نعم كم كنت احقق بعدل ان يكون نصيبي ما كنت اتأمل فيه من امر المعيشة الموحشة حقًا في جزيرة مقفرة وقد قايست به مرارًا كثيرة مقايسةً غير عادلة العيشة التي كانت لي حينئذٍ والتي لو ثبتُّ عليها لكنت الآن ناجحًا جدًّا وغنيًا

وكنت قبل سفر صديقي الودود رئيس ذلك المركب الذي كان واسطة لنجاحي قد عزمت على مداومة الزراعة وبقي المركب هناك نحو ثلاثة اشهر مشتغلاً في تدبير وسقه والاستعداد للسفر . ولما كاشفت الرئيس بما في خاطري من امر جلب المبلغ الزهيد الذي لي في لندن اشار عليَّ مشورة صديق مخلص قال يا سنيور انكليز لانه كان دائمًا يدعوني هكذا اذا اعطيتني كتابات ووكالة شرعية واوامر الى الشخص الذي وضعت مالك بيده في لندن طالبًا منه ان يرسل باموالك الى لشبون الى يد من اعيِّنه انا له بضاعةً تناسب سوق هذه البلاد فاني ان شاء الله تعالى آتيك بها عند رجوعي . ولكن بما ان جميع مصالح الناس هي دائمًا خاضعة لتقلبات واخطار كثيرة رأيي عليك ان تطلب هذه المرة ما يساوي مئة ليرا سترليني فقط وذلك هو كما فهمت منك نصف مالك . فتخاطر اولاً بهذا النصف فاذا وصل سالمًا تطلب ما بقي على هذا المنوال واذا لا سمح الله فقد يكون النصف الآخر سالمًا تستند عليه في امر معيشتك . وكانت هذه النصيحة جيدة جدًّا وموعبة خلوصًا وامانة حتى انه لم يكن لي سبيل الاَّ الاقتناع بانها احسن طريق لي . فباشرت حالاً في تهيئة مكاتيب الى الشخص الذي ابقيت مالي بيده ووكالة للرئيس البرتوغالي طبق مرغوبه

وكتبت الى ارملة المرحوم الرئيس الانكليزي قصة مستوفية عن اسفاري

واسري وهربي ومصادفتي للرئيس البرتوغالي في البحر وما انطوى فؤادهُ عليهِ من الحق والوداد وعن حالتي الحاضرة مع ما اقتضاهُ الحال من الافادات المتعلقة بامر لوازمي . فلما صار ذلك الرئيس الامين في لسبون دبَّر طريقة عن يد تجار هناك من الانكليز لارسال ذلك الامر مع اخبار مستوفية عمَّا حدث لي الى تاجر انكليزي في لندن . وان ذلك التاجر اوصل تلك الكتابات الى الارملة المذكورة وهي في الحال سلمتهُ المبلغ المطلوب واضافت اليهِ هدية لطيفة من مالها ارسلتها للرئيس البرتوغالي مكافاةً لهُ على معروفهِ نحوي

فاشترى ذلك التاجر بالمئة ليرا بضائع انكليزية كان الرئيس البرتوغالي قد عيَّنها لهُ وارسلها الى لسبون ومن هناك اتى بها الرئيس اليَّ الى برازيل . وكان من جملتها كل ما يلزم للفلاحة والزراعة من الادوات والآلات الحديدية ممَّا كتب الرئيس في طلبهِ من دون علمي ولا طلبي . لاني اذ كنت مبتدئًا في هذه الصنعة فان اموراً كهذه لم تكن تخطر ببالي . فلما وصلت البضاعة كدت اطير فرحًا وقلت ان سعدي قد تمَّ . وان الرئيس خازني الصالح استخدم الهدية التي ارسلتها لهُ صديقتي ارملة المرحوم مكافاةً على معروفهِ وقدرها خمس ليرات انكليزية في استئجار وجلب خادم لي عقد معهُ شرطًا وربطهُ بكونتراتو اي شرطيَّة على مدة ست سنين . ولم يرد ذلك الرئيس ان يقبل شيئًا من المكافاة على معروفهِ الاَّ انهُ قبل مني قليلاً من التبغ جبراً لخاطري لانهُ من ثمار ارضي ونتائج كدي وعملي . وكانت جميع بضائعي الانكليزية من اجواخ واقمشة واثياب وما اشبه ذلك مما يعتبرهُ الاهالي و يرغبونهُ جدًا فصادفت سوقًا رائجًا بينهم وبعتها بسرعة وربحت بها ارباحًا وافرة جدًا حتى صار عندي اربعة اضعاف ارسالتي الاولى وصرت احسن جدًا من جاري ذلك المسكين وذلك في امر الزراعة . ثم اول شيء عملتهُ بعد هذا النجاح هو اني اشتريت عبدًا زنجيًا واستأجرت خادمًا انكليزيًا وذلك غير الخادم الذي اتاني بهِ

الرئيس من لسبون

ولا يخفى انهُ من شأن اساءة التصرف في النجاح ان تكون مرات كثيرة واسطة لجلب عكسهِ . وهكذا كان الحال معي ففي السنة التالية كانت اشغالي ناجحة وزراعتي مخصبة . وكان من جملة محصولات ارضي في ذلك الموسم مئة ربطة كبيرة من التبغ الجيد غير ما كنت قد وزعتهُ صدقاً لقاطبة الجيران . وهذه الخمسون ربطة وكان وزن الواحدة منها اكثر من اربعين اقة حزمتها حزماً محكماً متقناً وهيأتها للشحن عند رجوع المراكب من لسبون . واذ كانت اشغالي قد زادت وثروتي قد كثرت اخذ رأسي يمتلئ من المهامّ والاعمال التي فوق طاقتي مما يكون حقاً مراراً كثيرةً واسطة لتعطيل وتشويش احسن العقول في الاشغال . فلو ثبتُّ في الحالة التي كنت فيها لكان عندي محلٌّ لقبول كل ما يعرض لي من الامور الحسنة التي جزم ابي بانها تقتضي حياة هادئة منفردة وقال بصواب ان المعيشة المتوسطة في مملوءة منها . الاَّ انهُ عرض لي امور اخرى . فاني كنت مزمعاً ان اجلب بيدي جميع مصائبي ونكباتي . ولكي ازيد جرم ذنبي واضاعف على نفسي سهام اللوم التي لا بدَّ من ان تكون لي فرصة ارشقها بها عند وقوعي في تجاريب ومصائب مستقبلة قد حصلت لي كل هذه الامتحانات بواسطة اصراري بعنادٍ عنيدٍ على ميلي الاحمق الذي هو ضدٌّ لكل ما عرض لي من الافكار التي كانت ترشدني الى الوسائط الحلالة لاكتساب الخير لنفسي باتباعي برصانة وبساطة آثار تلك المقاصد والاعمال التي اتفقت الطبيعة والعناية على تقديمها لي وجعلها من واجباتي

واذ كنت قد فعلت هكذا مرةً قبلاً عند ما خامت طاعة والديَّ ونبذت مشورتهما لم اكن استطيع الآن ان اقنع راضياً بحالتي . بل صارت افكاري تقاتلني لكي اذهب تاركاً ما كان لي من الامل السعيد بان اصير غنياً ناجحاً في مصلحتي الجديدة . وما ذلك الاَّ لكي اتبع ما كان متمكناً في قلبي من الميل المنصرف العاري عن الحكمة والاعتدال ومن الرغبة في الارتقاء الى اعلى درجات

السعادة بسرعة اسرع مما تسمح بهِ طبيعة الامور . وهكذا دهورت نفسي ثانية الى اعمق وهدة سقط فيها انسان من الشقاوة البشريَّة او ممَّا لا يمكن ان يكون موافقاً لحسن العيشة وحالة الصحة في العالم

فلكي اصل بك بالتدريج الواجب الى تفاصيل هذا القسم من قصتي اقول . اني اذ كنت قد صرفت نحو اربع سنين في برازيل وكنت مفلحاً في اعمالي وناجحاً في زراعتي تعلمت لغة تلك البلاد وتعرفت بابناء صناعتي وتمكنت رباطات الالفة والصداقة بيني وبينهم وبين تجار سنت سلوادور وهي مينا بلدنا وكثيراً ما قصصت على القوم اخبار سفري مرتين الى غوينيا واخبرتهم بكيفية الاخذ والعطاء مع السودان هناك وكيف يقدر المتسبب ان يشتري منهم بثمن بخس او باشياء دنيَّة نظير مسابح والعيبات وسكاكين ومقصَّات وبلطات وقطع زجاج وما اشبه ذلك التبر والقطاني واسنان الافيال والعبيد ايضاً بكثرة لاجل خدمة اهالي برازيل

فكانوا يسمعون باصغاء تامّ ورغبة شديدة خطبي عن هذه المواد ولا سيما ما يتعلق منها بتجارة الزنوج اي السودان . وذلك لان امر الاخذ والعطاء بالعبيد لم يكن ممتدًّا كثيراً في تلك الايام وعدا ذلك كان يلزمهُ رخصة من ملكي اسبانيا والبرتوغال ولم يكن جائزاً القبول عند الجمهور . ولهذا قلما كنت ترى زنجيًّا يباع واذا بيع فان ثمنهُ يكون باهظاً جدًّا

واتفق اني كنت ذات يوم مجتمعاً بتجار وفلاحين من معارفي كلمتهم بحرارة عن هذه الامور فاتى اليَّ ثلاثة منهم في غد ذلك اليوم وقالوا انهم قد تأملوا كثيراً في الليل الماضي في ما خاطبتهم بهِ فاتوا لكي يعرضوا لي امراً سرًّا . فوعدتهم وعداً وثيقاً بحفظ السرّ وقلت لهم قولوا ما بدا لكم. فقالوا اننا قاصدون ان نجهز مركباً ونذهب بهِ الى غوينيا واذ كان لنا كما لك حقول واراض لسنا بمحتاجين الى شيء اكثر من الخدَّام والعبيد . ولكن هذه التجارة لا يمكن مباطاتها ومقاومتها . وذلك لاننا لا نستطيع ان نبيع الزنوج جهاراً عند

رجوعنا الى بلدنا ولهذا نرغب ان نسافر مرة واحدة فقط ونأتي بالزنوج الى الشاطئ سرًّا ومن هناك نفرقهم على مزارعنا . وبالاختصار ان المسئلة هي هل تريد ان تذهب معنا في وظيفة ناظر على وسق المركب ومباشر امر الشراء في غوبنيا. فاذا فعلت ذلك فاننا نعطيك سهمًا من الزنوج كواحد منا من دون ان تقدم شيئًا من راس المال

ولا يُنكر ان ذلك امر مناسب لكل من لم يكن له مقرٌّ ولا مزروعات يلزمهُ الاهتمام بها وهي في طريق النموّ والزيادة الى درجة معتبرة جدًّا وقد كلفتهُ مبالغ جسيمة واما من كان نظيري فان افتكارهُ بهذا السفر هو من اشرّ الامور التي يمكنهُ الافتكار بها . وذلك لاني كنت قد دخلت في الشغل وتمكنت فيهِ ولم يبقَ عليَّ الاَّ الثبات فيهِ ومقاومة ما ابتدأت بهِ مدة ثلاث او اربع سنين أُخر وان ارسل فاستحضر من لندن المئة ليرا الباقية . ولو فعلت هذا الامر لكنت في ذلك الوقت مع تلك الزيادة القليلة قد صرت لا محالة صاحب ثلاثة او اربعة الآف ليرا سترليني وذلك تحت امل الزيادة ايضًا

الاَّ اني اذ كنت لم أُوَلَد الاَّ لكي اكون باحثًا على حتفي بظلفي وجالبًا تلفي بيدي لم استطع ان ادفع ما عُرض عليَّ رافضًا قبولهُ كما اني لا اقدر ان اضبط اوهامي التخيفة عندما ضاعت فيَّ نصيحة ابي فاجبت الى مسئولهم وقلت لهم اني اذهب بكل قلبي اذا تعهدوا لي بانهم بناظرون في غيابي على اراضيَّ واملاكي واذا لم ارجع من سفرتي يسلمون ذلك لمن اعيّنهُ لهم فاجابوا الى ذلك بالرضى والقبول وكتبوا على انفسهم صكوكًا شرعية طبق مرغوبي . وعند ذلك اخذت انا القلم وكتبت وصية مستوفية الشروط الشرعية ادرجت فيها كل عروضي وعقاراتي مصرحًا باني اذا متُّ لا سمح الله يكون الرئيس الذي خلّص نفسي من الموت وريثًا لي في كل ما املكهُ ما عدا نصف محصولات ارضي فاني اشترطت على الرئيس المذكور ان يرسلهُ الى انكلترا . وبالاختصار عملت كل

الاحتياطات اللازمة لصيانة ما املكهُ من العروض والعقار . ولو نظرتُ الى صالحي بنصف هذا المقدار من الحكمة وتبصرت برصانة في ما ينبغي لي عمله او تركهُ لما تركت هذا العمل الناجح وهذه الآمال القوية طلبًا للسفر في البحر الذي لا يخفى ما يحيق به عادةً من الاهوال والاخطار فضلاً عن الاسباب التي كانت لي لانتظار مصائب خصوصيةٍ لذات شخصي

فركبت جناح العجلة في هذا الامر واطعت بغباوةٍ اشارات تخيلاتي دون حكم عقلي . واذ كان المركب قد تجهز وصار الوسق كاملاً وتم شركائي في السفر كل شيء بحسب الاتفاق ركبت ظهر ذلك المركب في ساعة نحس ايضًا وذلك في اليوم الاول من شهر ايلول سنة ١٦٥٩ وهو نفس اليوم الذي فارقت فيهِ قبل ذلك بثماني سنين والديَّ في هول مرتكبًا العصيان على سلطتهما ومتصرفًا بحماقة ضد صالحي

وكان محمول مركبنا نحو الف واربعمائة وعشرين قنطارًا وستة مدافع وعدد رجالهِ اربعة عشر رجلاً ما عدا الرئيس وابنه والعبد الفقير . وكان الوسق خفيفًا مؤلفًا من اشياء كثيرة العدد خفيفة الحمل والقيمة نظير مسابح وقطع زجاج وصدف ومرايات صغيرة ومقصّات وبلطات وما اشبه ذلك

وفي اليوم الذي دخلت فيهِ المركب اقلعنا وركبنا جناح السفر قاصدين شطوط افريقية . وكان الهواء جيدًا جدًّا الّا انهُ كان حارًا للغاية في كل الطريق التي على شطوطها . وما زال الهواء جيدًا الى ان وصلنا الى راس سنت اوغسطين . وعند ذلك اخذنا نبعد متوغلين في البحر الى ان توارت عنا اليابسة وكنا نسير كاننا قاصدون جزيرة فرناندو دي نورونيا . ولم نزل نسير في هذه الطريق مدة اثني عشر يومًا الى ان جزنا الخط وصرنا بحسب حسابنا الاخير في سبع درجات واثنتين وعشرين دقيقة من الطول الشمالي . وفيما نحن هناك اذا بعاصفٍ او زوبعةٍ هائلة جدًّا قد ثارت علينا بغتةً من الجنوب الشرقي واخذت تهبُّ ثائرة من هناك بطريق مخيف جدًّا . فاقمنا مدة اثني عشر

يومًا لا نقدر ان نعمل شيئًا الّا ان نجري راكبين امامها ونسلم امرنا لما تحملنا الى حيثما ارشدت التقادير ودفعت شدة الرياح. ولا حاجة الى القول اني كنت كل يوم انتظر لجج البحر تبتلعني ذاهبة بي الى دركات الجحيم وكذلك لم يكن لاحد من ارفاقي في المركب امل بنجاة نفسه

واذ كنا في هذه الضيقة العظيمة وتحت تلك المخاطر والاهوال توفي واحد من بحريتنا بحمّى خبيثة وقذفت الامواج رجلًا وولدًا من جماعتنا عن ظهر المركب الى لجج البحر وفي اليوم الثاني عشر تقريبًا سكن النوء قليلًا فعمل الرئيس حسابًا على قدر امكانه فوجد اننا كنا في نحو احدى عشرة درجة من الطول الشمالي وفي طول اثنتين وعشرين درجة الى جهة الغرب من راس سنت اوغسطين. فرأى انه صار على شاطىء غويانا او القسم الشمالي من برازيل عبر نهر امازون الى جهة نهر اورنوكو المعروف غالبًا بالنهر الكبير. فاستشارني ماذا يعمل واين يتوجه وقال ان المركب قد دخله ماء وضعفت قوّته جدًّا واراد ان يرجع على خط مستقيم الى شاطىء برازيل. فقاومته في رأيه واخذت اراجع معه خارطة شطوط اميركا فوجدنا انه لا توجد بلاد عامرة نلتجئ اليها الّا بعد وصولنا الى دائرة جزائر كاريبي ولذلك اطبق رأينا ان نقصد بربادو وقلنا اننا اذا بقينا بعيدين عن البرّ هربًا من خليج مكسيكو فربما وصلنا الى هناك في نحو خمسة عشر يومًا. هذا ولم يكن ممكنًا لنا ان نسافر الى شطوط افريقية من دون مساعدة لنا ولمركبنا

وعلى ذلك غيّرنا طريقنا واخذنا نسير نحو غربي الشمال الغربي قاصدين بعض جزائرنا الانكليزية حيث كان لي امل بالامداد. الّا ان حوادث الدهر قدرت لنا سفرًا آخر. فاننا فيما كنا في طول اثنتي عشرة درجة وثماني عشرة دقيقة قام علينا نوءٌ آخر حملنا بعنفٍ شديد كالذي قبله الى جهة الغرب ودفعنا طاردًا ايانا من طريق كل تجارة بشرية حتى اننا لو خلصنا جميعًا من غضب البحر كان علينا خطر من ان نكون فريسة للبرابرة

اكثر مما كان لنا امل بالرجوع الى بلادنا

وبينا نحن في هذه الضيقة والريح تهبُّ بعزم وتصفر صفيرًا هائلاً كان واحد من بحريتنا قد خرج عند الصباح باكرًا فاذا به يقول برٌ برٌ. وما صدقنا ان سمعنا هذه الكلمة الحلوة حتى خرجنا من القمرة مسرعين لكي نتطلع فنرى اين مركزنا الآن من الدنيا. ولكن لم يمضِ الاّ لحظة بصر حتى صدم المركب الرمل فسكنت حركته فجاةً. فاخذت الامواج والتيارات تهجم عليهِ متفجرة على ظهرهِ بهيئة هائلة جدًا. فايقنّا عند ذلك باننا جميعًا هالكون لامحالة. وهربنا في الحال من وجه تلك التيارات الى محلٍّ دعنا نستظلُّ فيها من رشقاتها وهجماتها

وليس امرًا سهلاً لمن لم يكن في حالة كهذه ان يصف او يدرك ما يحلُّ بالانسان من الرعب والارتباك في مثل هذه الاحوال. فلم نكن نعلم اين نحن ولا ما هي الطريق التي دُفعنا اليها. وهل تلك جزيرةٌ او برٌّ. وهل المكان مسكون او غير مسكون. واذ كانت الريح لم تزل هائجة وقوية وان تكن اقلَّ مما كانت اولاً لم يكن لنا باب للامل بان المركب يبقى دقائق كثيرة من دون ان يتكسر قطعًا قطعًا الاّ اذا كانت الريح تحول حالاً بنوع عجيب الى جهة اخرى. وبالاختصار اقول اننا جلسنا ننظر بعضنا الى بعض متوقعين كل دقيقة حلول الاجل. وهكذا كان كل واحد كانهُ يستعد لعالم آخر. لانهُ لم يبقَ لنا شيءٌ او بالحري بقي لنا شيءٌ قليل نعملهُ في هذا العالم. ولكن التسلية الوحيدة التي كنا نسلّي انفسنا بها هي ان المركب لم يتكسر بعد بخلاف ما كنا نتوقعهُ وكان الرئيس يقول ان النوّ قد اخذ في الانحطاط والهبوط

وكانت الريح قد سكنت قليلاً الاّ ان المركب كان قد دخل كثيرًا غارزًا في الرمل حتى لم يبقَ امل في اخراجهِ منهُ. فكنا في حالة مهولة جدًا. ولم يكن لنا همٌّ ولا عمل الآن الاّ صرف همتنا في امر نجاتنا. وقد كان عندنا قبل النوّ قارب على المؤخّر وآخر على ظهر المركب. فاما الذي على المؤخّر فكان قد

ثقب فعرهُ وافلت من مربطهِ ولا نعلم هل غرق الى القعر او تاهَ هاربًا في البحر . ولهذا لم يكن لنا باب للامل من هذا القبيل . واما القارب الآخر فحصل عندنا شك من جهة تنزيلهِ الى البحر لم يكن لنا وقت للجدال ولا مجال للمناقشة وذلك لاننا كنا نرى ان المركب في حالة الخطر كل دقيقة وقد قال البعض انهُ قد انشقَّ قعرهُ فعلاً

وبينا نحن في هذه الحالة امسك الرئيس ذلك القارب ودلاهُ هو وباقي النوتية من عن جانب المركب الى البحر . ثم دخلنا جميعنا فيهِ وكنا احد عشر نفرًا واطلقنا لهُ العنان مسلِّمين انفسنا لرحمة الله وهياج البحر . ومع ان النوَّ كان قد خفَّ كثيرًا كان لا يزال متعاليًا جدًّا على الشاطىء حتى كان يمكننا القول كسائر النوتية البحر كبير

فكنا الآن في حالةٍ محزنة للغاية اذ رأينا جليًّا ان البحر كان هائجًا جدًّا وان القارب لا يمكن ان يخلص واننا سنغرق لا محالة . ولم يكن عندنا قلع . ولو كان عندنا ذلك لما افادنا شيئًا . فكنا نستعين بالمجاذيف قاصدين البرَّ ولكن بقلوب مكمودة كاناس يساقون الى القتل اذ كنا متأكدين ان القارب عند قربهِ من البرّ سيصير الف قطعة من ملاطمة التيارات والصخور . فاستودعنا انفسنا بيد الله بانكسار وتذللٍ . وكانت الريح تسوقنا بعنفٍ والمجاذيف تجذبنا بعزم نحو البرّ حتى كأننا نعجل قضائنا بايدينا

ولم نكن نعلم ماذا كان الشاطىء صخرًا ام رملاً عميقًا ام رقيقًا . وكنا نعلل انفسنا بالامل بانهُ ربما القت المقادير قاربنا الى خليج او فم نهرٍ او لحف ذروةٍ نستظل فيها . ولكننا لم نرَ شيئًا من ذلك بل كان املنا فارغًا من هذا القبيل حتى كنا كلما نقدمنا خطوة نحو البرّ نرى منظر الارض مرعبًا اكثر من منظر البحر

ثم بعد ان قطعنا بواسطة القوة الجاذبة او بالحري القوة الدافعة مسافة نحو فرسخ ونصف كما ظننا اقبل علينا تيار هائل كأنهُ جبل كان يتدحرج ملتفًا

وراءنا حتى دنا منا وهجم علينا هجمة مهولة صادم بها قاربنا فكبا بنا كبوة فظيعة فرّقت بيننا وبينهُ وشتتت شملنا وايّ تشتيت . ولم تبقِ لنا فرصة لان نصرخ يا الله بل فتح البحر فاهُ وابتلعنا جميعاً في اقلّ من ثانية من الزمان

وما من احد يقدر ان يصف الاضطراب الذي شعرت بهِ حين غرقت في البحر وغطتني المياه . وكنت اعرف السباحة جدّاً ولكن لم استطع ان اتخلص من يد الامواج لكي اتنفس الاَّ بعد ان دفعتني او بالحري حملتني موجة مسافة بعيدة نحو الشاطىء وهناك انجرت ثم انثنت راجعة الى البحر تاركة اياي بين حي وميتٍ من جري التعب والمياه التي كانت قد دخلت جوفي . ولكن عقلي لم يغب ولا انقطع نَفَسي واذ رأيت نفسي قريباً من البرّ انتصبت واقفاً على رجليّ واخذت في التقدم نحو الشاطىء بقدر ما امكنني من السرعة خوفاً من ان تدهمني موجة اخرى وتجرّني رغماً راجعة بي الى العمق . ولم يمضِ الاَّ القليل حتى ظهر لي ان ذلك لابدّ منهُ لان البحر كان مقبلاً ورائي كأنهُ جبل هاجماً عليّ مزبداً كأنهُ عدوٌّ الدّ ولم تكن لي وسائط ولاقوة لمدافعتهِ . فلم يبقَ لي سبيل الاَّ ضبط نَفَسي والعوم فوق الماء وبذل الجهد في طلب الشاطىء . وكان اهمّ الامور عندي ان لا ادع الموجة التي تحملني مسافة نحو البرّ وهي مقبلة تحملني ايضاً راجعة بي الى البحر وهي مدبرة

وما صدقت ان تخلصت من تلك الموجة حتى هجمت عليّ بغتةً موجة اخرى اكتنفتني حالاً مبتلعة اياي الى عمق عشرين او ثلاثين قدماً في جوفها . فحملتني بقوة وسرعة ذاهبة بي مسافة بعيدة نحو الشاطىء فضبطت نَفَسي بقدر الامكان وحاولت بكل قوتي السباحة الى الامام . وفيما كنت قد اوشكت ان افطس او انشقّ من طول ضبط النَفَس اذا بي قد اخذت ارتفع شيئاً فشيئاً الى ما فوق الى ان صار رأسي ويداي على سطح الماء . وعند ذلك شعرت بفرج عظيم وتنفست تنفساً مستطيلاً تجددت بهِ قوتي وعزمي . ولم يمضِ عليّ في تلك الحالة اكثر من ثانيتين من الزمان حتى غصت ثانيةً في الماء وبعد قليل عمت

ثم اخذت المياه تتناقص فدفعت نفسي بعزم الى قدام هرباً من الامواج . وعند ذلك شعرت ان رجلي قد صادمت ارضاً . فصبرت قليلاً لكي اتنفس ويقل الماء عني ثم وقفت على رجليّ وركضت بقدر استطاعتي نحو البرّ . فما ابعدت الاّ قليلاً حتى ادركتني موجة اخرى وحملتني راجعة بي الى البحر ثم تبعتها اخرى وفعلت بي كاختها

واوقعتني في خطر عظيم . وذلك لانها قذفتني بعنف على صخرة صدمت جنبي وصدري صدمة قوية حتى أُغمي عليّ ولم يعد لي امكان لان اعمل شيئاً لنجاتي . ولو حملتني في رجوعها لكنت غطست او اختنقت لا محالة . ثم صحوت بعد هنيهة من الزمان وتشبثت بتلك الصخرة . ثم اتتني بعد ذلك موجة اخرى الاّ انها لم تستطع ان تأخذني عند رجوعها بل لبثت متشبثاً بتلك الصخرة الى ان سكنت . وعند ذلك ركضت مسرعاً مرةً بعد الاخرى حتى وصلت الى الشاطىء وقد اعييت من شدة التعب . فاخذت احبو على يديّ ورجليّ على سفح ذلك الجبل الى ان وصلت الى بقعة فجلست هناك مضطجعاً على العشب بعيداً عن الماء والخطر . ففرحت فرحاً لا يوصف بنجاتي هذه العجيبة

واذ وصلت الآن الى البرّ وصرت في دار الامان . فاخذت ارفع نظري نحو السماء واشكر الله على نجاتي من ذلك الخطر العظيم الذي لم يكن لي قبل قليل باب امل للنجاة منه . ولا يمكن وصف ما يخامر النفس من البهجة والحبور عند الفوز بخلاص كهذا كأنهُ من مخالب الموت . فكنت امشي على الشاطىء رافعاً يديّ وكل وجودي نحو السماء مذهلاً وغائصاً في التأمل في امر تلك النجاة العجيبة . والاشارات والحركات التي صدرت مني في تلك الساعة كثيرة جدًّا لا يمكنني وصفها . وكنت اتذكر ارفاقي وكيفية غرقهم ووحدتي ووحدني واتأمل كيف غرقوا جميعاً ولم يبقَ منهم احد غيري على ما اعلم . ولم ارَ لهم اثراً الاّ برنيطتين وقبعاً وحذائين لم يكونا توأمين متشابهين بل فردين مختلفين . ثم

اشرفت على المركب ولكن لكثرة الامواج وزبد المياه لم اقدر ان اراهُ الاَّ بكد عظيم فاذا بهِ بعيدًا جدًّا عن الشاطئ. فاخذني العجب وقلت يا ربي كيف قدرت ان اصل الى هذا الموضع

ثم اخذت اعزّي نفسي بما كان لي الآن من الراحة والامان الاَّ انني كنت انظر ذات اليمين وذات اليسار لارى ما هو المكان الذي كنت فيهِ وماذا ينبغي لي ان اعمل فيما يأتي وعندما رجع اليَّ روعي وانتبهت جيدًا الى حالي ظهر لي ان تلك النجاة هائلة واعتراني قلق عظيم. فان ثيابي كانت قد تبلَّلت ولم يكن لي شيء للاكل ولا للشرب. فقلت في نفسي بالتعاسة الحال التي وصلت اليها ليس لي ما اتوقعهُ الاَّ الموت جوعًا او ان اقع فريسة للوحوش البريَّة. وممَّا كان يزيدني انزعاجًا وقلقًا انهُ لم يكن في حوزتي آلة اصيد بها شيئًا اقتات او ادافع بها عن نفسي من عدوّ يدهمني ليقتلني ويقتات بلحمي. وكل ما كان عندي في ذلك الوقت هو سكين صغيرة وقصبة للدخان وقليل من التبغ في علبة صغيرة. فلما نظرت نفسي في هذه الحالة من القلَّة والخطر كاد عقلي يطير من الاضطراب وصرت اركض الى هنا وهناك نظير مجنون خالع. ولما اقبل المساء اخذت أتامل في حالتي بقلب قد ملأتهُ كؤوس الكآبة والحزن واخاطب نفسي قائلاً. ماذا يكون حالي في الليل اذا كانت في تلك الجهات وحوش كاسرة تخرج ليلاً من مرابضها طالبة فريسة تفترسها

فجال في خاطري عند ذلك ان اصعد الى شجرة غضة ذات اشواك كانت بالقرب مني وابيت فيها تلك الليلة ومتى اصبحت انظر ما هي الموتة التي ينبغي لي ان اموتها. لانهُ لم يكن لي امل بالحياة. ثم اخذت افتش عن ماء للشرب فوجدت مطلوبي في مكان يبعد نحو غلوة عن شط البحر ففرحت بهِ جدًّا وشربت منهُ مليًّا ثم وضعت قليلاً من التبغ في فمي كنت امضغهُ سدًّا لجوعي. ثم انثنيت راجعًا الى تلك الشجرة وطلعت عليها واخذت امهد مكانًا فيها بحيث اذا نمت اكون مرتاحًا واذا استغرقت في النوم لا اسقط الى الارض فتتكسر

اضلعي . ثم قطعت نوتاً غليظاً ووضعته بجانب سريري الجديد لاجل المدافعة عن نفسي عند الاقتضاء . ولشدة التعب الذي كان حالاً بي استغرقت في النوم وشعرت براحةٍ عظيمة . واظنُّ ان قليلين في العالم كانوا يرتاحون نظيري لو كانوا في حالي . وهكذا بواسطة هذه النومة تجددت قوتي فهببت في الصباح وانا شاعرٌ براحة لم احصل في حياتي على راحة اعظم منها

مرَّتْ بنا سحرًا طيرٌ فقلتُ لها   طوباكِ يا ليتني اياكِ طوباكِ

الفصل الخامس

وجود روبنصن كروزي في جزيرة مقفرة

فلما استيقظت في الغد صباحاً رأيت ان الجوّ قد راق والنوّ قد سكن والبحر قد كفَّ عن زمجرتهِ وهديرهِ ولم يكن كما كان قبلاً . ومما زادني عجباً هو ان المركب كان قد نهض ليلاً من سقطتهِ وأفلت من الرمل حيث تركناهُ غارزاً وقذفته المياه الى ان صار قريباً من تلك الصخرة المشومة التي صدمتني تلك الصدمة الاليمة كما سبق القول . فكان الآن واقفاً منتصباً على ميل من المكان الذي كنت نازلاً فيهِ على الشاطىء فوددت متمنياً ان اكون فيهِ لكي اخلص شيئاً من الامتعة والزاد مما يلزمني لراحتي وقيام اودي

ثم نزلت من مقامي في تلك الشجرة واخذت انظر الى ما حولي . فكان القارب اول شيء وقع عليهِ نظري . لان البحر والريح كانا قد تساعدا على دفعهِ الى الشاطىء . فكان على مسافة نحو ميل عني الى الجهة اليمنى . فاخذت امشي على الشاطىء قاصداً الوصول اليهِ الا انني وجدت اخيراً ان ذلك امر لا يتيسَّر الحصول عليهِ . وذلك لان برزخاً من الماء عرضهُ نحو نصف ميل

كان قد حال بيني وبينهُ فرجعت عنهُ على عقبي طالبًا التوجه الى المركب لعلي اجد فيهِ شيئًا اقتات بهِ واخلص من الموت جوعًا

ثم بعد الظهر بقليل وجدت البحر هادئًا جدًا وكان المدُّ قد تحوّل الى جزْر حتى صار ممكنًا لي ان ادنو ماشيًا الى المركب بحيث لا اكون بعيدًا منهُ الّا ربع ميل . وهذا الامر كان سببًا لتجديد كابتي لانني رأيت واضحًا اننا لو بقينا في المركب لكنا خلصنا جميعًا اي خرجنا بالسلامة الى البرّ ولما كنت انا وصلت الى هذا الحدّ من التعاسة حتى صرت معدمًا كل راحة وعشير . وعند ذلك اخذت الدموع تنسكب من عيني . ولكن اذ كان الفرج قليلاً من هذا الباب عزمت على التوجه الى المركب . فخلعت ثيابي وكان الهواء حارًا في الغاية واخذت اسبح الى ان وصلت الى جانبهِ . وعند ذلك عظم عليَّ الخطب اذ لم ارَ لي طريقة للطلوع اليهِ . فانهُ كان قاعدًا على الارض وظهرهُ عاليًا عن سطح الماء ولم يكن لي شيء اتمسك بهِ مما يمكنني الوصول اليهِ . فسبحت دائرًا حولهُ مرتين وفي المرَّة الثانية لمحت قطعة حبل قد تدلّت من زناجير المقدَّم وكانت واطية جدًا فلم اقدر ان امسكها الّا بصعوبة عظيمة . وقد تعجبت كيف لم ارها من اوّل مرَّة . فامسكت من ذلك الحبل وصعدت على ما يلي المقدم من ظهر المركب . فوجدت ان جوف المركب قد دخلهُ ماء كثيرٌ لشقٍّ في اسفلهِ . واذ كان قاعدًا على جانب شفًا اي حرف من الرمل الجامد او بالحري التراب وكان مؤخرهُ مرتفعًا على ذلك الحرف متكئًا عليهِ ومقدَّمهُ منخفضًا حتى كاد يصل الى الماء كان القسم الذي يلي المؤخر خاليًا باجمعهِ من الماء وكل ما فيهِ من المونة والامتعة ناشفًا جافًا وكان اوّل امر اخذت فيهِ التفتيش لأرى ماذا تعطل وماذا بقي سالمًا . فوجدت اولاً ان كل مونة المركب كانت ناشفة لم يلامسها ماء . واذ كنت مشتهيًا الأكل ذهبت الى بيت الخبز وملأت جيوبي من البقصماط او الكعك اليابس وكنت آكل وانا جائل من مكان الى مكان افتش عن امور اخرى لانهُ لم يكن لي وقت اضيعهُ في الاكل . ثم وجدت في

القمرة الكبيرة روما اي عرقًا افرنجيًا فجرعت منهُ جرعة كبيرة . وكنت في احتياج تامّ الى ذلك لاجل تقويتي استعدادًا لما كان امامي من الاعمال . وعند ذلك وجدت انهُ لم يبقَ لي احتياج الآ الى قارب استخدمهُ في نقل اشياء كثيرة الى البرّ مما سبقت فنظرت انهُ سيلزمني جدًا فيما يأتي

ومن الباطل ان يقف الواحد من دون حركة ويتمنّى ما لا يمكن الحصول عليهِ بدون تعب . وملاحظة هذا الامر جعلتني ابادر الى الشغل والاجتهاد . وكان عندنا في المركب فضلات كثيرة من الاخشاب الرفيعة وقطعتان او ثلاث قطع غليظة ورؤُوس سواري مما لم نستعملهُ الى غير ذلك فعزمت على الشغل في هذه . فدحرجت اولاً عن ظهر المركب كل ما امكنني دحرجتهُ الى البحر رابطًا طرفهُ بحبل لكي لا يحملهُ البحر فيهرب بهِ . ثم نزلت الى البحر الى جانب المركب وجذبت تلك الاخشاب اليَّ وربطت اربعًا منها معًا على هيئة طوفٍ على قدر معرفتي واستطاعتي ووضعت فوقها عرضًا قطعتين او ثلاث قطع من الاخشاب ثم اخذت امشي عليها فرأيت انها لخفّتها لم تكن تستطيع ان تحمل شيئًا ثقيلاً . فطلعت الى المركب وقطعت بالمنشار ثلاث قطع من احد السواري وجمعتها اليها . وقد قاسيت من ذلك تعبًا وعناء كثيرًا ولكن معرفتي بان ذلك لابدَّ منهُ لاجل تجهيز ما يلزمني على اتمّ مرام حركتني الى اعمال ربما كنت اراها في وقت آخر فوق طاقتي

فصار طوفي الآن قادرًا على حمل اشياء ثقيلة . فاخذت اهتمّ في ما ينبغي لي ان احملهُ اياهُ وكيف احفظ ذلك من تلاطم امواج البحر . الاَّ انني لم اصرف زمنًا طويلاً في التأمل في ذلك . فاني اولاً وضعت عليهِ كل ما وجدتهُ في المركب من الالواح والاخشاب واذ كنت عارفًا جيدًا ماذا يلزمني اخذت ثلاثة صناديق من صناديق البحرية التي كنت قد خلعت غطاءها وافرغت ما فيها فدلّيتها الى طوفي . فهذه الصناديق ملأتها من المونة اي الخبز والارز وقوالب جبن فلمنكي وخمس قطع من لحم المعزى المقدّد مما كنا نغتذي

بهِ كثيرًا وبقيَّة قليلة من الذرة الافرنجية مما كنا قد ابقيناهُ مونةً لما كنا قد اتينا بهِ معنا من الدجاج مما كان قد ذُبح واُكل . وكان عندنا شيء من الحنطة والشعير مخلوط معًا فوجدت فيما بعد ان الجرذان قد اكلتهُ او عطلتهُ جميعهُ فتأسفت على ذلك جدًا واما المشروبات فاني وجدت عدَّة صناديق ملوَّة من قناني العنبري وغيرهُ مما لا حاجة الى ذكرهِ هنا . فانزلت هذه الصناديق ووضعتها جانبًا على الطوف . وفيما كنت مهتمًا منهمكًا في هذه الامور حانت مني التفاتة واذا بالمدّ قد ابتدأ واخذ البحر يزيد شيئًا فشيئًا ولكن من دون هياج . ثم رأيت بالاسف جبتي وقميصي وصدريتي التي كنت قد خلعتها على الشاطىء تسبح طافية على الماء متوغلة في البحر كأنها قاصدت السفر الى بلاد بعيدة . واما سروالي وكان من كتان مفتوح الساق مما يلي الركبة وجواربي كنت قد سبحت بها الى المركب . الآ ان ذلك نبهني الى التفتيش بكل دقة عن ثياب في المركب . فوجدت ثيابًا كثيرة غير اني لم آخذ الآ ما قصدت استعمالهُ في ذلك الوقت لان عيني كانت على اشياء آخر حسبتها اهمّ للشغل في البرّ وذلك كآلات النجارة مثلاً . ولم اجد صندوق النجار الآ بعد تفتيش طويل . وكان ذلك نافعًا لي جدًا اذًا يستحق التعب . وكانت قيمتهُ في ذلك الوقت اعظم كثيرًا من ملء مركب ذهبًا . وفي الحال انزلتهُ برمتهِ الى الطوف من دون ان اصرف وقتًا لانظر ما فيهِ لانني كنت عارفًا في الجملة ما اشتمل عليهِ

ثم اخذت التفت الى الاسلحة . فوجدت في القمرة الكبيرة بارودتين للصيد جيدتين جدًا وزوج طبنجات وبعض تنكات فيها بارود وكيس صغير فيهِ خردق وسيفين عتيقين قد علاهما الصدأ فوضعتها جميعها جانبًا . وكنت عالمًا بانهُ يوجد ثلاثة براميل مملوءة بارودًا الآ اني لم اعلم اين وضعها طوبجينا فاخذت افتش باجتهاد حتى وجدتها . فكان اثنان منها ناشفين جيدين واما الثالث فكان قد دخلهُ الماء وبلّل ما فيهِ . فانزلت البرميلين الجيدين الى

طوفي . وبعد ذلك رأيت ان وسقي قد صار كافيًا فاخذت انبصر في كيفية الوصول به الى البرّ لانهُ لم يكن لي قلع ولا مجذاف ولا دفة وكان قليل من الهواء يقدر ان يكبو بطوفي ويقلب كل ما فيهِ الى الماء

ولكنني لما كنت انظر الى ثلاثة امور كان يشتد ساعدي ويقوى املي وهي اولاً هدو البحر وصفاؤهُ . ثانيًا وجود المدّ وامتداد الماء الى ابعد مدى ارغبهُ في البرّ . ثالثًا وجود هواء قليل يدفع طوفي برفق نحو الشاطئ . وكنت قد وجدت بقايا مجذافين من مجاذيف القارب ومنشارين وفأسًا ومطرقة خارج صندوق النجار فوضعتها على الطوف . ولما فرغت من ذلك اطلقت عنان طوفي واخذت اسير نحو البرّ . فكان الطوف يجري جيدًا الى مسافة ميل تقريبًا الَّا انهُ حاد قليلاً عن الموضع الذي خرجت منهُ اولاً الى البرّ . فلاح لي من ذلك انهُ لا بد من ان يوجد هناك خليج وباتمالي انفتح لي باب للامل بانهُ يوجد هناك نهر او نُهير يصبّ فيهِ فاتخذ ذلك الموضع مينا ارمي فيها وانزل وسقي منها الى البرّ

فكان الامر كما ظننت . فانهُ ظهر امامي ترعةٌ او بوغاز كان يندفع اليها مياه قوية من المدّ فاخذت احوّل طوفي قاصدًا الدخول فيها . الَّا انني كنت في خطر الغرق مرةً اخرى فلو حصل ذلك لانكسر قلبي لا محالة . فانني اذ كنت جاهلاً للمكان دخل طوفي الى موضع كان الماء فيهِ رقيقًا فقعد طرفهُ على الارض وكان طرفهُ الآخر عائمًا في الماء . فصار طرفهُ الواحد اعلى من الطرف الآخر ولم يعد يحتاج الامر الَّا الى شيء قليل لكي يزحل كلّ وسقي متهافتًا الى الماء . فبادرت في الحال الى وضع ظهري قدام تلك الصناديق وكنت اسندها بكل جهدي واحفظها في اماكنها . ولم اقدر بكل قوتي ان ازحزح الطوف عن الارض ولا كانت لي جسارة ان اتحرك عن المركز الذي كنت فيهِ خوفًا من ان تزحف الصناديق متهافتة الى البحر . فمضى عليّ وانا في هذه الحالة نحو نصف ساعة . وفي هذه الفترة كان الماء قد رفع طوفي الى

موضع مستوٍ . ثم بعد قليل اذ كان الماء لم يزل آخذًا في الارتفاع طفا طوفي عائمًا على الماء . وعند ذلك قمت من قدام الصناديق واخذت استعين بالجذاف الذي معي على دفعهِ الى مجرى المياه . ولم يمضِ الاَّ القليل حتى وجدت نفسي على فم نهر صغير تحيط بهِ الارض من الجانبين في وسط تيَّار قوي مندفع نحو البرّ . فالتفتُّ يمينًا ويسارًا في طلب مكان جيد يصلح للطلوع الى البرّ غير راضٍ ان أُدفَع مسافة بعيدة في النهر . واذ كان لي امل ان ارى في احد الاوقات مركبًا في البحر كنت قد عزمت على جعل منزلي قريبًا من الشاطئ بقدر الامكان

ثم لمحت جرفًا صغيرًا بجانب النهر الى جهة اليمين . فاخذت اسير بكل عناء وصعوبة حتى قربت اليهِ بحيث صرت قادرًا ان امسّ الارض بطرف مجذافي فادفع الطوف بهِ في برهة قصيرة . ولكنني كنت في خطر من ان يتزحلق كل وسقي متهافتًا الى البحر كما فعل قبلاً . وذلك لان ارض الشاطئ هناك كانت قائمة جدًّا بحيث لم يكن ممكنًا الطلوع اليها الاَّ بارتفاع الطرف الواحد من الطوف وانخفاض الطرف الآخر فيكون مزحلقًا ويكون الوسق في خطر . فاضطرني الامر ان اقف هناك منتظرًا ارتفاع المدّ ووصوله الى اعلى درجاتهِ . واستعنت بالجذاف على ابقاء الطوف قريبًا من الشاطئ بقرب قطعة ارض مسطحة كانت تغطيها المياه عند وصول المدّ الى مداهُ . وحالما وجدت ماء كافيًا لحمل طوفي وكان يعوم على سمك قدم من الماء . دفعتهُ الى تلك القطعة . ثم ربطتهُ الى وتدين غرزتهما في الارض الواحد على الجانب الواحد عند طرفهِ الواحد والآخر على الجانب الآخر عند طرفهِ الآخر واقمت هناك الى ان جزر البحر ورجعت المياه الى الوراء تاركة طوفي وكل امتعتي على الشاطئ بالامان

ثم جال في خاطري ان اجسّ الارض منقبًا على ما كان جيدًا لاسكنهُ واضع فيهِ امتعتي حفظًا لها من امر يأتي . ولم اكن اعلم الى الآن اين انا هل في

قارّة او جزيرة في ارض مسكونة او غير مسكونة وهل انا في خطر من الوحوش البرية او في امان منها . ورأيت جبلاً عالياً صعب المرتقى على بعد ميل من المكان الذي كنت فيهِ كانت شمالية سلسلة تلال وآكام صغيرة . فتناولت بارودة صيد وزوج طبنجات وشيئاً من البارود في تنكة واخذت اسير مسلحاً قاصداً قنة ذلك الجبل طلباً للاكتشاف . فقاسيت اتعاباً وصعوبات عظيمة حتى وصلت الى اعلاهُ وعند ذلك رأيت بحزن اني في جزيرة يحيط بها البحر من كل جهة . ولم تكن هناك ارض الاَّ بعض صخور كانت بعيدة جدًّا وجزيرتان اصغر من هذه الجزيرة كانتا بعيدتين عنها نحو فرسخين الى غربيها . ورأيت ايضاً ان الجزيرة التي انا فيها عقيمة ولاح لي انهُ لا يسكنها الاَّ وحوش برية الاَّ اني لم ارَ شيئاً منها ولكنني رأيت كثيراً من الطيور ولم اعلم ما هي . ولا كنت اعلم عند صيدها ما يُؤكل منها وما لا يُؤكل . وفيما كنت راجعاً اصطدت طائراً كبيراً كان واقفاً بجانب غابة كبيرة . واظن ان ذلك الطلق هو الطلق الاول الذي سمع في ذلك المكان منذ خلق العالم . وحالما اطلقت البارود قام من جميع اطراف تلك الغابة عدد لا يحصى من الطيور من اجناس مختلفة واخذت تصوّت اصواتاً مشوشة فكان كل واحد منها يصيح حسب نغمتهِ المألوفة الاَّ انني لم اعرف ولا واحداً منها . واما الطير الذي اصطدتهُ فظننته بوماً لانهُ يشبه البوم في لونهِ ومنقارهِ وسائر اوصافهِ حتى في مخاليبهِ الخارقة العادة في كبرها واما لحمهُ فكان نتناً رديًّا لا يصلح لشيءٍ

ثم رجعت بعد هذا الاكتشاف الى طوفي واخذت انزل الوسق الى البرّ وصرفت في ذلك بقية ذلك النهار . الاَّ انني لم اعلم ماذا اعمل بنفسي ليلاً ولا عرفت اين ابيت لاني خفت من ان اضطجع على الارض فيأتي وحش بريّ فيفترسني . غير اني وجدت فيما بعد انهُ لم يكن اساس لذلك الخوف . فوضعت حولي صناديق والواح مما كنت قد اتيت بهِ من المركب وصنعت منها كوخاً وبيتاً صغيراً بتُّ فيهِ تلك الليلة . واما الطعام فكنت لا اعلم كيف احصّلهُ .

وكنت قد رأيت ارنبين او اكثر يركضان خارجين من الحرش عند ذلك الطلق حين اصطدت اليوم

وكنت الآن افتكر انهُ يمكنني ان احضر ايضًا اشياء أُخر كثيرة من المركب مما يكون عظيم الفائدة لي وعلى الخصوص الحبال والقلوع وما اشبه مما يمكن نقلهُ الى البرّ بسهولة . فعزمت على سفرة اخرى الى ذلك المركب اذا تيسر لي ذلك . واذ كنت عالمًا يقينًا بان اول نوّ يحصل لا بد من ان يكسرهُ ويبدد قطعهُ بما فيهِ نويت ان اترك كل عمل واذهب اولاً فاحضر كل ما يمكنني احضارهُ . الاَّ انني كنت في ريب من جهة اخذ الطوف معي او تركهِ على البرّ الى ان ظهر لي اخيرًا ان اخذهُ امر غير ممكن . فذهبت عند زوال المدّ كما فعلت اولاً وقد تعريت قبل خروجي من ذلك الكوخ ولم ابقِ على بدني الاَّ قميصًا ملوّنًا وسروالاً من الكتان وزوج جوارب على رجليَّ

فلما وصلت بالسلامة الى المركب شرعت في عمل طوف جديد . فكنت اشتغل باكثر متانة وخفة مما فعلت اولاً وذلك لاني كنت قد تمرّنت على هذا العمل بواسطة الطوف الاول . ولم اكلف هذا الطوف فوق طاقتهِ من الاثقال . فوضعت عليهِ اشياء كثيرة مفيدة اي كيسين او ثلاثة اكياس مملوءة مسامير من مقادير واشكال مختلفة وازلبًا كبيرًا ونحو اربع وعشرين بلطة ومسنًّا او آلة جلخ ومخلين او ثلاثة وبرميلين مملوءين رصاصًا وسبع بواريد وبارودة للصيد وشيئًا من البارود وكيسًا كبيرًا مملوءًا خردقًا وحزمةً كبيرةً ثقيلة من صفائح رصاص وكل ما وجدتهُ من ملابس البحرية وقلعًا وتختًا وبعض لحف وفرش . وبعد ما وضعت كل ذلك على الطوف اطلقت لهُ العنان ولم يمضِ الاَّ قليل حتى وصل بي وببضاعتي الى الشاطىء بالسلامة والامان . وكان ذلك عندي سبب سرور عظيم وموجب تعزية كبيرة

وفيما كنت غائبًا في المركب خالج قلبي خوف من ان يأتي شيء الى كوخي

وبأكل ما عندي من المونة غير اني لما رجعت اطمأن خاطري اذ لم أرَ اثر زائر هناك . الاّ انه كان قائمًا على احد الصناديق قطة بريّة تحص فلما رأتني وثبت من مكانها وابعدت قليلاً ثم وقفت والتفتت نحوي واخذت تتفرس بي من دون خوف ولا اضطراب كأنها ترغب ان تتعرّف بي فوجهت نحوها بارودتي الاّ انها اذ كانت لا تعلم ما هي لم تخف بها بل بقيت في مكانها لا تتحرك فرميت لها كسرة صغيرة من البقصماط وذلك كل ما رأيت ان اسمح بو لان ما عندي من الزاد كان قليلاً فثارت اليها وشمتها ثم اكلتها . وبعد ما فرغت من اكلها رفعت رأسها ونظرت اليّ ثانية وكان يلوح على وجهها انها أحبّت ذلك وكانت تريد اكثر فشكرتها واشرت اليها بانهُ لم يمكني ان اسمح باكثر وهكذا انصرفت عني مدبرة

ثم بعد وصولي بهذه الوسقة الثامنة الى البرّ شرعت في عمل خيمةٍ صغيرة من القلع وممّا كنت قد قطعتهُ وهيّأتهُ من الادوات لهذه الغاية . ثم صففت حول تلك الخيمة ما كان عندي من الصناديق والبراميل الفارغة تحصينًا لها ما ربما يقصدها داهمًا اياها من الناس او الوحوش . ثم بعد ما فرغت من ذلك سددت بابها ببعض الواح من داخل وبصندوق فارغ اوقفتهُ في مدخل الباب من خارج . ثم اتيت بفراشٍ ووضعتهُ على الارض ووضعت طبنجتين عند رأسي ومددت بارودتي بجانبي وهكذا ذهبتُ الى النوم اوّل مرّة . فنمت نومًا هادئًا مطمئنًا الليل كلهُ . لاني كنت تعبًا ونعسان . وذلك لاني لم أنم الاّ قليلاً في الليلة الماضية وكنت قد اشتغلت كثيرًا النهار كلهُ في اخراج ما اخرجتهُ من المركب وجلبهِ الى البرّ

فقد صار لي الآن مخزن من اكبر المخازن المختصة بانسان واحد الاّ اني لم اقنع بعد بل كنت احسب انهُ ما دام المركب واقفًا في مركزهِ ينبغي لي ان اخرج منهُ كل ما قدرت على اخراجهِ . وعلى ذلك كنت كل يوم تكون فيهِ المياه قليلة اذهب اليهِ وآتي ببعض اشياء منهُ وثالث مرّة ذهبت فيها واحضرت

كل ما امكنني احضارهُ من الشراعات والحبال والخيطان واتيت ايضاً بقطعة من الجنفيص كانت قد حُفظت لاجل ترقيع القلوع عند الاقتضاء وببرميل البارود المبلّل وبالاجمال فاني اتيت بكل ما وجدتهُ من القلوع الّا اني كنت قد قطعتها قطعاً صغيرة تسهيلاً لنقلها لانهُ لم يبقَ لها فائدة نظير قلوع بل نظير جنفيص فقط . ومما زادني سروراً هو اني بعد ان ذهبت خمس او ست مرّات الى المركب وكنت قد قطعت الامل من ان اجد فيهِ ايضاً شيئاً يستحق الالتفات وجدت بغتةً برميلاً كبيراً مملوءًا خبزاً وثلاث دمجانات كبيرة مملوءة روماً او ارواحاً وصندوقاً مملوءًا سكّراً وبرميلاً مملوءًا طحيناً فاخراً مع اني لم اكن اتوقع وجود شيء من المأكولات الّا ما عطّلهُ الماء فأفرغت حالاً الخبز واخذت الفهُ في قطع القلوع رزماً صغيرة وهكذا نقلتهُ الى البرّ سالماً

وفي اليوم التالي ذهبت مرة اخرى الى المركب واذ كنت قد اخذت منهُ كل ما هو متنقل ويستحق تعب النقل ابتدأت الآن في القلوس اي حبال المرساة فقطعت القلس الاكبر قطعاً صغاراً بحيث يمكن نقلها ءاخذت الى البرّ قلسين وشراعاً مع كل ما وجدتهُ من الآلات الحديدية واضعاً جميع هذه الاشياء الثقيلة على طوفٍ كبير صنعتهُ مما امكنني وجودهُ في المركب من الاخشاب والادوات وانزلت بها نحو البرّ . الّا ان سعدي ابتدأ الآن يفارقني . فان ذلك الطوف كان غير متقن في بنائهِ وثقيل الوسق جدًّا حتى انهُ بعد دخولي في الخليج الصغير الذي انزلت منهُ قبلاً بقية امتعتي الى البرّ فاذ لم اقدر ان اديرهُ بسهولة نظير الطوف الآخر كبا قالباً بي وبوسقي الى الماء . واما انا فلم ابال بذلك لاني كنت قريباً من البرّ واما الوسق فان اكثرهُ فقد وعلى الخصوص الحديد مع انهُ كان لازماً ونافعاً لي جدًّا . غير اني عند زوال المدّ اخرجت اكثر قطع القلوس وبعض الحديد . وقد كلفني ذلك اتعاباً وصعوبات عظيمة . لاني التزمت ان اغطس في الماء في طلبهِ وذلك اتعبني

كثيراً . ثم كنت بعد ذلك اتوجه كل يوم الى المركب واحضر ما يمكنني احضارهُ من المواد

فقد مضى عليَّ الآن في البرّ ثلاثة عشر يوماً وقد ذهبت في هذه المدة احدى عشرة مرة الى المركب ونقلت منهُ كل ما يمكن لرجل واحد نقلهُ في نفس المدة . واني لا اشك بانهُ لو بقي الهواء معتدلاً لكنت اتيت بالمركب كلهِ قطعة بعد قطعة ولكن فيما كنت استعد للذهاب الى المركب المرة الثانية عشرة وجدت الهواء قد اخذ يشتد ومع ذلك اذ كان الماء قليلاً ذهبت الى المركب ومع اني كنت اظن باني قد عزلت القمرة من كل ما فيها حتى لم يبقَ هناك شيء اكتشفت هذه المرة على خزانة بجارارات وجدت في احدها موسين او ثلاثاً لحلاقة ومقصاً كبيراً وعشراً او دزينة اي اثنتي عشرة من السكاكين والشوكات او الفرتيكات الجيدة . ووجدت في جرار آخر ما يساوي نحو ست وثلاثين ليرا من الفلوس بعضها معاملة اوربا وبعضها معاملة برازيل مع بعض قطع من الثمانية منها ذهب ومنها فضة

فلما نظرت تلك الفلوس تبسمت وصرخت قائلاً ما هي فائدتكِ ايتها الفلوس الكاسدة انكِ لا تستحقين ان ارفعكِ عن الارض . فان واحدة من هذه السكاكين هي احسن من كل هذه الصبرة . لا استطيع ان انتفع منكِ شيئاً . فابقي حيث انتِ واذهبي الى قاع البحر كشيء لا تستحق حياتهُ ان يخلَّص . الاَّ اني بعد ما تأملت قليلاً اخذت ذلك ولففتهُ في قطعة جنفيص . ثم ابتدأت اهتم في عمل طوف آخر . ولكن فيما كنت اهيئ ذلك ابتدأ الجوّ يعبس والهواء يقوى . وبعد ربع ساعة ابتدأ الهواء يهبُّ نافخاً من جهة البرّ . فخطر لي حالاً انهُ من العبث ان احاول عمل طوف حال كون الريح من جهة البر وانهُ ينبغي لي ان انصرف قبل مجيء المد او الفيضان والاَّ فربما لا يمكنني ان اصل الى البرّ بالكلية . ومن ثم نزلت الى الماء واخذت اسبح قاطعاً ما كان ما بين المركب والرمل من المياه فقاسيت من ذلك صعوبات كثيرة وذلك من

جرى ثقل ما كان عليَّ من الاشياء وهياج البحر لان الهواء كان يشتد بسرعة عظيمة. وقبل ارتفاع الماء الى اعلى درجاتهِ حدث نزوٌ. الأ اني كنت قد وصلت الى منزلي واتكأت في خيمتي الصغيرة وكانت كل ثروتي حولي بكل أمان. فكانت الريح شديدة الليل كله ولما نهضت صباحًا اشرفت على البحر فوجدت انهُ لم يبقَ اثر لذلك المركب. فغمّني ذلك الأ اني لدى التفكر تسليت قليلاً بكوني لم أضيّع وقتًا ولا آلوت جهدًا في اخراج كل شيءٍ منهُ مما كان مفيدًا لي وانهُ بالحقيقة لم يبقَ فيهِ الأ القليل مما كان يمكنني نقلهُ لو حصلت لي فرصة لذلك

فنزعت الآن من بالي كل فكر من جهة المركب او من جهة اخراج شيءٍ منهُ الأ ما يمكن ان تدفعهُ المياهُ من قطعهِ الى الشاطئ. وقد دفعت المياه فعلاً قطعًا كثيرةً منهُ فيما بعد الأ انها كانت قليلة المنفعة لي. فاخذت اصرف اهتمامي الآن في تدبير ما يقيني من دهمات القوم البرابرة وهجمات الوحوش الكاسرة اذا وُجدت في الجزيرة وكنت انبصر في طريقة تبلغني من هذا المقصد على احسن مرام. فكنت مترددًا بين ان اعمل لي كهفًا في قلب الارض. واخيرًا عزمت على عمل الامرين معًا. ولا بأس من وصف ذلك لمن يقف على هذه القصة

اني وجدت سريعًا ان الموضع الذي كنت فيهِ لا يصلح لاقامتي وعلى الخصوص لان موقعهُ هو على ارض واطئة مسبخة قريبة من البحر ومن ثم كان كما ظننت رديء الهواء ولم يكن بقربهِ ماء عذب ولذلك عزمت على ايجاد رقعةٍ من الارض تكون احسن هواءً واكثر صلاحيةً منهُ. فاني كنت انظر الى عدة امور من جهة محل اقامتي. وذلك اولاً الهواء والماء العذب كما تقدم القول. ثانيًا مأوى يظللني من حرّ الشمس. ثالثًا ملجأً من الوحوش المفترسة والقوم البرابرة. رابعًا مواجهة البحر حتى اذا ارسل الله مركبًا الى تلك الجهات يمكنني ان اراهُ ولا اخسر فرصة لنجاتي التي لم

اكون قد قطعت كل امل من الحصول عليها

وفيما كنت افتش عن موضع بهذه الصفة وجدت بقعة صغيرة بجانب تلٍّ او صخر كان سفحهُ من جهة تلك البقعة قائمًا جدًّا كحائط بيت حتى انهُ لم يكن شيءٌ يستطيع ان يأتي واثبًا عليَّ من اعلاهُ وكان في ذلك الصخر مكان مجوف نظير قبة ممتدٌ قليلاً الى داخل كأنهُ مدخل او باب مغارة الاَّ انهُ لم يكن هناك في الحقيقة مغارة ولا طريق الى داخل الصخر بالكلية

فنويت ان انصب خيمتي على تلك البقعة الخضراء امام ذلك المكان المجوف ولم تكن تلك البقعة اكثر من مئة وخمسة وعشرين ذراعًا عرضًا وكان طولها ضعف عرضها تقريبًا وكانت نظير مرجٍ امام بابي . وكانت عند طرفها تنحدر من كل جهةٍ انحدارًا غير منتظم الى ان تتصل بالارض المنخفضة التي على حافة البحر . وكان موقعها من التل في جهة شمال الشمال بغرب وهكذا كانت مظللة من الحرّ الى ان تقارب الشمس الغروب وتكون قوة حرارتها قد ضعفت . وقبلما نصبت خيمتي رسمت نصف دائرة امام ذلك المكان المجوف فدخل نحو ثلاثة عشر ذراعًا وثلث في نصف قطرهِ من الصخر ونحو ستة وعشرين ذراعًا وثلثين في قطرهِ من بدايتهِ ونهايتهِ . ففي نصف الدائرة هذا ضربت صفين من الاوتاد او الاعمدة القوية راكزًا اياها في الارض ركزًا قويًّا وكانت رؤوسها محددة وكان ارتفاعها على وجه الارض نحو خمسة اقدام ونصف . وكانت المسافة بين الصفين اقل من ستة قراريط

ثم اخذت قطع القلوس التي قطعتها في المركب ونظمتها صفوفًا احدها فوق الآخر داخل الفرجة التي بين ذينك الصفين من الاوتاد حتى ساوت في علوها رؤوس الاوتاد واضعًا اوتادًا اخرى داخلاً على ارتفاع نحو قدمين ونصف دعمتها بها . وكان هذا السياج قويًّا جدًّا حتى انهُ لم يكن انسان ولا وحش يستطيع الدخول . وقد كلفني ذلك كثيرًا من الوقت والتعب وعلى

الخصوص قطع الاوتاد من الحرش ونقلها الى ذلك الموضع وركزها في الارض . ولم اجعل لمنزلي هذا بابًا من جانبهِ بل عملت لهُ سلّمًا صغيرة كنت اصعد عليها الى اعلاهُ ثم ارفعها الى فوق بعد دخولي اليهِ . وهكذا كنت محصنًا تحصينًا منيعًا كما ظننت حتى انهُ لم تكن لاحد استطاعة ان يصل اليَّ . ومن ثم كنت انام ليلاً بالامن والطمأنينة . ولولا ذلك لما ارتاح بالي قط . ولكن ظهر لي فيما بعد انهُ لم تكن حاجة الى كل هذه الاحتياطات والحذر من الاعداء التي كنت اخاف الوقوع في خطر منها

الفصل السادس

انتقال روبنصن كروزي الى خيمتهِ وما شعر بهِ من الوحشة

ثم نقلت جميع ما مرَّ ذكرهُ من المونة والاثاث والامتعة الى تلك الحظيرة وقد كلفني ذلك اتعابًا ومشقّات كثيرة . ثم اقمت خيمة كبيرة لاجل وقايتي من الامطار التي تكون هناك في قسم من السنة شديدة جدًّا وقد جعلتها مضاعفةً اي خيمة صغيرة من داخل وخيمة اكبر منها من خارج . ثم غطّيت تلك الخيمة بمشمَّع كنت قد احضرتهُ من المركب مع القلوع باسطًا اياهُ على ظهرها . ثم علقت تختًا كان لثاني رئيس مركبنا نظير مرجوحة وصرت انام عليهِ تاركًا النوم على الارض ثم ادخلت الى تلك الخيمة كل مونتي وما يعطل من المطر ثم دبرت المدخل الذي كان لم يزل مفتوحًا وصرت ادخل واخرج منهُ بواسطة سلّم صغيرة كما ذكرت آنفًا

ثم بعد ما فرغت من هذه الاعمال اخذت احفر في الصخر قاصدًا فتح مغارة هناك توسيعًا لدائرة منزلي واستقدمت ما خرج من التراب والحجارة في

رفع ما كان داخل السور من الارض حتى صار نظير مصطبة اعلى مما حوله مقدار قدم ونصف. ولم يمضِ الّا قليل حتى صار عندي وراء خيمتي مغارة واسعة كانت نظير مخزن لمنزلي. ولا حاجة الى ذكر ما قاسيتهُ من الاتعاب والمشقات في حفر تلك المغارة . وفيما كنت منهمكاً في امر خيمتي ومهتماً في حفر تلك المغارة حصلت بغتةً امطار غزيرة من سحابة كثيفة مظلمة تبعتها بروق ورعود قوية هائلة . وللحال خالج خاطري فكرٌ لم يكن اقلّ سرعة من البرق وهو ان شهاباً صغيراً يكفي للاشاة كل ما عندي من البارود. فان النار اذا لعبت في البارود تحرقني حالاً وتحرق الخيمة بما فيها . فاضطربت من ذلك جدًّا ومن ثم حالما زال ذلك العارض تركت كل اشغالي وشرعت في عمل اكياس وعلب لافرّق فيها البارود واضعهُ في اماكن متباعدة بحيث اذا لعبت النار في قسم منهُ لا يشتعل كلهُ دفعة واحدة . فوزّعت ما كان عندي من البارود الجيد الناشف وقدرهُ نحو مئة اقة في اكثر من مئة وعاء بين علبةٍ وكيسٍ صارفاً في ذلك نحو اسبوعين . ثم وضعت تلك الاوعية في شقوق بين الصخور لا تصل اليها رطوبة ولا ماء ملاحظاً جيدًا كل موضع كنت اضع فيهِ باروداً . غير ان البارود الذي سبق القول انهُ تبلل اذ كنت لم اخف من التهابهِ وضعتهُ في مغارتي الجديدة التي كنت بحسب توهمي ادعوها مطبخاً

وبينما كنت مشتغلاً في تلك الاعمال كنت في تلك الاثناء اذهب ببارودي كل يوم مرة على الاقل طلباً للتنزه وصيد شيء للاكل والاكتشاف على ما يوجد في تلك الجزيرة من الحيوانات وغيرها . ففي المرة الاولى اكتشفت حالاً انهُ يوجد فيها معزى فسرّني ذلك جدًّا . الّا اني لما رأيت ان تلك المعزى بريّة نافرة سريعة الجري جدًّا حتى ان التقرب منها ومسكها كان من اصعب الامور ساءني ذلك ونغّص سروري بوجودها . ثم انني اخذت اعلّل نفسي بأمل صيد شيء منها مرةً بعد اخرى كما فعلت بعد ذلك بقليل . وقد

وجدت بالاختبار اني اذا كنت انا في السهل وكانت هي في الوعر او على الصخور كانت تنز حالاً هاربة مني ولكن اذا كانت هي في السهل وكنت انا في الوعر او على الصخور كانت لا تبالي بي كانها لا تراني . فاستدللت من ذلك على ان تركيب مُقَلها كان على هيئة مخصوصة بحيث يكون نظرها دائمًا متجهًا الى اسفل فلا تستطيع ان تبصر ما كان اعلى منها من المنظورات . ومن ثم كنت دائمًا في ما بعد عند اكتشافي الاماكن التي تتردد اليها أكمن لها في الوعر او على الصخور مقابل تلك الاماكن حتى اذا كانت في مراعيها في السهل ارميها من هناك بالرصاص فاصيبها من دون خطا الاّ نادرًا . فصدت اولاً عنزةً كان بجانبها جدي صغير ترضعهُ . فلما وقعت الامّ وقف الجدي المسكين بجانبها جامدًا لا يتحرك . فاثّر ذلك المنظر جدًا في حاسياتي حتى كدت ابكي حزنًا عليهِ وتأسفًا على قتلي والدتهُ . ثم تقدمت اليها وحملتها على منكبيَّ وسرت بها فاخذ ذلك الجدي يسعى قافزًا في اثري الى ان وصلت الى منزلي . وعند ذلك انزلت الام الى الارض وحملتهُ على ذراعيَّ وادخلتهُ الى داخل المنزل قاصدًا تربيتهُ وجعلهُ اهليًا . ولكنني اذ رأيتهُ لا يأكل شيئًا لصغرهِ اضطرني الامر ان اذبحهُ وآكلهُ . فاغتذيت بلحمها اياما كثيرةً لاني كنت آكل قليلاً واوفّر مونتي ولا سيما خبزي وذلك لقلّتهِ

ثم بعد الفراغ من تدبير منزلي اخذت اهتم في تدبير ما رأيت انهُ لا بدَّ منهُ وهو مكان اشعل فيهِ النار عند الحاجة وموضع لوضع الحطب والوقود وسيأتي ذكر ما عملتهُ لذلك في محل آخر . واذ كانت احوالي غريبة وهمومي في امر المعيشة غير قليلة كان لا بدّ من بيان ذلك وايضاحهِ مفصلاً فاقول

اني كنت كلما سنحت لي فرصة النظر الى احوالي اشعر بحزن شديد وغمٍ عميق لا اقدر ان اصفها حقّ الوصف . فان دفع العاصف كان قد حاد بي مسافة بعيدة اي مئات من الفراسخ عن الطريق الذي قصدتهُ في طلب

الاسباب والتجارة ومن ثم كنت احسب ان العناية الصمدانية قد قضت عليّ وذلك عن سبب كبير ان اصرف ما بقي من حياتي في ذلك المكان المقفر وفي تلك الحالة الموحشة . وعند ذلك كانت الدموع تذرف على خدي بغزارة وسخاء . وكثيرًا ما كان يخطر ببالي امور متناقضة فكنت تارةً اتذمر متضجرًا على الله قائلاً في نفسي لماذا يهلك الله خلائقهُ على هذا المنوال ويوقعهم في شقاوة كهذه ويجعلهم منكسري القلب مكدَّرين الى هذا الحدّ حتى يلجئهم الى انكار احسانهِ وعدم شكرهِ . وتارةً أرتضي بحالتي وبوبخني ضميري على انكاري الجميل وكفري . وفيما كنت ذات يوم ماشيًا على شاطىء البحر وبارودتي بيدي وكنت غائصًا في الافتكار بحالتي الحاضرة اخذت احدّث نفسي على هذا المنوال قائلاً يا نفس نعم انكِ في حالة مكربة موحشة ولكن اما تذكرين ماذا اصاب ارفاقكِ اين هم الآن أما كنتم احد عشر نفرًا في القارب فلماذا نجوتِ انتِ وحدكِ وهل هو احسن ان تكوني هنا او هناك مشيرًا عند قولي الى البحر . فان جميع الشرور يجب اعتبارها مع ما يرافقها من الخير وما يقارنها مما هو اردأ منها من الشرور

ثم تأملت عند ذلك كيف كنت حاصلاً على جميع احتياجاتي وماذا كان يصيبني لو لم يتفق ان المركب ينتقل من المكان الذي صُدم فيهِ اولاً الى مكانهِ الثاني حيث صار اقرب الى البرّ فتيسّر لي اخراج ما اخرجتهُ من الاشياء وذلك يندر وقوعهُ مرّة في كل مئة الف . وماذا كانت حالتي لو اضطرني الامر ان ابقى في الحالة التي كنت عليها عند خروجي اولاً الى البرّ حين كنت معدَمًا كل لوازم المعيشة والوسائط الضرورية لتحصيلها . وكنت احدّث نفسي بصوتٍ عالٍ قائلاً ماذا كنت اعمل لو لم تكن لي بارودة ولا زاد ولا ادوات للعمل ولا ثوب ولا فراش ولا خيمة ولا غطاء . هوذا كلما احتاج اليهِ موجود ميسور وانا قادر ان اعيش من دون افتقار الى بارودتي حتى بعد فراغ مونتي وان اصرف ما بقي من حياتي من دون اعواز . وذلك

لاني كنت قد نظرت وتهيأت من البداية للقاء كل ما يصادفني من الحوادث وللايام المستقبلة ليس فقط بعد نفاد موئتي بل ايضاً بعد ضعف جسمي وخور عزمي

ولم يكن يخطر ببالي قط ان برقة من السماء كافية لان تلاشي كل ما كان عندي من البارود . ولكن لما ابتدأت تبرق وترعد خطر لي ذلك واحدث تأثيراً قوياً في حاسياتي كما ذكرت قبلاً . ومرادي الآن ان اذكر بالتفصيل والترتيب ما اصابني من الامور المكدرة التي لم يُسمَع قط نظيرها في العالم . وبموجب حسابي اني في ٣٠ ايلول وضعت قدمي على شاطىء تلك الجزيرة المنفردة على الطريق والحالة التي ذكرتها قبلاً . واذ كانت الشمس في اعتدالها الخريفي كانت تقريباً فوق رأسي وكنت حسبما ظهر لي بواسطة الرصد والمراقبة في طول تسع درجات واثنتين وعشرين دقيقة شمالي الخط

شعرٌ

ومن لا يزَل ينقادُ للغيِّ والصبا ... سيُلقى على طولِ السلامةِ نادِمَا

الفصل السابع

ما صادفهُ روبنصن كروزي من الصعوبات لعدم وجود الآت في حوزتهِ

وبعد ان صرفت في الجزيرة عشرة ايام او اثني عشر يوماً جال في خاطري امرٌ مهمٌ وهو حساب الوقت واذ لم يكن عندي ورق ولا حبر ولا اقلام خشيت من ان اضيع الحساب ولا إعودُ اميّز بين ايام الآحاد وباقي

ايام الاسبوع . فلكي لا اقع في هذا المحذور اخذت خشبة كبيرة مربّعة وجعلتها على هيئة صليب كبير وركزتها عمودًا على الشاطيء في الموضع الذي خرجت منه اولاً الى البرّ وخططت عليها بسكيني باحرف كبيرة حافرًا فيها هذه العبارة وهي اني خرجت هنا الى البرّ في ٣٠ ايلول سنة ١٦٥٩ . وكان ذلك افتتاح حسابي . ثم كنت كل يوم افرض بسكيني فرضًا واحدًا على جوانب تلك الخشبة المربعة فكان كل فرض كناية عن يوم . ولاجل تمييز يوم الاحد عن باقي الايام كنت اجعل له فرضًا اطول ولاجل تمييز اليوم الاول من الشهر كنت افرض له فرضًا اطول من فرض يوم الاحد . وهكذا مسكت بكل تدقيق حساب الايام والاسابيع والاشهر والسنين

وفيما كنت ذات يوم اقلّب في الصناديق التي احضرتها من المركب وجدت اتفاقًا اشياء كثيرة قليلة الثمن الاَّ انها كثيرة النفع . ومن جملة ما وجدته اقلام وحبر وورق وعدة ربطات في صناديق الرئيس وثاني الرئيس والطوبجي والنجار وبركاران او ثلاثة وبعض آلات هندسية ونظارات وخارطات وكتب في سفر البحر وثلاث نسخ من الكتاب المقدس كانت قد أُرسلت من بلاد الانكليز بين بضائعي وكنت قد وضعتها بين امتعتي وبعض كتب بلغة البرتوغال ومن جملتها كتابان او ثلاثة في صلوات بابوية وكتب اخرى عديدة . فميَّزت تلك الاشياء جانبًا ووضعتها بكل حرص الى حين الحاجة . ويجب ان لا انسى انه كان عندنا في المركب كلب وقطَّان وساذكر شيئًا من قصتها المشهورة في محلهِ . فاما القطان فاني كنت قد اخذتها معي الى البرّ . واما الكلب فانه كان قد ثار من المركب الى البحر ولحقني سابحًا الى الشاطيء وذلك ثاني يوم نزولي بوسقتي الاولى الى البرّ . واقام عندي مدة سنتين في الجزيرة وقد خدمني بكل امانة ونصاحة . فكان يأتيني بكل ما ارغبهُ مما كان في طاقتهِ ويقوم لي مقام جليس وعشير بقدر استطاعتهِ . الاَّ انه لم يكن يكلمني كما كنت ارغب . وقد ذكرت انيّ وجدت حبرًا واقلامًا وورقًا

واقول اني اقدمت ذلك حتى استخدامو وسيظهر جليًا اني كنت عند وجود الحبر اقيد كل شيء بالتدقيق الواجب ولكن بعد ان نفد حبري لم اعد استطيع ذلك . ولم اقدر على عمل حبر ولا بواسطة من الوسائط التي اخترعتها . وذلك ذكرني باني لا ازال مع كل ما كنت قد جمعتهُ في احتياج الى امور كثيرة من اخصها الحبر . وكذلك كنت مفتقرًا الى مرّ او رفش ومعول ومجرفة لاجل نقب الارض وجرف التراب والى ابر ودبابيس وخيطان . واما الحوائج والملابس الكتانية فاني تعلمت سريعًا ومن دون صعوبة الافتقار اليها

ولعدم وجود الآلات كنت اجد صعوبة في كل عمل اعملهُ حتى اني صرفت نحو سنةٍ كاملة في تتميم حوشي الصغير وتصوين منزلي . وكانت العوارض والاعمدة غليظة الجرم ثقيلة الحمل حتى اني افنيت زمانًا طويلاً في قطعها وتسويتها في الحرش وزمانًا اطول جدًا في نقلها الى محل اقامتي . فكنت اصرف احيانًا يومين في قطع واحد منها ونقلهِ ويومًا ثالثًا في ركزهِ في الارض . وكنت في اول الامر اركزها في الارض بواسطة قطعة ثقيلة من الخشب ولكنني في ما بعد صرت استعين بمطرقة كبيرة من الحديد ومع ذلك قاسيت في ركزها صعوبات واتعابًا كثيرة . غير اني لم اكن ابالي بطول المدة التي كنت اصرفها في عمل الاشياء لاني كنت ارى ان لي وقتًا كافيًا لعماوِ ولم تكن لي مصلحة اتسلى بها بعد الفراغ منهُ الاَّ الطواف في الجزيرة في طلب الصيد كما كنت افعل ذلك كل يوم

ثم اخذت اتأمل بالغمّ والهمّ في الحالة التي كنت عليها والظروف التي وصلت اليها وادوّن قصتي لا بقصد ترك ذلك لمن يأتي بعدي لاني كنت كمن لا يكون وراءهُ ورثاء كثيرون بل بقصد تخليص افكاري من الانصباب عليها يوميًا والانزعاج بها . واذ كان عقلي قد صار قادرًا على ضبط حواسي المؤنسة اخذت اسلّي نفسي بقدر استطاعتي مواضع الردي مقابل الحسن لكيون

لي ما اميز به حالي من الاردإ منها. فرسمت بكل دقة ومع نفي الغرض ما كان لي من الراحة والسعادة مقابل ما كان عليّ من التعب والشقاوة نظير دائن ومديون تحت الشر والخير وهكذا

الشرّ	الخير
لقد أُلقيت على جزيرة رديئة مقفردة من دون ادنى امل بالنجاة	الا انني لم ازل حيًّا . ولم اغرق كما غرق جميع رفاقي في المركب
لقد أفرزت من العالم بأسره وصرت وحيدًا لاكون تعيسًا	الا انني أفردت من جميع رجال المركب ونجوت وحدي من الموت . والذي انقذني من الموت بنوع عجيب يقدر ان ينقذني من هذه الحالة
لقد انفصلت عن الجنس البشري ونُفيت من عشرة بني البشر لاكون متوحدًا	الا انني لم أمت جوعًا في مكان عقيم لاينتج قوتًا
ليست لي ثياب اكتسي بها	الا انني في بلاد حارة حتى لو كانت لي ثياب كنت بالكد اقدر ان البسها على بدني
ليست لي وسائط أقي بها نفسي من الوحوش البرّية والقوم البرابرة	الا انني قد طُرحت في جزيرة لا ارى فيها وحوشًا برّية تؤذيني كالتي رأيتها في شطوط افريقية فاذا كانت حالي لو انكسر بي المركب هناك

ليس لي انسان يكلمني ويفرج كربتي	الا ان الله قد ارسل بنوع عجيب المركب الى القرب من البر حتى قدرت ان اخرج منه اشياء كثيرة لسد احتياجاتي او تمكنني من سدها ما دمت حيا

وبالاجمال اني صرت في حالة تعيسة هيهات ان يوجد في العالم حالة نظيرها . الا انه يوجد امور سلبية او ايجابية تستحق ان يشكر الله لاجلها . ولكن هذه مثالاً لاشقى الحالات في هذه الحياة مما يمكننا دائماً ان نجد فيه شيئاً نتعزى به ونقيده عند وصف الخير والشر في جانب الإلى من الحساب

واذ وطنت نفسي حينئذٍ على الارتضاء بحالي وكففت عن النظر نحو البحر لارى مركباً قادماً او ماراً من تلك الجهات اخذت اجتهد في تدبير امر معيشتي وتسهيل اموري بقدر الامكان

وقد مرّ عليك وصف منزلي وعرفت انه كان خيمة بجانب صخر محاطة من كل جهة بدارة متينة من الاعمدة والقلوس . وكنت حينئذٍ قد اقمت حول تلك الدارة من خارج شبه حائط من تراب على سمك نحو قدمين ومن ثم صار يحقّ لي ان اسمي ذلك سوراً . ثم بعد سنة ونصف تقريباً سقفتها باخشاب وغطيتها باغصان من الاشجار وغير ذلك مما وصلت اليه يدي وقايةً لها من المطر الذي كان في فصل من فصول السنة قاسياً جداً

وقد علمت مما سبق ذكرهُ كيف ادخلت جميع امتعتي الى ذلك الحوش وتلك المغارة التي حفرتها في الصخر وراءهُ . واعلم الآن ان امتعتي كانت في اول الامر موضوعة على غير نظام ولا ترتيب ولذلك كان الحوش مملوءاً بها حتى انه لم يكن لي مكان اتحرك فيه . فاخذت اوسع دائرة مغارتي واعمقها واذ

كانت ارضها رملية رخوة كانت سهلة المراس للعمل . واذ صرت اشعر بامان من هجمات الوحوش المفترسة فتحت بابًا في الصخر من الوراء كنت ادخل واخرج منهُ وبذلك اتسع الموضع لوضع امتعتي

ثم باشرت في عمل ما رأيت اني اكثر اضطرارًا اليهِ وعلى الخصوص الكرسي والطاولة . لاني بدون ذلك لم اكن اتهنأ بعيشتي ولا كنت اقدر ان اكتب او آكل او اتم بعض اعمالٍ بلذةٍ وسهولةٍ وراحة . ومع اني لم اكن نجارًا ولا ابن نجار ولا امسكت قط آلةً بيدي وجدت اني مع المواظبة بالصبر والامتحان مرّة بعد مرّة صرت مع تمادي الزمان قادرًا على عمل كل ما تحوجني الضرورة اليهِ وعلى الخصوص اذا كانت لي آلات مناسبة اعالجهُ بها . وقد عملت اشياء كثيرة من دون آلات . وعملت بعض اشياء ولم تكن لي آلةٌ اعالجها بها الاَّ منجل وفاس وذلك على طرق ربما لم أُسبَق اليها . فكنت اذا احتجت الى لوح مثلاً اذهب الى الحرش واقطع شجرة وانجر جانبيها بالفاس حتى ترقّ ثم انظفها واجلوها بالمنجل . الاَّ اني لم اكن استطيع ان اصنع من الشجرة مهما كانت غليظة الاَّ لوحًا واحدًا وذلك يحتاج كما لا يخفى الى تعب جزيل وزمان طويل . ولما كان وقتي قليل القيمة وكانت الاشجار لا قيمة لها بالكلية كنت لا ابالي بما يكلفني اياهُ لوح واحد من الوقت والاشجار . ومما تقدّم تتضح هذه القضية وهي ان كل انسان يمكنهُ بواسطة المداومة والاجتهاد واستعمال قوى عقلهِ وجودة حكمهِ ان يتقن مع التمادي كل صناعة تقتضي آلات . وذلك لان العقل هو اساس ومصدر لكل مساحة او صناعة مبنيّة على اصول مساحيّة

فاستقدمت اعمل الطاولة والكرسي قطعًا من الاخشاب التي كنت قد اتيت بها على طوفي من المركب . ولما كثرت عندي الالواح التي عملتها من الاشجار عملت رفوفًا عرض الواحد منها قدم ونصف واضعًا احدها فوق الآخر على حائط واحد من مغارتي ووضعت عليها ما كان لي من الآلات

والمسامير والحديد كلاً على حدة لاجل سهولة تناولها عند الحاجة . ثم غرزت اوتاداً على حائط آخر منها علّقت عليها بواريدي مع ما يمكن تعليقة من الاشياء الباقية . فكنت ترى مغارتي كأنها مخزن قد حوى جميع الادوات والمواعين اللازمة . وكان يسرّني جداً ان ارى حوائجي مرتبة هكذا وكثيرةً بهذا المقدار

وقد ابتدأت حينئذٍ ادوّن يوماً فيوماً اخباراً عن اعمالي واشغالي بالتفصيل في دفتر سميته جرنالاً يومية . ولم ابتدئ بهذا الجرنال قبلاً . وذلك اولاً لاني كنت حينئذٍ مرتبكاً في اموري ومضطرباً في افكاري ثانياً حذراً من ان يمتلئ جرنالي من امور كثيرة لا لذة فيها ولا فائدة منها نظير الاخبار الآتية

في ٣٠ ايلول خرجت الى البرّ ونجوت من الغرق الاّ انني لم اشكر الله ولا حمدته على ذلك بل انا بعد ما استفرغت الماء المالح الذي دخل جوفي من البحر بكثرة وصحوت قليلاً اخذت اركض على الشاطئ كمجنون واصفق يدي والطم رأسي ووجهي وانوح نادباً شقاوتي وسوء حظي ونحسي وما زلت افعل ذلك حتى اعييت من التعب وكدت اسقط على الارض مغشياً عليَّ . فانطرحت مضطجعاً على الارض طلباً للراحة الاّ اني لم أنم خوفاً من ان يفاجئني وحش كاسر او انسان متوحش فيفترسني . ثم بعد ذلك بايام بعد ما اخرجت كل ما امكنني اخراجهُ من المركب صعدت على رأس اكمة لكي اشرف على البحر لعلي ارى مركباً قادماً او مجتازاً وقد تراءى لي عند ذلك كأني كنت ارى على بعدٍ قاصٍ قلعاً فسرّني ذلك جداً . فلبثت مدة انظر الى ذلك القلع محدقاً نظري فيهِ حتى كدت أُبلى بالعمى من شدة التحديق واذا بهِ قد غاب بغتةً متوارياً عن عياني . فجلست عند ذلك انوح وابكي كولد صغير نادباً سوء حظي . فكنت بواسطة حماقتي هذه ازيد شقاوتي واعظم مصيبتي واحزاني وهلمّ جرّاً من الاخبار التي ربما لا تروق لناظر احدٍ من الناس . واما الآن فاذ

كنت كأني قد استظهرت غالبًا على تلك الحاسيات والعواطف ورتبت امور بيتي ومنزلي وصنعت طاولة وكرسيًا وصار كل ما حولي من الاثاث وغيره في حالة منتظمة مرضية اخذت في مسك جرنالي . وساقدم لك صورة ذلك الجرنال الذي لم ينقطع الاَّ بعد ان نفد حبري . وقد راجعت فيهِ ذكر كثير من القضايا المارّ ذكرها تكميلاً له وابقاء بحق المصلحة

الفصل الثامن

جرنال روبنصن كروزي

في ٣٠ ايلول سنة ١٦٥٩ . انا المسكين الشقيّ روبنصن كروزي انكسر بي المركب من جرى نوء هائل اصابنا ونحن على ظهر البحر فخرجت الى هذه الجزيرة الموحشة الذميمة التي سميتها بعدل جزيرة اليأس وذلك بعد ما غرق جميع ارفاقي في ذلك المركب وكنت انا قد اشرفت على التلف والهلاك نظيرهم . فصرفت بقية ذلك النهار في الغمّ والهمّ والاكدار ولم يكن لي طعام اقتات بهِ ولا ثياب اكتسي بها ولا بيت آوي اليهِ ولا اسلحة ادافع بها عن نفسي ولا كان لي ادنى امل بالفرج . فلم اكن ارى شيئًا امامي الاَّ الموت جوعًا او بيد برابرة او وحوش مفترسة . وما صدقت ان خيَّم الظلام حتى صعدت الى رأس شجرة هناك هربًا من عدوّ يفاجئني ونمت فيهِ نومًا مليًّا مع انهُ لم ينقطع المطر تلك الليلة كلها

في ١ تشرين الاول . هببت صباحًا منتبهًا من النوم فرأيت ان المركب قد طفا ليلاً عائمًا على الماء ودفعته الرياح نحو الشاطىء حتى صار قريبًا من الجزيرة . فاخذت اعلّل نفسي بامل الذهاب اليهِ عند سكون الريح لاستحضار

شيء من القوت والاثاث . واذ رأيته صحيحًا لم يتكسر تجددت احزاني على رفاقي وتأسفت من جرى ما وقع منا من الخطاء من الخروج منه بالسرعة مع اننا لو بقينا فيه لكنا خلصنا كلنا او خلص البعض منا على الاقل فكنا اصلحناه او بنينا من بقاياه قاربًا كبيرًا يحملنا الى جهة اخرى من الدنيا . فقضيت اكثر ذلك النهار بهذه الافكار المزعجة . الا انني اخيرًا مشيت على الرمل بقدر الامكان ثم اخذت اسبح قاصدًا المركب . وكانت في ذلك الوقت امطار ولكن من دون رياح

من ١ ت ١ الى ٢٤ منه . صرفت هذه الايام في نقل الاشياء من المركب على اطواف صنعتها لهذه الغاية . وقد حصلت امطار غزيرة في تلك الايام الا انه كان بينها اوقات صحو . والظاهر انه كان حينئذٍ فصل الشتاء في تلك الجزيرة

في ٢٠ ت ١ . كبا احد أطوافي بكل ما فيه من الوسق . ولكن اذ كانت المياه هناك غير عميقة وكان اكثر الوسق من امتعةٍ ثقيلة جمعت كثيرًا منها عند زوال المدّ

في ٢٥ ت ١ . امطرت النهار كله والليل واشتدت الرياح فكسرت المركب قطعًا وبددته اي تبديد . فلم أعد اراه بل انما رأيت فيما بعدُ قطعًا منه بالقرب من الشط . وقد صرفت ذلك النهار في تغطية واحراز ما خلصته من الاشياء

وفي ٢٦ ت ١ . صرفت ذلك النهار كله في الجولان على الساحل مفتشًا على موضع استوطن فيه . وكنت مهتمًا في ما يقيني من هجمات عدوٍ يدهمني ليلًا . فوجدت عند المساء مكانًا في لحف صخر اعجبني فعزمت على النزول هناك وتحصين قطعة من تلك الرقعة بسورٍ منيع وصنعت لها تخمًا على هيئة نصف دائرة تحديدًا لها

من ٢٦ ت ١ الى ٣٠ منه . نقلت حوائجي ومواعيني الى منزلي الجديد

وقد حصلت امطار كثيرة في بعض تلك الايام

في ٣١ ت ١ ذهبت صباحًا ببارودتي متوغلاً في الجزيرة طلبًا لاجناسها ورغبةً في الصيد . فاصطدت عنزة وتبعني جديها الى المنزل فذبحته اخيرًا لانهُ كان صغيرًا رضيعًا لا ياكل شيئًا

في ١ تشرين الثاني . نصبت خيمتي في لحف صخر ونمت فيها اول ليلة . وقد كبَّرت الخيمة بقدر الامكان وغرزت اوتادًا متينة لتعليق ارجوحتي البحرية اي سريري الذي كنت انام عليهِ

في ٢ ت ٢ . حصنت نفسي بان صففت حولي ما كان عندي من الصناديق والالواح والاخشاب وذلك على شكل دائرة

في ٣ ت ٢ . خرجت ببارودتي فاصطدت طائرين من الاوز وكان لحمها جيدًا لذيذًا . ثم بعد الظهر شرعت في عمل طاولة

في ٤ ت ٢ . ابتدأت بهذا الصباح ارتب اوقات الشغل والصيد والنوم والراحة . فكنت كل يوم صباحًا اذهب ببارودتي اذا لم تمطر واصرف ساعتين او ثلاث ساعات في الصيد ثم ارجع واشتغل الى الساعة الخامسة من النهار ثم آكل ما حضر ثم انام من الساعة السادسة الى الساعة الثامنة لان الحرَّ كان شديدًا ثم ارجع الى الشغل . وقد صرفت كل اوقات الشغل في هذا النهار والذي بعدهُ في عمل الطاولة لاني لم اكن ماهرًا بعدُ في صناعة النجارة . الَّا ان الوقت والضرورة جعلاني فيما بعد نجارًا ماهرًا وصانعًا طبيعًا كاملاً . ولا اشك انهما يجعلان غيري كذلك عند الاقتضاء اي اذا احوجهم الدهر الى ذلك نظيري

في ٥ ت ٢ . خرجت ببارودتي وكلبي فاصطدت قطًا فكان جلدهُ ناعمًا الَّا ان لحمهُ كان رديًا لا يؤكل . وكانت عادتي ان اسلخ كل ما صدتهُ من الحيوانات واحفظ جلودها وفيما كنت راجعًا من الصيد امشي على الشاطىء صادفت طيورًا كثيرة من طيور البحر لم اعلم ما هي . الَّا اني رأيت بغتةً طائرين

لم اعلم جيدًا ما هما وفي ما كنت محدقًا فيها وكنت اخاف منها غاصا بغتة في الماء وهكذا فازا هذه المرة بالنجاة مني

في ٦ ت ٢ . بعد رجوعي من الصيد صباحًا اخذت ايضًا في معالجة طاولتي حتى تممتها . الّا انها لم تعجبني ولم يمضِ الّا مدة قصيرة حتى اصلحتها

في ٧ ت ٢ . كان الفلك رائقًا وانقطع المطر . فصرفت كل هذا اليوم واليوم الثامن الى اليوم العاشر وجزءًا من اليوم الثاني عشر في عمل كرسيّ . واما اليوم الحادي عشر فلم اشتغل فيه لانهُ كان اليوم الاحد على حسابي . وبعد تعب وارتباك عظيم تمّمت ذلك الكرسيّ . وكان شكلهُ لا بأس بهِ . الّا انهُ لم يعجبني وكنت قد فككتهُ مرّات كثيرة قبل ان تمّمتهُ

تنبيهٌ * اني اهملت بعد مدة قصيرة اعتبار ايام الآحاد . فلم أعُد اضع لها علامة على العمود ولا اميّزها عن باقي الايام

في ١٢ ت ٢ . حصلت امطار غزيرة اراحتني وبردت بها الارض الّا انها كانت مصحوبة برعود وبروق مهولة ازعجتني جدًّا لاني خفت على البارود . فلما انقطعت الامطار اخذت في الحال افرّق البارود الى كميّات قليلة دفعًا للخطر

من ١٤ الى ١٦ ت ٢ . صرفت هذه الايام الثلاثة في عمل عُلب صغيرة مربّعة تسع الواحدة منها من الاربع الى الخمس اواقيّ من البارود . ولما فرغت من عملها ملأتها بارودًا وفرّقتها في اماكن حريزة بعيدة بعضها عن بعض بقدر الامكان . وفي احد الايام المذكورة اصطدت طائرًا كان جيد اللحم الّا اني لم اعلم ما هو

في ١٧ ت ٢ . شرعت في حفر مغارة وراء خيمتي توسيعًا لمنزلي

تنبيهٌ * شعرت بالافتقار الى ثلاثة اشياء استعين بها في امر الحفر وهي معول او رفش وعربة او قفّة . فتوقفت عن العمل وكنت انبصر كيف

اتوصل الى سدّ مثل الاحتياجات . اما المعول فاني قد استغنيت عنهُ بالمخل وان يكن ثقيلاً صعب المراس . واما الجرفة فلم اعلم ماذا استخدم مكانها مع انها كانت ضرورية جدًّا ولم يكن ممكنًا النجاح في عمل بدون الاستعانة بها او بما يقوم مقامها

في ١٨ ت ٢ . بينما كنت افتش في الاحراش وجدت شجرة يسمّونها في البرازيل بشجرة الحديد وذلك لشدة صلابتها وثقلها . فقطعت منها بعد تعب عظيم قطعة كادت فأسي تتعطل بسببها . ثم حملت تلك القطعة الى منزلي وذلك بصعوبة لانها كانت ثقيلة جدًا . وصرفت زمنًا طويلاً في معالجتها وتنجيرها حتى صارت رفشًا فكانت يد ذلك الرفش تشبه ايدي رفوشنا في انكلترا الآن راحته كان قفاها غير مصفح بالحديد بخلاف رفوشنا . ولهذا ما ما كان يقيم مدة طويلة الاَّ انهُ كان صالحًا للاعمال التي قصدت استخدامهُ لها . واظن انهُ لم يوجد قط رفش عُمِل على هذا المنوال وكلّف هذا المقدار من الشغل والوقت في عملهِ . وهكذا سدّدت بابين من الابواب الثلاثة فبقي عليَّ باب ثالث وهو العربة او القفة . اما القفة فكان عملها من الامور المستحيلة لانهُ لم يكن عندي موادُّ لينة كالخُوص مثلاً تصلح لذلك ولا كان احد عرف بوجود ذلك في الجزيرة . واما العربة فكان يتراءى لي انهُ يمكنني عمل كل اجزائها الاَّ الدولاب فانهُ لم تكن لي استطاعة على عملهِ ولا معرفة شيء من امرهِ . وعدا ذلك لم تكن لي وسيلة لعمل محور يدور فيهِ الدولاب ومن ثم عدلت عن عمل عربة وصنعت لنقل التراب الى خارج المغارة ماعونًا يشبه النقير الذي يحمل فيهِ الفعلة الطين للبنائين . ولم اجد في ذلك صعوبة بقدر ما وجدتهُ في عمل الرفش . الاَّ انني صرفت في عمل النقير والرفش وفي معالجة العربة من دون فائدة مقدار اربعة ايام على الاقل . وذلك ما عدا الوقت الذي كنت اصرفهُ في المشي صباحًا و بارودتي في يدي الاَّ ما ندر وقلما رجعت دون ان آتي بشيء للاكل

في ٢٢ ت ٢ . لما انهيت من عمل تلك الآلات التي بسببها كان شغلي قد توقف رجعت الى عملي الذي كنت قد شرعت فيهِ فكنت اشتغل كل يوم بقدر طاقتي ووقتي فصرفت ثمانية عشر يوماً كاملة في توسيع وتعميق مغارتي لكي تسع امتعتي بسهولة

تنبيهٌ * اشتغلت كل تلك المدة في توسيع مغارتي بحيث تكون كافية للاستخدام نظير مخزن ومطبخ وبيت سُفْرة وبيت مونة او كلار . وقد جعلت الخيمة محلاً لاقامتي ونومي . الا انهُ احياناً في فصل الشتاء كانت تحصل امطار شديدة حتى اني لم اكن استطيع ان امنع المطر عني فاضطرني الامر في ما بعدُ ان اغطي كل موضعي داخل الحوش ساقفاً اياهُ بعوارض طويلة واغصان من الاشجار حتى صار نظير مظلّة او كوخ

في ١٠ كانون الاول . بينما كنت افتكر بان مغارتي قد كملت اذا بكمية عظيمة من التراب والردم قد سقطت بغتة من سقفها ومن احد جوانبها . فكأني كنت قد كبَّرتها اكثر من الاقتضاء . فاعتراني خوف من ذلك وليس من دون سبب لاني لو بقيت تحتها لما احتجت ابداً الى حفَّار قبر ومن جرى هذه الحادثة صار عندي شغل كثير . لاني اضطررت ان اعزل الردم الذي سقط وان اصلح السقف بحيث لا يعود يسقط مثل ذلك فيما بعد

في ١١ ك ١ . اخذت اشتغل في تحصين المغارة . فنصبت دعامتين او عمودين من الارض الى السقف وقد وضعت على رأس كل منها خشبة عرضاً . فاكملت ذلك في اليوم التالي . ثم زدت عدد الاعمدة واضعاً على رأس كل منها عارضة كما تقدَّم وفي نحو اسبوع صار السقف متيناً امينا . واذ كانت الاعمدة صفوفاً منتظمة استخدمتها في تقطيع مغارتي الى بيوت صغيرة

من ١٧ الى ٢٠ ك ١ . صرفت هذه الايام في تركيب رفوف وغرز

مسامير لاجل تعليق كل ما يمكن تعليقهُ . فصارت امتعتي حينئذٍ مرتبةً قليلاً في الداخل

في ٣٠ ك ١ . نقلت كل شيء الى المغارة وشرعت في فرش منزلي وصففت قطعاً من الخشب لاجل وضع ماكولاتي عليها . الآ ان الاخشاب صارت قليلة جدًا عندي ثم صنعت طاولة اخرى

في ٢٤ ك ١ . حصلت امطار كثيرة الليل كلهُ والنهار فلم اخرج خارج منزلي

في ٢٥ ك ١ . مطرت النهار كلهُ

في ٢٦ ك ١ لم تمطر . وكانت الارض ابرد والطف كثيرًا من السابق

في ٢٧ ك ١ . اصطدت عنزة صغيرة وكسرت ساق اخرى حتى صارت تعرج فامسكتها واقتدتها بخيط الى المنزل . ولما وصلت الى المنزل جبرت ساقها المكسورة بوضع رفادة على الكسر

مع اعتنيت جدًا بتلك العنزة العرجاء فلم تمت وبعد مدة صحت ساقها وصارت قوية كعادتها . واذ بقيت عندي وكنت ادللها كل تلك المدة صارت انيسة اهليّة فكانت ترعى في البقعة الخضراء عند بابي من دون قيد ولا تهرب وهذه اول مرة خطر فيها ببالي ان اربي بعض حيوانات واجعلها اهليّة ليكون عندي ما اقتات بهِ عند ما ينفذ ما كان في حوزتي من البارود والخردق

من ٢٨ الى ٣١ ك ١ . كان الحرُّ شديدًا ولم يكن هواء ولا نسيم فكنت لا اخرج خارج منزلي الاَّ مساء وذلك لاجل الصيد والتنزه . وقد صرفت تلك الايام في ترتيب الاشياء داخلاً

في ١ كانون الثاني . كان الحرُّ مشتدًا كالايام السابقة . فخرجت بارودتي صباحًا ومساء واسترحت مستكنًّا في منزلي في اواسط النهار . وابعدت مساء

حتى وصلت الى المروج التي في اواسط الجزيرة فوجدت هناك كثيراً من المعزى ترعى . وكانت تلك المعزى برّيّةً نافرةً يصعب الدنوُّ منها ومسكها . ثم رجعت في اليوم التالي الى هناك بكلبي لاجل صيد شيءٍ منها . ولكن لما ثار الكلب عليها حوّلت وجوهها نحوهُ وهيأت المدافعة فرجع عنها خاشئاً خوفاً من ان تسطو عليهِ

في ٢ ك ٢ . شرعت في عمل سياجي او سوري . واذ كنت لا ازال في احتساب من ان يدهمني عدوٌّ مفاجئاً اياي حصنت ذلك السور تحصيناً محكماً منيعاً

ضع لا حاجة الى ذكر ما ذكرتهُ قبلاً من جهة السور واقول الآن اني صرفت من ٢ ك ٢ الى ١٤ نيسان في اقامة السور وتمميمهِ مع ان مساحتهُ لم تكن اكثر من ثلاثة وثلاثين ذراعاً . وكان على شكل نصف دائرة ممتداً من الجانب الواحد من التلّ الى الجانب الآخر منهُ على بعد ستة عشر ذراعاً من وجههِ . وكان باب المغارة في الوسط من الوراء

وكنت اشتغل كثيراً في تلك الايام الّا ان الامطار كانت تعيقني اوقاتاً عدّة ايام واوقاتاً عدّة اسابيع متوالية . وكنت احسب اني لا اكون في امان تامّ الّا بعد قيام السور وتمميمهِ . وممّا يصعب تصديقهُ الاتعاب التي كابدتها في عمل كل شيءٍ وعلى الخصوص قطع الاعمدة ونقلها من الحرش وركزها في الارض لانها كانت اكبر مما كان يقتضيهِ الحال كما ظهر لي فيما بعد

فلما انتهيت من عمل السور وتحصينهِ من خارج بسور من التراب حتى صار مضاعفاً ومنيعاً اطمأنَّ خاطري وطابت نفسي وقرَّت عيني وقلت انهُ اذا اتفق قدوم احد الى الشاطىء لا يمكنهُ ان يعرف بوجود منزل في تلك الرقعة . وفائدة ذلك السور الخارجي الذي عملتهُ من التراب ستظهر مما سيرد بيانهُ في مكانهِ

وكنت في تلك الايام اجول كل يوم في الجزيرة طلباً للصيد اذا لم يمنعني

المطر من ذلك . فكشفت اشياء كثيرة مفيدة لي ومن جملتها اليمام اي الحمام البرّي وكان من عادة هذا الطائر ان يتخذ لنفسهِ بيوتًا او اوكارًا في شقوق الصخور لا في الاشجار خلافًا لباقي الطيور فامسكت بعض زغاليل منهُ وكنت ازقّها واربيها حتى صارت انيسة اهلية الاَّ انها لما كبرت طارت عن اخرها هاربة الى الفلاة طلبًا للقوت لانهُ لم يكن عندي في اول الامر ما اطعمها اياهُ مما تحبهُ . وكثيرًا ما قصدت في ما بعد الى اوكار اليمام في الصخور واتيت بافراخها وذبحتها واغتذيت بلحومها اللذيذة

ولما شرعت في ترتيب امور منزلي وجدت ان اشياء كثيرة تعوزني ولا وجود لها عندي . وكان يلوح لي انهُ لا استطاعة لي على ايجادها ولا اصطناعها . فاني لم استطع ان اصنع برميلاً مطوَّقًا مثلاً . وكان عندي برميل او برميلان كما ذكرت قبلاً الاَّ انني لم استطع ان اصنع برميلاً نظيرها مع اني اجتهدت في ذلك جدًّا وصرفت عدة اسابيع في معالجتهِ . فلم استطع ان اركب رأسيهِ وعوارضهُ تركيبًا محكمًا يمنع زرب الماء واخيرًا عدلت عن ذلك عجزًا وتقصيرًا . وقد كنت في حيرة عظيمة من جهة الضوء الصناعيّ فاني لعدم وجود ذلك عندي كنت اذهب الى النوم عند العشوة اي بعد المغرب بساعة . فخطر ببالي قرص الشمع العسلي الذي صنعت منهُ شموعًا للضوء في سفرتي الافريقية وكنت قد بعت الرئيس البرتوغالي ما بقي منهُ فتأسفت على ذلك . ولم يبقَ لي حينئذٍ ما استخدمهُ لذلك الاَّ الشحم . ولهذا كنت كلما ذبحت عنزة اوفر شحمها لهذه الغاية . وهكذا بواسطة الشحم وسراج صغير صنعتهُ من ترابٍ وجففتهُ في الشمس وخيوط معرسة صنعت منها فتيلة صار عندي ضوء الاَّ انهُ لم يكن رائقًا ولا ثابتًا كضوء الشمع كما لا يخفى

ثم بينما كنت ذات يوم افتش بين حوائجي وجدت اتفاقًا كيسًا صغيرًا كان مملوءًا من الحبوب مونةً للدجاج كما سبقت الاشارة الى ذلك . وكانت الجرذان قد قضمت ما كان باقيًا فيهِ فلم يكن هناك الاَّ قشور وغبرة . فلما اردت

استخدامهِ لامر آخر نفضت تلك الزبالة منهُ في جوار منزلي في لحف التل وذلك قبل وقوع المطر السابق ذكرهُ بقليل . ثم بعد ذلك بنحو شهر من الزمان اذ كنت قد نسيت امر نفضي للكيس رأيت نباتًا اخضر خارجًا من الارض . فظننت ان ذلك كان هناك قبلاً ولم اَرَهُ . ولم يمضِ الاَّ قليل حتى ظهرت في رؤُوسهِ عشر سنابل او اثنتا عشرة سنبلة تشبه سنابل الشعير الاوربي او شعيرنا الانكليزي فاستغربت ذلك جدًّا وحرت في امري غير عالم من اين اتى ذلك الى هناك

وكنت في ذلك الوقت لا أسأَل عن امور الديانة ولاكانت حقائقها تخطر ببالي الاَّ نادرًا . وكنت انسب كل ما حصل لي الى الصدفة . ولم اكن التفت الى مقاصد العناية الالهية في تلك الامور ولا اسأَل عن قضاياهُ تعالى في تدبيرهِ العالم . ولكن لما رايت الشعير ينبت هناك مع علمي بان الحبوب لا تعيش في تلك الجزيرة وعدم معرفتي كيف اتى الى ذلك الموضع اخذني العجب من ذلك واستغربت هذا الامر غاية الاستغراب واخيرًا حكمت بان الله انما انبتهُ باعجوبة من دون واسطة البذار لكي اقتات بهِ في ذلك المكان العقيم المقفر

فاثَّر ذلك في قلبي واخذت الدموع تذرف من عينيَّ واخذت اهنّئ نفسي بحدوث هذه الاعجوبة لاجلي . ومما زادني عجبًا هو اني رأيت بالقرب من الشعير في لحف التلّ ايضًا نباتًا غيرهُ ظهر لي بعد تحقيق النظر فيهِ انهُ ارزٌّ لما كان من المشابهة بينهُ وبين ما كنت قد رأيتهُ من نبات الارزّ في سواحل افريقية

ومع اني كنت احسب ان تلك الاشياء انما وجدت باعجوبة لمجرد حياتي كنت لا اشكّ في وجود غيرها في الجزيرة فاخذت افتّش في كل قرنة وتحت كل صخر من الاماكن التي تردَّدت اليها فيما مضى لعلّي اجد غيرها فلم اجد . واخيرًا خطر ببالي اني نفضت الكيس الذي كانت فيهِ مونة الدجاج في ذلك

الموضع وعند ذلك اخذ عجبي بتناقص . و يجب ان اقرّ بانهُ حالما ظهر لي انهُ لم يكن في ذلك شيءٌ خارق للعادة اخذ حمدي لعناية الله يضعف شيئًا فشيئًا والحال انهُ كان يجب عليَّ ان احمد الله لاجل عنايتهِ هذه الفائقة التي حفظت تلك الحبوب القليلة من الجرذان فلم تاكلها مع البقية وان احسبها كالمنّ كأنها نازلة من السماء . ولست اشك الآن ان تلك العناية هي التي ارشدتني الى نفض الكيس في ذلك الموضع الجيد في ظل التلّ حتى نبتت تلك الحبوب حالاً كما اني لست اشك اني لو نفضتهُ في موضع آخر في ذلك الوقت لكانت تلك الحبوب احترقت من حرارة الشمس وتلفت بالكلية

وفي اواخر شهر حزيران ادركت تلك السنابل فجمعتها وادخرتها بحرص ناويًا على زرعها ايضًا لكي تكثر فيصير عندي منها ما يكفيني لعمل الخبز . ولم آكل شيئًا من تلك الحبوب الاَّ في السنة الرابعة وذلك بالتوفير لاني كنت قد اضعت كل ما زرعتهُ منها في السنة الاولى لاني زرعتهُ وقت غير صالح لهُ فلم ينبت . وكان عندي اكثر من عشرين او ثلاثين سنبلة من الرزّ . وكنت احرص على الارزّ جدًّا واعمل منهُ خبزًا في بعض الاوقات وقد اخترعت طرقًا كثيرة لطبخهِ . هذا ولنرجع الى ما كنا في صددهِ

فصرفت تلك الثلاثة او الاربعة الاشهر في عمل السور . وفي ١٤ من نيسان فرغت من عملهِ . وكنت ادخل الى منزلي واخرج منهُ من اعلاهُ بواسطة سلّم متنقلة كما سبق القول . ولم اجعل لهُ بابًا من الحائط خوفًا من ان يكون ذلك علامة يُستدَلُّ بها على منزلي . وكان منزلي فسيحًا منيعًا لا يقدر احد ان يدخلهُ ما لم يصعد على السور اولاً

ثم بعد الفراغ من عمل السور حصل خطر عظيم على حياتي وعلى كل اعمالي . وذلك اني بينما كنت ذات يوم في باب مغارتي حدث بغتةً امرٌ راعني جدًّا . فاني اذ كنت منهمكًا مُلتهيًا بالشغل تساقط كثير من التراب دفعة

واحدة من سقف مغارتي ومن حرف التلّ الذي فوق رأسي وانكسر فجأةً اثنان من الاعمدة التي سندت بها سقف المغارة واحدثا عند انكسارهما صوتًا هائلاً . فهالني ذلك جدًا ولم اعلم ما هو السبب في الحقيقة بل كنت اظنُّ في اول الامر ان سقف مغارتي كان يتساقط كما فعل قبلاً فقمت من مكاني مرتعدًا من هذه الحادثة ولخوفي من ان أُدفَن حيًا بادرت مسرعًا الى حيث كانت السلّم واذ لم اكن استأمن على نفسي هناك ايضًا خوفًا من ان تتدحرج قطع من التلّ هاوية عليّ طلعت على السور ثم نزلت الى الارض وعند ذلك ظهر لي ان تلك زلزلة هائلة . لاني شعرت بان الارض التي كنت واقفًا عليها اهتزّت ثلاث مرّات في نحو ثماني دقائق اهتزازًا يكفي لان يهدم امنع الابنية . واذ كنت في هذه الحالة اذا بقطعة كبيرة من راس تلّ على مسافة نصف ميل من البحر قد زحلت متهافتةً الى اسفل فحدث منها صوت مهول لم اسمع مثله في حياتي . وكان البحر مضطربًا اضطرابًا عظيمًا من جري تلك الزلزلة فاستدللت من ذلك على ان الزلازل تكون تحت الماء اقوى مما تكون في جزيرة

فدُهِشت كثيرًا من جرى ذلك وصرت كميْت او كمغشيٍّ عليهِ . لاني لم اشعر قط بمثلها ولا كان احد اخبرني بانه شعر في حياتهِ بزلزلة نظيرها . وقد اصابني دوار من جرى حركة الارض كمن يكون في البحر وقت النوء الاّ ان الصوت الحادث من سقوط تلك القطعة من التلّ ايقظني . ولما رجع روعي اليّ واستفقت من غشيتي امتلأ قلبي خوفًا ورعبًا واحتسابًا من ان يسقط ذلك الجبل برمّتهِ على خيمتي واثاث بيتي فيدفن دفعة واحدة كل ما تملك يدي . وعند ذلك غاص قلبي غائرًا ثانيةً في جوفي وسقطت مغشيًا عليّ . ولما انتهت الرجفة الثالثة التي لبثت مدة لا اشعر بها اخذت استفيق من وهلتي واخذ روعي يسكن . ولكنني . كنت لا ازال خائفًا من الصعود على السور لئلاّ أُدفن حيًا . فكنت تراني جالسًا على الارض كئيبًا كاسف البال لا اعلم ماذا اعمل .

ولم يخطر ببالي في ذلك الوقت فكر صالح ديني ولا جال في خاطري شيء من امور الديانة سوى هذه الطلبة الاعتيادية وهي يا رب ارحم . ولما ذهبت الزلزلة ذهبت هذه الطلبة معها

وبينما كنت جالسًا في هذه الحالة التي يُرثى لها اذا بالجو قد اغبرّ وعبس وغطتهُ غيوم ماطرة . ثم اخذت الريح في الهبوب مشتدة شيئًا فشيئًا ولم يمضِ الاَّ نصف ساعة حتى ثارت زوبعة هائلة هاج بها البحر مزبدًا حتى غطت امواجهُ الشاطئ وحدث نوءٌ عظيم . وقد اقتلعت تلك الزوبعة اشجارًا كثيرة من اصولها وبقيت على هذه الحالة نحو ثلاث ساعات . ثم اخذت الريح تسكن شيئًا فشيئًا وبعد نحو ساعتين صار هدوٌ عظيم . فاخذت السماء تمطر مطرًا شديدًا . ولا اقدر ان اصف ما حلَّ بي من الخوف والغمّ من جرى هذه الحادثة . ثم خطر لي بغتةً ان تلك الرياح الشديدة والامطار الغزيرة هي مسببة عن الزلزلة وانهُ اذ كانت الزلزلة قد انتهت صار يمكنني ان ادخل خيمتي ولا اخشى خطرًا . فاخذت قوتي ترجع اليَّ وكان المطر يساعدني في اقناعي بالدخول فدخلت خيمتي وجلست هناك ولكن لشدة المطر اضطرَّني الامر ان ادخل المغارة خوفًا من ان تسقط خيمتي على راسي من شدَّة عزم المياه . غير انني كنت هناك ايضًا في حالة الخوف والاحتساب من سقوط السقف عليَّ . واذ كنت اخاف من ان يمتلئ الموضع ماء فتحت لهُ قناةً وانبوبًا ينفذ منهُ الماء الى خارج السور . ثم بعد ان بقيت مدة في الخيمة لا اشعر بحركة الزلزلة اخذت اشعر بطمأنينة وراحة بال . ولكي انبه حاسياتي وادفع ما اعتراني من صغر النفس ذهبت الى بيت المونة وكان صغيرًا وشربت كاسًا صغيرةً من الروم ولعلمي بان متى فرغ ما عندي من ذلك الشراب لا اعود احصل على غيرهِ كنت دائمًا استعملهُ بالتوفير فدام المطر ذلك الليل كلهُ وجزءًا كبيرًا من النهار الذي يليهِ فلم اخرج من مغارتي في تلك المدة ثم اخذت اتبصر في ما ينبغي لي عملهُ . لاني بعد حصول ما حصل لم أعد استأمن على نفسي في المغارة

خوفاً من الزلازل لئلا أُدفَن في احد الاوقات حيّاً فكنت اولاً افتكر ببناء كوخ في موضع امين ابني حوله سوراً كما فعلت هنا ثم جال في خاطري ان انقل خيمتي من مكانها في لحف التل المعلق الذي كانت في خطر من ان يسقط عليها اذا حدثت زلزلة اخرى . فصرفت اليومين التاليين وهما التاسع عشر والعشرون من شهر نيسان في التبصر والاهتمام في نقل منزلي وتدبير المكان الذي ينبغي ان انقله اليهِ . واما الخوف من ان أُدفن حيّاً فقد اثّر فيّ جدّاً ومنعني ان انام براحة بال . والخوف من ان انام خارجاً من دون سور لم يكن اقلّ من ذلك . واذ كنت انظر الى ما حولي وارى كل شيء مرتباً وارى نفسي في امان من الوحوش والناس كنت اكره جدّاً امر الانتقال . ثم خطر لي انهُ يحتاج ذلك الى وقت طويل لتتميمهِ وانهُ ينبغي لي ان ارتضي بالبقاء في موضعي وان يكن خطراً الى ان ادبّر مكاناً غيره واحصنهُ جيّداً وحينئذٍ انتقل اليهِ . وكانت هذه الافكار المتناقضة تقلقلني دائماً مدة مستطيلة . واخيراً عزمت على الاخذ في الشغل بكل سرعة وبناء سور داخل دائرة كما فعلت قبلاً ونصب خيمتي داخل ذلك السور وعلى ان ابقى في منزلي الى ان ينتهي ذلك ويكون معدّاً للانتقال اليهِ . وكان ذلك في ٢١ نيسان

في ٢٢ نيسان . نهضت من النوم واخذت اهتمّ في امر الوسائط المبلّغة اليها المقصد المذكور . فكنت في حيرة عظيمة من جهة الآلات فانهُ كان عندي ثلاث فؤوس كبيرة وعدد كثير من البلطات مما كنا قد اتينا بهِ لكي نبيعهُ للهنود . الّا انها كانت جميعها قد كلّت وتثلمت من جراء كثرة استعمالها في قطع الاخشاب الصلبة الكثيرة العقد . وقد كان عندي مجلخ ولكنني لم استطع ان ادوّرهُ واجلخ آلاتي بهِ . فصرفت وقتاً مستطيلاً في الافتكار في هذا الامر بقدر ما يصرفهُ والٍ في شيء امر سياسيّ مهمٍ او قاضٍ في اخراج حكم بالموت على مذنبٍ . وفي آخر الامر اهتديت الى طريق لتدويرهِ وهو

اني دبرت له دولابًا بخيط كنت ادوّرهُ بهِ برجلي قابضًا على ما اردت تجليخهُ بيديَّ كلتيهما

تنبيه . لم ارَ قط في انكلترا آلة جلخ ولا لاحظت كيف يصطنعون ذلك فصرفت اسبوعًا بتمامهِ في عمل تلك الآلة وتكميلها وكانت كبيرة وثقيلة جدًّا

في ٢٨ و٢٩ نيسان . صرفت هذين اليومين في اصلاح آلاتي وشحذها وكنت ادوّر مجلخي بتلك الآلة التي اخترعتها له بكل سهولة وراحة

في ٣٠ نيسان . كنت قد لاحظت من مدة ان ما عندي من الخبز قد ابتدأ يقلّ وعند افتقادهِ في هذا الوقت وجدت انهُ قد قلّ جدًّا فاضطرني الامر ان اقتصر على كعكة من البقسماط كل يوم حتى هزل جسمي وضعفت قوتي من جرى قلة الاكل

الفصل التاسع

تابع جرنال روبنصن كروزي

في ١ ايار . لما انتبهت صباحًا من النوم تطلعت فابصرت على الشاطىء شيئًا كبيرًا كانهُ برميل فذهبت اليهِ لانظر ما هو فاذا بهِ برميل صغير وقطعتان او ثلاث قطع من بقايا المركب كان النوء الذي حصل اخيرًا قد دفعها الى البرّ وكان المدُّ حينئذٍ قد خفّ . ثم التفتُّ نحو المركب فاذا بهِ قد صار اعلى مما كان قبلاً عن سطح الماء . وكان ذلك البرميل الذي وجدتهُ برميل بارود قد دخلهُ ماء فبلّ البارود ثم جفّ البارود وجمد حتى صار كانهُ حجر . فدحرجتهُ مبعدًا اياهُ عن البحر ثم تركتهُ وذهبت ماشيًا على الرمل

قاصدًا المركب لعلّي اجد فيهِ اشياء أُخر . فلما وصلت اليهِ اجدني في العجب مما رأيتهُ من تغيُّر حالهِ . فان مقدَّمهُ الذي كان قبلاً مدفونًا في الرمل كان قد ارتفع ستّ اقدامٍ على الاقلّ ومؤخرهُ الذي كان قد تكسر وتحطّم وانفصل عنهُ بواسطة قوة البحر وذلك بعد ان اخرجت ما اخرجت منهُ كان قد دُفع وطرِح جانبًا . وكان الرمل قد ارتفع على الجانب الذي يلي المؤخر حتى صرت قادرًا عند ذهاب المدّ على الذهاب اليهِ ماشيًا مع اني كنت قبلاً لااستطيع الذهاب اليهِ الاّ بقطع مسافة ربع ميل سباحةً . فخطر لي سريعًا ان هذا التغيير قد حصل بواسطة تلك الزلزلة . واذ كانت الزلزلة قد اضعفت عزم المركب وفرّقت بين اجزائهِ كانت تأتي منهُ اشياء كثيرة كل يوم الى البرّ مما كان البحر يفككهُ والرياح والمياه تدحرجهُ شيئًا فشيئًا الى الشاطئ

فعدلت من جرى ذلك عن نقل منزلي واخذت انبصر في كيفية الدخول الى جوف المركب لعلي أُخرج منهُ بعض اشياء مما كان باقيًا فيهِ . واذ كان جوفهُ قد امتلأ رملاً كان املي ضعيفًا من جهة نيل هذا المرغوب واذ كان الدهر قد علّمني ان لا اقطع املي من شيء اخذت اقطع كل ما يمكن نقطيعهُ منهُ عالمًا بان كل ما آخذهُ منهُ اربحهُ ويفيدني في المستقبل

في ٣ ايار . قطعت بمنشاري خشبة غليظة من ظهر المركب كانت تربط الالواح معًا ثم اخذت أعزل الرمل الذي كان في الطبقة العليا منهُ . وعند ذلك ابتدأ المدّ فتركت العمل الى وقت آخر

في ٤ ايار . ذهبت طلبًا لصيد السمك . فصرفت زمانًا طويلاً ولم أصد سمكة تصلح للاكل . وبينما كنت على همّة الترك صدت دلفينًا صغيرًا وذلك في شبكة صنعتها من مرس رفيع . ولم يكن عندي صنّارة . وكنت مع ذلك

اصيد في الغالب كل ما احتاج اليهِ . وكنت آكل ١١٠ه بلا غير مقلوٍ ولا مشويٍّ بنار بل مجففاً في الشمس

في ٥ ايار . اشتغلت في المركب وقطعت خشبة اخرى كبيرة . ثم فككت ثلاثة الواح كبيرة مما كان في ظهر المركب وربطتها معاً والقيتها الى البحر لكي تسبح الى البرّ عند مجيء المدّ

في ٦ ايار . اشتغلت ايضاً في المركب . فاخرجت منهُ ادوات كثيرة وقضباناً حديدية. ثم رجعت الى منزلي وقد اعييت من التعب وكرهت الشغل حتى لاح لي ان اترك العمل بالكلية

في ٧ ايار . ذهبت الى المركب ولكن لا بنيَّة الشغل فوجدت ان اخشاب المركب قد انحلَّت من جرى الثقل لان ما كنت قد نشرتهُ منها كان قد اضعف قوتها وكانت قطع كثيرة منهُ قد تفككت وجوفهُ قد انفتح حتى انهُ لولا كثرة الرمال والمياه كان الناظر يقدر ان يرى داخلهُ

في ٨ ايار . ذهبت الى المركب واخذت معي مخلاً من حديد ناوياً ان افكك بقية الالواح التي بُني منها الظهر لانهُ لم يكن هناك رملٌ ولا ماء . ففككت لوحين والقيتهما الى البحر لكي يحملهما المدُّ الى البرّ . ثم انثنيت راجعاً الى منزلي وقد تركت ذاك المخل في المركب لكي استعين بهِ في العمل في اليوم القادم

في ٩ ايار . ذهبت الى المركب وفتحت بواسطة المخل طريقاً الى جوفهِ . فرأيت انهُ يوجد هناك براميل كثيرة فاخذت احركها بالمخل لاجل ابعاد بعضها عن بعض وحاولت تكسيرها ورفعها من هناك ولكن من دون نتيجة . ورأيت ايضاً ربطة من صفائح الرصاص فكنت احرّكها بالمخل الا اني لم استطع ان ازحزحها لثقلها

من ١٠ الى ١٤ ايار . كنت اذهب كل يوم الى المركب وآتي بكثير من الاخشاب والحديد

في ١٥ ايار . ذهبت الى المركب واخذت بلطتين نلويا ان اقطع ربطة الرصاص . فكنت اضع حدّ البلطة الواحدة على الرصاص واضرب على قفاها بقفا البلطة الاخرى . ولكن اذ كان فوق تلك الربطة مقدار قدم ونصف من الماء لم يؤثر ضربي فيها

في ١٦ ايار . هبّت رياح شديدة ليلاً . وكان يبان لي ان المركب قد تكسر وتقطع قطعاً كثيرة من قوة المياه . واذ صرفت زماناً طويلاً في الاحراش في صيد حمام اغتذي به لم اذهب الى المركب في ذلك النهار خوفاً من ان يدركني المدّ

في ١٧ ايار . رأيت على الشاطىء على مسافة نحو ميلين من منزلي قطعة من المركب كان قد دفعها البحر الى هناك فذهبت اليها فوجدت انها قطعة من رأسه فحاولت حملها فلم استطع لثقلها فرجعت عنها الى منزلي

من ١٨ الى ٢٤ ايار . صرفت كل تلك الايام في الشغل في المركب وبواسطة الاجتهاد ومواظبة العمل فككت اشياء كثيرة وزحزحتها من مواضعها حتى انه في اول مدّ استصحبت رياح سبع الى البرّ براميل كثيرة وصندوقان من صناديق النوتية . وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر كانت الريح من البرّ فلم يخرج من البحر الا قطع من الاخشاب وبرميل فيه لحم خنزير من البرازيل كان قد تعطل بسبب الماء المالح والرمل . وما زلت آخذاً في ذلك العمل الى ١٥ حزيران وذلك من دون انقطاع الا ما صرفته في الصيد . على اني لم اكن اذهب للصيد الا عند ارتفاع المدّ فصار حينئذٍ عندي اخشاب والواح وادوات حديدية كافية لبناء قارب كبير الا اني كنت غير خبير في هذه الصناعة . وكان عندي كمية وافرة من صفائح الرصاص

في ١٦ حزيران . بينما كنت ذاهباً الى حافة البحر صادفت سلحفاة كبيرة لم انظر سلحفاةً غيرها قبلاً في الجزيرة . وذلك لا لعدم وجود السلاحف اي قلتها هناك بل لسوء حظي لاني لو ذهبت الى الجانب الآخر من الجزيرة

لوجدت مئات من السلاحف كما وجدت ذلك فيما بعد الأ انها كانت كلفتني كثيرًا بالهائها اياي عن الاجتهاد في تخليص ما خلصته من المركب

في ١٧ حز . صرفت ذلك النهار في طبخ تلك السلحفاة وكان لحمها عندي في ذلك الوقت ألذّ واشهى اللحوم التي اكلتها في حياتي لانهٔ لم يكن لي لحم آكلهُ في تلك الجزيرة العفيفة الأّ لحم المعزى والطيور . وقد وجدت في جوف تلك السلحفاة ستين بيضةً

في ١٨ حز . امطرت النهار كلهُ فلم اخرج من منزلي . فحسست بالبرد وشعرت بقشعريرة وكنت احسب ذلك من الامور غير النادرة في ذلك الطول

في ١٩ حز . شعرت بمرض شديد وارتجفت كما لو كان الهواء باردًا جدًّا

في ٢٠ حز . لم استرح الليل كلهُ وشعرت بالم شديد في راسي وحمّى في جسمي

في ٢١ حز . اشتدَّ مرضي وخفت خوفًا شديدًا من ان امرض مرضةً ثقيلة وليس عندي من يخدمني . فصلّيت الى الله وكان ذلك اول مرةٍ بعد ذلك النوء في نواحي هول . الأّ انني لم اعلم جيدًا ماذا قلت ولا لماذا قلت ما قلتهُ لان عقلي كان مضطربًا وافكاري مرتبسة

في ٢٢ حز . شعرت بشيءٍ من الراحة الأّ انني كنت خائفًا جدًّا من ان يشتدَّ مرضي

في ٢٣ حز . راجعني المرض اي البرد والارتجاف والوجع الشديد في راسي

في ٢٤ حز . شعرت براحة من المرض

في ٢٥ حز . حصل لي دَوْر شديد جدا استمرَّ تسع ساعات . فاني بردت ثم حممت ثم عرقت قليلاً

في ٢٦ حز . فارقني الدور واذ لم يكن عندي طعام اقتات بهِ خرجت ببارودتي وكنت اشعر بضعف في جسمي وركبتيَّ . فاصطدت عنزة واتيت بها الى المنزل وذلك بصعوبة فشويت قليلاً من لحمها واكلتهُ . وكان احبُّ اليَّ ان اسلق اللحم واعمل منهُ مرقة الاَّ انهُ لم يكن عندي قِدر او طنجرة

في ٢٧ حز . اصابني دورٌ قويٌّ فالتزمت في سريري النهار كلهُ من دون اكل ولا شرب . وكدت اهلك من شدة العطش لانهُ لم يكن عندي ماء ولا كان لي قوة على السعي في جلب الماء . فصلَّيت الى الله ولكن اذ كنت اشعر بخفَّة وطياشة في راسي لم اكن اعلم ماذا اقول بل كنت اصرخ وانا منطرح على ظهري قائلاً يا رب انظر اليَّ يا رب تحنن عليَّ يا رب ارحمني . واظنُّ اني بقيت ساعتين او ثلاثًا لا افعل شيئًا الاَّ الصراخ على هذا المنوال . وكنت شديد الجهل في امور الديانة والصلاة . ثم اخذ الدور يفارقني فنمت حينئذٍ ولم انتبه الاَّ بعد الغروب بمدة طويلة . فلما انتبهت شعرت براحة الاَّ انني كنت ضعيفًا وعطشان جدًّا واذ لم يكن عندي ماء في المنزل لم يكن لي سبيل الاَّ الصبر والتجلُّد فاضطجعت الى الصباح . ثم نمت ايضًا وبينما كنت نائمًا رأيت حلمًا مخوفًا تراءى لي كأني جالس على الارض خارج سور منزلي حيث كنت جالسًا عند هبوب الريح بعد الزلزلة واذا انسانٌ قد انحدر من سحابة سوداء كثيفة في لهيب ساطع حتى وصل الى الارض وكان كلهُ منيرًا كلهيب نار حتى كنتُ لا اطيق ان انظر اليهِ الاَّ بصعوبة . وكان منظر وجههِ مهيبًا جدًّا لا توجد كلمات لوصفهِ . فلما داس الارض برجلهِ تراءى لي كأنها ارتعدت مرتجفة كما فعلت عند الزلزلة . وكنت ارى الجوَّ كلهُ مملوءًا شهب نار . وان ذلك الانسان اخذ يمشي نحوي وبيدهِ رمح طويل قد اشرعهُ كأنهُ قاصد قتلي . فلما وصل الى موضع مرتفع بالقرب مني كلمني او بالحري سمعت صوتًا هائلاً لا توصف فظاعتهُ . وكل ما اقدر ان اقولهُ ان ما فهمتهُ منهُ هو قولهُ اذ

كانت كل هذه الامور لم تقبل بك الى التوبة قد استوجبت الموت لا محالة .
وعند قوله ذلك تراءى لي كأنه رفع رمحة واراد ان يطعنني به . ولا استطيع ان اصف ما حاق بي من الاهوال عند ما حلمت ذلك الحلم ولا ما بقي في نفسي من التأثر عند ما انتبهت ورأيت انه لم يكن الاّ حلمًا

وكنت وا أسفاهُ عاريًا بالكلية من معرفة الديانة . وما كنت قد تعلمته في صغري من ابي الصالح كان قد فقد مني بواسطة ارتكابي مدة ثماني سنين شرورًا متواصلة مما من عادة البحرية ارتكابه وبواسطة معاشرتي من دون انقطاع اقوامًا ارديا. وسفهاء جدًّا نظيري ولا اظنُّ انه خطر ببالي في كل تلك المدة شيء يحملني على النظر الى فوق نحو الله او الى داخلٍ نحو حواسي التأمل في طرقي . بل كان قلبي قد صار قاسيًا متمردًا ونفسي ميتة فلم اكن ارغب في شيء صالح . ولا اشعر بشرّ ما اعمله فكنت تمامًا كما يكون اقسى واجهل واردأ رجل من عامة نوتيتنا . ولم اكن اشعر بخوف الله وقت الخطر ولا بشكره وقت النجاة

ومما لا يصعب على قارىء قصتي تصديقه هو انه لم يخطر ببالي قط ان شيئًا من المصائب المتنوعة التي اعترتني هو من قبل الله او هو قصاص عادل لاجل خطاياي وعصياني على ابي وارتكابي معاصي كثيرة ضده تعالى . واذ كنت في سفري الخطر على شطوط افريقية المقفرة لم يكن يخطر ببالي شيء من جهة ما يصيبني ولا كانت لي ارادة ان اطلب من الله ان يرشدني اين اذهب او يحفظني مما كان محيطًا بي من الخطر من الوحوش الكاسرة والقوم البرابرة ولا كنت افتكر بالله ولا بعنايته بل كنت اعيش كحيوان غير ناطق تابعًا اهواء الطبيعة وارشادات العقل الغريزي فقط. حتى اني قد خالفت هذه ايضًا مرات كثيرة . ولما انقذني الرئيس البرتوغالي وقبلني في مركبه واحسن معاملتي وتصرف نحوي بالانصاف والكرم والمحبة لم اشعر بادنى شكر في قلبي. وكذلك لما انكسر بي المركب واوشكت ان اهلك غرقًا على حدود هذه الجزيرة لم يمكنني

ضميري ولا اعتبرت ذلك نظير قصاص بل انما كنت اقول في نفسي اني كلب تعيس قد وُلدت لكي اكون دائمًا شقيًا

على انني لما وصلت الى البرّ في هذه الجزيرة ورأيت أن جميع نوتيتنا قد غرقوا ونجوت انا وحدي اعتراني ذهول وحركات حبور لا توصف . فلو ساعدتني نعمة الله كانت تلك الحركات ربما ساقتني الى تقديم شكر حقيقي الا انها انتهت حيث ابتدأت اعني في فرح اعتيادي وقتي . اي اني فرحت ببقائي حيًا ولكنني لم التفت بالكلية نحو جودة اليد التي خلصتني واختارتني للنجاة دون جميع رفاقي ولا نظرت الى السبب الذي لأجله عاملتني العناية الصمدانية بهذا المقدار من اللطف والرحمة وكان ما حصل لي من الفرح نظير ما يحصل عادةً من ذلك للبحرية عند نجاتهم من الغرق ووصولهم الى برّ الامان فانهم يغرقون ذلك جميعه في اول كاس شراب يتناولونه وينسونه حالاً بعد زوال سببه . وهكذا كانت بقية حياتي . ثم لما شعرت في ما بعد بالحالة التي كنت فيها اي كيف القيت في ذلك الموضع الرديء البعيد عن البشر حيث لا يوجد باب امل في الفرج والنجاة فحالما لاح لي باب امل في الحياة وفي اني لا اموت جوعًا فارقتني كل حاسيات الحزن وابتدأت اشعر بالراحة واتعاطى باجتهادٍ الاعمال الضرورية لوقايتي وحياتي . وكنت بعيدًا جدًا عن الشعور بالحزن من جرى حالتي باعتبار كونها قضاء من السماء او كونها علامةً لغضب الله عليّ . فان هذه الامور قلما كانت تخطر ببالي

وقد ذكرت آنفًا في جرنالي كيف ان التأثر الذي حدث في نفسي عند ما رأيت ذلك الزرع نابتًا وكيف كنت اتخشع متذللاً عند الافتكار بانه انما وُجد هناك باعجوبة لاجلي . وكيف انه لما ذهب من عقلي هذا الفكر ذهب معهُ كل ذلك التأثر حتى ان الزلزلة نفسها التي لا يمكن وجود اهول منها طبعًا ولا ادلّ منها على قوة الله غير المنظورة التي وحدها قادرة على اعمال بامرة كهذه زال ما احدثته فيّ من التأثر مع زوال حاسيات الخوف منها . ولم اكن اشعر بوجود

الله. ولا باحكامهِ ولا بان ما اصابني من التجارب والمحن كان بامرهِ اكثر مما كنت اشعر بذلك لو كنت في احسن حال واعظمها نجاحًا . واما الآن فاذ قد اعتراني مرض وحصلت لي فرصة للنظر الى شفاء الموت وغصصهِ وكهمت عواطفي الجامحة من جرى ثقل المرض وضعفت طبيعتي من جرى شدة الحمّى انتبهَ ضميري بنتبه من رقادهِ المستطيل واخذت ابكّت نفسي موبخًا اياها على سلوكي الماضي الذي اغضبت بهِ عدل الله بواسطة رداءتي المفرطة حتى القاني تحت ضربات خارقة للعادة وعاملني بهذا المقدار من الصرامة انتقامًا مني فهذه التأملات ضايقتني في اليوم الثاني والثالث من مرضي . واذ كنت في ضيقة من الحمّى ومن تقريعات ضميري اخذت انلفظ بكلمات كأنها صلاة الى الله . ولا اقدر ان اقول ان تلك الصلاة كانت ناتجة عن رغبة او مصحوبة برجاء بل انما كانت بالحري اصواتًا ناتجة عن خوفٍ صرفٍ وضيقةٍ محضة . وكانت افكاري معربسة مرتبكة والشعور بشرّ الخطية وقباحتها ثقيلاً عليّ . وكان الرعب من الموت في تلك الحالة التعيسة يجعل الابخرة تتصاعد الى راسي . واذ كنت في تلك الحالة المكربة كنت لا اعلم ماذا ينطق بهِ لساني . وكأني كنت اصرخ هكذا يا ربي ما اعظم شقاوتي . اذا اصابني مرض ثقيل اموت لا محالة لعدم وجود من يخدمني ومن يعتني بي . وماذا يصيبني حينئذٍ . وعند ذلك اخذت الدموع تهطل منحدرة على خديّ . فاقمت مدة صامتًا لا استطيع ان اتكلم . وفي تلك الاثناء خطرت ببالي نصيحة ابي الصالحة ونبوّتهُ التي ذكرتها في اول هذه القصة وهي اني اذا بقيت مصرًا على عزمي فان الله لا يبارك عليّ وانهُ سيكون لي فرصة في ما يأتي لان اتذكر اني قد تهاونت بمشورتهِ ولا يكون من يساعدني في النجاة . وعند ذلك قلت بصوتٍ عالٍ ان كلمات ابي قد تمت وقد ادركني عدل الله وليس من يساعدني ولا يسمع صراخي . فاني قد رفضت صوت العناية التي وضعتني برحمةٍ في مركز كان يمكنني فيهِ ان اكون سعيدًا مرتاحًا الاَّ انني لم اشأ ان ارى ذلك ولا ان اتعلم من والديّ معرفة بركاتهِ . فقد

تركتها لكي انوح على حماقتي فتُركت لكي انوح تحت نتائجها . وقد رفضت مساعدتها وموازرتها مع انهُ كان لها قدرة وارادة ان يلقيا نظرهما عليَّ في العالم ويسهلا اموري . واما الآن فان امامي صعوبات اتكبدها ما هو فوق طاقة الطبيعة نفسها وليس لي مساعدة ولا تعزية ولا مشورة . وعند ذلك صرخت قائلاً يا رب كن لي عونًا فانّي في ضيقة عظيمة فهذه هي الصلاة الاولى التي صليتها في مدة سنين كثيرة اذا كان يحقُّ لي ان ادعوها صلاةً

شعرٌ

هيَ الدنيا تقولُ بملء فيها	حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
فلا يغرركمُ مني ابتسامٌ	فقولي مضحكٌ والفعلُ مبكي

الفصل العاشر

تابع جرنال روبنصن كروزي

في ٢٨ حز . استرحت قليلاً بواسطة النوم وفارقني الدور منقطعًا عني بالكلية فنهضت صباحًا من فراشي . ومع ان ما اعتراني من الخوف والرعب بسبب ذلك الحلم كان عظيمًا جدًا كنت احسب انَّ الدور سيرجع في اليوم التالي ولهذا اخذت في تلك الفترة ادبّر شيئًا ارطّب بهِ مزاجي واسند بهِ قلبي وقت الدور . واول شيء عملتهُ هو اني ملأت زجاجة مربعة ماء ووضعتها على طاولتي بجانب سريري وقد مزجت ذلك الماء بقليل من الروم دفعًا لرطوبتهِ. ثم اتيت بقطعة من لحم المعزى وشويتها على الجمر الّا اني لم آكل منها الّا قليلاً

جدًا . وكنت امشي غير اني كنت ضعيف الجسم جدًا وكان قلبي موعبًا غمًا وهمًا وكآبةً من جرى حالتي الشقية وخوفي من رجوع الدور في اليوم التالي . واذ اقبل المساء اخذت ثلاث بيضات من بيضات تلك السلحفات وشويتها في الرماد الحار واكلتها بقشرها عشاءً لتلك الليلة . وعلى ما اذكر ان تلك هي اول لقمة من الطعام طلبت قبلها بركة الله في كل حياتي . وبعد العشاء حاولت المشي الا اني كنت اشعر بضعف شديد حتى كنت لا اقدر ان احمل البارودة التي لم اكن اخرج بدونها الا عن عجزٍ . ولم امشِ الا مسافة قصيرة حتى اعييت فجلست على الارض مقابل البحر واخذت اتأمل فيهِ وكان حينئذٍ هادئًا رائقًا او كما يقال غلينة . وبينما كنت جالسًا هناك جالت في خاطري افكارٌ وهي ما هي هذه الارض وهذا البحر اللذين رأيتهما مرارًا كثيرة في حياتي . ومن اين اتيا او كيف وُجدا . وماذا انا وباقي الخلائق الناطقة والغير الناطقة ومن اين نحن . لا شكَّ اننا جميعنا خلائق قد صنعتنا قوة لا تُدرَك وهي التي خلقت الارض والبحر والماء والفلك . وما هي تلك القوة . فنتج من ذلك بالضرورة ان الله هو الذي صنع الجميع . ثم خطر لي انهُ اذ كان الله قد خلق كل هذه الاشياء لابد من ان يكون هو الذي يدبرها ويعتني بها وبما فيها . ومن ثم لا يمكن حدوث شيء في دائرة اعمالهِ العظيمة من دون علمهِ وقضائهِ وامرهِ .

واذ كان لا يحدث شيءٌ من دون علمهِ تعالى لابد انهُ يعلم باني انا موجود ههنا وباني في هذه الحالة المهولة . واذ كان لا يحدث شيءٌ من دون امرهِ وقضائهِ لا بد من انهُ يكون قد قضى بوقوع ذلك عليَّ . ولم يعرض لخاطري شيءٌ ينقض هذه القضايا . ومن ثمَّ رسخ في ذهني ان الله قد قضى بوقوع تلك الامور عليَّ واني لم أَصِل الى تلك الحالة التعيسة الا بامرهِ لانهُ هو المسلط عليَّ وعلى كل ما يحدث في العالم وعند ذلك خطر ببالي هذا السؤال وهو لماذا يفعل الله بي هكذا وماذا فعلت حتى استوجبت المعاملة منهُ على هذا المنوال .

ولكن ضميري وبخني على هذا الفكر كأني قد جدَّفت. وترآءى لي كأني كنت اسمع صوت الضمير يقول يا شقيُّ ابحقٍّ لمن كان مثلك ان يسأَل قائلاً ماذا فعلت. انظر الى سيرتك الماضية التي صرفتها في الخطايا والمعاصي ثم اسأَل نفسك ما هو الشيء الذي لم تفعلهُ. اسأَل لماذا لم تُهلَك منذ زمان مديد. ولماذا لم تغرق في موانئ برموث. ولماذا لم تقتل في الحرب عندما اخذ مركب سلّي الحربيُّ المركب الذي كنت فيهِ. ولماذا لم تفترسك الوحوش البرية على شطوط افريقية. ولماذا لم تغرق هنا عندما غرق جميع ما في المركب ونجوت انت وحدك. ابحقٍّ لك ان تسأَل ماذا عملت. فلما تصورت جميع هذه الامور امام عينيَّ عقلي دُهشت وابكمت مفحمًا ولم يكن لي ما اقولهُ او اجاوب بهِ نفسي. ثم نهضت من مكاني وانا متفكر حزين وانثنيت راجعًا الى خلوتي وصعدت على السور ذاهبًا الى النوم. الاَّ ان افكاري كانت مضطربة ولم يكن لي ميل الى النوم ولذلك جلست على الكرسي واضأْت سراجي لان الظلام كان قد ابتدأ يخيم وجعلت اتأمل في تلك الامور

واذ كنت منزعجًا جدًّا من جري احتسابي من رجوع الدور خطر ببالي ان اهالي البرازيل لا يستعملون دواء لاكثر امراضهم الاَّ التبغ. وكان عندي في احد الصناديق قليل من التبغ اليابس جدًا وقليل من الاخضر. فعمدت الى ذلك الصندوق ولست اشك ان الله ارشدني اليهِ وذلك لاني وجدت فيهِ علاجًا للنفس والجسد جميعًا. ولما فتحتهُ وجدت فيهِ التبغ مطلوبي ووجدت ايضًا نسخة الكتاب المقدس التي ذكرتها قبلاً ولم تحصل لي فرصة في ما مضى لفهمها ولا رغبة في قراءتها. فاخرجت تلك النسخة والتبغ واتيت بهما الى الطاولة ووضعتهما عليها. فاما التبغ فلم اكن اعلم كيف استعملهُ دواء لمرضي ولا هل هو نافع لعلتي او مضرٌّ لها. الاَّ اني اختبرتهُ على طرق شتَّى مؤَمّلاً ان اصيب في احدها. فوضعت اولاً قليلاً من الورق في فمي وجعلت امضغهُ. فكاد في اول الامر يخدر دماغي لانهُ كان اخضر وقويًّا ولم اكن متعودًا عليهِ.

ثم اخذت قليلاً من التبغ ونقعتهُ نحو ساعة او ساعتين في قليل من الروم لكي اشربهُ عند النوم. ثم وضعت قليلاً من التبغ في كانون من نار الفحم ووضعت انفي فوق دخانهِ قريبًا منهُ ولبثت على هذه الحالة بقدر احتمالي للحرارة والدخان اي الى ان ضاق صدري واوشكت ان احترق . وكنت في اثناء هذه العمليات الثلاث اتناول الكتاب المقدس واقرأُ فيهِ . الاَّ ان التبغ احدث في راسي دوارًا فلم يعد يمكنني ان اقرأ في ذلك الوقت . واتفق ان الكلمات الاولى التي وقعت تحت نظري عند فتحي الكتاب كانت قولهُ تعالى أُدعُني في يوم حزنك فأُنقذك وتمجدني . وهذه الكلمات كانت تطابق جدًّا حالتي فاحدثت عند قراءتها بعض التأثير في نفسي الاَّ ان تأثيرها في ما بعد كان اشدَّ واعظم . واما قولهُ فأُنقذك فانهُ يمكنني ان اقول انهُ كان لا معنى لهُ بالنظر اليَّ . فان امر إنقاذي كان على قدر معرفتي وادراكي للامور مستبعدًا جدًا وضربًا من المحال . فابتدأت اقول هل يقدر الله ان ينقذني من هذا الموضع وذلك كما قال بنو اسرائيل بمحاقة وكفر عند ما وعدهم الله بلحم ياكلوا هل يقدر الله ان يهيئ مائدة في البريَّة

واذ مضى سنون كثيرة قبلما انفتح لي باب للامل من هذا القبيل كان هذا الامر يغلبني مرارًا كثيرة ويوقعني في حالة اليأس . الاَّ ان تلك الكلمات احدثت فيَّ تأثيرًا عظيمًا حتى اني كنت اتامل فيها مرارًا كثيرة . واذ كان قد مضى جزءٌ عظيم من الليل وكان التبغ قد احدث دوارًا وخدرًا في رأسي عبث النعاس بعيني فتركت سراجي موقدًا في المغارة لعلّي احتاج الى شيءٍ ليلاً وذهبت الى سريري . وقبلما اضطجعت لأنام فعلت شيئًا لم افعلهُ قط في حياتي كلها وهو اني ركعت على ركبتيَّ وصلَّيت الى الله طالبًا منهُ انجاز وعدهِ نحوي وهو ان ينقذني اذا دعوتهُ في وقت ضيقي . وبعد ان فرغت من تلك الصلاة الغير الكاملة شربت الروم الذي نقعت فيهِ التبغ وكان قويًا جدًا ولذاعًا حرّيفًا حتى اني لم استطع ان ابتلعهُ الاَّ بصعوبة عظيمة فلما فرغت من

شربه اضطجعت . وللحال تصاعدت ابخرة الروم الى راسي بعزم شديد فاستغرقت في النوم وعلى ما لاح لي من ملاحظة الشمس اني لم انتبه من النوم الاّ بعد الظهر بثلاث ساعات تقريبًا . غير اني الى الآن اظن باني بمت ذلك النهار كله مع ليلهِ وبقيت نائمًا الى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر من النهار الذي يليهِ . والاّ فلا اعلم كيف اضعت يومًا في حسابي لايام الاسبوع كما ظهر لي ذلك بعد عدة سنين فلو كنت قد اضعت ذلك بواسطة اعادة العلامة لكان يجب ان اكون قد اضعت اكثر من يوم . فاني متحقق باني قد اضعت يومًا في حسابي ولكن لا علم لي كيف كان ذلك . وكيفما كان الامر اقول اني شعرت عند انتباهي براحة عظيمة ونشاط وانشراح صدر وكنت اكثر قبولاً للأكل واقوى من اليوم السابق . وباختصار اقول ان الدور لم يأتني في اليوم التالي بل كنت اتقدم مخيمًا نحو الصحة . وكان ذلك اليوم التاسع والعشرين من شهر حزيران

في ٣٠ حز . اذ لم يكن ذلك يوم دوري خرجت باروودتي كعادتي الاّ اني لم ابعد كثيرًا عن منزلي حتى اصطدت طائرًا او طائرين من طيور البحر يشبهان البط ودجاجة ارض واتيت بهما الى المنزل . الاّ اني خفت ان آكل لحمًا فاكلت بعضًا من بيض السلحفاة وذلك باللذة . ولما اقبل الليل نقعت التبغ في الروم كما فعلت قبلاً وتناولت ذلك عند النوم الاّ انني لم امضغ الورق ولا تبخرت بالدخان . غير اني شعرت في اليوم التالي وهو اول يوم من تموز بدور خفيف من البرد ولم اشعر براحة كاليوم الماضي

في ٢ تموز . استعملت الطرق الثلاث من العلاج التبغي فاصابني دوار كالسابق وكنت قد تناولت ضعف ما كنت تناولته قبلاً

في ٣ تموز . تركني الدور بالكلية الاّ اني لم ابرأ بالتمام الاّ بعد مضيّ عدة اسابيع . وكنت كلما تقدمت نحو الصحة اتامل كثيرًا في هذه العبارة من الآية المارّ ذكرها قوله تعالى فأُنقذك . الآن استحالة نجاتي كانت تؤثر كثيرًا في

عقلي وتسدُّ كل باب للامل من هذا القبيل . وبينما انا في هذه الحالة من اليأس خطر لي ان اثر نجاتي من المصيبة العظمى قد الهاني عن النجاة التي حصلت عليها فاخذت اسأل نفسي قائلاً يا نفس اما نجوتِ بنوع عجيب من المرض الذي كان يخيفك جدًا . فهل اعتبرتِ ذلك حقَّ اعتباره وعملتِ ما يجب عليكِ . ان الله قد انقذكِ واما انتِ فلم تجديهِ . اي لم تقرّي بان تلك نجاة ولا اديتِ الشكر لاجلها . وكيف يسوغ لكِ ان تنتظري او تطمعي في نجاةٍ اعظم منها . وان هذه التاملات احدثت في نفسي تأثيرًا عميقًا فركعت للحال منتصبًا على ركبتيَّ وشكرت الله بصوت عالٍ على شفائي من المرض

في ٤ تموز . فتحت الكتاب المقدس وجعلت اقرأ باصغاء مبتدئًا في العهد الجديد . وفرضت على نفسي ان اصرف كل يوم مدة صباحًا ومساء في القراءة فيهِ ولم افرض على نفسي عددًا معينًا من الفصول بل تركت ذلك لرغبتي . وبعد ان واظبت ذلك مدة من الزمان احدثت رداءة سيرتي الماضية تأثيرًا عميقًا ثابتًا في قلبي وتجددت تأثيرات ذلك الحلم . وكانت كلمات ذلك الانسان وهي ان جميع هذه الامور لم تُقبل بك الى التوبة تتردد في عقلي وتؤثر في ضميري فاخذت اطلب الى الله بحرارة ان ينعم عليَّ بالتوبة . وبينما كنت اقرأ ذلك اليوم في الكتاب المقدس اتفق اني عثرت بنوع عجيب على هذه الكلمات وهي قد رفع رئيسًا ومخلصًا ليعطي التوبة وغفران الخطايا . ومن ساعتي القيت الكتاب الى الارض وركعت منتصبًا ورفعت يدي وعيني وقلبي نحو السماء كمن خطفت روحهُ وصرخت بصوت عالٍ قائلاً يا يسوع ابن داود يا يسوع المرفوع رئيسًا ومخلصًا اعطني التوبة وغفران الخطايا حسب وعدك . وتلك هي اول مرةٍ يمكنني ان اقول بحقٍ اني صليت فيها في كل حياتي . وذلك لاني صليت حينئذٍ شاعرًا بحالتي وراجيًا رجاء حقيقيًا مبنيًا على كلام الله وصدق مواعيدهِ قبول صلاتي . ويمكنني ان اقول اني صرت من ذلك

الوقت فصاعدًا ارجو ان الله يُصغي اليَّ ويستجيب لي

فاخذت حينئذٍ افسر قوله تعالى أُدعني فأُنقذك تفسيرًا يختلف عن تفسيري السابق . وذلك لاني لم اكن احسب قبلاً نجاة الاَّ نجاتي من تلك الحالة الموحشة التي كنت فيها . ومع اني لم اكن مقيدًا في ذلك الموضع كانت تلك الجزيرة عندي سجنًا من اشنع السجون . ولكني تعلمت حينئذٍ فهم ذلك بمعنى آخر . فاني راجعت حياتي الماضية بكراهة عظيمة وظهرت خطاياي شنيعة وفظيعة جدًا حتى اني لم اكن اطلب من الله الاَّ النجاة من ثقل الذنوب والخطايا التي كانت تنزع كل راحتي . ولم تكن وحدتي شيئًا بالنظر الى ذلك حتى اني لم اصلِّ لأُنقذ منها ولا كنت احتفل بها وقد ذكرت ذلك هنا لكي ابين لكل واقف على قصتي انهُ متى ادرك الامور على حقها يجد النجاة من الخطية بركةً اعظم جدًا من النجاة من المصيبة مهما كانت عظيمة فصارت حينئذٍ حالتي اسهل بالنظر الى عقلي الاَّ انها لم تكن اقلّ شقاء بالنظر الى طريقة معيشتي . واذ كانت افكاري بواسطة مواظبة قراءة الكتاب المقدس والصلاة الى الله تتجه الى امور هي في ذاتها افضل كنت اشعر في باطني بتعزية عظيمة لم اكن اشعر بشيء منها في ما مضى . وكذلك اذا رجعت صحتي وقوتي كنت اسعى بنشاط في تدبير كل ما احتاج اليهِ وفي ترتيب حياتي بقدر استطاعتي

من ٤ الى ١٤ تموز . صرفت تلك الايام في التمشي من مكان الى مكان وبارودتي بيدي وكانت العافية تأتيني شيئًا فشيئًا . وكان قد هزل جسمي وضعفت قوتي جدًا . والعلاج الذي استعملتهُ لمرضي كان بتمامهِ جديدًا وربما لم يقطع قط دورًا . ولا اريد ان اشير على احد ان يستعملهُ لذلك بناء على تلك التجربة وهو مع انهُ قطع الدور عني زادني ضعفًا وهزالاً وكان على مدة يحدث ارتعاشًا ورعدة في عصبي واطرافي . وقد تأكد لديَّ عند ذلك ان خروجي في اوقات المطر مضرٌّ جدًا لصحتي وعلى الخصوص في

الامطار التي كانت مصحوبة بالانواء والزوابع الشديدة . واذ كانت الامطار الحادثة في ايام الصحو مصحوبةً غالبًا بزوابع قوية ظهر لي انها اكثر خطرًا من الامطار التي تقع في شهري ايلول وتشرين الاول

وكان قد مضى عليَّ في تلك الجزيرة المقفرة اكثر من عشرة اشهر وكنت احسب ان نجاتي من تلك الحالة الموحشة هي ضرب من المحال . وقد تأكدت من دون ادنى ريب انهُ لم يضع قط انسان قدمهُ على تلك الاراضي . واذ كنت قد حصنت منزلي تحصينًا محكمًا حسب زعمي مالت نفسي ميلاً قويًا الى الجولان في تلك الجزيرة والفحص عنها وعمَّا يوجد فيها من الحيوانات والنباتات

في ١٥ تموز . ابتدأت ذلك النهار في اجتياس الجزيرة بطريق اخصّ . فطلعت اولاً في ذلك الوادي الذي يجري فيهِ ذلك النهر الذي كنت قد خرجت بطوفي عند مصبهِ كما ذكرت قبلاً . وبعد ان ابعدت فيهِ مسافة نحو ميلين وجدت ان المدَّ لم يتجاوز تلك المسافة وان ذلك النهر لم يكن الاَّ جدولاً او ساقية ذات ماء بارد عذب واذ كان حينئذٍ فصل الصيف كان المطر قليلاً في بعض المواضع ولم يكن هناك نبع . وكانت على جانبي تلك الساقية سهول بهجة مغطاة بالعشب وعلى اطراف تلك السهول مما يلي الارض العالية التي على ما يظن لم تكن تفيض عليها المياه كثيرٌ من نبات التبغ بساق غليظ وقوي جدًا . وكانت هناك نباتات اخر مختلفة لم اعرف ما هي ولا ما هي منافعها وخاصيتها . ولا بدَّ من انها كانت ذات خاصيات خاصة بها ولكن لم يكن ممكنًا لي التوصل الى معرفتها . فاخذت افتش على عرق الشربس الذي يعمل منهُ الهنود خبزًا فلم اجدهُ ومن جملة ما وجدتهُ هناك نباتات كبيرة من الصبر مما لم اكن اعرف قوتهُ وكثير من قصب السكر الاَّ انهُ كان بريًّا غير كامل لعدم الاعتناء بهِ . وبعد ان اكتشفت هذه الاشياء انثنيت راجعًا الى منزلي . وكنت اتأمل كيف يمكنني ان اتوصل الى معرفة

خاصية وصلاحية ما اكتشفتهُ من الثمار والنباتات ولكن من دون نتيجة . وبالاختصار اقول اني اذ كنت في برازيل لم اكن التفت الى ملاحظة ما حولي من الامور فكانت معرفتي في امر النباتات قاصرة وقليلة جدًّا حتى اني لم استفد منها شيئًا عند وقوعي في تلك الضيقة

في ١٦ تموز . طلعت في الطريق نفسهِ وابعدت قليلاً اكثر من اليوم السابق فوجدت ان النهر والسهول حولهُ ابتدأت تنقطع وصارت الاشجار هناك اكثر من باقي الاماكن . وكانت هناك اثمار مختلفة وفواكه كثيرة كالبطيخ والعنب . ورأيت كثيرًا من رؤُوس البطيخ منطرحًا على الارض وكثيرًا من عناقيد العنب مدلًّى على رؤُوس الاشجار التي كانت الدوالي معترشة عليها وكان العنب ناضجًا ولذيذًا جدًّا . فلما اكتشفت ذلك كدت اطير فرحًا . الاَّ اني كنت قد تعلمت بالاختبار ان لا آكل كثيرًا من العنب وذلك لاني كنت قد رأيت وانا على شطوط الجزائر ان الاكثار من اكل العنب كان سبب موت كثيرين من رجالنا الانكليز الذين كانوا مأسورين هناك لانهُ رماهم في امراض الاسهال والحميات . الاَّ اني وجدت طريقة حسنة لاستعمال العنب وهي ان اجففهُ في الشمس وأَدخرهُ كما يدَّخر الزبيب لوقت الحاجة اذ كنت اعلم انهُ لا يضرُّ في تلك الحالة بل يكون غذاء فاخرًا لذيذًا عند عدم وجود العنب

فلما اقبل الليل طلعت الى راس شجرة ونمت هناك مترتبًا . فصرفت تلك الليلة في ذلك الموضع . وكانت اول ليلة بتُّ فيها خارج منزلي . فلما تبلج الفجر قمت من النوم واخذت اتقدم في طريقي متجهًا باستقامة نحو نقطة الشمال حتى قطعت مسافة اربعة اميال تقريبًا كما ظهر لي من طول الوادي وكان على جانبيَّ من جهتي الشمال والجنوب سلسلة جبال وفي نهاية تلك المسافة كانت ثغرة او فرجة بين جبلين كانت الاراضي عندها كأنها تمتدُّ منحدرة نحو الغرب . وكان بالقرب من تلك الثغرة ينبوع صغير من الماء

العذب خارج من لحف الجبل يجري نحو الجهة المقابلة اي نحو نقطة الشرق . وكانت الارض هناك مغطاة بالنباتات الخضراء الناضرة وذات منظر بهج مفرّح كانها جنّة صناعيّة في وسط فصل الربيع . فاخذت انصبّ منحدراً في تلك البقاع البهجة واجول فيها لافحص عن احوالها . وكنت اشعر بلذة سرّية ناتجة من النظر الى ان تلك الاماكن هي باسرها ملكي وتحت مطلق تصرفي واني انا مليك ومولى لتلك البلاد باجمعها وليس من يعارضني في التسلط عليها ولا ينازعني فيها ولا في ما حوتهُ من الخلائق والموجودات . ووجدت هناك كثيراً من شجر النارجيل اي الجوز الهندي والبردقان والليمون والاترج الّا ان اكثر تلك الاشجار كان برّيًا ولم يكن عليهِ ثمر الّا القليل . غير اني قطفت شيئًا من الليمون الحامض فكان لذيذ الطعم ونافعاً للصحة . وقد مزجت في ما بعد عصيرهُ بماء بارد فصار بارداً مرطبًا وكبير المنفعة . فصار عندي حينئذٍ شغل كبير وهو قطف الفواكه ونقلها الى منزلي . فاني عزمت على ان أذخر من العنب والليمون الحامض ما يكفيني لفصل الشتاء الذي كان قد صار على الابواب . فجمعت من العنب والليمون صُبَرًا صُبَرًا في اماكن مختلفة ثم انثنيت راجعاً الى منزلي وقد اخذت معي قليلاً من كل صنف ناويًا ان ارجع الى هناك مرة اخرى بكيس او عدل او وعاء آخر مما يمكنني وجودهُ او عملهُ وانقل ما بقي منها الى بيتي . وصرفت في هذا السفر ثلاثة ايام . فلما وصلت الى منزلي كان العنب قد تشقق وزرب ماؤُهُ لشدة نضجهِ وثقلهِ ولم يبقَ الّا العناقيد فاصبح قليل الفائدة او لافائدة بهِ اصلاً . واما الليمون فانهُ لم يتعطل الّا ان ما اتيت بهِ منهُ كان قليلاً

وفي اليوم التالي وهو التاسع عشر من شهر تموز رجعت الى ذلك الموضع وقد اخذت معي كيسين عملتها لاجل الاتيان بما كنت قد جمعتهُ من الفواكه . فلما وصلت الى المكان اخذني العجب اذ رأيت ان العنب الذي كان عند قطفهِ وجمعهِ لطيفًا ظريفًا قد تبدّد وتعصّر وسُحِب بعضهُ الى هنا

وبعضهُ الى هناك وأكل كثير منهُ . فاستدللت من ذلك على انهُ يوجد وحوش برّية في تلك الجهات وانها هي التي فعلت ذلك* الّا اني لم اعلم ماذا كانت . فلما وجدت انهُ لا سبيل الى جمع ذلك العنب كوماً ولا الى حملهِ في عدل او كيس الى البيت من دون تعطيلهِ وخسارتهِ قطفت منهُ كمية كبيرة وعلّقتها على اذيال الاشجار من خارج لاجل تيبيسها هناك . واما الليمون الحامض فاني اخذت منهُ كل ما استطعت حملهُ

ثم بعد رجوعي هذه المرة الى منزلي اخذت اتأمل بلذة عظيمة في جودة ذلك المكان وخصبهِ وظرافة مركزهِ وعدم تسلط الزوابع عليهِ وكثرة المياه والاشجار فيهِ . ولاح لي عند ذلك اني اخترت لنفسي مكاناً للاقامة من اردإ الاماكن في الجزيرة فاخذت اتأمل في وجوب نقل مسكني والتفتيش على موضع حصين نظير المكان الذي كنت حينئذٍ فيهِ . وجال في خاطري النزول في ذلك القسم الظريف الخصب من الجزيرة

فبقيت مدة مستطيلة اتأمل في ذاك الامر وكنت كلما تذكرت محاسن ذلك الموضع الجديد ازيد غراماً ورغبةً في الانتقال اليهِ . غير اني لدى مراجعة القضية في فكري وجدت انهُ لا ينبغي ان انتقل من ذلك الموضع مطلقاً لانهُ كان بجانب البحر فربما يتفق لاجل خيري ان النحس الذي قذفني الى هناك يقذف ايضاً بعضاً من المنكودي الحظ الاشقياء الى ذلك الموضع بعينهِ . ومع ان وقوع ذلك كان من الامور النادرة جدًّا حسبت حصري نفسي بين تلك الاودية والاحراش في وسط الجزيرة ادخالاً لما سلفنا في المنفى ومن شأنهِ ان يجعل ذلك الامر بالنظر اليَّ ليس نادراً فقط بل مستحيلاً ايضاً . ولكن لشدة حبي لذلك المكان الجديد صرفت فيهِ كثيراً من الايام الباقية من شهر تموز واخيراً نصبت هناك خيمةً صغيرةً احطتها عن بعد بسور حصين مضاعف عالٍ على طول قامتي . وكنت اقيم هناك مطمئناً مدة ليلتين او ثلاث ليالٍ . وكنت اتسور السور على سلم كما كنت افعل قبلاً . فصار عندي*

حينئذٍ بيتان الواحد في الساحل والآخر في الجبل وقد صرفت في عمل ذلك بقية شهر تموز الى أوائل شهر آب

ولما فرغت من عمل السور وابتدأت اتمتع بثمرة تعبي حصلت امطار غزيرة حبستني في منزلي الاول . وكانت خيمتي هناك كالاولى من قطع من القلوع محكمة متقنة الاَّ انها لم تكن في لحف جبل يقيها من العواصف ولا كانت وراءها مغارة يمكنني ان اهرب اليها واستظل فيها عندما تكون الامطار اقوى واشدّ من مألوف العادة

وفي اول آب فرغت من عمل تلك الخيمة وابتدأت اتهنأ بعيشتي وفي اليوم الثالث من الشهر المذكور كان العنب الذي علقته على الاشجار قد يبس جدًا وصار زبيبًا فاخرًا فانزلته من الاشجار . وقد احسنت في ما عملته لاني لو لم انزله في ذلك الوقت لكانت الامطار التي حدثت بعد ذلك بقليل عطلته وكنت خسرت احسن صنف مما اعددته مونةً للشتاء . وكان عندي من ذلك العنب اليابس اكثر من مئة عنقود . ولم انتهِ من انزال ذلك ونقل اكثرهِ الى منزلي حتى ابتدأت تمطر . ومن ذلك اليوم وهو اليوم الرابع عشر من شهر آب كانت تمطر كل يوم من دون انقطاع الى اواسط شهر تشرين الاول . وكنت امكث اوقاتًا داخل المنزل لا استطيع ان اخرج منهُ اياماً كثيرة متوالية وذلك لشدة المطر

من ١٤ الى ٢٦ آب . حصلت لي في تلك الايام ضيقة من جهة الطعام لاني كنت محبوسًا من شدة الامطار ولم اكن اخرج الى خارج خوفًا من ان ابتلّ الاَّ اني خرجت مرتين رغمًا عني من شدة الجوع فصدت في المرة الاولى عنزة وفي المرة الثانية وجدت سلحفاة كبيرة جدًا فعملت منها وليمة وكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من آب . وكنت قد رتبت امر اكلي هكذا . فكنت آكل عنقود زبيب صباحًا وقطعة من لحم المعزى او السلاحف عند

الظهر وبيضتين او ثلاثًا من بيض السلاحف مساء . وكنت آكل اللحم مشويًا لانهُ لعظم نحسي لم يكن عندي قِدْر ولا مقلاة اسلقهُ او اقليهِ فيها

واذ كنت محبوسًا هكذا داخل خيمتي من جرى كثرة المطر كنت اشتغل كل يوم ساعتين او ثلاثًا في توسيع مغارتي ولم ازل كذلك حتى وصلت الى آخر التلّ من الجانب الواحد فانفتح هناك باب خارج السور كنت ادخل واخرج منهُ . الّا ان بالي كان مضطربًا من ذلك الباب الجديد فلم اكن انام براحة وطمأنينة كما كنت افعل قبلاً حين كنت داخل سور محدود من كل جهة مع اني لم أرَ انهُ يوجد حيٌّ يُخشى لقاؤهُ . لان اعظم ما كنت قد صادفتهُ من الحيوانات الى ذلك اليوم هو المعزى

في ٣٠ ايلول . وصلت الى ذلك اليوم التعيس الذي اقيت فيهِ منذ سنة على تلك الجزيرة . وقد جمعت العلامات او الخطوط التي حفرتها على ذلك العمود المربَّع فبلغ مجموعها ثلثمائة وستين علامةً اي يومًا . فصرفت ذلك اليوم في الصوم والتذلل والرياضة الدينية . وخررت على الارض بتواضع عميق وخضوع وخشوع معترفًا لله بخطاياي ومقرًا بعدل حكمهِ عليَّ وصليت اليهِ تعالى ان يرحمني اكرامًا ليسوع المسيح . ولم أذُق شيئًا مدة اثني عشرة ساعة اي الى المغرب . فلما غابت الشمس اكلت كعكة وقليلاً من الزبيب وذهبت الى فراشي خاتمًا ذلك النهار بالصلاة كما ابتدأته واذ كنت كما علمت سابقًا قد ضيَّعت يوم الاحد قسمت ايام تلك السنة اسابيع وافرزت كل يوم سابع للاحد وكنت كما تقدم القول قد ضيَّعت يومًا او يومين في حسابي . ثم بعد ذلك بقليل قلّ حبري فاخذت اوفرهُ واقتصر على كتابة اهمّ حوادث حياتي

وظهر لي حينئذٍ ان فصل الشتاء وفصل الصحو كانا منتظمين فعلمت كيفية قسمتها لاجل الاستعداد لها . الّا ان كلَّ ما تعلمتهُ بالاختبار لم يأتني

بالسهولة بل كلفني اتعابًا كثيرة . ومن انفس الامتحانات التي عملتها في حياتي ما سيأتي ذكرهُ

ذكرت لك قبلاً امر سنابل الشعير والارز التي وجدتها وظننت انها كانت نابتة من ذاتها . وكان عدد سنابل الرز نحو ثلاثين سنبلة وسنابل الشعير نحو عشرين . فظننت ان زرع ذلك بعد تلك الامطار كان امرًا جيدًا لان الشمس كانت في جهة الجنوب ذاهبة عني . فاخذت رفشي وكان من خشب كما تعلمت وفلحت بهِ قطعة ارض وقسمتها الى قسمين وزرعت فيها البذار . وبينما كنت ازرع لاح لي ان لا ازرع كل البذار في ذلك الوقت لاني لم اعلم ما هو الوقت الاصلح لزرعهِ ومن ثمَّ زرعت نحو ثلثيهِ وتركت الثلث الآخر وكان نحو ملء قبضة من كل صنف . وكان عملي هذا سبب فرح عظيم لي في ما بعد لانهُ لم ينبت شيء من كل ما زرعتهُ في ذلك الوقت. لان زرعهُ كان عند قدوم اشهر القيظ فلم يقع على الارض مطر بعد الزرع لإنباتهِ فبقي مدفونًا تحت الارض الى فصل الشتاء القادم وعند ذلك نبت كأنهُ زرع حديثًا . فتبيَّن لي من ذلك ان الزرع لم ينبت لعدم المطر . فاخذت افتش على ارض رطبة لاجل الامتحان ايضًا . فوجدت بقعة بهذه الصفة في جوار خيمتي الجديدة فاصلحتها وزرعت فيها ما بقي عندي من البذار . وكان ذلك في شهر شباط قبل الاعتدال الربيعي بقليل . واذ وقعت عليهِ امطار اذار ونيسان نبت كلهُ وكان ناميًا جيدًا فاتى بغلة حسنة جدًّا . ولكن اذ كان البذار قليلاً وكنت لم ازرع كل ما عندي خوفًا من عدم طلوعهِ كانت غلتهُ قليلة اي نحو ربع مدٍّ من كل صنف . و بواسطة هذه الامتحانات تعلمت جيدًا صناعة الزراعة وعرفت اوقات الزرع وانهُ يمكنني ان آكل موسمين كل سنة

واذ كانت تلك الحبوب آخذة في الزيادة شيئًا فشيئًا اكتشفت شيئًا

استفدت منهُ في ما بعد وان يكن في ذاتهِ زهيدًا . فانهُ حين انقطعت الامطار واستقام الهواء وذلك بالقرب من شهر تشرين الثاني ذهبت لزيارة منزلي الجديد في الجبل . وكنت قد غبت عنهُ عدَّة اشهر فوجدت مع ذلك كل ما تركتهُ على حالهِ . فان الحائط او السياج المضاعف كان كما تركتهُ من دون تغير . وكانت الاعمدة التي قد قطعتها من بعض اشجار هناك وعملت منها السياج قد عاشت وارسلت اغصانًا طويلة كما ترسل شجرة صفصاف في السنة الاولى بعد قطع راسها . ولم اعلم ماذا كانت تلك الشجرة التي قطعت منها تلك الاعمدة . فاخذني العجب من ذلك وسررت بهِ جدًّا . فاخذت اربي تلك الاشجار الصغيرة لكي تكون جميعها على هيئة واحدة ومقدار واحد . ولم يمضِ عليها الَّا ثلاث سنين حتى صارت اشجارًا كبيرة جميلة وظريفة جدًّا في منظرها وامتدَّت اغصانها بسرعة حتى غطت ذاك السياج وكان محيطهُ نحو ثلاثة وثلاثين ذراعًا وظللت عليهِ وعلى ما حولهُ حتى صار يمكن الانسان ان يصرف كل ايام الصحو في ظلها . فنويت عند ذلك على عمل سياج نظير هذا على شكل نصف دائرة حول سوري اي حائط منزلي الاول وقد تممت ذلك فعلاً . فغرست الاعمدة صفين على بعد نحو اثني عشر ذراعًا عن السور فنبتت حالاً فكانت سترًا ظليلاً لطيفًا وسياجًا حريزًا ظريفًا لزينة منزلي ووقايتهِ ايضًا كما سترى في سياق هذه القصة

الفصل الحادي عشر

طواف روبنصن كروزي في الجزيرة وعملة السلال

وبعد ان صرفت كل تلك المدة في الجزيرة ظهر لي ان قسمة فصول السنة فيها تختلف عن قسمتها في اوربا . فان ايام المطر والصحو كانت غالبًا هكذا . من اواسط شباط الى اواسط نيسان ايام مطر . وذلك لان الشمس تكون حينئذٍ في خط الاستواء او بالقرب منهُ . ومن اواسط نيسان الى اواسط آب ايام صحو . وذلك لان الشمس تكون حينئذٍ شماليَّ الخط . ومن اواسط آب الى اواسط تشرين الاول ايام مطر . وذلك لان الشمس تكون حينئذٍ قد رجعت الى الخط . ومن اواسط تشرين الاول الى اواسط شباط ايام صحو . وذلك لان الشمس تكون حينئذٍ جنوبيَّ الخط غير ان ايام المطر والصحو كانت اوقاتًا اطول واوقاتًا اقصر بحسب الرياح . وما ذكرتهُ هو الغالب فيها

ووجدت بالاختبار عظم الضرر الناتج لصحتي من خروجي من منزلي في ايام الشتاء فاخذت اهتمّ في ايام الصحو في تدبير ما احتاج اليهِ حتى لا يضطرّني الامر الى الخروج في ايام المطر فكنت اصرف ايام المطر داخل منزلي واتعاطى اعمالاً كثيرة توافق المكان والزمان . وقد وجدت نفسي في احتياج الى امور كثيرة لا تنال الاَّ بالكد ومواظبة العمل . ومما شعرت بالاحتياج اليهِ السلال . فحاولت عمل سلٍ الاَّ ان جميع ما امكنني الحصول

عليهِ من القضبان لهذا العمل كان صلبًا غير طائع فكان اذا لويتهُ او عكفتهُ ينكسر حالاً فلا يصلح للمطلوب وكانت لي عادة في ايام صباي ان اقف امام دكان عامل سلال في بلدة ابي اتفرج عليهِ واسرّ بالنظر الى عملهِ والاحظ جدًّا كيف يصنع ذلك وكنت مرارًا اساعدهُ في تقديم القضبان او مسكها حتى صارت لي بهذه الواسطة معرفة تامة بهذه الصناعة ولم يكن ينقصني شيء الاَّ المواد اللازمة لها . وعند ذلك جال في خاطري ان قضبان تلك الشجرة التي قطعت منها تلك الاعمدة التي عاشت ربما كانت لينة طائعة نظير قضبان الصفصاف وغيرهِ مما تعمل منهُ السلال في انكلترا . فعزمت على امتحان ذلك . فذهبت في اليوم التالي الى منزلي في الجبل وقطعت منها بعضًا من القضبان الرفيعة فجاءت طبق مرغوبي ولذلك اتيت في اليوم التالي بفاسي وقطعت ما يلزمني من تلك القضبان وكانت كثيرة في ذلك الموضع ثم وضعت ما قطعتهُ داخل دائرتي او سياجي لكي يذبل في الشمس . فلما ذبل وصار صالحًا للشغل ادخلتهُ الى مغارتي . فعملت من ذلك هناك حسب معرفتي عدَّة سلال لاجل حمل التراب او لاجل نقل اشياء اخر او وضعها فيها عند الاقتضاء . وتلك السلال مع انها لم تكن لطيفة متقنة كانت نافعة لي جدًّا ومن ثم كنت كلما عتقت اعمل غيرها . وقد عملت سلالاً كبيرة عميقة قاصدًا استخدامها لاجل وضع الحبوب فيها عند ما يكثر ذلك عندي

فلما غلبت على هذه الصعوبة ونجحت في عملي بعد صرف زمان طويل فيهِ اخذت اتبصر كيف اصنع شيئين آخرين كنت في احتياج شديد اليهما فانهُ لم يكن عندي وعاء لوضع شيء سيَّال الاَّ برميلان صغيران كان فيهما روم وبعض قناني من زجاج ودمجانات اوضع الماء والارواح وما اشبه ذلك . ولم يكن عندي قِدْر لسلق ما اريد سلقهُ بل كان عندي مرجل كبير او خلقين خلصتهُ من المركب الاَّ انهُ لكبرهِ لم يكن يصلح لسلق اللحم او عمل مرقتهِ . ثم الشيء الآخر الذي كنت مفتقرًا اليهِ هو قصبة او آلة لشرب التبغ فلم

استطع ان اصنع ذلك غير اني في ما بعد اخترعت آلة لذلك ايضاً . فاشتغلت كل فصل الصحو او الصيف في غرس الصف الثاني من الاعمدة وفي عمل السلالم . ثم عرض لي شغل اخذ من وقتي اكثر ما كان يمكنني ان استغني عنه من دون صعوبة

ذكرت قبلاً انه كانت لي رغبة شديدة في التفرّج على الجزيرة والجولان فيها واني سافرت في ذلك الوادي الى الموضع الذي بنيت فيه خيمتي حيث كانت ثغرة تطل على البحر من الجانب الآخر من الجزيرة . فعزمت هذه المرّة ان اتجاوز ذلك الموضع الى ان اصل الى الشاطئ الذي على الجانب الآخر . فتناولت بارودتي وبلطة وكمية وافرة من البارود والخردق وزاداً من البقسماط والزبيب واخذت في طريقي آخذاً الكلب معي. فلما تجاوزت الوادي الذي كانت خيمتي فيه كما تقدم القول اطللت مشرفاً على البحر من جهة الغرب واذ كان الفلك رائقاً جداً لمحت ارضاً ولم اعلم هل كانت قارّة او جزيرة . الّا انها كانت مرتفعة كثيراً وممتدة من الغرب الى غربي الجنوب على بعد قاصٍ مني واظن انها لم تكن بعيدة عن ذلك الموضع اقل من خمسة عشر او عشرين فرسخاً

فلم اعلم ايّ قسم من العالم كانت تلك الارض الّا اني ظننت انها قسمٌ من بلاد اميركا وحكمت بعد المراقبة المدققة ان موقعها في الغرب من املاك اسبانيا وان سكانها ربما كانوا جميعاً من البرابرة واني اذا ذهبت اليها اكون في حالة اردأ من حالتي الحاضرة فسلمت كل اموري للعناية الالهية التي كنت قد ابتدأت حينئذٍ اقرّ بوجودها واعتقد انها تحول كل شيء للخير . وبهذه الواسطة سكنت قلبي ولم اعد ازعج نفسي بالرغبة الفارغة في ان اكون في تلك الاراضي . وعدا ذلك بعد ان تأملت جيداً في هذا الامر قلت لو كانت تلك الارض هي شطوط اسبانيا كنت لا محالة ارى في احد الاوقات المراكب تجتاز من هناك ذهاباً واياباً والغالب انها شطوط بلادِ البرابرة الواقعة بين بلاد

اسبانيا والبرازيل التي سكانها من اردإ البرابرة لانهم يأكلون لحوم الناس ويفترسون كل من وقع في ايديهم من بني البشر .

واذ كنت اسير رُوَيدًا رُوَيدًا متقدمًا في طريقي وجدت ان ذلك الجانب من الجزيرة اشرح من الجانب الذي اتخذته لي مسكنًا . فان البقاع هناك كانت ظريفة مزينة بالازهار والاعشاب ومملوءة من الآجام والغيطان اللطيفة . ووجدت كثيرًا من طير الدرّ او البغال فاشتهيت ان امسك واحدًا منها واربيه واعلمه التكلم . بعد التعب امسكت ببغالاً صغيرًا وذلك اني ضربته بعصًا فوقع الى الارض فلنطته وانيت به الى منزلي الاّ انه لم يتعلم التكلم الاّ بعد عدّة سنين . وقد علمته ان يناديني باسمي فكان يفعل ذلك جيدًا . ثم حدث امر في ما بعد يستحقّ الذكر وان يكن في ذاته زهيدًا

فانشرح صدري وتسلّيت كثيرًا بذلك السفر . وقد وجدت في الاراضي المنخفضة طوائف من الارانب والثعالب الاّ انها تختلف قليلاً عمّا كنت قد صادفته منها في اماكن اخرى فاصطدت شيئًا منها الاّ اني لم اشأ ان آكل لحومها وذلك لان لحوم المعزى واليمام والسلاحف اغنتني عنها . واذا نظرنا الى حالة وعدد الآكلين فان مائدتي كانت من افخر الموائد تحتوي على اصناف كثيرة من المآكل والنقولات من العنب وغيره . ومع ان حالتي كانت تعيسة في الغاية كان لي اسباب عظيمة لان احمد الله واكون شكورًا . لم اصل الى غاية الاحتياج في امر القوت بل بالحري كان كافيًا وزائدًا وانه من الاشياء الفاخرة ايضًا .

ولم اكن اقطع في هذا السفر على خط مستقيم اكثر من ميلين في اليوم بل كنت اميل مرارًا كثيرة عن الطريق وارجع احيانًا الى الوراء لاجل الاكتشاف حتى اني كنت اصل الى المبيت كليلاً من التعب . وكنت في آخر السفر انام في راس شجرة او على الارض وذلك بعد ان احصّن نفسي باعمدة اركزها حولي

في الارض او امدّدها من شجرة الى شجرة بحيث لا يستطيع وحش برّيّ ان يأتي اليَّ من دون ان استيقظ

فلما وصلت الى الشاطىء تعجبت من اني اخترت نزولي في اردإ قسم من الجزيرة فان الشاطىء هناك كان مملوءًا من السلاحف بخلاف الموضع الذي استوطنت فيهِ فاني لم اصادف فيهِ منها الا ثلاثًا وذلك في مدة سنة ونصف . وكان هناك طوائف كثيرة من الطيور المختلفة مما كنت قد رأيت بعضًا منهُ قبلاً وكثير منها كان لحمهُ جيدًا لذيذًا الا انني لم اكن اعرف اسماء اكثرها

وكان يمكنني ان اصطاد من تلك الطيور قدر ما اريد الا اني كنت اوفر بارودي وخردقي . ومن ثم كنت اميل الى اصطياد عنزة اذا تيسّر لي ذلك لان ذلك انفع لي . ومع انهُ يوجد هناك معزى كثيرة اكثر مما يوجد على الجانب الآخر من الجزيرة حيث كنت نازلاً كان القرب منها صعبًا جدًا لان الجزيرة في تلك الاطراف كانت سهلة مستوية فكانت المعزى تراني باوفر سرعة مما لو كنت على تل او صخر اعلى منها لما علته قبلاً

ولا اقدر ان انكر ان تلك الجهة من الجزيرة احسن واشرح من جهتي الا انهُ لم يكن لي ادنى ميل الى الانتقال اليها وذلك لاني كنت قد استوطنت في منزلي وصرت اميل اليهِ طبعًا حتى كنت اشعر في مدة سفري هذا كأني في غربة بعيد عن وطني . فقطعت بجانب البحر نحو الشرق مسافة اثني عشر ميلاً وركزت عمودًا كبيرًا على الشاطىء نظير علامة وعزمت على الرجوع الى منزلي وعلى اني في المرة الاخرى اسافر في الجهة الاخرى من الجزيرة اي شرقي منزلي وادور حولها حتى اصل الى مركزي كما سيأتي بيانهُ في مكانهِ

فرجعت من طريق غير الطريق التي ذهبت بها لاني حسبت اني اقدر بسهولة ان اظل ناظرًا قسمًا كافيًا من الجزيرة بحيث لا اضيع منزلي بواسطة

الجولان فيها . الَّا اني وجدت نفسي في غلط من هذا القبيل لاني بعد ان قطعت في رجوعي مسافة ميلين او ثلاثة اميال وجدت نفسي قد ابتدأت انصبّ منحدرًا في وادٍ كبير جدًّا محاط بجبال مغطاة بالاحراش حتى اني لم اعد اعرف ما في طريقي الَّا بواسطة الشمس وذلك لا دائمًا بل فقط حينما كنت اعرف مركز الشمس في ذلك الوقت من النهار . واتفق لزيادة نحسي ان الفلك كان مغبرًا مدة ثلاثة او اربعة ايام وانا في ذلك الوادي . واذ كنت لا ارى الشمس كنت تائهًا منزعجًا جدًّا حتى التزمت اخيرًا ان اطلب العمود الذي ركزتهُ على الشاطئ وارجع من نفس الطريق التي اتيت منها . فلما وصلت اليهِ انثنيت راجعًا الى منزلي قاسمًا المسافة الى مراحل هينة لان الهواء كان حارًّا جدًّا وكانت بارودتي وزادي وبلطتي واشياء اخر ثقيلة عليَّ في الغاية

شعرٌ

ولو كانَ همٌّ واحدٌ لاتقيتهُ ولكنهُ همٌّ وثانٍ وثالثُ

الفصل الثاني عشر

رجوع روبنصن كروزي الى منزلهِ ونجاحهُ في امر الزراعة

ان كلبي طارد في ذلك السفر جديًا صغيرًا وقبض عليهِ . وكنت قد ركضت لامسكهُ فامسكتهُ وخلصت حياتهُ من الكلب . وكنت مائلاً جدًّا الى اخذهِ معي الى البيت لاني كنت مرارًا كثيرة افتكر ان القط جديين او اكثر واربيهما واحصل بهذه الواسطة على قطيع من المعزى الاهلية استند عليهِ في امر حياتي متى نفذ ما عندي من البارود والخردق . فصنعت طوقًا لذلك الجدي الصغير وربطتهُ منهُ بمرس صنعتهُ من خيطان لم اكن اخلو منها واقتدتهُ ورائي وذلك بصعوبة الى ان وصلت بهِ الى خيمتي في الجبل وهناك زربتهُ وتركتهُ لئلاً يعيقني في الطريق لاني كنت مشتاقًا جدًّا الى الوصول الى منزلي اذ كنت قد غبت عنهُ اكثر من شهر

ولا اقدر ان اصف كم حصل لي من السرور عند ما وصلت الى منزلي القديم واضطجعت في سريري اي ارجوحتي . وكان سفري او بالحري تيهي القصير من دون ان يكون لي مقرٌ اقيم فيهِ ثقيلاً عليَّ جدًّا حتى ان منزلي وكنت ادعوهُ بيتي كان عندي مسكنًا حقيقيًا ووطنًا ثابتًا بالنظر الى ذلك . وكان كل شيء فيهِ مريحًا لي قريب التناول حتى عزمت على اني لا ابعد عنهُ ايضًا كثيرًا ما دام نصيبي البقاء في تلك الجزيرة

فاقمت هناك اسبوعًا لكي استريح واتهنأ بعيشتي بعد سفري الطويل .

وصرفت اكثر ذلك الاسبوع في امر مهمّ وهو عمل قفص لببغائي الذي كان حينئذٍ قد صار اهليًّا انيسًا يعرفني جدًّا . ثم اخذت افكر في ذلك الجدي المسكين الذي ذربتهُ داخل دائرتي الصغيرة في الجبل فعزمت على الاتيان بهِ الى البيت واطعامهِ شيئًا هناك . فتوجهت اليهِ فوجدتهُ حيث تركتهُ لانهُ كان لا يستطيع الخروج وكان قد قارب الموت جوعًا . فقطعت بعض اغصان من تلك الاشجار وطرحتها امامهُ وبعد ان اكل ربطتهُ كما فعلت قبلاً الّا انهُ كان قد ذل وهزل جدًّا من الجوع حتى لم يكن اقتضاءٌ لربطهِ لانهُ كان يتبعني مثل كلب . واذ كنت اطعمهُ وادللهُ والاطفهُ صار محبًّا ولطيفًا وذا دالةٍ عظيمة فصرت احسبهُ كواحد من العائلة ولم يعد يشاء ان يفارقني بل كان دائمًا ملاصقًا لي

وكان حينئذٍ وقت المطر في الفصل الخريفي قد اقبل فصرفت اليوم الثلاثين من شهر ايلول باحتفال كما صرفتهُ قبلاً لانهُ هو اليوم الذي نزلت فيهِ الى البرّ وكان قد مضى عليَّ هناك سنتان . ولم يكن لي حينئذٍ بالنجاة اكثر مما كان لي في اول يوم وضعت فيهِ قدمي على تلك الجزيرة . فصرفت النهار كلهُ في العبادة والشكر لله على البركات الكثيرة العجيبة التي كانت وحدتي محفوفة بها والتي لولاها لكنت في حالة اشقى وانعس جدًّا . وقدمت الشكر القلبي لله لانهُ ارتضى ان يكشف لي اولاً انهُ كان ممكن ان اكون اكثر سعادة في تلك الحالة الموحشة مما اكون في عشرة الناس متمتعًا بجميع لذات العالم . ثانيًا انهُ تعالى يقدر ان يعوّض عليَّ تمامًا عن نقائص حالتي المتوحدة وعن عدم وجود اناس اعاشرهم بواسطة حضورهِ معي وحلول نعمتهِ في نفسي وعضدهِ وتعزيتهِ لي وبواسطة تقويتهِ اياي ان اتكل على عنايتهِ في هذه الحياة وارجو ان اكون معهُ الى الابد في الحياة الآتية

وابتدأت حينئذٍ اشعر بقوة ان عيشتي في ذلك الوقت كانت مع رداءتها اكثر سعادة وغبطة من العيشة الرديئة الاثيمة المكروهة التي قضيتها في الايام

السالفة . فتغيرت حينئذٍ احزاني وافراحي وعواطفي وصارت لذاتي الجديدة تختلف اختلافًا تامًّا عمّا كانت عند دخولي اولاً في تلك الجزيرة او بالحري في السنتين الماضيتين لاني عند ما كنت اجول سابقًا في الجزيرة كان الاضطراب من النظر الى حالي يدهمني بغتةً ويزعجني جدًّا . واذ كنت التفت الى الاحراش والجبال والوعور التي النبت في وسطها كان قلبي يمتلئُ كآبة ويكاد يجمد من شدة الحزن وعلى الخصوص حين كنت اتأمل كيف كنت محبوسًا في برّية موحشة وقد اغلقت عليّ ابواب النجاة وقفلت باقفال الاوقيانوس الابدية حتى لم يكن لي باب امل في الفرج والخلاص من تلك الحالة التعيسة . وكانت تلك التصورات تثور عليّ بغتةً في اوقات هدوي نظير عاصفة وتؤثر فيّ تأثيرًا شديدًا . فكنت اصفق بيديّ وابكي نظير طفل صغير . وكانت تأتيني احيانًا داهمة اياي وسط الشغل وتربط حالاً يديّ فاقف متنهدًا واصرف ساعة او ساعتين محدقًا نظري نحو الارض غائصًا في بحار الفكر . وكان ذلك مضرًّا لي في الغاية . ولو استطعت ان افرج كربي بواسطة ذرف الدموع او اطلاق عنان الحاسيات بواسطة التكلم لكانت نيران كآبتي تخمد شيئًا فشيئًا ويزول غمي وهمي

الاّ اني اخذت حينئذٍ اشغل نفسي بافكار جديدة . وكنت اتصفح كل يوم كلام الله وانسب كل تعزياتهِ الى حالتي . وبينما كنت ذات يوم صباحًا كئيبًا جدًّا فتحت الكتاب المقدس واول آية وقعت تحت نظري كانت هذه الآية وهي قوله تعالى اني لا اتركك ولا اخذلك . فجال في بالي حالاً ان تلك الكلمات تتجه نحوي والاّ فلماذا وقع نظري عليها في نفس الدقيقة التي كنت اندب فيها حالي كمتروك ومخذول من الله والناس . فقلت عند ذلك في نفسي اذا كان الله لا يتركني فاذا تركني العالم باسره لا ابالي ولكن اذا كان لي العالم باسره وخسرت رضى الله وبركتهُ فان الخسارة تكون اعظم بغير قياس

فابتدأت من ذلك الوقت افتكر في نفسي انهُ يمكنني ان اكون اكثر غبطة في تلك الحالة الموحشة المنفردة مما اكون في حالة اخرى مهما كانت. وعند ذلك هممت بتقديم الشكر لله على اتيانهِ بي الى ذلك الموضع. الّا ان شيئاً لم اعلم ما هو حال حالاً دوني ودون ذلك فلم اتجرأ ان اتلفظ بكلمات الشكر. بل قلت لنفسي بكلمات مسموعة كيف يمكنكِ ان تكوني مرائية بهذا المقدار وتظاهري بتقديم الشكر على حالة احبّ اليكِ ان تصلي بحرارة طالبة ان تنقذي منها مهما اجتهدتِ في الارتضاء بها. ومع انهُ لا يحق لي ان اقول اني حمدت الله او شكرتهُ على وجودي هناك يسوغ لي القول اني شكرتهُ تعالى شكراً قلبياً على فتحهِ عيني عقلي بواسطة اعمال عنايتهِ وان تكن محزنة بالنظر الى سيرتي الماضية والنوح على خطاياي السالفة والرجوع اليهِ تعالى بالتوبة الصادقة. وكنت كلما فتحت الكتاب المقدس او اطبقتهُ احمد الله على الهامهِ صديقتي في انكلترا ان تضع ذلك الكتاب بين امتعتي وذلك من دون طلب مني وعلى مساعدتهِ اياي على تخليصهِ في ما خلصتهُ من المركب

فبهذه الحاسيات افتتحت سنتي الثالثة. ولا اثقل على القارئ بتفاصيل اخبار ما عملتهُ في تلك السنة ولكنني اقول بالاجمال اني لم اكن اصرف الوقت بالبطالة الّا نادراً بل كنت اقسم وقتي بالترتيب على ما كان امامي من الاشغال اليومية. فكنت اولاً اتمم واجباتي لله واقرأ كلامهُ تعالى ثلاث مرات كل يوم. ثانياً كنت اخرج ببارودتي طلباً للصيد فاصرف ثلاث ساعات في ذلك كل يومٍ اذا لم يمنعني عنهُ المطر. ثالثاً كنت ارتب واصلح واقدّد واملّح واطبخ ما اصيدهُ فاصرف في ذلك قسماً كبيراً من النهار. ولا يجب ان نغفل عن هذا الامر وهو اشتداد الحرّ هناك عند ما تكون الشمس في كبد الفلك في اواسط النهار ولهذا لم اكن استطيع حينئذٍ الخروج خارج منزلي ومن ثم لم يكن لي استطاعة على الشغل بعد الظهر الّا مدة اربع ساعات فقط.

على اني كنت في بعض الايام ابادل بين اوقات الصيد والشغل فاشتغل قبل الظهر واذهب الى الصيد بعدهُ

وفضلاً عن قصر اوقات الشغل كانت اعمالي متعبة وصعبة المراس جدًا . فاني لعدم وجود آلات ومسعفين ولقلة اختباري كنت اصرف ساعات كثيرة في كل شيء اعملهُ وكان كل ذلك يذهب من وقتي . فاني مثلاً صرفت اثنين واربعين يومًا كاملة في عمل لوح طويل جعلتهُ رفًا في مغارتي مع انهُ يمكن اثنين من النشارين ان ينشرا ستة الواح نظيرهُ من نفس الشجرة التي نشرتهُ منها في نصف نهار اذا كانت لهما آلات معدة لذلك . واما انا فاذا كان مطلوبي لوحًا عريضًا طويلاً اضطرني الامر ان اقطع شجرة كبيرة . فصرفت ثلاثة ايام في قطع تلك الشجرة ويومين في قطع اغصانها حتى لم يبقَ منها الاَّ قائمة بدنها . ثم صرفت اياماً كثيرة في تنجيرها وتخفيفها وترقيقها وقد قاسيت في ذلك اتعابًا شاقة لا توصف . ثم صرفت مدة في جلائها وتنظيفها من جانبيها وهكذا كنت اقلبها من جانب الى آخر وانجرها حتى دقت ورقت وصارت لوحًا سمكهُ ثلاثة قراريط فقط . ولا يصعب على احد ان يتصوركم تعبت بيداي بهذا العمل المتعب الاَّ اني بالاجتهاد والمواظبة بالصبر تمّمت هذا العمل واعمالاً اخر كثيرة نظيرهُ . وقد ذكرت ذلك لكي ابيّن كيف صرفت اوقاتًا كثيرة على اشغال قليلة وان ما يكون عملاً صغيرًا مع الآلات والمساعدين قد يكون عملاً كبيرًا مع عدمها . وان الاجتهاد والصبر يعملان عجائب . وسيظهر مما سيأتي اني بواسطة هاتين المزيتين عملت اشياء كثيرة اي كل ما احوجني الدهر الى عملهِ

وكنت في تلك الايام في شهرَي تشرين الثاني وكانون الاول انوقع حصاد الشعير والرزّ ولم تكن الارض التي زرعتها من هذين الصنفين واسعة الدائرة . لان ما كان عندي من البذار كان قليلاً كما سبق القول . فاني كنت قد اضعت موسمًا كاملاً بسبب الزرع في وقت القيظ . ولكن موسمي حينئذٍ كان

جيداً الا انه كان في خطر من اعداء مختلفة كالمعزى وبعض حيوانات برية كنت اسميها ارانب . فان تلك الحيوانات كانت لا تفارق مزروعاتي بل كانت تقيم في وسطها نهاراً وليلاً ولما كانت تجد فيها من الحلاوة كانت ترعاها الى اسفلها ولم تكن تدع لها وقتاً للنموّ والاتيان بالثمر . فساءني ذلك واضطرني الامر الى عمل سياج حولها يحيط بها من كل جهة ويمنع تلك الحيوانات من الدخول اليها فكلفني ذلك تعباً جزيلاً وعلى الخصوص لاني عملته بالسرعة . وصرفت في عمل ذلك السياج ثلاثة اسابيع فقط لان ارضي المزروعة كانت قليلة على قدر طاقتي . وكنت ارمي بعض تلك الحيوانات بالرصاص نهاراً دفعاً لاذيتها واربط كلبي الى عمود بجانب الباب ليحمي مزروعاتي منها ليلاً . فكان ذلك المسكين يحيي الليل كله واقفاً عند ذلك الباب ينبح بأعلى صوته ترهيباً لها . فلم يمضِ الا مدة قصيرة حتى فارقت تلك الاعداء ذلك الموضع فاخذ الزرع ينمو ويُدرِك بسرعةٍ

وما صدقت ان خلصت من اذيّة تلك الحيوانات التي كانت تاكل الزرع قبل ادراكهِ حتى اعتدت الطيور اليهِ وكادت تتلفهُ عند استفراكهِ . فاني بينما كنت ذات يوم مجتازاً من هناك لاتفقد احوالهُ رأيت طيوراً من اجناس مختلفة محدقة بهِ من كل جهة . فاطلقت عليها بارودتي التي لم اكن ادعها تفارقني فطارت للحال من وسط الزرع ومما حولهُ طوائف كثيرة من الطيور كادت تحجب اشعة الشمس لكثرتها فدهشت من ذلك لاني لم ارَ قبل الطلق الا القليل منها . فغمني ذلك جدًّا لاني رأيت انهُ لا يمضي الا ايام قليلة حتى تفني تلك الطيور كل آمالي وغلتي فاموت جوعاً . فحرت في امري ولم اعلم ماذا اعمل . الا اني عزمت ان احفظ غلتي ولو الجأني الحال الى حراستها ليلاً ونهاراً . فاخذت اجول بين تلك الزروع لارى كم حصل من الاذيّة فوجدت ان كثيراً منها قد تلف الا انها اذ كانت لم

تذرك بعدُ كان المطبل غير باهظ وان ما بقي اذا امكنت وقايته ينتج منه غلةً وافرة ·

ثم وقفت جانبًا ودككت بارودتي . وبينما كنت راجعًا رأيت ان تلك اللصوص كانت واقفة على ما حول الموضع من الاشجار كانها تنتظر انصرافي من هناك . وحالما غبت عن نظرها اخذت تنزل بالتتابع الى الزرع فغاظني ذلك ولم استطع ان اصبر عنها الى ان تنزل كلها او يأتي غيرها لاني علمت ان كل حبة تاكلها ستكون رغيفًا كبيرًا في نتائجها بل تقدمت الى جانب السياج ورميتها بالرصاص فاصبت ثلاثة منها فسرَّني ذلك جدًا فعمدت اليها وعاملتها كما نعامل في انكلترا اللصوص المشهورين اي علقتها بسلاسل على راس خشبةٍ ركزتها في وسط الزرع لتكون ترهيبًا وعبرةً لغيرها . وكان تأثير ذلك مما يصعب تصديقهُ . فان تلك الطيور لم تكتفِ بانها لم تعد تأتي الى الزرع بل اعتزلت هاجرة تلك الناحية من الجزيرة حتى اني لم اعد ارى طائرًا في ذلك الموضع ولا في جوارهِ في كل المدة التي كانت فيها تلك الخيالات معلقةً هناك . ولا حاجة الى بيان ما حصل عندي من الفرح بهذا التوفيق والنجاح . وفي اواخر شهر كانون الاول وهو وقت الموسم الثاني في كل سنةٍ حصدت مزروعاتي وذلك بمنجل صنعته حسب معرفتي من سيف عريض كنت قد خلصته من المركب لانهُ لم يكن عندي منجل يصلح لذلك . على انه اذ كان موسمي ذلك قليلاً لم اقاسِ صعوبة كبيرة في حصادهِ . وبالاختصار اقول اني حصدتهُ حسب معرفتي ولم اقطع من الزرع الاَّ السنابل . فوضعتُ تلك السنابل في سلٍّ كبير كان عندي ثم نقيتها فاركًا اياها بيديَّ . فلما فرغت من الحصاد والتنقية وجدت ان غلتي من تلك الكمية القليلة من البذار كانت نحو مدَّين من الرز واكثر من مدَّين ونصف من الشعير وذلك على سبيل التخمين لانهُ لم يكن لي في ذلك الوقت مكيال اكيلها بهِ

الاَّ ان ذلك كان واسطة لتنشيطي وتقوية املي . ورأيت اني مع التمادي

استطيع ان وفَّق الله ان احصّل الكافي من الخبز . غير اني كنت مرتبكًا في ذلك ايضًا لاني لم اعلم كيف الطحن ذلك ولا كيف النخلة ولا كيف اخبزهُ . واذ كانت تلك الصعوبات تقوّي رغبتي في احراز كمية وافرة طلبًا لزيادتها عزمت على اني لا اذوق شيئًا من تلك الغلة بل احفظها جميعها بذرًا للموسم المقبل وعلى ان ابذل جهدي واصرف اوقات الشغل في تلك الاثناء في تتميم هذا العمل العظيم وهو اني احصّل الكافي من الحبوب والخبز

ويمكنني ان اقول بحقٍ اني صرت حينئذٍ اكدُّ واعرق لاجل خبزي . وهو امر عجيب لا يخطر ببال قليلين من الناس كم يلزم من الاشياء الصغيرة لحصول على هذا الصنف الوحيد وهو الخبز . واذ كنت قد وصلت الى الحالة الطبيعية من هذا القبيل كان النظر الى ذلك يضعف املي كل يوم كنت اشعر بصعوبة ذلك كل ساعة حتى بعد ان صار في حوزتي ملء راحة من البذار الذي سبق القول انهُ الى بغتةً ومن دون سعي ولا انتظار

فانهُ اولاً لم يكن عندي محراث اشقُّ بهِ الارض ولا معول انقبها بهِ . الاَّ اني استغنيت عن ذلك بالرفش الخشبي كما تقدَّم القول غير ان ذلك كان صعب المراس قليل النفع . ومع اني صرفت اياماً كثيرة في عملهِ لم يقم الاَّ مدة قصيرة لانهُ لم يكن مصفحًا بالحديد . وفضلاً عن ذلك كان الشغل بهِ اصعب والعمل غير متقن الاَّ اني احتملت ذلك ورضيت ان اشتغل بالصبر واصبر على رداءة الشغل . ولما بذرت البذار ولم يكن عندي آلة لتغطيتهِ التزمت ان اقطع غصناً ثقيلاً من شجرة واجرّهُ عليهِ لكي يخرق او يقلب عليهِ تراب فيغطيهِ وقد ذكرت آنفًا اني من حين زرعهِ الى ان ادرك احتجت الى امور كثيرة لاجل تصوينهِ وحراستهِ وحصادهِ وجمعهِ ونقلهِ الى البيت ودرسهِ وتنقيتهِ من التبن ووضعهِ في محل امين . ثم احتجت الى طاحون الطحنهِ بها ومنخل النخلة بهِ وخميرة وملح لعجنهِ وتنور او فرن او صاج لخبزهِ . الاَّ اني استغنيت عن ذلك جميعهِ كما سأبيّن ذلك في مكانهِ . وكانت الحبوب نافعة لي جدًا

وسبب تعزية لا توصف ولهذا لم اكن ابالي بما كان يكلفني من الوقت والمشقات مما لا غنى عنه لنيل المرغوب . ولا كان الوقت الذي كنت اصرفهُ في ذلك خسارة لي لاني اذ كنت قد قسمت الوقت كنت قد خصصت بتلك الاعمال حصة منهُ في كل يوم . واذ كنت قد عزمت على ان لا اعمل شيئاً من تلك الحبوب خبزاً الى ان يصير عندي منها كمية وافرة فرّغت الستة الاشهر التالية لاختراع وعمل الآلات اللازمة لصنع الخبز

الفصل الثالث عشر

صنع روبنصن كروزي الخزف واختراعهُ آلات لعمل الخبز

فكان عليَّ حينئذٍ ان اعدّ ما يكفي لزرع بذار فدان من الارض . وقبل الشروع في ذلك صرفت اسبوعاً على الاقل في عمل رفش . فلما فرغت من عمل الرفش وجدتهُ خشناً وثقيلاً جداً يقتضي الشغل بهِ تعباً مضاعفاً . الّا اني استظهرت على تلك الاتعاب وزرعت بذاري في قطعتين كبيرتين مسقوبتين من الارض بقرب منزلي بقدر الامكان والصلاحية واقمت سياجاً جيداً يحيط بهما من كل جهة وقد قطعت جميع اخشاب ذلك السياج من الاشجار النابتة من الاوتاد التي غرزتها قبلاً عالماً بانها تعيش وكنت اعلم انهُ في مدة سنة من الزمان سيكون لي سياج حيّ نام لا يحتاج الّا الى تعب قليل لاصلاحهِ . وقد صرفت في ذلك العمل ثلاثة اشهر كاملة . وذلك لان قسماً كبيراً من

الوقت كان في فصل الشتاء فلم اكن استطيع الخروج خارجًا . واذ كان المطر يمنعني من الخروج كنت اشتغل في امور سيأتي بيانها . وكنت دائمًا اتسلى عند العمل بالكلام مع البغال وتعليمه التكلم . فعلمته سريعًا معرفة اسمه وهو قول ثم التلفظ به بصوتٍ عالٍ . وتلك هي الكلمة الاولى التي طرقت اذني في الجزيرة من فم حي غير فيَّ . فلم يكن ذلك اذًا شغلي بل مساعدًا في شغلي . لانهُ كان عندي حينئذٍ شغل كثير كما سبق القول . فاني كنت قد صرفت مدة طويلة انبصر في عمل بعض آنية خزفية كنت محتاجًا اليها ولكنني لم اعلم كيف السبيل الى الوصول اليه . واذ لاحظت شدة الحرّ في الجزيرة لم يكن عندي شكٌّ اني اذا وجدت ترابًا يصلح لعمل الخزف يمكنني ان اصنع منهُ وعاء اذا جُفّف في الشمس يكون صلبًا وقويًّا يمكن حملهُ ووضع بعض اشياء ناشفة فيهِ مما يقتضي الحال بقاءهُ هكذا . واذ كان ذلك ضروريًّا لحفظ الحبوب والطحين وما اشبه مما كنت مهتمًّا في امره عزمت على عمل بعض اوعية كبيرة بقدر الامكان توقف نظير الخوابي وتوعي ما يوعى فيها من الغلال

ولعلَّ القارئ يشفق او بالحري يضحك عليَّ اذا اخبرتهُ كم كان منظر ما عملتهُ شنيعًا عاريًا من نظافة وظرافة وكم مرة كان يسقط الى داخل وكم الى خارج لان التراب كان غير ناشف ولا قادر ان يحمل ثقل نفسه . وكم مرة تشققت تلك المواعين من شدة حرارة الشمس لانها عُملت بسرعة زائدة . وكم تكسر منها عند نقلها قبل تجفيفها وبعدهُ . وبالاختصار كيف اني بعد ان تعبت في ايجاد التراب وتنقيتهِ وجلبهِ الى البيت ودعكهِ لم استطع ان اعمل الا وعاءين كبيرين شنيعين لا اتجاسر ان اسميهما خابيتين صارفًا نحو شهرين في معالجتهما

واذ جففت الشمس جيدًا ذينك الوعاءين نقلتهما بلطافة ورفق الى داخل ووضعتهما في سلّين كبيرين عملتهما لهما لكي لا ينكسرا . ثم اخذت قفّة من الشعير والارز وحشوت حشوًا محكمًا الفراغ الذي كان بين كلٍّ منهما

وجوانب السل بحيث لا يتحركان . ووضعتها في مكان لا تصل اليه رطوبة ولا ماء قاصداً استخدامها نظير مخزن لوضع ما كنت انتظره من الغلة او الطحين

ومع اني لم اوفق في عمل خوابئ كبيرة توفقت قليلاً في عمل اوعية كثيرة صغيرة نظير كاسات مدورة وبواطي واباريق وقدور وما اشبه ذلك مما امكنني عمله . وجففت تلك الاوعية في الشمس حتى صارت صلبة جداً . الا ان كل تلك الادوات لم تصلح لمطلوبي الاصلي لانها لم تكن تضبط الاشياء السيالة ولا تحتمل حرارة النار . واتفق اني بعد ذلك بمدة اشعلت ناراً كبيرة للطبخ فلما قصدت اطفاءها بعد ان فرغت منها وجدت فيها شقفة فخار مما كنت قد صنعته واذا بها قد شويت حتى صارت كحجر في صلابتها وكقرميد في حمرتها. فاخذني العجب وفرحت جداً حين رأيتها وقلت في نفسي انه يمكن ان يشوى الفخار اذاً وهو صحيح كما يشوى وهو شقف

فاخذت عند ذلك ابصر كيف ارتب النار لاجل شي بعض قدور . ولم اكن اعرف شيئاً من امر التنور او الاتون الذي يشوي فيه مصطنعو الفخار فخارهم ولا طريقة طلي ذلك او تمويهه . وقد كان عندي قليل من الرصاص يصلح للطلي . فاخذت ثلاث قدور كبيرة وكاستين او ثلاثاً وجعلتها كومة واحدة متراكمة وجعلت حولها حطباً واضعاً تحته كمية كبيرة من رماد حار كان بينه جمرات صغيرة من النار وبقيت اضع الحطب حول النار وفوقها حتى رأيت القدور قد احمرّت كلها من الحرارة ولم تتشقق ثم تركتها ايضاً هناك في وسط النار نحو خمس او ست ساعات حتى اخذت واحدة منها تذوب وتسيل الا انها لم تتشقق . وذلك ان ما كان قد اختلط بالطين والرمل ذاب من شدة الحرارة ولو داومت الايقاد كان تحول الى زجاج . فاخذت عند ذلك اخفف النار شيئاً فشيئاً فكان احمرار القدور يقل بالتدريج مع خمود النار . وقد سهرت الليل كله في ذلك العمل خوفاً من

ان تخمد النار او تنطفئ دفعة واحدة . فلما اصبحت صار عندي ثلاث قدور جيدة ولا اقدر ان اقول ظريفة وكاستان مشويتان صلبتان على قدر المطلوب كانت احداها جيدة جدًّا ومموهة بواسطة ما ذاب من الرمل من احدى القدور

وبهذه الواسطة تعلمت عمل الاواني الخزفية فكنت كلما احتجت الى شيءٍ منها اعملهُ من دون صعوبة . الاَّ اني اقرُّ بان شكلها كان من دون نظام ولا قانون لانهُ لم يكن عندي قالب ولا رسم لذلك بل كنت اعملها كما يعمل ذلك الاولاد الصغار عندما يلعبون في الطين او كما تعمل الفطائر امرأةٌ لم تعجن قط . وليس فرحٌ بشيءٍ زهيد كهذا يوازي فرحي بنجاحي في عمل قدر تحتمل النار . وما صدقت ان بردت تلك القدور حتى ركبت احداها على النار واضعًا فيها ماء لاجل سلق قطعة من لحم المعزى . ولم يمضِ الاَّ قليل حتى سلقت تلك القطعة جيدًا وكانت مرقتها ذات دسم ولذيذة جدًّا . الاَّ انها كانت تحتاج الى بعض بهارات لكي تكون طبق مرغوبي تمامًا

ثم اخذت اهتمّ في تدبير جرن او هاون من حجر لاجل سحق بعض الحبوب . لانهُ لم يكن لي امل في الوصول الى درجة كاملة من الصناعة بواسطة زوج من الايادي لكي اعمل طاحونًا . وكنت في حيرة من جهة عمل الجرن . لاني كنت قاصرًا في صناعة نقر الحجارة كما كنت في باقي الصنائع ولم تكن لي آلات استعين بها . فصرفت اياما كثيرة في التفتيش على حجر كبير انقرهُ جرنًا فلم اجد حجرًا يصلح لذلك الاَّ ما كان متصلاً بالصخر مما لم يكن لي سبيل الى قطعهِ منهُ . وزد على ذلك ان صخور الجزيرة لم تكن صلبة بقدر المرغوب بل كانت جميعها رملية رخوة تتفتت بسهولة ولا تحتمل ثقل مدقة ثقيلة ولا تدق فيها الحبوب من دون ان تمتلئ رملاً . وبعد ان اضعت مدة في التفتيش عن حجر عدلت عن ذلك واخذت افتش عن قطعة كبيرة من الخشب الصلب لاني رأيت ان الخشب يكون اسهل مراسًا . فوجدت قطعة كبيرة كنت بالكدّ

اقدر ان احركها لثقلها فاخذت ادورها وانحرها من خارج بواسطة الفأس والبلطة ثم نقرتها مجوّفًا اياها من داخل بواسطة النار كما يجوف الهنود في البرازيل قواربهم . ثم عملت مدقة كبيرة ثقيلة من خشب صلب يعرف بخشب الحديد . فلما انتهيت من عمل الجرن وضعتهُ جانبًا الى ان يأتي وقت الحصاد والغلة فاطحن فيهِ الحبوب لاجل عمل الخبز

ثم جعلت اهتم في امر المنخل او الغربال لاجل تمييز الدقيق من النخالة والقشور لانهُ لم يكن لي سبيل الى عمل الخبز من دون تلك الآلة . فكان عمل ذلك والافتكار بهِ من اصعب الامور عندي . لانهُ لم يكن في حوزتي شيء يشبه او يقارب ما يُصطنَع ذلك منهُ اي قماش رقيق ينفذ منهُ الدقيق . فوقفت عند تلك المشكلة اشهرًا كثيرة ولم اعلم ماذا عمل . فان ما كان من الكتان لم يبقَ منهُ الاَّ خِرَق بالية . وكان عندي شعر معزى الاَّ اني لم اكن نوريًّا ولا ابن نوريٍّ ولا عشير النوَر فلم تكن لي معرفة بنسجهِ ولا بغزلهِ حتى اني لو عرفت ذلك لم تكن لي آلات استخدمها لعلاجهِ . ثم خطر ببالي انهُ كان عندي بين ملابس البحرية التي خلصتها من المركب بعض ربطات للرقبة من الشيت او الموصلينا فصنعت من تلك الربطات ثلاثة مناخل صغيرة تصلح للنخل فاكتفيت بها مدَّة سنين وسأُبين في ما يأتي ما فعلتهُ بعد ذلك

ثم اخذت انبصر في كيفية عمل الخبز عندما يصير عندي طحين او بالحري جريش . فانهُ اولاً لم يكن عندي خميرة ولا كان لي امل بوجود ذلك ولهذا السبب لم اتعب سرّي بشأنهِ . وقد حرت في امري من جهة فرن او تنُّور اخبز فيهِ الاَّ اني كشفت اخيرًا طريقًا يغنيني عن ذلك . وذلك اني صنعت بعض ادوات خزفية نظير معاجن واسعة قليلة العمق كان قطرها نحو ذراع وعمقها نحو تسعة قراريط . فشويت تلك الآنية في النار كما فعلت قبلاً ثم وضعتها جانبًا الى حين الحاجة . فلما اردت ان اخبز في ما

بعد اشعلت نارًا كبيرة في موقدتي وكنت قد رصفتها مصفحًا اياها بقطع قرميد مربعة من شغلي غير انهُ لا يجوز لي ان اقول انها مربعة . فلما صار الحطب جمرًا بسطت الجمر فارشًا اياهُ في الموقدة حتى تغطت جميعها وابقيتهُ هناك حتى صارت الموقدة حامية جدًا . ثم كنست الجمر ووضعت رغيفي او ارغفتي مكانهُ على القرميد . ثم غطيتها بوعاء من الاوعية الخزفية المذكورة ثم احطت ذلك الوعاء بجمر من الخارج حفظًا للحرارة وطلبًا لزيادتها في الداخل وعلى هذا المنوال كنت اخبز ارغفتي او بالحري ملأتي الشعيرية على اكمل حال . وصرت بعد مدة من الزمان خبازًا طباخًا ليس لهُ نظير . وقد صنعت من الارز كثيرًا من الكعك والبودينو الذي هو شيخ مآكل السفرة عندنا كالخبيصة عند عرب البادية ولكنني لم اعمل معجنات لانهُ لم يكن لي ما احشوها بهِ الاَّ لحم المعزى او لحم الطيور وذلك لا يكفي

ولا يجب من اني صرفت اكثر ايامي من السنة الثالثة في معالجة تلك الامور . ولا يجب ان ينسى اني كنت في تلك الاثناء اشتغل في تدبير غلتي الجديدة وعمل ارضي واصلاحها . وقد حصدت مزروعاتي في اوقاتها ورجعتها الى منزلي واذخرتها في سلالي الكبيرة التي هيأتها لها الى ان حصلت لي فرصة لنقها وفركها بيدي لانهُ لم يكن لي بيدر ادرسها عليهِ ولا نورج ادرسها بهِ

ثم عزمت على توسيع مخازني لان غلتي كثرت وصار عندي نحو عشرين مدًّا من الشعير وقدر ذلك او اكثر من الرز وان آكل كفاءتي من الخبز لان ما كان عندي من الخبز العتيق كان قد نفد من مدة مستطيلة وعلى ان اعمل معدَّل قاطعتي من الخبز في السنة وان لا ازرع الاَّ مرَّة واحدة في كل عام . ولكي لا اطيل الشرح اقول اني وجدت ان الاربعين مدًّا من الشعير والارز تزيد عن قاطعتي في سنةٍ واحدة ولذلك عزمت على ان ازرع كل سنةٍ قدر ما زرعتهُ في السنة الاخيرة لان ما ينتج من ذلك

يكون كافياً لي لعمل الخبز والبودينو وما اشبه ذلك من الحلاوي والمعجنات

شعرٌ

ضاقَ صدري وطالَ في طلبِ الرز ... قِ قيامي وقلَّ عنهُ قعودي
ابدًا اقطعُ البلادَ ونجمي ... في نحوسٍ وهمتي في سعودِ
ولعلّي مؤمّلٌ بعضَ ما أبلغُ ... باللطفِ من عزيزٍ حميدِ

الفصل الرابع عشر

استعداد روبنصن كروزي لمفارقة الجزيرة

ولا حاجة الى القول اني بينما كنت مشتغلاً في تلك المهمات كانت افكاري تشتغل اوقاتاً كثيرة في امر التوجه الى تلك الاراضي التي اشرفت عليها في ما كنت على الجانب الآخر من الجزيرة . وكانت لي رغبة وشوق شديد ان اكون على تلك الشطوط . وكان يلوح لي بعد اكتشافي تلك البلاد العامرة انهُ يمكنني ان اخترع طريقة للانتقال اليها ومباينة تلك الجزيرة المشؤومة والنجاة من ذلك السجن الرديء

الا اني كنت في كل تلك المدة لا احسب الاخطار التي تكون عليَّ هناك من البرابرة الذين هم اردأ من سباع افريقية ونمورها . وكنت قد سمعت مراراً ان سكان سواحل كاريبي غيلانٌ يأكلون لحوم الناس . ولدى مطالعة الخارطة ظهر لي ان تلك الاراضي لم تكن بعيدة عن تلك السواحل . ومن ثمَّ لاح

لي انهُ اذا لم يأكلني اهلها لا يبعد ان يقتلوني كما قتلوا رجالاً كثيرين من الاوربيين الذين وقعوا في ايديهم وقد كانوا اوقاتاً عشرة او عشرين معاً . فكيف يكون فعلهم بي انا الوحيد . فاني لا اقدر ان ادافع عن نفسي الاّ قليلاً او ربما لا تكون لي فرصة للمدافعة بالكلية . فهذه الامور التي كان ينبغي لي ان اعتبرها حقّ الاعتبار كما فعلت فيما بعد لم تخطر ببالي قط ولا كنت احتسب منها بل كان رأسي ممتلئاً من افكار التوصل الى ذلك البرّ والوصول اليهِ

وكنت حينئذٍ اتمنى ان يكون عندي غلامي كسار وذلك الكوثر الذي سافرت فيهِ اكثر من الف ميلٍ على شطوط افريقية . وكنت اتأسف متحسراً على فقدهما ولكن لم تكن لي فائدة من الاسف على ما فات . وعند ذاك خطر لي ان اذهب وانظر قارب المركب الذي كان البحر قد قذفهُ مسافة بعيدة على الشاطىء في ذلك النوء المهول الذي غرقنا فيهِ . وكان لم يزل في الموضع الذي دفع اليهِ اولاً تقريباً وكانت قوة الامواج والرياح قد قلبتهُ الى جانب مؤلف من الرمل الخشن والحصى وكان الاّ قليلاً اسفلهُ الى فوق واعلاهُ الى تحت الاّ انهُ لم يكن بجانبهِ ماء كما كان قبلاً . فلو كان لي من يساعدني في اصلاحهِ وتنزيلهِ الى البحر لكان جاء طبق مرغوبي وكنت رجعت فيهِ بسهولة الى البرازيل . وكان يمكنني ان ارى انهُ لم تكن لي استطاعة على تحريكهِ وحدي اكثر مما كان لي استطاعة على تحريك الجزيرة التي كنت ملقى عليها . على اني مع ذلك ذهبت الى الحرش وقطعت عتلاً واسافين ثم انثنيت راجعاً بها اليهِ لاجرب قدرتي فيهِ . وكنت اقول في نفسي اني اذا قدرت على قلبهِ وتيسر لي اصلاح ما تعطل منهُ يصير قارباً جيداً اقدر ان اسافر فيهِ حيثما شئت

فبذلت جهدي في ذلك العمل وصرفت في معالجتهِ نحو شهر من الزمان ولكن من دون ادنى فائدة . واذ وجدت انهُ لا يمكنني تحريك ذلك

القارب من مكانهِ ولا قلبهُ اخذت احفر ما تحتهُ من الرمل والحصى لكي يسقط الى اسفل . ووضعتُ هناك قطعاً من الخشب لاجل دفعهِ باستقامة نحو الجهة المقصودة . ولكنني مع ذلك لم استطع ان ازحزحهُ ولا ان ادخل تحتهُ ولا ان ادفعهُ متقدماً بهِ نحو الماء فاضطرّني الامر الى تركهِ والرجوعَ عنهُ خائباً . ومع اني قطعت املي من ذلك القارب لم تنقطع رغبتي في الخروج من تلك الجزيرة مع تعذُّر الوسائط المبلّغة الى ذلك المقصد بل كانت تزيد

ثم اخذت افكاري تشتغل في عمل قارب جديد او زورق من قطعة واحدة نظير القوارب التي يصنعها اهالي تلك البلاد من جذوع اشجار كبيرة . وذلك من دون آلات وكان يمكنني ان اقول ومن دون اياد ايضاً . وكان ذلك يظهر لي ممكناً وهيناً . وكان مجرَّد الافتكار بهذا الامر وبوجود آلات كثيرة في حوزتي لهذا العمل ما لا وجود لهُ عند الزنوج او الهنود يملأُ قلبي سروراً واملاً . واما الصعوبات الخصوصية التي كانت عليَّ ولم تكن على الهنود وهي عدم وجود اياد لنقل ذلك بعد تتميمهِ الى البحر فهذه لم تخطر لي ببال مع انها اعظم من الصعوبات الناتجة من عدم وجود الآلات . لاني اذا كنت بعد بذل الجهد في التفتيش عن شجرة تصلح لذلك ومقاساة التعب الجزيل في قطعها وتجبيرها من خارج بواسطة آلاتي القليلة القاصرة على شكل قارب ثم احراقها او حفرها من داخل لكي تكون مجوَّفةً وصالحة لان تكون قارباً فاذا استفيد اذا التزمت بعد كل هذه الاتعاب ان اتركها حيث وجدتها وذلك لعدم استطاعتي على تنزيلها وحدي الى البحر

فلو تصرفت بالحكمة ونظرت الى حالتي الضعيفة عند الاهتمام بعمل القارب لكان جال في خاطري لا محالة عدم اقتداري على تنزيلهِ وحدي الى البحر . الآن عقلي كان منصبًّا انصباباً عظيماً على السفر فكأنهُ كان لا يسع فكراً غيرهُ . والحال ان تسيير القارب في البحر مسافة خمسة واربعين ميلاً

كان في الحقيقة اسهل في ذاتهِ من تسييرهِ مسافة خمس واربعين قامة على الارض لكي يصل من المكان الذي كان فيهِ الى موضع من البحر يوجد فيهِ ماءٌ قادرٌ على حملهِ

فاخذت اشتغل في عمل القارب نظير احمق لا ينظر الا الى ما قدامهُ . وكنت افرح بالنظر الى العمل من دون ان انظر هل يمكنني التوصل بهِ الى نيل الغاية المقصودة منهُ . هذا على ان صعوبة تنزيلهِ الى البحر كانت تخطر مراراً ببالي الا اني كنت لا اريد ان اتوسع في النظر فيها بل كنت ادفعها من عقلي بهذا الجواب الاحمق وهو اعمل باصبي اولاً القارب فمتى تممتهُ فحينئذٍ تنظر في امر تنزيلهِ لانهُ لابدَّ من ان توجد طريقة لذلك

وكان ذلك حماقة مني . ولكن شدة رغبتي غلبت على عقلي فشرعت في العمل وقطعت شجرة ارز كبيرة اظن ان سليمان نفسهُ لم يكن عندهُ شجرة مثلها لبناء الهيكل في اورشليم . فان محيطها كان خمس اقدام وعشرة قراريط . وكان محيط رأسها حيث تتفرع اغصانها خمس اقدام واحد عشر قيراطاً . وكان طول ساقها عشرين قدماً . وقد كلفني قطعها اتعاباً لا توصف . فاني صرفت عشرين يوماً في الضرب بالفأس والحفر بالمنقار على قاعدتها لاجل رميها واربعة عشر يوماً في قطع اغصانها واعمدتها ورأسها . ثم صرفت بعد ذلك شهراً في تنجيرها وتفصيلها على هيئة قارب يعوم قائماً على الماء . ثم صرفت ثلاثة اشهر في نقر لبها وتنظيف جوفها . وقد فعلت ذلك من دون نار بل بواسطة المطرقة والمنقار والجلد على التعب فصارت قارباً ظريفاً لطيفاً يحمل ستة وعشرين راكباً ويكفي لحملي وحمل كل ما عندي من الوسق

فلما انتهيت من ذلك العمل سررت جداً . وكان ذلك القارب اكبر قارب عمل قطعة واحدة ما رايتهُ في حياتي الا انهُ كلفني اتعاباً جزيلة كما تقدم القول ولم يبقَ عليَّ الا تنزيلهُ الى البحر . ولو تيسر لي ذلك لكنت اخذت في سفر من انعس الاسفار واقلها املاً في النجاح والتوفيق . ولكن لعظم سعدي

ذهبت سدى جميع الوسائط التي استخدمتها لتنزيلهِ الى البحر وقد كلفتني اتعابًا لا توصف . فانهُ كان بعيدًا عن الماء نحو مئة وخمس وثلاثين ذراعًا لا اكثر من ذلك . ولكن الصعوبة كانت من جهة ان الارض التي بينهُ وبين الخليج الذي قصدت تنزيلهُ اليهِ فانها كانت مرتفعة صاعدة فاضطرني الامر ان احفرّ كاشطًا وجه الارض لكي تكون منخفضةً منحدرةً . فكابدت في ذلك مشقات كثيرة الأَّ اني لم ابالِ بها لان نجاتي كانت تجعلني انسى كل تعبٍ يسهل لي الحصول عليها . فلما انتهيت من تسوية الارض طبق المرغوب رأَيت ان الصعوبة لم تزل تقريبًا كما كانت قبلاً . فاني لم اقدر ان ازحزح او احرّك ذلك القارب من مكانهِ اكثر مما امكنني ان افعل ذلك بالقارب الآخر العتيق . واذ وجدت نفسي عاجزًا عن اخذ القارب الى الماء عزمت على قياس الارض وحفر ترعةٍ او قناةٍ عميقةٍ واسعةٍ لاجل جلب الماء اليهِ . ولكن قبل الاخذ في هذا العمل حسبت كم ينبغي ان يكون عمق الترعة وعرضها وكيف ينبغي تفريغها من التراب وكم كان عدد الايادي التي عندي وكيف انهُ لم يكن عندي الأَّ يداي فوجدت ان ذلك العمل لا يتمُّ في اقلّ من عشر سنين او اثنتي عشرة سنة . لان ارض الشاطىء ربما كان ارتفاعها في اعلى جهاتها عشرين قدمًا على الاقل . ومن ثم الجأَني الحال ان اترك هذا العمل وان يكن ذلك ضدّ خاطري وميلي . فغمّني ذلك جدًا ورأَيت حينئذٍ وان يكن ذلك متأَخرًا عظم حماقة من يبتدىءُ بعمل ولا يحسب كلفتهُ اولاً ولا ينظر قبل الشروع فيهِ هل لهُ قدرة ان يكملهُ

واذ انا في وسط هذا العمل اكملت سنتي الرابعة في تلك الجزيرة وقضيت عيدي السنويَّ في العبادة والتأمل كالسنة الماضية . لاني بواسطة مواظبة درس كلمة الله والتأمل فيها وبنعمتهِ تعالى اكتسبت معرفة تختلف عن معرفتي السابقة . وكان نظري الى الاشياء يختلف عمّا مضى . فاني صرت انظر الى العالم كشيءٍ بعيد عني ليس لي معهُ عمل ولا انتظر منهُ شيئًا ولا رغبة لي فيهِ

وبالاختصار لم يكن لي اختلاط بهِ ولا كان يؤمل ذلك . وكان يتراءى لي كأنَّ منظرهُ كان حينئذٍ كما سيكون عند ما انظر اليهِ في ما بعد اي نظير مكانٍ سكنت فيهِ ثم خرجت منهُ وكان يحق لي ان اقول لهُ كما قال ابونا ابرهيم للرجل الغنيّ بيني وبينك هوّة عظيمة قد اثبتت

فاني كنت هنا بعيدًا عن جميع شرور العالم . فلم تكن لي شهوة الجسد ولا شهوة العيون ولا تعظم المعيشة . ولم يكن شيءٌ اشتهيهِ لانهُ كان لي حينئذٍ كل ما كان يمكنني ان اتمتع بهِ . وكنت مسلطًا على كل املاكي وكان يمكنني اذا حسن عندي ان ادعو نفسي ملك او امبراطور تلك البلاد باسرها لاني كنت مستقلاً في سياستها وادارتها ولم يكن من يزاحمني فيها . ولا كان لي شريك في ملكي ولا من يعارضني في اوامري ونواهيّ . وكان يمكنني ان ازرع من الحبوب ما يتخ منهُ وسقات مراكب كثيرة من الغلال . ولكن لم يكن لي منها منفعة . ولهذا لم ازرع الاَّ ما كان يلزمني لسد احتياجاتي . وكان هناك سلاحف كثيرة فوق احتياجي واخشاب تكفي لعمل عمارة من المراكب وعنب يعمل منهُ خمر وزبيب لتجهيز وسق لكامل تلك العمارة اذا اكملت

ولم تكن قيمة الاَّ لما كان يمكنني استعمالهُ . فانهُ كان عندي كفاءة للاكل وسد باقي الاحتياجات وماذا كانت قيمة ما زاد على ذلك عندي فلو كان عندي اكثر مما يلزمني من اللحم مثلاً كان الكلب ياكلهُ او كان ينتن ويجوي . ولو زرعت قمحًا اكثر من قاطعيتي لكان يتعطل لا محالة . وكانت الاشجار التي قطعتها منطرحة على الارض ينخرها السوس وتبلى دائرة من الشمس والهواء والماء وليس من يسأل عنها . ولم يكن لي منها فائدة الاَّ لاشعال النار وذلك للطبخ فقط

وبالاختصار اقول اني تعلمت بواسطة الملاحظة والاختبار ان جميع الاشياء الحسنة في هذا العالم لا تفيدنا الاَّ على قدر ما نستعملهُ وننتفع بهِ منها . وان كل ما نجمعهُ لكي نبذلهُ للآخرين لا نستفيد منهُ الاَّ بقدر ما نستخدمهُ لنفسنا

حاجاتنا وليس اكثر . ولو وجد في حالتي ابخل انسان في العالم لكان لا محالة شفي من رذيلة البخل وصار كريمًا . وذلك لانهُ كان لي اكثر جدًّا مما كان يمكنني الانتفاع بهِ . ولم يكن لي باب لان اشتهي شيئًا الّا ما كان غير موجود عندي . وكان ذلك بالنظر الى باقي الاشياء زهيدًا جدًا . الّا انهُ كان في الحقيقة مع ذلك كبير الفائدة بالنظر اليَّ . وكان عندي كما ذكرت صرَّة فلوس من ذهب وفضة نحو خمسة آلاف غرش . ولكن تلك الصرَّة النجسة الدنية المهينة كانت محذوفةً جانبًا ولم يكن لها عندي ادنى مصلحة ولا فائدة . وقد افتكرت مرارًا كثيرة انني كنت اعطي منها قبضةً بدل حزمةٍ من قصبات الدخان او جاروشا او رحًى لطحن ما عندي الحبوب او اعطيها كلها بدل ما يساوي عشر بارات من بزر الملفوف او الكرنب من بزور انكلترا او بدل حفنة من العدس او الفول او بدل قنينة من الحبر . لانهُ لم يكن لي منها باعتبار ذاتها ادنى منفعة او فائدة . بل كانت موضوعة في جرّار وكان قد علاها العفن من رطوبة المغارة في ايام المطر حتى لو كان ذلك الجرّار مملوءًا من الماس لكان الحال كما ذكرت اي لم تكن لهُ عندي ادنى قيمة لانهُ لا فائدة لي منهُ

وكنت حينئذٍ قد حصلت على راحة اكثر مما كان لي قبلاً . واذ كان قد هدأ بالي واستراح جسدي كنت اجلس مرارًا على الطعام بالشكر واحمد الله الذي هيأ لي مائدة حافلة في بريّة مقفرة . وصرت انظر الى الجهة النيّرة من حالتي اكثر من الجهة المظلمة واعتبر ما كنت حاصلاً عليهِ اكثر من اعتباري ما كنت فاقدهُ . وكان ذلك يخوّلني في بعض الاوقات تعزيات سرّية لا اقدر ان اصفها . وقد ذكرت ذلك هنا نظير نموذج للذين لا يقدرون ان يتمتعوا مرتضين بما اسبغهُ الله عليهم من البركات وذلك لانهم يرون اشياء مما لم يعطهم اياهُ فيشتهونها . وقد ظهر لي عدم ارتضائنا الناتج من

عدم حصولنا على بعض ما نرجوهُ مسبَّبٌ عن عدم تأدية الشكر على ما نحن حاصلون عليهِ

ويوجد امرٌ آخر افادني فائدة عظيمة ولابد انهُ يفيد كل من وقع في ضيقة نظير ضيقتي . وهو مقابلتي حالتي حينئذٍ بالحالة التي كنت انتظرها في اول الامر اي بالحالة التي كنت وصلت اليها لا محالة لو لم يأمر الله بجودة منهُ بانتقال المركب الى القرب من البر حيث صرت قادرًا على الوصول اليهِ وجلب ما جلبتهُ منهُ لاجل فرجي وراحتي . ولولا ذلك من اين كنت آتي بالآلات للشغل واسلحة لوقاية نفسي وبارود وخردق لصيد الاقتات بهِ واحفظ بهِ حياتي

فصرفت ساعات كاملة ويمكنني ان اقول اياماً في التأمل في تلك الامور وكنت اسأل نفسي قائلاً ماذا كنت اعمل لو لم اخرج شيئاً من المركب او كنت لم اجد الاَّ السمك والسلاحف التي ربما كانت مضت مدة مستطيلة قبل وجداني شيئاً منها . الي كنت لا محالة هلكت جوعاً . واذا لم اهلك جوعاً تكون عيشتي كعيشة بربري متوحش . لاني كنت اذا تيسر لي قتل عنزة او طائر مثلاً لم تكن لي طريقة لفزر ذلك المقتول او سلخهِ ونحوهِ او تقطيعهِ . بل كنت التزم ان انتشهُ باسناني واقتصهُ باظافيري نظير وحش مفترس

وكان التأمل في تلك الامور يجعلني اشعر بجودة الله نحوي وعنايتهِ بي واشكرهُ شكرًا جزيلاً على تلك الحالة وان تكن مقرونة بصعوبات ومصائب كثيرة . والآن اطلب الى من يقول انا وقع في مصيبة هل توجد مصيبة كمصيبتي ان يتأمل في ذلك وينظر من هم في حالة اردأ من حالتهِ . او ينظر الى نفس حالتهِ ويرى كم يمكن ان تكون اردأ مما هي اذا اراد الباري تعالى ان يجعلها كذلك

وقد كان لي امرٌ آخر يساعدني ايضاً في تعزية نفسي وتقوية رجائي وهو مقابلة حالتي الحاضرة بالحالة التي استوجبتها خطاياي وكان لي لذلك سبب

لانتظارها من يد العناية الالهية . لاني كنت قد عشت عيشة قبيحة عارية بالكلية من معرفة الله وتقواه . وكان ابواي قد علماني اموراً كثيرة واجتهدا بقدر استطاعتهما في ان يغرسا باكراً في قلبي خوف الله ويرسخا في نفسي شعوراً بواجباتي وبالغاية العظمى التي خلقت لاجلها . ولكن وا أسفاه اني دخلت باكراً في عيشة بحرية وهي كما لا يخفى ابعد عيشة عن خوف الله مع ان اهوالهُ تعالى وعبره هي دائماً امام اعين اصحاب تلك العيشة . فزال مني كل ما كان لي من تلك الحاسيات والشعور القليل بامور الديانة . وذلك لسبب تهاوني بالاخطار وازدرائي بمناظر الموت حتى قسا قلبي دليها وصارت مألوفة عندي لا اعتد بها ومن جرى اعتزالي زمناً طويلاً عن عشرة اصحاب التقوى والديانة وعن استماع كلام صالح او ما يتعلق بالامور الصالحة . فكنت عارياً بالكلية من كل صلاح ومن ادنى شعور بما كنت عليه قبلاً وبما ساكون فيه فيما بعد حتى انهُ في اعظم خلاص حصلت عليه كنجاتي من سلي مثلاً لم تخطر ببالي هذه الكلمات وهي الشكر لله ولا كنت اتلفظ بها بفمي ولا جال في خاطري ان اصلي اليهِ تعالى او اقول يا رب ارحمني حتى ولا ان اذكر اسم الله الا على سبيل الحلف بهِ او التجديف عليهِ عزَّ وجلَّ

وكانت تأتيني افكار مخيفة كانت تزعجني مدة اشهر كثيرة كما سبق القول وكانت تلك الافكار ناتجة من النظر الى رداءة سيرتي وقساوة قلبي في ما مضى . ولما نظرت الى ما حولي وتأملت في ما اسبغهُ الله عليَّ من النعم والبركات من حين اتياني الى ذلك الموضع لذلك الوقت وكيف عاملني باللطف والجودة ولم يقاصصني على قدر استحقاق ذنوبي بل يسرَّ لي كل ما احتاج اليهِ صار عندي امل قويٌّ في ان الله قد قبل توبتي وانهُ تعالى قد حفظ لي رحمةً للمستقبل

ثم بعد هذه التأملات عزمت على ان اسلم اموري الحاضرة لارادة الله وان اشكرهُ تعالى شكراً خالصاً على حالتي ولا اتذمر من اعمال عنايتهِ تعالى بعد

ان ابقاني حيًّا ولم يقاصصني حسب استحقاق خطاياي بل اسبغ عليَّ بركات كثيرة لم يكن لي باب لانتظارها او الطمع فيها في ذلك الموضع العقيم . وعلى ان افرح مرتضيًا بحالي واشكرهُ تعالى شكرًا يوميًّا على ذلك الخبز اليوميّ الذي لم يكن ممكنًا ايجادهُ الاَّ بعجائب كثيرة . وعلى ان احسب ان عيشتي كانت باعجوبة عظيمة كما كانت عيالة إيليّا بواسطة الغربان . وصرت اعتبر انهُ لا يوجد في القسم المعمور من العالم مكان يكون لي فيهِ هذا المقدار من البركات ولا يكون فيهِ وحوش كاسرة ولا ذئاب خاطفة او ضباع مفترسة ولا اشياء سامَّة تؤذيني اذا اغتذيت بها ولا اقوام برابرة تفتك بي وتبتلعني . وبالاجمال اقول كما كانت حياتي ذات احزان ومصائب من الجهة الواحدة كانت ذات بركات ومراحم من الجهة الاخرى . ولم يكن ينقصني شيءٌ لجعلها مرضيةً لي وذات راحة وغبطة الاَّ الشعور بجودة الله نحوي وعنايتهِ تعالى بي في تلك الحالة . فلما اعتبرت الامور حق اعتبارها تسليت متعزيًا ولم اعد اشعر بالحزن والكآبة كجاري عادتي

وكان قد مضى عليَّ مدة مستطيلة في ذلك الموضع حتى ان كثيرًا من الاشياء التي خلصتها من المركب كان قد نفد او تعطل او كاد ينفد . فان ما كان عندي من الحبر مثلاً كان قد قلَّ منذ مدة كما اشرت الى ذلك قبلاً ولم يبقَ منهُ حينئذٍ الاَّ قليلٌ كنت ازيدهُ ماء حتى صار لونهُ ابيض فلم يعد يحدث رسمًا واضحًا على الورق . واذ كان عندي حبر كنت ادون الحوادث المهمة من حياتي . ثم لما قابلت في ما بعد تلك الحوادث مع الايام رأيت انهُ يوجد بينها اتفاقات غريبة فلو كنت ممن يعتبر الخرافات والفالات ويميز بين الايام باعتبار السعد او النحس لكان لي وجهٌ للنظر الى ذلك بكل استغراب ودهشة

فاني وجدت اليوم الذي هربت فيهِ من بيت ابي وتركت اقاربي ذاهبًا الى هول بنية السفر في البحر فيهِ نفسهِ وقعت فيما بعد اسيرًا بيد مركب سلي .

البحري وصرت رفيقًا . واليوم الذي نجوت فيهِ من الغرق في جهة موانئ برموث فيهِ نفسهِ هربت بعد عدة سنين من سلّي في ذلك الكوثر وخلصت من الاسر واليوم الذي ولدت فيهِ وهو ٣٠ ايلول فيهِ نفسهِ نجوت بنوع عجيب بعد ست وعشرين سنة عند ما طُرِحت على الشاطىء في جزيرة اليأس. وعلى ذلك تكون حياتي الردية وحياتي الموحشة قد ابتدأتا كلتاهما في يوم واحدٍ باعتبار السنة

ثم بعد نفاد الحبر نفد ما كان عندي من الخبز اعني ما كنت قد خلصتهُ من المركب من البقصاط مع اني كنت قد استعملتهُ بكل توفير حتى اني كنت مدة سنة لا آكل منهُ الاَّ كعكة واحدة في اليوم كما ذكرت قبلاً . فلبثت مدة سنة من دون خبز بالكلية وذلك قبل ان صار عندي خبزٌ من غلتي بسنة من الزمان تقريبًا . واذ كان وجود ذلك عندي بنوع عجيب كان لي سببٌ عظيم لان اكون شكورًا واحمد الله على وجودهِ

ثم ان ثيابي ايضًا اخذت تبلى رائثةً بسرعةٍ . واما الملابس الكتانية فكانت قد تقطعت ورثت منذ مدة مستطيلة ما عدا بعض اقمصة مخططة كنت قد وجدتها في صناديق بعض بحريتنا واحترصت عليها جدًّا لعظم منفعتها . لاني كنت اوقاتًا كثيرة لا اطبق على بدني الاَّ القميص فقط . وكان عدد ما وجدتهُ منها بين ثياب البحرية نحو ستة وثلاثين قميصًا . وكان عندي ايضًا بعض اردية او كبابيت من ثياب البحرية . الاَّ انها لم تكن تصلح لايام الحرّ لثقلها . ومع انهُ كان يمكنني ان استغني عن الثياب بالكلية لشدة الحرّ هناك لم استطع ان اكون عريانًا بالكلية ولا كنت اطيق الفكر ان اكون كذلك مع اني كنت ارى نفسي مائلاً اليهِ ولم يكن هناك من يعيبني او اخجل منهُ . ومما جعلني لا اريد ان اكون عريانًا بالكلية عدم اقتداري على احتمال حرارة الشمس في حالة العري كاقتداري على احتمالها وانا مكتسٍ لان الحرّ كان قد احرق جلدي مرارًا كثيرة . لاني اذ كنت لابسًا قميصًا كنت اشعر برطوبة بخلاف

ما اذا كنت عريانًا . وذلك لان الهواء كان يتحرك قليلاً ويتلاعب متنسمًا داخل القميص فيدفع الحرارة . ولا كنت اقدر ان اقنع نفسي بالخروج في الشمس وقت الحرّ من دون ان يكون على رأسي قبعٌ او قلنسوة . لان شدة حرارة الشمس في ذلك الموضع كانت تحدث المًا قويًا في رأسي اذا كان مجرّدًا . وذلك لان اشعتها كانت ترشقني على خطٍ مستقيم كانها نبال حادّةٌ لا نطاق الاّ ان القبع كان يدفع قوتها ويحمي رأسي من رشقاتها

وعند ذلك اخذت اهتمّ في ان اجمع معًا ما كان عندي من الخرَق الرثيثة وكنت ادعوها ثيابًا. وكان كل ما كان لي من الصداري قد تخرّق وتقطع فاخذت اشتغل في عمل صداري من الاردية والمواد التي كانت عندي . وهكذا شرعت في الاشتغال بالخياطة او بالحري الترقيع والتلفيق . لاني كنت عكفًا في هذه الصناعة وكنت اشغالي عديمة الاتقان . فعملت صدريتين او ثلاثًا مؤملاً انها تقيم عندي زمنًا طويلاً . ثم عملت لباسًا او بنطالونًا واذا شئت فسمّه سروالاً وكان مضحكًا في تفصيله او خياطته الاّ اني اكتفيت مرتضيًا به الى حين

وقد ذكرت اني كنت احتفظ على جلود جميع ما كنت اقتله من الحيوانات اعني ذوات الاربع واعلقها في الشمس بعد ان انشرها باسطًا اياها على قضبان لتجف وبهذه الواسطة صار بعضها جافًا وقاسيًا جدًا لا ينفع لشيء . الاّ ان بعضها كان نافعًا لي كثيرًا . فاول شيء صنعته من تلك الجلود برنس اي قبعٌ كبير لرأسي جعلت شعره من خارج لدفع مياه المطر . وقد نجحت في عمل ذلك و إحكامه حتى اني صنعت في ما بعد بدلة ثياب كلها من الجلود . اعني صدرية طويلة ولباسًا مفتوحًا عند الركبة . وجعلتها كليها واسعين . لان المقصود الاكبر فيها انما كان التبريد لا التدفئة . ولا يجب ان اغفل عن الاقرار بان عملها كان غير متقن ولا محكم . لاني كما كنت بئس النجار كنت

ايضًا بئس الخياط . غير انهما كانا احسن من العدم فاستخدمتهما مدةً . وكنت اذا اتفق ان تمطر وانا خارج منزلي لا ابتلّ . لان شعر برنسي وصدرتي كان من خارج فكان يقيني من المطر

ثم صرفت زمنًا طويلاً وقاسيت تعبًا جزيلاً في عمل شمسية او خيمة . وكنت في احتياج شديد اليها كما كانت لي رغبة في عملها . وكنت قد رأيت قومًا يعملون شمسيات في البرازيل حيث كانت الشمسيات دارجة ونافعة كثيرًا في اوقات الحرّ لانهُ كان شديدًا هناك . وكنت قد شعرت بان الحرّ في جزيرتي كان شديدًا كما في تلك الاطراف او اشدّ منها لانها اقرب منها الى خط الاستواء . ثم اذ كنت مضطرًا الى الخروج من منزلي اوقاتًا كثيرة كانت الشمسية عندي من انفع الادوات . فصرفت اوقاتًا كثيرة محاولاً عمل شمسية وبعد ان عطلت اثنتين او ثلاثًا تيسر لي ذلك وعملت شمسيةً على عقلي . وكانت الصعوبة الكبرى في عملها ان اجعلها تنطبق وتنطوي الى داخل فاني لم اجد صعوبة كبيرة في جعلها تنفتح وتنتشر الى خارج . لانها اذا كانت لا تنطبق وتنطوي الى داخل لا يمكني حملها الاّ مفتوحة فوق رأسي ولا يخفى ما في ذلك من الصعوبة . الاّ اني اخيرًا عملت شمسيةً تنفتح وتنطبق حسب المرغوب . وقد غطيتها بجلود جاعلاً جهة الشعر الى خارج . فكانت تمنع خرق الماء كما يمنعهُ بيت مغطى السقف . وكانت ايضًا تمنع حرارة الشمس تمامًا حتى انهُ كان يمكنني ان امشي بها خارجًا في احرّ الازمنة باكثر راحة مما كان يمكنني ذلك بدونها في ابردها . وكنت اذا لم احتج اليها اطبقها واحملها تحت ابطي

وكنت حينئذٍ اعيش بالرغد واللذة لان بالي كان قد فاز براحة عظيمة بواسطة تسليمي اموري لارادة الله والقائي نفسي بالتمام على تدبير عنايتهِ تعالى . وصارت حياتي احسن مما لو كان لي من اعاشرهُ واستأنس بهِ . وكنت اذا

ابتدأت اتأسف من انهُ لايوجد من يكلمني ثم اسأل نفسي قائلاً أليس الكلام بيني وبين نفسي ومخاطبتي الله بالطلبات احسن من افضل معاشرة في العالم واطلبها بما فيها اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون

شعرٌ

ملكُ القناعةِ لا يُخشى عليهِ ولا   يحتاجُ فيهِ الى الانصار والخوَلِ

الفصل الخامس عشر

عمل روبنصن كروزي قاربًا صغيرًا وما قاساهُ من الاخطار في البحر

لا استطيع ان اقول انهُ في مدة خمس سنين بعد ذلك الوقت صادفني شيءٌ خارق العادة . فاني كنت اعيش بحاري عادتي في نفس المركز والموضع الذي كنت فيهِ قبلاً . والاشياء التي كنت مشتغلاً فيها على الاكثر هي اشغالي الاعتيادية وذلك كالخروج كل يوم بارودتي وزرع الشعير والارزّ وعمل الزبيب . وكان دائمًا عندي من ذلك مؤنة كافية لسنة واحدة سلفًا . وكان عندي ايضًا شغل آخر وهو عمل قارب صغير . ولما اكملتهُ حفرت ترعة عرضها ست اقدام وعمقها اربع اقدام ونقلتهُ الى خليج كان بعيدًا عنهُ مسافة نصف ميل تقريبًا . واما القارب الاول الذي كان كبيرًا جدًا كما سبق وكنت

قد عملتهُ من دون ان انظر قبلاً كيف انزلهُ الى البحر بعد تتميمهِ فاذ لم استطع قط ان انزل بهِ الى البحر ولا ان اصعد بالبحر اليهِ الجأني الحال الى تركهِ قائماً في مكانهِ ليكون عبرة اتعلم منهُ ان انصرف في اموري في ما بعد باكثر حكمة . ومع اني في المرَّة الثانية لم استطع ان اجد شجرة تصلح لعمار قارب الَّا في مكان لم اكن اقدر ان آتي بالماء اليهِ على بعد اقلّ من نصف ميل كما تقدَّم القول واذ وجدت بعد التأمل ان ذلك ممكنٌ باشرت فيهِ . ولم اكف عنهُ حتى اكملتهُ . ومع اني صرفت مدة نحو سنتين في معالجتهِ لم اتذمر قط من التعب والشغل . لان امل الحصول على قارب اسافر فيهِ في البحر كان ينسيني كل ذلك ويخولني لذَّةً في التعب

وكان قاربي الثاني لا يصلح لصغرهِ للغاية التي قصدتها عند عملي القارب الاول وهي السفر الى تلك الارض الثابتة اي القارة حيث كانت المسافة اكثر من اربعين ميلاً عرضاً . ومن ثم كان صغر قاربي يساعدني على ان اطرد من بالي ذلك المقصد الذي لا يطمع في نيلهِ حتى اني لم اعد افتكر فيهِ بالكلية . واذ صار عندي قارب عزمت على الطواف حول الجزيرة . لاني اذ كنت قد ذهبت الى الجانب الآخر منها برًّا كما ذكرت قبلاً جعلتني الاكتشافات التي اكتشفتها في ذلك السفر القصير ارغب جدًّا في ان ارى اماكن اخرى من السواحل

واذ كنت منصبًّا انصبابًا عظيمًا على السفر بحرًا وكان قد صار عندي قارب اسافر فيهِ فلكي افعل كل شيء بالحكمة والاحتياط ركزت ناصبًا ساريًا صغيرًا في ذلك القارب وعملت لهُ قلعًا من قلوع المركب التي كان عندي منها جانب عظيم محفوظًا بحرص لحين الحاجة . ثم عملت في كل طرف من طرفي القارب صندوقًا او خزانة لاجل وضع الزاد والادوات وباقي اللوازم حفظًا لها من المطر وماء البحر وحفرت بيتًا اي تجويفة صغيرة مستطيلة في قعر القارب لاجل وضع بارودتي وعملت لها غطاءً اغطيها بهِ لكي لا تبتل . ثم

نصبت شمسيتي ناشراً اياها على درجة عند المؤخر نظير قلع لكي تكون فوق رأسي وتظللني من الشمس . وهكذا كنت حيناً بعد حين اسافر سفراً قصيراً في البحر . الا اني لم ابعد قط عن ذلك الخليج ولا توغلت في البحر واذ كنت ارغب في الاطلاع على محيط مملكتي الصغيرة ووجدت بعد الامتحان ان قاربي يسير جيداً عزمت على الطواف حول الجزيرة . فجهزت قاتي للسفر ووضعت فيو اربعة وعشرين رغيفاً او ملة من خبز الشعير وجرة فخار مملوءة من الرز المحمص مما كنت اغتذي بو كثيراً وقنينة صغيرة مملوءة من الروم وشقة عنزة وباروداً وخردقاً للصيد وكبوتين مما ذكرت اني خلصتة من صناديق البحرية قاصداً ان افرش احدها تحتي واتغطى بالآخر ليلاً

وفي اليوم السادس من شهر تشرين الثاني في السنة السادسة من سلطنتي وان لم يعجبك ذلك فقل اسري اخذت في ذلك السفر ووجدتهُ اطول كثيراً مما كنت اظنهُ . ومع ان الجزيرة نفسها لم تكن كبيرة جداً رأيت عند وصولي الى جانبها الشرقي رأساً او سلسلة عظيمة من الصخور ممتدة مسافة نحو فرسخين في البحر بعضها تحت الماء وبعضها فوقهُ. وكان وراءها حرف من الرمل ممتدّ خارج البحر نحو نصف فرسخ ايضاً . ولما رأيت ذلك الرأس ووجدت انهُ يلزمني ان انوغل مبعداً كثيراً في البحر لكي ادور حولهُ حرت في امري وهممت على ان اعدل عن السفر وانثني راجعاً الى منزلي . لاني لم اكن اعلم كم يلزمني ان ابعد في البحر ولا كيف ارجع من سفري اذا ابعدت متوغلاً فيهِ . وعند ذلك ارسيت القارب مستعيناً بمرساة كنت قد صنعتها من قطعة حديد خلصتها من المركب . وبعد ان القيت المرساة وربطت قاربي ربطاً محكماً تناولت بارودتي وخرجت الى البرّ واخذت اصعد على تل هناك كان يلوح لي انهُ يطل على ذلك الرأس . فلما وصلت الى اعلاه اشرفت منهُ على آخر الرأس . ثم نزلت عازماً على ركوب البحر والمخاطرة ايضاً

ولما كنت على ذلك التل اطللت مشرفاً على البحر فرأيت تياراً قوياً

ومخيفًا جدًا كان يجري نحو الشرق الى ان يصل الى جانب ذلك الرأس. وقد لاحظته على الاكثر خوفًا من الخطر فيما اذا دخلت فهو يحملني رغمًا متوغلاً في البحر ولا يعود يمكنني الرجوع الى الجزيرة. وحقًا اني لو لم اصعد اولاً على ذلك التل لاصابني ذلك لا محالة. لانهُ كان تيار آخر على الجانب الآخر من الجزيرة يمتد الى مسافة ابعد. وقد رأيت انهُ يوجد تيار قوي من جهة الشاطىء. وهكذا كنت اذا خرجت من التيار الواحد ادخل في التيار الآخر

فاقمت في ذلك المرسى يومين. لان الريح كانت تهب هبوبًا قويًا من شرقي الجنوب مضادة للتيار المذكور. ولذلك كانت الامواج تندفع بعزم نحو البرّ وتلاطم ذلك الراس متدفقة عليهِ. فكنت في خطر من الامواج اذا بقيت بالقرب من الشاطىء وفي خطر من التيار اذا ابعدت عن الشاطىء متوغلاً في البحر

وفي اليوم الثالث صباحًا سكنت الريح وصار البحر هادئًا. فاقلعت واخذت اسير في طريقي حتى صرت اخيرًا عبرةً لكل دبدب جاهل ومدبر جسور. وذلك لاني حالما وصلت الى الراس ولم اكن بعيدًا عن الشاطىء مقدار طول قاربي صرت في لجة عميقة من المياه وتيار قوي جدًا كالماء الذي يدير حجر الطحن. فحمل ذلك التيار قاربي وسار بهِ بقوةٍ وعنفٍ شديد حتى اني لم استطع بكل عزمي وجهدي ان ابقى على حافتهِ. وكان ذلك التيار يحمل القارب دافعًا اياهُ بعنف ويبعدهُ شيئًا فشيئًا عن تيار آخر كان عن يساري. ولم تكن هناك ريح تهب فتساعدني ولا كان تجذيفي بالمجاذيف يغني شيئًا او يحدث ادنى تأثير. فابتدأت حينئذٍ أيأس واقطع الامل من الحياة. وذلك لانهُ اذ كان التياران على جانبي الجزيرة كانا لا بد من ان يلتقيا معًا بعد مسافة اميال قليلة فلا يعود لي امكان للخلاص. واذ كنت لا ارى لي بابًا للنجاة اذ ذاك كنت لا ارى امامي الاَّ الهلاك وذلك لا بواسطة البحر لانهُ كان حينئذ

هادئًا بل بواسطة الجوع . وكنت قد وجدت على الشاطئ سلحفاة كبيرة بقدر
ما استطيع حملهُ قطرحتها في ارض القارب . وكان عندي من الماء العذب
ملء جرّة كبيرة من الجرار الخزفية التي عملتها . ولكن ماذا كان ذلك كلهُ
بالنظر الى التيه في الاوقيانوس العظيم حيث لا يوجد شاطئ ولا قارة ولا
جزيرة على مسافة الف فرسخ على الاقلّ . وحينئذٍ تبين لي كم هو سهل على
العناية الالهية ان تجعل اشقى حالات الانسان اكثر شقاءً ايضًا مما هي . وعند
ذلك صارت عندي جزيرتي الموحشة المنفردة ابهج مكان في العالم . حتى ان
كل السعادة التي كان قلبي يتمناها كانت الرجوع اليها . فبسطت حينئذٍ يدي
نحوها متحسرًا على فراقها وقلت بلهف هل يقسم الله نصيبًا ان اراكِ ايتها
الجزيرة البهجة السعيدة . وا أسفا اني لن اراكِ ايضًا الى الابد . يا لشقاوتي وسوء
حظي الى اين انا ذاهب . ثم اخذت اوبخ نفسي على انكاري الجميل وتذمري
في ما مضى من جرى وحدتي مع اني كنت ارغب حينئذٍ ان اعطي كل مالي
لاكون هناك . وظهر لي عند ذلك كيف اننا لا نرى ابدًا حقيقة حالتنا الاَّ اذا
قابلناها باضدادها . ولا نعتبر قيمة ما نتمتع بهِ الاَّ بعد فقدهِ ويصعب تصور
او وصف ما اعتراني من الاضطراب والاسف عند ما دُفعت عن جزيرتي
المحبوبة البهجة في الغاية كما كانت تظهر لي حينئذٍ مبعدًا عنها الى لجج الاوقيانوس
العظيم حتى صارت مني على مسافة نحو فرسخين ولم يبقَ لي امل في العودة
اليها . الاَّ اني مع ذلك كنت اشتغل بكل نشاط حتى كدت اعيي من شدَّة
التعب وقد ابقيت قاربي بقدر استطاعتي في ناحية الشمال الى جانب التيار
ولم أزل كذلك الى قرب الظهر عند ما مالت الشمس عن خط نصف
النهار . وكان يتراءى لي حينئذٍ كأني اشعر بنسيم لطيف في وجهي يهب
من جنوبي الجنوب الشرقي . فسرّني ذلك قليلاً وانشرح بهِ صدري وعلى
الخصوص عند ما هبت بعد ذلك بنحو نصف ساعة ريح رقيقة من تلك الجهة .
وكنت حينئذٍ قد ابعدت بعدًا فاحشًا عن الجزيرة . فلو حصل اقلّ شيء من

الغيم او الاغبرار كنت وقعت في خطر من جهة اخرى ايضاً . وذلك لانهُ لم يكن عندي حك في القارب ذلو غابت الجزيرة لحظةً عن ناظري لما عرفت قط كيف اوجه مقدم قاربي نحوها . ولكن اذ كان الهواء لم يزل رائقاً افرغت جهدي في نصب صاريّ ونشر قلعي واخذت ابعد بقاربي الى جهة الشمال بقدر استطاعتي هرباً من التيار

وحالما نصبت صاري ونشرت قلعي واخذ القارب يمشي ظهر لي من ملاحظة صفاء الماء ان التيار سيتغير حالهُ بعد قليل . لانهُ حيث كان التيار قوياً كان الماء كدراً ولكن حيث كان الماء صافياً كان التيار ضعيفاً . ولم يمضِ الاَّ القليل حتى رأيت الى جهة الشرق على بعد نحو نصف ميل امواج البحر تلاطم بعض صخور وكانت تلك الصخور تجعل التيار ينقسم ايضاً الى شطرين . واذ كان اقواها يجري مائلاً اكثر الى جهة الجنوب تاركاً الصخور الى جهة الشمال الشرقي كانت الصخور تدفع القسم الآخر فيرجع الى الوراء فيكون منهُ تيار قويٌّ حادٌ جداً يجري راجعاً الى جهة الشمال الغربي

فالذين يعرفون قيمة ورقة العفو او الامان التي تأتيهم وهم في المشنقة او قيمة الخلاص من ايدي لصوص هامين على قتلهم او النجاة من مصائب كبرى يمكنهم ان يعرفوا كم حصل عندي من الفرح والسرور عند ما دخلت بقاربي الى ذلك التيار وابتدأت الريح تهب ضاربة قلعي المنشور وتستكد قاربي دافعة اياهُ حتى كان يسير امامها بسرعة ورفق على متن تيار قوي تحتهُ

وان ذلك التيار حملني مسافة نحو فرسخ راجعاً بي باستقامة نحو الجزيرة الاَّ انهُ دفعني نحو الشمال مسافة نحو فرسخين اكثر من التيار الذي حملني اولاً ذاهباً بي عنها . ولهذا لما قربت من الجزيرة وجدت نفسي مقابلاً شاطئها الشمالي اي الطرف المقابل الطرف الذي خرجت منهُ عند سفري منها

• ثم بعد ان قطعت بمساعدة ذلك التيار مسافة اكثر من فرسخ من

طريقي وجدت انهُ انقطع ولم يعد يفيد في شيئًا . الاَّ اني اذ كنت بين تيارين اي التيار الذي الى الجهة الجنوب الذي حملني ذهابًا والتيار الذي الى جهة الشمال الذي كان على مسافة نحو فرسخ من الجهة الاخرى وجدت الماء بين ذينك التيارين هادئًا لا يجري الى جهة . واذ كان لي نسيم يهبُّ سائرًا معي اخذت اتقدم باستقامة طالبًا الجزيرة . الاَّ ان سيري كان اقلّ سرعة من السابق

واذ صرت عند العصر على مسافة فرسخ من الجزيرة وجدت ان ذاك الرأس الذي احدث تلك المصيبة وكان ممتدًّا الى جهة الجنوب كما ذكرت قبلاً وقد دفع التيار الى الجهة الجنوبية كان قد احدث تيارًا آخر الى جهة الشمال . وكان ذلك التيار قويًّا جدًّا الاَّ انهُ لم يكن يجري في طريقي الى نحو نقطة الغرب بل كان يجري نحو نقطة الشمال تقريبًا . غير اني اذ كانت الريح معي قوية قطعت ذلك التيار مائلاً نحو الشمال الغربي . وبعد نحو ساعة من الزمان صرت على مسافة نحو ميل من الشاطىء . واذ كان البحر هناك هادئًا وصلت سريعًا الى البرّ

فلما خرجت الى البرّ ركعت على ركبتي وحمدت الله شاكرًا اياهُ على نجاتي التي كنت انسبها اليهِ تعالى ولم انسب منها شيئًا الى قاربي ولا الى قوتي . ثم اكلت شيئًا مما حضر ودنوت بقاربي من الشاطىء الى بوغاز صغير كنت قد لحتهُ تحت اشجار هناك واضطجعت لانام اذ كنت قد عييت من تعب الطريق ومشقة السفر

وكنت حينئذٍ في حيرة عظيمة من جهة الطريق التي ينبغي ان ارجع فيها بقاربي الى منزلي . واذ كنت قد وقعت في اخطار كثيرة وعرفت بالاختبار احوال الطريق التي اتيت منها لم اكن اطيق الافتكار بالرجوع من تلك الطريق عينها . ولا كنت اعلم كيف كانت الاحوال من جهة الناحية الاخرى اي الغربية . ولا كانت لي ارادة ان القي نفسي في المخاطر مرة اخرى . غير اني

عزمت فقط عند الصباح ان اسير نحو الغرب بجانب البرّ لعلي اجد نهراً اربط عنده قاربي بالامان تاركاً اياهُ هناك الى حين . وبعد ان قطعت مسافة نحو ثلاثة اميال بالقرب من الشاطئ وصلت الى خليج او بوغاز ممتدٍ نحو ميل في البرّ كان يصغر متناقصاً شيئاً فشيئاً الى ان صار نظير جدولٍ . فوجدت هناك ميناء امينة لقاربي كانها قد عملت له قصداً . فاربحت في تلك الميناء وبعد ان ربطت القارب ربطاً محكماً خرجت الى البرّ لكي ارى اين كنت من الجزيرة

ثم وجدت بعد قليل اني لم اتجاوز كثيراً الموضع الذي وصلت اليه قبلاً عندما سافرت برّاً الى تلك الجهة . فاخذت سيفي طريقي ولم آخذ معي من القارب شيئاً الاّ بارودتي وشمسيتي لان الحرّ كان شديداً . وكانت الطريق هينة بالنسبة الى ما قاسيته من سفري بحراً . فوصلت مساء الى خيمتي القديمة في الجبل فوجدت كل شيء هناك مرتباً كما فارقته . لاني كنت دائماً ارتب الاشياء هناك جداً لان ذلك الموضع كان كما ذكرت قبلاً مسكني الجبلي

فصعدت على الحائط واضطجعت في الفيء لاريح اضلاعي لاني كنت تعباً جداً . فغلب النعاس بعيني فنمت مستغرقاً . ومَن مِن قارئي قصتي يقدر ان يتصور ما اعتراني من الدهشة والذهول عندما ايقظني من النوم صوت داعٍ يناديني باسمي تكراراً قائلاً روبن روبن روبن كروسو . مسكين روبن كروسو . اين انت يا روبن . اين كنت يا روبن

وكنت حينئذٍ مستغرقاً مستثقلاً في نومي كاني ميت لاني كنت قد تعبت جدّاً من التجذيف او كما يقال التقذيف . وبما ان نومي كان في اوائل النهار وانتباهي في اواخره لم انتبه تماماً بل كنت بين منتبه ونائم . فخيل لي اني كنت احلم ان واحداً يكلمني . ولكن اذ كان الصوت لا يزال يطرق اذني قائلاً روبن كروسو روبن كروسو اخذت ازيد انتباهاً . وكنت في اول الامر

قد خفت جدًّا واضطربت اضطرابًا عظيمًا . ولكن حالما فتحت عيني رأيت ببغالي او ببغائي واقفًا على اعلى السياج . فللحال عرفت انهُ هو ينادبني لاني كنت في ما مضى اكلمهُ واعلمهُ الكلام بتلك النغمة المحزنة . وكان قد تعلمّ جيدًا حتى كان يقف على ابهامي ويضع منقارهُ بالقرب من خدي ويصرخ قائلاً مسكين روبن كروسو اين انت يا روبن . اين كنت يا روبن كيف جئت الى هنا يا روبن وما اشبه ذلك من العبارات التي كنت قد علمتهُ اياها

ومع اني عرفت ان الذي ناداني هو الببغاء وانهُ لا يمكن ان يكون ذلك حيًّا غيرهُ بقيت مدة قبل ان هدأ روعي وسكن قلبي . فاني اولاً تعجبت منذهلاً كيف اتى الى ذاك الموضع ثم كيف امكنهُ ان يقيم بالقرب من ذلك المكان ولم يذهب الى مكان آخر غيرهُ . الاّ اني اذ كنت متحققًا انهُ لا يمكن ان يكون ذلك الاّ ببغائي الامين الودود زال ما اعتراني من الذهول . فمددت يدي نحوهُ ودعوتهُ باسمهِ قائلاً فُول فُول تعال . ففي الحال اتى اليَّ ذلك الطائر الانيس واستقرَّ على راس ابهامي كعادته وكان يناديني قائلاً مسكين روبن كروسو . كيف اتيت الى هنا يا روبن . اين كنت يا روبن . وكان بتراءى كأنهُ قد طار فرحًا عند ما رآني . فحييتهُ بالسلامة وقبلت عينهُ وحملتهُ هكذا ذاهبًا بهِ الى البيت

وكنت حينئذٍ قد اكتفيت الى مدة من سفر البحر . وكان لي عمل يكفيني مدة ايام وهو البطالة والتامل في الخطر الذي كنت فيهِ . وكنت اتمنى ان يتيسر لي الاتيان بقاربي الى تلك الجهة من الجزيرة الاّ اني لم آكن اعلم كيف آتي بهِ الى هناك اما الجهة الشرقية من الجزيرة التي كنت قد درت حواليها فاني كنت اعلم جيدًا انهُ لا سبيل الى السفر فيها . حتى انهُ كان يختلج قلبي ويجمد دمي من مجرَّد الفكر بذلك . واما الجهة الاخرى من الجزيرة فلم آكن اعلم كيف يكون الحال فيها . ولكن اذا كان التيار يجري نحو الشاطىء الى جهة الشرق بنفس العزم الذي كان يجتاز بهِ بجانبهِ من الجهة الاخرى فاني

اقع في الخطر نفسهِ من ان ادفع الى التيار وتحملني الجزيرة كما كنت قبلاً في خطر من ان أُحمل عنها . فلما لاحظت ذلك ارتضيت ان اكون بدون القارب وان كنت قد صرفت اشهرًا كثيرة واتعابًا شاقة في عملهِ واكثر من ذلك جدًّا في تقريبهِ الى البحر

فلبثت حاكمًا هكذا على طبعي نحو سنة من الزمان . وكنت اعيش عيشة هادئة جدًّا ومتوحدة كما لا يخفى واذ كنت قانعًا بحالتي ومتسليًا بتسليم اموري لتدبير العناية الالهية كنت احسب نفسي اني كنت عائشًا حقًّا عيشة راحة ورفاهية من كل وجه ولم اكن انتغص لشيء الاّ العشرة والمسامرة

وكنت اتقدم في ذلك الوقت في الصنائع التي كانت الضرورة تدعوني الى الانعكاف عليها . واظن اني عند الحاجة كنت نجارًا ماهرًا وعلى الخصوص اذا اعتبرنا كم كانت الآلات قليلة عندي

وعدا ذلك صرت ماهرًا خبيرًا في صناعة الفخار واحسنت في استخدامي دولابًا لعملهِ ووجدت ذلك اسهل مراسًا واحسن . لان ما عملتهُ حينئذٍ كان متقنًا وذا هيئة ظريفة مع انهُ كان قبلاً شنيع المنظر جدًّا . واظن انني لم اعجب قط مفتخرًا بعمل عملتهُ ولا فرحت بشيء مما اخترعتهُ اكثر من اقتداري على عمل آلة لشرب التبغ . وكانت تلك الآلة شنيعة المنظر وعارية من كل نقانة في عملها وكانت مشوبة حمراء فقط نظير باقي الفخار الاّ انها اذا كانت قاسية وقوية لسحب الدخان سررت بها جدًّا لاني كنت دائمًا معتادًا على شرب التبغ . وقد كان في المركب الآت لشرب التبغ الاّ اني كنت قد غفلت عنها في اول الامر غير ظان انهُ يوجد تبغ في الجزيرة ثم لما فتشت عنها في ما بعد في المركب لم اجد شيئًا منها

وتقدمت كثيرًا ايضًا في عمل السلال وعملت كثيرًا من السلال اللازمة بحسب معرفتي ومع انها لم تكن ظريفة كانت نافعة كثيرًا لوضع الاشياء او

جلبها من الحقل الى المنزل . فاني كنت اذا اصطدت عنزة مثلاً في البرية اعلقها على شجرة واسلخها وافززها واقطعها ثم آتي بها في سلة الى البيت . وهكذا كنت افعل اذا اصطدت سلحفاة فاني كنت اشقها وانزع البيض منها وآخذ قطعة او قطعتين من لحمها وآتي بها جميعًا في سلة الى البيت واترك ما بقي في البرية . وعملت ايضًا سلالاً كبيرة عميقة لخزن غلاتي التي كنت دائمًا افتّها حالما تيبس جيدًا وانقيها ثم احصلها في سلال كبيرة

وظهر لي حينئذٍ ان ما كان عندي من البارود قد نقص وقلّ كثيرًا . وهو من الاشياء التي لم يكن يمكنني صنعها . فجعلت اتفكر باهتمام ماذا ينبغي لي ان اعمل متى نفد بارودي اي ماذا اعمل لاصطاد المعزى . وقد ذكرت قبلاً انهُ كان عندي في السنة الثالثة من دخولي تلك الجزيرة جديٌ صغير كنت اربيهِ واعتني بهِ مؤمّلاً ان تكاثر المعزى عندي بواسطتهِ . الاَّ انهُ شاخ ولم يكن لهُ انثى من جنسهِ فمات من الكبر ولم يترك نسلاً . ولم استفد منهُ شيئًا لان قلبي كان لا يطاوعني على ذبحهِ والانتفاع بلحمهِ وجلدهِ

شعرٌ

اذا قربت يداكَ الى مرامٍ وقلتَ تحوّلت نفسي مُناها
فلا تأمن من الدهرِ اختلاسًا يحولُ فمكرهُ في ذا تناهى

———

الفصل السادس عشر

تربية روبنصن كروزي قطيعاً من المعزى وكيفية معيشته وزيادة نجاحه

واذ كان قد مضت عليَّ نحو احدى عشرة سنة في جزيرة اليأس وكانت ذخيرتي من البارود والخردق قد كادت تنفد كما تقدم القول اخذت اتبصر في اختراع طريق لاصطياد المعزى حيةً . فصنعت لذلك فخاخاً . واظن انها عاقت بها مراراً ولكن اذ كانت آلاتي غير جيدة لانهُ لم يكن عندي لها شريط كنت اجدها دائماً مقطعة والطعم مأكولاً . فعزمت اخيراً على عمل مطمورات اي حفائر في الارض . فحفرت حفراً كبيرة في الاماكن التي كنت ارى المعزى تتردد اليها لترعى فيها ووضعت على تلك الحفر اخشاباً على شكل شبكة من شغل يدي وثقلتها باشياء ثقيلة وكنت اوقاتاً القي هناك سنابل شعير وارزّ من دون ان انصب الفخ . الاَّ ان المعزى كانت تدخل الحفائر وتأكل السنابل لاني كنت ارى آثار اظلافها هناك ولا تعلق . ثم اني نصبت في احدى الليالي ثلاثة فخاخ ولما ذهبت في الغد لافتقدها وجدتها جميعها لم تزل منصوبة الاَّ ان الطعم كان قد اكل . فضعف املي عند ذلك . الاَّ اني لم اكف بل غيرت الفخاخ . ولكي لا اثقل على القارىء بذكر كل ما حصل بالتفصيل اقول اني ذهبت ذات يوم صباحاً لافتقد تلك الحفائر

فوجدت في احداها تيساً كبيراً من المعزي وفي حظيرة اخرى ثلاثة جداء ذكراً واثنين

اما التيس المسن فلم اعلم ماذا اعمل به . فانه اذ كان قويًا شريرًا جدًّا لم انجاسر على النزول اليه الى الحظيرة لكي امسكهُ حيًا حسب مرغوبي . فانهُ كان يمكنني قتلهُ الآن ذلك لم يكن مصلحتي ولا كان يوافق مقصدي . فافلتهُ واطلقت سبيله فأخذ يركض كأنهُ قد جُنّ وطار عقلهُ من شدة الخوف . وقد غفلت حينئذٍ عمّا تعلمتهُ في ما بعد وهو ان الجوع يذلل الاسد نفسهُ حتى يصير انيسًا . فلو تركت ذلك التيس هناك ثلاثة او اربعة ايام من دون اكل ولا شرب ثم اخذت لهُ قليلاً من الماء ليشرب وقليلاً من الشعير ليأكل لكان ذلَّ لا محالة وصار اهليًا كجدي . لان المعزى حكيمة جدًّا وسريعة الانقياد اذا عُومِلت بالحسنى . على اني اطلقت سبيله حينئذٍ لان ذلك كان حدّ معرفتي في ذلك الوقت . ثم تقدّمت الى الاجدية الثلاثة وامسكتها الواحد بعد الآخر وربطتها معًا بحبلٍ وذهبت بها جميعًا الى منزلي وذلك بصعوبةٍ كما لا يخفى

فبقيتْ مدة لا تأكل شيئًا ثم القيت لها قليلاً من الشعير فلما ذاقت حلاوتهُ اكلتهُ واخذت تألف شيئًا فشيئًا . فوجدت حينئذٍ اني اذا اردت ان يكون عندي كفايتي من لحم المعزى بعد نفاد بارودي وخردقي لم يكن لي طريق لنيل هذا المقصد الا بواسطة تربية قليل من المعزى لكي تكون حول منزلي نظير قطيع من الغنم . ولكن جال في خاطري حينئذٍ انهُ يجب فصل ما كان منها اهليًا مما كان بريًّا والا فانها متى كبرت تصير جميعها بريّةً وتهرب مني . ولم يكن باب لنيل هذا المرغوب الا باحاطة قطعة من الارض بسياجٍ محكم متين وذلك من الاشواك او العوارض لكي تكون حظيرة ازربها فيها بحيث لا يستطيع ما كان منها داخلاً ان يخرج ولا ما كان منها خارجًا ان يدخل

ولا يخفى ان ذلك عمل كبير على زوج واحد من الابادي . الاَّ انني اذ رأيت انهُ لابدَّ منهُ لنيل المرغوب اخذت اولاً في التفتيش عن قطعة ارض تصلح لذلك يكون فيها عشبٌ ترعاهُ وماءٌ تشربهُ واشجارٌ تظللها من الشمس . فالذين لهم معرفة في امر السياجات يفتكرون باني كنت قليل التدبير عند ما اخترت لذلك قطعة تشتمل على هذه الشروط جميعها اي مرجةً مستسهلةً مطمئنةً منفرجةً فيها نبعان او ثلاثة ينابيع عذبة وفي احد اطرافها كثير من الاشجار . وربما يتبسمون من قلة درايتي او بالحري من جنوني عند ما اقول اني باشرت في تسييج تلك القطعة بطريق يلزم منهُ ان تكون مساحة دائرة سياجي ميلين على الاقل . ولم يكن جنوني في ذلك من جهة اتساعهِ لانهُ لو كانت دائرتهُ عشرة اميال لما كان يبعد ان يكون لي وقت واقتدار لتتميمهِ بقدر ما كان من جهة عدم اعتباري لهذا الامر وهو ان المعزى تكون دائمًا نافرة بريَّة في موضع متسع كهذا كما تكون لو كانت لها كل الجزيرة ويكون لها ايضًا موضع واسع جدًا للهرب مني اذا ركضت وراءها لامسكها حتى يكون مسكها امرًا مستحيلاً واظنُّ انهُ عند ما اتاني هذا الفكر كنت قد عملت من السياج نحو سبعين ذراعًا فكففت في الحال متوقفًا عن العمل وعزمت ان اسيج في البداية قطعة طولها نحو مائتي ذراع وعرضها نحو مائة وثلاث وثلاثين ذراعًا فقط . وذلك يسع كل ما اجمعهُ في مدة طويلة واذا كثرت المعزى عندي يمكنني ان اوسعهُ باضافة قطعة او قطع اخرى اليهِ

واذ كان عملي هذا لا يخلو من حكمة اخذت فيهِ بنشاط ورغبة . فصرفت نحو ثلاثة اشهر في تسييج تلك القطعة . وبينما كنت اشتغل فيها كنت اطوّل للاجدية الثلاثة في احسن قسم منها واعودها ان ترعى بالقرب مني بقدر الامكان لكي تتألف . وكنت مرارًا كثيرة اذهب وآتي ببعض سنابل شعير او حفنة ارزّ واطعمها من يدي . حتى انها بعد ان كمل سياجي

واطلقتها داخلة كانت تتبعني من مكان الى مكان تثغو ماعيةً في اثري طالبة كمشة من الحبوب

فجاء ذلك طبق مرغوبي . ثم بعد سنة ونصف تقريبًا صار عندي قطيع نحو اثني عشر رأسًا من الجداء وغيرها . ثم بعد ذلك بسنتين صار عندي ثلاثة واربعون رأسًا وذلك عدا ما كنت قد ذبحتهُ واكلتهُ . ثم سيجت خمس قطع من الارض في اماكن مختلفة لارعاها فيها وجعلت فيها صيرًا صغيرة كنت ازربها فيها واخرجها منها متى شئت . وفتحت ابوابًا بين تلك القطع تؤدي من الواحدة الى الاخرى تسهيلاً لأخذها

ولم يكن عندي حينئذٍ لحم معزى فقط اغتذي بهِ متى شئت بل صار عندي حليب ايضًا . فان الدرَّ لم افتكر فيهِ في الابتداء ولا كان يخطر ببالي . فلما خطر ببالي كدت اطير فرحًا بهِ . واخذت حينئذٍ احلب المعزى فكان يوجد عندي كل يوم كمية وافرة من الحليب . وكما ان الطبيعة التي تعطي كل خليقة ما يكفيها من الغذاء ترشدها طبعًا الى طريقة استعمالهِ هكذا كان الحال بالنظر اليَّ . فاني كنت لم احلب قط عنزة ولا بقرة ولا رأيت قط احدًا يصنع جبنًا او سمنًا الاَّ في ايام صباي فقط ولكن بعد امتحانات كثيرة تيسر لي اخيرًا عمل جبن وسمن وملح ايضًا الاَّ اني كنت اجد الملح على بعض صخور في البحر مطبوخًا قابلاً بواسطة حرارة الشمس فكنت اجمعهُ واصلحهُ على النار ولم يعد ينقطع من عندي في ما بعد . فما أقدر الباري تعالى على معاملة خلائقهِ بالرحمة حتى في الاحوال التي يكونون فيها كأنهم محاطون بالهلاك من كل جهة . وكيف يقدر سبحانهُ ان يجعل امرَّ اعمال عنايتهِ حلوًا ويحملنا على ان نحمدهُ على السجون والحبوس ايضًا . فما افخر المائدة التي هيئت لي هناك في بريةٍ لم أرَ فيها شيئًا في اوَّل امري الاَّ ان اهلك جوعًا

ومن كان يستطيع ان يضبط نفسهُ عن الضحك لو رآني وعائلتي الصغيرة نجلس على الطعام . فانهُ كان هناك جلالتي انا والي الجزيرة باسرها وملكها

صاحب السلطان المطلق على حياة جميع رعاياي اشنق من اشاء واعفو عمن اشاء واطلق واستأسر من اريد ولم يكن بين جميع تبعتي من يعصيني . ومن كان يقدر ان يراني اتغذى نظير ملك وحدي والانصار والحشم حواليَّ من كل جانب ولا يغرب في الضحك . ولم يكن مأذونًا لاحد من اولئك الجلساء ان يكلمني الاَّ فول وحدهُ فانهُ كان ينادمني كانهُ اعظم المقرَّبين عندي . واما كلبي الذي كان قد شاخ جدًّا وخرف ولم يخلف نسلاً فكان دائمًا يجلس عن يميني عند الاكل . وكانت عندي قطتان كانتا تجلسان دائمًا معي الواحدة على الجانب الواحد والاخرى على الجانب الآخر من المائدة تموءان منتظرتين مرة بعد اخرى كسرة خبز او لقمة من يدي على رأس الفرتيكة علامة الرضا عنهما

شعرٌ

فهوَ الاميرُ ولا امر يطاع بهِ مثلُ العروضِ لهُ بحرٌ بلا ماء

وكانت تانك القطتان غير القطتين اللتين انيت بهما معي من المركب لان تينك كانتا قد ماتتا ودفنتهما بيدي في جوار منزلي . الاَّ انهما كانتا من نسلها . وكان لها اولاد كثيرة لم اعرف ماذا كان جنس ابيها . وكنت قد ربَّيت هاتين منها واقنيتها عندي . اما البقية فانها هربت الى الاحراش وصارت برية وكانت تزعجني كثيرًا اذ كانت تأتي مرارًا الى منزلي وتسرق او تخطف ما تجدهُ من المأكولات . فاضطرني الامر اخيرًا ان ارميها بالرصاص واقتل كثيرًا منها حتى تركتني . وهكذا كنت أعيش محفوفًا بتلك الانصار والحشم والخيرات والنعم حتى انهُ لم يكن يصح القول انهُ لا ينقصني الاَّ الجلساء . ولكنني كنت بعد ذلك بقليل في خطر من ان يكون لي جلساء اكثر من مرغوبي كما سترى

وكنت كما ذكرت قبلاً متشوقاً الى استعمال قاربي الا اني كنت اكره جداً ان اخاطر ايضاً بنفسي . فكنت اوقاتاً اجلس وابتصر في ايجاد طريق لجلبهِ الى القرب من منزلي واحياناً اقنع مرتضياً بان اكون بدونهِ . غير انهُ كانت لي رغبة غريبة في النزول الى الموضع الذي ذكرت اني في سفرتي الاخيرة صعدت منهُ الى التل لانظر كيف كان الشاطئ والبحار وارى ماذا ينبغي لي ان اعملهُ . وكانت تلك الرغبة تزيد كل يوم حتى عزمت اخيراً ان اسافر الى هناك براً ماشياً على حافة الشاطئ وقد فعلت ذلك . ولكن لو اتفق ان رجلاً من بلاد الانكليز صادفني في ذلك السفر ورآني في تلك الحالة لكان خاف جداً او ضحك مستغرباً . واذ كنت اقف مراراً كثيرة لانظر كيف كان منظري لم اكن استطيع ان اتمالك نفسي من ان اتبسم عند ما كنت افتكر بالسفر في لندن او باريس بتلك العدة وذلك الملبوس . فان حسن عندك ان تصور صورتي كما يأتي

اني كنت لابساً على رأسي قبعاً كبيراً طويلاً عديم النظام مصنوعاً من جلد المعزى لهُ ذنب من خلف مدلى على كتفي لاجل منع حرارة الشمس ونفوذ المطر الى عنقي . لانهُ لم يكن شيء في تلك الجهات اكثر ضرراً من ان يمس المطر الجلد تحت الثياب . وكنت لابساً على بدني صدرية قصيرة من جلد المعزى ايضاً يصل ذيلاها الى وسط الفخذ ولباساً مفتوحاً عند الركبة عملتهُ من جلد تيس مسنّ كان شعرهُ طويلاً مدلى من كل جانب حتى كان يصل كنظير بنطالون الى وسط ساقي . ولم تكن لي جوارب ولا احذية . الا اني عملت شيئاً لا اكاد اعلم ماذا اسميهِ كان اشبه بلفافة كنت الفهُ على ساقيّ واربطهُ بشرائط من طرفيهِ . كان منظرهُ كما كان منظر سائر ملابسي شنيعاً جداً

وكنت متمنطقاً بزنار عريض من جلد المعزى كزنار مكارٍ او حمّال كنت اشدهُ رابطاً طرفيهِ بسيرين من الجلد ايضاً عوض الازرار والعرى .

وكان معلقًا بشبه حمّيلة على جانبي الزنار مكان السيف منشار صغير على الجانب الواحد وبلطة على الجانب الآخر . وكان لي سير اقل عرضًا من الزنار مشدود في كتفي معلق في طرفهِ تحت ابطي الايسر جرابان من جلد المعزى احدهما للبارود والآخر للخردق . وكنت حاملاً على ظهري سلة وعلى كتفي البارودة وفوق رأسي شمسية كبيرة شنيعة من جلد المعزى ايضًا الاّ انها كانت مع ذلك اهمّ الاشياء التي معي بعد بارودتي واما وجهي فان لونهُ لم يكن تمامًا كلون وجه حبشي كما يكون انسان يسكن على مسافة تسع او عشر درجات فقط عن خط الاستواء ولا يعتني بوجههِ . واما لحيتي فاني كنت قد ارخيتها واطلقت لها العنان حتى صار طولها نحو ثلث ذراع ولكن اذ كان عندي كثير من المقارض والمواسي كنت اقصرها . واما شارباي فاني ارخيتهما حتى صارا طويلين كشوارب بعض العرب الذين رأيتهم في الجزائر ولا اقول انهما كانا طويلين بحيث اقدر ان اعلق برنيطتي بهما بل كان طولهما وشكلهما على جانبٍ عظيم من الشناعة حتى يصح القول ان منظرهما كان يحسب في انكلترا من المناظر المرعبة

وقد ذكرت جميع ما ذكرتهُ من هذا القبيل على سبيل الاستطراد . لان منظري كان كيفما كان لا طائل تحتهُ لان الذين يلاحظون ذلك كانوا قليلين جدًّا عندي . ولهذا اقتصر على ما تقدم وارجع الى ما كنت في صددهِ فاقول . اني بتلك الهيئة سافرت سفري الجديد وغبت عن منزلي خمسة او ستة ايام فسافرت اولاً على شاطىء البحر ذاهبًا باستقامة الى المكان الذي ارسيت اولاً فيهِ قاربي بالقرب من التل الذي صعدت عليهِ قبلاً . واذ لم يكن لي حينئذٍ قارب اهتم بهِ ذهبت برًّا في طريق اقرب الى قمة ذلك التل . فلما اشرفت على الرأس الذي ذكرتهُ قبلاً ورأيت البحر ساكنًا هادئًا ولم ارَ هناك هياجًا ولا حركةً ولا تيارًا اكثر مما يوجد في باقي الاماكن تعجبت متحيرًا من ذلك التغيير ولكن لم اعلم ما هو سببهُ . فعزمت ان اصرف مدة في مراقبتهِ

لاري اذا لم يكن ذلك مسببًا عن المدّ . ولم يمضِ الاّ قليل حتى ظهر لي سرّ ذلك واضحًا وهو ان المدّ الذي كان يبتدئ من جهة الغرب ويتصل بمجرى مياه نهر كبير ينحدر من البرّ يجب ان يكون سببًا لذلك التيار وانهُ بقدر قوة هبوب الريح من جهة الغرب او الشمال كان ذلك التيار يقرب من الشاطئ او يبعد عنهُ . لاني اذ اقمت هناك الى المساء صعدت على التلّ ثانيةً واذ كان المدّ قد انكفأ عند ذلك راجعًا الى الوراء رأيت واضحًا هذه المرّة ايضًا التيار كالسابق الاّ انهُ جرى الى مدًى ابعد حتى صار على مسافة نحو نصف فرسخ عن الشاطئ مع انهُ في ذلك السفر بقي بجانب الشاطئ وحملني بقاربي بسرعة كما علمت ولو اتفق الامر في وقت آخر لما فعل ذلك كما لا يخفى

فعلمت من ذلك انهُ ليس عليَّ الاّ ان اراقب فيض المدّ ورجوعه لكي يمكنني ان ادور بسهولةٍ بقاربي حول الجزيرة راجعًا بهِ الى منزلي . الاّ انني لما ابتدأت افتكر في اجراء ذلك فعلاً احدث فيَّ تذكر ما وقعت فيهِ قبلاً ارتعاشًا قويًّا حتى انني لم اعد اقدر ان اطيق الافتكار بهِ . فعزمت على امر آخر كان اقل خطرًا وان يكن اكثر تعبًا وهو ان ابني او بالحري اصنع قاربًا آخر فيكون عندي قاربان احدهما للجانب الواحد من الجزيرة والآخر للجانب الآخر منها

شعرٌ

اذا لم تستطع شيئًا فدعهُ وجاوزهُ الى ما تستطيعُ

وينبغي ان تعلم انهُ كان لي حينئذٍ مزرعتان في الجزيرة . فالمزرعة الاولى كانت على الشاطئ وهي قلعتي الصغيرة او خيمتي المسوّرة في لحف التل والمغارة التي وراءها التي كنت في ذلك الوقت قد كبّرتها وقسمتها الى منازل او مغائر صغيرة مختلفة احداها داخل الاخرى . فكان في احدى تلك المغائر

وهي اكبرها وانظفها وذات باب ينفذ خارج سوري او قلعتي اي خارج الموضع الذي يلتقي فيه حائط سوري بحضيض التل آنية فخار كبيرة مما سبق شرحهُ واربع عشرة او خمس عشرة سلة كبيرة تسع الواحدة من خمسة الى ستة امداد كنت قد اوعيت فيها موئتي وعلى الخصوص غلتي بعضها في السنابل وبعضها حب منقي كما علمت ذلك قبلاً

واما الاعمدة والاوتاد التي عملت منها السياج فكانت قد عاشت جميعها حتى صارت اشجاراً وكانت حينئذٍ قد كبرت جداً وصارت غيضة ملتفة متكاثفة حتى انهُ لم يكن احد يستطيع ان يرى المنزل وراءها

وبالقرب من مسكني هذا ولكن ابعد منهُ قليلاً عن البحر كانت قطعتا الارض اللتان كنت احرثهما جيداً وازرع فيهما بذاري وكانتا تأتياني بغلتهما في حينها . الا انهما كانتا ابعد من مسكني عن البحر واقل ارتفاعاً منهُ . وكانت لي في جوارها ارض جيدة نظيرها كان يمكنني الزرع فيها اذا احتجت اليها

واما المزرعة الاخرى فكانت في الجبل او كما يقال في البرّ . وكانت لي هناك عدة مزروعات وخيمتي الصغيرة التي كنت دائماً ارتبها واحترص عليها واحافظ دائماً على السياج المحيط بها بحيث يكون دائماً على ارتفاعهِ المعتاد . وكانت السلم منصوبةً هناك دائماً داخل السياج . والاشجار التي لم تكن اولاً الا اوتاداً وكانت قد صارت حينئذٍ قوية جداً ومرتفعة كنت دائماً اربّيها واعتني بها حتى امتدّت وصارت كغوطة غضة ذات ظل لطيف طبق مرغوبي . وكانت خيمتي مضروبة في وسط تلك الاشجار ولم تكن الا قطعة قلع منشورة على اعمدة ركزتها هناك لتلك الغاية . ولم تكن تحتاج الى اصلاح او تجديد . ونصبت في تلك الخيمة سريراً من جلود الحيوانات ومن اشياء أُخر ناعمة وبسطت عليهِ لحافاً من لحف البحرية نظير فراش ووضعت فوق اللحاف كبوتاً كنت اتغطى بهِ فكنت اذا غبت عن مسكني الاصلي على الشاطىء انزل في ذلك المسكن في الجبل

وكان بالقرب من مسكني الجبليّ صيَرٌ لما كان عندي من المواشي اي المعزى . واذ كنت قد كابدت اتعابًا لا توصف في تسييج وتصوين تلك الارض كنت احترص عليها واحفظها كاملة خوفًا من ان تفلت منها المعزى . ولهذا لم اتركها الاَّ بعد ان ركزت بقصب جزيل اوتادًا صغيرة متقاربة خارج السياج حتى صار بتحقق ان يحى سورًا لا سياجًا وكانت الاوتاد قريبة بعضها من بعض حتى انهُ لم يكن يمكن دخول يد بينها . ولهذا لما عاشت تلك الاوتاد في ما بعد في الشتاء كان ذلك السياج قويًّا نظير سور او بالحري اقوى من سورٍ

وذلك يشهد لي اني لم اكن كسلاً في استحصال ما كان يظهر لي انهُ ضروري لراحتي في امر المعيشة . لاني لاحظت ان تربية بعض حيوانات اهلية على يدي تكون ذخيرة حية من اللحم واللبن والسمن والجبن استخدمها ما دمت في الجزيرة ولو بقيت هناك اربعين سنة وان تيسير ذلك لي متوقف بتمامهِ على تتميم سياجاتي الى درجة تمكنني من ابقائها معًا . وقد نلت مرغوبي هذا بواسطة الطريقة التي استنبطتها حتى انهُ اجتذأَت تلك الاعمدة الصغيرة تنمو اضطرني الامر الى اقتلاع البعض منها لاني كنت قد غرستها قريبة جدًّا بعضها الى بعض

وكان عندي في ذلك المكان كثير من العنب كنت استند عليهِ على الاكثر في مونة الشتاء من الزبيب . وكنت احسب الزبيب من افخر والذّ ما كان عندي هناك من الاطعمة . وكان فضلاً عن لذتهِ نافعًا للصحة وشافيًا ومغذيًا ومرطبًا الى الغاية

واذ كان مسكني هذا في اواسط الطريق بين قلعتي والموضع الذي خلفت فيهِ قاربي كنت غالبًا ابيت فيهِ عند سفري الى ذلك الموضع ذهابًا وايابًا . لاني كنت اتفقد قاربي مرارًا كثيرة واحافظ عليهِ وعلى ادواتهِ بكل حرصٍ .

وكنت اوقاتاً انزل فيهِ لاجل الفتره الّا اني لم اكن ابعد اكثر من رمية حجر او رمية رصاص عن الشاطىء خوفاً من ان يدفعني بغتةً تيار او ريح او حادث آخر ذاهباً بي حيث لا ادري . وكنت قد وصلت حينئذٍ الى مناظر جديدة من حياتي كما سيرد بيانهُ

شعرٌ

رماني الدهرُ بالارزاء حتى	فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرتُ اذا اصابتني سهامٌ	تكسَّرتِ النصالُ على النصالِ

الفصل السابع عشر

خوف روبنصن كروزي من اثر قدم رآهُ بغتةً على الرمل وتحصينهُ قلعتهُ

واتفق ذات يوم عند الظهر بينما كنت ذاهباً نحو قاربي اني رأيت بغتةً اثر قدم انسان حافٍ على الرمل فدهشت متعجباً من ذلك ووقفت جامداً كمن اصابتهُ صاعقة او ابصر خيالاً او كما يقال جنيَّة . فتنصتُّ والتفتُّ ذات اليمين وذات اليسار فلم اسمع صوتاً ولا رأيت شيئاً . ثم صعدت على رابية لكي اتطلع من هناك وكنت اصعد وانزل على الشاطىء فلم ارَ شيئاً ولا اثر شيء الّا ذلك الرسم . ثم ذهبت اليهِ لارى هل يوجد غيرهُ بالقرب منهُ او هو وهم وتخيل مني . فلم ارَ غيرهُ الّا انهُ لم يكن محل للشبهة في كونهِ رسم قدم لان اثر الاصابع والعقب وكل جزء من القدم كان واضحاً جداً . ولكن لم اعلم كيف

كان ذلك ولا امكنني ان انصور شيئاً من امره . وبعد تخمينات وافكار كثيرة انثنيت راجعاً الى قلعتي مضطرباً ومنزعجاً جداً حتى اني من شدة الخوف والرعب لم اكن اشعر بالارض التي كنت ادوسها . وكنت كلما خطوت خطوتين او ثلاث خطوات التفت الى خلفي . وكنت اخاف من كل شجرة او صخر اراهُ . وكل شجرة كنت اراها عن بُعدٍ كنت احسبها انساناً ولا يمكن وصف الاشباح الكثيرة المختلفة التي كانت مخيلتي تصور لي الاشياء بها ولا وصف التصورات الموحشة المتنوعة التي خالجت خاطري وانا ماشٍ في الطريق

فلما وصلت الى قلعتي لاني هكذا كنت ادعو دائماً منزلي بعد ذلك الوقت وثبت داخلاً اليها كمن يطاردهُ عدوٌّ . ولا اعلم هل دخلت عن السلم كما كنت افعل اولاً او من الثقب الذي في الصخر الذي كنت اسميهِ باباً . ولا كان يمكنني ان اذكر ذلك في غد اليوم ايضاً لانهُ لم يهرب قط ارنب خائف ولا ثعلب جافل الى وجارهِ باكثر رعب مما اصابني لما هربت تلك المرة

ولم انم تلك الليلة قط . وبقدر ما كنت ابعد عن مسبب خوفي كان احتسابي منهُ اعظم . وذلك ضد طبيعة مثل هذه الاشياء وعلى الخصوص ضد مألوف عادة جميع الخلائق في خوفهم . الَّا اني اذ كنت مرتبكاً ومنزعجاً من تصوراتي المخيفة لم يكن يخامر فكري الَّا اوهام مكدرة مع اني كنت حينئذٍ بعيداً كثيراً عن ذلك الاثر الذي سبب لي تلك المخاوف . وكنت انصور متوهماً احياناً انهُ ينبغي ان يكون ابليس هو الذي فعل ذلك وكان عقلي يوافقني على هذا الوهم لاني كنت اقول كيف يمكن لغير ابليس ان يأتي الى ذلك المكان . وكيف امكن انساناً واحداً ان يصل الى هناك . واين المركب الذي اتى بهِ . واين أثر قدم او اقدام أُخر . الَّا انهُ كان يصعب عليَّ احياناً ان اصدق ان ابليس يتخذ لهُ صورة انسان في مثل ذلك من دون غاية ايضاً . لانهُ لم يكن

يعلم يقيناً اني اراهُ . وزد على ذلك اني كنت عالماً بان ابليس بمكنه ان يجد طرقاً اخرى كثيرة لتخويفي غير تلك الطريقة وهي ترك اثر قدم واحد . واني اذ كنت ساكناً على الجانب الآخر من الجزيرة لا يمكن ان يكون جاهلاً بهذا المقدار حتى يترك رسماً في مكان نسبة نظري اياهُ فيهِ الى عدمهِ كنسبة واحد الى عشرة آلاف . وذلك في الرمل ايضاً حيث كان في خطر عظيم من ان تنبض عليهِ مياه البحر عند اشتداد الريح وتمحوهُ بالكلية . ومن ثم كان بيان ذلك كلهِ منقوضاً باعتبار الشيء في ذاتهِ وباعتبار كل ما نعهدهُ من خبث ابليس ومكرهِ

واذ كانت امور اخر كثيرة تساعد في اقناعي بكون ذلك ليس من عمل ابليس جزمت حالاً بانهُ ينبغي ان يكون عمل حي اكثر خطراً منهُ . اي انهُ ينبغي ان يكون بعض برابرة من اهالي القارة التي كانت عبر البحر مقابلي قد تاهوا بقواربهم في لجج البحر ودفعوا اما بتيار او بريح مضادة الى الجزيرة وخرجوا الى البرّ ثم انثنوا حالاً راجعين الى البحر . وربما كان ذلك لانهم كرهوا الاقامة في تلك الجزيرة المقفرة كما كنت انا ايضاً اكره اقامتهم فيها

واذ كانت تلك الامور تتردد في عقلي شكرت الله في ضميري على حسن حظي في اني لم اكن في تلك الجهة في ذلك الوقت وعلى انهم لم يروا قاربي لانهم لو رأوا القارب كانوا استدلوا منهُ على وجود سكان في الجزيرة وربما كانوا فتشوا عليَّ ثم اخذت افكار هائلة تزعجني من جهة وجودهم القارب واستدلالهم بهِ على وجود سكان هناك . واذا صح ذلك فلا بد من انهم سيأتون ثانية جمهوراً اكبر ويقتلونني ويأكلون لحمي . وانهُ اذا اتفق انهم لا يجدون احداً لا بد من ان يجدوا قلعتي ويتلفوا كل ما كان عندي من المعزى الاهلية فاهلك اخيراً من الجوع والعازة

وهكذا كان خوفي ينفي كل رجائي الديني وكل اتكالي السابق على الله المبني

على اختبار عجيب لجودتهِ كأنّ ذلك الذي أعانني الى ذلك الوقت باعجوبة لا يقدر ان يحفظ بقوّتهِ القوت الذي يسّرهُ لي بجودة منهُ. وكنت اوبّخ نفسي على كسلي لاني لا ازرع حبوباً في سنة تكفيني للسنة المقبلة ايضاً كانهُ لا يمكن حدوث عارض يمنعني من التمتع بالغلة الباقية في الحقل ايضاً. وكنت احسب نفسي مصيباً في ذلك التوبيخ حتى عزمت على ان احصل في المستقبل سلفاً غلة تكفيني سنتين او ثلاثاً حتى اذا حصل عارضٌ مهما كان لا اهلك لعدم وجود الخبز

فما اغرب حياة الانسان في تقلباتها بواسطة تدبير العناية الربانية. وما اعظم اختلاف الاسباب التي تحرّك عواطفنا بحسب اختلاف احوالنا وظروفنا. فاننا نحب اليوم ما سنبغضهُ غداً. ونطلب اليوم ما نتجنبهُ غداً. ونرغب اليوم في ما نخافهُ ونرتعد احتساباً منهُ غداً. وقد تم جميع ذلك فيَّ في ذلك الوقت بطريق موثّر واضح جدًا. فاني انا الذي كانت مصيبتي الوحيدة اني كنت في ظاهر الامر منفيًا من عشرة بني البشر ووحيداً ومحاطاً بالاوقيانوس الذي لا حدَّ لهُ ومنقطعاً عن البشر ومقضياً عليَّ بالعيشة الصامتة وكأن الله نظر اني لا استحق ان أُحصى في عدد الاحياء او اظهر بين مخلوقاتهِ وكنت احسب ان نظري الى واحدٍ من جنسي بني البشر اقامةُ لي من الموت الى الحياة واكبر البركات التي يقدر الله نفسهُ ان يمنحها بعد بركة الخلاص الفائقة كنت في ذلك الوقت ارتجف مرتعداً من مجرّد الاحتساب من ان ارى انساناً. وكنت اكاد اغرق في الارض من علامة او رسم صامت يدل على ان انساناً ما قد وضع قدمهُ في تلك الجزيرة. فهذه هي حالة العيشة البشرية الكثيرة التغير والتقلبات. ولما هدأ روعي وسكن قلبي فيما بعد من تلك الوهلة اخذت افتكر افتكارات عجيبة غريبة. فافتكر ان تلك العيشة هي التي قضت لي بها عناية الله ذات الحكمة والجودة الغير المتناهيتين والتي لا استطيع ان انظر سلفاً ما هي غايات الحكمة الالهية في ذلك جميعهِ ولهذا لم يكن لي حق ان اقاوم سلطة

المطلقة . وذلك لاني اذ كنت خليقتهُ كان لهُ حقٌّ لا ريب فيهِ ان يتسلط عليَّ ويتصرف بي تصرفًا مطلقًا كما يحسن لديهِ . واذ قد اغظتهُ ايضًا كان لهُ حقٌّ شرعيٌّ ان يحكم عليَّ بالقصاص الذي يرتضي بهِ . واذ كنت قد اخطأت اليهِ كان من واجباتي ان احتمل غضبهُ بخضوع . ثم نظرت لدى التأمل انَّ الله الذي هو عادل وقادر على كل شيء ايضًا كما حسن لديهِ ان يقاصني ويؤدبني هكذا يقدر ان يترأَف عليَّ وينقذني . وانهُ اذا لم يحسن لديهِ ان يعاملني هكذا يجب عليَّ مع ذلك ان اسلم نفسي لارادتهِ تسليمًا كاملاً مطلقًا وان اتكل عليهِ واصلي اليهِ واخضع لاحكامهِ وتدبير عنايتهِ الفائقة

فصرفت في هذه الافكار ساعات كثيرة واياماً لا بل اسابيع واشهرًا ايضًا . وقد احدثت فيَّ تلك التأملات تأثيرًا قويًّا يستحق الذكر . فاني في ما كنت ذات يوم صباحًا مضطجعًا في فراشي ومضطربًا جدًّا من الافكار الكثيرة التي اعتنتني من جهة الخطر الذي كنت فيهِ من البرابرة اذا بالكلمات الآتية قد خطرت ببالي وهي ادعني في يوم حزنك فانقذك وتمجدني . وعند ذلك نهضت من سريري بفرح وخامرت قلبي تعزية جديدة وارشدني الله وقواني بنعمتهِ ان اصلي اليهِ بحرارة واطلب منهُ تعالى ان ينقذني حسب وعدهِ . ولما فرغت من الصلاة تناولت الكتاب المقدس وفتحتهُ لأقرأ فيهِ . فكانت الكلمات التي وقع نظري عليها اولاً هي قولهُ تعالى اصطبر للرب بتشدد وبتجلد قلبك وانتظر الله . ولا يمكنني وصف ما شملني عند ذلك من الحبور والتعزية . فوضعت الكتاب عند ذلك بجانبي ولم يعد يخامرني كآبة اقلهُ في ذلك الوقت

وبينما كنت في وسط تلك الاضطرابات والاحتسابات والتأملات خطر ببالي في احد الايام ان ذلك ربما كان جميعهُ مجرَّد وهم مني وان ذلك الاثر ربما كان اثر قدمي عند خروجي من قاربي الى البرّ . فسرَّني ذلك قليلاً واخذت اقنع نفسي بان ذلك كلهُ انما هو وهم وبان الاثر هو اثر قدمي

لا محالة . واخذت اخاطب نفسي قائلاً أما كان ممكنًا اني اكون قد رجعت من القارب في تلك الطريق كما كنت ذاهبًا فيها اليهِ . وعدا ذلك انهُ لم يكن ممكنًا لي بالكلية ان اعلم حقًّا اين دست واين لم ادس . واذا ظهر في آخر الامر ان ذلك الاثر انما هو اثر قدمي اكون قد تصرفت نظير بعض الحمقاء الذين يلفقون حكايات كاذبة عن الخيالات والجان ثم يخافون منها اكثر من الآخرين

فاخذت حينئذٍ اتشجع واتطلع الى خارج . وكنت قد بقيت ثلاثة ايام وثلاث ليال لا اخرج من قلعتي حتى صرت في حاجة عظيمة الى الطعام . لانهُ لم يكن عندي في المنزل الاَّ بعض ارغفة شعير . وكنت اعلم ان المعزى ترغب ان تحلب لاني كنت احلبها كل يوم مساء . وكانت المسكينة متألمة جدًّا من امتلاء وتخزُّق درورها وقد تعطل بعضها وكاد حليبها ينشف . واذ شجعت نفسي بالاعتقاد بان ذلك ليس الاَّ رسم احدى قدميَّ وبانهُ يصح القول عني اني اخاف من خيالي ابتدأت اخرج من منزلي . ثم ذهبت الى مسكني الجبلي لكي احلب قطيعي ولو وجد من يرى كيف كنت امشي وانا خائف وكم مرَّة كنت التفت الى ورائي وكيف كنت مستعدًّا مرَّة بعد الاخرى ان ارمي سلتي الى الارض واركض طلبًا للنجاة لظنَّ بي اني متعب من ضمير شرير داخلي او انهُ قد اعتراني موَخرًا رعب مفرط وداء جنون . وكان الامر في الحقيقة كذلك . ولكن اذ كنت اسير هكذا مدة يومين او ثلاثة ايام ولم اصادف شيئًا اخذت ازيد جراءةً وابتدأت افكر انهُ لم يكن شيء في ذلك الاَّ تصورات واوهامٌ فارغة غير انني لم استطع ان اوطن نفسي على هذا الفكر واقنعها بهِ تمامًا الاَّ بعد النزول ثانيةً الى الشاطىء لارى اذا كان بين ذلك الاثر وبين قدمي شيء من المشابهة كافٍ لاقناعي بانهُ رسم قدمي . ولكن لما وصلت الى الموضع ظهر لي واضحًا انهُ لا يمكن ان اكون قد ذهبت الى تلك الجهة من الشاطىء عند ما ربطت قاربي هناك . ثم لما قست ذلك الاثر على قدمي

وجدتهُ اكبر منها بكثير . فلما لاحظت هذين الامرين امتلا عقلي افكاراً وتصورات جديدة وراجعتني مخاوفي بعزم شديد حتى برد دمي وارتعدت فرائصي وكنت ارتجف كمن يكون في دور من البرد . فانثنيت راجعاً الى البيت معتقداً بانهُ لا بد من ان يكون انسان او اكثر قد زار تلك البقعة وان الجزيرة مسكونة وانهُ ربما يدهمني عدوٌ بغتةً على غفلة مني . وكنت في حيرة عظيمة لا اعلم ماذا اعمل لكي اكون في امان وطمأنينة

ومن عادة الناس عندما يستولي عليهم الخوف ان يهموا بعمل اشياء اخر في الغاية . وذلك لان الخوف يعدمهم الانتفاع من الوسائط التي يقدمها العقل لاجل راحتهم . فاول شيء جال في خاطري هو اولاً ان اهدم كل صيري واطلق جميع مواشيَّ الاهلية في الاحراش خوفاً من ان يجدها العدوّ ويتردد الى الجزيرة لاجلها او لاجل سلب ما يشبهها . ثانياً ان اقتلع مزروعاتي من الارز والشعير لئلا يجد الاعداء ذلك هناك فيحملهم على التردد الى الجزيرة . ثالثاً ان اهدم خيمتي وقلعتي وامحو رسمها لكي لا يروا اثار مسكن فيأخذوا في التفتيش على الساكن

فكان ما تقدم موضوع تأملاتي في الليلة الاولى بعد رجوعي الى البيت . وذلك عندما كانت الاحتسابات التي غلبت هكذا على عقلي لم تزل حديثة وكان رأسي مملوءًا من الاوهام . وهكذا الاحتساب من الخطر هو اهول جداً مما يكون الخطر نفسهُ عندما يظهر لابصارنا . وقد نجد خوفنا اعظم كثيراً من الشر الذي نخاف منهُ . والذي كان ارداً من ذلك جميعهِ هو اني لم احصل في ذلك القلق كما كنت اؤمّل على الراحة الناتجة من التسليم لارادة الله بحسب عادتي . وكان منظري كما ظننت نظير منظر شاول الملك الذي كان يشكي ليس فقط من ان الفلسطينيين كانوا عليهِ بل ايضاً من ان الله تركهُ وخذلهُ . لاني حينئذٍ لم استعمل الطرق الواجبة لاجل تسكين قلقي بواسطة الصراخ الى الله عند ضيقتي والاتكال على عنايتهِ تعالى في امر صيانتي

ونجاتي. فلو فعلت ذلك لكنت على الاقل حصلت على المساعدة اللازمة في ذلك الاضطراب وربما كنت خلصت منهُ باوفر نشاط

فاحييت ذلك الليل كلهُ بالافكار المزعجة الأ انني عند الصباح نمت. واذ كنت قد تعبت وضعفت همتي من كثرة الافكار استغرقت في النوم ثم انتبهت براحة وهدوٍّ اكثر مما حصلت عليهِ من ذلك في حياتي. فاخذت حينئذٍ افكر برصانة وامعان نظر. وبعد محاورات مستطيلة بيني وبين نفسي حكمت ان تلك الجزيرة البهجة والكثيرة الخصب والتي كنت قد رأيت انها لم تكن بعيدة عن القارة الأ قليلاً لم تكن مهجورة بالكلية من الناس كما كنت اتوهم وانهُ اذا كان لا يوجد هناك سكان مقيمون دائمًا فيها ربما كان يأتي اليها احيانًا قوارب من البحر اما قصدًا او ربما جبرًا وذلك عند ما تدفعها ارياح مضادة بين فيها الى تلك الجزيرة. واني قد اقمت هناك خمس عشرة سنة ولم اصادف قط شبحًا او صورة انسان. ومن ثم لاح لي ان البرابرة اذا دفعوا اليها احيانًا رغمًا عنهم ربما كانوا يرجعون منها بقدر ما يمكنهم من السرعة كأنهم لم يستحسنوا الاقامة فيها. وان الخطر الوحيد الذي لاح لي انهُ يخشى عليَّ منهُ انما كان على الاكثر من جهة نزول قوم منهم بالصدفة والعرض الى البرّ وذلك ممكن كما لا يخفى. ولكن اذا دفع اولئك الى الجزيرة رغمًا عنهم يكون وجودهم فيها ضد خاطرهم وارادتهم ولهذا لا يقيمون هناك بل يرجعون بكل سرعة. وقلما كانوا يقيمون ليلة واحدة على البرّ خوفًا من ان يفقدوا مساعدة المدّ وضوء النهار في رجوعهم. وبناءً على ذلك لم يكن عليَّ الأ التبصر في ملجا امين اتحصن فيهِ اذا اتفق خروجهم بالصدفة الى البرّ كما تقدم

وحينئذٍ اخذت اندم متأسفًا على اني وسعت مغارتي حتى انفتح لها باب خارج ملتقى السور والتل كما ذكرت قبلاً. ولدى التأمل واجادة النظر عزمت على ان اعمل سورًا آخر على شكل نصف دائرة ايضًا بعيدًا عن سوري الاول اي في الموضع الذي غرست فيهِ من مضي نحو اثنتي عشرة سنة

صفين من الاشجار كما علمت واذ كانت تلك الاشجار قريبة جدًّا بعضها الى بعض لم تكن تحتاج الاّ الى ركز اوتاد قليلة بينها لكي تكون امنع واقوى وهكذا ينتهي سوري سريعًا ويصير لي حينئذٍ سور مضاعف . ومكنت سوري الخارجي بقطع من الاخشاب المتينة واشياء أُخر فصار قويًّا منيعًا . وجعلت في ذلك السور سبعة اثقاب او مرام مستديرة على قدر يدي. وجعلت عرض سوري الداخلي نحو عشر اقدام . فكنت دائمًا اخرج التراب من مغارتي واضعهُ عند اسفلهِ وامشي عليهِ لكي يتلبد . واجتهدت ان اضع في المرامي السبع البواريد السبع التي خلصتها من المركب واحتفظت عليها الى ذلك الوقت ووضعت تلك البواريد على عجلات تجرها نظير مدافع حتى كان يمكنني ان اطلقها جميعها في دقيقتين من الزمان . فصرفت عدة شهور وقاسيت اتعابًا جزيلة في عمل ذلك السور الاّ اني لم اشعر قط بطمأنينة الاّ بعد تكميلهِ

فلما فرغت من عمل السور غرست في جميع الارض خارجهُ على مسافة بعيدة من كل جهة اوتادًا او عيدانًا متقاربة بقدر الامكان من شجر يشبه الصفصاف ما وجدتهُ يعيش وينمو بسرعة . وربما كان عدد ما نصبتهُ من ذلك عشرين الفًا تقريبًا . وقد تركت فسحة واسعة بينها وبين السور لكي يكون لي مكان ارى منهُ العدوّ اذا اقبل ولكي لا يكون لهُ ملجأ في ظل الاشجار الصغيرة اذا حاول الدنو من سوري الخارجي

وهكذا في مدة سنتين صار عندي غابةٌ مشتبكةٌ او ملتفة وفي مدة خمس او ست سنين صار عندي امام منزلي حرشٌ ظليلٌ وعاصٍ جدًّا يتعسر الاجتياز فيهِ ولا يمكن لاحد من الناس ايًّا كان ان يفتكر انهُ يوجد وراءهُ شيءٌ وبالاحرى منزلٌ . ولم افتح لتلك الدائرة في السور معبرًا للدخول والخروج بل كنت ادخل واخرج على سلمين صنعتها لذلك فكنت اذا رفعت السلمين لم يكن انسان يستطيع ان ينزل اليَّ من دون ان يعرض نفسهُ للاذى حتى اذا نزل ايضًا يكون مع ذلك خارج سوري الخارجي

وهكذا اخترعت لصيانتي كل ما يمكن للحكمة البشرية اختراعهُ من الوسائط وسيظهر ما سيأتي بيانه ان تلك الوسائط لم تكن بجملتها من دون سبب كافٍ وان كنت لم ارَ شيئًا في ذلك الوقت الاّ ما اراني اياهُ مجرَّد خوفي واذ كنت مشتغلاً في ذلك لم اكن اغفل عن مصالحي الأُخر . لاني كنت مهتمًا جدًا بقطيعي الصغير من المعزى فانهُ كان مؤُونة معدة لي في كل وقت. وكان قد صار كافيًا لعيالتي من دون كلفة البارود والخردق وكان يوفر ايضًا علي تعب السعي في صيد الحيوانات البرّية

فبعد امعان النظر والتأمل مدةً مستطيلةً لم يخطر ببالي الاّ طريقان لحفظ ذلك القطيع . احدهما ان اجد مكانًا آخر يصلح لان احفر فيهِ مغارة تحت الارض ازوبهُ فيها كل ليلة . والآخر ان اقيم سياجًا حول قطعتين او ثلاث قطع من الارض في جهات مختلفة معتزلة بعضها عن بعض تكون مستترة بقدر الامكان ويمكنني ان اضع في كل منها نحو ستة جداء حتى اذا حصلت داهية على القطيع في الجملة يمكنني ان اربّيها بتعب قليل ووقت قصير . ومع ان ذلك يستلزم وقتًا طويلاً وتعبًا جزيلاً لم يكن حسب معرفتي طريق اصلح منهُ للحصول على المرغوب ومن ثمَّ صرفت مدة في التفتيش على القطع الاكثر انفرادًا في الجزيرة . فوجدت قطعة منفردة صغيرة رطبة في بقعة منخفضة في وسط احراش مشتبكة حيث كدت اضيع قبلاً بينما كنت راجعًا في تلك الطريق من جهة الجزيرة الشرقية كما ذكرت آنفًا . وكانت جرداء لا شجر فيها مساحتها ثلاثة فدادين واذ كانت محاطة بالاحراش من كل جهة كانت كأنها حظيرة طبيعية ولم تكن تحتاج تعبًا لجعلها حظيرة صناعية يقارب ما كابدتهُ من الاتعاب في تحصين بقية القِطَع

الفصل الثامن عشر

تدابير روبنصن كروزي واطلاعهُ على ان البرابرة كانوا يترددّون الى الجزيرة

فاخذت حالاً اشتغل في تلك القطعة وفي اقل من شهر احطتها بسياج من كل جهة حتى ان قطيعي الذي كان قد صار اهليًّا كان يقيم فيها بأمان وطمأنينة ثم نقلت سريعًا اليها عشرًا من الاناث واثنين من الذكور من جداء المعزى . وبينما كنت هناك كنت اشتغل في تكميل السياج حتى صار مكينًا منيعًا كالذي عملتهُ قبلاً بأكثر تأنٍ وصرفت عليهِ وقتًا اكثر . والذي حملني على ذلك انما هو مجرّد ما خامرني من الاحتساب من جراء أثر تلك القدم . لاني الى ذلك الوقت لم أرَ انسانًا اتى الى الجزيرة . وكنت حينئذٍ قد قضيت سنتين في تلك المخاوف التي جعلت عيشتي اقل راحة وهناء من السابق كما لا يخفى عمّن يعرف عيشة من كان دائمًا ومن دون انقطاع في حالة الخوف من الناس . ويغمني ان اقول ان اضطراب عقلي أثّر تأثيرًا مفرطًا في افكاري الدينية . لان الخوف والاحتساب من الوقوع في ايدي البرابرة والغيلان كانا يؤثّران جدًّا في حاسياتي حتى اني كنت لا اجد نفسي الاّ نادرًا في حالة مناسبة للالتجاء الى خالقي بالهدو والسكينة والتسليم لارادتهِ كما كنت افعل قبلاً . بل كنت اصلّي الى الله كأني واقعٌ في مصيبة عظيمة وانضغاط عقل شديد ومحاط بالاخطار من كل جهة ومنتظرٌ كل ليلة ان اقتل وابتلع

قبل طلوع الفجر . ويجب ان اشهد اني وجدت بالاختبار ان من كان في حالة السلامة والشكر والمحبة والمودة يكون اكثر استعداداً للصلاة ممن يكون في حالة الخوف والاضطراب . وان من كان في حالة الاضطراب والخوف من الوقوع في مصيبة لا يكون مستعدًا كما يجب لتكميل واجبات الصلاة الى الله والحصول على تعزية منها اكثر مما يكون مستعدًا للتوبة من كان على فراش الموت . وذلك ان حالة الاضطراب تؤثر في العقل كما تؤثر حالة المرض في الجسم . وتعب العقل يجب بالضرورة ان يوقع صاحبهُ في العجز عن الصلاة بقدر تعب الجسم او اكثر منهُ . وذلك لان الصلاة الى الله هي من اعمال العقل لا من اعمال الجسم . واذ قد علمت ذلك فلنرجع الى ما كنا في صدده

فبعد ان احرزت على هذا المنوال قسمًا من موجوداتي الحية القليلة اخذت اجول في الجزيرة مفتشًا على موضع آخر منفرد لكي اودع فيهِ وديعة اخرى . وبينما كنت هائمًا في الجهة الغربية من الجزيرة ومتوغلاً فيها اكثر مما فعلت من حين دخولي اليها تطلعت نحو البحر فتراءى لي كأني ارى قاربًا على ظهر البحر على بعدٍ قاصٍ جدًا . وكنت قد وجدت نظارة او نظارتين في احد صناديق البحرية التي خلصتها من المركب ولكن لم تكن حينئذٍ معي وكان ما نظرتهُ بعيدًا جدًّا حتى اني لم اعلم حقًّا ما هو مع اني لبثت احدّق فيهِ حتى جمدت عيناي ولم يعد يمكنني ان انظر ايضًا . ولم اعلم هل كان ذلك قاربًا ام شيئًا آخر . ولكنني لما نزلت عن التل لم اعد اراهُ فلم اعد اسأل عنهُ . الاَّ اني عزمت ان لا اخرج في ما بعد الآ ونظارتي في جيبي . وبعد ان انحدرت من التل الى مكان من الجزيرة لم اذهب قط اليهِ قبلاً قنعت حالاً ان نظري اثر قدم في الجزيرة لم يكن امرًا مستغربًا كما توهمت واني لو لم القَ بعناية خصوصية على الجانب الذي لم يدخلهُ البرابرة قط لكنت عرفت بسهولة انهُ لم يكن شيء اكثر وقوعًا من مجيء قوارب البرابرة من القارة الى تلك الجهة من الجزيرة قاصدين

الدخول الى ميناء امين عند ما تدفعهم الرياح والامواج الى مدى بعيد في البحر . وكذلك اذ كان البرابرة من عادتهم ان يلتقوا معًا ويتحاربوا في قواربهم كانت الفئة الظافرة اذا استأسرت بعضًا من الاعداء تأتي بهم الى ذلك الشاطئ وبما انهم جميعًا غيلان يأكلون لحوم الناس كانوا كجاري عادتهم القبيحة يذبحونهم ويأكلونهم هناك كما سيأتي بيانه

فلما هبطت عن التل الى الشاطئ كما سبق وذلك في الجهة الجنوبية الغربية من الجزيرة ارتبكت الى الغاية ودهشت . ولا اقدر ان اصف ما اعتراني من الارتعاب والرعشة عند ما رأيت الشاطئ مغطى بجماجم وايدٍ وارجل وعظام اخرى من اجسام بشرية . ولا سيما اذ رأيت مكانًا فيه آثار نار ضمن دائرة قد حفرت في الارض على شكل حلقة كان البرابرة الاشقياء يجلسون حسب ظني حولها يتنعمون بولائم من اجسام اخوتهم بني البشر

فدهشت جدًا من ذلك المنظر الفظيع ولبثت مدة غافلاً عما كان عليَّ من الخطر منهم . فان جميع مخاوفي ضاعت بين افكار تلك القساوة الوحشية الجهنمية المتجاوزة الحدّ وفساد الطبيعة البشرية المفرط الذي كنت قد سمعت عنه مرارًا كثيرة الّا اني لم انظر تأثيره قط نظرًا قريبًا بهذا المقدار . وبالاختصار اني حولت وجهي بكراهة عن ذلك المنظر القبيح وجاشت نفسي وكدت اقع مغشيًّا عليَّ واخذت استفرغ استفراغًا مزعجًا . فحصلت على شيء من الراحة بواسطة دفع الطبيعة ما كان يزعجني في معدتي الّا اني لم اطق الاقامة هناك ولا دقيقة من الزمان . ومن ثم صعدت الى التل بقدر ما امكنني من السرعة وانثنيت راجعًا نحو منزلي

فلما ابعدت قليلاً عن ذلك القسم من الجزيرة وقفت مدة مندهلاً مندهشًا ولما سكن روعي بعد قليل رفعت نظري نحو السماء بانشغاف شديد وشكرت الله بدموع غزيرة على اني اخترت نصيبي في مكان منفرد عن خلائق مهولة كتلك الخلائق وعلى انه قد خولني بركات جزيلة في تلك الحالة التي لم ارفض

بها حتى ان الاشياء التي كان يجب عليَّ ان اشكرهُ تعالى لاجلها كانت اكثر من الاشياء التي كان يحق لي ان اتذمر عليهِ بسببها . وعلى الخصوص على اني كنت قد حصلت في تلك الحالة التعيسة على تعزية ناتجة من معرفتهِ ورجاء بركاتهِ . وكان ذلك سعادة توازي جميع المصائب التي كابدتها والتي كنت مزمعاً ان اكابدها

فبتلك الحاسيات وذلك الشكر ذهبت راجعاً الى قلعتي وصرت اشعر براحة من جهة الامان على نفسي اكثر من السابق . لاني لاحظت ان اولئك الاشقياء لم يأتوا قط الى تلك الجزيرة لاجل التفتيش على بعض اشياء مما يمكنهم وجودهُ . وربما لم يطلبوا ولا ارادوا شيئاً ولا طمعوا في وجود شيء هناك . ويجب ان يكونوا قد ترددوا مراراً لا محالة الى الجهة المغطاة بالاحراش فلم يجدوا شيئاً مما يرغبون فيهِ . وكان قد مضى عليَّ في تلك الجزيرة ثماني عشرة سنة تقريباً ولم ارَ فيها ادنى اثر لقدم انسان . وكنت اعلم انهُ يمكنني ان ابقى ثماني عشرة سنة اخرى من دون ان يعلموا بوجودي هناك ما لم اظهر لهم نفسي ولكن لم يكن لي ادنى رغبة في ذلك لان صالحي انما كان ان ابقى مختفياً بالتمام في مكاني الا اذا وجدت جنساً احسن من جنس الغيلان اكشف لهم ذاتي . وكنت اكره جداً اولئك البرابرة الاشقياء وعادة الناس القبيحة في افتراس واكل بعضهم البعض حتى اني بقيت مدة غائصاً في بحار التفكر ومكتئباً جداً من جرى ذلك . وبقيت داخل دائرتي مدة سنتين بعد ذلك الاكتشاف . وعندما اقول دائرتي اعني بها مزارعي الثلاث اي قلعتي ومنزلي الجبلي الذي كنت ادعوهُ خيمتي وحظيرتي في الحرش . ولم اكن انظر الى تلك الحظيرة الا نظير مزرب المعزى . لان النفور الذي حصل عندي من اولئك الاشقياء كان قوياً جداً حتى اني كنت اشمئز من نظرهم كما اشمئز من نظر الشيطان نفسهِ . وفي كل تلك المدة لم اذهب لاجل افتقاد قاربي بل ابتدأت بالحري افتكر بعمل قارب آخر . لاني لم اكن اطيق الفكر ان احاول ايضاً الاتيان بالقارب حول

الجزيرة الى موضعي خوفاً من ان اصادف بعض اولئك الاشقياء في البحر لاني كنت اعلم جيداً ماذا يكون نصيبي اذا وقعت في ايديهم

الاَّ اني مع تمادي الوقت واعتقادي بانهُ لا يوجد عليَّ خطر من ان يجدوني اخذ خوفي منهم يزول شيئاً فشيئاً وابتدأت اعيش براحة بال وطمأنينة كالسابق الاَّ انني كنت اكثر حذراً وانتباهاً مما مضى لئلا ينظروني اتفاقاً في وقتٍ ما . وكنت احترز على الخصوص من اطلاق بارودتي لئلا يتفق عند اطلاقها ان يكون بعضهم في الجزيرة فيسمع صوتها . وكان من حسن سعدي اني كنت قد ربيت قطيعاً من المعزى لاجل حاجاتي والاستغناء بهِ عن الطواف في الاحراش لاجل صيد المعزى ورميها بالرصاص . وكنت مع ذلك اصطاد ما اصطادهُ بالفخاخ والاشراك كما كنت افعل قبلاً . واظن اني بقيت مدة سنتين لا اطلق بارودتي على اني كنت لا اخرج خارج منزلي بدونها . وعلاوة على ذلك اذ كنت قد خلصت ثلاث طبنجات من المركب كنت دائماً احملها جميعها او اقلهُ اثنتين منها شاكاً اياها في زناري الذي كان من جلد كما علمت وقد صقلت شاحوذاً بطاناً كبيراً ما كنت قد خلصتهُ من المركب وعملت لهُ سيراً كنت اعلقهُ فيهِ . وهكذا كان منظري مهيباً مفزعاً عند السفر ولا سيما اذا اضفت الى ما سبق من شرح حالي البارودتين وبطاناً كبيراً عريضاً معلقاً على جانبي بسير ولكن من دون قراب

فاذ كانت الامور تسري على هذا المنوال مدة من الزمان كان يبان ان حالتي حينئذٍ كانت كحالتي الماضية من جهة الهدو والسكينة الاَّ في امور قليلة. وكانت تلك الامور تريني اكثر فاكثر كم كانت حالتي بعيدة عن ان تكون تعيسة بالنسبة الى احوال أُخر كثيرة مما كان ممكناً ان يكون نصيبي لو شاء الله ان يجعلهُ كذلك . وكانت تجعلني انظر كم يكون التذمر قليلاً بين الناس من جراء احوالهم مهما كانت اذا قابلوها بما هو اردأ منها لان ذلك يجعلهم

يرتضون بها ويشكرون الله من اجلها بخلاف ما اذا قابلوها بما هو احسن منها لان ذلك من شأنه ان يزيدهم تشكيًا وعدم ارتضاء ‎.

ومع اني لم اكن في تلك الحالة في احتياج الى اشياء كثيرة في الحقيقة كنت احسب ان المخاوف التي اعترتني من جهة اولئك البرابرة الاشقياء واهتمامي في وقاية نفسي من الوقوع في ايديهم قد المتني عن الاهتمام بتدبير ما يلزم لراحتي. وكنت قد تركت مقصدًا جيدًا كنت منصبًا عليه انصبابًا مفرطًا وهو عمل (الجعة) اي ماء الشعير وكان توخّي ذلك من باب الحماقة. وكنت اوبخ نفسي مرارًا بسببه. لاني وجدت لدى التأمل ان عمله يقتضي ادوات ومواد كثيرة مما لا استطاعة لي على وجوده او ايجاده. فانه لم يكن عندي براميل لاجل وضعه ولا كانت لي استطاعة على عمل ذلك وكنت قد صرفت اياما واسابيع واشهرًا ايضًا في معالجته ولكن من دون فائدة كما علمت قبلاً ولم يكن عندي من الاجزاء اللازمة له الاَّ الشعير. وذلك لا يكفي وحده كما لا يخفى ولكن لولا المخاوف والاحتسابات من البرابرة التي كانت تزعجني وتشوش افكاري كنت مع تعذُّر ما تقدَّم باشرت في عمل ذلك لا محالة وربما كنت نجحت فيه كما نجحت في غيره. لاني قلما اخذت في شيء بنشاط ثم رجعت عنه من دون تتميمه الاَّ ان اهتمامي حينئذٍ كان متجهًا الى جهة اخرى. لاني لم اكن اقدر ان افتكر ليلاً ولا نهارًا الاَّ في كيفية التوصل الى اهلاك البعض من اولئك المسوخ عند ما يكونون جلوسًا على ولائمهم القاسية الدموية وتخليص من يمكنني ان اخلصهُ من ايديهم ممن يأتون به الى هناك من اسراهم لاجل الفتك به واهلاكه. ويحتاج الامر الى كتاب اكبر مما قصدت ان اجعل هذا الكتاب لاجل تدوين جميع الحيل والتدابير التي جالت في خاطري لاقوى على اهلاك اولئك الغيلان او تخويفهم على الاقل بحيث يمتنعون عن التردُّد الى ذلك الموضع. الاَّ ان كل تلك الحيل والتدابير كانت قاصرة لا يتوصل بها الى المقصود. ولم يكن ممكنًا عمل شيء لنيل المرغوب على اتم مرام ما لم اكن انا بنفسي

هناك لاجربهُ بيدي . ولكن ماذا يقدر رجل واحد ان يعملهُ بينهم اذا اتفق ان يوجد عشرون نحو ثلاثون منهم معاً بزارينهم او قسيّهم وسهامهم التي يصيبون بها كما اصيب انا ببارودتي

وكان يلوح لي احياناً ان احفر مطمورة تحت الموضع الذي كانوا يشعلونَ فيهِ نارهم واضع هناك اقتين او اكثر من البارود حتى اذا اشعلوا نارهم يشتعل البارود حالاً ويهلك كل من حولهُ . الاَّ انني لم أُرِد ان اضيع فيهم هذا المقدار من البارود لانهُ لم يبقَ من ذلك عندي الاَّ نحو برميل وكنت لا اعلم يقيناً انهُ يشتعل في وقت يؤمّل فيهِ انهُ يدهمهم بغتةً حتى انهُ اذا صحَّ ذلك لا يكون منهُ الاَّ قذف النار الى ما حول اذانهم واخافتهم وذاك لا يكفي لان يحملهم على هجر الموضع . ومن ثم عدلت عن هذا الراي واخذت افتكر ان اكمن لهم في مكان مستتراً ببواريدي الثلاث المزدوجة مدكوكة دكاً محكماً واطلقها عليهم بينما يكونون في وسط ولائمهم الدموية . ولا بد من اني اقتل او اجرح في كل طلق اثنين او ثلاثة منهم . ثم احمل كارّاً عليهم بطبنجاتي الثلاث وسيفي . ولم اكن اشكّ اني اقدر ان اقتلهم جميعاً ولو كانوا عشرين نفراً . فصرفت عدَّة اسابيع اسلّي نفسي معللاً اياها بهذه الآمال . وكان رأسي مملوءًا من تلك الافكار حتى اني كنت احلم بها مراراً . وقد حلمت مراراً في نومي كأني هاجمٌ على رميهم بالرصاص . وكنت مهتماً منهمكاً جداً في ذلك حتى اني صرفت اياماً كثيرة في التفتيش على اماكن تصلح لان أكمن لهم فيها وارصدهم كما سبق. وقد ذهبت مراراً الى نفس الموضع الذي كانوا يترددون اليهِ لانهُ كان قد صار مأنوساً عندي ولم أعد اخاف من منظرهِ . واذ كان رأسي مملوءًا من افكار الانتقام وقتل عشرين او ثلاثين منهم كنت كراهتي للموضع واحماجة اغ‍ال اولئك البرابرة الوحشية الغريبة في ابتلاع بعضهم البعض تزيد في غضباً ورغبة في اهلاكهم . واخيراً وجدت مكاناً كنت اقدر بحسب زعمي ان اقيم فيهِ بأمان انتظر هناك قدوم قواربهم . حتى اذا اقبلوا على الشاطئ فقبل ان

يخرجوا الى البرّ اتنقل خفية الى غابة ظليلة في جوار تلك الجبلة كان في وسطها شجرة كبيرة مجوّفة كافية لان اختبئ فيها واجلس هناك ألاحظ اعمالهم الدموية وعند ما اراهم مجتمعين معًا اوجّه بارودتي توجيهًا محكمًا نحو رؤوسهم ومن هناك ارميهم بالرصاص فاجرح ثلاثة او اربعة منهم في الطلق الاول . فعزمت على ان أكمن في ذلك الموضع وهيّأت بارودتين وبارودة الصيد المعلومة. فدككت كلًّا من البارودتين برصاصتين كبيرتين واربع او خمس رصاصات صغار ودككت بارودة الصيد بحفنة من الخردق الخشن من اكبر ما يوجد. ثم دككت الطبنجتين برصاص واضعًا في كل منها نحو اربع رصاصات . واذ كنت في تلك الحالة وكان عندي من البارود ما يكفي لثاني وثالث طلق تأهبت للسفر

وبعد ان دبرت اموري على هذا المنوال واجريتها في تخيلي كنت اذهب كل يوم صباحًا الى راس التل الذي كان على مسافة ثلاثة اميال او اكثر عن قلعتي لأتطلع لعلي انظر قوارب في البحر قريبة من الجزيرة او مقبلة نحوها . الّا اني بعد ان صرفت مدة شهرين او ثلاثة اشهر في المراقبة من دون انقطاع ولم يظهر شيء في كل تلك المدة على الشاطئ ولا بالقرب منه ولا في الاوقيانوس كلهِ بقدر امتداد نظري ونظارتي من كل جهة مللت متضجرًا من ذلك العمل المملّ وكففت عنهُ

وكنت في كل المدة التي ذهبت فيها الى ذلك التل لاجل المراقبة مصرًّا بعناد على عزمي ومستعدًّا دائمًا لذلك العمل الفظيع اي قتل عشرين او ثلاثين من البرابرة العراة لاجل عمل لم انظر اليهِ في فكري الّا من حيث جعلهِ فيَّ حاسيات غضب ناتجة من كراهتي للعادة الردية المضادة للطبيعة الجارية عند اهالي تلك البلاد الذين ان الله بعنايتهِ وتدبيرهِ بحكمة للعالم قد تركهم من دون مرشد يرشدهم الّا شهواتهم الردية للمكروهات . ومن ثم أُهملوا وبقوا على هذه الحال مدة اجيال يعملون اعمالًا قبيحة كهذه ويقبلون عادات

فظيعة لا يمكن ان يكون قد ادخلها بينهم الاَّ طبيعة متروكة بالكلية من الله ومحرَّكة بفساد جهنمي . الاَّ اني لما ابتدأت املُّ متضجرًا كما تقدم القول من سفر طويل عديم الثمر كنت قد داومته كل يوم صباحًا زمانًا طويلاً بهذا المقدار وذلك من دون فائدة أخذ رأيي في ذلك العمل نفسه يتغير . وبينما كانت افكاري اكثر هدوءًا وسكينة اخذت اتأمل في ما كنت مزمعًا ان ارتكبه قائلاً في نفسي ايُّ سلطان لي ومن انتخبني لان اكون قاضيًا ومؤدبًا لاولئك الناس كمذنبين مع ان الله قد استحسن ان يتركهم اجيالاً كثيرة من دون قصاص وسمح ان يبقوا في حالتهم ويكونون كأنهم يجرون احكامه تعالى بعضهم ضد بعض . وما هو ذنب هولاء الناس اليَّ واي حق لي ان اتعرض للمطالبة بذلك الدم الذي كانوا يسفكونه بعضهم من بعض من دون مبالاة . وكنت اجادل نفسي عن هذا الامر مرارًا هكذا من اين اعرف ما هو حكم الله نفسه في هذه المسألة الخصوصية . فهو مؤكد ان اولئك القوم لم يكونوا يرتكبون ذلك كذنب . ولم يكن ضد ضمائر توبخهم ولا ضد معرفة تؤنبهم . ولا يعلمون ان ذلك ذنب فيرتكبونه افتراء على عدل الله كما نفعل نحن في جميع الخطايا التي نرتكبها الاَّ ما قلَّ منها . ولا يتنكرون عن قتل اسير مأخوذ في الحرب انه حرام كثيرًا مما نتنكر نحن عن قتل ثور . وهم يستبيحون اكل لحم الناس كما نستبيح نحن اكل لحم الغنم

فلما امعنت النظر في ذلك قليلاً ظهر لي بالضرورة اني كنت مخطئًا في حكمي فحكمت حينئذٍ ان اولئك البرابرة ليسوا قتلة بالمعنى الذي حكمت عليهم به قبلاً في ضميري اكثر مما هم باقي الشعوب الذين يقتلون عادةً الاسرى الذين يستأسرونهم في الحرب او الذين مرارًا كثيرة يعملون السيف في جماهير كاملة من الناس ولا يعفون عنهم وان القوا سلاحهم وسلموا . ثم لاح لي ايضًا انه وان يكن تصرفهم بعضهم نحو بعض وحشيًا وقاسيًا لم يكن يعنيني في الحقيقة . فانهم لم يذنبوا اليَّ ولا الحقوا بي اذى : فاذا جرَّبوني او نظرت انه ضروري

لاجل وقايتي والمدافعة عن نفسي ان اقع بهم يكون لي حينئذٍ عذر مقبول . الّا اني كنت الى ذلك الوقت بعيدًا عنهم وكانوا غير عارفين بي ومن ثم لم يكن لم نية التعرض لي ولهذا ليس لي حق ان اتعرض لهم . ولو جاز لي ذلك لما كان لوم على اهالي اسبانيا من جرى اعمالهم البربرية في اميركا حيث اهلكوا ملايين كثيرة من اولئك البرابرة الذين مع انهم كانوا وثنيين ومتوحشين وكانت لهم عادات ورسوم دموية وحشية كتضحية الناس لاصنامهم كانوا بالنظر الى اهالي اسبانيا ابرياء تمامًا . والحال ان امر استئصالهم من البلاد يذكرهُ في هذه الايام الشعوب المسيحية في اوربا واهالي اسبانيا انفسهم بكل كراهة واشمئزاز نظير مذبحة قبيحة وقساوة دموية بربرية محجوبة من الله والناس . حتى ان اسم اهالي اسبانيا صار بسبب ذلك العمل يحسب مخيفًا وكريهًا عند جميع اصحاب الانسانية والشفقة المسيحية في العالم . وكأنّ بلاد سبانيا قد اشتهرت بنوع خصوصي بسبب ذلك العمل بكونها قد احتوت على جنس من الناس عارين من مكارم الاخلاق ومبادىء الرقة او احشاء الرأفة نحو المساكين

فوقفت عند هذه الملاحظات وتوقفت عن العمل واخذت اعدل شيئًا فشيئًا عن قصدي وحكمت باني قد اخطأت في عزمي على التعرض للبرابرة . وبانهُ لم يكن لي حق ان اتعرض لهم ما لم يتعرضوا هم لي اولاً . وانهُ يجب عليَّ الاجتهاد على قدر طاقتي في تجنبهم ومحايدتهم . ولكن اذا اتفق انهم يجدونني ويتعدون عليَّ فاني اعرف حينئذٍ واجباتي ثم اخذت احاج نفسي واقنع ذاتي ان ذلك ليس هو الطريق لانقاذ نفسي بل لتطويحها واهلاكها . واني اذا لم اتحقق اني اقدر ان اقتل كل من كان منهم حينئذٍ في الجزيرة وكل من يأتي في ما بعد اليها بحيث لا يفلت منهم من يرجع فيخبر ابناء بلادهم ماذا اصابهم فيأتون اليَّ الوفًا ليأخذوا ثار اصحابهم مني اكون قد جلبت على نفسي مصيبة كنت في غنًى عنها . وبعد ملاحظة كل ما تجب ملاحظتهُ حكمت بانهُ لا يجوز

ذمة ولا يوافق الصانع ان اتعرض بوجهٍ من الوجوه لذلك الامر وبان واجباتي هي ان استعمل كل ما يمكن استعمالهُ من الوسائط للاختباء عنهم وان لا ادع لهم ادنى علامة تجعلهم يظنون انهُ يوجد خلائق حية في الجزيرة اعني من جنس البشر . وكانت الديانة توافق على هذا الراي الناتج عن حكمة . وثبت حينئذٍ عندي بطرق شتى اني كنت بالتمام خارج دائرة واجباتي عند اتخاذي ما اتخذتهُ من التدابير الدموية لاهلاك اولئك القوم الذين كانوا ابرياء بالنظر اليَّ . واما ذنوبهم بعضهم ضد بعض فهي لا تعنيني ولا تطلب اليَّ . فانها كانت جنسية ولهذا كان يجب عليَّ تركها لعدل الله الذي هو مدبر الشعوب ويعلم كيف يقاص بعدل الذنوب الجنسية بقصاصات جنسية وينزل احكامًا جهارية بالذين يرتكبون ذنوبًا جهارية كما يحسن لديهِ تعالى . وصار ذلك حينئذٍ واضحًا لديَّ جدًّا حتى انهُ لم يكن شيءٌ يسرّني اكثر من اهمالي امرًا لو ارتكبتهُ لما كانت خطيئة اقل ذنبًا من خطية القتل عمدًا . فركعت حينئذٍ منتصبًا على ركبتي وشكرت الله على حفظهِ اياي هكذا من خطية القتل القبيحة وطلبت منهُ تعالى ان يحميني بعنايتهِ من الوقوع في ايدي البرابرة او من التاه بدي عليهم الا عن دعوة سموية اوضح وذلك لاجل المدافعة عن حياتي

شعرٌ

تريدين ادراك المعالي رخيصةً ولا بدّ دون الشهد من ابر النحلِ

الفصل التاسع عشر

وجود روبنصن كروزي مغارة يستظل فيها من البرابرة

فبقيت بعد ذلك مدة سنة في تلك الحالة . وكنت بعيدًا عن الرغبة في الحصول على فرصة للتعرض لاولئك الاشقياء حتى اني في تلك المدة لم اصعد قط على التل لأرى هل يوجد احد منهم في تلك الجهات او هل نزل احد منهم الى البرّ . وذلك خوفًا من ان اجرّب بتجديد شيء من حبلي ضدهم او انحرك بواسطة ما يمكن ظهورهُ يومئذٍ من الاسباب الى الوقوع والفتك بهم . غير اني فعلت هذا فقط وهو اني ذهبت ونقلت قاربي من مكانهِ الى الطرف الشرقي من الجزيرة وهناك دخلت بهِ الى مغارة صغيرة وجدتها تحت بعض صخور مرتفعة عالمًا انهُ بسبب التيارات لا يجسر البرابرة او انهُ لا يرغبون ان يأتوا بقواربهم الى هناك لاجل آية علة كانت . ونقلت مع قاربي كل ما كنت قد تركتهُ هناك مما يختص بهِ وان لم يكن نقلهُ الى تلك المغارة ضروريًا . وذلك كالساري والقلع اللذين عملتهما لهُ وادواتهُ تشبه الانجر اي المرساة . ولكن في الحقيقة لا تجوز تسميتها بذلك وان كانت احسن ما امكنني عملهُ من المراسي . وكان قصدي في نقل ذاك جميعهِ لكي لا يكون ادنى سبيل لاكتشاف او ظهور قارب او مسكن بشري في الجزيرة . وعلى ذلك كنت اختلي مختبئًا بقدر الاستطاعة وما كنت اخرج من صومعتي الَّا لاجل اشغالي الاعتيادية .

وذلك لحلب عنزاتي والاهتمام بقطيعي الصغير الذي كان في وسط الاحراش. واذ كان ذلك في الجهة الاخرى من الجزيرة كان بعيدًا عن الخطر لان اولئك البرابرة الذين كانوا يترددون احيانًا الى الجزيرة لم يتصوروا قط انهم يجدون فيها شيئًا ومن ثم لم يكونوا يبعدون عن الشاطئ متوغلين فيها . ولستُ اشك في انهم اتوا مرارًا الى الشاطئ بعد ان صرت على حذرٍ منهم كما كانوا يأتون قبلاً وكنت انظر بالارتعاش الى الحالة التي كنت لا محالة وصلت اليها لو اتفق انهم صادفوني عند ما كنت اطوف جائلاً في الجزيرة من مكان الى مكان افتش باحثًا على ما يوجد فيها وانا عريان وغير متسلح الا ببارودة واحدة كانت غالبًا مدكوكةً بخردق فقط . وماذا كانت حالتي لو كنت عند وجودي اثر القدم قد صادفت عوض ذلك خمسة عشر او عشرين من البرابرة ورأيتهم يسعون ركضًا في اثري طالبين قتلي وليس لي سبيل الى ان انجو منهم . وكان مجرّد الافتكار في ذلك يجعل قلبي يغور غائصًا في جوفي ويزعجني جدًّا حتى اني كنت ابقى مدة مستطيلة لا استطيع ان ادفع هذا الفكر ولا اتخلص منه وهو ماذا كنت اعمل لو اصابني ذلك وكيف كنت لا اقدر ان ادفعهم ولا يكون عندي وعيٌ لاعمل ما كان يمكنني ان اعمله لو كنت صاحيًا حتى اني في هذا الوقت بعد كل ذلك الفكر والاستعداد ماذا كنت اقدر ان اعمله لو دهموني بغتةً . وبعد التأمل برصانة في تلك الامور وتحقيق النظر فيها كانت تعتريني كآبة تستمرُّ احيانًا مدة طويلة . غير اني كنت اخيرًا احول ذلك جميعهُ الى تأدية الشكر للعناية الالهية على تخليصها اياي من مخاطر كثيرة غير منظورة وحفظها اياي من مهالك هائلة لم يكن لي ادنى قدرة على تخليص ذاتي منها ولا كان لي اقل فكر في وجودها او على الاقل اقل احتساب من امكان وقوعها . فذكرني ذلك بقضية كانت تخطر مرارًا ببالي في السابق عند ما ابتدأت اولاً انظر الى اعمال العناية الالهية ورحمة الله نحونا عند وقوعنا في اخطار هذه الحياة وهي كيف انهُ عند ما نقع في مشكل كالشك

او التردد في السلوك في هذا الطريق او ذاك مثلاً يوجد محرّك سرّي محركا على السلوك في هذا الطريق مع اننا نميل الى السلوك في ذاك . حتى انه عند ما تدعونا حاسياتنا وميلنا وربما اشغالنا نادبة ايانا الى طريق ما قد يوجد محرّك او منبه سرّي لا نعلم من اين هو ولا باية قوة يصدر يؤثر في عقولنا تأثيرًا عجيبًا ويدعونا نادبًا ايانا الى طريق آخر . ثم يظهر في ما بعد اننا لو سلكنا في الطريق التي كنا مائلين اليها كنا تلفنا وهلكنا لا محالة وبناء على هذه الملاحظات وملاحظات أُخر كثيرة تشبهها اتخذت في ما بعد نظير دستور لعملي القاعدة الآتية وهي انني متى شعرت بمنبه سرّي لعمل شيء يخطر لي او لعدم عمله او للسلوك في هذه الطريق او تلك اتبع دائمًا ذلك المنبه السرّي وان كنت لا اعلم سببًا لاتباعهِ الّا وجودهُ في عقلي او الالهام بهِ ويمكنني ان اورد امثلة كثيرة تبرهن نجاحي في تصرفاتي من اتباع هذه القاعدة وعلى الخصوص في المدة الاخيرة من اقامتي في تلك الجزيرة . وسيزيد ذلك وضوحًا في سياق هذه القصة

واظن ان القارئ عند ما اعترف ان تلك الاضطرابات والمخاطر المتواصلة التي كنت فيها والهموم التي كانت عليَّ حالت دون كل الاختراعات والتدابير التي عملتها لاجل راحتي وقضاء حاجاتي في المستقبل لا يستغرب ذلك لان همي حينئذٍ انما كان بسلامتي اكثر من عيالتي . وكنت حينئذٍ لا اتجاسر ان ادق مسمارًا او اقطع عصًا لئلا يسمع صوت ذلك العمل ولا اطلق بارودتي لاجل السبب نفسهِ . حتى ان اشعال النار كان يزعجني جدًّا . لاني كنت اخاف من ان الدخان الذي يرى عن بعد بعيد نهارًا يكون واسطة لكشف موضعي . ومن ثمَّ نقلت ما يحتاج الى نار من اشغالي كشي القدور وآلات التبغ وهلمَّ جرًّا الى منزلي الجديد في الاحراش حيث وجدت بعد ان اقمت هناك مدة مغارة طبيعية في الارض ممتدة جدًّا حتى انه اذا وصل احد البرابرة الى بابها لا يتجرأ على ظني ان يدخل اليها ولا يتجاسر على ذلك -

انسان آخر الأ من كان مثلي لا يطلب شيئاً بقدر طلبهِ ملجأً امينا . ولا حاجة الى شرح ما حصل عندي من الفرح عند ما وجدت تلك المغارة

وكان باب تلك المغارة مختفياً تحت صخر كبير حيث كنت بطريق الصدفة او بالحري بتدبير العناية الالهية اقطع حطباً لاجل عمل فحم . واعلم ان السبب الذي حملني على عمل ذلك الفحم هو خوفي من ان اشعل ناراً بالقرب من منزلي لما ذكرتهُ قبلاً . واذ كنت لا اقدر ان اسكن هناك من دون نار لخبز خبزي وطبخ طعامي اضطرني الامر الى ان احرق هناك حطباً في مشجرة كما يفعلون في بلاد الانكليز واعمل منهُ فحماً ثم انقلهُ الى منزلي واستخدمهُ عوض الحطب لانهُ لا يدخن. واذ قد علمت ذلك نرجع الى ما كنا في صددهِ . وبينما كنت اقطع حطباً هناك رأيت انهُ يوجد وراء تلك الاشجار الظليلة مكان مجوف فاردت ان اعرفهُ فلما دخلت بابهُ وذلك بصعوبة وجدتهُ كبيراً اي كافياً لان اقف فيهِ منتصباً وربما كان يسع انساناً آخر معي . ولكن يجب ان اقرّ لك اني خرجت منهُ باكثر عجلة مما دخلت اليهِ . وذلك لاني عند ما اطلقت نظري الى داخل وكان ظلمة سوداء رأيت عينين كبيرتين تبرقان ولم اعلم هل كانتا عيني شيطان او عيني انسان . وكانتا تبرقان لامعتين كانهما كوكبان اذ كان النور الضعيف المنبعث من باب المغارة يمتدّ على خط مستقيم الى داخل ثم ينعكس راجعاً الى خارج . الى بعد ان وقفت قليلاً سكن روعي وابتدأت ادعو نفسي الف مجنون وافتكر ان الذي يخاف ان يرى الشيطان لا يليق ان يسكن عشرين سنة في جزيرة منفرداً وحدهُ وانهُ يسوغ لي ان احسب انهُ لا يوجد شيء في الجزيرة اكثر اخافة مني وعند ذلك تشجعت واخذت مشعلاً ووثبت هاجماً الى داخل والمشعل يلتهب بيدي ولم اتقدم اكثر من ثلاث خطوات حتى اعتراني خوف كالسابق تقريباً لاني سمعت انيناً قوياً جداً كانين انسان في الم شديد كان يتبعهُ صوت متقطع نظير كلمات ينطق بعضها ثم يتبع ذلك الصوت انين عميق ايضاً . فاجفلت راجعاً الى الوراء وقد

اعتراني ارتعاش شديد حتى عرقت عرقاً بارداً . ولو كان على رأسي برنيطة لكان انتفاش شعري من الخوف رفعها دافعاً اياها عنهُ . الا اني مكنت قلبي بقدر استطاعتي واخذت اشجع نفسي قليلاً بهذا الفكر وهو ان الله موجود بقوتو وحاضرٌ في كل مكان وانهُ قادرٌ ان يحفظني . ثم تقدمت ايضاً الى ما قدام وبواسطة نور المشعل الذي كنت رافعاً اياهُ قليلاً فوق راسي رأيت تيس معزى هائل المنظر منطرحاً على الارض قد اشرف على الموت من شدة الكبر وكأنهُ كان يكتب وصيتهُ . فحركتهُ قليلاً لارى اذا كنت اقدر ان اخرجهُ خارجاً . فاحتفز المسكين متهيئاً للقيام الا انهُ عجز عنهُ ثم جال في خاطري ان اتركهُ مضطجعاً هناك لانهُ كما أخافني يخيف لا محالة من تجاسر من البرابرة ان يدخل الى هناك وهو باقٍ في الحياة

ثم بعد قليل سكن روعي فاخذت انظر الى ما حولي فوجدت ان المغارة انما كانت صغيرة جداً اي ربما كان طولها نحو اثنتي عشرة قدماً الا انهُ لم يكن لها هيئة مخصوصة . فلم تكن مدوَّرة ولا مربَّعة اذ كانت لم تشتغل قط بيد في عملها الا يد الطبيعة فقط . ورأيت ايضاً انهُ يوجد مكان في اقصاها ممتد الى داخل الا انهُ كان واطئاً جداً حتى كان يلزمني ان احبو مدبدباً على يديَّ وركبتيَّ لكي يمكنني الدخول اليهِ . واذ لم يكن معي شمعة لم احاول ذلك حينئذٍ بل رجعت عنهُ عازماً على ان ارجع اليهِ في اليوم القادم وآخذ معي شمعاً وزناداً وصوَّانة وصوفانة في علبة كنت قد عملتها من قنداق احدى البواريد وقليلاً من فحم الصفصاف في كانون .

ثم في غد ذلك اليوم اتيت ومعي خمس شمعات كبار مما كنت قد سكبتهُ بيدي وكنت حينئذٍ اعمل شمعاً فاخراً من شحم المعزى الا اني قاسيت صعوبات كثيرة في عمل فتائل لذلك اذ استعملت احياناً خرقاً او كتيباً من الحبال واحياناً القشر الداخلي من بعض نباتات تشبه القرَّيص . ودخلت ذلك الموضع الواطئ مدبدباً على الاربع كما سبق القول مسافة خمس عشرة ذراعاً .

وكان ذلك مخاطرة وجسارة اذا اعتبرنا اني لم اكن اعلم مقدار امتداد الموضع ولا ما يوجد داخلهُ . فلما قطعت المضيق وجدت ان ارتفاع السقف هناك كان نحو عشرين قدماً حسب ظني . الاَّ انهُ يمكنني ان اقول انهُ لم يرَ قط في الجزيرة كلها منظر مجهد كمنظر حيطان وسقف تلك القبة او المغارة حيث كان ينعكس اليَّ عن الحائط من نور الشمعتين الموقدتين بيدي آلاف من الاشعة ولم اكن اعلم ماذا كان في الصخر اماس ام حجارة كريمة ام بالحري ذهب كما ترجح الظن عندي . فكان الموضع الذي كنت فيهِ ابهج مغارة او كهف الاَّ انهُ كان مظلماً الى الغاية . وارضهُ ناشفة ومطمئنة ومغطاة بحصى صغيرة محلولة حتى انهُ لم يكن فيهِ هوامٌ كريهة ولا ديبٌ سامٌ ولا رطوبة ولا تبلل في الحيطان ولا في السقف . بل كانت الصعوبة الوحيدة من جهة ضيق مدخلهِ . الاَّ انهُ اذ كان محل امان ومهرباً مستتراً كان ملائماً للمقصود . ومن ثم فرحت مبتهجاً بهذا الاكتشاف وعزمت ان آتي من دون ابطاء ببعض ما كنت اكثر خوفاً عليهِ الى ذلك المكان وعلى الخصوص ما بقي عندي من البارود وما يمكنني الاستغناء عنهُ من الاسلحة وهو بارودتان للصيد لان جملة ما كان عندي من ذلك ثماني قطع . وهكذا بقي عندي في القلعة ثماني بواريد فقط مركبة على عجلات معدة نظير مدافع موضوعة على سوري الخارجي . وكان يمكنني متى شئت ان انقلها من هناك بالدرجة . وبينما كنت مشتغلاً في نقل ذخيرتي فتحت اتفاقاً برميل البارود الذي اخرجتهُ من البحر وكان مبللاً فوجدت ان الماء قد نفذ في البارود مقدار قيراطين او ثلاثة قراريط فقط من كل جانب وجففهُ وجعلهُ نظير كعكة مستديرة صلبة وبهذه الواسطة حفظ ما كان داخلها من البارود الذي لم يتبلل وهو نحو اثني عشرة اقة كما يحفظ النوى في غلافهِ . وكان ذلك ذا قيمة كبيرة عندي فنقلتهُ الى هناك . ولم ابقِ في قلعتي من البارود اكثر من اقة خوفاً من ان يدهمني داهم

مناجيًا اياي . ونقلت ايضًا كل ما وفرتهُ من صفائح الرصاص لعمل الخردق وكرات الرصاص

وكنت حينئذٍ انظر الى نفسي كاحد الجبابرة القدماء الذين قيل عنهم انهم كانوا يسكنون في الكهوف وشقوق الصخور حيث لا يقدر احد على الوصول اليهم . لاني ايقنت في نفسي وانا هناك انهُ اذا فتش عليَّ خمسمائة من البرابرة لا يمكنهم ان يجدوني واذا اتفق انهم يجدونني لا يتجاسرون على الهجوم عليَّ في ذلك الموضع . والتيس الذي وجدتهُ في حالة النزاع مات في فم المغارة في غد اليوم الذي وجدتهُ فيهِ . ووجدت انهُ اسهل كثيرًا عليَّ ان احتفر حفيرة بجانب مكانهِ وارميهُ فيها واطمرهُ بالتراب من ان اجرَّهُ ساحبًا اياهُ الى خارج . وهكذا دفنتهُ هناك لكي اريح منخريَّ من رائحتهِ الكريهة

وكنت قد دخلت حينئذٍ في السنة الثالثة والعشرين من سكناي في تلك الجزيرة وكان الموضع وطريقة المعيشة قد صارا بالادمان مزاجي حتى اني لو كنت خالصًا من المخاوف والاحتسابات من دهات البرابرة لتنعمت مرتضيًا بصرف باقي مدتي هناك الى آخر دقيقة اي الى ان اتمدد واموت في تلك المغارة نظير ذلك التيس المسن . وصرت اتشاغل ببعض ملاهٍ وكان عندي بعض اشياء اتسلى بها حتى كنت اصرف اكثر اوقاتي باكثر حظ ولذة من السابق . لاني علمت ببغائي التكلم كما ذكرت قبلاً فاتقن ذلك وكان يتكلم بكل وضوح ويحسن اللفظ جيدًا حتى كنت التذ بمسامرتهِ لاني اظن انهُ لم يتعلم قط طائر التكلم باكثر وضوح منهُ . وقد عاش ستة وعشرين سنة ولا اعلم كم عاش بعد ذلك . الاَّ اني اعلم ان الناس في البرازيل يقولون ان طائر الببغاء يعمر مئة سنة . وكان كلبي رفيقًا انيسًا وصديقًا ودودًا نحوي مدة ست عشرة سنة من الزمان وبقي عندي حتى انهكتهُ الشيخوخة ومات من الكبر . واما قططي فانها تكاثرت جدًا كما ذكرت حتى التزمت اخيرًا ان اقتل منها

لامنعها عن ان تأكلني وتاكل كل ما عندي وان اطرد ما بقي منها ولا ادعها تأكل معي حتى صارت جميعها برية واوت الى الاحراش الاّ اثنين او ثلاثًا منها كانت عزيزة عليّ فابقيتها اهلية عندي مغرقًا دائمًا ما تلدهُ وكانت قسمًا من عائلتي . وعلى ما تقدم كان دائمًا عندي جديان او ثلاثة جداء يعتدية علمتها ان تاكل من يدي . ويغالان يحسنان التكلم ويصيحان كلاهما قائلين روبن كروسو ولكن لم يكونا كببغالي الاول ولا اعتنيت بتعليمها وتدليلها كما فعلت بهِ . وكان عندي ايضًا عدّة من طيور البحر لم اعلم اسماءها كنت قد امسكتها عن الشاطئ وقصصت اجنحتها فكانت تسكن في الغابة التي غرستها وتبيض وتفقس هناك وكان ذلك يسرني كثيرًا . وهكذا ابتدأت اقنع مرتضيًا بمعيشتي الاَّ انها لم تكن تخلو من الكدر بسبب الاحتسابات والمخاوف التي كانت عليّ من البرابرة كما سبقت الاشارة الى ذلك ولكن لم يكن لي مناص من ذلك ولا حيلة في قضاء الله . ويفيد الذين يقرأون قصتي هذه ان يستنتجوا منها النتيجة الآتية وهي انهُ قد يتفق مرارًا كثيرة في حياتنا ان نفس الشرّ الذي نبذل كامل جهدنا في تجنبهِ وتباعدهِ واذا وقعنا فيهِ نجزعُ هائلاً في الغاية قد يكون اوقاتًا كثيرة الواسطة او الباب لنجاتنا ونهوضنا من المصيبة او التجربة التي وقعنا فيها ويوسعي ان اورد امثلة كثيرة في سياق قصتي هذه الغريبة لاجل اثبات ذلك وعلى الخصوص في حوادث السنين الاخيرة من اقامتي المتوحدة في تلك الجزيرة

شعرٌ

انما الدنيا فناءٌ ليس للدنيا ثبوت
انما الدنيا كبيتٍ نسجهُ من عنكبوت
ولقد يكفيك منها ايها العاقل قوت
ولعمري عن قليل كل من فيها يموت

الفصل العشرون

مجيء البرابرة ثانية الى الجزيرة ورقصهم هناك وانكسار مركب بالقرب من شاطئها

وكان حينئذٍ شهر كانون الاول وذلك في سنتي الثالثة والعشرين كما تقدم وكانت ايام الحصاد عندي . ولهذا كان يلزمني ان اصرف كثيرًا من وقتي خارجًا في الحقل . وبينما كنت ذات يوم منطلقًا باكرًا جدًا اي قبل الفجر الى الحقل رأيت بغتةً ضوء نار على الشاطئ على مسافة نحو ميلين مني في الجهة التي لاحظت ان جماعة من البرابرة قد اتوا اليها كما سبق القول . ولم يكن ذلك على الجانب الآخر من الجزيرة بل كان لسوء حظي على الجانب الذي كنت مقيمًا فيه . فدهشت مذهلاً من ذلك المنظر ووقفت في غابتي لا اتجاسر ان اخرج منها خوفًا من ان يدهموني . حتى اني كنت هناك ايضًا غير مطمئنٍ خشيةً من ان اولئك البرابرة اذا طافوا في الجزيرة ووجدوا زرعي قائمًا او مقطوعًا او شيئًا آخر من اعمالي واصلاحاتي يستدلون منه حالاً على وجود سكان هناك فلا يكفون الى ان يجدوني . واذ انا في تلك الحالة المزعجة انثنيت راجعًا باستقامة الى قلعتي وانزلت السلم ورائي وجعلت منظر ما كان خارجًا موحشًا وطبيعيًا بقدر استطاعتي

ثم اخذت اتهيأ داخل قلعتي للمدافعة . فدككت طبنجاتي وكل بواريدي التي سميتها مدافعي وكانت موضوعة على سوري الجديد عازمًا على المدافعة عن

نفسي الى آخر نسمة من حياتي . ولم اغفل عن تسليم نفسي بيد الله وتسليم اموري لحماية عنايته تعالى والصلاة اليه بحرارة ان ينقذني من ايدي البربر . وبقيت في تلك الحالة نحو ساعتين . وكنت ارغب جدًّا ان يأتيني خبر من خارج لانهُ لم يكن عندي جواسيس ارسلهم ليأتوني بالاخبار . وبعد ان اقمت ايضاً مدة اتبصر في ما ينبغي لي ان اعملهُ فرغ صبري ولم يعد يمكنني ان اطيق الجهل باموره فنصبت سلمي الى جانب التل وصعدت على مكان مسطح هناك ثم رفعت السلم ورائي ونصبتها ايضاً راكزًا اياها على ذلك المكان المسطح وصعدت عليها طالعًا على راس ذلك التل ثم انتزعت نظارتي من جيبي وكنت قد اخذتها معي قصدًا وتمددت مضطجعًا على بطني على الارض واخذت افتش على الموضع وفي الحال وجدت تسعة من البرابرة العراة جلوسًا حول نار صغيرة اشعلوها لا لكي يصطلوا عليها لعدم الاحتياج الى ذلك لان الهواء كان حارًا في الغاية بل لكي يشووا عليها كما ظننت طعامهم من لحم الناس الذين كانوا قد اتوا بهم معهم الى هناك ولا اعلم هل اتوا بهم احياء او امواتًا

وكان معهم قاربان قد اجتذبوهما وجروهما الى البرّ . واذ كان حينئذٍ جزر لاح لي انهم منتظرون المدّ ليسافروا راجعين من الجزيرة . وليس هو امرًا سهلاً تصور ما اعتراني من الاضطراب بسبب ذلك المنظر وعلى الخصوص اذ رأيتهم قد اتوا الى الجانب الذي كنت فيهِ من الجزيرة وهم قريبون مني بهذا المقدار . ولكن لما اعتبرت ان مجيئهم يجب ان يكون دائمًا مع تيار المدّ ابتدأت اشعر في ما بعد باكثر طمأنينة عالمًا انهُ يمكنني ان اخرج خارج قلعتي بامان في كل اوقات فيض المد اذا اتفق انهم لم يكونوا على الشاطئ قبلهُ . ولدى ملاحظة ذلك ذهبت الى الحقل باكثر طمأنينة وراحة بال لاجل الحصاد .

فكان الامر كما ظننت . فانهُ حالما ابتدأ المدّ ينكفئ راجعًا الى جهة

الغرب رأيتهم قد ركبوا القوارب واخذوا يقذفون راجعين عن الجزيرة . ومما يجب ذكرهُ انهم قبل انصرافهم بساعة واكثر كانوا يرقصون ورأيت جيداً بواسطة نظارتي حركاتهم واشاراتهم في الرقص . وكانوا عراة بالكلية كما خلقهم ربهم الاّ اني لم استطع ان اميز هل كانوا رجالاً او نساء

ثم حالما رأيتهم قد ركبوا قواربهم وانصرفوا اخذت بارودتين على كتفي وطبنجتين في زناري وتقلدت على جنبي بطاناي الكبير من دون غمد وذهبت بقدر ما يمكنني من السرعة قاصداً التل الذي كشفت منهُ اولاً ترددهم الى هناك . واذ لم يمكنني الركض لثقل ما كنت حاملاً اياهُ من السلاح وصلت اليهِ بعد نحو ساعتين من الزمان فرأيت هناك ثلاثة قوارب أُخر من قوارب البربر ثم لدى بسط النظر رأيت انها في البحر منصرفة نحو القارة . وكان ذلك عندي منظراً هائلاً وعلى الخصوص اذ انحدرت الى الشاطئ ورأيت آثار الفظائع التي تركها اعالم القبيحة هناك اي الدم والعظام وقطع اللحم من بقايا اجسام الناس التي اكلها اولئك المتوحشون بالفرح والطرب . فامتلأت غضباً من جرى ذلك المنظر واعددت حينئذٍ في الاستعداد لاهلاك كل من اراهُ منهم ايّاً كان ومهما كان عددهم . وقد تاكد عندي ان ترددهم هكذا الى الجزيرة ليس بكثير لانهُ مضى اكثر من خمسة عشر شهراً ولم يأتِ احد منهم الى ذلك الشاطئ . اي اني لم ارهم في كل تلك المدة ولا رأيت لهم اثر قدم ولا علامة اخرى . لانهم كانوا في ايام المطر لا يخرجون الى الخارج او انهُ لا يبعدون بهذا المقدار . غير اني كنت تلك المدة غير مطمئن في افكاري من جرى الاحتسابات المتواصلة من ان يدهموني بغتة على حين غفلة مني . ومن ثم ظهر لي ان انتظار الشرّ امرُّ من الوقوع فيهِ وعلى الخصوص اذ لم يكن باب لدفع ذلك الانتظار او التخلص من تلك الاحتسابات

فكنت في تلك الفترة في استعداد تام لان ارتكب القتل . صارفاً اكثر ساعاتي في التبصر كيف ادهمهم واقع بهم اول مرة اراهم فيها وعلى الخصوص .

اذا وجدتهم منقسمين الى قسمين كما كانوا في ذلك الوقت مع انهُ يجب صرف
تلك الساعات في امور افضل . ولم اعتبر ما اذا قدلت جماعة منهم اي عشرة
انفار او اثنى عشر نفرًا مثلاً يجب ان اقبل في اليوم او الاسبوع او الشهر
التالي جماعة اخرى ثم جماعة اخرى وهكذا الى ما لا يتناهى حتى اكون في
الاخير قتالاً للناس بقدر ما كانوا هم اكالين لحم الناس وربما اكثر
كثيرًا

وكنت حينئذٍ اصرف ايامي في اضطراب عظيم وقلق شديد متحققًا اني
لا بد من ان اقع في احد الايام في ايدي اولئك القوم القساة . وكنت اذا
ذهبت خارجًا انظر دائمًا الى ما حولي باعظم حذر واشد احتراس . وبان لي
حينئذٍ انهُ كان من عظم حظي وسعدي وجود قطيع من المعزى الاهلية في
حوزتي لانني لم اتجاسر لاجل اي علة كانت ان اطلق بارودتي وعلى الخصوص
بالقرب من تلك الجهة من الجزيرة التي من عادتهم ان يترددوا اليها وذلك
لئلا اخيفهم فيهربوا واذا هربوا مني مرة فلا بد من انهم يأتون ثانية بعد ايام
قليلة مصحوبين بمائة او ثلاثمائة قارب . وكنت اعلم ماذا يجب ان انتظر اذا
فعلوا ذلك غير اني صرفت سنة وثلاثة اشهر اخرى قبلما رأيت احدًا من
البربر . ثم بعد ذلك صادفتهم كما سيأتي بيانهُ بعد قليل . ومن الممكن ان
يكونوا قد اتوا الى ذلك الموضع مرة او مرتين في تلك الفترة ولكن اما انهم
لم يطيلوا المكث او اني لم ارهم غير اني في شهر ايار على قدر استطاعتي على
ضبط الحساب وذلك في سنتي الرابعة والعشرين صادفتهم مصادفة غريبة
جدًا كما سيرد بيان ذلك في مكانهِ

وكنت في اضطراب شديد في تلك الفترة التي استمرت مدتها خمسة
عشر او ستة عشر شهرًا غير مرتاح في نومي بل ارى دائمًا احلامًا مريعة
مزعجة في الغاية ففي النهار كانت مصائب عظيمة تغشي فكري وتقلقني وفي
الليل كنت ارى مرارًا في الحلم اني آخذ في قتل البرابرة واتصور في نومي

الاسباب التي تجيز لي ذلك . ولكن فلنترك ذلك الآن جانبًا الى حين . ففي اواسط شهر ايار اي في اليوم السادس عشر منهُ كما ظهر لي بعد تحقيق النظر في عمود الحساب الخشبي الذي كنت الى ذلك الوقت استخدمهُ لهذه الغاية واعتمد عليهِ هبت ريح شديدة ثائرة ذلك النهار كلهُ ومصحوبة ببروق ورعود عظيمة . ثم تبع ذلك النهار ليلة مظلمة هائلة . ولم اعلم ماذا كان سبب ذلك . وبينما انا اقرأ في الكتاب المقدس وافتكر افكارًا مهمة عن الحالة التي كنت حينئذٍ فيها اذا صوت ظننتهُ صوت مدفع اطلق في البحر قد طرق اذني فدهشت دهشة تختلف تمامًا عما حصل لي قبلاً . وذلك لان الاوهام التي احدثتها في فكري كانت من نوع آخر فنهضت على الفور وبادرت الى نصب سلمي على المكان المسطح من التل ثم سحبتها ورائي وصعدت عليها ثانية واخذت اعدو الى راس التل . وحالما وصلت الى هناك اذا بلميع مدفع ينبهني ان اصغى الى صوت طلق آخر . ولم يمضِ الاَّ نحو نصف دقيقة حتى سمعت الصوت . وتبين من الصوت ان ذلك كان في جهة البحر التي دفعت فيها بقاربي ففي الحال افتكرت ان ذلك يجب ان يكون من مركب في ضيقة وانهُ ربما يوجد مع ذلك المركب مركب آخر يرافقهُ وقد اطلق تلك المدافع علامة للضيقة وطلبًا للنجدة . وكان عندي وعي في تلك الدقيقة لان افتكر اني اذا كنت انا لا اقدر ان انجدهم يقدرون ان ينجدوني . وهكذا فتشت جامعًا كل ما وصلت اليهِ يدي من الحطب اليابس والقش حتى صار عندي كومة كبيرة فالهبت فيها النار على راس التل . واذ كان الحطب يابسًا ارتفع لهيبهُ متصاعدًا . ومع ان الهواء كان قويًا جدًا اشتعل ذلك الحطب جيدًا حتى تاكد لديَّ انهُ اذا كان هناك مركب يكونون قد رأَوا ناري لامحالة . ولاشك انهم رأَوها لاني سمعت حالما ابتدأَت ناري تلتهب طلقًا آخر ثم سمعت بعد ذلك طلقات وكل ذلك من جهة واحدة . وكنت اطعم ناري حطبًا الليل كلهُ الى الفجر . فلما طلع النهار وراق الجوّ رأَيت شيئًا على بعد قاصٍ في البحر شرقي

الجزيرة ولم اقدر ان اميز بواسطة النظارة هل ذلك قلع او سواد مركب. وذلك لان المسافة كانت بعيدة جدًا والجوّ لا يخلو من اغبرار اقلهُ فوق ظهر البحر

وكنت التفت نحوهُ مرارًا ذلك النهار كلهُ حتى وجدت بعد قليل انهُ لا يتحرك. فظهر لي عند ذلك انهُ مركبٌ قد القى مرساتهُ. واذ كنت راغبًا جدًّا ان اتأكد ذلك اخذت بارودتي بيدي وجعلت اركض الى الجهة الجنوبية من الجزيرة الى تلك الصخور التي حملني قبلاً التيار عندها ذاهبًا بي الى البحر. فلما وصلت الى هناك وكان الجوُّ حينئذٍ صافيًا رائقًا رأيت واضحًا وذلك بحزن شديد بقايا مركب قد قذف ليلاً على تلك الصخور التي كشفتها عندما سافرت في قاربي وكانت واسطة لنجاتي من اعظم خطر وقعت فيهِ في حياتي كما علمت قبلاً. وهكذا ما يكون سببًا لنجاة شخص قد يكون سببًا لهلاك شخص آخر. لان اولئك القوم ايًّا كانوا حيث يجهلون المكان وتلك الصخور مغطاة تمامًا بالماء دُفعوا عليها ليلاً لان الريح كانت تهب نحو شرقي الشمال الشرقي. فلو رأوا الجزيرة لكانوا اجتهدوا في تخليص انفسهم والمجيء الى البرّ في احد قواربهم. ولكنني اظن انهم لم يروها ولكن اطلاقهم المدافع طلبًا للنجدة وعلى الخصوص لما رأوا لهيب ناري كما ظننت جعلني افتكر افكارًا كثيرة. فافتكرت تارةً انهم لما رأوا لهيب ناري نزلوا في قارب وطلبوا البرّ ولكن البحر دفعهم بشدة فلم يقدروا ان يدركوا الشاطئ. وتارةً انهم ربما اضاعوا قاربهم قبلاً وذلك بواسطة هجوم الامواج على ظهر المركب وقذفها اياهُ الى البحر او بواسطة القائهِ في البحر بايديهم. وتارةً انهُ كان برافقهم مركب او اكثر فلما اطلقوا مدافعهم النجدة وتقلهم اليهِ وانصرف بهم متوغلاً في البحر. وتارةً انهم نزلوا في قاربهم فحملهم التيار الذي حملني كما تقدم وذهب بهم رغمًا الى لجج الاوقيانوس العظيم حيث لا يوجد الاَّ الشقاء والهلاك. وانهم ربما كانوا الآن قد اشرفوا

على الموت جوعًا وصاروا في حالة تحملهم على الافتكار في ان يأكل بعضهم بعضًا

فكل تلك الافتراضات لم تكن الاَّ من باب الظن والتخمين . ولا استطاعة لي في تلك الحالة الاَّ ان اقف واتأمل في شقاوة اولئك القوم المساكين وارثي لحالهم . وقد استفدت مع ذلك من تلك الحادثة فائدة عظيمة وهي اني زدت شكرًا لله لانهُ رزقني في تلك الحالة الموحشة كل ما احتاج اليهِ من النعم والبركات وخلصني وحدي من بين بحرية مركبين قد غرقوا في تلك الجهة من العالم . وقد تعلمت ايضًا من ذلك انهُ قلما يلجئنا الله بعنايتهِ في حالة مهما كانت دنية او في شقاوة مهما كانت عظيمة ما لم نجد فيها ما يحملنا على ان نؤدي الشكر بسببها ونرى اخرين في احوال اردأ منها . فهكذا كانت حالة اولئك القوم الذين لم اقدر ان ارى وجهًا للظن بان احدًا منهم قد خلص . ولم يوجد شيء يحمل ارادة وانتظار خلاص البعض منهم موافقًا للصواب الاَّ احتمال كونهم قد أُنقذوا بواسطة مركب آخر موافق لهم . وقد كان ذلك ايضًا من باب الاحتمال فقط لاني لم ارَ لهُ ادنى علامة ولا اثر . ولا اقدر ان اشرح بواسطة الكلمات مهما كانت قوية الاشواق والعواطف التي خامرت نفسي عند ما نظرت ذلك المنظر . وكنت احيانًا اتحسر قائلاً يا ليت واحدًا او اثنين لا بل واحدًا فقط خلص من ذلك المركب واتى اليَّ لكي يكون لي اقلهُ رفيق واحد وعشير من اخوتي بني البشر يكلمني واكلمهُ . وفي كل مدة وحدتي لم اشعر قط برغبة حارة وشديدة في معاشرة الناس او بتأسف عظيم لفقدي اياها بقدر ما شعرت هذه المرة

شعرٌ

والنفس راغبة اذا رغبتها ... واذا تردُّ الى قليل تقنعُ

آخر

ألا انما الدنيا كظل سحابةٍ ... اظلتكَ يوماً ثم عنكَ اضمحلتِ
فلا تكُ فرحاناً بها حين اقبلتْ ... ولا تكُ جزعاناً بها حين ولتِ

الفصل الحادي والعشرون

اخراج روبنصن كروزي اشياء كثيرة من المركب واهتمامهُ بمفارقة الجزيرة وحلهُ

انهُ يوجد في عواطف الانسان بعض آلات كأنها دواليب . ربة محركة من شأنها اذا تحركت في طلب مقصد مطموع فيهِ بتصورهِ او غير مطموع فيهِ تصورهُ لهُ قوة المخيلة ان تحرك بقوتها نفسهُ بعزم شديد نحو ذلك المقصد حتى يكون عدم الحصول عليهِ امراً مستصعباً لا يطاق فهكذا كانت تلك الرغبة الحارّة في خلاص انسان واحد على الاقل . واظن اني كررت الف مرة هذه العبارة عسى ان يكون قد سلم واحد على الاقل . وكانت رغبتي تحرك بواسطة ذلك حتى اني عند ما كنت اتلفظ بتلك الكلمات كانت كفاي تنقبضان

منكمشين معاً واصابعي تشنج ضاغطة راحتي حتى انهُ لو وجد في قبضتي شيء لين لكان سحق فتاتاً رغماً عني . وكانت اسناني في فمي تصطك صارة وتلصق بعضها ببعض بعزم شديد حتى اني كنت ابقى مدة لا استطيع ان افرق بينها . فليفسر الطبيعيون هذه الامور وليوضحوا اسبابها وكيفيتها . وكل ما اقولهُ لم انما هو مجرد ذكر الحادثة التي تحيرت منها عند ما اطلعت عليها وان كنت لا اعلم من اين صدرت . ولا شك انها كانت نتيجة رغبة حارة وافكار قوية مرتسمة في العقل تشخص لي اللذة التي تكون لي من معاشرة شخص واحد من اخوتي المسيحيين . الا ان ذلك كان ما لا يطمع في نوالهِ . وذلك لان نحسهم او نحسي او نحسنا جميعاً جعلهُ من الامور المستحيلة . لاني بقيت الى السنة الاخيرة من اقامتي في تلك الجزيرة لا اعلم هل خلص احد من ذلك المركب او لا . غير اني لاجل زيادة غمي رأيت بعد ذلك بايام جثة غلام غريق كان البحر قد قذفها الى البر عند طرف الجزيرة المقابل لبقايا ذلك المركب . ولم يكن عليهِ ثياب الا صدرية بحرية ولباس من كتان مفتوح عند الركبة وقميص زرقاء من كتان ايضاً . ولكن لم يكن عليهِ علامة استدل منها حتى ولا على سبيل التخمين على جنسهِ او بلادهِ . ولم اجد شيئاً في جيبهِ الا قطعتين من الثمانية وآلة لشرب الدخان . وكانت تلك الآلة عندي اكثر قيمة من تينك القطعتين بعشر مرات

وكان حينئذٍ هدوٌ وكنت اميل ميلاً شديداً الى التوجه في قاربي الى ذلك المركب عالماً باني لا بد من ان اجد فيهِ بعض اشياء نافعة لي . الا ان ذلك لم يحركني الى التوجه بقدر ما حركني اليهِ ما كنت ارجوهُ من وجود بعض من اهالي المركب احياء فاخلصهم . لاني كنت عالماً اني بواسطة تخليص حياتهم اجعل حياتي ذات راحة وسعيدة الى الغاية . وكان هذا الفكر ملاصقاً لقلبي حتى اني لم استطع ان اهدأ ليلاً ولا نهاراً عن طلب الذهاب في قاربي الى ذلك المركب . واذ استودعت باقي الامور بيد الله كنت افكر ان نأثر .

ذلك في عقلي اذ كان شديداً جداً ولم تكن ازالته ممكنة يجب ان يكون صادراً من جهة غير منظورة حتى اني اخطىء ضدّ نفسي اذا لم اتوجه

وبينا كنت تحت سلطة هذه الحركات رجعت مسرعاً الى قلعتي وهيأت كل ما يلزم لسفرتي واخذت كمية وافرة من الخبز وجرّة كبيرة من الماء العذب وحكاً استرشد به وسلة زبيب وقنينة روم وكان باقياً عندي كثير من ذلك وتوجهت بها الى قاربي وبعد ان افرغت الماء منه وعوّمته وضعت ذلك الحمل فيه ثم رجعت الى المنزل لاجل الاتيان بغيره ايضاً . وكان حملي الثاني كيساً كبيراً من الارز والشمسية وجرة اخرى من الماء العذب اكبر من الاولى ونحو اربعة وعشرين رغيفاً صغيراً او كعكة من الشعير وذلك اكثر من الاول وقنينة من حليب المعزى وقالب جبن . فحملت كل هذه بتعب وعرق كثير الى قاربي . وبعد ان صليت الى الله طالباً منه الارشاد والتيسير في سفري اقلعت واخذت اقذف سائراً في جوار الشاطىء حتى وصلت الى اقصى طرف من الجزيرة ما يلي الشمال الشرقي . وكان عليّ حينئذٍ ان ابعد متوغلاً في الاوقيانوس . فاخذت اتردد بين التقدم والرجوع . وجعلت انظر الى التيارات السريعة التي كانت تجري من دون انقطاع عن جانبي الجزيرة على بعد مني . وكان منظرها يجنني ويرعبني لانها كانت تذكرني الخطر الذي اصابني قبلاً فابتدأ قلبي يخفق وهمتي تضعف . حيث رأيت اني اذا دُفعت الى احد تلك التيارات يدفعني لا محالة الى مدى بعيد في البحر وربما لا يعود لي امكان لان ارجع الى الجزيرة او اراها . وبما ان قاربي صغير خفيف كنت في خطر من ان اهلك اذا هبت ريح خفيفة

وكانت تلك الافكار تضايقني حتى هممت ان اعدل عن سفرتي . وعند ذلك ادرت قاربي الى فم نهر صغير على الشاطىء وخرجت منه وجلست على مرتفع من الارض غائصاً في بحار التأمل والحيرة بين امواج الخوف والرغبة من جهة تلك السفرة . وبينا انا في تلك الحالة رأيت المدّ قد ارتد واقبل القبض

ولذلك صار سفري غير ممكن الاّ بعد ساعات كثيرة . وفي الحال لاح لي أن اصعد على اعلى مكان مرتفع من الارض اراقب اذا تيسر لي ذلك كيف تكون حالة المد او التيارات عند حصول الفيض لارى هل اذا دفعتني التيارات من جهة واحدة نحو البحر لا تدفعني ايضاً من جهة اخرى نحو البرّ . وحالما جال هذا الفكر في خاطري رفع نظري على تلة صغيرة تطل على البحر من الجهتين على قدر المرغوب . فصعدت عليها ونظرت منها واضحاً التيارات والطريق التي ينبغي لي ان آخذ فيها عند رجوعي واني اذا بقيت تابعاً في رجوعي الجهة الشمالية من الجزيرة اكون قد احسنت في ما عملت

واذ تنشطت منشجعاً بواسطة ذلك الاكتشاف عزمت على السفر في غد ذلك اليوم صباحاً مع اوّل المد . واذ كنت قد استرحت في قاربي ليلاً تحت ذلك الكبوت الكبير المارّ ذكرهُ اقلعت صباحاً . فسرت اولاً قليلاً نحو البحر الى الجهة الشمالية الى ان ابتدأت اشعر بقوة التيار الذي كان متجهاً نحو الشرق وكان يحملني مسرعاً بي الاّ انه لم يستكدني جاذباً اياي بعنف كما فعل قبلاً التيار الجنوبي حين عجزت عن ان اضبط قاربي وادبرهُ حسب مرغوبي . واذ كنت اقذف بمجذافي قذفاً شديداً كنت اسرع في سيري باستقامة نحو المركب حتى اني في اقل من ساعتين وصلت اليهِ . وكان منظرهُ محزناً جدًا . فانهُ كان كما ظهر لي من بنائهِ اسبانياً او كما يقال اسبانيولياً . وقد دخل بين صخرين واشتبك بينهما حتى صار معها كقطعة واحدة . والبحر قد كسر موخرهُ وما يليهِ قطعاً قطعاً . واما مقدمهُ فكان قد غرز بين الصخور باندفاع شديد وساريهِ الاوسط المتقدم قد انكسرا ولم يبقَ منها الاّ القليل واما الساري الصغير الذي يلي المؤخر فكان صحيحاً سالماً وكذلك الراس والجانبان ولما دنوت من المركب رأيت كلباً على ظهرهِ وهو لما رآني مقبلاً اخذ يهرّ وينبح محركاً ذنبهُ فدعوتهُ فللحال وثب الى البحر مواقبل اليّ فادخلتهُ الى القارب ووجدت انهُ قارب الموت من الجوع والعطش فناولتهُ كعكة من زادي ·

فالتقيها متعلقًا اياها نظير ذئب مفترس قد مضى عليهِ نحو اسبوع في وسط الثلج من دون اكل . ثم قدمت لهُ قليلاً من الماء العذب ولو سمحت لهُ ان يشرب كفاءته لكان شرب حتى انشق جوفهُ . ثم بعد ذلك طلعت الى المركب واول منظر صادفته رجلان من البحرية قد ماتا غرقًا في مخدع الطباخ عند المقدم وكانا متعانقين معًا . فلاح لي وكان ذلك محتملاً انهُ لما غرز المركب في الارض كان البحر بسبب النوء يرتفع متعاليًا جدًا و يطفو من دون انقطاع على المركب مغطيًا اياهُ فاختنق ذانك الرجلان من تواتر هجوم المياه بكثرة عليهما كما لو كانا تحت الماء . ووجدت انهُ لم يبقَ في المركب شيء فيهِ حياة الاَّ الكلب ولم ارَ فيهِ شيئًا من الامتعة الاَّ ما عطلتهُ المياه . و بعض براميل من المسكرات موضوعة في خن المركب ولم اعلم هل كانت خمرًا او عرقًا وبما ان المياه قد انكشفت عنها رأيتها جيدًا الاَّ انها كانت كبيرة جدًا لا ترام ولا يطمع في اخراجها . ورأيت ايضًا عدة صناديق ظننت انها من صناديق البحرية . فانزلت اثنين منها الى القارب من دون ان اعلم ماذا داخلها . ولو كان موخر المركب سالمًا صحيحًا ومقدمهُ فقط مكسرًا لكانت سفرتي قرنت بتوفيق عظيم . لاني استدللت بما وجدتهُ في ذينك الصندوقين ان المركب كان فيهِ اموال و بضائع كثيرة . ومن ملاحظة الجهة التي كان مقدم المركب متجهًا نحوها ظهر لي انهُ قدم من بوينوس ايرس او ريودي لبلاتا في القسم الجنوبي من اميركا عبر البرازيل الى هاوانا في خليج مكسيكو وربما من هناك الى اسبانيا . ولا شك انهُ كان فيهِ خزينة عظيمة ولكن لم يكن منها نفع لاحد في ذلك الوقت . واما رجال المركب فلم اعلم حينئذٍ يقينًا ماذا اصابهم

وقد وجدت علاما تقدم برميلاً صغيرًا مملوءًا مسكرًا فنقلتهُ بصعوبة كبيرة الى قاربي . ووجدت في القمرة عدة بواريد وجراب بارود فيهِ نحو ثماني اواقي . اما البواريد فلم التفت اليها لانهُ لم تكن لي بها حاجة . واما جراب

البارود فاني اخذتهُ الى القارب واخذت ايضاً رفشاً وملقطاً للنار كنت في غاية الاحتياج اليها وطاجنين صغيرين من نحاس وابريق نحاس لعمل الشوكولاتا او القهوة وسفود اي مصبعاً من حديد واثنيت راجعاً بهذا الوسق والكسب الى البرّ لان المدّ كان قد ابتدأ . وفي ذلك اليوم بعد الغروب بساعة وصلت الى الجزيرة تعباً وكالاً جدًا . فاسترحت تلك الليلة في القارب وعند الصباح عزمت على ان اضع ما اتيت بهِ في مغارتي الجديدة ولا آخذهُ الى قلعتي . وبعد ان تناولت قليلاً من الطعام وراق مزاجي اخرجت كل وسقي الى البرّ واخذت افحص مفرداتهِ . فوجدت ان البرميل كان فيهِ روم ولكن ليس كالذي كان عندنا في البرازيل وبالاختصار لم يكن جيدًا . ولكن لما فتحت الصندوقين وجدت فيها اشياء كثيرة نافعة لي . فاني وجدت مثلاً في احدها صندوقة لطيفة فيها قناني غريبة في منظرها مملوءة مشروبات نافعة مرطبة . وكانت اطرافها مصفحة بالفضة . ووجدت ايضاً قارورتين فيهما مربيات مسدودتين سدًّا محكمًا حتى انهُ لم يدخلها شيء من ماء البحر ثم وجدت قارورتين اخريين غيرها فيها حلويات كانت قد عطلتها مياه البحر . ثم وجدت قمصانًا جيدة جدًا كنت في احتياج اليها ففرحت بها . ونحو دزينة ونصف من محارم كتان ابيض وربطات رقبة ملونة فسررت بالمحارم لانها كانت مفيدة كثيرًا لي لاجل مسح عرقي في ايام الحرّ . ثم وجدت في صرافة الصندوق ثلاثة اكياس كبيرة فيها قطع من الفضة وكانت جملة ما فيها الف ومائة قطعة . وفي احد الاكياس ست قطع من الدابلون الذهب ملفوفة في ورقة وبعض سبائك ذهب ربما وزن جميعها نحو ثمانين مثقالاً . واما الصندوق الآخر فوجدت فيهِ بعض ملابس قليلة القيمة والفائدة . والظاهر انهُ كان مختصًا بثاني الطبجي مع انهُ لم يكن فيهِ بارود الاَّ نحو خمس اواقي من البارود المزيبق في ثلاث تنكات صغار . وربما كان ذلك محفوظًا هناك لاجل اطلاق البواريد عند الاقتضاء . واقول بالاجمال اني في هذه السفرة حصلت اشياء

قليلة جدًّا مما يمكنني ان استفيد منهُ . لان الدراهم لم يكن لها عندي ادنى فائدة بل كانت كالتراب الذي كنت ادوسهُ تحت رجلي . واعطيها كلها بدل ثلاثة او اربعة ازواج من الاحذية والجوارب الانكليزية لاني كنت في غاية الافتقار الى ذلك . وكان قد مضى عليّ عدّة سنين ولم البس جوربًا ولا حذاء في رجليّ . غير اني وجدت حينئذٍ زوجَيْ احذية في ارجل الرجلين الغريقين المارّ ذكرها فنزعتها عنها . ثم وجدت زوجين اخرين في احد الصناديق كانا ملائمين لي الاّ انهما لم يكونا كاحذيتنا الانكليزية في الملائمة والاقامة . لان نعالها كانت رقيقة جدًّا . ووجدت في ذلك الصندوق ايضًا نحو خمسين قطعة من الثمانية ولكن لم اجد هناك ذهبًا . والظاهر ان صاحبهُ كان فقيرًا بخلاف الآخر الذي يبان ان صاحبهُ كان من الضباط . فاخذت تلك الدراهم الى مغارتي واحرزتها كما فعلت بالتي اتيت بها قبلاً من مركبنا . وكان من سوء حظي ان القسم الآخر من المركب لم يكن لي فيهِ نصيب . لاني اعلم جدًّا انهُ لو صادفني ذلك السعد لشحنت قاربي دراهم مرات متوالية . وكنت افتكر انهُ اذا تيسر لي الذهاب الى انكلترا يمكنني ان اتركها في تلك المغارة بالامان الى ان تحصل لي فرصة لان ارجع الى الجزيرة وآخذها

شعرٌ

بذا قضت الايام ما بين اهلها مصائب قوم عند قوم فوائدُ

واذ كنت قد اتيت بجميع امتعتي الى البرّ واحرزتها جيدًا انثنيت راجعًا الى قاربي واخذت اجذف سائرًا بهِ بجانب الشاطىء الى ميناه القديمة وتركتهُ هناك . ثم ذهبت من ذلك الموضع الى مسكني القديم فوجدت هناك كل شيء في هدوّ وامان كما تركتهُ . فاخذت حينئذٍ اريح نفسي واعيش كعادتي القديمة واعتني بمهام عائلتي . وبقيت مدة اعيش بالراحة والهدوّ الاّ اني كنت دائمًا على

حذر اكثر من السابق واتطلع متلصصاً الى الخارج اكثر مما مضى واجول في الجزيرة اقل من جاري عادتي . ولم اكن اذهب براحة بال الا الى الجهة الشرقية من الجزيرة اذ كنت اعلم ان البرابرة لم يأتوا قط الى هناك . وكان يمكنني ان اتوجه الى تلك الجهة من دون تلك الاحتياطات الكثيرة ومن دون ان التزم ان احمل حملاً ثقيلاً من الاسلحة والذخيرة كالذي كنت احمله عند التوجه الى الجهة الاخرى منها . فبقيت في تلك الحالة نحو سنتين ايضاً ولكن رأسي المنحوس الذي كان من دأبه ان يذكرني دائماً بانه انما رُكب على جثتي لكي يحمل جسدي تعباً كان في تلك المدة باسرها مملوءاً من التدابير والاهتمامات بايجاد طريق الخلاص من تلك الجزيرة . لاني كنت احياناً اقصد التوجه مرة اخرى الى المركب على ان عقلي كان يقول لي انه لم يبقَ هناك شيء يستحق مشقات السفر وكنت اطلب تارةً التوجه الى جهة واحدة وتارةً الى جهة اخرى . وليس عندي ادنى شك انه لو كان باقياً في حوزتي ذلك الكوثر الذي هربت فيه من سلّي كنت سافرت فيه لا محالة حيثما ساقتني التقادير من دون حساب . فاني كنت مثالاً للمصابين بوباء البشر العمومي الذي ينتج منه بحسب معرفتي نصف مصائبهم وهو عدم الارتضاء بالحالة التي وضعهم فيها الله والطبيعة . لاني مع صرف النظر عن حالتي الاولى ونصيحة ابي الفاضلة التي يمكنني ان ادعو مخالفتي اياها خطيئتي الاصلية كانت اغلاطي من هذا القبيل نفسه في ما بعد واسطة لوصولي الى تلك الحالة التعيسة . لانه لو كانت تلك العناية التي يسرت لي ذلك المركز الحسن في البرازيل وهو معاطاة الزراعة انعمت بان اضبط نفسي عن الطمع وارتضي ان اتقدم في عملي بالتدريج اكنت صرت في ذلك الوقت اي وقت وجودي في تلك الجزيرة من اكبر فلاحي البرازيل . ولست اشك اني بواسطة النجاح الذي حصلت عليه في تلك المدة القصيرة التي صرفتها هناك والنموّ الذي كنت على الاكثر مزمعاً ان احصل عليه لو بقيت مدة اطول في ذلك الموضع كنت صرت لا محالة صاحب ثلاثين الف كيس

تقريبًا . وماذا حملني على ترك ثروة ثابتة ومزرعة مخصبة آخذة في التقدم والزيادة لكي اكون وكيلاً على مركب متوجه الى غوينيا في طلب العبيد مع ان الصبر والتمادي كانا زادا املاكنا في بلادنا حتى كان يمكننا ان نشتري العبيد على ابواب بيوتنا من الذين كانت مصلحتهم جلبهم والمتاجرة بهم . وما كنا نلتزم ان ندفعهُ من الزيادة في ثمنهم لم يكن توفيرهُ يستحق هذا المقدار من التعب والمخاطرة . ولكن كما كان ذلك يكون غالبًا نصيب الشبان كذلك التأمل في حماقتهِ يكون في الغالب عمل المتقدمين في السن او الذين كلفهم اختبارهم المستطيل ثمنًا غاليًا . فهكذا كانت حالتي حينئذٍ . ولكن كان الغلط تمكن جدًّا وصار ملكة في طبعي حتى انهُ لم يكن يمكنني ان ارتضي قانعًا بحالتي بل كنت دائمًا مهتمًّا ومتهمكًا بامر خلاصي من ذلك الموضع . وستتضح ما عملتهُ من التدابير لاجل نيل هذا المقصد من سياق قصتي كما سترى

شعرٌ

طلبت المستقرَّ بكل ارض فلم ارَ لي بارض مستقرًّا
اطعت مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعت لكنت حرًّا

واعلم اني كنت حينئذٍ متخليًا في قلعتي بعد رجوعي من ذلك المركب وكان قاربي مربوطًا بامان في مينا امينة كالعادة وقد رجعت الى الحالة التي كنت فيها قبلاً . نعم انهُ كان عندي اموال اكثر من السابق الا اني لم اكن لذلك اغنى لاني لم استفد من تلك الاموال اكثر مما كان يستفيد منها هنود بيرو قبل مجيء اهالي اسبانيا الى هناك

وفيما كنت في احدى ليالي آذار المطرة في السنة الرابعة والعشرين من دخولي جزيرة اليأس مضطجعًا في فراشي او ارجوحتي طالبًا للنوم متعافيًا

مرتاحًا رائق المزاج خاليًا من تعب الجسم واضطراب العقل اكثر من مألوف عادتي لم اكن استطيع ان اطبق عينيّ لكي انام بل احييت الليل كله بالارق والقلق . ولا يمكن ذكر جميع الافكار الكثيرة المتنوعة التي جالت في عقلي في الليلة . فاني راجعت بطريق مختصر حوادث حياتي من اولها الى ان وصلت الى تلك الجزيرة ثم اردفت ذلك بحوادث حياتي في مدة اقامتي فيها . وعند تأملي في حالتي من حين خروجي الى الجزيرة كنت اقابل حسن اموري في السنين الاولى من سكناي هناك بما اعتراني من الاضطراب والمخاوف والهموم بعد ما رأيت اثر القدم على الرمل . وليس ذلك كأني لم اكن اصدق قبلاً ان البرابرة كانوا يترددون دائمًا الى الجزيرة وانا ربما وجد احيانًا مئات منهم هناك في البرّ الأ اني لم اعرف ذلك قط ومن ثم لم يخامرني ادنى احتساب من هذا القبيل . فكانت طمأنينة كاملة مع ان الخطر كان هو هو بعينهِ . وكنت افرح بعدم معرفتي ما انا فيهِ من الخطر كأني لم اكن قط في الحقيقة عرضة له . وقد استفدت من ملاحظة ذلك فوائد كثيرة من اخصها ما يأتي وهو اعظم صلاح وجودة العناية الالهية في جعلها مدى نظر الانسان ومعرفته قصيرًا وضيقًا حتى انهُ عند ما يكون محاطًا بالآف من الاخطار يكون مطمئنًا هاديًا اذا كانت الحوادث مستورة عن نظرهِ وكان لا يعرف شيئًا من المخاطر المحدقة بهِ مع انهُ لو عرفها كانت تقلق فكرهُ وتوقعهُ في خور الهمة وفي اليأس

ثم بعد ان تسليت مدة بهذه الافكار اخذت افتكر بامعان نظر في ما كنت فيهِ من الخطر في تلك السنين الكثيرة التي قضيتها في جزيرة اليأس وكيف كنت اجول من مكان الى مكان بكل طمأنينة وراحة بال في اوقات كان فيها مجرّد ظل تلة او شجرة كبيرة او ظلام الليل فاصلاً بيني وبين اردإ نوع من الهلاك اي الوقوع في ايدي الغيلان والبرابرة الذين لو صادفوني لكانوا قبضوا عليّ كما قبض على عنزة او حمامة وذبحوني واكلوا لحمي

من دون ان يواخذوا انفسهم بذنب اكثر مما اواخذ نفسي اذا ذبحت حمامة او بومة واكلت لحمها . ولا يجوز لي ان اقول اني لم اشكر الله بخلوص على حفظهِ اياي لاني كنت اقرّ بتواضع عظيم ان خلاصي من تلك المخاطر العظيمة الغير المعروفة انما كان بواسطة عنايتهِ العظيمة واني لولا تلك العناية لكنت لامحالة سقطت في ايدي اولئك القساة العارين من الرحمة والانسانية

فلما انتهيت من تلك الافكار صرفت مدة من الزمان في التأمل كيف كانت احوال اولئك الخلائق الاشقياء اي البرابرة وكيف امكن ان الله الذي يدبر الامور بحكمة يسلم بعض خلائقهِ الى ارتكاب تلك القساوات الفظيعة والانحطاط الى حالة دون الوحوش وهي اكل بعضهم البعض . ولكن اذا انتهى ذلك في مباحث كانت عديمة الثمرة في ذلك الوقت لاح لي ان اسأل نفسي الاسئلة الآتية وهي في اي قسم من العالم يسكن اولئك القوم المتوحشون . وكم تبعد بلادهم التي اتوا منها عن الشاطىء . ولماذا كانوا يسافرون مبعدين عن اوطانهم بهذا المقدار . وماذا كانت قواربهم التي يسافرون فيها . ولماذا لا ارتب احوالي واموري بحيث اقدر ان اذهب الى بلادهم كما يأتون هم الى جزيرتي

ولم اتعب نفسي بالسؤال ايضًا عما ينبغي ان اعملهُ بنفسي اذا توجهت الى بلادهم ولا عما يمكن ان يصيبني اذا وقعت في ايديهم ولا كيف اهرب منهم اذا هجموا عليَّ ولا كيف يمكنني ان اصل الى البرّ من دون ان يدهمني بعضهم بحيث لا يكون لي سبيل الى النجاة من ايديهم . واذا لم اقع في ايديهم فماذا اعمل من جهة الزاد او الى اي جهة احول وجهي . فجميع هذه الامور لم تخطر قط ببالي ولكن عقلي كان منصبًا انصبابًا شديدًا على العبور في قاربي الى القارّة . وكنت احسب حالتي اردأ الحالات في العالم وانهُ لم يكن شيء يمكنني ان اطوح نفسي فيهِ مما يمكن ان يقال عنهُ انهُ اردأ منها الّا الموت نفسهُ . واني

اذا وصلت الى شاطئ القارة ربما ينفتح لي باب الفرج او اسافر بجانب الشطوط كما فعلت على شطوط افريقية الى ان اصل الى بلاد مسكونة وربما احصل هناك على فرج . او ربما اصادف مركبًا مسيحيًا ياخذني معهُ . ومهما اصابني من النحس وعدم التوفيق فانهُ لايكون اكثر من الموت . فاذا مت فاني اخلص من هذه البلايا دفعة واحدة . واعلم ان ذلك جميعهُ قد نتج عن عقل مضطرب ومزاج لجوج لاني كنت قد يئست من جرى طول مدة مصائبي وخيبة الامل التي حصلت لي في المركب الذي ذهبت اليهِ مؤملاً ان اجد فيهِ ما كنت متعطشًا وتائقًا الى الحصول عليهِ اي بعض اناس اكلمهم واستفيد منهم بعض امور عن المكان الذي كنت فيهِ وعن الوسائط الممكن استعمالها لنجاتي منهُ . فاني اضطربت متزعجًا جدًّا من تلك الامور . وراحة بالي الناتجة من تسليمي لتدبير العناية الربانية كانت تبان كانها قد فارقتني وكنت كاني عديم الاقتدار على تحويل فكري نحو شيء الاَّ السفر الى تلك القارة فان هذا الامر اتاني بعزم شديد وجعل فيَّ رغبة مفرطة حتى انهُ لم يكن ممكنًا لي دفعهُ .

وبعد ان ازعجني ذلك مدة ساعتين او اكثر بقوة عظيمة حتى جعل دمي يغلي ونبضي ينتفض كاني محموم وذلك بمجرد حرارة عقلي بسببهِ القتني الطبيعة في نوم ثقيل لاني تعبت وكللت من الافتكار بهِ . وذلك مما يحمل على الظن باني قد حلمت عن ذلك في نومي والحال اني لم احلم عنهُ ولا عن شيء يتعلق بهِ بل انما حلمت اني في ما كنت خارجًا قلعتي صباحًا كجاري عادتي رأيت قاربين واحد عشر بربريًا يخرجون منهما الى البرّ وقد اتوا معهم ببربري آخر كانوا مزمعين ان يذبحوهُ لكي ياكلوا لحمهُ واذا بذلك البربري الذي كانوا مزمعين ان يذبحوهُ قد وثب بغتةً وهرب منهم راكضًا طلبًا للنجاة . وقد تراءى لي في الحلم انهُ اتى راكضًا الى الغابة الصغيرة المتكاثفة التي قدام قلعتي لكي يختبئ هناك . واني لما رأيتهُ وحدهُ ولم ارَ البقية يجدون في طلبهِ الى تلك

الجهة اظهرت لهُ نفسي ونظرت اليهِ بالبشاشة والتبسم تشجيعاً لهُ . وانهُ ركع امامي كأنهُ يتضرع اليَّ لأُعينهُ واني عند ذلك دللتهُ على سلمي وطلبت منهُ ان يصعد وذهبت بهِ الى المغارة وجعلتهُ خادماً لي . واني حالما صار عندي ذلك الرجل قلت في نفسي الآن يمكنني حقاً ان اسافر الى القارة لان هذا الرجل يكون لي بمنزلة دليل ويقول لي ماذا اعمل واين اذهب في طلب الطعام واين لا اذهب خوفاً من ان ابتلع وما هي الاماكن التي ينبغي لي ان اسافر فيها والتي ينبغي ان اتجنبها . وعند هذا الفكر انتبهت وكنت فرحاً مبتهجاً جداً بما امانيهُ من النجاة في حلمي ولكن الخوف الذي شعرت بهِ عند ما صحوت ورأيت ان ذلك لم يكن الاَّ حلماً كان شديداً ايضاً حتى انهُ اوقعني في صغر نفس عظيم في الغاية

الاَّ اني عند ذلك وصلت الى هذه النتيجة وهي ان الطريق الوحيد لمحاولة النجاة هو ان احصل اذا امكن على واحد من اسرى البرابرة ممن يكونون قد حكموا بقتلهِ واكلهِ وقد اتوا الى الجزيرة لاجل ذبحهِ . الاَّ انهُ كانت توجد هذه الصعوبة في ذلك وهي انهُ لا يمكن التوصل الى هذا المقصد الاَّ بالهجوم على جمهور منهم وقتلهم جميعاً ولكن هذا العمل فضلاً عن انهُ جسارة ربما لا يعقبها نجاح غير جائز عندي كما ذكرت قبلاً وكان قلبي يرتعد مرتعشاً من الافتكار بسفك هذا المقدار من الدم البشري وان يكن ذلك لاجل نجاتي . ولا حاجة الى ذكر الحجج التي عرضت لي لعدم جواز هذا العمل لانها هي نفس الحجج التي ذكرتها قبلاً . ومع انهُ كان لي في هذا اسباب أُخر اقدمها لجواز ذلك وهي ان اولئك القوم هم اعداءُ لحياتي وانهم يبتلعونني اذا قدروا وان صيانتي نفسي من الموت بايديهم هو محافظة على الحياة من اعلى درجة ومدافعة عن نفسي كما لو كانوا هاجمين عليَّ ليفتكوا بي وكان سفك دم بشري لاجل نجاتي هائلاً عندي جداً حتى اني بقيت مدة طويلة لا اقدر ان اسلم بهِ . ثم بعد محاورات سرية بيني وبين نفسي واضطرابات عظيمة بسببها لان تلك الاحتجاجات كانت

تنازع في رأسي وتشغله زمناً طويلاً غلبت اخيراً الرغبة القوية الحارّة في النجاة مستظهرة على جميع ما سواها حتى عزمت ان احصل عليّ واحد من اولئك البربر اذا امكن مهما كلف ذلك . فاخذت حينئذٍ اهتم بامر التوصل الى هذا المقصد واذ كان الاعتماد على طريق مخصوص صعباً جداً عزمت على ان اراقب اولئك القوم مترصداً مجيئهم الى البرّ وان اترك ما وراء ذلك للقضاء والقدر وان اتصرّف عند حصول الفرصة حسب مقتضيات الحال . فصرفت اكثر من سنة ونصف في المراقبة . وكنت في اكثر تلك المدة اذهب كل يوم الى الجانب الغربي من الجزيرة لكي اترصد القوارب واذ لم ارَ شيئاً منها ضجرت وضعفت همتي وقلّ املي . الآن رغبتي لم تضعف كما فعلت فيما مضى بل كانت كلما طالت المدة تزيد . واقول بالاجمال ان اجتهادي في اول الامر في ان لا ارى البرابرة ولا ادعهم يرونني لم يكن اقل من رغبتي حينئذٍ ان افتك بهم . وعدا ذلك كان يلوح لي اني قادر على ضبط بربري او اثنين او ثلاثة ايضاً اذا وقعوا في يدي وعلى جعلهم عبيداً مطيعين لي في عمل كل ما آمرهم به وعلى منعهم من ان يغدروا بي في احد الاوقات

فصرفت مدة طويلة اعلل نفسي بهذا الامل الا انهُ لم يظهر شيء من ذلك بل ذهبت جميع افكاري وتدابيري سدى لانهُ مضى مدة طويلة ولم يأتِ احد من البرابرة الى جزيرتي

شعرٌ

يعاندني دهري كأني عدوهُ   وفي كل يوم بالكريهة يلقاني
وان رمت خيراً جاء دهري بضدهِ   وان يصفُ لي يوماً تكدر بالثاني

الفصل الثاني والعشرون

تخليص روبنصن كروزي اسيرًا من البرابرة وتسميتهُ اياهُ جمعة واتخاذهُ اياهُ خادمًا لهُ

وبعد ان صرفت نحو سنة ونصف في تلك الافكار وحكمت بانها فارغة باطلة رأيت ذات يوم صباحًا خمسة قوارب على الشاطىء في الجهة التي كنت مقيمًا فيها وكان القوم الذين اتوا فيها قد خرجوا جميعًا الى البرّ ولم اكن اراهم حينئذٍ فدهشت من ذلك وكانت الكثرة تضعف املي في النجاح . لاني اذ رأيت ان القوارب كانت كثيرة وكنت اعلم ان البرابرة يأتون دائمًا اربعة او خمسة واحيانًا اكثر في كل قارب حرت في امري ولم اعلم كيف اقدر ان اقتل بعشرين او ثلاثين رجلاً دفعة واحدة وانا وحدي . الاَّ اني هيأْت للنضال كما فعلت قبلاً وكنت مستعدًا لان اقع بهم اذا لزم . وبعد ان انتظرت مدة وكنت انتصت لعلي اسمع صوتهم حتى مللت من الانتظار وضعت اخيرًا بارودتين بجانب سلمي وصعدت الى اعلى التل ووقفت هناك في ظل رأسو لئلا يروني . فرأيت هناك بواسطة نظارتي انهم لم يكونوا اقل من ثلاثين بربريًا وانهم قد اشعلوا نارًا وشووا لحمًا غير اني لم اعلم كيف شووهُ ولا لحم اي شيء هو . وكانوا جميعًا يرقصون حول تلك النار بحركات واشارات غريبة حسب عادتهم

ثم رأيتهم بواسطة نظارتي يجرون من القوارب رجلين منكودي الحظ ويأتون بهما الى البرّ لاجل الذبح . فتقدم احدهم الى واحد منهما وضربه على رأسهِ بنبوت او سيف من خشب حسب عادتهم فسقط لوقتهِ الى الارض . فاخذ اثنان او ثلاثة منهم يشتغلان في فزره وتقطيعهِ واما الرجل الآخر فكان واقفًا وحدهُ جانبًا الى ان ينتهوا من رفيقهِ ويأتي دورهُ . فلما رأى هذا التعيس ان له حرية قليلة وكان غير مقيد هيجت الطبيعة في قلبهِ آمال الحياة فهرب منهم واخذ يركض بسرعة لا تصدق على الرمل سائرًا باستقامة نحوي اي نحو الجهة من الجزيرة التي كان فيها منزلي . ويجب ان اقرَّ باني لما رأيته يركض نحوي خفت جدًّا وعلى الخصوص لما رأيت كما ظننت متوهمًا ان جميع اولئك البرابرة كانوا يجدون في طلبهِ . فاخذت حينئذٍ انتظر تمام قسم من حلمي وهو انهُ يهرب لا محالة الى غابتي الا اني لم اقدر ان اعتمد على القسم الآخر من ذلك الحلم وهو ان البرابرة لا يتبعونهُ الى هناك غير اني مع ذلك ثبتُّ في مركزي واخذ عزمي يقوى عند ما رأيت ان الذي كانوا يطاردونهُ لم يكونوا اكثر من ثلاثة رجال . وزدت جراءة عند ما وجدت انهُ سبقهم كثيرًا في الركض وصارت المسافة بينهُ وبينهم بعيدة حتى ظهر لي انهُ اذا بقي كذلك نصف ساعة ينجو منهم جميعًا ويأمن غائلتهم

وكان النهر الصغير الذي ذكرتهُ مرارًا في اول فصلي وقد اخرجت منهُ سفني الى البرّ يفصل بينهم وبين قلعتي فظهر لي انهُ يجب على ذلك المسكين ان يعبرهُ سابحًا بسرعة والّا فانهُ يقع لا محالة في ايديهم . فلما وصل الاسير الهارب الى حافة ذلك النهر القى حالًا نفسهُ فيهِ مع ان المد كان قويًّا وعبرهُ سابحًا بسرعة الى الجانب الآخر منهُ واخذ يركض بكل عزم وسرعة . ولكن لما وصل الثلاثة رجال الذين كانوا يطلبونهُ الى النهر رأيت اثنين منهم يحسنان السباحة واما الثالث فكان لا يحسن ذلك فوقف على الحافة ينظر الى رفيقيهِ ثم بعد قليل رجع على اعقابهِ الى الوراء . وكان ذلك

من حسن حظهِ لما سيأتي بيانهُ وقد لاحظت ان ذينك الرجلين صرفا في قطع النهر ضعف الوقت الذي صرفهُ ذلك الهارب . فظهر لي حينئذٍ ان ذلك الوقت هو الوقت المناسب لاقتناء خادم او رفيق او مساعد واني مندوب من قبل العناية الالهية ان اخلص حياة ذلك الرجل المسكين . فنزلت حالاً على السلم مهرولاً وتناولت بارودتيَّ وكنت قد وضعتها بجانب السلم كما ذكرت ثم صعدت عليهِ بكل عجلة ايضاً وعدوت الى راس التل ثم جاوزتهُ الى جهة البحر واذ كانت المسافة قصيرة ومنحدرة صرت حالاً بين التابعين والمتبوع فاخذت انادي ذلك الهارب باعلى صوتي . فالتفت الى ورائهِ . وربما كان في اول الامر خائفاً مني بقدر خوفهِ منهما . ولكنني اشرت اليهِ بيدي ان يرجع واخذت اتقدم في غضون ذلك شيئاً فشيئاً نحو ذينك الرجلين اللذين كانا يطلبانهِ . ثم هجمت بغتة على السابق منهما وضربتهُ بقندق بارودتي . ولم اردِ ان اطلق البارودة لاني لم اشأ ان يسمع الآخرون صوتها وان كان لا يمكن ان يسمع صوتها بسهولة لبعد المسافة حتى انهُ اذا سمع صوتها فاذ كان لا يمكنهم ان يروا دخانها لم يكن ممكناً لهم ان يعرفوا بسهولة ماذا كان ذلك . فلما طرحت الاول مصروعاً الى الارض . وقف رفيقهُ الذي كان يتبعهُ كانهُ كان خائفاً . فاخذت اتقدم مسرعاً نحوهُ فلما صرت على مسافة قريبة منهُ رأيت جيداً انهُ كان معهُ قوس وسهم كان يهيئهما ليرميني بهما فاضطرَّني الامر الى ان رميتهُ بالرصاص فاصبتهُ فوقع حالاً على الارض ميتاً واما البربري الهارب فلما رأى عدوَّيهِ قد وقعا الى الارض وظن انهما ماتا خاف جداً من نار بارودتي وصوتها ووقف جامداً كانهُ حجر . فلم يتقدم ولا تأخر الاَّ انهُ كان يبان كأن الهرب كان احب اليهِ من الاتيان اليَّ . فناديتهُ ثانية واشرت اليهِ ان يتقدم نحوي ففهم ذلك بسهولة وتقدم قليلاً ثم وقف وهكذا كان كلما تقدم بعض خطوات يقف مرتجفاً كانهُ قد أُخذ اسيراً وكان مزمعاً ان يقتل كما قتل عدوَّاهُ . فاشرت اليهِ ايضاً ان يأتي اليَّ وعملت لهُ جميع ما جال في

خاطري من علامات التشجيع فكان يتقدم نحوي شيئًا فشيئًا . وكان كلما مشى عشر خطوات او اثنتي عشرة خطوة يركع على الارض علامة تأدية الشكر على انقاذي اياهُ . فبششت في وجههِ وتبسمت لهُ واشرت اليهِ ان يتقدم ايضًا نحوي ولا يخاف اذى واخيرًا دنا مني وخرَّ ساجدًا على الارض وقبلها ثم وضع راسهُ على الارض وامسك رجلي ووضعها على رأسهِ . والظاهر ان مرادهُ في ذلك انما كان يبين لي انهُ قد حلف بان يكون لي عبدًا الى الابد . فرفعتهُ عن الارض وطيبت خاطرهُ وشجعتهُ وامنتهُ بقدر الامكان . وان البربري الذي ضربتهُ بالبندق كان لم يمت بل انما اغمي عليهِ وكان قد ابتدأ يستفيق من صرعتهِ . فدللتهُ عليهِ واشرت اليهِ انهُ لم يمت وعند ذلك كلمني ببعض كلمات . ومع اني لم اقدر ان افهمها كنت التذُّ بسماعها لانها كانت الكلمات الاولى التي سمعتها من فم انسان في مدة اكثر من خمس وعشرين سنة . الَّا انهُ لم يكن حينئذٍ وقت لمثل هذه التأملات . وان ذلك البربري استفاق من صرعتهِ واحتفز متهيأً للقيام فاحدث ذلك خوفًا كما لاح لي في قلب البربري الذي خلصتهُ . الَّا انهُ لما رأى اني وجهت بارودتي نحو عدوّهِ كأني اريد ان ارميهُ بالرصاص تشجع . وعند ذلك طلب مني ان اعيرهُ سيفي الذي كان معلقًا بسير على جانبي من دون قراب فاعطيتهُ اياهُ . ففي الحال ذهب بهِ راكضًا الى عدوّهِ وقطع بهِ راسهُ بضربة واحدة حتى ان امهر سياف في جرمانيا لا يقدر ان يفعل ذلك باكثر سرعة ولا على احسن منوال . فاستغربت ذلك من رجل كنت اعتقد انهُ لم يرَ قط سيفًا في حياتهِ الَّا ما كان عندهم من السيوف الخشبية

غير اني فهمت في ما بعد انهم يجعلون سيوفهم الخشبية حادَّة وثقيلة جدًا اذ يصنعونها من خشب صلب في الغاية حتى انهم يقطعون بها رؤوسًا وايادي ايضًا بضربة واحدة . فلما فرغ من ذلك رجع اليَّ ضاحكًا متهللاً علامة للظفر وارجع لي السيف ووضعهُ امامي مع راس البربري الذي قتلهُ وكان يشير اشارات كثيرة متنوعة لم اكن افهمها . والذي بيان انهُ اكثر رغبة

في معرفتهِ هو كيفية قتلي للبربري الآخر مع انهُ كان بعيداً عني كثيراً . فاشار اليَّ ان اسمح لهُ بالتوجه اليهِ فاذنت لهُ بذلك . فلما وصل اليهِ وقف متذهلاً وكان ينظر اليهِ ويقلبهُ تارةً الى الجانب الواحد وتارةً الى الجانب الآخر ويتفرس في الجرح الذي احدثهُ الرصاص في صدرهِ لانهُ كان قد احدث فيهِ ثقباً الا انهُ لم يخرج منهُ دم كثير لان الدم سال الى داخل فمات بسببهِ ولم يبقَ فيهِ دم . ثم اخذ قوسهُ وجعبتهُ وانثنى راجعاً اليَّ . وعند ذلك هممت على الانصراف واوعزت اليهِ ان يتبعني مشيراً اليهِ انهُ ربما يأتي آخرون وراء ذينك البربريين . فاشار اليَّ انهُ يجب ان يدفنهما لكي لا يراهما الباقون اذا تبعوهما الى هناك فاشرت اليهِ اني استصوب رايهُ . فاخذ في العمل . وفي الحال حفر بيديهِ حفيرة في الارض تكفي لدفن الاول ثم سحبهُ اليها ودفنهُ هناك وهكذا فعل بالآخر . وربما لم يصرف في دفنهما اكثر من ربع ساعة . ثم ناديتهُ وذهبت بهِ بعيداً الى مغارتي في اقصى الجزيرة ولم اذهب بهِ الى قلعتي لانها كانت قريبة الى محل الخطر . وهكذا لم ادع حلمي يتم في هذا المعنى وهو انهُ يأتي الى غابتي ليستظل فيها . فلما وصلنا الى هناك ناولتهُ رغيفاً من الخبز وعنقوداً من الزبيب لياكل وناولتهُ ماء ليشرب لانهُ كان عطشان جداً بسبب ركضهِ . وبعد ان اكل وشرب اشرت اليهِ ان يذهب ويضطجع لينام ودللتهُ على مكان كنت وضعت فيهِ قش ارزّ ولحافاً فوقهُ وكنت انام عليهِ احياناً . وهكذا اضطجع المسكين ونام

وكان ظريفاً لطيفاً حسن الهيئة ذا قامة مستقيمة طويلة وبنية واعضاء قوية معتدلة وكان عمره حسب ظني ستاً وعشرين سنة . وكان منظر وجههِ طلقاً بشوشاً كريماً لا مقطباً وحشياً لئيماً كباقي البرابرة . وكانت تلوح على وجههِ علامات الشجاعة والرجولية التامة وكان حلواً وكيساً كانهُ اوربي وعلى الخصوص عند ابتسامهِ . وكان شعره طويلاً مسترسلاً اسود ولم يكن مجعداً كشعر العبيد . وكانت جبهتهُ مرتفعة وكبيرة وعيناه منيرتين متوقدتين . واما لون جلدهِ فلم

يكن اسود خالصاً بل كان مشرباً صفرة . ولكن اصفراره لم يكن شنيعاً كريهاً نافراً كاهالي البرازيل وورجنيا وباقي هنود اميركا بل كان مشرقاً زيتونياً حسناً يعسر تحقيق وصفهِ وكان وجههُ مدوّراً سميناً وانفهُ صغيراً ولم يكن افطس كانوف السودان . وكان فمهُ لطيفاً جداً وشفتاهُ رقيقتين واسنانهُ ظريفة منتظمة وبيضاء كاللؤلؤ

فنام نحو نصف ساعة ثم انتبه وخرج من المغارة واقبل نحوي لاني كنت مشتغلاً في حلب عنزاتي في الصيرة بالقرب من المغارة . فلما رآني اتى اليَّ راكضاً والقى نفسهُ الى الارض بكل تواضع وخضوع وشكر واستعمل علامات كثيرة لاظهار تلك الحاسيات ثم بسط رأسهُ على الارض بجانب رجلي ووضع قدميَّ على راسهِ كما فعل قبلاً . ثم اخذ يشير اشارات تعلن طاعتهُ وعبوديتهُ وخضوعهُ التام مظهراً لي بذلك انهُ يخدمني ما دام حيّاً فنهمت كثيراً من اشاراتهِ وبينت له اني مسرور بهِ وراضٍ عنهُ . وبعد مدة قصيرة ابتدأت اكلمهُ واعلمهُ ان يكلمني . واول كل شيء افهمتهُ ان اسمهُ يكون جمعة وهو اليوم الذي خلصت فيهِ حياتهُ . سميتهُ بذلك تذكاراً لذلك اليوم . وعلمتهُ ايضاً ان يناديني يا معلمي وافهمتهُ ان ذلك هو اسمي . ثم علمتهُ ان يقول نعم ولا وافهمتهُ معناهما . ثم وضعت قليلاً من الحليب في صحن وشربت منهُ وغمست خبزي فيهِ قدامهُ واعطيتهُ كعكة واشرت اليهِ ان يفعل كما فعلت ففعل حالاً واشار اليَّ ان ذلك يلائمهُ جداً . فاقمت هناك معهُ الليل كلهُ . ولما طلع النهار اشرت اليهِ ان يذهب معي وافهمتهُ اني اريد ان اعطيهُ بعض ملابس ففرح بذلك مبتهجاً لانهُ كان عرياناً بالكلية . وبينما كنا مجتازين بالقرب من الموضع الذي دفن فيهِ ذينك البربريين التفت مشيراً الى المكان بالتدقيق ودلني على العلامات التي كان وضعها ليستدل بها عليهما . ثم اشار اليَّ انهُ يجب ان نحفرهما ونأكلهما . وعند ذلك اظهرت الغيظ وبينت له كراهتي لهذا الامر وتظاهرت كاني اريد ان استفرغ عند ذكرهِ واومأت اليهِ بيدي ان يأتي فاتى

حالاً بكل طاعة وخضوع . ثم ذهبت بهِ الى راس التل لنرى اذا كان اعداؤهُ قد انصرفوا واخرجت نظارتي واخذت انظر فرأيت واضحًا الموضع الذي كانوا فيهِ ولكن لم أرَ احدًا منهم ولا شيئًا من قواربهم هناك فاستدللت من ذلك انهم رجعوا عن الجزيرة وتركوا رفيقيهم ولم يفتشوا عليهما

ولم أكتفِ بهذا الاكتشاف ولكنني اذ صرت حينئذٍ اكثر جراءة وبالتالي اكثر رغبة في معرفة الامور اعطيت خادمي جمعة السيف بيدهِ وحملتهُ القوس والسهام على ظهرهِ لانهُ كان خبيرًا باستعمال ذلك . وناولتهُ بارودة ليحملها لي وحملت انا بارودتين وذهبنا معًا قاصدين الموضع الذي كان اولئك البرابرة فيهِ لاني كنت حينئذٍ راغبًا في ان اطلع على اتم مرام على احوالهم . فلما وصلنا الى الموضع برد دمي في عروقي وغاص قلبي في جوفي من كراهة المنظر . وبالحقيقة كان المنظر عندي فظيعًا واما جمعة فلم يبالِ بهِ . فان المكان كان مغطًّى بعظام الناس والارض مصبوغة بدمهم . وكانت قطع كبيرة من اللحم مطروحة هنا وهناك قد أُكل جانب منها وشويت قليلاً بالنار . وبالاختصار كان هناك كل علامات وليمة الظفر التي كانوا قد تنعموا بها بعد الغلبة على اعدائهم . فرأيت ثلاث جماجم وخمس ايدٍ وعظام ثلاث او اربع سيقان واقدام واجزاء اخر كثيرة من الجسم . واخبرني جمعة بواسطة الاشارات انهم كانوا قد اتوا الى هناك باربعة من الاسرى ليعملوا وليمة فاكلوا ثلاثة منهم وانهُ هو الرابع . وبانهُ حدثت حرب قوية بينهم وبين ملك يجاورهم فاخذوا كثيرين من رعاياهُ اسرى . وكان بيان ان جمعة هو من جملة رعايا ذلك الملك . فاخذت الفئة الظافرة كل اولئك الاسرى الى اماكن مختلفة لكي ياكلوهم كما فعل هولاء الاشقياء بالذين اتوا بهم الى هذه الجزيرة

ثم امرت جمعة ان يجمع معًا الجماجم والعظام واللحم وكل ما بقي كومة واحدة ويشعل عليها نارًا كبيرة ويحرقها جميعًا حتى تصير رمادًا . ووجدت ان جمعة كان يشتهي ان ياكل بعضًا من اللحم لانهُ كان لم يزل آكال لحم الناس في

طبيعتو . الاّ اني اظهرت كراهة عظيمة لذلك العمل فلم يعد يتجاسر ان يظهر ما انطوت عليو طبيعتة من هذا القبيل وعلى الخصوص لاني كنت اتهمتة بواسطة ما اني اقتلة اذا بدا منة شيء من ذلك

وبعد ان فرغ خادمي جمعة من عملو رجعنا معًا الى القلعة وهناك اخذت اشتغل لهُ بعض ملابس . واول كل شيء اعطيتهُ لباسًا من كتان كنت قد اخرجتهُ من صندوق الطبجي الذي خلصتهُ من ذلك المركب كما ذكرت آنفًا . وبعد ان غيرتهُ قليلاً كان بلائقة جدًا . ثم اصطنعت لهُ جبة من جلود المعزي وذلك بحسب معرفتي لاني كنت قد صرت خياطًا لا بأس فيو . ثم اعطيتهُ قبعًا اصطنعتهُ من جلود الارانب وكان مفيدًا ولطيفًا . وهكذا كسوتهُ بقدر الامكان . فسرَّ منهما حين رأى نفسهُ مكتسيًا جدًّا نظير معلمو تقريبًا . الاّ انهُ كان لايمشي براحة في اول الامر في تلك الملابس . فان لبس اللباس كان صعبًا عليو وكمّا الجبة كانا ضيقين يتعبان كتفهُ وابطهُ . ولكن بعد ان وسعتهما قليلاً ولبس الجبة مدة تعوَّد عليها ووجدها هينة ونافعة

ثم ثاني يوم رجوعي معهُ الى مغارتي اخذت اتبصر اين انزلهُ . فلكي احسن معاملتهُ واكون مع ذلك مرتاح البال تمامًا عملت لهُ خيمة صغيرة في الفرجة التي بين سوريَّ اي داخل السور الخارجي وخارج السور الداخلي . وكان هناك باب او مدخل لمغارتي كما علمت فعملت لذلك الباب صندوقًا وغلقًا من خشب ركبتهُ من داخل المدخل وجعلت فتحهُ الى داخل وكنت اسكرهُ قليلاً واضع سلمي داخلاً حتى ان جمعة كان لايقدر ان يدخل اليَّ داخل سوري الداخلي ما لم يحدث صوتًا قويًا كافيًا لان ينبهني . وذلك لانهُ كان لسوري الداخلي حينئذٍ سقف كامل من عوارض طويلة كانت تغطي كل خيمتي ممتدة من السور الى التل . وكان موضوعًا على تلك العوارض عرضًا عيدان صغيرة عوض الاخشاب وفوق ذلك غطاء سميك جدًّا من قش الارزّ الذي كان قويًا كالقصب . وكنت قد وضعت على الثقب او المعبر

الذي كنت ادخل واخرج منه من السقف بواسطة السلم غلقًا معلقًا كان اذا حاول احد فتحهُ من خارج لا ينفتح بل يسقط الى داخل ويحدث صوتًا عظيمًا . واما الاسلحة فاني كنت ادخلها جميعًا الى داخل واضعها بجانبي كل ليلة . الا اني لم اكن في احتياج الى كل هذا الاحتراز لانهُ لم يكن قط لانسان خادم امين ومحب نصوح اكثر مما كان جمعة لي فانهُ كان وديعًا بسيط القلب لين العريكة صبورًا شكورًا غيورًا وكانت عواطفهُ مرتبطة بي كارتباط عواطف ولد بابيهِ . ويمكنني ان اقول انهُ كان اذا لزم يضحي حياتهُ ليخلص حياتي . والادلة الكثيرة التي قدمها لي على ذلك ازالت كل شكوكي واقنعتني بعد قليل انهُ لا حاجة لي للمحافظة على حياتي ولا الاحتراز عليها منهُ

وكان ذلك يجعلني اعتبر تكرارًا متعجبًا كيف ان الله مع انهُ قد ارتضى كما يظهر من اعمال عنايتهِ وسياسة اعمال يديهِ ان يُنزع من قسم كبير هكذا من عالم خلائقهِ احسن الامور والاعمال التي يوجد في طباعهم وقوى انفسهم استعداد لما قد اسبغ عليهم نفس القوى والعقل والعواطف وحاسيات المعروف والشكر وكراهة الشرّ والشعور بالجميل والخلوص والامانة وكل استعداد لعمل الخير وقبول الخير مما اسبغهُ تعالى علينا نحن معاشر المتمدنين. وانهُ عند ما يرتضي ان يجعل لهم فرصًا لابراز تلك الحاسيات تراهم مستعدين مثلنا او اكثر استعدادًا منا لاستخدامها في الامور والمقاصد التي جعلت فيهم لاجلها . وكنت اغتم واحزن كثيرًا عند ما كنت اتأمل لدى حصول فرصة لذلك كيف نسيء نحن استعمال تلك القوى جميعها مع انها قد انيرت بواسطة مصباح التعليم العظيم الذي هو روح الله وبواسطة معرفة كلمتهِ تعالى وكيف انهُ تعالى قد ارتضى ان يستر مثل هذه المعرفة المنقذة عن ملايين لا تحصى من الناس الذين اذ كانوا مثل هذا البربري المسكين لا بد من ان يستعملوها احسن منا . ومن ثم كنت احيانًا اتطرّف في ذلك واعترض على سلطة الله المطلقة وصرت كأني اشكو من عدل الله في اخفائهِ ذلك النور عن البعض

ووجهوبه الى البعض الآخر مع انه قد وضع واجبات واحدة على الفريقين الاّ اني كنت اغلق الباب على هذه الافكار وارفعها من بالي بما يأتي وهو اولاً انا لا نعلم على اي نور واية شريعة تكون دينونة هولاء وانه اذ كان الله بالضرورة قدوساً وعادلاً طبعاً بغير نهاية وقد مضى على اولئك الخلائق بالابعاد عنه لا بد من ان يكون ذلك بسبب اخطائهم ضد ذلك النور الذي هو كما تقول الكتب المقدسة شريعة لانفسهم وبموجب قوانين تقرّ ضمائرهم بانها عادلة وان كان الاساس غامضاً عنا ولم يشإِ الباري تعالى ان يكشفه لنا . ثانياً اذ كنا جميعاً لسنا الاّ خزفاً بيد الخزاف كان لا يحق لنا ان نقول لجابلنا لماذا جبلتنا هكذا

شعرٌ

كم عالم عالم ضاقت مذاهبهُ ... وجاهل جاهل تلقاهُ مرزوقا
هذا الذي حيّر الافهام قاطبةً ... وصيّر العالم النحرير زنديقا

والآن ارجع الى الكلام عن رفيقي الجديد فاقول اني سررت به وكنت اجتهد في تعليمه كل ما من شأنه ان يجعله مفيداً ومريحاً ومساعداً وعلى الخصوص ما يجعله يكلمني ويفهم مني اذا كلمته . وكان من انبه التلاميذ يقبل التعليم بالفرح ويجتهد في اكتساب الفوائد ويسرّ جداً عند ما يقدر ان يفهمني او يفهم مني حتى اني كنت التذ كثيراً بالكلام معه . وصارت عيشتي حينئذٍ هينة لينة مترفهة حتى صرت اقول في نفسي انه لو امكن ان اكون في امان من جهة البرابرة لكنت لا اطلب ابداً الانتقال من ذلك الموضع ومفارقة تلك الجزيرة

الفصل الثالث والعشرون

اجتهاد روبنصن كروزي في تهذيب خادمهِ جمعة وتعليمهِ

ثم بعد رجوعي الى قلعتي بثلاثة او اربعة ايام قلت في نفسي انهُ لكي يمكنني ان اصلح احوال جمعة وحاسياتهِ وانزع منهُ الميل المفرط نحو اكل لحم الناس يجب ان اذيقهُ لحم الحيوانات . فذهبت بهِ ذات يوم صباحًا الى الاحراش وكانت لي نية ان اذبح جديًا من قطيعي الاهلي وآتي بهِ الى المنزل واشويهُ . ولكن في ما كنت ذاهبًا في الطريق رأيت عنزة مضطجعة في ظل شجرة وجديين مضطجعين بجانبها فامسكت جمعة من كتفهِ وقلت لهُ اصبر قف هنا واشرت اليهِ ان لا يتحرك ثم صليت بارودتي واطلقتها فاصبت احد الجديين . وان جمعة المسكين الذي كان قد رآني عن بعد اقتل ذلك البربري عدوهُ الا انهُ لم يعلم ولا تصور كيف كان ذلك اندهش منذهلاً وجعل يرتجف مرتعدًا وكان خائفًا جدًا حتى ظننت انهُ يسقط الى الارض مغشيًا عليهِ . فانهُ لم يرَ الجدي الذي رميتهُ بالرصاص ولا عرف اني قتلتهُ بل كان يرفع جبتهُ ليرى اذا كان هو لم يجرح وظهر لي بعد قليل انهُ كان يظن اني عازم على قتلهِ . لانهُ اتى وركع ساجدًا لي واحتضن ركبتي وقال اشياء كثيرة لم افهمها الا اني رأيت بسهولة ان قصدهُ بذلك هو ان يترجاني ان لا اقتلهُ

ثم وجدت بعد قليل طريقة لاقناعهِ باني لا اريد ان اضرهُ . فامسكتهُ

يدي واوقفتهُ وضحكت عليهِ ثم اشرت الى الجدي الذي قتلتهُ وقلت لهُ ان يذهب ويأتي بهِ وفي الحال فعل كما امرتهُ . وبينما كان متعجباً ينظر ليرى كيف ذلك الجدي المسكين دككت ايضاً بارودتي . ثم بعد قليل رأيت طائراً كبيراً كالباشق واقفاً على شجرة على مسافة رمية رصاص مني فافهمت جمعة قليلاً ماذا اريد ان افعلهُ وذلك اني دعوتهُ اليَّ واومأت الى الطائر وكان في الحقيقة ببغاة مع اني ظننتهُ باشقاً ثم اشرت اليهِ والى بارودتي والى الارض التي تحت الببغاة لكي اريهُ كيف اطلق البارودة واقتل ذلك الطائر . وفي الحال اطلقت البارودة وقلت لجمعة ان ينظر فرأى حالاً الطائر يسقط الى الارض . فوقف كانهُ لا يزال خائفاً مع كل ما قلتهُ وفعلتهُ . ويزداد تعجباً لانهُ لم يرني اضع في البارودة شيئاً بل كان يظن انهُ يوجد فيها مبدأ عجيب للموت والهلاك قادر على اماتة انسان او وحش او طائر او شيءٍ آخر مهما كان قريباً ام بعيداً . وكان التعجب الذي احدثتهُ البارودة فيهِ موثراً جداً لم يفارقهُ الّا بعد مدة طويلة . واظن لو سمحت لهُ لعبدني وعبد بارودتي فاما البارودة فانهُ كان لا يشاء ان يقرب منها او يمسها الى مدة طويلة بعد ذلك الوقت . الّا انهُ كان منفرداً وحدهُ يتكلم معها ويخاطبها كانها كانت تجاوبهُ . وقد فهمت منهُ في ما بعد انهُ كان يطلب منها ان لا تقتلهُ ثم بعد ان زالت قليلاً دهشتهُ من ذلك اشرت اليهِ ان يركض ويأتي بالطائر الذي رميتهُ ففعل ذلك الّا انهُ بقي مدة وذلك لان الببغاة اذ كانت لم تمت بعد تطنطت وابعدت قليلاً عن الموضع الذي سقطت فيهِ غير انهُ وجدها اخيراً والتقطها واتى بها اليَّ . واذ قد عرفت جهلهُ في امر البارودة استغنمت تلك الفرصة ادكها ايضاً من دون ان يراني لاكون مستعداً لاطلاقها على ما عسى ان اصادفهُ من الطرائد في الطريق . الّا اني لم اصادف شيئاً في ذلك الوقت . وهكذا اتيت بالجدي الى البيت وسلختهُ تلك الليلة وقطعتهُ على قدر معرفتي في صناعة القصابة واذ كان عندي مرجل يصلح لسلقهِ سلقت فيهِ بعضاً من اللحم وعملت منهُ مرقة جيدة لذيذة .

وبعد ان اكلت قليلاً ناولت جمعة قليلاً فسرَّ به والظاهر انهُ احبهُ . وكان من اغرب الامور عندهُ اكلي ملحاً مع اللحم . واشار اليَّ ان اكل الملح رديءٌ . ثم وضع قليلاً في فيهِ فاصابهُ تهوُّع وبصق متنفقاً وغسل فمهُ بماءٍ حلو بعدهُ . وعند ذلك وضعت انا قطعة لحم في فمي من دون ملح واخذت ابصق واتنفف لعدم الملح كما فعل هو مع الملح . ولكن لا جدال في الذوق . وقد بقي مدة لا يسأل بالكلية عن الملح مع لحمهِ او مرقتهِ وقلما كان يسأل عنهُ في ما بعد

وبعد ان اطعمتهُ لحماً مسلوقاً ومرقة عزمت ان اعمل لهُ اكلة من اللحم المشوي فعلقت قطعة من لحم الجدي بخيط قدام النار كما رأيت اناساً كثيرين يفعلون ذلك في انكلترا وذلك اني ركزت عمودين واحداً على الجانب الواحد وآخر على الجانب الآخر من النار ووضعت عارضة من راس العمود الواحد الى راس العمود الآخر وربطت الخيط بتلك العارضة فكانت القطعة تدور دائماً مقابل النار . وان ذلك اعجب جمعة كثيراً . ولما ذاق اللحم المشوي هكذا استعمل طرقاً كثيرة ليخبرني بانهُ احبهُ جدًّا . واما انا فلم اجد صعوبة في فهم ذلك منهُ . واخيراً قال لي انهُ لن ياكل لحم بشر ما دام حيًّا فسررت لما سمعت ذلك منهُ

وفي اليوم التالي اشغلتهُ بدق الشعير وتذريتهِ بالطريقة التي جرت لي العادة على استعمالها كما علمت فتعلم سريعاً هذا العمل وزادت رغبتهُ فيهِ لما عرف ان المقصود من تلك الحبوب ان يعمل منها الخبز ثم سمحت لهُ ان يراني اعجن واخبز ولم يمضِ الا ايام قصيرة حتى صار قادراً على عمل تلك الاعمال وغيرها ومهر فيها نظيري

واخذت افتكر حينئذٍ انهُ قد صار عندي فمان ولذلك يجب عليَّ ان اوسع دائرة ارضي وازيد كمية مزروعاتي . فافرزت قطعة كبيرة من الارض وشرعت في عمل سياج لها . وكان جمعة يشتغل فيهِ بالرغبة والنشاط والفرح .

واخبرتهُ ان المقصود بذلك العمل انما هو زرع الشعير لاجل عمل خبز يكفينا كلينا وظهر لي انهُ يشعر انهُ قد صار عليَّ تعبٌ كثير بسببهِ وافهمني انهُ يريد ان يجتهد في المساعدة بقدر استطاعتهِ اذا قلت لهُ ماذا يعمل

وكانت تلك السنة ابهج السنين التي صرفتها قبلاً في تلك الجزيرة . فان جمعة كان قد ابتدأ يتكلم قليلاً ويفهم اسامي كل الاشياء التي كنت اطلبها منهُ وكل المواضع التي كنت ارسلهُ اليها . وكان يحدثني كثيراً حتى صار يمكنني ان استفيد قليلاً من لساني مع انهُ كان قبلاً قليل الفائدة اي في امر الحديث . وعدا لذة الحديث معهُ كان هو نفسهُ يعجبني كثيراً . فان بساطتهُ وامانتهُ وحسن اطوارهِ كانت تزيد ظهوراً لي يوماً فيوماً حتى صرت احبهُ حبًّا خالصاً . واما هو فكان يحبني اكثر مما كان يمكنهُ ان يحب شخصاً آخر غيري ايًّا كان

ثم جال في خاطري ذات يوم ان امتحنهُ لارى اذا كان مشتاقاً الى بلادهِ . واذ كنت قد علمتهُ لغتي بحيث صار قادراً ان يجاوبني عن اكثر الاسئلة التي كنت اسأَلهُ اياها سالتهُ اذا كانت العشيرة التي هو منها لم تغلب قط في الحرب فتبسم عند ذلك وقال لي بلي كل وكت نحارب الاحسن . اي كل وقت نحارب الاحسن . اراد انهم دائماً يغلبون في الحرب . وهكذا افتتحنا المحاورة الآتية

روبنصن . اذا كنتم يا جمعة تغلبون دائماً في الحرب فماذا حدث حتى اخذت انت اسيراً .

جمعة . جماعتنا يغلبوا اكثر وان كان

روبنصن . كيف ذلك . اذا كانت جماعتكم يغلبون اكثر فكيف استأسروك

جمعة . هي كتار اكتر من جماعتي في مطرح اللي انا كان فيو هي ياكروا

واحد تنين تلاتي واني . جماعتي كليوم هونيك مطره اني ما كان . هونيك جماعتي اكروا رجال تنين الف كبير

روبنصن . ولماذا جماعتك ما اخذوك من ايدي اعدائك في ذلك الوقت

جمعة . هي كطفوا واحد تنين تلاتي واملوهن يتراوا الكارب . جماعتي ما لهن كارب بهاك الوقت

روبنصن . عافاك يا جمعة وماذا تعمل عشيرتك بالناس الذين يستأسرونهم فهل يأخذونهم الى مكان منفرد ويأكلونهم كما فعل هولاء

جمعة . نَأم جماعتي يأكلوا الناساسات ويزاطوهن كلهن

روبنصن . الى اين يأخذونهم

جمعة . يروحوا مطره اكر مطره يفتكروا

روبنصن . وهل يأتون الى هنا

. جمعة . نَأم نَأم يجوا هوني ويجوا مطره اكر

روبنصن . وهل جئت انت معهم الى هنا قبلاً

جمعة . نَأم جئتي الى هونيك . وعند قوله هونيك اشار الى الشمال الغربي من الجزيرة الذي يبان انهُ جانبهم الذي كانوا يأتون اليهِ

فظهر لي من ذلك ان خادمي جمعة كان قبلاً واحداً من البرابرة الذين كانت لهم عادة ان يترددوا الى الجانب الآخر من الجزيرة كي يأكلوا الناس كما كان هذه المرة واحداً من الذين أتي بهم ليؤكلوا من البرابرة . ثم بعد ذلك بمدة عند ما صارت لي جرأة ان اذهب بهِ الى تلك الجهة عرف حالاً الموضع وقال لي انهُ اتى الى هناك مرة مع جماعتهِ واكلوا عشرين رجلاً وامرأتين

وولدًا . وهو لم يعرف ان يقول عشرين بلغتي بل عبر عن ذلك بواسطة عشرين حصاة صفها واشار اليّ ان اعدها

وبعد ان فرغنا من تلك المحاورة سألتهُ عن مقدار بعد القارّة عن جزيرتنا واذا كانت القوارب لا تضيع احيانًا . فاجابني انهُ لا يوجد خطر والقوارب لا تضيع ابدًا . واخبرني انهُ يوجد في البحر بعيدًا قليلاً عن الجزيرة تيار وريح يتجهان الى جهة واحدة قبل الظهر والى جهة اخرى بعدهُ . فلاح لي حينئذٍ ان ذلك انما هو المد والجزر . ولكن فهمت فيما بعد انهُ مسبب عن حركة نهر اورونكو العظيم الذي وجدت اخيرًا ان موقع جزيرتنا هو على مصبهِ . وان الارض التي رأيتها الى الغرب والى الشمال الغربي هي جزيرة ترينيداد العظيمة الواقعة شمالي مصب ذلك النهر . وسألت جمعة الآفًا من الاسئلة عن البلاد والاهالي والبحر والساحل وعن الشعوب القريبة فاخبرني بكل ما يعرفهُ من هذا القبيل وذلك بكل بساطة وحرية ثم سألتهُ عن اسامي قبائل شعبهِ فلم اقدر ان احصل الاّ على اسم كاريب ففهمت من ذلك بسهولة ان تلك هي الكاريبيات التي تضعها خارطاتنا في قسم من اميركا ممتد من فم نهر اورونوكو الى غوايانا ومن هناك الى سنتامرتا . وقال لي انهُ على مسافة بعيدة وراء القمر اي عبر مغيب القمر الذي هو غربي بلادهم يسكن قوم بيض ملتحون نظيري مشيرًا الى شاربي الكبيرين اللذين ذكرتها قبلاً . وانهم قد قتلوا اناسًا كثيرين . فاستدللت من ذلك انهُ اراد باولئك الناس اهالي اسبانيا اللذين اشتهرت في كل بلاد قساوتهم في اميركا وكان يذكرها جميع الشعوب يتناقلونها خلفًا عن سلف

ثم سألتهُ هل يمكنني ان اذهب من الجزيرة الى اولئك القوم البيض . فقال نعم ان تذهب في قاربين . ولكن لم اقدر ان افهم ماذا عنى بقولهِ قاربين ولا ان اجعلهُ يوضح لي مرادهُ بذلك . الاّ اني فهمت اخيرًا وذلك بصعوبة عظيمة ان مرادهُ انهُ يجب ان يكون القارب كبيرًا بقدر قاربين . وكنت

اخذ كثيرًا بحديث جمعة في هذا البحث . وانفتح لي حينئذٍ باب امل في اني ساحصل في احد الاوقات على فرصة للهرب والنجاة من تلك الجزيرة وان ذلك البربري المسكين سيكون واسطة لمساعدتي في نيل مقصدي

شعرٌ

بقدر لغات المرء يكثر نفعهُ وتلك لهُ عند الشدائد اعوانُ
فبادر الى حفظ اللغات مسارعًا فكل لسانٍ بالحقيقة انسانُ

الفصل الرابع والعشرون

بناء روبنصن كروزي وجمعة قاربًا للذهاب الى بلاد جمعة ومجيء برابرة في تلك الاثناء

وبعد ان تمكنت المعرفة والصداقة بيني وبين جمعة وصار يفهم كل ما اقوله لهُ تقريبًا ويتكلم بلغتي كلامًا مفهومًا الا انهُ مكسر قصصت عليهِ قصتي وعلى الخصوص اخبار اتياني الى تلك الجزيرة وكيفية عيشتي فيها ومدة اقامتي هناك . وكشفت لهُ سرّ البارود والرصاص وعلمتهُ كيف يستعمل البارودة واعطيتهُ سكينًا فسرّ بهِ جدًا وعملت لهُ زنارًا من جلد جعلت لهُ شبه حميلة كالتي تعلق بها البطقانات في انكلترا واعطيتهُ بلطة ليعلقها بتلك الحميلة عوض البطقان . وكانت البلطة مفيدة في بعض الاحوال كالبطقان وانفع منهُ كثيرًا في احوال اخر

واخذت اصف له بلاد اوربا وعلى الخصوص انكلترا التي هي بلادي . واخبرتهُ كيف نعيش هناك وكيف نعبد الله ونعامل بعضنا بعضاً ونسافر بحراً في مراكب كبيرة الى جهات مختلفة من العالم . واخبرتهُ عن المركب الذي انكسر بي ودللتهُ على الموضع الذي انكسر فيهِ وكان حينئذٍ قد تكسر قطعاً وتبدد ولم يبقَ لهُ اثر . واريتهُ بقايا القارب الذي ضيعناهُ لما غرقنا والذي لم اكن اقدر حينئذٍ ان ازحزحهُ بكل قوتي وكان الآن قد صار كلهُ قطعاً متبددة . وان جمعة لما رأى بقايا ذلك القارب وقف مدة يتفرس متحيراً فيها ولم يقل شيئاً فسأَلتهُ عما كان يتأَمل فيهِ . واخيراً قال اني يشوف كارب هذا مثل يروح مطره جماعتي . فبقيت مدة لا افهم ماذا يعني الا اني اخيراً بعد التامل في عبارتهِ فهمت ان قارباً كذلك القارب اتى الى البلاد التي كانت تسكن فيها جماعتهُ اي دفع الى هناك بقوة الريح كما اوضح ذلك . فلاح لي حالاً انهُ يجب ان يكون مركب اوربي قد دفع الى شطوط بلادهِ وان قارباً افلت منهُ وطلع الى البرّ . وكان عقلي مظلماً بهذا المقدار حتى انهُ لم يخطر ببالي انهُ ربما هرب الى هناك قوم من مركب مضيع ان اسأَل عن المكان الذي اتوا منهُ بل انما سأَلت فقط عن وصف ذلك القارب

فوصف جمعة القارب جداً الا اني فهمت مرادهُ احسن عند قولهِ بحرارة نهن نكلص الناسات البيض من عهت . يريد نحن خلصنا الناس البيض من تحت الماء يعني الغرق . فسأَلتهُ هل كان اناس بيض في القارب . فاجاب بالايجاب وبان القارب كان مملوءًا منهم . فسأَلتهُ كم كانوا . فعد على اصابعهِ سبعة عشر فسأَلتهُ ماذا اصابهم . فقال ما معناهُ انهم لم يزالوا احياءً وانهم ساكنون مع عشيرتهِ

وان ذلك جعل في دماغي افكاراً جديدة لاني حالما سمعت ذلك افتكرت بان اولئك القوم ربما كانوا من بحرية المركب الذي انكسر مؤَخراً مقابل جزيرتي فكانهم بعد ان لطم مركبهم الصخر ويئسوا من خلاصهِ نزلوا في

قاربهم وخرجوا على الشاطئ المقفر بين البرابرة . وعند ذلك سألتهُ بتدقيق عما اصابهم فاكد لي انهم لا يزالون الى الآن مقيمين هناك احياء وانهُ قد مضى عليهم هناك اربع سنين وان البرابرة لم يؤذوهم بل اعطوهم طعاماً ليأكلوا . فسألتهُ وكيف لم يقتلوهم ويأكلوهم . فاجاب انهم باملوا إكوة ماهن . اي انهم يعملون اخوة معهم يريد انهم عقدوا معهم عهداً . ثم قال انهم ما يأكلوا ناسات الاَّ لما يحارب الكتال . اي انهم لا يأكلوا من الناس الاَّ من قاتلهم واستاسروهُ في الحرب . فكان المسكين في اول الامر لا يحسن النطق ببعض الحروف بل كان في الغالب يبدل الغين والخاء والقاف كافاً والعين همزة والحاء هاء ويغلط كثيراً في تركيب الجمل ولا يميز الاَّ نادراً بين صيغ الافعال باعتبار الزمان ولا بين الاجناس كما رأيت

ثم بعد ذلك بمدة بينما كنت على راس التل على الجانب الشرقي من الجزيرة الذي ذكرت اني كشفت منهُ في يوم رائق قارة اميركا فاذ كان الجوّ صافياً اخذ جمعة ينظر محدقاً نحو القارة واذا بهِ قد جعل يقفز ويرقص باندهاش وينادبني قائلاً يا مأَلي يا مأَلي . لاني كنت بعيداً عنهُ قليلاً . فسألتهُ ما بالك يا جمعة . فقال ما معناهُ يا لفرحي يا لسروري انظر هاك بلادي هناك عشيرتي . فلاحظت على وجههِ علامات الشعور بفرح خارق العادة . وكانت عيناه تلمعان وكان يلوح على وجههِ علامات شوق مفرط نحو التوجه الى بلاده . فلما لاحظت تلك الامارات منهُ جال في خاطري افكار كثيرة جعلتني في اول الامر غير مرتاح من جهتهِ كما كنت في السابق ولم اكن اشك انهُ اذا امكنهُ الرجوع الى عشيرتهِ سينسى كل ديانتهِ وكل معروفي معهُ ايضاً ويخبر ابناء وطنهِ باحوالي وربما يرجع بمئة او مائتين منهم فيعملون مني وليمة يتنعم فرحاً بها كما كان يتنعم بالولائم من اعدائهِ الذين اخذوا في الحرب . الاَّ اني ظلمت كثيراً ذلك الخادم المسكين الامين بهذه التهم وحزنت في ما بعد من جرى ذلك حزناً شديداً . واذ كانت ظنوني قد زادت وبقيت مستولية على حاسياتي

عدة اسابيع كنت اكثر حذراً منهُ واقل التفاتاً نحوهُ من السابق . وقد اخطأت لا محالة في ذلك ايضاً . فان ذلك الخادم الامين صاحب المروءة والوفاء لم يفتكر بذلك الأفكار تطابق احسن مبادىء مسيحي تقيّ وصديق وفيّ كما اتضح لي ذلك جليًّا في ما بعد

وكنت في تلك المدة اجتهد في استكشاف باطنهِ لأرى هل يوجد عندهُ شيء من الافكار الجديدة التي كنت اظنها فيهِ فوجدت ان كل ما قالهُ كان يدل على امانتهِ وبراءتهِ حتى اني لم اجد شيئاً يعضد ظنوني ومع كل ما كان فيَّ من عدم الراحة والريب من جهتهِ ملك اخيراً قلبي كالسابق . واذ لم يكن يعرف شيئاً من اضطرابي بسببهِ لم يكن لي وجه لان اظن فيهِ الرياء والخداع

وبينما كنا ذات يوم طالعين على ذلك التل نفسهِ وكان الجوّ فوق البحر مغبرًّا حتى انهُ لم يكن يمكننا ان نرى القارة دعوتهُ وقلت لهُ يا جمعة اما تتمنى احياناً وتود لو كنت في بلادك وبين عشيرتك . فاجاب بلى اني كنت اسرّ جدًّا واطير فرحاً . فقلت لهُ وماذا تعمل هناك اترجع الى حالة التوحش وتأكل لحم الناس وتصير بربريًّا ايضاً كما كنت قبلاً . فلاحت عند ذلك علامات الحزن على وجههِ وهزّ برأسهِ وقال كلاَّ بل اني اعلمهم ان يعيشوا عيشة صالحة وان يصلوا الى الله ويأكلوا خبز شعير ولحم حيوانات وحليباً . فقلت لهُ اذا فعلت ذلك فانهم يقتلونك . فاجاب بجدّ وقال كلاَّ كلاَّ انهم لا يقتلونني لانهم يحبون ان يتعلموا وقد تعلموا اموراً كثيرة من الرجال الملتحين الذين جاءوا في ذلك القارب . ثم سألتهُ هل يريد ان يرجع اليهم . فتبسم عند ذلك وقال انهُ لا يقدر ان يقطع كل تلك المسافة سباحة . فقلت لهُ اني اصنع لك قارباً . فقال انهُ يذهب اذا ذهبت معهُ . فقلت أَ أنا اذهب اني اخاف ان يأكلوني اذا ذهبت الى هناك . فقال كلاَّ كلاَّ اني لا ادعهم يأكلونك بل اجعلهم يحبونك كثيراً . اي انهُ سيخبرهم كيف قتلت عدوهُ وخلصت حياتهُ وهكذا يجعلهم ان يحبوني . ثم اخبرني بقدر امكانهِ عن معاملتهم

بالمعروف والمحبة اولئك الرجال البيض الملتحين كما كان يدعوهم الذين خرجوا الى البرّ هناك في حالة الضيقة

فابتدأت من ذلك الوقت افتكر بالاجتياز الى تلك القارة لارى اذا كان يتيسر لي لقاء اولئك القوم الملتحين الذين لم يكن عندي شكٌّ في كونهم من اهالي اسبانيا والبرتوغال ولم اكن اشك في اني اذا توجهت الى هناك اجد طريقة للهرب مع اولئك القوم من ذلك الموضع لاننا نكون في قارّة جمهوراً كبيراً احسن مما يمكنني ان اجده في جزيرة بعيدة اربعين ميلاً عن القارّة وانا وحدي من دون مساعد . وهكذا بعد ايام قليلة استأنفت الحديث مع جمعة وقلت له اني اعطيه قارباً يذهب فيهِ الى عشيرته . ثم ذهبت بهِ الى قبني الذي كان راسياً على الجانب الآخر من الجزيرة وبعد ان افرغت الماء منهُ لاني كنت دائماً اغرقهُ تحت الماء اخرجتهُ واريتهُ اياهُ ودخلنا كلانا فيهِ . فوجدت انهُ كان ماهراً خفيفاً في تدبيرهِ وكان يجعلهُ يمشي بسرعة مضاعفة تقريباً . وبعد ان ابعدنا قليلاً قلت لهُ هل تذهب الآن الى عشيرتك . فجمد عند ما سمع ذلك والظاهر ان ذلك كان لانهُ رأى ان القارب صغير على تلك السفرة . فاخبرتهُ عند ذلك بانهُ يوجد عندي قارب اكبر منهُ . وفي الغد ذهبت بهِ الى الموضع الذي كان فيهِ ذلك القارب الذي كنت قد عملتهُ ولكن كنت لم استطع ان انزلهُ الى البحر لكبرهِ . فلما رآهُ قال هزي كبيري يكفي الّا اني اذ كنت قد هجرت ذلك القارب ولم اكن اعتني بهِ وكان قد مضى عليهِ اثنان وعشرون او ثلاث وعشرون سنة في ذلك المكان كانت الشمس قد شققتهُ وجففتهُ حتى رثّ كثيراً وكاد يبلى . فقال لي جمعة ما معناهُ ان مثل ذلك القارب يصلح للسفر فيهِ ويحمل كفاءة من الادام والمشروبات والخبز

واذ كنت في ذلك الوقت عازماً على الذهاب معهُ الى القارة قلت لهُ يجب ان نذهب ونصنع قارباً كبيراً نظيرهُ لكي يذهب هو فيهِ الى وطنهِ . فلم يجب بكلمة بل كان منظرهُ معبساً كئيباً . فسألتهُ قائلاً ما بالك . فقال

لبش انتي مكتاضي كصباني أبي جماه سوإملت اني . فسالته ماذا يعني بذلك واخبرته اني لم اكن غضبان عليهِ بالكلية . فقال لا كصبان لا كصبان لا كصبان لبس تدشري جماه من اندك الى بلادو .. فقلت له اما قلت انت انك تحب ان تكون هناك . فقال نأم نأم أني بتريدي تكوني أني وانتِ هونيك لابتريدي جماه هونيك لاماني هونيك . وبالاختصار انهُ لم يرد ان يفكر بالتوجه الى بلادهِ بدوني . فقلت انا اذهب ولكن ماذا اعمل هناك . وعند ذلك التفت اليَّ بسرعة وقال انتِ تالي كثير تيب تأني الناسات البرّي بكون تيب وناسات جوّي وتكولي لهن آرفوا الله صلوا الله ايسوا ابي زدبدي . فقلت وا اسفاً يا جمعة انت لا تعلم ماذا تقول انا ذاتي انسان جاهل فقال نأم نأم انتي ألمتيني تيب . انتي تالميهن تيب . فقلت لا لا يجب ان تذهب بدوني اتركني هنا اعيش وحدي كما عشت قبلاً . فلما سمع ذلك اضطرب وركض الى بلطة كانت له عادة ان يحملها فخطفها بسرعة وناولني اياها . فقلت وماذا ينبغي ان اعمل بها فقال كريها أكتلي جماه فيها . فقلت ولماذا يجب ان اقتلك . فاجاب بسرعة لبس تدسري زماه . كرّي اكتلي زماه لاتدشري زماه من اندكِ . قال ذلك بحرارة حتى رأيت الدموع تجول في عينيهِ ولاجل الاختصار اقول اني اطلعت على شدة محبتهِ لي وثبات عزمهِ في الالتصاق بي فقلت له حينئذٍ وفيما بعد وذلك مراراً اني لا اطردهُ ابداً من عندي ما دام يريد الاقامة معي

فاطلعت من كلامهِ على صدق محبتهِ لي وتعلقهِ بي بحيث لا يوجد شيء يفصله عني ووجدت ان رغبته في توجهي الى بلادهِ كانت ناتجة من شدة محبتهِ لشعبهِ واملهِ في اني افيدهم . ولكن اذ لم يكن لي ميل الى ذلك لم يكن لي ادنى فكر او قصد او رغبة في عملهِ الا انهُ كانت لي رغبة شديدة في محاولة النجاة كما ذكرت قبلاً وذلك بناء على ما كنت قد استنتجتهُ من كلامهِ وهو انهُ يوجد هناك سبعة عشر رجلاً ملتحون . ومن ثم اخذت من دون ابطاء ايضاً في

التنقيش على شجرة كبيرة تصلح للتجويف لعمل قارب كبير او كما يقال شختور يمكننا ان نسافر فيهِ . وكان في الجزيرة اشجار كافية لبناء عمارة صغيرة ليس من القوارب فقط بل من المراكب الكبيرة ايضاً . ولكن المقصد الكبير عندي انما كان ان اجد شجرة قريبة الى الماء بحيث نقدر ان ننزلها الى البحر عند تتميمها احترازاً من الوقوع في الغلط الذي وقعت فيهِ سابقاً . واخيراً اختار جمعة شجرة لاني رأيت انهُ كان اخبر مني في الاشجار التي هي اكثر صلاحية لذلك . ولم اعلم ولا اعلم الآن ماذا كانت الشجرة التي قطعناها . وكان جمعة عازماً على احراق لبّ تلك الشجرة لاجل تجويفها الاّ اني علمتهُ كيف يحفرهُ بواسطة الآلات . وبعد ان بينت لهُ كيفية استعمالها كان يستعملها بكل رشاقة وخفة . وبعد ان صرفنا نحو شهر في الشغل بالاجتهاد تممناهُ وكان لطيفاً جداً ولا سيما عند ما نجرنا خارجهُ وجعلناهُ على هيئة قارب وذلك بواسطة الفؤوس التي علمت جمعة كيف يشتغل بها . ثم صرفنا نحو اسبوعين في نقلهِ الى البحر وذلك بالتدريج على اسافين من خشب ولما صار على ظهر الماء كان قادراً على حمل عشرين راكباً وذلك بكل سهولة

وقد تعجبت غاية التعجب من رشاقة خادمي جمعة وخفتهِ في تدبير ذلك القارب الكبير وتدويرهِ وتمشيتهِ . فسألتهُ هل يمكننا ان نسافر فيهِ بامان الى القارة وهل يريد هو ان يذهب فيهِ فاجاب بالايجاب قائلاً اننا نقدر ان نسافر فيهِ مهما كانت الريح شديدة . وقد كان لي مقصد آخر لم يكن يعلم شيئاً من امرهِ وهو ان اعمل سارياً وقلعاً وان ادبر لهُ مرساة وقلساً . اما الساري فلم تكن صعوبة في تدبيرهِ فاني وجدت لذلك شجرة ارز مستقيمة صغيرة بالقرب من الموضع وكان في الجزيرة اشجار كثيرة من جنسها . فاشغلت جمعة بقطعها وعلمتهُ كيف ينجرها ويجعلها على هيئة سارٍ . واما القلع فاني كنت مهتماً اهتماماً خصوصياً بشأنهِ . وكنت اعلم انهُ يوجد عندي قلوع عتيقة او قطع من قلوع عتيقة بكثرة ولكن اذ كان قد مضى عليها عندي ست وعشرون

صنة ولم اعتنِ بها كما يجب لانهُ لم يخطر ببالي اني ساكون في حاجة اليها لم اكن اشك ان اكثرها كانت قد صارت رثة وبالية وبالحقيقة كان اكثرها كذلك . الا اني وجدت بينها قطعتين كان يبان انهما صحيحتان قليلاً فاخذت اعالجها . وبعد تعب كثير وخياطة عكشة كما لا يخفى لعدم وجود الابر عندي عملت قطعة شنيعة ذات ثلاث زوايا تشبه ما نسميهِ في انكلترا بقلع الكتف ثم ركبتها على خشبة عمودية في اسفلها وخشبة عارضية في اعلاها حتى صارت بنظير قلوع قواربنا التي نسافر فيها ونظير قلع كوثري الذي هربت فيهِ من الجزائر كما علمت في اول قصتي فصرفت نحو شهرين في تجهيز قاربي وعمل القلع والساري وعمل دفة له لاجل تدويرهِ وتدبيرهِ . وقد كلفني ذلك اتعابًا كثيرة ووقتًا طويلاً بقدر عمل القارب نفسهِ تقريبًا

فلما فرغت من عمل ذلك جميعهِ اخذت اعلم خادمي جمعة صناعة السفر في قاربي لانهُ لم يكن يعرف شيئًا ما يتعلق بالقلع والدفة بل كان خبيرًا بامر التجذيف فقط . وتعجب جدًّا لما رآني احوّل القارب بسهولة وامشيهِ حيثما شئت بواسطة الدفة وكيف كان القلع يتلئ هواء بحسب تغير الطريق التي كنا نسير فيها . واخذته الدهشة والحيرة من ذلك . الا انهُ بواسطة الممارسة قليلاً انكشف له ما غمض من اسرار تلك الامور حتى صار بحريًا ماهرًا . واما الحك فاني لم استطع ان اعلمهُ الا قليلاً عن فوائدهِ وكيفية استعمالهِ . غير انهُ اذ كانت الغيوم نادرة الوجود في تلك الجهات والضباب معدومًا بالكلية كان لزوم الحك قليلاً لان النجوم كانت ترى دائمًا نهارًا والبابسة ليلاً الا في فصول المطر . وليس من يطلب حينئذٍ السفر من يتهِ برًّا ولا بحرًا

وكنت قد دخلت حينئذٍ في السنة السابعة والعشرين من سبيي في تلك الجزيرة الا ان الثلاث السنين الاخيرة التي كان فيها جمعة عندي يجب بالاولى حذفها من الحساب لان اقامتي كانت تختلف اختلافًا تامًّا عن باقي

المدّ بامرها . وقد عهدت عهدي السنوي هناك مؤدّيًا الشكر لله على مراحمهِ كما فعلت اولاً . واذ كانت لي اسباب حملتني على الاعتراف والشكر في البداية كان لي الآن اسباب تحملني على ذلك . اذ كان قد صار لي شهادات وادلة كثيرة زيادة عن الاولى تعلن لي عناية الله بي وآمال كبيرة في اني ساحصل بعد قليل على نجاة تامة لانهُ كان قد تصور راسخًا في ذهني ان نجاتي كانت قريبة حتى كنت احسبهُ ان لا ابقى سنة اخرى في تلك الجزيرة . غير اني كنت اداوم زراعتي واحرث واغرس واسيّج كجاري عادتي واجني واجفف واخزن عنبي واعمل كل ما يلزم عملهُ كالسابق

وكان قد اقبل عليَّ في تلك الاثناء فصل الشتاء فكنت اصرف داخل منزلي اوقاتًا اكثر من باقي الازمنة وكنا قد وضعنا قاثتنا في محل امان بقدر الامكان واصعدناهُ الى النهر الصغير حيث خرجت باطوافي اولاً كما سبق ذكرهُ وبعد ان حصلناهُ الى الشاطىء الى اعلى علامات الماء جعلت جمعة يحفر خليجًا بسعة وبعمق ماء كافيًا لان يرفعهُ عن الارض ثم لما انكفأ المدُّ بنينا سدًّا قويًّا في مدخلهِ يمنع دخول الماء اليهِ . وهكذا كان في امان من جهة مياه البحر عند ارتفاع المدّ . ولاجل منع مياه المطر عنهُ وضعنا فوقهُ اغصانًا كثيرة من الاشجار حتى كان كأنهُ داخل بيت مسقوف . وهكذا كنا ننتظر قدوم شهرَي تشرين الثاني وكانون الاول اللذين عزمت على السفر فيهما

فلما ابتدأ فصل الصحو بقبل اخذت اهبة السفر فاعددت اولاً كمية من الزاد للطريق وعزمت ان افتح السد بعد اسبوع او اسبوعين وانزل قاربي الى البحر . وفي ما كنت ذات يوم صباحًا مشتغلاً في التجهيز دعوت جمعة وقلت لهُ ان يذهب الى جانب البحر ويأتي بسلحفاة وكانت لنا عادة ان نأتي كل اسبوع بسلحفاة واحدة طمعًا في بيضها ولحمها . وبعد انصرافهِ عني بقليل رجع اليَّ راكضًا ووثب عن سوري الخارجي كأنهُ لم يكن يشعر بالارض

او الدرجات التي كان يدوسها . وقبلما حصلت لي فرصة لان اسأله ناداني قائلاً يا مأْلي يا مأْلي يا حسرتي يا ويلتي فقلت له ما بالك يا جمعة . فقال هونيك واحد تين تلاتي كارب واحد تين تلاتي كارب . ففهمت من كلامهِ هكذا انهُ يوجد ستة قوارب الاَّ اني لدى الفحص وجدت انهُ لم يكن الاَّ ثلاثة . فقلت له لا بأْس يا جمعة لا تخف وهكذا شجعتهُ بقدر استطاعتي . وكان المسكين قد اعتراهُ خوف شديد لانهُ لم يدخل شيء في بالهِ الاَّ انهم اتوا لاجل التنتيش عنهُ لكي يقطعوهُ اربًا ويأْكلوهُ . ويرتعد مرتجفًا حتى اني لم اعلم ماذا اعمل بهِ . فاخذت اعزيهِ بقدر الامكان وقلت له اني في خطر نظيرهُ فسوف يأْكلونني كما يأْكلونهُ . ثم قلت له ولكن يجب ان نحاربهم . فهل تقدر ان تحارب يا جمعة . فقال اني كوِّص واما هم يجوا كتار كتير . فقلت له لا بأْس من ذلك فان بواريدنا تخيفهم ولو لم تقتلهم . ثم سأَلتهُ هل اذا عزمت على المحاماة عنهُ يحميني ويقف بجانبي ويعمل كما اقول له . فقال اني بموتي ان كنني لي انتي موتي فذهبت واتيت بقليل من الروم وسقيتهُ اياهُ . لاني كنت اوفر ما كان عندي من ذلك حتى انهُ كان باقيًا عندي منهُ الى ذلك الوقت كمية وافرة . فلما شرب ذلك امرتهُ ان يأْخذ بارودتَي الصيد اللتين كنا لا ندعهما تفارقانا البتة ودككتهما بخردق كبير بقدر رصاص الطبنجات ثم تناولت اربع بواريد حربية ودككت كلاًّ منها برصاصتين كبيرتين وخمس رصاصات صغار . ثم دككت كلاًّ من طبنجتيَّ بزوج رصاص . ثم تقلَّدت سيفي على فخذي من دون غمد كجاري عادتي وناولت جمعة بلطتهُ وبعد ان تهيأْنا هكذا اخذت نظارتي وطلعت على التل لارى ماذا يوجد على الشاطىء ففي الحال رأَيت من نظارتي انهُ يوجد هناك واحد وعشرون بربريًّا وثلاثة اسرى وثلاثة قوارب . ووجدت ان مصلحتهم الوحيدة انما كانت عمل وليمة ظفرٍ من اجسام اولئك الثلاثة الاسرى . تبًّا لها من وليمة بربرية . ولكنهم لم يكونوا معتادين شيئًا اكثر من ذلك كما لاحظت تكرارًا . ورأَيت انهم قد خرجوا

الى الشاطى‌ء لا حيث كان جمعة قد هرب منهم قبلاً بل في مكان اقرب الى نهري حيث كان الشاطى‌ء منخفضاً كثيراً وكان حرش يمتدّ حتى يكاد يصل الى البحر . فان ذلك وكراهة العمل الذي كان اولئك الاشقياء قد اتوا لتتميمهِ ملآني غيظاً منهم حتى اني نزلت عن التل الى جمعة وقلت له مراديّ انزل اليهم واقتلهم عن آخرهم . وسالتهُ هل يساعدني على ذلك . وكان حينئذٍ قد خلص من خوفهِ وكانت حاسياتهُ قد انتبهت قليلاً بواسطة الروم الذي سقيتهُ اياهُ وكان فرحاً مبتهجاً فقال لي كما قال قبلاً انهُ يموت اذا امرتهُ ان يموت

وبينما كنت مستشيطاً غضباً اخذت الاسلحة وقسمت ما دككتهُ منها بيني وبين جمعة . فاعطيتهُ طبنجة لكي يضعها في منطقتهِ وثلاث بواريد لكي يحملها على كتفهِ . واخذت انا طبنجة والثلاث البواريد الباقية وهكذا اخذنا في السفر . ووضعت في جيبي قنينة صغيرة من الروم واعطيت جمعة كيساً كبيراً فيهِ بارود ورصاص . وقلت لجمعة ان يبقى دائماً ورائي ملاصقاً اياي وان لا يتحرك ولا يطلق بارودة ولا يعمل شيئاً ما لم اقل له . وكذلك امرتهُ ان لا ينطق بكلمة بل يبقى صامتاً . فقطعت في تلك الحالة مسافة ميل تقريباً الى يميني لكي اجتاز النهر وادخل الحرش واصير على مسافة مرمى رصاص منهم قبل ان يروني . وكنت قد اطلعت بواسطة نظارتي ان ذلك امر ممكن سهل

وبينما كنت آخذاً في طريقي وجمعة يسعى في اثري رجعت اليّ افكاري القديمة فاخذ عزمي بضعف . ولا اقول انهُ اعتراني ادنى خوف بسبب كثرة عددهم لانهم اذ كانوا عراة لا سلاح معهم كنت لا محالة اقوى منهم حتى ولو كنت وحدي . فقلت في نفسي من انتدبني الى ان اذهب والطخ يدي في الدم وافتك بقوم لم يتعرضوا لي ولا قصدوا ان يلحقوا بي اذى وماذا يحملني او يلجئني الى هذا العمل . انهم ابرياء بالنظر اليّ وعاداتهم البربرية انما هي هلاك لهم تدل على ان الله قد تركهم مع باقي الامم الموجودين في ذلك القسم من العالم في

تلك الحالة من الجهل والتوحش . الاَّ انهُ تعالى لم ينتدبني لاكون قاضياً على اعمالهم وديانتهم ولالاجري مقاصد عدلهِ فيهم . وانهُ تعالى متى شاء يجري احكامهُ عليهم بيدهِ و ينزل بهم ضربات عمومية تأديباً على ذنوبهم العمومية واما انا فلا يعنيني ذلك ولاهو مصلحتي . واما جمعة فربما كان لهُ حجة مقبولة في ذلك خلافاً لي لانهُ كان عدوًا ظاهراً لهم وفي حالة الحرب مع نفس اولئك القوم . فكان يجوز لهُ ان يفتك بهم . وكانت تلك الامور تشغل افكاري دائمًا وانا ماشٍ على الطريق وتضايقني جدًا حتى عزمت على ان اذهب فقط واقيم بالقرب منهم لكي ارى ولیمتهم البربرية ثم افعل عند ذلك كما يرشدني الله . ولكن اذا لم يحصل شيء يقنعني بان الله يدعوني لان اقع بهم لا اتعرض لهم البتة

فبذلك العزم دخلت الحرش وكنت انقدم بكل هدوء وصمت مختلساً خطواتي وجمعة يتبعني الى ان وصلت الى ذيل الحرش في الجانب الذي يليهم حتى انهُ لم يكن بيني وبينهم الاَّ قرنة منهُ وحينئذٍ دعوت جمعة بصوت مهموس خفي ودللتهُ على شجرة كبيرة كانت في تلك القرنة وقلت لهُ ان يطلع الى تلك الشجرة ويشرف عليهم من هناك ثم يرجع ويخبرني ماذا كانوا يعملون . فذهب ثم رجع حالاً اليَّ واخبرني بانهُ تمكن رؤيتهم من هناك واضحًا بكل سهولة وقال انهم جميعًا حول نارهم ياكلون لحم احد اسراهم . وان اسيرًا آخر كان مطروحًا على الرمل بعيدًا قليلاً عنهم مكتوفًا ثم اردف ذلك بقولهِ انهم سيذبحونهُ بعدان ينتهوا من اكل رفيقهِ فهجت عند ذلك جدًا واشتعلت غضبًا . ثم قال ان ذلك الاسير المكتوف ليس هو من عشيرتهم بل انما هو واحد من الرجال البيض الملتحين الذين كان اخبرني بانهم اتوا الى بلادهم في قارب فامتلأت حنقًا من مجرد ذكر الناس البيض الملتحين . ثم ذهبتُ الى الشجرة فرأيت واضحًا بواسطة نظارتي رجلاً ابيض مطروحًا على حافة البحر

ويداهُ ورجلاهُ مربوطة باغصان اشجار وكان اوربيًا وكانت فوقهُ ثياب .

وكان هناك شجرة اخرى وعبرها ايكة كانت اقرب اليهم من المكان الذي كنت فيهِ مسافة نحو خمس وسبعين ذراعًا حتى اني اذا طفت قليلاً يمكنني ان اصل اليها من دون ان يروني واكون حينئذٍ على مسافة نصف رمية رصاص عنهم . وهكذا ضبطت نفسي عن الفتك بهم مع اني كنت ساخطًا جدًا عليهم . ثم رجعت الى الوراء مسافة نحو عشرين خطوة حتى وصلت الى ما وراء بعض رياحين كانت تظللني الى ان وصلت الى تلك الشجرة ومن هناك وصلت الى مكان مرتفع قليلاً كنت اراهم منهُ جيدًا وكان يبعد عنهم نحو ثمانين خطوة فقط

شعرٌ

ان في الدنيا امورًا واتفاقات غرائبْ
فاذا فكرت فيها لاح لي منها عجائبْ

الفصل الخامس والعشرون

انقاذ روبنصن رجلاً اسبانيوليًا ووجدان جمعة اباهُ وقدوم مركب انكليزي

فلم تكن لي حينئذٍ دقيقة اضيعها لان تسعة عشر من اولئك الاشقياء الهائلين كانوا جلوسًا على الارض بجانب بعضهم بعض وكانوا قد ارسلوا الاثنين الباقيين منهم لكي يذبحوا المسيحي المسكين ويأتوا بهِ قطعة قطعة الى نارهم . فالتفت الى جمعة وقلت لهُ اعمل الآن كما اقول لك. فاجاب سمعًا وطاعة. فقلت لهُ اعمل كما تراني اعمل تمامًا واياك والمخالفة . ثم وضعت على الارض احدى البواريد الحربية وبارودة الصيد وهكذا فعل جمعة بما معهُ . ثم صلبت بارودتي الاخرى الحربية ووجهتها نحو البرابرة وامرتهُ ان يفعل كذلك. وسألتهُ هل هو مستعد لاطلاق البارودة فقال نعم فقلت لهُ اطلقها عليهم فاطلقها وكذلك فعلت انا في اللحظة ذاتها

وان جمعة ضبط جيدًا وسدد بارودتهُ احسن مني فاصاب خمسة قتل اثنين وجرح ثلاثة . واما انا فلم اصب الاَّ ثلاثة فقتلت واحدًا وجرح اثنان . فانذعر اولئك البرابرة ووقعوا في اضطراب عظيم وجميع من لم يصبهم الرصاص كانوا يطفرون ويقفزون على ارجلهم الأَ انهم لم يعرفوا حينئذٍ الى اين يجب ان يهربوا او الى اي جهة ينظرون لانهم لم يعرفوا من اين اتى هلاكهم.

وكان جمعة ناظرًا دائمًا نحوي لكي يلاحظ ماذا اعمل فيفعل مثلي كما امرتهُ . فحالما انتهيت من الطلق الاول وطرحت البارودة الحربية الى الارض وتناولت بارودة الصيد وهكذا فعل جمعة ثم صلبتها وحكمتها ففعل هو كذلك فقلت له هل انت مستعد يا جمعة فقال نَعْمْ فقلت له اطلق على اسم الله وتوفيقهِ وعندَ ذلك اطلق البارودة على اولئك الاشقياء المرتبكين وهكذا فعلت انا . واذ كانت بواريدنا مدكوكة برصاص صغير رأينا انهُ لم يسقط الاَّ اثنان . الاَّ ان كثيرين انجرحوا واخذوا يركضون مولولين وصارخين كمجانين . وكانوا جميعًا مضرجين ملطخين بالدم ومجروحين جراحات بليغة ولسبب الجراحات سقط ثلاثة منهم الى الارض بعد ذلك بقليل الاَّ انهم كانوا لم يموتوا بعد

فوضعت الاسلحة الفارغة على الارض وتناولت البارودة المدكوكة وقلت لجمعة تعال اتبعني فتبعني بشجاعة وعند ذلك سرت خارجًا من الغابة واشرفت عليهم مظهرًا لهم نفسي وكان جمعة ورائي وحالما علمت انهم راوني اخذت اصرخ باعلى صوتي وامرت جمعة ان يصرخ هو ايضًا ثم جعلت اركض بقدر استطاعتي ولكن لم يكن ركضي سريعًا جدًّا لاني كنت حاملاً كثيرًا من الاسلحة . وسرت باستقامة نحو ذلك المربوط المسكين الذي كان كما سبق منطرحًا على الشاطىء بين الموضع الذي كانوا فيهِ والبحر وكان الجزاران اللذان كانا هامين على ذبحهِ وتقطيعهِ قد تركاهُ عند ما اطلقنا الطلق الاول وهربا خائفين جدًّا الى حافة البحر ومن هناك وثبا الى احد القوارب وهكذا فعل ثلاثة غيرهما من زمرتهم . فالتفت الى جمعة وقلت له ارمهم بالرصاص . ففهم حالاً مرادي وركض نحو اربعين خطوة ليكون قريبًا منهم ورماهم بالرصاص . فظننت انهُ قتلهم جميعًا لاني رأيتهم جميعًا يسقطون كومة واحدة الى قعر القارب الاَّ اني رأيت بعد لحظة من الزمان اثنين منهم ينهضان غير انهُ قتل اثنين وجرح الثالث وكان منطرحًا في القارب كأنهُ ميت

وفي تلك الاثناء بينما كان جمعة مشتغلاً باولئك القوم اخرجت سكيني

من حزامي وعدت الى المربوط وقطعت رباطاتهِ . وبعد ان حللت يديهِ ورجليهِ اجلستهُ وسألتهُ بلسان البرتوغال قائلاً ماذا انت مما صاح فاجاب من حلاوة الروح باللاتيني انا خريستيانوس اي مسيحي . وكان ضعيفًا جدًّا حتى كان بالكد يقدر ان يقف او يتكلم . فاخرجت قنينتي من جيبي وناولتهُ اياها واشرت اليهِ ان يشرب فشرب جرعة ثم ناولتهُ كسرة خبز فاكلها ثم سألتهُ من اي بلاد هو فاجاب اسبانيولي واذ كان قد استفاق قليلاً افهمني بالاشارات بقدر الامكان انهُ ممنون لي جدًّا لاني انقذتهُ . فقلت لهُ على قدر معرفتي باللسان الاسبانيولي يا سنيور سوف نتكلم في ما بعد واما الآن فيجب علينا ان نحارب . فان كنت قادرًا فخذ الطبنجة والسيف وقف معي فاخذهما بالشكر وحالما صارا في يديهِ كأنهما جعلا فيهِ قوة جديدة فثار على اعدائهِ كالبطل وقطع اثنين منهم في لحظة من الزمان . واذ كنا قد دهمنا اولئك القوم المساكين بغتةً كانوا قد خافوا الى الغاية من اصوات البواريد حتى كانوا يسقطون الى الارض من مجرد الرعب والوهم ولم يكن لهم اقتدار على الهرب منا اكثر ما كان لاجسامهم من الاقتدار على احتمال رصاصنا . وهكذا كان حال الخمسة الذين اطلق جمعة الرصاص عليهم الى القارب لانهُ سقط ثلاثة منهم بسبب الجراح التي اصابتهم وسقط الاثنان الباقيان من الخوف

وابقيت بارودتي بيدي مدكوكة لاني قصدت ان ابقي دكتي الى حين الحاجة لاني كنت قد اعطيت الاسبانيولي طبنجتي وسيفي كما سبق . وعند ذلك دعوت جمعة وقلت لهُ اركض الى الشجرة التي اطلقنا منها الطلق الاول وهات الاسلحة الفارغة الباقية هناك فذهب ثم رجع بسرعة عظيمة . وعند ذلك اعطيتهُ بارودتي وجلست ادك البواريد الفارغة وقلت لجمعة والاسبانيولي ان يأتيا اليَّ عند الحاجة . وبينما كنت مشتغلاً في دك البواريد حصلت موقعة شديدة بين الاسبانيولي وواحد من البرابرة حمل عليهِ بسيف من سيوفهم الخشبية كاد يقتلهُ بهِ لو لم يخلصهُ الله من يدهِ . وان الاسبانيولي الذي كان شجاعًا وجسورًا

الى الغابة مع انهُ كان ضعيفًا بقي مدة يقاتل ذلك الهندي وكان قد جرحهُ جرحين بليغين في راسهِ . واذ كان الهندي قوي الجسم وشديد البأس ثار على الاسبانيولي واشتبك معهُ والقاهُ الى الارض وحاول اخذ سيفهِ من يدهِ . اما الاسبانيولي الذي كان تحتهُ فترك بحكمة السيف وسحب الطبنجة من حزامهِ ورماهُ بالرص فنفذ من جهة الى جهة فوقع حالاً الى الارض قتيلاً قبل ان وصلت اليهِ لاني كنت قد ركضت لكي اساعد الاسبانيولي لما رأيت الهندي كاد يتغلب عليهِ

واما جمعة فاذ كان حينئذٍ متروكًا لحريتهِ جدَّ في اثر الهاربين من البرابرة ولم يكن معهُ شيء من الاسلحة الاَّ بلطتهُ فقط . فانهى بها حياة اولئك الثلاثة الذين ذكرت انهم جرحوا اولاً وسقطوا وقتل آخرين غيرهم ممن ادركهُ من البقية واما الاسبانيولي فاتى اليَّ في طلب بارودة فاعطيتهُ بارودة من بواريد الصيد فاخذها وسار في طلب اثنين من البرابرة فجرحها كليهما . الاَّ انهُ اذ كان غير قادر على الركض هربا كلاهما من امامهِ الى الاحراش فتبعهما جمعة الى هناك وقتل واحدًا منهما واما الآخر فكان اخف منهُ . ومع انهُ كان قد جرح طرح في البحر وسبح بكل عزمهِ الى ذينك الاثنين اللذين كانا باقيين في القارب . وان الثلاثة الذين في القارب وكان واحد منهم مجروحًا ولم نكن نعلم هل مات ام لا كانوا كل من خلص من ايدينا من اولئك البرابرة الذين كانوا واحدًا وعشرين رجلاً كما علمت وهذا حساب الجميع . قتل ثلاثة في الطلق الاول من عند الشجرة واثنان في الطلق الثاني . واثنان قتلهما جمعة في القارب . واثنان قتلهما جمعة ايضًا من الذين جرحوا اولاً . وواحد قتلهُ جمعة في الحرش . وثلاثة قتلهم الاسبانيولي واربعة قتلوا وقد وجدناهم هنا وهناك مثخنين بالجراح او قتلهم جمعة بينما كان مطاردًا اياهم واربعة هربوا الى القارب وقد جرح واحد منهم وربما مات من الجرح . فالجملة واحد وعشرون

وان البرابرة الذين دخلوا القارب كانوا يقذفون بكل جهدهم لكي يبعدوا الى حيث لا يصل الرصاص ومع ان جمعة رماهم مرتين او ثلاثًا بالرصاص لم ارَ انهُ اصاب احدًا منهم وكان جمعة يرغب اني انزل في قارب من قواربهم واسعى في اثرهم . وكنت متزعجًا من هربهم خوفًا من انهم اذا وصلوا بالسلامة الى بلادهم يخبرون اهلهم بما كان فيرجعون بمائتين او ثلاثمائة قارب ويبتلعوننا بمجرد كثرتهم . ومن ثم عزمت على اتباع اثرهم بحرًا . فركضت الى احد قواربهم ووثبت اليهِ وامرت جمعة ان يتبعني. فلما دخلت القارب دهشت حين رأيت بربريًا مسكينًا منطرحًا هناك مربوط اليدين والرجلين كما كان الاسبانيولي لاجل الذبح وقد قارب الموت من الخوف اذ كان لا يعلم ماذا كانت تلك الاهوال الجارية حولهُ لانهُ لم يكن يستطيع ان يشرف عن حافة القارب لينظر لانهُ كان مربوطًا ربطًا محكمًا من رجليهِ الى عنقهِ وكان قد مضى على المسكين مدة طويلة في تلك الحالة المكربة حتى انهُ كان لم يبقَ فيهِ في الحقيقة الاَّ قليل من الحياة

فقطعت حالاً رباطاتهِ وقصدت ان اساعدهُ على الوقوف الاَّ انهُ لم يستطع ان يقف ولا يتكلم بل كان يئن انينًا محزنًا للغاية كانهُ كان يظن انهُ فك لكي يذبح . فلما تقدم اليهِ جمعة قلت كلمة وامنهُ . ثم أخرجت قنينتي وقلت لهُ ان يسقيهُ نقطة . وعند ما شرب تلك النقطة وأمن على حياتهِ تقوى وجلس في القارب وان جمعة لما سمعهُ يتكلم ورأى وجههُ اخذ يقبلهُ ويعانقهُ ويضمهُ الى صدرهِ ويبكي ويضحك ويصرخ ويطفر ويرقص ويغني ثم اخذ يبكي ايضًا ويلطم يديهِ ويضرب وجههُ وراسهُ ثم اخذ يغني ويطفر ايضًا وهكذا كانهُ قد جن وكان منظرهُ محزنًا مبكيًا ومضت مدة قبلما قدرت ان اجعلهُ يتكلم معي او يخبرني بما حملهُ على تلك الحركات . ولما استفاق قليلاً وسكن روعهُ قال لي ان ذلك الرجل المسكين هو ابوهُ .

وليس امرًا سهلاً عليَّ ان اصف كيف كانت حاسياتي عند ما رأيت

تأثيرات المحبة البنوية التي ظهرت في ذلك البربري المسكين عند ما نظر اباه ونظر نجاتهُ من الموت . ولا اقدر ان اصف نصف حركات حنوهِ بعد ذلك لانهُ كان يخرج من القارب . ويدخل اليهِ مرات كثيرة . وكان عند دخولهِ اليهِ يجلس بجانب ابيهِ يكشف صدرهُ ويسند راسهُ عليهِ ويصرف عدة دقائق على هذه الحالة ثم كان يمسك ذراعيهِ وساقيهِ التي كانت خدرة من القيود ويفركها بيديهِ . واذ رأيت انا حالتهُ اعطيتهُ قليلاً من الروم من قنينتي ليفركها بهِ فنفعهُ ذلك جدًّا

والاهتمام بوالد جمعة وقفنا عن مطاردة القارب الذي هرب فيهِ باقي البرابرة لانهُ كان قد كاد يغيب عن نظرنا . وكان من حسن حظنا اننا لم نلحقهم لانهُ هبت ريح شديدة بعد ذلك بساعتين ولم يكونوا قد قطعوا ربع طريقهم . وما زالت الليل كلهُ وذلك من الشمال الغربي ضدًّا لهم حتى اني ظننت ان قاربهم لا يمكن ان يسلم ولا يمكنهم ان يصلوا بالسلامة الى شطوط بلادهم

واما جمعة فكان مشتغلاً منهمكًا في ابيهِ حتى ان قلبي لم يكن يطاوعني الى مدة ان اخذهُ من عندهِ . ولكن لما لاح لي انهُ يمكنهُ ان يتركهُ قليلاً دعوتهُ اليَّ فاتى طافرًا ضاحكًا ومسرورًا الى الغاية فسالتهُ هل اطعم اباهُ خبزًا فهز براسهِ وقال هي يا مالي كلب موش طيب اكل كلو . اي لا يا معلمي كلبٌ ماهو طيب اكل الخبز كلهُ فاعطيتهُ رغيفًا من جراب صغير للزاد واعطيتهُ ايضًا كسرة لياكلها هو الاَّ انهُ لم يذقها بل اخذ الجميع الى ابيهِ . وكان معي في جيبي عنقودان او ثلاث عناقيد من الزبيب فاعطيتهُ حفنة من ذلك لابيهِ . وحالما اعطى اباهُ ذلك وثب خارجًا من القارب واخذ يركض بسرعة عجيبة كانهُ قد سحر وجن وكان اسرع رجل صادفتهُ في حياتي . وفي لحظة من الزمان غاب عن نظري . وكنت اصيح بهِ مناديًا اياهُ فلم يتوقف عن الركض . ثم بعد نحو ربع ساعة رايتهُ راجعًا . الاَّ انهُ كان يمشي باقل سرعة ولما صار قريبًا رايت خطواتهِ ابطأ . لانهُ

كان حاملاً شيئاً بيدهِ . فلما وصل اليَّ وجدت انهُ قد ذهب الى المنزل واتى بجرة ماء عذب لابيهِ وكان معهُ رغيفان او كعكتان من الخبز . فاما الخبز فانهُ اعطاني اياهُ . واما الماء فذهب بهِ الى ابيهِ واذ كنت عطشان شربت قليلاً من ذلك الماء وان الماء نفع اباهُ اكثر من كل الروم والارواح التي كنت قد سقيتهُ اياها لانهُ كان قد كاد يغمى عليهِ من شدَّة العطش

وبعد ان شرب ابوهُ قلت لهُ اسقِ الرجل الاسبانيولي المسكين لانهُ كان محتاجاً الى ذلك كابيهِ . وبعثت معهُ رغيفاً من ذينك الرغيفين . لانهُ كان ضعيفاً جدًّا وكان جالساً في مرجة خضراء في ظل شجرة يستريح . وكانت مفاصلهُ يابسة جدًّا ووارمة من خشونة الرباط الذي كان البرابرة قد ربطوهُ بهِ . ولما رأيت انهُ لما ذهب جمعة اليهِ نهض وشرب وتناول الخبز واخذ يأكل انطلقت انا اليهِ وناولتهُ حفنة زبيب . فرفع عينيهِ ونظر الى وجهي وكانت تلوح على وجههِ شعائر الشكر والممنونية ولم يكن يستطيع ان يقف على رجليهِ لشدة ضعفهِ . فانهُ احتفذ مرتين او ثلاثاً للقيام الا انهُ عجز عنهُ . لان اعقابهُ كانت وارمة وموجعة جدًّا فقلت لهُ اهدأ لا تتحرك وامرت جمعة ان يفرك اعقابهُ ويغسلها بالروم كما فعل بابيهِ

وكنت ارى جمعة كان يلتفت كل دقيقتين وهو عند الاسبانيولي نحو القارب ليرى اذا كان ابوهُ باقياً في نفس الموضع والحالة اللذين تركهُ فيهما وانهُ التفت مرة ولم يرهُ فثار من مكانهِ ومن دون ان ينطق بكلمة بادر راكضاً اليهِ بسرعة عظيمة حتى كنت لا تقدر ان ترى قدميهِ تمسان الارض عند ركضهِ . فلما وصل اليهِ وجد انهُ كان انكأ مضطجعاً ليريح جسمهُ . فاتى على اعقابهِ راجعاً حالاً اليَّ . وقد استدللت من ذلك على شدَّة محبتهِ وحنوهِ نحو ابيهِ ثم قلت للاسبانيولي ان يدع جمعة يقيمهُ ويذهب بهِ الى القارب ومن هناك يتوجه بهِ الى منزلي وهناك اهتم بهِ . واما جمعة فاذ كان قوي الجسم وصاحب نخوة عمد الى الاسبانيولي وحملهُ على ظهرهِ وذهب بهِ الى القارب

وانزلهُ بهدوٍ على حافة القارب واضعاً رجليهِ داخلهُ . ثم رفعهُ بيديهِ ووضعهُ بجانب ابيهِ . ثم خرج حالاً ودفع القارب واخذ يسير بهِ بسرعة عظيمة جارًّا اياهُ بجانب الشاطيء مع ان الريح كانت شديدة وهكذا اتى بهما جميعاً سالمين الى ذلك الجدول ثم تركهما في القارب وركض لكي يأتي بالقارب الآخر . وفيما كان مارًّا بي كلمتهُ وسألتهُ قائلاً الى اين انت ذاهب فاجاب روه زيب كارب بأد . يريد انهُ ذاهب ليأتي بالقارب الآخر وهكذا ذهب كهبوب الريح لانهُ ليس انسان ولا فرس يركض بسرعة نظيرهُ . وكان قد سبقني ووصل بالقارب الآخر عند ما وصلت انا الى النهر برًّا . فعبر بي النهر ثم توجه فاخرج ضيفينا الجديدين من القارب . ولكن لم يكونا قادرين ان يمشيا ولهذا كان جمعة المسكين مرتبكًا في امرهِ لا يعلم ماذا يعمل

فاخذت انبصر في ايجاد طريقٍ لنقلهما الى المنزل ثم دعوت جمعة وقلت لهُ ان يجلسهما على حافة النهر ويأتي اليَّ ففعل فصنعنا حالاً شبه محمل ووضعناهما عليهِ وحملناهُ بيننا بايدينا . ولكن لما وصلنا بهما الى خارج سوري او قلعتي وقعنا في صعوبة اردأ من السابقة لانهُ لم يمكنا ان نجتاز بهما عليهِ ولا كنت اريد ان اهدمهُ وافتح فيهِ ثغرة او منفذًا . وهكذا اخذنا نشتغل في عمل خيمة لهما وبعد نحو ساعتين من الزمان عملنا خيمة لطيفة غطيناها بقلوع عتيقة ووضعنا فوق القلوع اغصانًا خضراء من الشجر . وكان موقع تلك الخيمة في الفسحة التي خارج السور الخارجي وبينهُ وبين الغابة التي غرستها كما علمت قبلاً . وعملنا لهما في الخيمة سريرين من مواد كانت عندي اي من قش الارز ووضعنا فوق كل سرير لحافين الواحد نظير فراش والآخر نظير غطاء

فصارت جزيرتي حينئذٍ معمورة بالسكان وصرت احسب نفسي غنيًّا بالرعايا وكنت افرح مبتهجًا عند ما اتأمل كيف كنت كأني ملك كبير . فكانت كل البلاد ملكي الخاص وكنت اتسلط عليها من دون معارضة ولا منازعة

وكانت رعاياي خاضعة طائعة لي تماماً . فاني كنت ملكاً ومشترعاً . فان حياتهم جميعاً كانت من عندي ولهذا كانوا مستعدين لان يبذلوها اذا لزم الامر لاجلي . ومما يحق له الاعتبار انه لم يكن في مملكتي الواسعة الا ثلاثة من التبعة وكان اولئك من مذاهب مختلفة فان خادمي جمعة كان بروتستانتياً . وكان ابوهُ وثنياً آكل الناس وكان الاسبانيولي بابوياً . الا اني ناديت بحرية الضمير في كامل سلطنتي وابرزت فرماناً عالي الشأن اعلنت فيه انه لا اكراه في الدين وقد ذكرت ذلك هنا نظير حاشية فلا مؤاخذة بقطع الحديث

ثم بعد ان وضعت ذينك العتيقين الضعيفين في محل امان واويتهما واعطيتهما محلاً يرتاحان فيهِ واخذت اهتمّ في تدبير ما اقوتهما بهِ واول كل شيء امرت جمعة ان يأتي بجدي ابن سنة من المعزى من قطيعي الخاص لكي نذبحه لهما . وبعد ان قطعت عجزه وما يليهِ وجعلت ذلك قطعاً صغيرة اعطيتها لجمعة ليطبخها فوضعها في مرجل ووضع معها قليلاً من الشعير والارز فكانت طبخة فاخرة لذيذة من لحم ومرقة . وقد طبخنا ذلك خارجاً لاني لم اكن اشعل ناراً داخل سوري الداخلي ثم حملت المرجل بما فيهِ الى داخل الخيمة الجديدة . ثم وضعت مائدة هناك وجلست حولها واكلت مع ذينك الضيفين وكنت اسليهما واطربهما بقدر الامكان . وكان جمعة الترجمان بيننا وعلى الخصوص بيني وبين ابيهِ نعم وبين الاسبانيولي ايضاً لان الاسبانيولي كان يحسن التكلم بلغة البرابرة

ثم بعد ان تغذينا او بالحري تعشينا امرت جمعة ان يذهب في احد القاربين ويأتي بالبواريد وباقي الاسلحة لاننا لعدم الوقت كنا قد تركناها في محل القتال ثم امرتهُ في الغد ان يذهب ويدفن جثث القتلى من البرابرة التي كانت لم تزل منطرحة على الارض لئلاَّ تنتن وتفسد هواء الجزيرة اذا بقيت في الشمس وامرتهُ ايضاً ان يدفن بقايا وليمتهم الفظيعة . وكنت اعلم انها كانت

كثيرة ولم اكن اطيق ان ادفنها انا بيدي لاني لم اكن اطيق ان انظر اليها اذا اتفق اني امرّ بجانبها فنفعل كل ما امرتهُ بهِ بكل نشاط وسرعة ومحا كل اثر يدل على انهُ كان هناك برابرة حتى اني لما ذهبت في ما بعد الى تلك الجهة لم اعلم اين كانت الموقعة ولا محل الوليمة الا من قرنة الحرش التي كانت مقابل الموضع

ثم اخذت احدّث قليلاً عبيديَّ الجديدين . فطلبت من جمعة ان يسأل اباهُ عن رأيهِ من جهة البرابرة الذين هربوا في القارب هل يمكن ان يرجعوا الى الجزيرة بجيش عظيم اقوى منا . فكان رأيهُ الاول ان البرابرة الذين هربوا في القارب لا يمكن ان يخلصوا من النوء الذي حدث في الليلة التي سافر فيها بل لا بد من ان يغرقوا في البحر او يدفعوا جنوبًا الى الشطوط الاخرى التي لا بدّ ان اهاليها يبتلعونهم فيها اذا خرجوا اليها الا انهُ لا يعلم ما يعملونهُ اذا وصلوا الى بلادهم بالسلامة . غير انهُ يظن انهم اذا كانوا قد خافوا جدًا الهجمة التي حصلت عليهم ومن الجلبة والنار سيخبرون الناس هناك ان رفاقهم قد قتلوا جميعًا بواسطة الرعد والبرق لا بيد انسان وان الاثنين اللذين ظهرا لهم (يريد جمعة واياي) هما روحان سماويان او الهان نقمة قد نزلا لاهلاكهم لا رجلان مسلحان . واردف ذلك بقولهِ انهُ يعرف ذلك جيدًا . لانهُ سمعهم يصرخون هكذا بلغتهم الواحد نحو الآخر . لانهُ لم يمكنهم ان يتصوروا ان الانسان يقدر ان يخرج من جسمهِ نارًا ويتكلم رعدًا ويقتل عن بعد من دون ان يرفع يديهِ كما حصل في تلك الواقعة . وقد اصاب ذلك الشيخ البربري في ما قال لانهُ بلغني في ما بعد من جهة اخرى ان البرابرة لم يترددوا البتة بعد تلك الحادثة الى الجزيرة لانهم ارتاعوا جدًّا من الاخبار التي حدّثهم بها اولئك الاربعة الرجال الذين هربوا في القارب وبيان انهم وصلوا بالسلامة الى بلادهم حتى انهم كانوا يعتقدون بان كل من يذهب الى تلك الجزيرة المسحورة يهلك لا محالة بواسطة نار الالهة . واذ كانت هذه القضايا غير معروفة

مني في ذلك الوقت بقيت مدة مستطيلة في حالة الاحتساب من دون انقطاع ولذلك كنت دائمًا مع كل جنودي على حذر . لاننا اذ كنا قد صرنا حينئذٍ اربعة كان يمكننا في كل وقت ان نقاتل مئة من البرابرة في ساحة الحرب ونستظهر عليهم

واذ مضت مدة ولم يظهر شيء من قواربهم فارقني الخوف من مجيئهم واخذت استأنف افكاري السابقة عن السفر الى القارة وعلى الخصوص عند ما أكد لي ابو جمعة اني اذا توجهت الى هناك ساصادف حسن المعاملة من عشيرته بسببه . الآن افكاري كانت معلقة مترددة قليلاً عند ما اختليت بالرجل الاسبانيولي وخاطبته مخاطبة جدّية بشأن ذلك وفهمت منه انه يوجد هناك ستة عشر رجلاً من اهالي بلاده واهالي البرتوغال الذين دفعوا الى تلك الجهة وكانوا ساكنين هناك بالسلامة مع البرابرة وانهم اضطروا الى ذلك بسبب العازة وطلبًا للحياة وسالته عن قصة سفرهم بالتفصيل فوجدت انهم كانوا في مركب اسبانيولي قادم من ديودي لبلاتا الى هاوانا وكانت اوامرهم ان يفرغوا وسقهم هناك وكان اكثرهُ جلودًا وفضة وان يوسقوا عند رجوعهم ما وجدوهُ في تلك الجزيرة من البضائع الافرنجية . وانهُ كان معهم خمسة بحرية من اهالي البرتوغال كانوا قد خلصوهم عند ما انكسر مركبهم وان خمسة من رجالهم غرقوا عند ما ضيع المركب اولاً وان هولاء خلصوا بعد مقاساة اتعاب شاقة واخطار لا تحصى ووصلوا في حالة يرثى لها من المذلة والجوع الى شطوط البرابرة حيث كانوا منتظرين ان يبتلعوا في كل دقيقة . ثم اخبرني انه كان معهم بعض اسلحة الاَّ انها كانت عديمة الفائدة بالكلية لانهُ لم يكن معهم بارود ولارصاص . لان امواج البحر كانت قد عطلت كل بارودهم الاَّ قليلاً منهُ كانوا قد استعملوهُ عند خروجهم الى البرّ في صيد ما يقتاتون بهِ

ثم سالتهُ ماذا يظن ان يصيبهم هناك وهل هم مهتمون في ايجاد طريقة

لنجاتهم . فاجاب انهم تكلموا كثيرًا بشأن ذلك ولكنهم اذ كان لا مركب لهم ولا ادوات لبناء مركب ولا زاد ولا ذخيرة كانت تدابيرهم تنتهي دائمًا بالدموع واليأس . ثم سألته ماذا يظن هل يقبلون رأيي اذا بينت لهم طريقة لنجاتهم وهل يتيسر ذلك اذا كانوا جميعًا في جزيرتي . ثم قلت له بحرية اني اخاف من انهم يخونونني و يغدرون بي اذا سلمت نفسي لهم . وذلك لان معرفة الجميل ليست فضيلة غريزية في طبيعة الانسان وليس من عادة الناس ان ينظروا دائمًا في اعمالهم الى ما نالوهُ من المعروف بقدر ما ينظرون الى الفوائد التي يمكنهم ان يحصلوا عليها . وانهُ يصعب عليَّ جدًّا ان اكون واسطة لنجاتهم ثم اكون في ما بعد اسيرًا لهم في اسبانيا الجديدة حيث يكون الانكليزي دائمًا ضحية مهما كانت الضرورة والصدفة التي اتت بهِ هناك وانهُ احب اليَّ ان اسلم نفسي للبرابرة وادعهم يبتلعوني حيًّا من ان اقع في مخالب الخوارنة العديمي الرحمة وارسل الى محل التفتيش . ولولا ذلك كان هذا الراي من احسن الاراء لانهم اذا كانوا هنا جميعًا يمكننا نحن واياهم ان نبني سفينة تكفي لان تحملنا جميعًا الى البرازيل جنوبًا او الى الجزائر او سواحل اسبانيا شمالاً . ولكن اذا كانوا عند ما اضع الحجة في ايديهم يأخذونني جبرًا الى ما بين شعبهم ربما يسيئون معاملتي هناك جزاء لمعروفي نحوهم ويجعلون حالتي اردأ مما في الآن

فاجاب بكل خلوص ونصاحة ان حالتهم تعيسة بهذا المقدار حتى انهُ يعتقد بانهم يكرهون ان يتنكروا ايضًا بالاساءة الى شخص قد صار واسطة لنجاتهم وانهُ اذا حسن عندي يذهب هو والرجل البربري الشيخ ويكلمهم بشأن ذلك ثم يرجع اليَّ بالجواب . وانهُ يعقد معهم شروطًا وعهودًا ويحلفهم انهم يكونون تحت سلطتي المطلقة كمدبر ورئيس لهم ويجعلهم يحلفون بالقربان المقدس والانجيل ان يكونوا امناء لي يذهبون الى اي بلاد مسيحية اردتها لا الى غيرها ويطيعون في كل شيء امري ونهيي الى ان يصلوا الى البلاد التي اريد ان اذهب بهم اليها وانهُ يأتي بصك منهم بخطهم بهذا المعنى . ثم قال لي انهُ

هو نفسهُ يحلف لي بان لا يفارقني ما دام حيًّا الى ان آمرهُ بذلك . وان يدافع دائمًا عني الى آخر نقطة من دمهِ اذا حصل ادنى نقض للعهد من طرف ابناء بلادهِ . ثم اردف ذلك بقولهِ انهم قوم ظرفاء امناء لا سلاح معهم ولا ثياب ولا طعام وهم تحت رحمة البرابرة وسلطتهم المطلقة وليس لهم ادنى امل في الرجوع الى بلادهم وانهُ لا يشك في اني اذا سعيت بخلاصهم يحبُّون ويموتون في خدمتي

وعند ذلك عزمت على الاهتمام بانقاذهم اذا امكن وارسال البربري الشيخ وهذا الاسبانيولي اليهم لاجل عمل ما يلزم عملهُ للحصول على هذا المطلوب . ولكن بعد ان جهزنا كل ما يلزم تجهيزهُ لسفرها قدم الاسبانيولي رايًا ناتجًا عن فطانة وخلوص نية فوجدت انهُ من الحزم والصواب اتباعهُ وتأخير امر انقاذ ابناء بلادهِ مدة نصف سنة على الاقل . فان الامر كان كما يأتي . فانهُ كان قد مضى عليهِ عندنا نحو شهر وكنت قد اريتهُ كيف كنت بمعونة الله ادبر لوازم معيشتي . ورأى كم كان عندي من المونة من الشعير والرز . ومع ان ذلك اكثر من احتياجي لم يكن كافيًا اذا كان ابناء وطنهِ وكان عددهم ستة عشر كما ذكر يأتون الينا . وعلا ذلك لا يكفي لتجهيز مركبنا اذا بنينا مركبًا وقصدنا السفر فيهِ الى احد البلدان المسيحية في اميركا . وبناء على ذلك قال لي الاحسن اني ادعهُ والرجلين الآخرين يحرثون ارضًا تكفي لزرع ما يمكنني الاستغناء عنهُ من الحبوب وان نصبر الى ان نحصد الغلة الجديدة لكي يكون عندنا مونة تكفينا وتكفي ابناء وطنهِ متى جاءوا . وذلك لان العازة ربما اقتادتهم الى الخصام ونكران الجميل ونقض العهد او حملتهم على الفكر بانهم قد خلصوا من مصيبة ووقعوا في اخرى ربما كانت في اعتبارهم اعظم منها او كما يقال انتقلوا من تحت الدلف الى تحت المزراب . ثم قال انت تعلم ان بني اسرائيل مع انهم فرحوا اولاً بخلاصهم من مصر عصوا في ما بعد متمردين على الله نفسهِ الذي خلصهم عند ما احتاجوا الى الخبز في البرية

وكانت نصيحته صالحة وصوته حسنًا بهذا المقدار حتى انه لم يكن الاّ ان اسرّ مرتضيًا برأيه كما كنت مسرورًا بامانته . وهكذا اخذنا نحن الاربعة جميعًا في العمل بقدر ما تسمح لنا الآلات وبعد مضي شهر من الزمان اتى وقت الزرع فزرعنا اثنين وعشرين مدًّا من الشعير وست عشر جرة من الرز في ارض كنا قد فلحناها في تلك الاثناء . وكان ذلك كل ما امكننا الاستغناء عنه من الحبوب للبذار حتى انه لم يبقَ عندنا شعير يكفينا للاكل مدة ستة اشهر اي من حين افرزنا الحبوب للبذار الى ان تطلع الغلة الجديدة لا من حين الزرع الى حين الحصاد لان المدة بين الزرع والحصاد تكون اقل من ستة اشهر في تلك البلاد الحارّة

واذ صار عندي حينئذٍ رفاق وندماء وكان عددنا كافيًا لان يزيل من قلوبنا الخوف من البرابرة اذا اتوا الى الجزيرة ما لم يكونوا جمهورًا غفيرًا كنا اذا اردنا نجول في الجزيرة حيثما شئنا بكل راحة بال . واذ كان امر هربنا او نجاتنا متصورًا دائمًا في بالنا كنا لا نغفل عن الوسائط المبلغة الى ذلك وعلى الخصوص العبد الفقير . ومن ثم علّمت بعض اشجار ما حسبته يصلح لعملنا وجعلت جمعة واباهُ يشتغلان في قطعها ثم اقمت الاسبانيولي الذي كنت قد كاشفته بما في نفسي ناظرًا عليهما لكي يلاحظ العمل . وقد اريتهم كم قاسيت من التعب في نشر شجرة كبيرة الى الواح وقلت لهم ان يفعلوا كذلك فنشروا اثني عشر لوحًا كبيرًا من شجرة بلوط جيدة كان عرض اللوح منها قدمين وطوله خمسًا وثلاثين قدمًا وسمكهُ من قيراطين الى اربعة قراريط . ولا يخفى كم كلفتهم من التعب والعرق

وقد اجتهدت ايضًا في تكثير المعزى الاهلية عندي . فكنت تارةً اذهب انا وجمعة وتارةً يذهب جمعة والاسبانيولي الى الاحراش لاجل صيد المعزى . وبهذه الواسطة التقطنا نحو عشرين جديًا برية لكي نربيها مع البقية . لاننا كنا كلما قتلنا عنزة نمسك ما لها من الجداء ونضمه مع القطيع . واذ كانت ايام

العنب علقنا كمية وافرة من العناقيد في الشمس فصار عندنا احمال كثيرة من الزبيب . وكنا نعتمد في امر الأكل على الزبيب والخبز . وكان ذلك قوتًا لذيذًا ومغذيًا جدًا كما لا يخفى

ثم اخذنا في الحصاد وكانت غلالنا جيدة . ومع انها لم تكن في كثرتها احسن ذلة طلعت في الجزيرة كانت كافية لمطلوبنا . لاننا استغللنا من العشرين مدًّا من الشعير اكثر من مائتين وعشرين مدًّا وعلى هذه النسبة من الرز . وكان ذلك مونة تكفينا وتكفي ايضًا الستة عشر اسبانوليًا الى الحصاد القادم وكانت ذخيرة كافية لنا في السفر الى اية جهة اردناها من العالم الجديد اي من بلاد امركا . وبعد ان حصلنا غلتنا واحرزناها اخذنا نعمل سلالًا كبيرة نضعها فيها . وكان الاسبانيولي ماهرًا وخفيف اليد في عمل السلال . وقد لامني على اني لم اعمل من تلك المواد بعض اشياء للوقاية الا اني لم اشعر بالاحتياج الى ذلك

واذ قد صار عندي حينئذٍ مونة كافية لجميع الضيوف الذين كنت انتظرهم اذنت للاسبانيولي ان يسافر الى القارة ليرى ماذا يقدر ان يعمله مع الذين تركهم هناك . واوصيته بكل تشديد ان لا يأتي الا بالذين يحلفون اولًا امامه وامام البربري الشيخ بانهم لا يضرون بوجه من الوجوه ولا يتكون ولا يغدرون بالرجل الذي يجدونه في الجزيرة الذي قد تحرك من باب المروءة والشفقة لارسال من ارسله لاجل انقاذهم من كل عدو يريد اذاهم وبانهم حيثما توجهوا يكونون خاضعين تمامًا لامره وان تكون تلك العهود كتابة يمضونها بيدهم . واما كيفية تتميمهم لهذا الشرط الاخير مع انه لم يكن عندهم اقلام ولا حبر فهذه لم تخطر لنا ببال فبهذه الاوامر والتعليمات سافر الاسبانيولي والشيخ البربري ابو جمعة في القارب الذي اتيا او بالحري أتي بهما فيه عند مجيئهما اسيرين بيد البرابرة الذين كانوا عازمين على اكلهما . واعطيت كل منهما

بارودة ونحو ثماني دكات من البارود والرصاص واوصيتهما ان يعتنيا بها جدًا ولا يستعملاها الا عند الضرورة القصوى

وكنت امرًا مبتهجًا بذلك العمل لانهُ كان اول واسطة اتخذتها لنجاتي في مدة نحو سبع وعشرين سنة وبعض ايام . واعطيتهما زادًا من الخبز والزبيب يكفيهما اياما كثيرة ويكفي كل الاسبانيوليين معهما ثمانية ايام . وبعد ان دعوت لهما بالتوفيق وشيعتهما اخذا في طريقهما قاصدين القارة . وقد اتفقت معهما على علامة يعلقانها عند رجوعهما لكي يمكنني ان اعرفهما عن بعد قبل وصولهما الى البر . وعند سفرهما كان الهواء جيدًا والقمر بدرًا . وكان ذلك في شهر تشرين الاول من حسابي ولم يكن يمكنني التدقيق التام في حساب الايام بعد ان اضعت ذلك . وكذلك لم احافظ جيدًا على حساب السنين بحيث يمكنني ان احكم حكمًا قاطعًا باني مصيب فيهِ . الا اني عند ما فحصت حسابي في ما بعد وجدت ان حساب السنين كان صحيحًا صادقًا

ثم بعد سفرهما بثمانية ايام بينما كنت انتظر رجوعهما حدث امر غريب ربما لم يسمع نظيرهُ في التاريخ . فاني بينما كنت ذات يوم صباحًا في صومعتي مستغرقًا في النوم اذا بخادمي جمعة قد اتى داخلًا اليَّ ركضًا وصرخ باعلى صوتهِ قائلًا يا مألي يا مألي ازول ازول . فهببت ثائرًا من سريري ولبست ثيابي بكل سرعة وخرجت على الفور من دون بارودتي بخلاف عادتي وبعد ان عبرت غابتي التي كانت حينئذٍ قد صارت حرشًا ظليلًا كبيرًا التفت نحو البحر واذا بمركب على مسافة نحو فرسخ ونصف مقبلًا نحو الشاطىء بقلع جانبي وكانت ريح قوية تدفعهُ برفق وسرعة نحو الجزيرة فدهشت مندهلًا . وقد لاحظت انهُ لم يكن قادمًا من جهة تلك الشطوط بل من الجهة الجنوبية من الجزيرة . وعند ذلك دعوت جمعة الى داخل وامرتهُ ان يقف بجانبي لان اولئك لم يكونوا القوم الذين كنا ننتظرهم ولم يكن يمكننا ان نعلم هل هم اصدقاءُ او اعداءُ . ثم ذهبت لكي آتي بنظارتي لعلي اعرف من كانوا .

فاخرجت السلم وطلعت على التل حسب عادتي عند الاضطراب من خوف لكي استطيع ان اراهُ باكثر وضوح وذلك من دون ان يراني احد . وحالما وضعت قدمي على راس التل رأيت من دون نظارة مركبًا قد القى مرساتهُ على مسافة نحو فرسخين ونصف مني الى جهة الجنوب الشرقي الا انهُ لم يكن بعيدًا عن الشاطىء اكثر من فرسخ ونصف . وظهر لي واضحًا لدى تحقيق النظر فيهِ انهُ مركب انكليزي وان قاربهُ كان قاربًا انكليزيًا طويلاً

ولا اقدر ان اصف الاضطراب الذي اعتراني والفرح الذي خامر قلبي عند ما نظرت مركبًا ولا سيما ذلك المركب الذي كان لي وجه للظن بان بحريتهُ هم من اهالي بلادي وبالتالي اصدقاه . الا انهُ كان عندي بعض شكوك سرية واذ لم اكن اعلم من اين اتوا كنت على حذرٍ منهم . وقلت في نفسي ما هي مصلحة مركب انكليزي في ذلك القسم من العالم لانهُ ليس طريقًا الى احد اقسام العالم التي للانكليز تجارة فيها . وانا اعلم انهُ لم يحصل انواء لدفعهم الى هناك رغمًا وانهم اذا كانوا انكليزًا في الحقيقة يجب ان يكون قدومهم الى هنا ناتجًا عن نية غير صالحة او لاجل غاية غير جيدة وانهُ الاصلح لي ان ابقى على حالي ولا اقع في ايدي لصوص وقتلة

ولم يمضِ عليَّ في تلك الحالة الا برهة قليلة حتى رأيت المركب يقرب متقدمًا نحو الشاطىء كانهم كانوا يفتشون على خليج يدخلون بالمركب اليهِ لكي يخرجوا منهُ الى البرّ بسهولة . ولكن اذ لم يقربوا كثيرًا الى البرّ لم يروا الخليج الصغير الذي خرجت منهُ قبلاً باطوافي بل دخلوا الى ذروة تبعد عني نحو نصف ميل . فسرني ذلك جدًّا . لانهم لو ارسلوا في الجهة الاخرى لكانوا خرجوا الى البرّ عند باب بيتي تقريبًا وكانوا طردوني حالاً من قلعتي وربما كانوا سلبوا كل ما عندي . فلما خرجوا الى البرّ تأكد انهم جميعًا او اقلهُ اكثرهم انكليز . وظننت ان واحدًا او اثنين منهم كانا فلمنكيين الا اني

وجدت في ما بعد ان ظني كان في غير محلهِ وكانوا جميعًا احد عشر رجلاً وكان ثلاثة منهم من دون سلاح وكأنهم كانوا مقيدين . فلما وثب اربعة او خمسة منهم اولاً الى البرّ اخرجوا اولئك الثلاثة من القارب كأسرى وكان واحد من الثلاثة يتراءى كأنه يتضرع بكل مذلة وانكسار قلب ويأس واما الاثنان الآخران فكانا يرفعان ايديهما احيانًا مضطربين جدًا ولكن لا نظير الاوّل فانذهلت مندهشًا من ذلك المنظر ولم اعلم ما هو معناهُ . فدعاني جمعة بالانكليزي باعلى صوتهِ قائلاً يا مألي انظر ناسات الانكليز ياكلوا الاسرى مثل الناسات البرابرة . فقلت له ماذا تعني يا جمعة انظن انهم ياكلونهم. فقال نَم ياكلهم فقلت يا جمعة اني اخشى من انهم يقتلونهم ولكن لا نظن انهم ياكلونهم

وكنت في تلك الاثناء لا افتكر بما كان بل اقف مرتعدًا من فظاعة المنظر ومنتظرًا كل دقيقة ان اراهم يقتلون اولئك الاسرى . وقد رأيت مرةً واحدًا من اولئك الاشقياء يرفع يدهُ ليضرب بخنجر كان معهُ احد الاسرى المساكين . وكنت انتظر كل لحظة وقوعهُ الى الارض . وعند ذلك جمد في عروقي كل ما في جسدي من الدم . وكم كنت اشتهي ان يكون عندي ذلك الاسبانيولي والبربري الشيخ او ان تكون لي طريقة لكي اتقدم نحوهم الى ان اصير على مسافة رمية رصاص منهم من دون ان يروني وذلك لاخلص الاسرى من ايديهم لاني لم ارَ معهم اسلحة نار الاّ انهُ لاح لي امر آخر . فاني بعد ان رأيت القساوة البربرية التي عامل بها البحرية الثلاثة الرجال المساكين رأيت اولئك الاشقياء يركضون متفرقين في الجزيرة كأنهم يريدون ان يتفرجوا عليها . ولاحظت ايضًا انهُ كان للثلاثة الاسرى حرية في الذهاب حيثما شاءوا الاّ انهم كانوا جميعًا جلوسًا على الارض غائصين في بحار التفكر وخاملي البال كأنهم قد يئسوا من الحياة . فذكرتني حالتهم بالحالة التي كنت فيها عند ما خرجت اولاً الى البرّ . واخذت انظر الى ما حولي واتذكر كيف كنت

اشعر باني هالك لا محالة وكيف كنت مستوحشاً مرعباً من المخاوف والاحتسابات المائلة وكيف بت ذلك الليل كلهُ في شجرة خائفاً من ان تبتلعني وحوش برية . وكما اني لم اكن اعلم تلك الليلة شيئاً من امر القوت الذي كانت العناية الالهية مزمعة ان تيسرهُ لي بواسطة دفع الانواء والمد المركب الى القرب من البرّ والذي لا ازال الى الآن اقتات بهِ واستند عليهِ كذلك اولئك الثلاثة الرجال المساكين المنكودو الحظ لم يكونوا يعرفون ان نجاتهم وعيالتهم كانتا موَكدتين بهذا المقدار ولا كم كانتا قريبتين اليهما ولا كم كانوا في امان تام وطيد عند ما كانوا يحسبون انفسهم هالكين لا محالة ولا باب لهم للامل في النجاة . فما اقل الاشياء التي نراها امامنا في العالم وما اكثر الاسباب التي تحملنا على الاتكال على خالق العالم العظيم والثقة بانهُ لا يهمل خلائقهُ في حالة الحاجة القصوى بل انما يكون لهم دائماً في اردإِ الاحوال ما يشكرونهُ تعالى لاجلهِ وتكون نجاتهم احياناً اقرب مما يتصورون حتى انهم قد يحصلون مراراً على النجاة بالوسائط التي كان يبان لهم انها ستكون سبب هلاكهم

الفصل السادس والعشرون

اظهار روبنصن كروزي نفسهُ للرئيس الانكليزي ومساعدتهُ اياهُ على بحريتهِ العصاة

فلما خرج اولئك القوم الى البرّ كان المدّ في اعلى درجاتهِ . وبينما كانوا يطوفون في الجزيرة يتفرجون عليها جزر البحر ورجع مسافة الى الوراء تاركاً قاربهم على الارض اليابسة . وكانوا قد تركوا في القارب رجلين كانا كما وجدت في ما بعد قد شربا كثيراً من العرق وناما مستغرقين . الّا ان واحداً منهما انتبه قبل رفيقهِ ولما وجد القارب قد قعد على الارض بحيث لم تكن لهُ استطاعة على تحريكهِ اخذ يصيح باصحابهِ الذين كانوا متشتتين في الجزيرة فلما سمعوا صوتهُ اتوا جميعاً راجعين بسرعة الى القارب . الّا ان تنزيلهُ الى الماء كان قد صار فوق طاقتهم لانهُ كان ثقيلاً جدًّا وكان الشاطئ في تلك الجهة رملاً رخواً موحلاً مائعاً . فتركوهُ في تلك الحالة كما هي عادة البحرية الذين هم اقل اهتماماً بالمستقبل من سائر بني البشر ورجعوا الى ما كانوا عليهِ من الجولان والتيه في الجزيرة . وقد سمعت واحداً منهم يقول لآخر بصوت عالٍ . هلمَّ بنا جاك دعهُ لشأنهِ اما تعلم انهُ سيعوم متى اقبل المدّ ثانية . وعند ما سمعت كلمة جاك تحققت ان اولئك انكليز لان هذه اللفظة كثيرة الجري على السنتهم وهي علم جنسيّ عندهم لكل بحري ورفيق ومعناها يعقوب وقد لبثت مختبئًا كل تلك المدة في مكاني لا اتجاسر ان اخرج من قلعتي الى مكان ابعد من مكان

المراقبة بالقرب من راس التل . وكنت افرح مبتهجًا عند الافتكار بكونو كان حصنًا متينًا بهذا المقدار . وكنت اعلم ان القارب لا يمكن أن يعوم على الماء الأ بعد مضي عشر ساعات من ذلك الوقت حين يكون الظلام قد خيم وتكون لي حرية اكثر لان انظر الى حركاتهم واسمع حديثهم اذا كان لهم حديث . وقد هيأت نفسي في تلك الاثناء للقتال كما فعلت قبلاً ولكن باكثر حذر لعلمي بان اولئك الاعداء هم اشدُّ واخبر من الاعداء الآخرين . وامرت جمعة الذي كنت قد علمتهُ جيدًا استعمال الاسلحة ان يتسلح بالعدة الكاملة . فاخذت بارودتين واعطيتهُ ثلاثًا . وكانت هيئتي مخيفة جدًا فاني كنت متوشحًا بردائي القوي من جلود المعزى ولابسًا على رأسي قبعي الكبير الذي تقدم وصفهُ ومتقلدًا على جنبي بسيف مجرَّد وشاكًا طبنجتين في حزامي وحاملاً بارودة على كل كتف من كتفي

وكان قصدي كما ذكرت آنفًا ان لا اعمل شيئًا الأ بعد ان يخيم الظلام ولكن نحو الساعة الثامنة من النهار ذهبوا جميعًا هائمين في الاحراش وناموا هناك واما الثلاثة الاسرى المساكين فاذ كانوا مضطربين ولم يستطيعوا ان يناموا من جرى تعاسة حالهم كانوا جلوسًا في ظل شجرة كبيرة تبعد عني نحو ربع ميل وكانوا كما ظننت مستترين عن نظر البقية . وعند ذلك عزمت على ان اظهر لهم نفسي واعرف شيئًا عن احوالهم فاخذت حالاً اتقدم نحوهم في الحالة التي وصفتها لك وكان جمعة يتبعني من الوراء عن بعد متسلحًا بالعدة الكاملة نظيري الأ انهُ لم يكن غريبًا في زيهِ ومنظرهِ كما كنت انا . فدنوت منهم بقدر الامكان من دون ان يروني ثم قبل ان يقع نظر احد منهم عليَّ صحت بصوت عالٍ باللسان الاسبانيولي قائلاً من انتم ايها الخواجات . فارتعدوا عند ما سمعوا الصوت وكانت رعدتهم عشر مرات اكثر عند ما راوني بذلك الزي الغريب والهيئة المهولة . فلم يجيبوا بكلمة وكان يلوح لي انهم كانوا هامين على الهرب مني فكلمتهم باللسان الانكليزي . وقلت يا خواجات لا تخافوا

ان شاء الله يكون لكم صديق قريب لم تكونوا تنتظرونه . فاجاب واحد منهم بكل وقار رافعاً برنيطته احتراماً لي وقال يجب ان يكون ذلك قد أرسل باستقامة من السماء لاننا صرنا في حالة لا يقدر احد الناس ان يخلصنا منها فقلت له ان كل معونة هي من السماء يا مولاي . فهل تقدرون ان تنبهوا رجلاً غريباً كيف يقدر ان يساعدكم لانه بيان انكم في ضيقة عظيمة . فاني نظرتكم عند نزولكم الى البرّ . وعند ما كنتم تتضرعون بانكسار الى اولئك الوحوش الذين اتوا معكم رأيت واحداً منهم يرفع خنجرهُ ليفتك بكم

وان ذلك الرجل المسكين اجاب والدموع تذرف على خديه وهو يرتعد كانه قد دهش منذهلاً وقال هل الذي اكلمهُ يا مولاي الهٌ او انسان وهل هو انسان حقيقي او ملاك بصورة انسان . فقلت لا تخف من هذا القبيل يا مولاي فلو ارسل الله ملاكاً كي ينقذكم لكان اتى بملابس احسن واسلحة تختلف عمّا ترون لي فاطردوا اذاً مخاوفكم . انما انا انسان . انا رجل انكليزيٌّ اريد ان اساعدكم وانتم ترون معي خادماً واحداً فقط ومعنا اسلحة وذخيرة فقولوا لنا بصريح العبارة هل نقدر ان نساعدكم وما هي قصتكم . فقال يا مولانا ان قصتنا طويلة عريضة لا يسعنا الوقت لشرحها لك لان الذين يطلبون قتلنا هم قريبون منا . ولكن اقول بالاختصار اني يا مولاي كنت رئيس ذلك المركب وقد خانني بحريتي وتمردوا عليَّ وبالكد قدرت ان اقنعهم ان لا يقتلوني فوضعوني على هذا الشاطىء في هذا المكان المقفر مع هذين الرجلين اللذين معي فان احدهما ثاني رئاسة المركب والآخر راكب معنا . وكنا متوقعين الهلاك في هذا الموضع لاننا ظننا انه لا سكان فيه ولم نعلم شيئاً من امرهِ . فقلت له واين هم اولئك اللصوص اعداؤكم اتعلم اين ذهبوا فقال مشيراً الى غابة قد التفت واشتبكت اشجارها انهم مضطجعون هناك . ان قلبي يرتعد خوفاً من ان يكونوا قد راونا وسمعوك تتكلم معنا فياتوا ويقتلونا جميعاً لا محالة . فقلت له وهل معهم اسلحة نارية . فاجاب ان عندهم بارودتين وقد تركوا احداها في القارب.

فقلت لا تخف اذا انا ادبرهم . فالظاهر انهم جميعاً نائمون ويمكننا ان نقتلهم جميعاً بسهولة . ولكن انما نظن ان الاحسن استئسارهم . فقال انه يوجد بينهم رجلان رديئان جداً لا اركان فيهما ولا يؤمن لهما اذا عوملا بالرحمة فاذا خلصنا منهما فان البقية يرجعون الى حيز الطاعة وتتميم الواجبات . فسألته ومن هما فقال لا يقدر ان يميزهما من البقية لبعد المسافة . الا انه يطيع امري في كل ما آمرهُ به . فقلت له دعنا اذاً نتوارى عن نظرهم ونبعد عن سمعهم لئلا ينتبهوا وعند ذلك نعتمد على ما يجب عمله . وهكذا رجعت في طريقي وذهبوا هم طوعاً معي متوغلين في الاحراش واستترنا هناك عن نظرهم

ثم قلت له اذا خاطرت بنفسي لكي اخلص حياتكم فهل تقبل بشرطين اطلبهما منك . وهو قبل ان اذكر الشرطين فهم مرادي وقال انه هو والمركب اذا خلصا يكونان بالتمام تحت رئاستي وامري في كل شيء . واذ لم يخلص المركب فانه هو يعيش ويموت معي في اي محل اخذته اليهِ من العالم . وهكذا قال الرجلان الآخران . فقلت ان لي شرطين فقط احدهما انكم في مدة اقامتكم معي في هذه الجزيرة لا تدعون بادنى سلطة فيها . واني اذا سلمتكم اسلحة تردونها لي في اي وقت طلبتها منكم ولا تعملون شيئاً يضرني او يضر ما يخصني او يلوذ بي وتكونون دائماً خاضعين لاوامري . ثانيهما انه اذا خلص المركب تأخذونني فيهِ انا وخادمي الى بلاد الانكليز مجاناً من دون اجرة

فتعهد الرئيس لي تعهداً وطيداً بانه سيتمم هذين الشرطين العادلين من دون ادنى خلل وانه علاوة على ذلك سيحسب دائماً ان حياته هي من عندي وملكي ويقرّ بذلك في جميع الاحوال ما دام حيّاً . فقلت له فاذاً هذه ثلاث بواريد لكم مع الرصاص والبارود فقل لي الآن ماذا تظن انه ينبغي لنا عمله . فاظهر لي كل ما امكنه اظهارهُ من المعونة وقال انه يرغب في ان يترك كل شيء لتدبيري ورأيي فقلت له اني استحسن ان نرميهم بالرصاص حالاً وهم نيام فاذا اخطأنا بعضهم في الطلق الاول وطلب ان يسلم لنا نعفو عنهُ وهكذا نسلم الاصابة

والخطأ لعناية الله فقال بكل وداعة انه يكره قتلهم . الا انه يوجد بينهما رجلان رديان لا يصطلحان وقد كانا اصل الفساد والعصيان فاذا لم نقتلهما نبقى في خطر لانهما يذهبان الى المركب ويأتيان بباقي البحرية فيهلكوننا جميعًا . فقلت له اذًا الضرورة تحلل ما اشرت به جائزًا لانه هو الطريق الوحيد لصيانة حياتنا ومعلومك ان الضرورات تبيح المحذورات . ولكن لما رأيته لم يزل غير راضٍ بسفك الدم قلت له يجب ان يذهب هو وجماعته ويدبروا الامور كما يحسن لديهم

وبينما كنا في وسط الحديث انتبه البعض منهم ثم بعد قليل رأينا اثنين منهم قد وقفا على ارجلهما . فسألته هل احد من ذينك الرجلين هو من روساء الحركة فاجاب لا . فقلت له فاذًا لا تتعرض لهما لان الظاهر ان العناية قد ايقظتهما لاجل انقاذهما . واما اذا افلت الباقون منك فان اللوم انما يكون عليك فلما قلت له ذلك اخذ البارودة التي اعطيته اياها بيده وطبنجة في حزامه وصاحبه معه وكان بيد كل منهما بارودة وذهبوا معًا . وكان الرجلان اللذان ذهبا معه يمشيان قدامه

فاحدثا صوتًا التفت عنده احد الرجلين المتنبهين فرآهما وبالحال صاح برفاقه ولكنما صاح العجب رفيقنا الرئيس البارود . واما الرئيس فاطلق بحكمة بارودته مدكوكة لحين الاقتضاء . وكانا قد حكما جيدًا بارودتيهما على الرجلين المطلوبين فاصاباهما كليهما فقتل احدهما في ارضه وجرح الآخر جرحًا بليغًا . واذ لم يمت طفر واقفًا على رجليه وصاح باعلى صوته مستغيثًا برفاقه . فتقدم الرئيس اليه وقال له انه قد مضى وقت الاستغاثة بالناس فيجب عليك ان تطلب الى الله ان يغفر لك خيانتك . ولم يتمم هذه العبارة حتى صرعهُ بتندق بارودته الى الارض . فلم ينطق بكلمة بعدها وكان باقيًا ثلاثة من اولئك الاشقياء كان احدهم قد جُرح جرحًا خفيفًا وكنت عند ذلك قد جئت فلما رأوا ما كانوا فيه من الخطر وانه لا فائدة لهم من المقاومة طلبوا ان يعاملوا بالرحمة

والعفو فقال لهم الرئيس انهُ يعفو عنهم اذا كانوا يندمون على الخيانة التي ارتكبوها ويحلفون لهُ بانهم يكونون امناء لهُ ويساعدونهُ في تخليص المركب والرجوع فيهِ معهُ الى جامكا التي كانوا قد اتوا منها فقدموا لهُ جميع الادلة المرغوبة على صدقهم واذ رأيتهُ مائلاً الى تصديقهم والعفو عنهم لم اشأ ان اضادهُ في ذلك الآ اني الزمتهُ ان يقيدهم من ايديهم وارجلهم ما داموا في الجزيرة

وفي تلك الاثناء ارسلت جمعة وثاني الرئيس الى القارب لاجل تسليحهِ والاتيان بالمجاذيف والقلوع ففعلا كما امرتهما . وان ثلاثة من الرجال الذين كانوا في البرّ وكانوا لاجل سعدهم قد انفصلوا عن البقية لما سمعوا صوت البارود اقبلوا راجعين الى ذلك الموضع . فلما رأوا الرئيس الذي كان قبلاً اسيرًا لهم قد فاز بالظفر على رفاقهم سلموا لهُ طوعًا وارتضوا ان يقيدهم كرفاقهم . وهكذا حصلنا على الغلبة التامة

فبقي عليَّ وعلى ذلك الرئيس ان نسأل عن احوال بعضنا بعض فابتدأت انا اولاً واخبرتهُ بكل قصتي وعلى الخصوص بكيفية حصولي على القوت والذخيرة واذ كانت قصتي مجموع عجائب تأثر منها جدًّا . وبعد ما نظر الى حالي ورأى كيف كنت كاني انا حفظت هناك لكي اخلص حياتهُ اخذت الدموع تتساقط ذارفة على خديهِ ولم يعد يقدر ان ينطق بكلمة . وبعد ان فرغنا من الحديث ذهبت بهِ وبالرجلين اللذين معهُ الى منزلي وقدمت لهم ما حضر من الطعام والنقل واريتهم جميع الاختراعات التي استنبطتها في مدة سكناي المستطيلة في ذلك الموضع

وكان كل ما اريتهم اياهُ وكل ما قلتهُ لهم عجيبًا عندهم في الغاية . وما زاد الرئيس عجبًا قلعتي وكيفية ستري منزلي بواسطة تلك الغابة التي كان قد صار عمرها حينئذٍ نحو عشرين سنة واذ كانت الاشجار هناك تكبر باكثر سرعة من الاشجار في بلاد الانكليز كانت قد صارت حرشًا متكاثفًا جدًّا حتى انهُ لم

يكن ممكنًا العبور فيه الأ من جهة واحدة حيث كنت قد تركت طريقًا معوجًا ادخل منها اليه . وقلت له ان هنا في قلعتي ومحل اقامتي ويوجد لي قصر في الجبل كما يكون لاكثر الملوك يمكنني ان اذهب اليه متى شئت ووعدته باني سآتي به ذلك الموضع ايضًا في وقت آخر . لانه كان علينا في ذلك الوقت الاجتهاد في تخليص المركب . فقال انه لا يعلم كيف يكون السبيل الى ذلك لانه يوجد في المركب ستة وعشرون رجلاً وهؤلاء اذا كانوا قد اشتركوا في تلك الخيانة الخبيثة وصاروا تحت طائلة الشريعة مستحقين القتل سيقسون قلوبهم ويصرّون بياس وعناد على خيانتهم . لانهم يعلمون انهم اذا امسكوا سيذهبون الى المشنقة حالما يصلون الى انكلترا او الى احد املاك الانكليز الخارجية . ومن ثم لا سبيل الى قتالهم بعدد قليل كعددنا

فتأملت مرة في ما قاله ووجدت انه ناتج عن حكمة وجودة راي ومن ثم كان لابد من الاعتماد بسرعة على طريقة تقينا من ذلك المحذور . وذلك اما بنصب شرك لهم في المركب لاهلاكهم او بمنعهم من الخروج الى البرّ لئلا يفتكوا بنا ويهلكونا وعند ذلك جال في خاطري ان بحرية المركب سيخطر ببالهم بعد قليل ما اصاب رفاقهم واقاربهم ويأتون لا محالة في قاربهم الآخر لاجل التفتيش عليهم وربما يأتون عند ذلك متسلحين فيكونون اقوى منا . فقال الرئيس ان ذلك جميعه ممكن وموجب الاحتساب . ثم قلت له ان اول شيء يجب ان نعمله هو ان نخرج القارب الذي في الخليج لئلا يأخذوهُ ويذهبوا به الى المركب وان نأخذ كل ما يوجد فيه من الادوات ونعطله بحيث لا يعود يصلح للسفر . ومن ثم ذهبنا الى ذلك القارب واخرجنا منه كل ما كان فيه من الاسلحة وكل ما وجدناهُ فيه من باقي الاشياء كقنينة من العرق وقنينة من الروم وقليل من الكعك وتنكة بارود وقالب سكر ملفوف في قطعة جنفيص . وكان وزن ذلك القالب نحو اقتين . وقد فرحت جدًّا بكل ما وجدته

وعلى الخصوص العرق والسكر لانهما كانا قد نفدا من عندي منذ سنين كثيرة

فبعد ان اخرجنا كل ذلك الى البرّ وكانت المجاذيف والقلوع والدفة قد اخرجت قبلاً كما تقدم ثقبنا ثقباً كبيراً في قعر القارب حتى اذا اتى منهم عدد اكثر واقدر لا يمكنهم ان يأخذوه . ولم يكن لي امل كبير في اننا نقدر ان نخلص المركب ولكنني كنت افتكر انهم اذا ذهبوا من دون القارب يمكننا ان نصلحهُ ونجهزهُ ليحملنا الى جزائر ليورد اذا نمرُّ في طريقنا على اصحابنا الاسبانيوليين لاني لم انسهم

ثم بعد ان دبرنا امورنا على هذا المنوال ورفعنا القارب من البحر بحيث لا يمكن المد مهما ارتفع ان يحملهُ راجعاً بهِ الى العمق وثقبنا في قعرهِ ثقباً كبيراً لا يمكن سدهُ بسرعة وجلسنا نتأمل ماذا ينبغي لنا ان نعملهُ سمعنا صوت مدفع من المركب ورأينا علامات قد نشرت فيهِ للذين في البرّ لكي يرجعوا اليهِ . ولما رأوا القارب لم يتحرك اطلقوا ايضاً المدافع مرات متوالية وعملوا علامات مختلفة . واخيراً اذ رأوا لا فائدة من ذلك جميعهِ وان القارب لم يتزحزح من مكانهِ انزلوا قارباً آخر الى البحر واخذوا يجذفون قاصدين البرّ . فلما قربوا وجدناهم عشرة ومعهم اسلحة نارية

واذ كان المركب راسياً على مسافة نحو فرسخين عن الشاطىء نظرناهم جيداً وهم مقبلون ونظرنا وجوههم واضحاً . وذلك لان المدّ قد دفعهم قليلاً الى شرقي القارب الآخر فاخذوا يجذفون ويسيرون بجانب الشاطىء قاصدين الذهاب الى الموضع الذي خرج منهُ بجربة القارب الآخر . فبهذه الواسطة رأيناهم جيداً وعرف الرئيس كل الرجال الذين في القارب وقال ان ثلاثة منهم امناء وقد دخلوا مع البقية في تلك الحركة جبانة وخوفاً منهم . واما وكيل المركب الذي يبان انهُ كان اكبر ضابط بينهم والباقون فكانوا اشراراً نظاير باقي الجربة . على انهم ربما كانوا اقوى منا . فالتفت اليهِ متبسماً وقلت لهُ

أن من كان في حالنا لم يبقَ للخوف تأثير فيهِ واذ كنا نعلم ان جميع الاحوال في احسن من الحالة التي نحن فيها يجب ان نحسب النتيجة سواء كانت موتاً ام حياةً لا بد انها تكون نجاة . ثم سالتهُ ماذا يظن عن حالة حياتي وهل النجاة منها لا تستحق المخاطرة . ثم قلت لهُ ابن اعتقادك يا مولاي باني انا حفظت هنا لكي اخلص حياتكم وقد كان واسطة لتنشيطك قبل قليل . على اني اظن انهُ يوجد صعوبة واحدة فقط . فقال وما هي تلك الصعوبة . فقلت لهُ هي وجود ثلاثة او اربعة بينهم تقول انهُ يجب العفو عنهم . فلو كانوا جميعاً من الاشرار لكنت ظننت ان الله نفسهُ قد افرزهم بعنايتهِ لكي يدفعهم بيدك واعلم يقيناً ان كل رجل يخرج الى البرّ هو نصيبنا وسيموت او يعيش بحسب تصرُّفهِ نحونا . واذ قلت ذلك بصوت عالٍ رخيم ووجه باشّ طلق ظهر لي انهُ تشجع كثيراً وهكذا تأهبنا بنشاط وشجاعة للنضال والمدافعة

وكنا قبل ان رأينا القارب يقبل من المركب قد عزمنا ان نفرّق بين اسرانا وكنا قد احتفظنا عليهم جداً . فان اثنين منهم كان الرئيس اقل اركاناً اليهما من البقية ارسلتهما مع جمعة ورجل من الثلاثة الذين خلصناهم الى مغارتي حيث كانا بعيدين ولا يخشى من ان يسمع صوتهما او يعرف موضعهما حتى انهما اذا افلتا لا يمكنهما ان يعرفا الطريق للخروج من الاحراش فتركهما جمعة ورفيقهُ هناك مقيدين واعطاهما زاداً ليأكلا ووعدهما بانهما اذا اقاما هناك بالهدو سيعتقانهما بعد يوم او يومين . ولكن اذا حاولا الهرب سيقتلان من دون رحمة . فوعدا وعداً صادقاً بانهما يحتملان حبسهما بالصبر وكانا شكورين جداً من جرى حسن معاملتنا اياهما في اعطائهما زاداً وضوءاً لان جمعة اعطاهما شمعاً مما كنا نعملهُ لاجل راحتنا وربما كانا يظنان انهُ كان واقفاً دائماً على الباب خفيراً عليهما

واما باقي الاسرى فكانت معاملتهم احسن من ذينك الرجلين . نعم اننا ابقينا اثنين منهم مكتوفين لان الرئيس لم يكن يركن كثيراً اليهما . واما الاثنان

الآخران فاني ادخلتهما في خدمتي على شهادة الرئيس وتوصيته وتعهدهما القوي بانهما سيبوتان ويعيشان معنا . وهكذا كنا نحن وهما والثلاثة الرجال الابرياء سبعة وكنا جميعنا متسلحين جداً ولم يكن عندي شك في اننا نقدر ان ندبر العشرة القادمين في القارب اذا صح قول الرئيس انه يوجد بينهم ايضاً ثلاثة او اربعة من الامناء الابرياء . فحالما وصل اولئك البحرية بقاربهم الى المكان الذي كان فيه القارب الآخر دخلوا بقاربهم في الخليج وخرجوا الى البرّ وجرّوا القارب وراءهم فسررت اذ رأيت ذلك . لاني كنت خائفاً من ان يتركوا القارب راسياً بعيداً عن البرّ ويتركوا فيه بعض بحرية لاجل المحافظة عليه فلا يمكننا ان نستأسره . واول شيء عملوهُ بعد خروجهم الى البرّ هو انهم ركضوا جميعاً الى القارب الآخر . ولا يخفى ما حصل عندهم من الحيرة والذهول عند ما رأوا ذلك القارب معرّى من كل ما فيه ومثقوباً ثقباً كبيراً في قعرهِ كما تقدم . ثم بعد ان تأملوا في ذلك مدّة صاحوا صيحتين او ثلاث صيحات باعلى اصواتهم نحو اصحابهم لعلهم يسمعون . ولكن لم يستفيدوا شيئاً . ثم اصطفوا حلقة واطلقوا ما كان معهم من الاسلحة طلقاً واحداً فسمعنا نحن ذلك الطلق وارتجت الاحراش من صداهُ . ولا من هذا استفادوا شيئاً فان الذين في المغارة لم يكن يمكنهم ان يسمعوا ذلك لبعدهم والذين كانوا معنا من رفاقهم مع انهم سمعوا ذلك جيداً لم يتجاسروا على ان يجيبوهم . فوقعوا في حيرة عظيمة من هذا الامر حتى انهم عزموا كما اخبرونا في ما بعد على ان يرجعوا الى المركب ويخبروا باقي رفاقهم بان اصحابهم قد قتلوا جميعاً وبان القارب قد تعطل وهكذا انزلوا حالاً الى البحر القارب الذي اتوا فيه ونزلوا فيه جميعاً

وان الرئيس لما رأى ذلك اضطرب جداً وحار في امرهِ لانهُ كان يظن انهم يذهبون الى المركب ويقلعون ظانين ان رفاقهم قد هلكوا وهكذا يخسر المركب مع انهُ كان يأمل اننا نقدر ان نخلصهُ من ايدي اولئك العصاة . ولكن لم يمضِ الا قليل حتى اضطرب ايضاً من الجهة الاخرى

ثم بعد ان سافروا قليلاً في القارب رجعوا جميعاً نحو الشاطئ فبقي ثلاثة منهم في القارب وخرج الباقون الى البرّ عازمين على التوغل في الجزيرة لاجل التفتيش على اصحابهم . فارتبكنا في امرنا عند ذلك ولم نعلم ماذا نعمل . لاننا اذا امسكنا السبعة الرجال الذين خرجوا الى البرّ لا يفيدنا ذلك شيئاً اذا افلت القارب منا . لان الثلاثة الذين بقوا فيهِ يقدرون ان يجذفوا راجعين الى المركب ومتى وصلوا الى هناك يرفعون مرساة المركب ويقلعون بهِ بمن فيهِ وهكذا لا يبقى لنا امل في تخليص المركب الذي كان جل مقصودنا حينئذٍ . الأ انهُ لم يكن لنا سبيل الاّ الصبر والنظر الى جري الحوادث في ما بعد . فاتى السبعة الرجال الى الشاطئ والثلاثة الذين بقوا في القارب ابعدوا بهِ عن الشاطئ وارسوهُ هناك ينتظرون رفاقهم . فالذين خرجوا الى البرّ اخذوا يسيرون معاً قاصدين راس التل الذي كانت قلعتي عند حضيضهِ وكنا نراهم واضحاً واما هم فلم يكونوا يروننا . وكنا نرغب انهم يقبلون متقدمين نحونا لكي نرميهم بالرصاص او يبتعدون مولين عنا لكي يمكننا ان نخرج من وسط الاحراش التي كنا كامنين فيها . فلما وصلوا الى قمة التل حيث يطلون الى مسافة بعيدة عن السهول والاحراش التي موقعها في الجهة الشمالية الشرقية وحيث كانت الجزيرة متطامنة اخذوا ينادون ويصرخون باعلى اصواتهم حتى بحوا وكلوا . واذ كانوا لا يرغبون ان يبعدوا كثيراً عن الشاطئ ولا ان يتفرقوا خوفاً من امر يأتي جلسوا معاً تحت شجرة وعقدوا هناك ديوان شورى . فلو ناموا هناك كما فعل رفاقهم الذين دهمناهم لكانوا عملوا معروفاً كبيراً معنا . الاّ انهم اذ كانوا خائفين جدًا ومحسبين من الخطر لم يجسروا ان يناموا وان كانوا لا يعلمون يقيناً ما هو الخطر الذي كانوا فيهِ

وفيما كانوا جلوساً يتبصرون في المسألة قدم الرئيس رأياً اعجبني فقال ربما يطلقون جميعاً طلقاً لكي يسمع رفاقهم الصوت فاذا فعلوا ذلك يجب ان

ندهمهم عند ما تكون اسلحتهم فارغة فيصلون لنا لا محالة فنلقي القبض عليهم من دون سفك دم . فاستصوبت هذا الراي على شرط ان نكون قريبين منهم عند تفريغ بواريدهم بحيث نقدر ان ندهمهم قبل ان تحصل لهم فرصة لان يدكوها. الّا ان ذلك ايضًا لم يتم . فاقمنا مدة طويلة في مكاننا غير عارفين ماذا نعمل. واخيرًا قلت لهم انهُ حسب رأيي لا يمكن عمل شيء الّا في الليل . فاذا اقبل الليل ولم يرجعوا الى القارب فربما نجد طريقًا للتوسط بينهم وبين الشاطىء وهكذا نحتال على الذين في القارب ان يخرجوا الى البرّ . فانتظرنا مدة طويلة انتقالهم من مكانهم حتى ضجرنا. ثم لما رأينا انهم بعد محاورات مستطيلة فيما بينهم قاموا جميعًا وانثنوا راجعين نحو البحر سقط في يدنا وارتبكنا . والظاهر انهم لشدة خوفهم واحتسابانهم عزموا ان يرجعوا الى المركب ثم يسافروا فيهِ الى الجهة المقصودة منهم معتقدين بان رفاقهم قد هلكوا لا محالة

فحالما رأيتهم راجعين الى البحر لاح لي انهم قد عدلوا عن التفتيش وعوّلوا على الرجوع الى المركب . وحالما كاشفت الرئيس بما لاح لي كاد يغشى عليهِ من شدة الحزن والاحتساب . الّا اني افتكرت بعد قليل بحيلة حصلت بها على مطلوبي كما سترى . فاني امرت جمعة وثاني الرئيس ان يذهبا الى عبر النهر الى جهة الغرب نحو المكان الذي خرجت فيهِ البرابرة بجمعة عند ما خلصتهُ من ايديهم فاذا وصلا الى مرتفع من الارض على مسافة نحو نصف ميل يصيحان باعلى صوتهما الى ان يتأكدا بان البحرية قد سمعوا صوتهما . وانهما حالما يسمعان البحرية يجيبونهما يصيحان ثانيةً . وان يستترا دائمًا عن اعينهم ويدوران من مكان الى مكان ويجيبانهم كلما نادوهما لكي يستجراهم متوغلين بهم في الجزيرة وبين الاحراش بقدر الامكان ثم يرجعان ايضًا نحوي في طريق دللتهما عليها ففعلا . وفيما كان القوم على همة النزول الى القارب نادى جمعة وثاني الرئيس فسمعوهما حالاً واخذوا يركضون على الشاطىء نحو الغرب قاصدين المكان الذي سمعوا منهُ الصوت فلما وصلوا الى النهر وقفوا لانهم لم

يستطيعوا ان يعبروهُ بسبب ارتفاع المد وصاحوا برفاقهم ان يأتوا بالقارب ليعبروا فيهِ النهر . وهكذا كنت احسب من اوّل الامر . فلما عبروا النهر لاحظت ان القارب اذ كان قد ابعد متوغلاً فيهِ وصار كانهُ في مينا في البرّ اخذوا واحد من الثلاثة الذين كانوا فيهِ معهم وتركوا فيهِ اثنين فقط بعد ان ربطوهُ الى ساق شجرة صغيرة على الشط . وكان ذلك طبق مرغوبي . فتركت جمعة ورفيقهُ في عملهما واخذت حالاً البقية معي وقطعنا النهر من دون ان يرونا ودهمنا بغتة ذينك الرجلين اللذين كانا يحرسان القارب . وكان احدهما مضطجعاً على حافة النهر والآخر في القارب . فالذي على الحافة كان بين منتبه ونائم وعلى همة القيام واذا بالرئيس الذي كان في مقدمة جيشنا قد هجم عليهِ كالاسد وصرعهُ الى الارض ثم طلب من الذي في القارب ان يسلم والاَّ فهو مقتول . ولا يخفى انهُ لا يحتاج الاَّ الى براهين قليلة لاقناع رجل واحد بالتسليم عند ما يرى خمسة رجال هاجمين عليهِ ويرى رفيقهُ قد طرح الى الارض مصروعاً . وعند ذلك كان ذلك الرجل من الثلاثة الذين لم يتورطوا في تلك الخيانة بقدر البقية ومن ثم قنع بسهولة ليس بالتسليم فقط بل بان يتحد معنا في ما بعد اتحاداً صادقاً . وكان جمعة وثاني الرئيس في تلك الاثناء يديران الباقين جيداً . فكانا يستجرانهم بواسطة النداء والمجاوبة من تلة الى تلة ومن حرش الى حرش حتى اتعباهم جداً وتركاهم في مكان لا يمكنهم ان يرجعوا منهُ الى قاربهم الاَّ بعد ان يخيم الظلام حتى ان جمعة ورفيقهُ انفسهما رجعا الينا وقد كلاَّ من التعب

ولم يبقَ علينا حينئذٍ الآن نترصدهم في الظلام وندهمهم دهمة هائلة بحيث لا يفلت احد منهم ومضت ساعات كثيرة بين رجوع جمعة اليَّ ورجوعهم الى قاربهم . وكنا نسمع المتقدمين منهم ينادون المتأخرين ان يسرعوا في مشيهم . وسمعناهم يجيبونهم ويشكون من شدَّة التعب والالم وعدم اقتدارهم على الاسراع . وكان ذلك خبراً يسرنا جداً . واخيراً وصلوا الى القارب . ولكن

لا يمكن وصف الاضطراب الذي اعتراهم عند ما رأوا القارب قاعداً على الارض اليابسة والمد قد انكفا ورفيقيهم مفقودين . وكنا نسمعهم ينادون بعضهم بعضاً بصوت محزن ويقول احدهم للآخر اننا في جزيرة مسحورة . اي انه يوجد فيها سكان سيقتلونهم لا محالة عن آخرهم او شياطين وجان لابد من انهم سيحملونهم جميعاً ويبتلعونهم . ثم اخذوا يصرخون وينادون مرات كثيرة رفيقيهم باسميهما فلم يكن من يجيب . ثم بعد قليل كنا نراهم بواسطة ما كان باقياً من الضوء القليل يركضون من جهة الى جهة يصفقون بايديهم كأنهم قد وقعوا في حالة اليأس . وكانوا احياناً يذهبون ويجلسون في القارب ليستريحوا ثم يخرجون الى البرّ ويمشون وقد فعلوا ذلك مراراً كثيرة . وكان رجالي يرغبون ان اسمح لهم ان يدهموهم بغتة في الظلام الّا اني كنت ارغب ان اتصرّف معهم بالرفق واخلص البعض منهم واحجب دم العباد بقدر الامكان وعلى الخصوص لاني لم ارد ان اخاطر بحياة احد من رجالنا . لاني كنت اعلم ان القوم كانوا متسلحين بالعدة الكاملة . فصبرت لارى اذا كانوا لا يتفرقون متبعدين بعضهم عن بعض . ثم لكي لا ادع احداً منهم يفلت تقدمت بجماعتي نحوهم وامرت جمعة والرئيس ان يدبا على ايديهما وارجلهما ويدنوا منهم بقدر الامكان بحيث لا يرونهما وان لا يطلقا الرصاص عليهم الّا بعد ان يصيرا قريبين منهم

ولم يبقيا زمناً طويلاً في تلك الحالة حتى اقبل ماشياً نحوهما وكيل المركب الذي كان مقدام العصاة في تلك القومة وقد ظهر حينئذٍ اجبن واضعف منهم جميعاً وكان يرافقه اثنان من البحرية . وكان الرئيس متعطشاً جداً الى وقوع ذلك الشقي الخبيث في يده حتى انه بالكد كان يقدر ان يتمالك نفسه ويصبر الى ان يقرب منه بحيث لا يخطئه اذا رماه بالرصاص . لانهما كانا قد سمعاهُ يتكلم فقط ولم يرياهُ . فلما صار الرئيس وجمعة اقرب الى القوم وقفا على ارجلهما واطلقا عليهم الرصاص . فاصابا الوكيل فوقع قتيلاً في ارضو

واصابا ايضاً احد رفيقيهِ في جسمهِ فوقع صريعاً بجانبهِ الاَّ انهُ لم يمت الاَّ بعد ذلك بساعة او ساعتين . واما الثالث فهرب بنفسهِ . فلما سمعت صوت البارود تقدمت حالاً بباقي جيشي وكانت جملتنا حينئذٍ ثمانية . اي انا قائد الجيش العظيم وجمعة فريق العساكر والرئيس ورجالهُ والثلاثة الاسرى الذين كنا قد سلحناهم . فهجمنا عليهم وكان ظلام فلم يقدروا ان يعرفوا عددنا . فامرت الرجل الذي كانوا قد تركوهُ في القارب وكان حينئذٍ معنا ان يدعوهم باسمائهم لعلهُ يقدر ان يقنعهم بالتسليم وقبول شروط الصلح . فنادى باعلى صوتهِ احدهم قائلاً يا توما سميث يا توما سميث . فاجاب توما سميث حالاً وقال للمنادي هل انت روبنصن . لانهُ كان كأنهُ يعرف صوتهُ . فاجابهُ روبنصن نعم انا روبنصن اكراماً لله يا توما سميث القوا سلاحكم وسلموا والاَّ فقد قتلتم في هذه الدقيقة . فقال توما ولمن نسلم . اين هم القوم . فقال لهُ هم ههنا . هنا رئيسنا ومعهُ خمسون رجلاً وقد صرفوا هاتين الساعتين يترصدونكم طالبين قتلكم عن آخركم . فان وكيل المركب قد قتل وويل فراي جرح وانا اخذت اسيراً واذا كنتم انتم لا تسلمون فانكم تهلكون لا محالة . فقال توما سميث فهل تعطوننا الامان لكي نسلم . فقال روبنصن اذا وعدتم بانكم تسلمون فاني اذهب واسأل ولما سأل الرئيس قال الرئيس نفسهُ انت يا سميث تعرف صوتي اذا القيتم سلاحكم حالاً وسلمتم من دون قتال فعليكم الامان جميعاً ما عدا ول انكنس

الفصل السابع والعشرون

ما جرى بين ول اتكنس والرئيس وتخليص المركب وخروج روبنصن كروزي من الجزيرة

وعند ذلك صرخ ول اتكنس قائلاً اكراماً لله ايها الرئيس اعطني الامان ماذا عملت فانهم جميعاً مذنبون نظيري . ولكن ذلك لم يكن صحيحاً . لانهُ بيان ان ول اتكنس هذا كان اول من قبض على الرئيس عند ما قاموا عليهِ وعاملهُ معاملة بربرية وقيدهُ من يديهِ وشتمهُ شتائم مهينة في الغاية . فقال لهُ الرئيس يجب ان تسلم سلاحك من دون شرط وتتكل على رحمة الحكمدار . واياي عنى بقولهِ الحكمدار لانهم كانوا دائماً يدعونني هكذا . فالقى الجميع اسلحتهم وطلبوا الصفح والعفو عن دمهم . فارسلت الرجل الذي كلمهم واثنين معهُ فقيدوهم جميعاً . وعند ذلك تقدم جيشي المظفر الذي قال سفيري انهُ خمسون رجلاً مع انهُ لم يكن الاَّ ثمانية كما سبق وامسكوهم واخذوا قاربهم . الاَّ اني انا بقيت متنحياً عنهم مع حاجب لي اعتباراً لمقامي وشأن وظيفتي

ثم اخذنا في ترميم القارب والاهتمام بتخليص المركب . وقد صار حينئذٍ فرصة للرئيس للكلام معهم فاخذ يعاتبهم على خيانتهم لهُ وسوء معاملتهم اياهُ ويظهر لهم رداءة عملهم وشرّ عواقبهِ وكيف كان مزمعاً ان يصل بهم الى الشقاوة والضيقة فيما بعد وربما الى المشنقة . فتأثروا من تلك المواعظ وكان بيان انهم

تائبون. وكانوا يترجونهُ مترامين على قدميهِ ان يعفو عنهم ويغفر لهم ما اقترفوهُ. فقال لهم ان ذلك ليس هو تحت سلطانهِ لانهم ليسوا اسراءَهُ بل اسرى حكمدار الجزيرة. وانهم كانوا يظنون بانهم قد طرحوهُ على جزيرةٍ موحشة وغير مسكونة. ولكن الله قد ابطل تدبيرهم لان الجزيرة هي مسكونة وحكمدارها رجلٌ انكليزيٌّ. وانهُ يقدر اذا اراد ان يشنقهم جميعاً هناك ولكن بما انهُ قد اعطاهم الامان ربما يرسلهم الى بلاد الانكليز لكي يعاملوا هناك بحسب مقتضيات العدل والحقانية الاَّ انكنس فان حكمدار الجزيرة كان امرهُ ان ينذرهُ بالاستعداد للموت لانهُ سيشنق في غد ذلك اليوم صباحًا

ومع ذلك لم يكن الاَّ حيلة من الرئيس احدث فيهم التأثير المرغوب. فركع انكنس على ركبتيهِ واخذ يترجاهُ متذللاً ان يتوسط امرهُ عند الحكمدار ويترجاهُ ان يعفو عنهُ وكان الباقون يترجونهُ ان لا يرسلهم الى انكلترا اكرامًا لوجه الله الكريم

فلاح لي حينئذٍ ان وقت نجاتنا قد اتى وانهُ يمكننا ان نجعل اولئك الاسرى يساعدوننا من كل قلوبهم في تخليص المركب. وهكذا بقيت محجوبًا عنهم في الظلام لكي لا يروا ما هو حال الحكمدار الذي هم تحت سلطانهِ وناديت الرئيس باسمهِ ثم ناداهُ الحاجب بعدي قائلاً ايها الرئيس ان جلالة الحكمدار يدعوك. فاجاب الرئيس حالاً قائلاً اعرضوا لجلالتهِ باني قادم. فارتعد القوم عند ذلك متحيرين لانهم كانوا يعتقدون جميعاً بان الحكمدار هو قريب منهم مع رجالهِ الخمسين. فلما اقبل الرئيس اليَّ كاشفتهُ بما في نفسي من امر تخليص المركب فاعجبهُ ذلك جدًا وعزم على اجراء قصدي في اليوم القادم. ولكن لكي نفعل ذلك باكثر شجاعة ونجاح قلت لهُ يجب ان نقسم الاسرى وانهُ هو يذهب ويمسك انكنس واثنين آخرين من اردائهم ويرسلهم مقيدين الى المغارة حيث كان البعض منهم. ففوضت هذا الامر الى جمعة والرجلين اللذين اتيا

الى البرّ مع الرئيس فساروا بهم الى المغارة كأنهُ الى سجن . وقد كان في الحقيقة مكانًا مظلمًا وعلى الخصوص عند قوم في حالتهم . واما البقية فارسلتهم الى خيمتي الجبلية التي سبق وصفها واذ كانت داخل سور وهم مقيدون فيها كانوا في محل حفظ لا يخشى من ان يهربوا منهُ وعلى الخصوص لان نجاتهم كانت متوقفة على سلوكهم

ثم ارسلت الرئيس صباحًا الى اولئك القوم لكي يكلمهم ويرى اذا كان يمكن الاركان اليهم في الذهاب الى المركب والهجوم على من بقي فيهِ لاجل تخليصهِ . فبين لهم الرئيس الضرر الذي لحق بهِ من جرى تصرفهم الملوم والحالة الذميمة التي اوصلهم ذلك التصرُّف اليها . ومع ان الحكمدار اعطاهم الآن الامان على انفسهم فاذا ارسلوا الى انكلترا سيشنقون هناك جميعًا لا محالة ولكن اذا ساعدوا في هذا العمل العادل وهو تخليص المركب من ايدي اولئك اللصوص يتعهد هو لهم باقناع الحكمدار بان يطيب خاطرهم ويعفو عنهم

ولا يخفى ان من كان في حالتهم لا توجد صعوبة في اقناعهِ بقبول ذلك الامر فركعوا على ركبهم امام الرئيس ووعدوا بكل تذلل وانكسار بانهم سيكونون امناء لهُ الى آخر نقطة من دمهم . وقالوا ان حياتهم هي من عندهِ وانهم سيذهبون معهُ حيثما اراد ويعتبرونهُ كأبٍ لهم ما داموا احياء . فقال لهم الرئيس فاذًا يجب ان اذهب واخبر الحكمدار بما قلتموهُ وارجاهُ لعلي اقدر ان استعطف خاطرهُ واقنعهُ بالعفو عنكم . وهكذا رجع اليَّ واخبرني باحوالهم وحاسياتهم وبانهُ معتقد يقينًا بانهم سيكونون امناء . ولكن لكي نكون في امان تامّ قلت لهُ ان يرجع ثانيةً ويختار منهم خمسة ويقول لهم انهُ لكي يؤكد لهم انهُ لا يحتاج الى رجال يأخذ اولئك الخمسة فقط لكي يساعدوهُ وان الحكمدار يبقى عندهُ تحت الحفظ الاثنين الباقيين مع الثلاثة الذين كانوا قد ارسلوا مقيدين الى القلعة نظير رهن على صدق الخمسة حتى اذا ظهرت منهم ادنى خيانة يشنق الخمسة الذين ابقاهم عندهُ رهنًا مقيدين بسلاسل من حديد

على الشاطىء . فاستدلوا من ذلك على ان دعواهم ممسوكة بصرامة وقنعوا بان الحكمدار كان عازمًا على اجراء ما توعدهم به . فاشتدّ عليهم الخطب جدا ولكن لم يكن لهم باب الاّ القبول والاجابة الى المطلوب . ومن ثم صار الاسرى يجهدون اكثر من الرئيس في تحذير الخمسة الباقين من الخلاف وانذارهم بصدق الخدمة

وكان جيشنا كما يأتي اولاً الرئيس وثاني الرئيس والراكب . ثانيًا الاسيران اللذان مسكناهما في المعركة الاولى وقد اطلقتهما وحلتهما بناء على شهادة الرئيس فيهما . ثالثًا الاسيران الاخيران اللذان كنت قد ابقيتهما الى ذلك الوقت في خيمتي مقيدين وقد اطلقتهما اجابة لالتماس الرئيس . رابعًا هولاء الخمسة الذين اطلقناهم اخيرًا فكانت الجملة اثني عشر بين ضابط ونفر . وذلك ما عدا الخمسة الذين ابقيناهم محبوسين في المغارة رهنًا

فسالت الرئيس هل يريد ان يدهم المركب باولئك القوم . وقلت له اني انا وجمعة لا يصلح ان نفارق الجزيرة لانه كان باقيًا عندنا سبعة رجال في الحبس . وكان علينا ان نحفظهم معتزلين بعضهم عن بعض ونقدم لهم ما يلزمهم من القوت . وذلك شغل كافٍ لنا . فاما الخمسة الذين في المغارة فاني عزمت على حفظهم مقيدين . وكان جمعة يذهب كل يوم مرتين اليهم ويقدم لهم احتياجاتهم . وجعلت الاثنين الباقيين يحملان الزاد الى مسافة معينة وهناك كان جمعة يتسلمه منهم ويذهب به الى المحابيس

وكان الرئيس معي لما اظهرت نفسي لذينك الاسيرين فقال لهم عني هذا هو المعتمد من قبل الحكمدار فعن امر الحكمدار لا تذهبا الى مكان ولا تعملا عملاً الاّ بامر المعتمد فاذا خالفتما امرهُ فستؤخذان الى القلعة وتقيدان بالحديد . فالحذر ثم الحذر من الخلاف . وهكذا كنت اتظاهر الآن كأني غير الحكمدار وكنت اتكلم في كل الاوقات عن الحكمدار والجنود والقلعة وما اشبه ذلك تمويهًا عليهما وترهيبًا لهما

فاخذ الرئيس حينئذٍ يجهز قاربيهِ ويسدُّ ثقب احدهما ويضع بحرية فيها . فاقام الراكب الذي كان مسافرًا معهُ رئيسًا لقارب الواحد ووضع تحت امرهِ اربعة رجال . ودخل هو وثاني الرئيس وخمسة رجال في القارب الآخر وبعد ان تأهبوا جيدًا اخذوا في التجذيف فوصلوا الى المركب عند نصف الليل . وحالما صاروا عن المركب على قدر امتداد الصوت امر الرئيس روبنصن ان يناديهم ويقول لهم انهم اتوا بالرجال والقارب وانهم صرفوا زمانًا طويلاً حتى وجدوهم وما اشبه ذلك . وكان يشغلهم بالحديث الى ان صاروا على جانب المركب . وعند ذلك دخل الرئيس وثاني الرئيس اولاً الى المركب باسلحتهما وضربا ثاني الرئيس والنجار بنندقي بارودتيهما وطرحاهما على ظهر المركب صريعين . وكانت رفاقهما قد تبعوهما وساعدوهما بنصاحة وامانة وقبضوا على كل الذين وجدوهم على ظهر المركب واعتقلوهم واخذوا يسدون المنافذ ليمنعوا من الخروج الذين كانوا في جوفهِ والذين هربوا اليهِ وتحصنوا فيهِ . وبعد ان سدوا كل المنافذ جيدًا امر الرئيس ثاني الرئيس وثلاثة رجال معهُ ان يتقبوا العنبر الكبير حيث كان الرئيس الجديد العاصي مختبئًا وكان قد تسلح مع رجلين وغلام من اتباعهِ واستعدوا للقتال . فلما فتح ثاني الرئيس ومن معهُ باب العنبر رماهم الرئيس الجديد واتباعهُ بالرصاص فاصابوا ثاني الرئيس برصاص سحق ساعدهُ وجرحوا اثنين من جماعتهِ الا انهم لم يقتلوا احدًا منهم . فاستنهض ثاني الرئيس قومهُ وثار وهو مجروح هكذا الى العنبر واطلق طبنجتهُ على الرئيس الجديد فاصاب الرصاص راسهُ داخلاً من فيهِ وخارجًا من وراء احدى اذنيهِ فسقط ميتًا ولم ينطق بكلمة . وعند ذلك سلَّم الباقون وتسلم الرئيس الشرعي مركبهُ من دون ان يُقتل احد ايضًا

فلما خلص المركب امر الرئيس باطلاق سبعة مدافع علامة للنصر كما كانت الرابطة بيني وبينهُ . فلما سمعت اصوات المدافع فرحت جدًّا لاني لبثت

سهران على الشاطىء الى ما بعد نصف الليل بساعتين انتظر تلك البشارة . فلما تحققت الغلبة اضطجعت واذ كان يوم تعب وعناء شديد عليَّ نمت مستغرقاً الى ان ايقظني بغتةً صوت بارودة فانتبهت من النوم واذا برجل يدعوني منادياً اباي مادًا صوتهُ قائلاً ياحكمدار يا حكمدار . فعرفت ان ذلك هو صوت الرئيس وصعدت الى راس التل فوجدتهُ هناك فاحتضنني معانقاً اباي واشار الى المركب وقال يا مولاي العزيز ذاك مركبك لانهُ لك بجملتهِ وكذلك نحن وكل ما يختص بالمركب قد صرنا خاصتك . فالتفتُّ نحو المركب واذا بهِ راسٍ على مسافة اكثر من نصف ميل بقليل عن الشاطىء لانهم كانوا قد رفعوا مرساتهُ حالما تملكوهُ واذ كان الهواء جيدًا اتوا بهِ وارسوهُ مقابل مصب النهر واذ كان المدُّ مرتفعاً حينئذٍ وصل الرئيس بالقارب الى القرب من الموضع الذي وصلت اليهِ قبلاً باطوافي وخرج الى قدام باب منزلي. وكدت في اول الامر اقع الى الارض مغشيًا عليَّ من الدهشة لاني رأيت نجاتي قد وُضعت حقًا بنوع محسوس بيدي وكل الاشياء ميسورة لي ومركبًا كبيرًا معدًا لحملني ذاهبًا بي حيث شئت. وبقيت في اول الامر مدة لا استطيع ان اجيب الرئيس بكلمة . واذ كان قد احتضنني بيديهِ تمسكت بهِ . ولولا ذلك لكنت سقطت الى الارض مغشىً عليَّ . فلما رأى الرئيس ما اعتراني من الدهشة انتزع قنينة من جيبهِ وسقاني درهمًا من ارواح مفرحة منعشة كان قد اتى بها معهُ عمدًا هدية لي . وبعد ان شربت ذلك قعدت جالسًا على الارض ومع اني استفقت بواسطة ذلك بقيت مدة لا استطيع ان اكلمهُ بكلمة . وكان الرئيس المسكين في حالة سهو شديد نظيري الَّا انهُ لم يصبهُ ما اصابني من الدهشة والذهول . وكلمني بالف شيء لطيف ورفيق لكي يردَّ روحي اليَّ ويسكن قلبي . ولكن كانت تيارات الفرح مزدحمة في صدري في هذا المقدار حتى اوقعت كل حاسياتي وعواطفي في حالة التشويش والخمول الى ان انفجرت دموعًا فانفرجت بها وانطلق لساني للكلام . وعند ذلك احتضنت ذلك الرئيس

معانقًا اياه كمنقذ لي وفرحنا كلانا مبتهجين معًا . ثم قلت له اني احسبهُ نظير انسان قد أُرسل من السماء لكي يخلصني وان كل تلك الحوادث ليست باقل من سلسلة من العجائب وان تلك الامور هي شهادة لنا بوجود يد سرّية فائقة تدبر العالم ودليل على ان عين القدرة الغير المتناهية تدرك ابعد جهة من العالم وترسل عونًا للبائسين متى ارادت . ولم اتغافل عن رفع قلبي بالشكر نحو السماء . واي قلب يمكنهُ ان لا يبارك ذلك الذي عالني بنوع عجيب في قفر كهذا وحالة موحشة كحالتي والذي يجب الاعتراف والاقرار دائمًا بان كل نجاة نحصل عليها انما تصدر من عنايتهِ الفائقة

ثم بعد ان تكلمنا معهُ قال لي الرئيس انهُ قد اتى اليَّ ببعض مشروبات ومأكولات من المركب مما فضل عن الاشقياء الذين بقوا مدة طويلة مستولين على المركب يتمتعون بما فيهِ . ثم نادى باعلى صوتهِ البحرية الذين في القارب وامرهم ان يأتوا الى البرّ بالاشياء التي اتى بها هدية الى الحكمدار

وكانت تلك الهدية كانها تشير الى اني لم اكن مزمعًا ان اسافر معهم بل ان ابقى مقيمًا ايضًا في الجزيرة . فانهُ اتى اليَّ بصندوق قنانٍ مملوءة من ماء الكزبرة وست قنانٍ كبيرة من خمر ماديرا ونحو اربع اواقي من التبغ الجيد الفاخر واثنتي عشرة قطعة من لحم البقر وست قطع من لحم الخنزير وكيس مملوء من الليمون وقنينتين من شراب السفرجل واشياء أُخر كثيرة . وقدم لي ايضًا ستَّ قمصان كتان جديدة وست ربطات رقبة جيدة وزوجي كفوف وزوج احذية وزوج جوارب وبدلة جيدة من ثيابهِ كان لم يلبسها الا قليلاً . وكانت هذه اكثر فائدة لي من باقي الاشياء بالف مرَّة . وبالاختصار اقول انهُ كساني من قمة رأسي الى كعب رجلي . وكانت تلك الهدية اطيبة ودليلاً على معروف الرئيس وسخائهِ وكرم اخلاقهِ ولا سيما عند من كان في حالتي .

ولكن اكتسائي بتلك الملابس كان في اول الامر من اصعب الامور واتعبها عندي

وبعد ان فرغنا من تلك الاحتفالات وادخال كل الاشياء التي اتاني بها الى منزلي اخذنا نتشاور ماذا نعمل بالمحابيس الذين عندنا . وكان امر اخذهم معنا او تركهم في الجزيرة مما يستحق النظر والبحث وعلى الخصوص اثنان منهم كنا نعلم بانهما لا يقبلان الاصلاح وعاتيين في الغاية . فقال الرئيس انهما ناكرا الجميل وماكران جدًّا حتى ان عمل المعروف معهما يكون ضائعًا . وانه اذا اخذهما معه يجب ان يأخذهما مقيدين بالحديد كقاتلين لكي يسلمهما للحكم في اول بلاد نصل اليها في حكم الانكليز . واذ رأيت الرئيس متزعجًا جدًّا من هذا الامر قلت له اني اذا اراد استدعي ذينك الرجلين اللذين اشار اليهما واقنعهما بان يطلبا منه ان يخليهما في الجزيرة . فقال يا حبذا لو صح ذلك . فقلت له فاذًا أرسل انا فاحضرهما واكلمهما بشأن ذلك . فدعوت جمعة والاسيرين اللذين كانا عندنا رهنًا وكنا قد اطلقناهما لان اصحابهم تمّا بامانة ما تعهدا به وارسلتهم الى المغارة لكي يأتوا بالخمسة الرجال الى الخيمة مقيدين ويبقوهم هناك تحت الحفظ ينتظرون قدومي اليهم . ثم بعد قليل توجهت الى هناك ببدلتي الجديدة وكانوا لا يزالون يدعونني بالحكمدار . فلما وصلت الى الخيمة والرئيس معي استحضرت القوم بين يديَّ وقلت لهم انهُ قد تقرر لي كل ما فعلوهُ من القبائح ضد الرئيس وكيف كانوا قد عصوا بالمركب وكانوا مستعدين لان يرتكبوا تعديات وكبائر اخرى الا ان العناية الالهية قد اوقعتهم في شرّ طرقهم والقتهم في الحفرة التي احتفروها لغيرهم . واخبرتهم بانهُ قد وقع القبض على المركب بامري وهو الان في المينا وبانهم سيرون بعد قليل ان رئيسهم الجديد العاصي قد نال جزاء اعمالهِ الخبيثة ويرونهُ باعينهم مشنوقًا في ساري المقدم . وقلت لهم اني اريد ان اعلم ماذا يقدرون ان يقولوهُ اعتذارًا عن انفسهم مما يمنعني من ان اقتلهم نظير لصوص بحر او كما يقال قرصان قد

اخذوا في ذات الفعل . لانهُ ينبغي لهم ان يعلموا بان لي سلطانًا لا ريب فيهِ ان افعل ذلك بهم

فاجاب احدهم بالاصالة عن نفسهِ والوكالة عن البقية انهُ ليس عندهم ما يقولونهُ الاَّ هذا وهو انهُ لما أُلقي القبض عليهم وعدهم الرئيس بالعفو عنهم وانهم يطلبون مني بكل تذلل ان اعاملهم بالرحمة . فقلت لهم لست اعلم ما هي الرحمة التي اعاملهم بها . لاني قد عزمت ان اسافر من الجزيرة مع كل رجالي وقد اتفقت مع الرئيس ان يأخذني معهُ الى انكلترا . فاما الرئيس فانهُ لا يمكنهُ ان يأْخذهم معهُ الى بلاد الانكليز الاَّ نظير اسرى مقيدين بالحديد لكي تجري محاكمتهم هناك كخائنين ولصوص . ولا يخفى عنهم انهُ سيحكم عليهم هناك بالشنق. ولهذا لا يمكنني ان اعلم بانهُ يوجد لهم طريق احسن من البقاء في الجزيرة . فاذا ارتضوا بذلك فاني اذ كانت لي الحرية في السفر من الجزيرة لي بعض الميل ان اعفو عن دمهم اذا رأوا انهم يقدرون ان يبقوا في البرّ . فبان لي انهم كانوا محظوظين جدًّا بذلك وقالوا انهُ احب اليهم كثيرًا ان يبقوا في الجزيرة من ان يؤْخذوا الى بلاد الانكليز لكي يشنقوا هناك كقطاع طريق. وعند ذلك انقطع الحديث بيننا

ولكن الرئيس كان يتظاهر بان ذلك لا يعجبهُ وكأَنهُ لا يتجاسر ان يتركهم هناك . وعند ذلك تظاهرت كاني مغتاظ قليلاً من الرئيس وقلت لهُ انهم اسراي لا اسراهُ واذ كنت قد تنازلت معهم الى هذا الحد من المعروف لابد انهُ يضرّ بشرفي ان ارجع في كلامي وانهُ اذا لم يرتضِ بذلك فاني اطلقهم كما وجدتهم وحينئذٍ فليمسكهم اذا قدر . وعند ذلك شكروا فضلي كثيرًا وفي الحال اطلقتهم وامرتهم ان ينصرفوا الى الاحراش حيث كانوا قبلاً وقلت لهم اني اترك لهم بعض اسلحة وذخيرة وبعض نصائح وتعليمات ترشدهم الى المعيشة بالراحة اذا استحسنوا ذلك . ثم اخذت اتأهب للانطلاق الى المركب وقلت للرئيس اني ابقى تلك الليلة في البرّ لاجل تجهيز اموري . وطلبت اليهِ ان يذهب الى

المركب ويستعدُّ للسفر ويرسل لي في الغد قارباً يأخذني . وامرتهُ امراً مشدداً ان يشنق الرئيس الجديد الذي كان قد قتل على راس ساري المقدم لكي يراهُ اولئك الاسرى

ثم بعد انصراف الرئيس استحضرت الاسرى الى مخدعي واخذت اتكلم معهم بكل حرارة وجد عن احوالهم . وقلت لهم اني ارى انهم قد اختاروا لانفسهم النصيب الاحسن لانهُ اذا اخذهم الرئيس معهُ لابد من شنقهم . واريتهم الرئيس الجديد مشنوقاً على ساري المركب وقلت لهم انهُ لم يكن لهم وجه لان ينظروا قصاصاً اقل من ذلك

فلما اطبق رايهم جميعاً على ان يمكثوا في الجزيرة قلت لهم اني اخبرهم بقصة اقامتي فيها واعلمهم كيف يمكنهم ان يعيشوا هناك بالراحة والرضى . ثم قصصت عليهم اخبار الموضع وكيفية اتياني اليهِ واريتهم قلعتي وكيفية اصطناعي الخبز وزرعي الحبوب وتيبيسي العنب وبالاختصار كل ما يلزم لراحتهم ورفاهيتهم واخبرتهم ايضاً بقصة السبعة عشر اسبانيولياً الذين كانوا مزمعين القدوم الى الجزيرة وقد تركت لهم بيدهم مكتوباً وجعلتهم يتعهدون لي بانهم يحسنون معاملتهم ويساوونهم بانفسهم . ويمكننا ان نذكر هنا انهُ كان عند الرئيس في المركب حبر وقد تعجب من اني لم اكتشف على طريقة عمل الحبر من الفحم والماء ومن شيء آخر مع اني قد عملت اشياء أُخر كثيرة اصعب من ذلك جدًّا

وتركت لهم اسلحتي اي خمس بواريد حربية وثلاث بواريد صيد وثلاثة سيوف وما كان باقياً عندي من البارود وهو اكثر من برميل ونصف لاني بعد السنة الاولى او الاولى والثانية ايضاً لم استعمل الأ قليلاً من البارود ولم اعطل شيئاً منهُ . واوضحت لهم كيفية تدبيري للمعزى وكيف كنت احلبها واسمنها واعمل السمن والجبن من حليبها . وبالاختصار اخبرتهم بكل قسم من قصتي وقلت لهم اني اترجى الرئيس ان يترك لهم برميلين من البارود

وقليلاً من بزور الجنائن مما كنت امرءٌ به جدًا لو حصلت عليه . واعطيتهم كيس اللوبيا الذي اعطاني اياهُ الرئيس وحرضتهم على زرع ذلك وزيادته بهذه الواسطة

وبعد ان فعلت ذلك جميعهُ تركتهم في الغد وذهبت الى المركب وهيأنا حالاً للسفر الا اننا لم نقلع تلك الليلة . وفي اليوم القادم باكرًا اتى رجلان من الخمسة الذين تركناهم في الجزيرة سابحين الى جانب المركب وطلبا ان نقبلهما اكرامًا لله في المركب لانهما كانا يخافان من ان يقتلهما الباقون واخذا يتراميان متواقعين على الرئيس ان يقبلهما وان كان يشنقهما حالاً . وعند ذلك تظاهر ان لا سلطة لهُ على ذلك بدون امري . الا انهُ بعد وعدهما الوثيق بالاصلاح قبلهما بصعوبة في المركب وبعد ان بقيا مدة يجلدان جلدًا شديدًا ويؤدبان بصرامة كل يوم صارا امينين مطيعين وهاديين الى الغاية

ثم بعد ذلك بقليل ارسل الرئيس قاربًا الى البرّ بعث فيهِ الاشياء التي وعدت بها الاسرى وبعث لهم معها اكرامًا لخاطري صناديقهم وثيابهم فاخذوا ذلك بالشكر . وكنت قد وعدتهم جبرًا لخاطرهم باني اذا قدرت سارسل مركبًا يأخذهم ولا انساهم

ولما ودّعت الجزيرة اخذت معي الى المركب لاجل التذكر القبع الكبير الذي عملتهُ من جلود المعزى وشمسيتي وواحدًا من ببغاواتي . ولم انسَ ان آخذ النقود التي ذكرتها قبلاً وكان قد مضى عليها مدة طويلة عندي من دون ان استفيد منها شيئًا حتى علاها العفن والوسخ ولم تعد تعرف انها فضة الا بعد فركها قليلاً وتداول الايدي لها . واخذت ايضًا الدراهم التي وجدتها في المركب الاسبانيولي وهكذا فارقت الجزيرة في اليوم التاسع عشر من شهر كانون الاول كما ظهر لي من دفتر المركب وذلك سنة ١٦٨٦ بعد ان صرفت فيها ثماني وعشرين سنة وشهرين وتسعة عشر يومًا . فخلصت من هذا

السبي الثاني في نفس اليوم والشهر الذي هربت فيهِ في الكوثر من بد مغاربة سلي . وبعد سفر طويل في ذلك المركب وصلت الى بلاد الانكليز في ١١ حزيران سنة ١٦٨٧ بعد ان بقيت غائبًا خمسًا وثلاثين سنة

شعرٌ

ان الليالي للانام مناهلٌ تطوى وتنشر دونها الاعمارُ
فقصارهنَّ مع الهموم طويلةٌ وطوالهنَّ مع السرور قصارُ

الفصل الثامن والعشرون

ذهاب روبنصن كروزي الى لسبون ومقابلتهُ الرئيس البرتوغالي وذهابهُ من هناك الى انكلترا برًّا

فلما وصلت الى بلاد الانكليز كنت غريبًا عند جميع الناس كأني لم اكن قط هناك . وان المحسنة اليَّ وخزينتي الامينة التي كنت قد تركت مالي بيدها كانت لم تزل حية الاَّ انها صادفت مصائب كثيرة في العالم وترملت ثانية وصارت فقيرة جدًا . ولم اشدد عليها في طلب ما كان لي عندها بل اكدت لها باني لا ازعجها بل بالحري اساعدها بقدر ما تسمح لي بهِ وسائطي وفاء لمعروفها نحوي . ولم انسها عند ما كان عندي كفاءة لمساعدتها كما سيأتي بيانهُ

في مكانو . ثم انحدرت بعد ذلك الى بوركشير . وكان ابي وامي توفيا وكل العائلة انقطعت الا اختين وولدين لاحد اخويّ . واذ كانوا قد ظنوا اني متُّ منذ زمان مديد لم يحسبوا لي حساباً . وهكذا لم اجد شيئاً يساعدني في قضاء حاجاتي والنقود القليلة التي كانت عندي كانت غير كافية لان تساعدني كثيراً في معيشتي في الدنيا

الا انهُ عمل معي معروف لم اكن انتظرهُ . وذلك ان الرئيس الذي خلصتهُ وخلصت مركبهُ وسنتهُ كما سبق اخبر اصحاب المركب بما عملتهُ من المعروف من هذا القبيل وكيفية خلاصي حياة الرجال والمركب فكلفوني ان اجتمع بهم وبتجار آخرين لهم تعلق بذلك المركب . ولما اجتمعت بهم شكروني جميعاً شكراً جميلاً على ما عملتهُ وقدموا لي صرة فيها نحو مائتي ليرا انكليزية

ثم بعد ما تأملت مدة في ظروف حياتي وكيف ان ذلك لا يكفي لتسليك اموري في العالم عزمت على السفر الى لسبون لعلي افهم شيئاً هناك عن احوال عقاراتي في البرازيل واحوال شريكي الذي كانت لي اسباب تحملني على الظن بانهُ يكون قد حسب باني متُّ منذ سنين كثيرة . وهكذا ركبت مركباً متوجهاً الى لسبون فوصلت الى هناك في شهر نيسان تلك السنة . وكان خادمي جمعة مرافقاً لي بكل امانة في كل هذه الاسفار وكان اصدق خادم في جميع الاحوال . فلما وصلت الى لسبون وجدت بواسطة الفحص صديقي القديم رئيس ذلك المركب الذي قبلني في ما كنت هارباً على شطوط افريقية ففرحت جدًّا بمصادفتي اياهُ . وكان قد شاخ واعتزل السفر في البحر ووضع ابنهُ الذي كان قد تجاوز سنّ الشباب في مركبهِ وكان لا يزال يتعاطى تجارة البرازيل . وان الرجل الشيخ لم يعرفني ولا انا عرفتهُ في اول الامر الا اني تذكرتهُ وذكرتهُ سريعاً بنفسي لما اخبرتهُ من انا

ثم بعد ان صرفنا مدة في الكلام عن ايامنا واحوالنا القديمة سألتهُ عن

عقاراتي وشريكي فاخبرني انه لم يمضِ الى البرازيل منذ نحو سنين تقريبًا وانه عند ما سافر من هناك كان شريكي لم يزل حيًّا . واما الوكيلان اللذان اقمتهما معهُ على حصتي فكانا كلاهما قد ماتا . وانهُ مع ذلك يظن ان ستكون لي اخبار جيدة جدًّا عن تقدم املاكي هناك وذلك لانهُ عند تواتر الاخبار باني قد غرقت قدَّم وكيلاي حساب محصولات سهمي من العقارات الى ناظر الاملاك وهذا خصص ثلثها بالملك والثلثين الباقيين بدير مار اوغسطينوس لاجل توزيعها على الفقراء ولاجل رجوع الهنود الى الايمان الكاثوليكي وذلك على شرط اني لا آتي ابدًا واطلبها ولكن اذا تقدمت انا او احد آخر بالوكالة عني لاجل الادعاء بالارث يجب تسليم العقارات عينًا واما الغلال فلا ترجع لانها تكون قد صرفت في اعمال الصدقة . واكد لي ان ناظر الاملاك المقام من طرف الملك ووكيل الدير كانا يطلبان كل سنة من شريكي الذي كان واضعًا يدهُ على الاراضي حسابًا مدققًا عن الغلال ويستولهان على النصف الذي يخصني . ثم سألته الى اي درجة من التقدم كان قد اوصل تلك الاملاك وهل يظنُّ انها تستحق ان يسأل عنها او هل اذا ذهبت الى هناك اصادف مانعًا من استلام حصتي التي هي حق شرعي . فاجابني انهُ لا يمكنهُ ان يخبرني الى اي درجة من التقدم وصلت املاكي الَّا انهُ يعلم ان شريكي صار غنيًّا جدًّا بواسطة تمتعهِ بسهمهِ منها وانهُ على قدر ما يذكر قد سمع ان ثلث الملك من حصتي الذي بيان انه كان يتم يوعلى دير آخر او محل للفقراء كان يبلغ اكثر من مائتي ليرا برتوغالية كل سنة اي نحو الف ومائتي ريال . واما امر استلامي لها من دون صعوبة فهو مما لا يشك فيهِ وذلك لان شريكي لم يزل حيًّا وهو يشهد بان لي حق الاستيلاء عليها . وعدا ذلك ان اسمي هو مسجل في دفتر البلاد . وقال لي ايضًا ان ورثاء وكيليَّ هم امناء صادقون واغنياء جدًّا وانهُ لا يشكّ بانهم يساعدونني في استلام ملكي واني سأجد في ايديهم مبلغًا وافرًا من الدراهم لحسابي من غلة الاملاك التي نتجت في مدة وكالة والديهم اي قبل

ان اذنلت على الوجه السابق ذكرهُ . وان تلك المدة كانت على قدر ما يذكر نحو اثنتي عشرة سنة

فظهرت عليَّ لوائح الازعاج والاضطراب عند ما سمعت هذه الاخبار فسالت الرئيس الشيخ كيف امكن الوكلاء ان يتصرفوا هكذا بملكي مع اني كنت قد كتبت وصيتي واقمتهُ هو اي الرئيس البرتوغالي وريثًا عامًا لكامل تركتي الخ . فاجاب ذلك صحيح ولكن اذ كان لا توجد بينة تثبت اني متُّ لم يكن يمكنهُ ان يجري وصيتي الاَّ بعد تأكد وفاتي وانهُ فضلاً عن ذلك لم يشأ ان يتداخل في امر بعيد بهذا المقدار . وانهُ كان قد سجل وقدم دعواهُ ولو امكنهُ ان يثبت اني قد متُّ او اني باقٍ في الحياة لكان تصرف نظير وكيل او وصيّ واستولى على معمل السكر وفوض الى ابنهِ الذي كان حينئذٍ في البرازيل امر التصرف فيهِ . ثم اردف ذلك بقولهِ ولكن عندي خبرٌ صغير اخبرك بهِ وربما لا يسرك نظير باقي الاخبار وهو اني اذ افتكرت انك قد متُّ وكان الناس جميعًا يفتكرون هكذا عرض شريكك ووكلاك ان يحاسبوني بالوكالة عنك عن الست السنين او الثماني السنين الاولى فقبلت ذلك منهم . واذ نفذ في ذلك الوقت مصاريف كثيرة لاجل زيادة الاشغال وعمار معمل السكر ومشترى العبيد لم يكن الربح حينئذٍ بقدر ما كان في ما بعد . وساقدم لك حسابًا حقيقيًا عما وصل لديَّ وعن كيفية تصرفي بهِ

ثم بعد ان صرفت بعض ايام ايضًا في الحديث مع ذلك الصديق القديم قدَّم لي حساب دخل الست سنين الاولى ممضيًا من شريكي ووكيليَّ وكان قد استولى عليهِ عينًا اي التبغ حزمًا والسكر صناديق ما عدا الروم والدبس الخ ما كان ينتج من معمل السكر . ووجدت لدى فحص ذلك الحساب ان الدخل كان يزيد كثيرًا سنة فسنة . ولكن اذ كانت المصاريف باهظة كما تقدم كان الصافي من الدخل اولاً قليلاً . الاَّ ان ذلك الرجل الشيخ اراني مع ذلك انهُ كان لي في ذمتهِ اربعمائة وسبعون ليرا برتوغالية وستون صندوق

سكر وخمس عشرة حزمة مزدوجة من التبغ فقدت في مركبهِ عند ما انكسر وهو راجع الى لسبون وذلك بعد سفري من الموضع بنحو احدى عشرة سنة . ثم الشيخ المسكين يشكي لي من النكبات التي حصلت لهُ حتى التزم ان يصرف دراهمي في تعويض خسائرهِ ومشترى سهم في مركب جديد . ثم قال ولكن يا صديقي القديم اني لا ادعك تحتاج ولا تقع في ضيقة من جهة النقدية وبعد ان قال ذلك اخرج جرابًا عتيقًا واعطاني مئة وستين ليرا برتوغالية ذهبًا ثم ناولني حجة المركب الذي كان ابنهُ قد سافر فيهِ الى البرازيل وكان لهُ فيهِ ربع ولابنهِ ربع ووضعها رهنًا يودي على المبلغ الذي بقي لي عندهُ

فتأثرت جدًّا من امانة ومعروف ذلك الرجل المسكين حتى اني لم اطق ان احتمل ذلك . وعند ما تذكرت ما عملهُ لاجلي وكيف قبلني في مركبهِ وكان في جميع الاوقات كريمًا نحوي وعلى الخصوص خلوص محبتهِ لي في ذلك الوقت كدت لا اتمالك نفسي من البكاء عند ما سمعت ما قالهُ لي . واذ ذلك سألتهُ اذا كانت ظروف حالهِ تسمح لهُ بالاستغناء في ذلك الوقت عن المبلغ الذي دفعهُ لي واذا كان لا يحصل في ضيقة من جرى ذلك . فاجابني انهُ لا يقدر ان يقول الآن ان ذلك يضايقهُ قليلاً ولكن المال مالي وربما كنت محتاجًا اليهِ اكثر منهُ

وكان كل ما قالهُ ذلك الرجل الصالح موعبًا محبة وحنوًّا وكنت بالكد اضبط دموعي عند ما كان يتكلم . فاخذت فقط مئة ليرا من الليرات وطلبت قلمًا وحبرًا لكي اعطيهِ وصلاً بذلك ثم ارجعت لهُ ما بقي وقلت لهُ اني اذا حصلت على املاكي سارجع لهُ ايضًا المئة التي اخذتها . وقد فعلت ذلك في ما بعد . واما حجة المركب فأبيت رأسًا قبولها رهنًا لاني كنت متحققًا اني اذا احتجت الى النقدية فلما كان منطويًا عليهِ من الامانة سيدفع ذلك اذا قدر من دون احتياج الى رهن واذا لم احتج الى ذلك بل استوليت على ما جعل لي املاً في انتظارهِ لن آخذ منهُ ايضًا درهمًا واحدًا

وبعد ان فرغنا من ذلك سالني الرجل الشيخ اذا كنت اريد ان يدلني على طريق لاسترجاع املاكي . فقلت له ان مرادي ان اذهب الى هناك بنفسي. فقال انه يمكنني ان افعل ذلك ان شئت ولكن اذا لم اشأ ان اتوجه الى هناك توجد طرق كثيرة للحصول على حقي والاستيلاء سريعًا على ارباحه . واذ كان حينئذٍ في مينا لسبون مراكب على همة السفر الى البرازيل اشار عليَّ ان اقيد اسمي في سجل الحكومة مع شهادته بكوني باقيًا في الحياة وكوني انا نفس الرجل الذي اشتريت الارض لاجل زرع وتعمير تلك المزرعة اولاً . ثم بعد ان قيد ذلك ناظر الاملاك وصحح عليه بخطه وختم مأموريته وعلق عليه ورقة وكالة اشار عليَّ الرئيس ان ارسله مع مكتوب بخطه الى تاجر من معارفه في البرازيل وابقى عنده منتظرًا مجيء الجواب

ولم يجرِ شيء باكثر نصاحة وشرف مما اجريت به تلك الوكالة لانه في أقل من سبعة اشهر ورد اليَّ رزمة كبيرة من ورثاء وكيلي اللذين سافرت تلك السفرة المشومة على حسابهما وكانت تلك الرزمة تحتوي على المكاتيب والاوراق الآتية

اولاً صورة الحساب الجاري لمحصولات مزرعتي من السنة التي كان والداهم قد قدما فيها حسابًا للرئيس البرتوغالي اي عن مدة ست سنين فكان الصافي لحسابي بعد كل المصاريف الفًا ومئة واربعًا وسبعين ليرا برتوغالية

ثانيًا صورة حساب محصولات اربع سنين اخرى عند ما كانوا واضعين يدهم على الاملاك قبل ان ادعى الى الحكم بحق الاستيلاء عليها بناء على انها تركة شخص مفقود وكانوا يسمون ذلك موتًا شرعيًا . وكان صافي ذلك بعد المصاريف نحو ثلاثة آلاف ومئتين واربعين ليرا برتوغالية لان قيمة المزرعة كانت قد زادت كثيرًا

ثالثًا صورة حساب رئيس دير مار اغوسطينوس الذي كان قد استولى على ما يخصني من المحصولات اكثر من مدة اربع عشرة سنة ولكن اذ كان غير ملتزم ان يحاسبني عما صرفه في البرّ اقرّ بكل امانة انه كان باقيًا بيده من دون توزيع ثمانمئة واثنان وسبعون ليرا برتوغالية فقرّر انها محفوظة تحت امري. واما حصة الملك فلم تحصل لي منها نتيجة

وكان في تلك الرزمة مكتوب من شريكي يهنئني بكل محبة بالسلامة ويخبرني عن تقدم المزرعة وعما يدخل منها كل سنة. ويذكر كمية مساحتها وكيفية زرعها وعدد العبيد فيها. ثم بعد ان رسم في المكتوب اثنين وعشرين صليبًا طلبًا للبركات قال انه صلى كمية معينة من السلام لك يا مريم شكرًا لمريم العذراء المباركة على بقائي حيًّا. والحّ عليّ في المكتوب بالحضور واستلام ما يخصني او ان اخبرهُ من هو الشخص الذي اريد ان اسلمهُ ما يخصني اذا لم اشأ الحضور بنفسي. وختم المكتوب بتاكيدات محبتهِ الخالصة القلبية وسلام عائلتهِ المحروسة. وارسل لي هدية خمسة جلود لطيفة من جلود النمورة كانت قد ارسلت له من افريقية في مركب يبان ان سفرتهُ كانت مقرونة بالتوفيق اكثر من المركب الذي سافرت انا فيهِ الى هناك. وارسل لي ايضًا خمسة صناديق فيها حلويات فاخرة وخمسين قطعة ذهب مطروقة ولكنها لم تكن كبيرة بقدر الليرا البرتوغالية. وارسل لي وكلائي مع المركب نحو الفًا ومئتي صندوق من السكر وثمانمئة حزمة من التبغ وباقي الحساب ذهبًا

ويحق لي ان اقول ان اخريات ايوب كانت احسن من اوليائهِ ولا اقدر ان اشرح ما خامرني من الحبور والبهجة عند ما وجدت كل ثروتي حولي. وبما ان مراكب البرازيل تاتي دائمًا عمارات معًا فان نفس المراكب التي اتت بمكاتيبي اتت ببضائعي ايضًا. وكانت الامتعة قد وصلت الى مينا الامان قبل ان وصلت المكاتيب ليدي. وبالاختصار اقول انهُ اصفرّ لوني واصابني دوخ عند وصول تلك المكاتيب ولو لم يبادر الرئيس ويأتيني بروح النشادر كانت

الدهشة العجائبية الناتجة من شدة الفرح غلبت الطبيعة وكنت وقعت ميتاً في ارضي او كما يقال في سهلي . حتى اني بقيت مريضاً جداً مدة ساعات ثم اتى طبيب كنا ارسلنا في طلبهِ واذ عرف شيئاً من علة مرضي الحقيقية امر بفصدي وبعد ذلك استرحت قليلاً ثم شفيت تماماً . اني اعتقد يقيناً انهُ لو لم يتداركني الله بهذه الوسائط لكنت فارقت الحياة لا محالة

فصرت حينئذٍ وذلك بغتةً صاحب اكثر من خمسة آلاف ليرا انكليزية نقوداً وكان لي عقارات في البرازيل يدخل لي منها اكثر من الف ليرا كل سنة من دون ادنى خطر كانها في نفس بلاد الانكليز وبالاجمال صرت في حالة بالكد كنت استطيع ان اتصوَّرها او احتمل قوة الفكر في التمتع بها. فاول كل شيء عملتهُ هو اني كافأت المحسن الاصلي اليَّ اي ذلك الرئيس الصالح الذي احسن اليَّ اولاً في ضيقتي وعاملني بالمعروف في بدايتي وكان امينا في نهايتي . فاريتهُ كل ما أُرسل لي وقلت لهُ ان ذلك كان بسعيهِ بعد عناية الله الذي يدبر الامور باسرها وانهُ ينبغي لي الآن ان اكافئهُ وقلت لهُ اني سافعل ذلك الى مئة ضعف . فاني اولاً ارجعت لهُ المئة ليرا التي اخذتها منهُ . ثم استحضرت كاتباً من طرف الحكومة وجعلتهُ يكتب ورقة ابراء عامّ مسقط لكل دعوى على اكمل واثبت منوال بالاربعمائة والسبعين ليرا التي قال انها كانت لي في ذمتهِ . ثم جعلتهُ ايضاً يحرّر صك وكالة شرعية يعلن انهُ هو وكيلي في الاستيلاء على غلال ومحاصيل مزرعتي وان شريكي يجب ان يقدم الحساب لهُ ويرسل لهُ باسمي ما يتبع من حصتي مع المراكب التي ترد من هناك . وقد عينت لهُ في ذيل الحجة مئة ليرا برتوغالية كل سنة مدة حياتهِ هبةً مني لهُ يستولي عليها من اصل المحاصيل وخمسين ليرا برتوغالية ايضاً كل سنة لابنهِ بعدهُ مدة حياتهِ ايضاً وهكذا كافأت شيخي .

فبقي عليَّ حينئذٍ التبصر الى اين اتوجه بعد ذلك وماذا اعمل بالاموال التي القتها العناية هكذا بيدي . وبالحقيقة كان حينئذٍ هموم في راسي اكثر من

التي كانت فيهِ اذ كنت ساكنًا وحدي في الجزيرة حيث لم اكن محتاجًا الى شيء الاَّ ما كنت حاصلاً عليهِ ولا كنت احصل على شيء الاَّ ما كنت محتاجًا اليهِ. واما الآن فانهُ كان عليَّ شغل كبير وكان اهتمامي ان ادبرهُ. ولم يكن لي حينئذٍ مغارة اخبئ فيها دراهمي او مكان اضعها فيهِ من دون مفتاح ولا قفل الى ان يعلوها العفن والوسخ ولا يكون من يمسها بل كنت في حيرة لا اعلم اين اضعها ولا من استأمنهُ عليها. وكانت مصالحي في البرازيل تستدعيني اليها الاَّ اني لم اقدر ان افتكر بالتوجه الى هناك الاَّ بعد تدبير اموري ووضع اموالي بيدٍ امينة تحتفظ عليها في غيابي. فافتكرت اولاً في الارملة صديقتي القديمة التي كنت اعلم انها امينة ولا يمكن ان تغشني الاَّ انها كانت حينئذٍ قد طعنت في السن وصارت فقيرة الحال. ومن اين كنت اعلم انها ليست تحت دين. ولاجل الاختصار اقول اني لم اجد طريقًا الاَّ ان ارجع الى بلاد الانكليز وآخذ اموالي معي

الاَّ انهُ مضت اشهر قبلما عزمت على ذلك. ومن ثم كما كافأت الرئيس مكافأة تامة على قدر خاطرهِ لاجل احسانهِ اليَّ ابتدأت افتكر في صديقتي الارملة التي كان المرحوم زوجها هو المحسن الاول نحوي وكانت هي عند ما كانت قادرة خزينة امينة ومشيرة صادقة لي. وهكذا اوَّل شيء عملتهُ لها هو اني جعلت تاجرًا في لسبون يكتب الى عميلهِ في لندن ان يذهب بنفسهِ الى تلك الارملة ويدفع لها عني مئة ليرا نقودًا ويكلمها ويعزيها في حالة فقرها ويعدها باني اذا بقيت حيًّا لا انساها بل سارسل لها ما يسرهُ المولى. وارسلت في الوقت ذاتهِ لكلٍّ من اختيَّ مئة ليرا. ومع انهما لم تكونا فقيرتين كانتا غير مرتاحتين كما يجب في احوالهما. فان احداهما كانت تزوجت وترملت وكان للاخرى زوج لم يكن يلتفت اليها كما يجب عليهِ. ولكن لم اجد بين كل معارفي واقاربي من اركن ان اضع عندهُ كل اموالي بحيث

يمكنني ان اذهب الى البرازيل مرتاح البال من جهة مخلفاتي . وكان ذلك يزعجني كثيرًا

وقد خطر لي مرةً ان اذهب الى البرازيل واسكن هناك الاَّ انهُ كان في عقلي وسواس من جهة الديانة كان يمنعني من ذلك . على ان الذي عاقني عن التوجه الى هناك في ذلك الوقت لم يكن الديانة واذ لم يكن عندي وسواس من ان اكون متمسكًا جهارًا بديانة اهالي تلك البلاد في كل المدة التي كنت فيها بينهم في ما مضى لم يكن عندي وسواس حينئذٍ ايضًا . غير اني اذ صرت مؤخرًا افتكر مرةً بعد مرة في الديانة اكثر من السابق كنت عند ما ابتدئ اتصور اني ساحيا واموت بينهم اتأسف من اني كنت تابعًا للمذهب البابوي الذي كنت احسب انهُ ربما هو ليس احسن مذهب يموت الانسان فيهِ

ولكن لم يكن ذلك المانع الاصلي الذي منعني من التوجه الى البرازيل كما تقدم بل انما كان يمنعني من ذلك عدم معرفتي بيد من اخلف اموالي . وهكذا عزمت اخيرًا على التوجه بها الى بلاد الانكليز وعلى اني اذا وصلت الى هناك بالسلامة اتعرَّف باحد الناس او اجد احد الاقارب ممن يكون امينًا لي . وهكذا اخذت استعد للذهاب الى انكلترا عازمًا على ان آخذ كل ثروتي معي

فلكي اتهيأ الذهاب الى وطني ولما كانت عمارة البرازيل على همة السفر الى هناك كتبت اجوبة تليق بالاخبار المفرّحة الصادقة التي اتتني من هناك . فكتبت الى رهبان دير مار اغوسطينوس مكتوبًا مملوءًا شكرًا لهم على حسن تصرفهم وامانتهم وعرضهم عليَّ الثمانمئة والاثنين والسبعين ليرا الباقية بيدهم لحسابي . وطلبت منهم ان يأخذوا منها خمسمائة ليرا للدير ويوزعوا ما بقي على الفقراء بحسب معرفة الرئيس . طالبًا دعاء البادري لي وما اشبه ذلك . ثم كتبت مكتوب شكر لوكلائي مع كل ما تستحقة تلك الاستقامة

والامانة من المديح ولم ارسل لهم هدية لانهم كانوا اغنياء جدًّا لا يحتاجون اليها . واخيرًا كتبت تحريرًا لشريكي ومدحته على اجتهاده في نجاح المزرعة واستقامته في الاعمال واوضحت له ان يعتمد خاطر صديقي القديم في حصتي ويرسل له كل ما ينتج من قسمي الى ان اكتب له ايضًا باكثر تنه بل واكدت له رغبتي في القدوم اليه والاقامة هناك مدة حياتي الباقية . وارسلت له هدية لطيفة من الحرير الايطالياني لزوجته وابنيه لان ابن الرئيس كان قد اخبرني ان هذه عائلته وشقتين من الجوخ الانكليزي من احسن ما وجدته في لسبون وخمس شقق من الصوف الاسود وبعض مطرزات من شغل الابرة من افخر ما يوجد

ثم بعد ان تممت اشغالي هكذا وبعت وسقي واخذت ثمن بضائعي جميعها كمبيالات وقعت في صعوبة اخرى من جهة الطريق التي يجب ان اذهب فيها الى انكلترا . ومع اني كنت قد تعودت سفر البحر كنت اكرهُ حينئذٍ ان اذهب الى انكلترا بحرًا . ومع اني لم اعلم سببًا لذلك كانت كراهتي له عظيمة بهذا المقدار حتى اني كنت بعد ان ارسل امتعتي الى المركب لكي اسافر بحرًّا اعدل عن ذلك وذلك لا مرّة واحدة فقط بل مرّتين او ثلاث مرات

فتحقيق اني كنت لا حظَّ لي في سفر البحر وربما كان ذلك من جملة الاسباب التي كانت تجعلني اكرهه . ولا ينبغي لاحد ان يحتقرَ منبهات افكاره القوية في احوال كهذه . فان اثنين من المراكب ما كنت قد عزمت على السفر فيها وكنت قد ارسلت امتعتي الى احدهما وقاولت رئيس ثانيهما لم ينجحا في سفرهما . فان احدهما وقع اسيرًا بيد المغاربة والآخر ضيع بالقرب من توربي وغرق كل من كان فيه الاَّ ثلاثة اشخاص فقط . ومن ثم لو سافرت في احدهما كنت وقعت في مصيبة لا محالة

واذ كنت مرتبكاً هكذا في افكاري كان مرشدي القديم الذي كنت اكشف له كل اموري واطلعهُ على كل اسراري يحذرني من السفر بحراً وقد اشار عليَّ اما ان اذهب في البرّ الى كورونا واجتاز بسكي الى رونشلي ومن هناك اسافر برّاً الى باريس وكان ذلك السفر امينا هيناً ثم اذهب من باريس الى كاليس ودوفار واما ان اذهب الى مدريد وهكذا اسافر كل الطريق برّاً مجتازاً في فرنسا . وبالاختصار اقول اني كنت اكرهُ السفر بحراً بهذا المقدار ما عدا المسافة بين كاليس ودوفار حتى عزمت على ان اسافر كل الطريق برّاً . واذ كنت لا ابالي من طول المدة ولا اعبأ بكثرة المصاريف كان سفر البرّ الطف والذ عندي من سفر البحر . ولكي يكون سفري هذه المرة اكثر لذة دبر لي صديقي القديم خواجه انكليزياً ابن تاجر مقيم في لسبون رفيقاً يسافر معي ثم بعد ذلك وجدنا تاجرين انكليزيين وشابين برتوغاليين ارادوا ان يرافقونا . الا ان الشابين كانا ذاهبين الى باريس فقط . وهكذا كانت جملة زمرتنا ستة خواجات وخمسة خدم . فاما التاجران فكان معهما خادم واحد يخدمهما كليهما وكذلك الشابان وذلك لاجل توفير المصروف . واما انا فاني استخدمت بحرياً انكليزياً لكي يسافر معي بصفة خادم وذلك ما عدا غلامي جمعة الذي كان غريباً في تلك البلاد فلم يكن يغنيني عن خادم آخر في الطريق

وهكذا خرجت من لسبون . واذ كانت زمرتنا متجهزة جيداً في الخيل والسلاح كنا عسكراً صغيراً كانوا يدعونني قائدهُ . وذلك اولاً لاني كنت اكبرهم في السن ثانياً لانهُ كان معي خادمان وقد كنت في الحقيقة اصل كل ذلك السفر . واذ قد ازعجتك بقراءة اخبار اسفاري البحرية سازعجك بقراءة خبر سفري البرّي . ولا يجب ان اهمل ذكر بعض ما قاسيناهُ وصادفناهُ في تلك السفرة الشاقة المملة

فلما وصلنا الى مدريد واذ كنا جميعًا غرباء عن اسبانيا كنا نرغب ان نبقى مدة لنرى ديوان اسبانيا ونتفرج على ما يستحق الفرجة هناك ولكن اذ كان آخر الصيف اسرعنا في الخروج من هناك وقمنا من مدريد في اواسط تشرين الاول ولما وصلنا الى منقطع ناوادي اضطربنا اذ بلغنا في جملة قرى على طريقنا انهُ قد سقط ثلوج كثيرة على جانب فرنسا من تلك الجبال حتى ان كثيرين من المسافرين التزموا ان يرجعوا على اعقابهم الى بمبلونا بعد ان كانوا قد حاولوا بمخاطرة عظيمة ان يجتازوا من هناك

فلما وصلنا بمبلونا وجد الامر كما بلغنا . واذ كنت انا متعودًا دائمًا على الهواء الحارّ وعلى بلدان كنت لا اكاد اطيق ان البس فيها ثيابًا لشدة الحرّ كان البرد لا يطاق عندي . وكان امرًا مذهلاً كما كان موجعًا الانتقال في مدة عشرة ايام فقط من الدكن حيث كان الهواء حارًا جدًّا الى مكان كنا نشعر فيهِ بريح باردة وحادّة جدًّا لا تطاق قادمة من جبال بيرينيا حتى كنا نخشى من ان تخدر اصابع ايدينا وارجلنا ماتية وتسقط متناثرة من شدة الصقيع

وان جمعة المسكين خاف جدًّا عندما رأى الجبال جميعها مغطاة بالثلج وشعر بالبرد مع انهُ كان لا رأى ولا شعر بشيء من ذلك في حياتهِ . ولاجل زيادة الحس لما وصلنا الى بمبلونا كانت تثلج بكثرة وبقيت كذلك مدة طويلة حتى قال الاهالي ان فصل الشتاء قد اقبل قبل اوانهِ . والطرقات التي كانت صعبة المسلك قبلاً صارت حينئذٍ مسدودة لا يمكن السلوك فيها اصلاً لان الثلج كان في بعض الاماكن سميكًا جدًّا حتى انهُ لم يمكننا ان نسافر عليهِ من دون ان نموت بردًا او كما يقال دفنًا كما هو الحال في البلدان التي في القطبة الشمالية . ولهذا لم يمكننا السفر من دون ان نكون في خطر من ان ندفن احياء في كل خطوة . فمكثنا في بمبلونا عشرين يومًا او اكثر . فلما رأيت ان

فصل الشتاء قد صار قريبًا على الابواب ولم يكن لي الامل في استقامة الهواء لان ذلك الفصل كان اقسى فصول الشتاء في كامل اوربا التي مرّت براس انسان من ابناء ذلك الزمان ارتأيت ان نذهب جميعنا الى فتاراييا ومن هناك نسافر في احد المراكب الى بردوكاس وهي قرية صغيرة جدًا . ولكن بينما كنت افتكر في ذلك اذا باربعة خواجات فرنساويين قد دخلوا بيلونا . واذ كانوا قد توقفوا عن المسير على جانب فرنسا كما توقفنا نحن عن ذلك على جانب اسبانيا وجدوا دليلاً حاذقًا قطع بهم البلاد بالقرب من راس لنكوبدوك وجزع بهم الجبال في طرق لم يتعبوا فيها كثيرًا من جهة الثلج لانهم كانوا اذا وصلوا الى موضع فيه ثلج كثير يعبرون عليه بخيلهم لانه كان متجلدًا تجلدًا كافيًا لان يحملهم ويحمل خيلهم . فاستحضرنا ذلك الدليل فقال لنا انه يكفل الذهاب بنا في الطريق نفسه من ان يلحقنا اذى من الثلج بشرط ان يكون معنا سلاح كافٍ نقي به انفسنا من الوحوش البرية . لانه قال انها تتردد احيانًا كثيرة الى تلك الاماكن الكثيرة الثلوج عند حضيض الجبال ضباع مفترسة صارت كاسرة من جرى عدم الاكل لان الارض كانت مغطاة بالثلوج. فقلنا له ان عندنا اسلحة كافية لمقابلة تلك الوحوش مهما او كيفما كانت اذا ضمن لنا غائلة جنس من الضباع ذي قائمتين فقط ما بلغنا ان الخطر علينا من جهته اعظم ما هو من ذوات الاربع قوائم ولا سيما على الجهة الفرنسوية من تلك الجبال . فاقنعنا بانه لا يوجد خطر من ذلك الجنس في الطريق التي مراده ان يأخذنا منها . وهكذا اتفقنا حالاً ان نتبع ذلك الدليل وقد تبعه ايضًا اثنا عشر خواجه غيرنا مع خدمهم بعضهم فرنساويون وبعضهم اسبانيوليون ممن كانوا قد حاولوا الذهاب كما ذكرت سابقًا ثم التزموا ان يرجعوا الى الوراء

فسافرنا من بيلونا مع دليلنا في ١٥ تشرين الثاني واخذني العجب عندما رأيت انه عوض ان يتقدم بنا الى ما قدام رجع بنا الى الوراء في نفس الطريق

التي جئنا بها من مدريد مسافة نحو عشرين ميلاً وبعد ان عبرنا نهرين ووصلنا الى السهول وجدنا انفسنا في بلاد حارَّة لطيفة لا يوجد فيها ثلج بالكلية . الاَّ اننا بعد ان درنا بغتةً الى اليسار دنونا من الجبال من جهة اخرى . ومع ان منظر الجبال والاودية كان هائلاً جدًّا قطعناها مع ذلك الدليل الحاذق الذي كان قد سافر مرارًا في تلك الشعاب واجتزناها في طرق معوجة ذات تعاريج كثيرة من دون انزعاج ولا ارتباك من جهة الثلوج . وبينما كنا سائرين اطللنا بغتةً على اعمال لكويدوك وكسكوني البهجة الخصبة التي كانت خضراء ونضيرة جدًّا وكانت لم تزل بعيدة عنا وكانت الطريق الباقية التي بيننا وبينها خشنة وصعبة في الغاية

الاَّ اننا اضطربنا قليلاً عند ما رأيناها تثلج بكثرة نهارًا وليلاً كاملين من دون انقطاع حتى انهُ لم يمكننا السفر . الاَّ ان الدليل قال لنا كونوا مرتاحي البال سيزول ذلك كلهُ بعد قليل ثم وجدنا اننا ابتدأنا ان نحدر كل يوم ونتقدم نحو الشمال اكثر من السابق وهكذا كنا نسير متكلين على دليلنا

———

الفصل التاسع والعشرون

مقابلة جمعة دبًّا وخروج الضباع على روبنصن ورفاقهِ وزواج روبنصن بعد رجوعهِ الى بلاد الانكليز

وقبل المغرب بنحو ساعتين اذ كان دليلنا قد سبقنا قليلاً حتى غاب عن نظرنا خرج علينا بغتةً من وادٍ عميق متصل بحرش عاصٍ ثلاثة ضباع كاسرة ثم تبعها دب مفترس وان اثنين من الضباع هجما على الدليل ولو كان بعيدًا كثيرًا عنا لكانا ابتلعاهُ قبل وصولنا اليهِ لخلاصهِ . فامسك احدهما فرسهُ والآخر دهمهُ دهمة قوية مفاجئًا اياهُ حتى لم تكن لهُ فرصة ولا بقي عقلهُ معهُ لكي يسحب طبنجتهُ بل كان يصرخ باعلى صوتهِ مستغيثًا بي . وكان خادمي جمعة بجانبي فامرتهُ ان يركض بفرسهِ ليكاشف عنهُ ويرى ما بالهُ . وحالما اشرف جمعة على ذلك الرجل المسكين صاح باعلى صوتهِ قائلاً يا مألي يا مألي . الّا انهُ لم يقف ولا توقف بل ركض بجراءة الى ان وصل اليهِ ورفع طبنجتهُ ورمى بالرصاص الضبع الذي كان قابضًا عليهِ فاصاب راسهُ

وكان من سعد ذلك الرجل المسكين ان الذي تقدم لنجدتهِ كان خادمي جمعة . لانهُ اذ كان متعودًا على تلك الوحوش في بلادهِ لم يخف من الضبع بل دنا منهُ وقتلهُ كما تقدم . فلو تقدم لنجدتهِ احد منا غير جمعة

لكان رمى الضبع بالرصاص من مسافة ابعد وربما كان اخطأ الضبع او اصاب الرجل .

وان ما حدث كان كافياً لان يرعب من كان اشجع مني ايضاً . و بالحقيقة انه وقع الرعب على كل زمرتنا عند ما سمعنا عند اطلاق الطبنجة دمدمة الضباع وعويلهم الهائل عن الجانبين . واذ كانت الاصوات تتضاعف بواسطة صدى الجبال كنا نظن انه يوجد منها عدد غفير . غير انها لم تكن قليلة بحيث لا يكون علينا خطر منها ولا باب للاحتساب من هجومها ولكن لما قتل جمعة ذلك الضبع فالضبع الآخر الذي كان قابضاً على الفرس افلتها حالاً ولم يلحق بها اذى لانه كان لاجل التوفيق قد امسكها من راسها فعلقت وداعات اللجام في انيابه . واما الرجل فانه انضام وتألم كثيراً . لان ذلك الوحش المائج عضه عضتين عضة في ذراعهِ وعضة في فخذهِ ما يلي الركبة . ومع انه كان قد دافع قليلاً كان قد كاد يسقط متهافتاً عن فرسهِ عند ما اقبل جمعة عليهِ ورمى الضبع بالرصاص

واننا عند ما سمعنا صوت طبنجة جمعة لكزنا خيلنا واخذنا نحضر مسرعين بقدر ما كانت الطريق الخشنة الشاقة تسمح لنا لكي نرى ماذا حدث وبعد ما تجاوزنا الاشجار التي كانت تعمي ابصارنا رأينا واضحاً ما حصل وكيف كان جمعة قد خلص الدليل المسكين الا اننا لم نعلم عند ذلك ما هو الوحش الذي قتله

ولم يحصل قط قتال ظهرت فيهِ شجاعة ورشاقة مثل القتال الذي حصل بعد ذلك بقليل بين جمعة والدب . ومع اننا ارتبكنا وخفنا عليهِ في اول الامر طربنا طرباً لا يوصف في ما بعد . ولا يخفى ان الدب ثقيل وضخم الجثة ولا يركض نظير الضبع الذي هو خفيف وسريع . وفي الدب مزيتان خاصتان بهِ وهما في الغالب قاعدتان لاعمالهِ . الاولى انه لا يتعرض عادة للناس ما لم يتعرضوا له اولاً او يكون جائعاً جداً . وربما كان كذلك حينئذٍ لان الارض كانت

مغطاة بالثلوج كما سبق . فاذا لم تعرض للدب فهو لا يتعرّض لك . ولكن يجب ان تجتهد في ان تعاملهُ باللطف وتحيد من طريقهِ لانهُ خواجه لطيف ظريف متمدن الأ انهُ لا يحيد خطوة عن طريقهِ حتى ولا لاجل ملك . واذا كنت خائفاً منهُ حقًّا يجب ان تفتش على طريق اخرى ولا تزال سائراً لانهُ احياناً اذا وقفت جامداً واخذت تتفرس فيهِ يحسب ذلك اهانة لجلالتهِ . واذا هوّلت عليهِ او رميتهُ بشيءٍ وان يكن عوداً صغيراً بقدر اصبعك فاصابهُ فانهُ يغضب ويترك كل عمل جانباً متفرغاً لاخذ ثارهِ ولابد من ان يأخذ ترضيةً لرد شرفهِ . فهذه هي المزية الاولى . واما المزية الثانية فهي انهُ حقود اذا أُهين مرة لا يتركك ابداً ليلاً ولا نهاراً بل يلحقك الى ان يدركك ويأخذ ثارهُ

وكان غلامي جمعة قد انقذ دليلنا لما وصلنا اليهِ . وبينما كان يساعدهُ في التحويل عن فرسهِ لانهُ كان قد تأذى وخاف جدًّا اذا بدب قد خرج بغتةً من الحرش وكان كبيراً هائلاً لم ارَ دبًّا نظيرهُ في حياتي . فارتعبنا جميعاً قليلاً لما رأيناهُ الأ جمعة فانهُ لما رآهُ كان يظهر جليًّا على وجههِ علامات الفرح والشجاعة وقال ثلاث مرات وهو يشير اليهِ متعجباً وَي وَي وَي . يا معلمي خليني اصالحهُ واهزّ بهُ . اني بتريدي بفضهكم شوَيّ

فتعجبت ما رأيتهُ فيهِ من الفرح والسرور فقلت لهُ يا جاهل انهُ يأكلك . فقال مرتين تاكلني تاكلني اني بتاكلوا . اني بفضهكم شويّ . انتوا اوقفوا هوني اني ابسطكن ثم جلس على الارض وخلع حذاءهُ في لحظة ولبس حذاء غيرهُ كان في جيبهِ وسلم زمام حصانهِ لخادمي الآخر واخذ بارودتهُ بيدهِ وكان يعدو بسرعة كهبوب الريح

وكان الدب يمشي رويداً رويداً لا يتعرض لاحد الى ان دنا جمعة منهُ ودعاهُ قائلاً اسمع اسمع انا اكلك كانهُ كان يفهم ما يقول . وكنا نحن نتبعهُ عن بعد . واذ كنا حينئذٍ قد نزلنا الى جانب جبال جكوني كنا قد دخلنا

جريًا طويلاً عريضًا حيث كانت البلاد مستسهلة وكانت اشجار ذلك الحرش كثيرة الاَّ انها متفرقة . وان جمعة الذي كان ساعيًا في اثر الدب ادركهُ سريعًا وتناول حجرًا كبيرًا ورماهُ بهِ فاصاب راسهُ الاَّ انهُ كان كانهُ قد رمى بهِ حائطًا فلم يحدث فيهِ ادنى ألم . وقد حصل بهِ على مرغوبهِ لانهُ اذ كان خاليًا من الخوف بالكلية فعل ذلك لكي يجعل الدب يرجع اليهِ ولحقهُ ويضحكنا . وان الدب حالما شعر بالضربة وراءهُ رجع على اعقابهِ ولحقهُ . وكان يخطو خطوات طويلة وينطنط راكضًا وراء جمعة . واما جمعة فقفل راجعًا واخذ يعدو ركضًا مقبلاً نحونا كانهُ يستغيث بنا . فعزمنا جميعًا ان نرمي الدب بالرصاص ونخلص جمعة منهُ . وقد غضبت جدًّا منهُ لانهُ ارجع الدب علينا مع انهُ كان قد تركنا وذهب في سبيلهِ . وما زادني غضبًا هربهُ بعد ارجاعهِ الدب . فناديتهُ قائلاً يا كلب اهذا اضحاكك ايانا ارجع وخذ حصانك ودعنا نرمي الوحش بالرصاص فلما سمع صوتي قال لا ترموا لا ترموا اهدءوا فتضحكوا كثيرًا . واذ كان قد سبق الدب رجع بغتةً الى احد جانبينا فابصر شجرة بلوط تلائم مرغوبهُ فاشار الينا ان نتبعهُ واستدار بسرعة وصعد على تلك الشجرة . وذلك بعد ان وضع بارودتهُ على الارض على مسافة سبع او ثماني اذرع عن اصل الشجرة . واما الدب فانهُ وصل بعد قليل الى الشجرة وكنا نحن نتبعهُ عن بعد . واول شيء عملهُ هو انهُ وقف عند البارودة وشمها الاَّ انهُ لم يمسها ثم اخذ يصعد الى الشجرة متشبثًا بها نظير هرّ وكان ثقيلاً وضخمًا جدًّا . وقد تعجبت من حماقة غلامي ولم ارَ في عملهِ شيئًا يستحق الضحك الى ان رأيت الدب يصعد على البلوطة

ولما وصلنا الى الشجرة رأينا جمعة قد صعد الى طرف صغير من غصن كبير منها وكان الدب قد وصل الى نصف طريقهِ اليهِ . وحالما وصل الدب الى القسم الضعيف من الغصن ضحك جمعة وقال لنا انظروا الآن بدي علّم الدب يرقص ثم اخذ يقفز ويحرك الغصن . فابتدأ الدب يتمايل الاَّ انهُ بقي في

مكانهِ واخذ يلتفت الى ورائهِ ليرى كيف يرجع الى الوراء. وعند ذلك ضحكنا من كل قلوبنا ثم دعاهُ كانهُ ظن انهُ يحسن التكلم باللسان الانكليزي وقال لهُ ما بالك لا تتقدم ايضاً تقدم الى ما قدام ايف يو بليز وكفَّ عن تحريك الغصن وكأنَّ الدب فهم ما قالهُ فتقدم قليلاً نحوهُ. وكان حينئذٍ وقت مناسب لضربهِ على راسهِ فقلنا لجمعة ان يهدأ لكي نرمي الدب بالرصاص فصاح بحرارة ارجاكم ارجاكم لا ترموا انا ارمي بعد وبعد بريد بعد قليل. ولاجل الاختصار نقول ان جمعة كان يقفز ويتطنط كثيراً والدب يقف حيناً متحيراً حتى اننا ضحكنا كفاية. الاَّ اننا لم نكن نعلم ماذا كان قصد جمعة ان يعملهُ بعد ذلك. لاننا ظننا اولاً انهُ كان يريد ان ينفض الدب ويرميهُ الى اسفل الاَّ ان الدب كان على حذر تام من ذلك لانهُ لم يتقدم كفاية ولا ارخى نفسهُ بل كان متمسكاً متشبثاً بمخالبهِ واقدامهِ العريضة حتى انهُ لم يخطر لنا ماذا تكون النهاية وكيف تنتهي تلك اللعبة. الاَّ انهُ لم يمضِ الاَّ قليل حتى كشف لنا جمعة ما غمض من اسرارها. فانهُ لما رأى الدب متشبثاً جيداً بالغصن ولم يقبل ان يتقدم الى ما قدام قال لهُ تيب تيب انت ما يجي الى قدام انا يجي انت ما يجي الى عندي انا يجي الى عندك. وعند ذلك تطرَّف الى اصغر طرف من من الغصن فانحنى من ثقلهِ فتدلى نازلاً برفق عليهِ فلما قرب الى الارض ارخى نفسهُ فجاء واقفاً على قدميهِ. ثم ركض الى بارودتهِ وتناولها ووقف مكانها. فقلت لهُ ارمهِ الآن بالرصاص فقال موش هلقيت موش هلقيت الي ما بنوص داوقت الي ما بقتل اني بريد يضحكم بعد. وهكذا كان فان الدب لما رأى عدوهُ قد هرب رجع بكل حذر زاحفاً الى الوراء على ذلك الغصن الى ان وصل الى كرسي الشجرة. وكان كلما زحف قليلاً ينظر الى ورائهِ. ثم زحف بعجزهِ الى اسفل وراسهُ الى فوق اذ كان متشبثاً بمخالبهِ ينقل رجلاً واحدة كل مرة طالباً الوصول الى الارض. وقبل ان لحقت رجلاهُ الارض تقدم جمعة نحوهُ وحكم بارودتهُ نحو اذنهِ ورماهُ بالرصاص في راسهِ فسقط الى الارض ميتاً. وعند

ذلك التفت نحونا ليرى انا كنا نضحك فلما ظهر له من منظرنا اننا مسرورون ضحك باعلى صوتهِ مقهقهًا وقال كذي متكتل الدب في بلادنا . فقلت كيف تقتلونهُ هكذا وليس عندكم بواريد . فقال صحيح ما عندنا بواريد ولكن نرمي بالقوس والنشاب بعيد كثير . وكان ذلك نزهة لنا . الا اننا كنا لم نزل في البرية وكان دليلنا في ضيم عظيم فلم نعلم ماذا نعمل . وكانت زمجرة الضباع تتعب راسي كثيرًا ولم اسمع قط شيئًا ازعجني بهذا المقدار الا الدمدمة التي سمعتها مرة على شطوط افريقيا كما ذكرت قبلاً

فكانت الاصوات واقبال الليل تستكدّنا للتقدم في طريقنا ولولا ذلك كنا قبلنا راي جمعة وسلخنا ذلك الوحش الهائل لان جلدهُ كان يستحق التعب ولكن اذ كان باقيًا علينا مسافة نحو ثلاثة فراسخ وكان دليلنا يستعجلنا تركنا ذلك الدب واخذنا ايضًا في طريقنا

وكانت طريقنا مغطاة بالثلوج الا انها لم تكن سميكة وخطرة كما كانت على الجبال . وكانت الوحوش الكاسرة كما بلغنا في ما بعد قد نزلت من شدة الجوع الى البلاد المنخفضة الكثيرة الاشجار طلبًا للطعام . وكانت قد احدثت اضرارًا كثيرة في القرى وقتلت كثيرًا من البهائم والمواشي والناس ايضًا . وقد اخبرنا دليلنا انهُ يوجد قدامنا مكان خطر يوجد فيهِ ضباع كثيرة وهو بقعة صغيرة محاطة بالاحراش من كل جهة ومعبر ضيق طويل كان لا بد لنا من ان نمرّ فيهِ لكي نقطع الاحراش الى ان نصل الى القرية التي كنا مزمعين ان نبيت فيها تلك الليلة . فلما دخلنا الحرش الاول كان باقيًا نحو نصف ساعة للمغرب ووصلنا الى تلك البقعة بعد المغرب بقليل . فلم نصادف شيئًا في الحرش الاول الا خمسة ضباع تجزع الطريق راكضة بعضها وراء بعض كانها تطارد شيئًا تراهُ قدامها . فلم تلتفت الينا وبعد دقائق قليلة توارت عن ابصارنا . وعند ذلك قال لنا دليلنا وكان جبانًا كونوا على حذر لانهُ سيمرُّ بنا ضباع غيرها . فكنا نسير والحيتنا معنا بايدينا واعيننا منتبهة الى ما حولنا

ولكننا لم نرضباعاً الاَّ بعد ان اجتزنا ذاك الحرش وكان نحو نصف فرسخ ووصلنا الى السهل . فلما دخلنا السهل كان لنا امكان لان نتطلع الى ما حولنا . فاول شيء صادفناهُ كان حصاناً ميتاً كانت الضباع قد قتلتهُ وكان اكثر من اثني عشر منها حولهُ مشتغلة فيهِ . ولا نقدر ان نقول انها كانت تاكل لحمهُ لانها كانت قد اكلت كل لحمهِ قبلاً بل كانت تمص عظامهُ . فلم نرَ نحن لزوماً لازعاجها في التمتع في وليمتها ولا التفتت الينا . واما جمعة فكان يريد ان يرميها بالرصاص الاَّ اني لم اسمح لهُ بذلك لاني رأيت انهُ ربما يكون عندنا شغل في ما بعد اكثر مما نقدر عليهِ . ولم نقطع نصف ذلك السهل حتى ابتدأنا نسمع زمجرة الضباع بنوع هائل في الحرش الذي عن يسارنا ثم رأينا نحو مئة مقبلة باستقامة نحونا وكانت جميعاً معاً واكثرها مصطفة صفّاً واحداً كجيش يدبرهُ قائد خبير . ولم اعلم كيف نلتقاها . ووجدت ان الطريق الوحيد هو ان نصطف نحن ايضاً مجتمعين معاً وهكذا فعلنا في دقيقة من الزمان . ولكي لا تمضي مدة طويلة بين الطلق والطلق امرت ان كل ثاني رجل في الصف يطلق اولاً وان البقية يكونون مستعدين لان يطلقوا البارود عليها طلقاً ثانياً حالاً اذا لبثت تتقدم نحونا وان الذين يطلقون اولاً لا يدكون بواريدهم ايضاً بل يقفون مستعدين بطبنجاتهم . لانهُ كان كل واحد منا متسلحاً ببارودة وطبنجتين . وهكذا كنا قادرين ان نطلق ست طلقات على النظام المذكور . الاَّ اننا لم نضطر الى ذلك حينئذٍ لانهُ عند الطلق الاول وقفت تلك الضباع مرتبكة حائرة لانها خافت من صوت البارود ونارهِ . وقد اصيب بعض منها في رؤوسها فوقعت الى الارض ميتة وجرح بعضها فنكص على اعقابهِ ودمهُ يسيل كما رأينا اثار ذلك على الثلوج . ولما رأيت انها وقفت ولم تهرب حالاً عرض لي ما كنت قد سمعتهُ قبلاً وهو ان اشرس الوحوش يخاف جداً من صوت الانسان فاوعزت الى زمرتنا ان يصرخوا جميعاً باعلى اصواتهم . وهي حالما سمعت الاصوات اخذت تنصرف راجعة عنا . ثم امرت

باطلاق طلق آخر على صفوفها وعند ذلك اخذت تركض بكل قوتها ذاهبة الى الاحراش

وفي تلك الاثناء دككنا اسلحتنا ونحن سائرون . ولم ننتهِ من دك اسلحتنا حتى سمعنا عن بعد صوتًا هائلاً في الحرش نحوه عن يسارنا في الطريق التي كنا مزمعين ان نمرّ فيها . واذ كان الليل قد اقبل واخذ الضوء بنزرْ اضطربنا وساءنا ذلك جدًّا . واذ كان الصوت يزيد لاح لنا انهُ صوت ضجيج تلك الوحوش الجهنمية . ثم رأينا بغتةً ثلاثة قطعان من الضباع عن يسارنا وخلفنا وامامنا . فكنا كاننا محاطون بها من كل جهة . ولكن اذ كانت لم تهجم علينا كنا نتقدم في طريقنا بقدر ما يمكن خيلنا ان تسرع . واذ كانت الطريق صعبة خشنة كانت مشية الخيل نطنطة . ولم نزل كذلك الى ان اطللنا على مدخل الحرش الذي كنا مزمعين ان نجتاز فيهِ عند منقطع السهل الّا اننا انذهلنا جدًّا لما رأينا عند ما قربنا من ذلك المدخل عددًا كثيرًا من الضباع واقفة هناك . وسمعنا في مدخل آخر من الحرش صوت بارودة . وبينما كنا ننظر نحو تلك الجهة رأينا حصانًا يخرج من الحرش وعلى ظهرهِ سرج وفي راسهِ لجام وكان يركض كهبوب الريح وستة عشر او سبعة عشر ضبعًا تركض وراءهُ بكل سرعة . وكان الحصان سابقًا اياها الّا اننا عرفنا انهُ لا يستطيع ان يبقى راكضًا على ذلك المعدل ولهذا كان لابد من ان تدركهُ اخيرًا وتفترسهُ

وقد نظرنا هناك منظرًا هائلاً جدًّا . فاننا حالما وصلنا الى ذلك المعبر الذي خرج منهُ الحصان رأينا هناك جثة حصان وجثتي رجلين قد افترستها الضباع الضارية . وينبغي ان يكون واحد من ذينك الرجلين هو الذي اطلق تلك البارودة التي سمعنا صوتها . لانهُ كان بجانبهِ بارودة فارغة وكان راسهُ قد اكل جميعهُ مع ما يليهِ من جسمهِ . فراعنا ذلك وملأنا رعبًا ولم نعلم كيف نتوجه . وفيما كنا في تلك الحالة المرتبكة اذا بالضباع قد هجمت علينا قاصدةً افتراسنا . واظن ان عددها كان نحو ثلاثمائة ضبع . ولكن اتفق لاجل

التوفيق انهُ كان بقرب ذلك المعبر بعيداً قليلاً عن مدخلهِ بعض اشجار قد قطعت في ايام الصيف السابق وربما كانت هناك برسم النقل الى جهة اخرى فاقتدت جيشي الصغير الى وسط تلك الاشجار ثم اصطففنا وراء شجرة طويلة منها اشرت على رفاقي ان يحولوا جميعاً عن خيلهم ويقفوا وراء تلك الشجرة على شكل مثلث واضعين الخيل في الوسط متخذين الشجرة التي امامنا متراساً لنا . وقد احسنا في ما فعلنا . لانهُ لم تكن قط هجمة اشد من هجمة اولئك الوحوش علينا في ذلك الموضع . فانها اتت وهي تضج وثارت الى تلك الشجرة التي ذكرت اننا اتخذناها متراساً لنا قاصدة ان تفترسنا . والظاهر انها زادت شراسة عند ما رأت خيلنا . فامرت رجالي ان يطلقوا بواريدهم بالترتيب كما فعلوا قبلاً محكموها تحكيماً جيداً واطلقوها فقتلوا عدة من الضباع في الطلق الاول . وكان يلزمنا ان نشغل عليها النار الدائمة لانها هجمت علينا نظير قرود . وكان المتأخر منها يزاحم المتقدم ويدفعهُ نحونا

وبعد ان اطلقنا الطلق الثاني من بواريدنا لاح لنا انها وقفت قليلاً فاملنا انها تنصرف راجعة عنا الآ ان ذلك لم يلبث الاّ دقيقة حتى تقدمت أُخر منها الى ما قدام فاطلقنا عليها طلقين من طبنجاتنا . واظن اننا في تلك الطلقات الاربع قتلنا منها سبعة عشر او ثمانية عشر وعطلنا ضعف ذلك تقريباً الاّ انها لم تكفّ وكنت اكره ان نبذر في ما كان معنا من الرصاص والبارود ونصرفهُ بسرعة . واذ كان غلامي مشتغلاً في دك البواريد والطبنجات بكل رشاقة وسرعة دعوت خادمي الآخر واعطيتهُ تنكة بارود وامرتهُ ان يفرغ ذلك على الارض بجانب تلك الشجرة باذراً اياهُ على طولها . ففعل كذلك وحالما ابعد قليلاً تقدمت الضباع الى الشجرة ووثب بعضها عليها وعند ذلك اطلقت طبنجة مدكوكة بالقرب من البارود فالتهب مشتعلاً . فاحترق بهِ ما كان قد صعد على الشجرة من الضباع وثار ستة او سبعة منها طافرة الى ما بيننا من قوة البارود وخوفاً منهُ فقتلناها في لحظة من الزمان . واما البقية فانها خافت

جدًا من النور الذي جعلة الليل هائلاً لان الظلام كان حينئذٍ شديداً فنكصت قليلاً راجعةً الى الوراء . وعند ذلك امرت باطلاق كل طبنجاتنا طلقًا واحدًا ثم ضججنا بعد الطلاق ضجة هائلة . وعند ذلك لفت الضباع اذنابها مدبرة فوثبنا حالاً على عشرين منها كنا قد جرحناها وكانت ساقطة على الارض تتمرغ في دمها فاخذنا نقطعها باسيافنا فكانت تعوي وتصرخ صراخًا هائلاً من شدة الألم وفهمت رفاقها معنى ذلك الصراخ فهربت جميعها وكفت عنا

وكان كل من قتلناهُ منها من البداءة الى النهاية نحو ستين ضبعًا. ولو كان ذلك نهاراً كنا قتلنا اكثر من ذلك . فلما نظفنا ساحة الحرب هكذا اخذنا ايضًا في طريقنا لانهُ كان باقيًا علينا مسافة نحو فرسخ . وقد سمعنا مرارًا ونحن سائرون تلك الوحوش تضج وتزمجر وكنا نظن اننا نرى البعض منها احيانًا . ولكن اذ بهرت اعيننا من الثلوج لم نقدر ان نتحقق ذلك . ثم بعد نحو ساعة من الزمان وصلنا الى القرية التي كنا قاصدين النزول فيها . فوجدنا اهاليها جميعًا مرتعبين جدًا ومتسلحين . لان الضباع والدبب كانت قد دخلت في الليلة السابقة الى القرية فراعتهم جدًا حتى التزموا ان يخفروا ليلاً ونهاراً ولا سيما ليلاً لاجل صيانة المواشي والناس ايضًا من تلك الوحوش الكاسرة

وفي غد ذلك اليوم صباحًا اشتدَّ مرض دليلنا وكان جسمهُ وارمًا جدًا بسبب جروحهِ حتى انهُ لم يستطع ان يسافر ايضًا . ولذلك التزمنا ان نستأجر هناك دليلاً غيرهُ ونذهب الى ثولوس حيث وجدنا الهواء حارًا والبلاد بهجة مخصبة ولم يكن هناك ثلج ولا ضباع ولا ما يشبه ذلك . ولما اخبرنا اهالي ثولوس بما اصابنا في الطريق قالوا ان ذلك كثير الوقوع في الحرش الكبير الذي في سفح الجبل ولا سيما عندما تكون الارض مغطاة بالثلوج . وسألونا كثيرًا عن الدليل الذي كان معنا وكيف تجاسر ان يأتي بنا في تلك الطريق في

مثل ذلك الفصل البارد جدًا . وقالوا لنا ان نجاتنا من افواه تلك الضباع كانت عجيبة . ولما اخبرناهم كيف اصطففنا ووضعنا خيلنا في الوسط لامونا جدًا وقالوا ان نسبة الخلاص في تلك الحالة الى عدمو كنسبة واحد الى خمسين . لان منظر الخيل هيج الضباع جدًا لانها رأت فريستها . وانها من عادتها في اوقات اخر ان تخاف من صوت البارود الاَّ انها اذ كانت حينئذٍ جائعة جدًا وهائجة بسبب ذلك جعلها رغبتها في الفتك بالخيل لا تبالي بالخطر الذي كانت فيهِ . واننا لو لم نشعل عليها النار الدائمة ونجفلها بواسطة البارود كانت لا محالة مزقتنا قطعًا . واننا لو بقينا على ظهور الخيل واطلقنا عليها بالرصاص ونحن راكبون لما حسبت الخيل فريسة لها ونحن على ظهورها كما حسبتها عند ما كنا محولين عنها . وقالوا لنا ايضًا اننا لو بقينا معًا وتركنا الخيل لكانت التهمت بها وكنا نحن انصرفنا بالامان وعلى الخصوص لان اسلحتنا كانت بأيدينا وكان عددنا كثيرًا . واني لم ارَ نفسي في خطر كما كنت حينئذٍ . لاني اذ رأيت نحو ثلاثمائة ضبع هاجمة علينا تزمجر فاتحة فاها لتبتلعنا ولم يكن لنا ما يظللنا او يسترنا منها ولا مكان نهرب اليهِ من امامها حسبت نفسي هالكًا لا محالة . واظن اني لا اريد ابدًا ان اقطع تلك الجبال مرة اخرى . واحبُّ اليَّ ان اسافر الف فرسخ بحرًا وان كنت متحققًا باني اصادف نوًا مرة كل اسبوع من ان اسافر سفرًا كهذا برًّا

ولم يحدث شيءٌ غير اعتيادي في سفري في فرنسا الاَّ ما اخبر بهِ باقي المسافرين بطريق اكمل مما يمكنني ان اخبر بهِ . فسافرت من ثولوس الى باريس وبعد ان اقمت مدة غير طويلة هنا سافرت الى كاليس ووصلت بالسلامة الى دوفار في اليوم الرابع من شهر كانون الثاني بعد ان قاسيت بردًا شديدًا في الطريق

فوصلت حينئذٍ الى نهاية اسفاري وكانت كل اموالي عندي بالامان

والبضائع التي احضرتها معي من لسبون دفعت لي في اوقاتها من دون ادنى تعلل ولا مماطلة

وكانت الارملة الصالحة صديقتي القديمة مرشدة لي وكاتمة لاسراري. فانها وفاء لي على تلك الدراهم التي ارسلتها لمالم تستثقل في مساعدتي مهما كانت تكلفها من التعب والاهتمام . وقد سلمتها كل شيء لي وكنت مطمئنًا مرتاح البال من جهة اموالي بيدها . وقد سررت جدًّا من البداءة الى النهاية باستقامة تلك المرأة الفاضلة وامانتها التي لا لوم فيها

وعزمت حينئذٍ على بيع املاكي في البرازيل فكتبت بشأن ذلك الى صديقي القديم في لسبون فعرضها على ورثاء وكيلي في البرازيل فقبلوا ذلك وارسلوا ثلاثة وثلاثين الف قطعة من الثمانية الى احد وكلائهم في لسبون ليدفعها للرئيس لحسابي فارسل لي الرئيس كمبيالات بمبلغ اثنين وثلاثين الفًا وثمانمائة من قطع الثمانية قيمة الاملاك بعد تنزيل ما عينته له ولابنه من المعاش السنوي كما علمت

ومع اني بعت املاكي في البرازيل لم اكن استطيع ان اخرج البلاد من بالي ولاان ادفع الميل الشديد الذي كان لي الى رؤية جزيرتي . وكانت الارملة صديقتي الصادقة تزهدني في السفر حتى انها منعتني مدة نحو سبع سنين من السفر الى خارج فاخذت في تلك المدة ابنَيْ اخي الى بيتي . واذ كان لاكبرهما قليل من المال ربيته كخواجه واوصيت له بشيء من مالي زيادة على ماله يستولي عليه بعد موتي . ووضعت الآخر عند رئيس مركب . وبعد خمس سنين اذ رأيته شابًا فهيمًا جسورًا نشيطًا وضعته في مركب جيد وارسلته الى البحر . وان ذلك الشاب جذبني فيما بعد مع كبر سني الى السفر بحرًا ايضًا

وفي تلك الاثناء استوطنت قليلاً هناك وتزوجت بامرأة ولم يكن ذلك ضد خاطري ولا ضد صالحي ورُزقت ثلاثة اولاد ذكرين وانثى ولكن اذ ماتت امرأتي ورجع ابن اخي الى اسبانيا من سفرة صادف فيها نجاحًا عظيمًا

غلب عليَّ الميل الى السفر والجاجة فوعدته بالذهاب في مركبهِ الى الهند الشرقي فظير تاجر. وكان ذلك سنة ١٦٩٤ وسيأتي بيان ذلك مع ذكر بعض حوادث غريبة جدًّا في بعض اسفاري الجديدة على مئة عشرين سنة في الجزء الثاني من هذه الرحلة ان شاء الله تعالى

وان المثل السائر العادة في البدن لايغيرها الأ الكفن لم يصدق قط في احد كما صدق فيَّ . فان كل من اطلع على قصتي يظن ان ميلي الطبيعي الى الطواف والجولان لا بد من ان يكون قد ضعف او زال بالكلية بعد ان قاسيت ما قاسيته من المصائب والمشقات والمخاطر في السفر وبحسب اني بعد ان صرت ابن احدى وستين سنة صرت اميل قليلاً الى الاستيطان والاقامة في البيت ولا اطلب ايضًا السفر ولاسيما لاجل طلب الرزق الذي كان قد صار عندي منه كفاية وزيادة عن احتياجاتي واحتياجات ذريتي بعدي . الأ ان ذلك جميعهُ لم يكن له تأثير فيَّ يكفي لدفع الميل القوي المنغرس فيَّ طبعًا نحو السفر الذي صار عندي مرضًا مزمنًا او كما يقال خامس طبيعة حتى اني كثيرًا ما كنت احلم بذلك في نومي واتكلم عنهُ دائمًا في منادمتي ولم اقدر ان اتكلم عن موضوع آخر غيرهِ حتى ان عشرائي كانوا يضجرون من حديثي وكنت انا نفسي اشعر بذلك الأ اني لم اكن استطيع ان اضبط نفسي عنهُ . وسيزيد ذلك وضوحًا بما سيرد ذكرهُ في الجزء الثاني من رحلتي

ما تبلغ الاعداء من جاهلٍ ما يبلغُ الجاهل من نفسهِ
والشيخ لا يترك اخلاقهُ حتى يوارى في ثرى رمسهِ
اذا ارعوى عاد الى جهلهِ كذي الضنى عاد الى نكسهِ
وان من ادبتهُ في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسهِ
حتى تراهُ مورقًا ناضرًا بعد الذي ابصرت من يبسهِ

يقول مترجمهُ عن اصلهِ الانكليزي ومهذبهُ وناظر طبعهِ الفقير الجاني
بطرس البستاني تمَّ الجزء الاول من التحفة البستانية في الاسفار
الكروزية وسيتلوهُ ان شاء الله تعالى الجزء الثاني وذلك في
رجوع روبنصن الى الجزيرة ثم سفرهُ الى الصين واماكن
اخرى . وكان الفراغ من تبييضهِ في اليوم الخامس
من شهر نيسان سنة ١٨٦١ في مدينة
بيروت المحمية والحمد لله
اولاً واخراً

فهرس

وجه

الفصل الاول . عائلة روبنصن ومفارقتهُ والديهِ ٠٠٣

الفصل الثاني . سفر روبنصن الاول في البحر ٠٠٨

الفصل الثالث . اسر روبنصن في سلي ٠١٨

الفصل الرابع . سفر روبنصن الثاني في البحر وغرقهُ ٠٢٥

الفصل الخامس . وجود روبنصن في جزيرة مقفرة ٠٥٠

الفصل السادس . انتقال روبنصن الى خيمتهِ ووحشتهُ ٠٦٣

الفصل السابع . ما صادفهُ روبنصن من الصعوبات لعدم الآلات ٠٦٧

الفصل الثامن والتاسع والعاشر . جرنال روبنصن ٧٤ الى ٠٩٧

الفصل الحادي عشر . طواف روبنصن في الجزيرة وعملهُ السلال ١١٣

الفصل الثاني عشر . رجوع روبنصن الى منزلهِ ونجاحهُ في امر الزراعة ١١٨

الفصل الثالث عشر . اصطناع روبنصن الخزف وآلات الخبز ١٢٦

الفصل الرابع عشر . استعداد روبنصن كروزي لمفارقة الجزيرة ١٣٣

الفصل الخامس عشر . عمل روبنصن قارباً وما قاساهُ من الاخطار ١٤٥

الفصل السادس عشر . تربية روبنصن المعزى وكيفية عيشتهِ ونجاحهِ ١٥٦

الفصل السابع عشر . احتساب روبنصن من اثر قدم رآهُ على الرمل ١٦٦

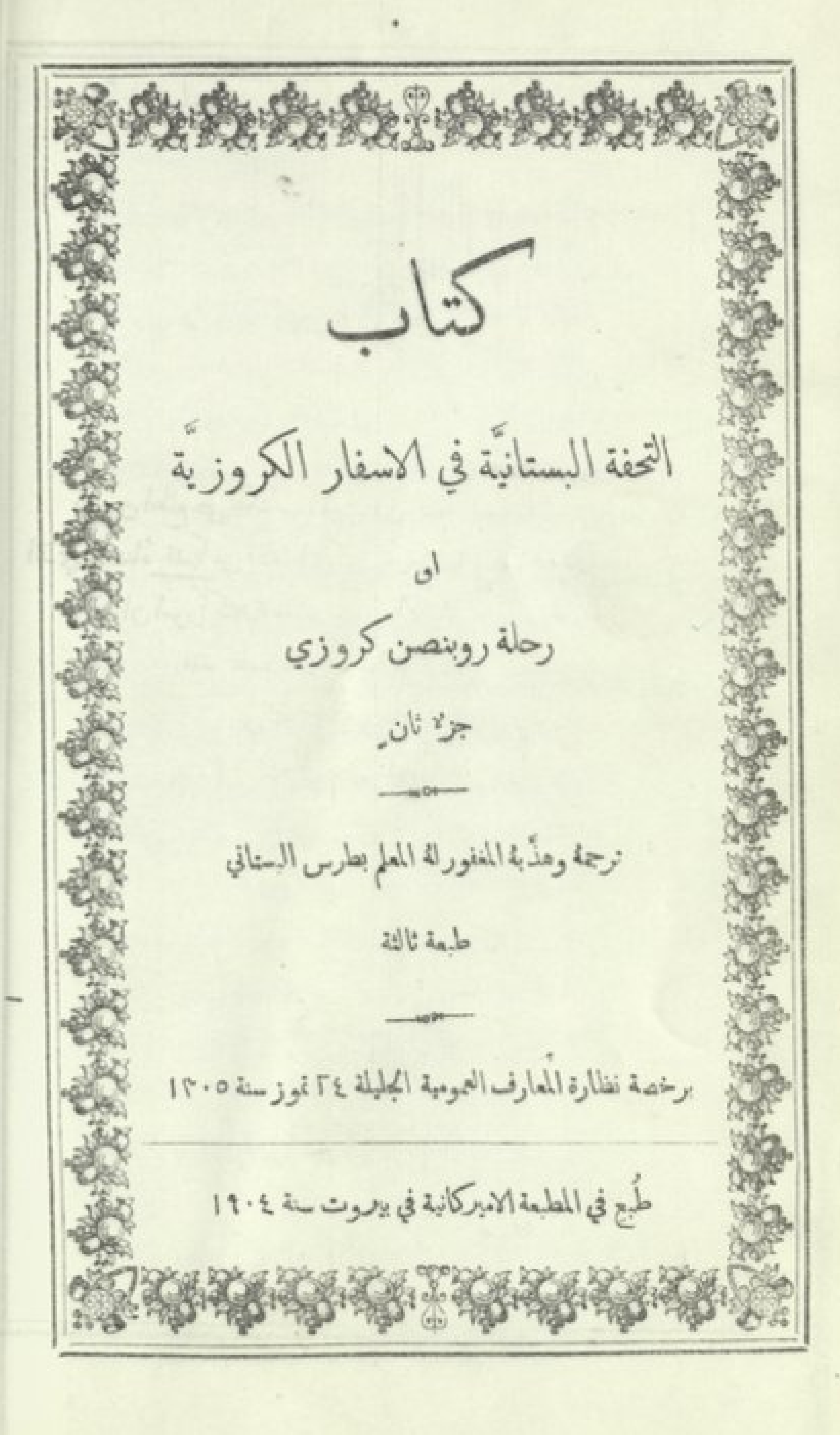
الفصل الثامن عشر . تدابير روبنصن وتردُّد البرابرة الى الجزيرة ١٧٦

الفصل التاسع عشر . وجود روبنصن مغارة يختبئ فيها من البرابرة ١٨٧

الفصل العشرون . مجيء البرابرة ثانيةً الى الجزيرة ١٩٥

الفصل الحادي والعشرون . اخراج روبنصن اشياء كثيرة من المركب واهتمامهُ بمفارقة الجزيرة وحلمهُ ٢٠٣

الفصل الثاني والعشرون . تخليص روبنصن اسيرًا من البرابرة وتسميته اياه جمعة واتخاذه اياهُ خادمًا له ٣١٦
الفصل الثالث والعشرون . اجتهاد روبنصن في تهذيب خادمهِ جمعة ٣٢٦
الفصل الرابع والعشرون . بناء روبنصن وجمعة قاربًا للذهاب الى بلاد جمعة ومجيء برابرة الى الجزيرة في تلك الاثناء ٣٣٦
الفصل الخامس والعشرون . انقاذ روبنصن رجلاً اسبانيوليًا ووجدان جمعة اباهُ وقدوم مركب انكليزي ٣٤٥
الفصل السادس والعشرون . اظهار روبنصن نفسهُ للرئيس الانكليزي ومساعدتهُ اياهُ على بحريتهِ ٣٦٤
الفصل السابع والعشرون . ما جرى بين ويل انكس والرئيس وتخليص المركب وخروج روبنصن من الجزيرة ٣٧٩
الفصل الثامن والعشرون . ذهاب روبنصن الى لسبون ومقابلتهُ الرئيس البرتوغالي وذهابهُ من هناك الى انكلترا برًّا ٣٩٠
الفصل التاسع والعشرون . مقابلة جمعة دبًّا وخروج الضباع على روبنصن ورفاقهِ وزواج روبنصن بعد رجوعهِ الى بلاد الانكليز ٣٠٥



كتاب

التحفة البستانيَّة في الاسفار الكروزيَّة

او

رحلة روبنصن كروزي

جزء ثانٍ

ترجمة وهذَّبهُ المغفور له المعلم بطرس البستاني

طبعة ثالثة

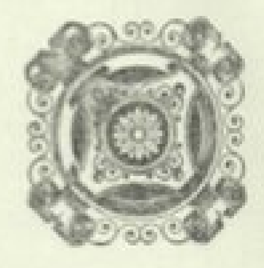
برخصة نظارة المعارف العمومية الجليلة ٢٤ تموز سنة ١٣٠٥

طُبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٠٤

الطبعة الاولى : كانت الجزء الاول فقط

مقدمة

كل من اطلع على الكتاب الاول من التحفة البستانية في الاسفار الكروزية الذي ترجمناهُ قديمًا من اللغة الانكليزية يعلم اننا وعدنا فيهِ بترجمة الجزء الثاني غير ان امورًا كثيرة حالت دون البر بالوعد بالسرعة. واما الآن فقد سنحت الفرصة بطبعهِ فطبعناهُ متكلين على الله سبحانهُ وتعالى راجين ان يسبل ذيل المعذرة على المفوات



الفصل الثلاثون

سفر روبنصن كروزي الثاني في البحر

ان حرارة تصوُّراتي وشدَّة تأملاتي كانت تذهب بي احيانًا وانا في اليقظة الى جزيرتي وكان يتراءى لي انني في قلعتي القديمة مستظلٌ تحت تلك الاشجار الشامخة والرجل الاسبنيولي الشيخ وابو جمعة والملاحون الاشقياء الذين تركتهم فيها يتكلمون معي وانا متفرسٌ في اوجههم . فاوقعني تكرار حدوث ذلك في خوفٍ لا مزيد عليهِ

فاصبحت محتارًا كمن فيهِ جنةٌ وجسمي نحيل كالذي بات في السقمِ
فاوهام افكارٍ واشباح غائبٍ ملأنَ فؤادي بالمخاوف والهمِّ

ففي احدى الليالي حلمت ان الاسبنيولي وابا جمعة جالسان امامي يخبراني ان الملاحين وهم الثلاثة القرصان كانوا قد حاولوا قتل جميع الاسبنيوليين واحرقوا كل ما كانوا قد خزنوهُ من الزاد ليميتوهم جوعًا . فاستغربت ذلك الحلم واندهشت منهُ كل الاندهاش لانهُ لم يطرق مسامعي خبرٌ كهذا قط على ان قوَّة التصوُّر اشتدَّت عليَّ جدًا حتى انني كدت اصدق صحة حلمي وليس فقط هذا بل كان يلوح لي انهُ لما بلغني ذلك اخذت في استنطاق الاشقياء فثبت عليهم الذنب وامرت بشنقهم وسيأتي ذكر ذلك بالتفصيل ان شاء الله تعالى .
وهكذا صرفت بعض سنوات وافكاري مملوءة من التصورات والتخيلات الباطلة وكانت كلها عن جزيرتي وساكنيها ولم يكن يلذُّ لي غير التأمل فيها وفيهم

فلما رأت ذلك امرأتي قالت لي ليلةً ما انني اظن ان العناية قد غرست فيك ميلاً شديدًا الى الرجوع الى جزيرتك والذي يؤخرك عن ذلك انما هو

انا وولدي . فاعلم انني اكره الابتعاد عنك ولكن لا ريب عندي انك سترجع اليها ان اراحك مني حلول الاجل لان الله سبحانهُ قد قدَّر لك الرجوع اليها . اما انا فلا احبُّ ان اكون عائقًا يعيقك عن تنفيذ مأربك . فان شئت ان تذهب فلا . . . . . فاوقفها عن التكلم وزاد ارتباكها شدَّة اصغائي لكلامها وتفرُّسي في وجهها . وكانت دموعها تتلألأُ في عينيها كالدر . فسألتها عما منعها عن الكلام وقلت لها يا عزيزتي أتحبين ان اذهب . فاجابت بحنوٍ لالا انني لا ارغب ذلك ابدًا غير انني افضّل الذهاب معك وتكبُّد الاخطار والمشاقّ على ان اكون مانعة لك عن تنفيذ مأربك واجراء ما يصبو اليهِ قلبك . هذا وانني اظن ان رجوعك الى هناك وقد بلغت من السن الشيخوخة فضلاً عن موانع شتى هو ضرب من الجهالة . ثم قالت ودموعها تذرف على خديها ان كان لابد من ذلك وقد قضى بهِ القدر ارى من اهم واجباتي ان لا اسلم لك بالذهاب وحدك بل امضي معك وان كان ذلك غير ممكن وكان لابدَّ من ذهابك اطلب الى الله ان يمنَّ عليَّ بقرب الاجل لئلا اكون سببًا يعيقك عن تنفيذ ما يشتهيهِ قلبك

فقالت وقد شقت جيوبًا ودمعها على خدها الوردي كالدر يلمعُ
وقد صافحت خدًّا صبوحًا يزينها وتحت سواد الشعر كالبدر يطلعُ
تهاجرني روحي اذا ما هجرتني ويوم وداعي النفس حزنًا تودعُ

فأثَّر فيَّ جدًّا كلام امرأتي الحنونة ونشلني من بحار تصوُّراتي الفارغة ورجع بي الى حيز التعقُّل وطرد عني تلك التخيلات والاوهام الفارغة . فقلت في نفسي ان سفري الى الجزيرة وركوبي تلك المشاق والمخاطر البحرية هو ضرب من الجنون ولا ينقاد اليهِ الاّ من ضاقت بهِ الفاقة ولا يقدر على القيام بحنوهِ الاّ من شددت عزائمهُ الصبوة

فاخذت في التأمل في ما انا عليهِ من الراحة وفي المصاعب التي كانت تحول بيني وبين الدهر . وكان لي حينئذٍ امرأة حامل وولد صغير السن . وقد كان

لي كل ما تشتهيهِ نفسي من لذّات هذه الحياة وافراحها وراحتها دون الاحتياج الى شيء يلجئني الى ركوب المخاطر لحصول عليهِ . وكنت اقول لنفسي انني قد بلغت سن الشيخوخة ومالت شمس حياتي نحو مغربها وعن قريب سأترك هذه الدنيا وخيراتها واذهب الى عالم الارواح . فلدى التامل بذلك برهة من الزمان اقتصرت على اميالي وعزمت من قلبي الميل الى السفر ببراهين ارشد في اليها لسان حالي . واعتمدت على التعلق باشغال يضطرني الامر الى ملازمتها وهكذا استأصلت من قلبي اصول اميالي المضرّة . وذلك لانهُ تبرهن لي جليًا ان تلك الافكار والاميال والتصوُّرات الفارغة كانت تتراكم عليَّ حينًا لا يكون لي ما اشغل بهِ نفسي . فصحّ فيَّ المثل السائر راس الكسلان مخزن الشيطان . فاشتريت حقلاً في بلاد بادفورد . وعزمت على الانتقال بعائلتي الى البيت الذي كان مبنيًا فيهِ . اما ترتيب البيت فكان جيدًا بريح ساكنهُ كل الراحة . واما الحقل فكان مخصبًا وقابلاً لاصلاحات كثيرة . ومن بعض محاسنهِ بعدهُ عن مجتمع الملاحين الذين كانوا يوسوسون افكاري باحاديثهم البهجة عن بلدان بعيدة وامم وشعوب ومدن عظيمة . فذهبت بعائلتي الى ذلك الحقل وتوطنت في ذلك البيت واشتريت معاول ومجارف وخيلاً وبقرًا ومركبات للشغل ومحاريث وغنمًا وماعزًا ومناجل وبالجملة كل ما يلزم لمن يتعاطى صناعة الحراثة واخذت في الشغل بجدٍ ونشاط لا مزيد عليها . وبعد نصف سنة رأيت انني ادركت درجةً عليا من صناعة الفلاحة . وجمعت ثروة لم يجمع اكثر منها اعظم الفلاحين اما انا فكنت اهتم كل الاهتمام في امر ادارة الفعلة وحراثة الارض وغرس الاشجار الجديدة . وهكذا كنت اصرف ايامي وانا رائع في جنة السعادة والحبور والسرور . لاهم ولا غم ولا حزن ولا خوف . وكنت حاصلاً على اسعد معيشة يصبو قلب الانسان الى الحصول عليها وعلى الخصوص من كانت قد حنكتهُ المصائب نظيري وكنت مطلق التصرُّف في اعمالي احرث اراضيَّ واغرس فيها الاشجار واقطع اليابس منها واجمع الغلال دون معارض

ولا مشارك . فتبين لي حينئذٍ ان في المعيشة الوسطى للذة وراحة تفوق لذة وراحة معيشة الاغنياء. فتذكرتُ حينئذٍ ما قالهُ لي ابي في هذا الصدد. فاعتدت على الرضى بها وهجر تلك الافكار الفارغة

ونجوتُ من همِّ الحياة وشرّها وبلغتُ من طيبِ المسرّاتِ المنى

فبينما كنت غائصاً في بحار تنعات وافراح هذه الحياة داهم بيتي ملاك الموت وفجعني بامرأتي . فاوقعني فقدها في همٍّ وحزن شديدين . وساق اليَّ من اليأس جيشاً عرمرماً . وهيج فيَّ تلك الهواجس الباطلة التي كانت قد خمدت بالوسائط التي كانت تفيضها عليَّ من بحر معرفتها . ومن اغرب الامور ان تلك الافكار رجعت اليَّ بعنف وعزم شديد لما شعرت بضعفي وبزوال الواسطة التي تطردها عني . فاعملت فيَّ عواملها وانتصرت عليَّ فانثنيت عما كنت عليهِ وطأطأت راسي ضعفاً وحزناً واخذت انوح على فقدان تلك التي يكلُّ قلمي عن وصفها . والتي كانت مركزاً لجميع اعمالي ومحوراً لكل اهتماماتي والواسطة التي بحكمتها وحسن ادارتها وصلت الى ما وصلت اليهِ من الراحة والسعادة . ونشلت من وسط زوابع المقاصد الباطلة التي كانت تتلاعب بافكاري . ونجوت من صدماتها الشديدة . فانها كانت تقوّم سبيلي بارائها الصائبة وتحبني كام حنونة . فما من اب او ام يقدران ان ينميا ويحبا ولدهما كحبها ومنفعتها لي. وكنت احب جدًّا ان اصغي الى توسلاتها وان اجيب طلبها . فالتفت بعد موتها الى ما حولي فرأيت نفسي كاني غريب عن الدنيا. وتذكرت وقت دخولي الى بلاد برازيل . ولولا الخدم الذين كانوا حولي لظننت نفسي في جزيرتي منفرداً فيها وحدي . وارتبكت كل الارتباك في اعمالي وآرائي واخذت امعن نظري في احوال هذا الدهر واهلهِ المنهمكين فيهِ . فرأيت هذا يكد لحصول على ما تقوم بهِ الحياة وذاك يغوص في بحار اللذات الفاسدة والافراح الباطلة وهما في اشنى حال. لانهما لم يتركا الكد والجد بل هما كمن يجد في طلب شيء يهرب من امامهِ فلا يستطيع ان يدركهُ. وكان هذا يجمع من اللذات جبالاً

عاقبتها الندم والحزن وذاك يكد ويفرغ قوته للحصول على ضروريات الحياة وهكذا كانا يصرفان حياتهما كانهما عاشا وكدّا ليحصلا القوت ووجدا ليكدا ويتعبا كأن الحصول عليهِ والكد هما غاية حياتهما . فذكرني ذلك ايام الخصب التي كنت قد طويتها وانا في الجزيرة مملكتي . لانني كنت لااحصد كل ما ازرع ولاابقي عندي كل ما يولد من المواشي لانهُ لم يكن لي احتياج اليهِ . اما الذهب فبقي مطروحًا في درجي مدة عشرين حولاً دون ان يحظى مني بنظرة تجلو الكدر الذي كان يعلو وجههُ الوضاح

اما افكاري فكانت مضطربة جدًا واعمالي كانت عديمة الانتظام . حتى انني ملت عن الطريق التي كان يجب عليّ ان اسلكها . لانهُ كان من الحزم ان اطلب راحة الضمير والحبور من غير اللذات البشرية والتمتعات الحيوانية لان تلك ليست هي الغاية التي لاجلها اوجدنا واجب الوجود لانهُ يوجد غاية اخرى وواجبات مهمة تتكفل بنيل الراحة بعد ان نقطع المحيط المهول الفاصل بين هذه الديار ودار الخلود . على ان ذلك كان بعيدًا عني لان الموت كان قد فجع بشريكتي الصالحة الحكيمة . وتركني وحدي تائهًا على وجه محيط هذا العالم المضطرب فاصبحت كالمركب الذي قد اضاع ابرة القبلة فلا يعلم كيف يوجه مسيرهُ ليأتي الى المينا الامين . فلما رأيت نفسي على هذه الحال حزنت جدًا واخذت اغوص بافكاري في بحار تأملاتي السابقة واشتدّ فيّ الميل الى السفر الى بلدان اجنبية . فالهاني ذلك عن الاهتمام بعائلتي وحقلي وحديقتي ومواشيّ وعن الافراح واللذات التي كنت امتع نفسي بها . ولم يكن لي لذة الاّ في الغوص في بحار تلك التأملات فعزمت على مبارحة بيتي وحقلي والذهاب الى مدينة لوندرا . فاتيتها على انني لم احظَ فيها بالراحة المطلوبة . حتى ولا كنت احب ان اتمتع فيها بالملاهي المتنوعة الموجودة فيها . بل كنت اصرف ايامي ولياليّ بالتبختر من مكان الى آخر ولوائح الكسل والتقاعد بلوحان على وجهي . لانهُ لم يكن لي عمل التهي بهِ . فضجرت من نفسي ورأيت ان وجودي كان مجرد

تنقل على الكرة الارضية . لانهُ لم يكن فيَّ خير لها ولا لغيري من ابناء جنسي الآدميين . وما كان يزيدني تضجرًا هو انني كيفما توجهت ومهما فعلت كنت اردد في فكري على غير قصد مني قول الشاعر

وكل امرءٍ لا خير فيهِ لغيرهِ فسيّان عندي فقدهُ ووجودهُ

اما الكسل فهو نمالة القبائح وراس المعاصي والقيام عليهِ هو صعب جدًّا على من كان نظيري قد تعود النشاط والاقدام والعمل

اما ابن اخي الذي كنت قد علمتهُ سفر البحر وفوضت اليهِ امر ربانة مركب كما تقدم فكان حينئذٍ قد رجع بمركبهِ من بلبوا الى مينا لوندرا فاتى في غرة سنة ١٦٩٣ وقال لي يا عماه ان بعض التجار قد طلبوا اليَّ ان اخذ لهم بضائع في مركبي الى جزائر الهند الشرقية ومن ثم الى الصين مارًّا على البرازيل فلا ترغب ان تذهب معي . اما انا فاعدك بالمرور على جزيرتك

انهُ مما لا ريب فيهِ وجود اسرار طبيعية وقوى غريبة واشتراك في الحاسيات تسري بين الانسان وغيرهِ وينجم عنها اتفاق الاراء والافكار الى غير ذلك مما يستخفي عن جانبهِ اللبيب الذي يلاحظ الحوادث والاتفاقات الغير المقصودة التي يستغربها البشر . ومما يثبت ذلك ما حدث من توارد الخاطر بيني وبين ابن اخي لانهُ لم يكن يعلم ما كان عندي من شدة الميل الى السفر كما انهُ لم يكن معلومًا عندي امر سفرهِ . ومع ذلك طرقتني الافكار التي ابداها لي صباح اليوم الذي اتاني فيهِ . وكنت حينئذٍ مضطرب الافكار محتارًا في امري . على انني بعد ان امعنت النظر في كل احوالي ومتعلقات اعمالي عزمت على المسير الى لشبونة لاستشير قبطاني القديم بصلاحية السفر وعدمهِ . فاذا اشار عليَّ بهِ اذهب لا محالة الى جزيرتي لاتفقد احوال تبعتي . وما كان يزيدني رغبة في ذلك هو انني كنت اومل بالحصول على ارادة ملوكية تعطيني حق تملك الجزيرة . وبعد ذلك انقل اليها سكانًا من ههنا . فبينما كنت غائصًا في بحار هذه الافكار المضطربة واذا ابن اخي داخل اليَّ يعرض عليَّ ان يذهب بي اليها

فتفكرت برهة في كلامهِ وانا متفرس في وجههِ ثم قلت لهُ بصوت عالٍ من هو ذلك الشيطان الذي وسوس في اذنيك وارسلك اليّ مفوضاً اليك امر هذه المأمورية المنحوسة

فاجفلتهُ هذه الكلمات واوقعتهُ في الحيرة والارتباك غير انني اطلعتهُ حالاً على شدة ميلي الى اجابة طلبهِ فهدأ عند ذلك روعهُ وسكن بلبالهُ . وقال يا سيدي ان المأمول ان الخص لا يخامر ما اشرت عليك بهِ . واظن انك تحب ان تذهب الى جزيرتك

فكان كلامهُ لي كالمرهم على الجرح لانني صبوت الى الذهاب الى الجزيرة وكنت كمن داخلهُ وسواس من ذلك القبيل . فاجبتهُ انني لا اتأخر مطلقاً عن المسير معهُ اذا تم الاتفاق بينهُ وبين التجار . غير انني لا اذهب الى غير جزيرتي . فلما سمع مني ذلك لاحت على وجههِ لوائح الاندهاش وقال لي كيف هذا اتريد ان تبقى فيها بعد ان افرغت الجهد لتخرج منها فاجبتهُ ألا تقدر ان تمر عليها وانت راجع من الصين وترجع بي الى هنا . فاجابني ان الذين لم شحن المركب لا يسمحون لي بذلك لانهُ يعيقني نحو شهر وربما شهرين او اكثر وذلك كما لا يخفى عنك ما يأول الى خسارتهم . وفضلاً عن ذلك ربما صادمت الارياح المركب ودفعتهُ عن الجزيرة . فيضطرني الامر الى الرجوع رأساً الى انكلترا . فتمسي مسجوناً في تلك الجزيرة

فلما تحققت صعوبة الامر اخذت انا وابن اخي في التبصر في طريقة التخلص من ذلك المحذور . فلدى التأمل برهة في ذلك صممنا على ان نأخذ معنا كوثراً مفككاً ونجارين وعند وصولنا الى الجزيرة نركبهُ بحيث يصير يصلح للسفر

اما انا فعزمت على السفر . ولم يكن حينئذٍ من يهمهُ امري غير صديقتي الارملة المسنة التي كانت تجتهد جداً ان تغير قصدي قائلةً لي يا روبنصن انك قد بلغت سن الشيخوخة . ولا اقتدار لك على مصادمة اتعاب السفر وانواء البحر ومخاطر البر . فاليك عن هذا المقصد وعلى الخصوص لانهُ لا يوافق صالح

ولديك ان تتركها وحدها لانهُ من اهم واعظم واجباتك ان لا تفارقها بل تبقى معها معتنيًا بامر تعليمها وتربيتها . لان امر راحتها في المستقبل يتوقف على ذلك . وما ادراك ان سفرك يكون سليم العواقب وانك سترجع الى بلادك وتشاهد ولديك لكن كلماتها لم تؤثر فيَّ البتة لان ميلي الى السفر كان شديدًا جدًّا . فاجبتها قائلاً ان قلبي يميل بي الى السفر جدًّا و يحثني على الاقدام والنشاط فان تأخرت عن اجابة طلبهِ اكون قد عارضت القدر فلا بد من تنفيذ الامر ومهاجرة الاوطان والجولان في الامصار والبلدان . فان قدَّر لي الله نجاحًا حظيت بالمطلوب والاَّ فهو حسبي ونعم الوكيل . فلما رأت انهُ لابد من سفري اخذت تهيئ لي زادًا . اما انا فشرعت في تدبير امر ولديَّ وتفويضهِ الى من يتكفل لي بالقيام باحتياجاتهما حق القيام و بتعليمهما وتهذيبهما الى غير ذلك من حسن التربية والتأديب الى ان ارجع اليها او الى ان يبلغا سن الرشد هذا ان لم يقدّر الله تعالى لي رجوعًا الى وطني . فاوصيت لها بكل مالي وعقاري وامتعتي واقمت عليها وصيًّا امينًا غيورًا ممن اركن اليهِ حقَّ الاركان . اما امر تعليمها وتهذيبها ففوضتهُ الى الارملة الصالحة فان حبها لها كان شديدًا جدًّا . وعينت لها معاشًا نظير اتعابها

فبعد ان فرغت من ذلك واستحضرت الكوثر المذكور مع اشياء اخر كثيرة من زاد وملابس وهلمَّ جرًّا وذلك لسد احتياجات الجماعة التي كنت قد تركتها في الجزيرة معتمدًا ان امدَّهم اياها ان وجدتهم متفقين وعائشين بالراحة والسلامة اخذت في استخدام بعض اشخاص لاذهب بهم الى الجزيرة للقيام بحراثة اراضيها مدَّة قيامي فيها و بعد اياتي عنها ان وافقهم المكان. وآخرين من ذوي الحرف لصنع ما يلزم لقاطني الجزيرة . اما اصحاب الحرف فهم نجاران وحداد وصانع براميل وهذا كانت لهُ معرفة بعمل بعض آلات ودواليب ومطاحن صغيرة واوانيَ من فخار و بالاجمال كانت لهُ معرفة في عمل كل ما يصنع من الخشب والطين . فسميناهُ العامل العمومي . وخياط وكان قد طلب

من ابن اخي ان يأخذهُ معهُ الى جزائر الهند الشرقية فلما بلغني ذلك غيرت افكارهُ وطلبت منهُ ان يذهب الى الجزيرة للقيام باحتياجات اهاليهـا فاجاب طلبي . واما الاشياء التي اخذتها لعمل الملابس فهي كمية وافرة جدًّا من الكتان ومن الانسجة الانكليزية الرفيعة وهذه خصصتها بالاسبانيوليين الذين كنت قد تركتهم في الجزيرة كما تقدم في الجزء الاول من هذا الكتاب . واما الملابس فهي كنوف وبرانيط واحذية وجوارب الى غير ذلك مما لا يستغنى عنهُ . وعلاوة على ذلك كلهِ اخذت فرشًا واغطية واواني الماء والطبخ ومسامير ومحاريث ومعاول ومجارف وكل ما يحتاج اليهِ من قطن مكانًا كالجزيرة لا يوجد فيهِ شيءٌ من ذلك فبلغ وزن هذه الاشياء جميعها نحو ثماني مائة اقةٍ

اما ما اخذتهُ من آلات المدافعة فهو نحو مائة من البنادق والغدارات والقرابينات ومن الخردق كمية وافرة ونحو ثمانية قناطير من الرصاص ومدفعين صغيرين من نحاس وذلك علاوة على مدافع المركب . ونحو مائة برميل مملوءة من البارود وعدة سيوف وكل مـا يلزم للصيد والمدافعة . وهذا جميعهُ لانني لم اكن عارفًا حينئذٍ طول الزمان الذي اقيمهُ في الجزيرة . وطلبت من ابن اخي ان يأخذ معهُ في المركب مدفعين صغيرين علاوة على مدافع المركب لكي انزلهما الى الجزيرة ان وجدت لزومًا لذلك . لانهُ كان يلوح لي انهُ لا بد من احكام تحصين الجزيرة وبناء قلعة فيها للمدافعة عنها لدى الاقتضاء ان اتمت فيها . فبعد ان انزلنا الى المركب هذه الاشياء جميعها ركبتهُ انا وجمعة والذين اخذتهم معي من الفعلة واصحاب الحرف . وكان ذلك في غرة شهر كانون الثاني سنة ١٦٩٥ ورفع الملاحون المرساة واشرعوا الشراعات وحولوا مقدم المركب نحو المقصد . فاخذت الارياح تضاد سيرنا فدفعت المركب الى جهة الشمال فاضطرنا الامر الى الالتجاء منها في مينا كالوي من اعمال ابرلاندا فبقينا هناك نحو اثنين وعشرين يومًا دون ان نستطيع الخروج لشدة الارياح والنوء . اما الماكولات في تلك المدينة فكانت اثمانها بخسة جدًّا . فتزودنا منها مقدارًا وافرًا

واشترينا بقرتين وعجليها لكي نأخذها معنا الى الجزيرة

ما كلُّ ما يتمنى المرء يُدرِكُهُ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُفُنُ

الفصل الحادي والثلاثون

سفر روبنصن الثاني في البحر

خرجنا من مينا كالوس في اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٦٩٥ وكانت الريح تسير معنا فاسرع المركب في المسير وفي مساء اليوم السادس من شهر شباط اتى الينا نائب القبطان وكنا حينئذٍ مجتمعين في قاعة المركب وقال انني قد نظرت عن بعدٍ شهب نار وسمعت صوت اطلاق مدفع. ثم تبعهُ فتى من الملاحين وقال ان رئيس الحراس سمع ايضًا صوت اطلاق مدفع ثانٍ. فصعدنا اجمع على ظهر المركب على اننا لم نرَ شيئًا ولاسمعنا صوتًا. وبعد برهة يسيرة رأينا عن بعدٍ نورًا كبيرًا جدًّا فبعد ان امعنا النظر فيهِ رأينا ان مركبًا يحترق في وسط المياه وليس في البر لاننا كنا حينئذٍ بعيدين عنهُ مسافة نحو خمسمائة ميل. فظهر لنا انهُ قريبٌ منا لان البعض كانوا قد سمعوا صوت اطلاق مدافعهِ وكان مركبنا يتقدم نحوهُ. ومع ان الفلك كان مكدرًا بضباب كان النور يعظم بتقدمنا اليهِ فأكد لنا ذلك الوصول اليهِ بعد برهة يسيرة وبعد نحو نصف ساعة اخذ الفلك يصفو ومنظر المركب المحترق يتجلى فاستبان لنا ان ما كنا قد توسمناهُ عنهُ كان صحيحًا فملأ ذلك المنظر قلبي حزنًا وكآبةً واخذت فرائصي ترتعد واعضاء جسدي تضطرب حزنًا على اولئك المنكودي الحظ الذين كانوا راكبين ذلك المركب المحترق دون ان يكون لي معرفة شخصية باحدهم وذكرني ذلك الاضطراب مصائبي السابقة

والضيقة الشديدة التي كنت فيها قبل ان نشلني من وحدة المحيط القبطان البرتوغالي ذو المروءة والغيرة المشهورة . ومما طرق فكري هو انه ربما كان لا يوجد بالقرب منهم مركب لينقذهم من الهلاك الذي كان حينئذٍ يتهددهم . فامرت الملاحين ان يطلقوا حالاً المدافع خمس دفعات متتابعة علامةً لهم بوجود مركب بالقرب منهم يخلصهم من الموت فيحاولوا الاقتراب منهُ بقواربهم وذلك لانني كنت اظن ان الظلام حجبنا عنهم فلم يكونوا قادرين ان ينظرونا . اما نحن فلم نكن نرى الاَّ اللهيب الذي كان يقذفه مركبهم

فدام بنا الحال على هذا المنوال برهة طويلة ونحن ننتظر الصباح وكنا قد وجهنا مسيرنا نحو لهيب النار . واذا اللهيب قد تعالى الى الجو ثم هبط الى اسفل ولم يظهر لنا اثر بعد ذلك فخفقت قلوبنا وتراكمت الاحزان عليها لانهُ استبان لنا من ذلك ان النار افنت بعض المركب واغرقت ما بقي منهُ غير اننا لم نعلم ماذا اصاب ركابهُ المنكودي الحظ لانهم اما يكونون قد هلكوا في وسط اللهيب واما فروا منهُ بقواربهم الى وسط البحر المضطرب . فعلقنا مصابيح في كل جهات المركب من اعلاهُ واطلقنا المدافع الليل بطولهِ ليعلم من نجا من راكبيهِ اننا قريبون منهم ولكن ان كان الهلاك قد عمَّهم نكون قد فعلنا بعض ما يجب علينا

فلما اصبحنا رأينا عن بعد بالنظارة المكبرة قاربين متقدمين نحونا مملوءين رجالاً ونساءً واولاداً يكادان يغرقان من ثقل من فيهما . اما الريح فكانت ضدهم واخذ من فيهما يشير الينا باشارات متنوعة

فرفعنا لهم علامتين الواحدة اشارة لهم باننا قد رأيناهم والاخرى اشارة ليتقدموا الينا ثم نشرنا شراعات اخرى ليسرع مسير مركبنا ووجهناهُ نحوهم . فبعد نحو نصف ساعة بادرنا الى اصعادهم الى مركبنا مع انهم لم يكونوا اقل من ٦٤ نفساً رجالاً ونساءً واولاداً فانهُ كان في المركب مسافرون كثيرون . ووجدنا ان مركبهم كان مركباً فرنسوياً تجارياً محمولهُ ثلثمائة طولوناتة راجعاً

من كويبك الى فرنسا من كاندا . وقص علينا الرئيس خبر مصابنة مركبو بالتطويل واشتباب النار في وسطو باهمال الحارس وانه صاح طالبًا الاسعاف فبادر الركاب الى اطفائها وظنوا جميعًا انهم قد اخمدوها كل الاخماد . غير انهم رأوا بعد ذلك ببرهة قصيرة ان شرارات بلغت اماكن يصعب بلوغها في المركب فلم يتمكنوا من اخمادها فامتدت الى ما بين اضلاع السفينة والجهات السفلى منها وتغلبت على اجتهادات الجميع . ولم يروا بدًا من انزال القوارب وركوبها وكانت كبيرة كافية وهي قاربان كبيران وقارب صغير . قال فغير لم ينفع الاَّ لوضع الزاد والماء بعد ان نجوا من النار ولم يكونوا يؤملون النجاة بهذه القوارب فانهم كانوا بعيدين جدًا عن البر . على انهم سروا بالخلاص من الموت حرقًا وعلقوا املهم بمصادفة مركب يخلصهم . وكان معهم شراعات ومجاذيف وابرة قبلة وبهاوا ليحاولوا الذهاب الى نيوفونلاند . وكانت الريح موافقة لهم لهبوبها من الجهة الجنوبية الشرقية . وكان معهم من الزاد والماء ما يكفيهم ١٢ يومًا اذا لم ياكلوا ويشربوا الاَّ ما يصونهم من الموت جوعًا وعلق رئيسهم امله ببلوغ نيوفونلاند بالمدة المذكورة اذا لم تهب ريح مضادة او يحدث نوءٌ وفضلاً عن ذلك كان يؤمل بان يصطاد سمكًا يمكنهم من البقاء في البحر دون خطر الموت جوعًا مدة اطول من المدة المذكورة على انهم حسبوا حسابًا لاخطار النوء وانقلاب القوارب بهِ والبرد والمطر والرياح المضادة التي تطيل زمان اقامتهم في البحر فيموتون جوعًا . وبالجملة قال انا كنا عالمين ان الفوز بالنجاة ونحن على تلك الحال من العجائب

وكانوا غائصين في بحر من الخوف والرعبة والحزن واليأس واذا بصوت اطلاق مدفع قد طرق آذانهم ثم صوت اطلاق ٤ مدافع اخر . وكان الرئيس يقص عليَّ هذه الاخبار والدموع تتلألأ في عينيهِ فرحًا بالنجاة وشعورًا بالجميل وتأثرًا من المضايقات التي وقعوا فيها . فهذه الطلقات هي التي امرت باطلاقها عندما شاهدت النور . فتقوت قلوبهم وانتعشت ابدانهم وتوطدت آمالهم فانهم

عرفوا بذلك ان بالقرب منهم مركبًا قادرًا ان يخلصهم . فعندما سمعوها خفضوا الصواري ولفوا الشراعات فان الصوت جاءهم من جهة هبوب الريح فصمموا على ان يقفوا عن المسير الى الصباح . وعندما رأوا ان اطلاق المدافع انقطع اطلقوا ٣ بندقيات الواحدة بعد الاخرى غير اننا لم نسمعها لاننا كنا منها في جهة معاكسة لهبوب الريح . وبعد ذلك ببرهة قصيرة كادوا يطيرون فرحًا اذ انهم رأوا انوارنا وسمعوا اطلاق المدافع التي كنت قد امرت ان تطلق بالتتابع الليل بطوله . فاخذوا يجذفون بمجاذيفهم ليمنعوا القوارب عن ان تسير مع الريح ليعجلوا اجتماعهم بنا . وبعد برهة قصيرة تحقق اننا رأيناهم ففرحوا فرحًا يعجز القلم فعلاً عن وصفهِ

ويصعب عليَّ ان اصف حق الوصف ما اظهر اولئك المساكين من الحركات الدالة على شكرهم الجزيل وفرحهم الشديد بالنجاة من الهلاك ومن السهل وصف الحزن والخوف . فانهُ عبارة عن تنهدات ودموع وانين وحركات قليلة يقوم بها الراس والايدي . ولكنهم اظهروا لشدة الفرح تأثيرات كثيرة مختلفة فكان البعض يطوفون مزبدين يمزقون ثيابهم كانهم في اشد الحزن والبعض كانوا يركضون في المركب بعنف والبعض كانوا يرقصون او يغنون او يضحكون او يبكون فرحًا . ومنهم من بلي بالخرس فلم يكن يقدر ان يفوه بكلمة ومنهم من كان قد فعل فيهِ الدوار واخذ يتقيأ . اما الذين غابوا عن الصواب فكثيرون والذين كانوا يشكرون الله على النجاة بالصلاة كانوا قليلين . ولا ينبغي ان اندد بهم فان كثيرين منهم شكروا الله بعد حين لان شدة الفرح جعلتهم غير قادرين على ان يضبطوا حاسياتهم حينئذٍ فاصبحوا في تهيج واضطراب شديدين اما الذين فرحوا فرحًا معتدلاً فكانوا قليلين وكانوا من الفرنسويين المشهورين بشدة التأثير والانفعال . ولست من الحكماء لاقطع بسبب ذلك لكن اعلم اني لم ارَ شيئًا مثلهُ حياتي بطولها . وكانت حركاتهم قريبة من حركات خادمي جمعة الامين عند ما رأى اباهُ . وكذلك اعمال الرئيس ورفيقيهِ اللذين خلصتهم من

الملاحون الشريرين قريبة من اعالم . على اني لم اشاهد شيئًا قدرهُ حياتي بطولها لا في خادمي جمعةولا في شخص آخر. ومما يستحق الذكران تلك الحركات الناشئة عن مهابة الفرح لم يكن يظهر نوع منها في شخص والاخر في غيره ولكنها كلها او اكثرها كانت تبدو في شخص واحد في مدة قصيرة فالذي كنت اراهُ صامتًا كانهُ غائب عن الصواب كنت اراهُ بعد دقيقة يرقص ويصيح ويضج وبعد دقيقة يقطع شعرهُ او يمزق ثيابهُ ويدوسها برجليهِ ثم اراهُ يذرف دموعًا غزيرة ثم يتعلل فيهِ الدوار ويغيب عن الصواب ولولا المداركة لمات في دقائق قليلة ولم يكن ذلك شأن واحد او اثنين او عشرين منهم بل شأن اكثرهم واظن ان الطبيب التزم بأن يفصد نحو ثلاثين منهم

وكان منهم كاهنان احدهما مسن والآخر فتى . والمستغرب ان تأثيرات المسن كانت اشد من تأثيرات الفتى . فانهُ عندما وضع رجلهُ على مركبنا سقط كالميت ولم تظهر فيهِ علامة من علامات الحياة فعالجهُ الطبيب حالاً وتقرر عند جميع من في المركب انهُ قد مات خلا الطبيب. وفي النهاية فصد في ذراعيهِ بعد ان دلك مكان الفصد بعنف حتى سخن ففي بادىء الامر خرج الدم قطرات ثم جرى طبيعيًا وبعد ربع ساعة تكلم وبعد برهة قليلة شفي . وبعد ان ربطت الفصادة اخذ يمشي وقال لنا بعد ان شرب جرعة من الدواء انهُ قد نال الشفاء التام. وبعد نحو ربع ساعة طُلب الطبيب ركضًا وكان يفصد امرأة غابت عن الصواب . فذهب الى الكاهن ولم يرضَ ان يفصدهُ وهو على الحال التي وجدهُ عليها ولكنهُ سقاهُ ما يجعلهُ ينام ففعل فيهِ الدواء ونام الى الصباح واستفاق صحيح الجسم والعقل

اما الكاهن الشاب فتصرف تصرفًا جميلاً وكان قدوة ينبغي ان يقتدى بها فانهُ عند ما صعد على المركب جثا الى ركبتيهِ شاكرًا الله سبحانهُ وتعالى على نجاتهِ . ثم كبا على وجههِ مجددًا الشكر فظننت انهُ قد اغمي عليهِ فدنوت منهُ وناديتهُ فنظر اليَّ وتكلم بتأنٍ وشكرني على اهتمامي وقال انني اشكر الله سبحانهُ على

نجاتي . وتوسل اليّ ان اركع دقائق قليلة لانهُ بعد تقديم فريضة الشكر لله خالقهِ يقدّمها لي. فتكدرت لانني اوقفتهُ عن الصلاة برهة وابتعدت عنهُ ومنعت الجميع عن ان يقتربوا منهُ واستمرّ على تلك الحال نحو ثلاث دقائق او اكثر قليلاً ثم بعدت عنهُ . ثم نهض. ودنا مني قائلاً بجد وتانٍ وحنو والدموع في عينيهِ انني اشكرك لانك بعد الله انت معطينا ومعطي كثيرين الحياة . فقلت انني لا ارى سبيلاً لان اطلب اليك ان تشكر الله على ذلك عوضاً عن ان تبثّ الشكر لي فانك قد قمت بذلك الفرض على انني لم افعل الاَّ ما تقتضيهِ الانسانية وحقوق بعض الناس على البعض الآخر. ومن الواجب علينا ان نقدم الشكر للخالق لانهُ بارك بجعلنا آلة رحمة لتخليص هذه الانفس

وبعد ذلك اخذ الكاهن الشاب يهتم بابناء وطنهِ واجتهد في حملهم على ضبط حاسياتهم وفي ان لا يفعلوا ما هو خارج عن دائرة العقل ونبّه عند البعض على ان البعض الآخر كان لا يقدر ان يصغي لمشورتهِ ولا ان يضبط نفسهُ

هنا واني قد كتبت هذه الحوادث املاً بانها ربما كانت تفيد مطالعيها لانها ربما مكنتهم من ان يضبطوا انفسهم . فاذا كانت شدة الفرح قد تحمل الناس على فعل افعال كالتي وصفناها فماذا يا ترى يفعل الهور في الغضب الشديد والغيظ العنيف وهذا قد بيّن لي لزوم تقييد عواطفنا وحاسياتنا وانفعالاتنا اذا كانت ناشئة عن فرح او كدر او حزن او غضب

فالحاصلة ضيوفنا المخلصون اوقعوا خللاً في انتظامنا اليوم الاول . ولكن بعد ان عينت لهم اماكن للنوم مريحة على قدر الامكان في مركب كمركبنا وناموا طويلاً لانهم كانوا جميعاً قد حرموا النوم واضناهم الخوف تغيرت احوالهم في الغد فكانوا كأنهم غير الذين دخلوا المركب في امسهِ فانهم اظهروا من الشكر واللطف والحنو والحب ما يقصر القلم عن وصفهِ . فالامة الفرنساوية تفوق جميع الامم في ذلك . وجاءني في ذلك اليوم رئيس المركب واحد الكهنة طالبين ان يكلماني ويكلما تمييبي . فاخذ الرئيس يشاورنا في ما ينبغي ان يفعلهُ وقالا في

بادىء الامر اننا قد خلصناهم جميعاً من الهلاك فاذا اعطونا كل ما يملكونه يكونون مقصرين وقال الرئيس قد خلصنا نقودًا وبعض اشياء ثمينة في القوارب باخراجها سريعاً من اللهيب فاذا قبلناها فقد فوضنا بأن يقدماها كلها . ولم يكونوا يطلبون الآن بصير توصيلهم الى البر حيث يقدرون ان يجدوا سبيلاً الى العود الى فرنسا وكان نسيبي يرغب ان يقبل المال ثم ينظر في ما ينبغي ان يفعل بهم . غير انني منعته لاني كنت عالماً ما هو لازم للغرباء في بلاد اجنبية . ولو عاملني الرئيس البرتوغالي الذي خلصني من الغرق هذه المعاملة لمت جوعاً ولامسيت عبدًا في برازيل وكميت في بلاد البربر

فقلت للرئيس الفرنسوي اننا خلصناهم من ضيقهم وذلك من الواجب علينا ونحب ان نخلَّص اذا بتنا في ضيق كضيقهم او في مضايقة اخرى واننا لم نعاملهم الا بما هو مقرر عندنا انهم يعاملوننا بمثله اذا امسينا في ما امسوا به واننا خلصناهم من الغرق ليس لنسلب مالهم ومن الاعمال البربرية ان نستولي على القليل الذي خلصوهُ من النار وان نضعهم في بلاد غريبة فهذا عبارة عن تخليصهم من الموت غرقاً وتركهم ليموتوا جوعاً ولذلك لااسمح بان يؤخذ منهم شيء . اما نقلهم الى البر فهو صعب علينا جدًا لاننا ذاهبون الي الهند الغربية ومع اننا قد ابتعدنا كثيرًا عن طريقنا غرباً لانقدر ان نغير طريقنا عمدًا لاجلهم . وربما كان الله سبحانهُ وتعالى قد وضعنا خارج عن الطريق لنصادفهم ونخلصهم . ولا يقدر نسيبي الرئيس يحمل مسئولية ذلك بالنظر الى اصحاب الشحن فانهُ قد عاهدهم رسمياً انهُ يذهب بطريق البرازيل . وما اعلمهُ هو ان نسير في طريق المراكب الراجعة من جزائر الهند الغربية لتمكنهم من ركوب مركب عائد الى انكلترا او فرنسا

فشكرونا كل الشكر على رفض النقود غير انهم خافوا جدًا خاصة الركاب منهم من الذهاب الى جزائر الهند الغربية فتوسلوا اليَّ ان اسمح بالذهاب بهم الى نيوفولاند لانني ابتعدت كثيرًا عن الطريق الى الجهة الغربية حيث ربما

صادفوا سفينة ترجعهم الى كاثلثا التي خرجوا منها. فرأيت ان طلبهم عادل فلت الى اجابتو ورأيت ان الذهاب بهم جميعًا الى جزائر الهند الغربية يثقل عليهم ويضرينا جدًّا بفروغ زادنا وان التعريج بهم عن الطريق لا يحسب تعديًا على الشروط ولكنهُ مراعاة لحادث غير منتظر قد حكمت نواميس الباري وقوانين البشر علينا بان نلاقيها . فارتضيت بان اذهب منها الى نيوفولاندا اذا لم تمنع الرياح والاَّ فاذهب بهم الى مارتينيكو في جزائر الهند الغربية

وكُلُّ أمرهِ لا خير فيهِ لغيرهِ فسيَّانِ عندي فقدهُ ووجودهُ

الفصل الثاني والثلاثون

سفر روبنصن الثاني في البحر

وكانت الريح موافقة تهب من الجهة الشرقية . والتقينا بمراكب كثيرة ذاهبة الى اوربا منها مركبان فرنسويان وكانت الريح ضدهما وهذا هو الذي اخرنا عن ارسال الفرنسويين فيهما الى بلادهم لان قبطانيهما كانا يخشيان ان يفرغ زادهما اذا زاد عدد الركاب فيهما لان الريح كانت قد ضادتهما منذ زمان طويل . فداومنا المسير مدة اسبوع بعد ان التقينا بالمركبين المذكورين . فوصلنا في نهايتهِ الى نيوفولاندا . ولا حاجة لذكر تفصيل حوادث سفرنا ولكن نقول بالاختصار اننا استأجرنا مركبًا ليذهب بهم الى الشاطئ ومن ثم الى فرنسا هذا اذا وجدوا من الزاد ما يكفيهم حتى وصولهم الى بلادهم. اما الخوري الشاب فلما بلغهُ ان مقصد المركب السفر الى جزائر الهند طلب الينا ان نذهب بهِ الى هناك ومن ثم الى كورمانديل فاجبناهُ بفرح لانهُ كان محبوبًا وعليهِ سمات

الاحترام والاعتبار . وذهب معنا اربعة من ملاحي السفينة التي احرقتها النار وانخرطوا في سلك ملاحي مركبنا

وبعد ذلك سرنا نحو الجزائر المتقدمة فكانت الريح تارة تهب معنا وطورًا تسكن فلبثنا على هذه الحال نحو ٢٠ يومًا واذا بشراع سفينة قد لاح امامنا . فنادى الخفير فيه ظهر انه شراع سفينة كبيرة متقدمة الينا على اننا لم نعلم لماذا قصدتنا . ولما دنت منا رأينا رأس صاريها الاول مكسورًا وكذلك صاري مقدمتها . ثم اطلقت مدفعًا علامة للضيق وكانت الريح حينئذٍ تهب معنا فوصلنا اليها سريعًا وناديناا الرئيس قائلين ماذا تريد منا فاجاب اننا كنا ذاهبين من برادون الى وطننا برادون فدفعتنا زوبعة شديدة عن الطريق قبل ان نخرج من مينا برادون اما رئيسنا فكان حينئذٍ مع نائبه الاول في المدينة فلم يقدرا ان يدركانا . واما انا فانني النائب الثاني . فلهذا قد اصبحنا بلا مدبر يدبر السفينة وبلا صوارٍ تنشر عليها الشراعات وقد تعسر وصولنا الى وطننا فان لنا نحو سبعة اسابيع نتيه في هذه البحار ونصادم انواءً شديدة ورياحًا عاصفة ذهبت بنا على غير قصد الى الجهة الغربية وعطلت ما كان قد سلم من صواريها

وكنا نؤمل الوصول الى جزائر بهاما ولكن الريح دفعتنا رغمًا عنا الى الجهة الجنوبية منها وقد اصبحت سفينتنا دون صوارٍ تسير بها خلا اسفل صاري مقدمتها وصاري المؤخر . والريح تهب جنوبًا وقد حاولنا المسير معها نحو الكناريز وقد فرغ زادنا منذ ١١ يومًا واوشكنا نموت جوعًا وليس عندنا شيء سوى قليل من الماء وبرميل فيه قليل من الطحين وسبعة براميل من الرم (عرق افرنجي) اما الحلوى فقد اكلناها كلها

فبعد ذلك اتى النائب الثاني مركبنا وكان هو حينئذٍ رئيس السفينة وقال ان معنا في السفينة ٣ ركاب في حالة يرثى لها لا بل اظنهم قد ماتوا جوعًا ومنذ اكثر من يومين لم اسمع عنهم شيئًا ولم اكن اطيق ان اقابلهم على المحنة المذكورة لانه لم يكن لي اقتدار على سد احتياجاتهم . فلما بلغني ذلك ورأيت ان البحر كان

هادئًا نزلت في قاربي وذهبت معهُ الى سفينتهِ . فلدى الوصول اليها وجدنا ملاحيها في حالة يرثى لها من الضعف والجوع ولم يبقَ من اجسادهم غير الجلد والعظم فكانت مناظرهم مخيفة محزنة جدًّا وكاد قلبي يقطر دمًا حزنًا عليهم. وكنت قد احضرت في القارب قليلاً من الزاد وذلك بارادة ابن اخي لانهُ بواعظي وارشاداتي كنت قد حملتهُ على ان لا يتأخر مطلقًا عن مساعدة من يحتاج اليهِ ولو بخسارة نفسهِ اذا افضى بهِ ذلك الى الهلاك فاعطيتهُ لطباخ السفينة بطبخهِ واخبرتهُ ان لا يعطي ملاحيها في اول الامر الاَّ شيئًا يسيرًا منهُ لانهُ لا يخفى انهُ يحصل ضرر عظيم لمن يملأ جوفهُ بعد ان يكون منقطعًا طويلاً عن الاكل . اما النائب الثاني فكانت حياتهُ قد قاربت الانتهاء من شدة الجوع لانهُ لم يميز نفسهُ بشيءٍ من باقي ملاحي السفينة . فبعد ان اكل شيئًا يسيرًا شعر بالم شديد وضعفت قواهُ فامتنع عن الاكل فتقدم اليهِ طبيب مركبنا واعطاهُ قليلاً من مرق اللحم ممزوجًا بدواءٍ يقوي الجسم فافادهُ ذلك جدًّا وارتدت اليهِ قواهُ وزال عنهُ الالم . واما الملاحون فكانوا قد اجتمعوا حول المطبخ ولو لم يمنعهم نائب رئيس مركبنا بالقوة الجبرية لخطفوا الطعام من القدر قبل الاستواء . فتقدمت منهم وقلت لهم لا ينبغي ان تاكلوا بسرعة بل بالتدريج فترجع اليكم قواكم. واعطاهم الطبيب قبل ان اكلوا الخبز واللحم بقسماطًا مبلولاً . ثم امرت الطباخ ان يعطي كلاًّ منهم شيئًا قليلاً من اللحم والخبز فكانوا ياكلونهُ بسرعة لا مزيد عليها لان الجوع كان قد غلب عليهم فباتوا لا يقدرون ان يضبطوا انفسهم وبات البعض منهم في خطر الموت فأثَّر فيَّ هذا المنظر المؤلم تأثيرًا مكدرًا جدًّا وحرك فيَّ احساسات الشفقة والحنو وذكَّرني بالوقت الذي دخلت فيهِ جزيرتي المرة الاولى دون شيءٍ اتغذى بهِ مع انقطاع امل الحصول على الطعام حال كون الخوف من ان ابيت طعامًا لغيري اخذ مني كل مأخذ . وكان النائب المذكور يخبرني عما لاقى من الضيق في السفر ومن المصائب التي المت بهِ غير ان افكاري كانت مشغلة بالثلاثة الركاب الذين كانوا في قاعة المركب الكبيرة فاحضرتهُ

عن تفاصيل ما طرأ عليهم . فقال لي ان شدة مصائبنا انستنا مصائب غيرنا ولذلك منذ يومين او ثلاثة لم ارسل اليهم شيئًا وانهٔ لما قل زادنا كنا نعطيهم شيئًا يسيرًا جدًّا من الطعام ومنذ ٧ ايام لم يكن لهم شيءٌ يقتاتون بهِ واظنهم قد هلكوا جوعًا وهم امرأة وولدها وجاريتها فذهبت حالاً اليهم ومعي النائب والطبيب ومرق وبعض ادوية وكان قد اخبرني ملاحو السفينة ان تلك المرأة كانت ذات طباع لطيفة وجانب رقيق وخصال حسنة جدًّا وانها لم تاكل ما كان يعطى لها من القوت بل كانت تبقيهِ لولدها فاضر بها الجوع كل الاضرار . فلما دخلنا القاعة وجدناها جالسة بين كرسيين وقد القت ظهرها على جانب السفينة وعنقها غارق بين كتفيها وكان منظرها كمنظر جثة مائتة دون رأس اما حياتها فكانت قد قاربت الزوال . فاخذ نائب مركبنا بقويها وينجها وملأ ملعقة مرقًا وافرغها في فمها ففتحت شفتيها ورفعت يديها ولكنها لم تقدر ان تتكلم فاشارت اليهِ انهُ لا امل لها بالنجاة من الموت لان وقت تخليصها قد مضى والجوع قد انشب فيها مخالبهُ وان ينشل ولدها من الموت ويعتني بهِ . فلما رأى نائب مركبنا ذلك تحركت عواطفهُ وجرى الدم باردًا في عروقهِ واجتهد ان يخلصها من الهلاك فافرغ ثلاث ملاعق من المرَق في فمها ولكن لم يجدها ذلك نفعًا بل قضت نحبها في نفس تلك الليلة . اما ولدها التي حفظت حياتهُ والدتهُ الشديدة الحنو والشفقة باهلاك حياتها فلم يفعل فيهِ الجوع كما فعل فيها فوجدناهُ ملقىً على فراشهِ واعضاء جسدهِ ممدودة واشارات الحياة تكاد لا تلوح على وجههِ وفي فمهِ قطعة من كف قديم كان قد اكل بعضهُ فافرغ نائب مركبنا قليلاً من المرَق في فمهِ فاستفاق ورجع الى نفسهِ لانهُ كان اقوى من والدتهِ . وبعد ذلك سقاهُ ملعقتين او ثلاثًا بتتابع فلم تهضمها معدتهُ لضعفها فتقيأها واخيرًا تشددت عزائمهُ بالتتابع وزال عنهُ خطر الموت

فبعد ان فرغنا من تطبيب الفتى تقدمنا من الجارية فوجدناها ملقاة على ظهرها بجانب سيدتها وكانت اعضاء جسدها يابسة كمن تنازع في مرض الفالج

وقد قبضت على رجل كرسي بيدها وضمتها بشدة ولم نقدر ان نحملها على تركها بسهولة اما يدها الثانية التي كانت قد وضعتها على راسها ورجلاها فكانت احداهما ملقاة على الاخرى موضوعتان على جانب السفينة

فاخبرنا ملاحو السفينة ان هذه الجارية المنكودة الحظ لم تكن تتألم من شدة الجوع فقط ولكن عذابات سيدتها التي كانت تحبها جدًّا اثّرت فيها تأثيرًا عجيبًا لانها كانت قد شاهدتها تتألم على مرأى منها ثلاثة ايام

انهُ لا يخفى ان من كان سائرًا في مركب في وسط البحر قاصدًا محلاً معلومًا لا يمكنهُ ان يتأخر كثيرًا في الطريق لئلا يطرأ عليهِ ما يضر بهِ من نوءٍ او زوابع او بلايا اخرى كثيرة فلذلك لم نتأخر كثيرًا لان المقصود انما هو مساعدة تلك السفينة فلما فرغنا من مساعدتها اردنا ان نتوجه في سبيلنا ولكن رئيس السفينة عاقنا ثلاثة او اربعة ايام لانهُ طلب الينا ان نسعفهُ في اقامة صوارٍ عوضًا عن التي كانت قد كسرتها الرياح . وبعد ذلك اعطيناهُ خمسة براميل مملوءة لحمًا قديدًا وبرميلاً من الكورك وصندوقين من البقساط وطحينًا واشياء اخرى كثيرة كنا نقدر ان نستغني عنها واخذنا عوضًا عن ذلك ثلاثة براميل من السكر وقليلاً من الرم

وكان ذلك الفتى على جانب عظيم من اللطف ورقة الجانب والادب قد بلغ السبع عشرة سنة . فقال لي ان اولئك القساة قد قتلوا امي فاشكرك على اخراجك اياي من بينهم . نعم انهم قتلوها لانهم لو عاملوها بالشفقة لكانوا قاسموها على بقية زادهم والتفتوا الى سد بعض احتياجاتها ولكن الجوع ظالم فلا يرحم احدًا ولا يعرف صديقًا ولا يرثي لحالة المتوجعين . وكان حزينًا منكسر القلب لانهُ فضلاً عن فقدهِ والدة حنونة قد فقد اباهُ في بارباد وز منذ مدة يسيرة وبعد ذلك سرنا في سبيلنا

وكان الفتى قد دنا من الطبيب وقال لهُ ايها الطبيب اني اتوسل اليك ان تنقذني من ايدي اولئك القساة القلوب الذين قد اهلكوا والدتي واذهب

بي الى حيثما شئت لانني اعلم ان رئيس مركبكم (اي انا لانه ظن اني الرئيس لانه لم يرَ ابن اخي) الذي انتشلني من الموت لا يفعل شيئاً يضرني به واني موكد ان الجارية متى رجعت الى نفسها تشكركم على اخراجها من بين قوم لانحنّ قلوبهم الصخرية لصراخات المتضايقين . فاجابه الطبيب انا ذاهبون الى الجزائر الهندية وهي بعيدة جدًّا عن بلادك وربما يصيبك هنالك نفس ما قد اصابك في هذه السفينة من الجوع والضيق وانت بعيد عن اهلك واصحابك ووطنك . فاجابه لابأس لانني موكد ان رئيسكم لا يفعل ما يضرني فاخبرني بذلك الطبيب وتوسل اليَّ ان لا ارده خائباً وان استجيب توسلات فتى منكسر القلب . فحنن قلبي بكلماته المؤثرة واجبت طلبه واتيت به وبالجارية الى مركبنا وكل ما كان معها ما عدا عشرة براميل كبيرة جدًّا من السكر لاننا لم نقدر ان ننقلها . وجعلت رئيس المركب يتعهد كتابة بتسليمها الى تاجر في برستول يدعى الخواجه روجرن وكان من اقارب الفتى وكتبت له مكتوباً وارسلت ايضاً جميع الامتعة المختصة بالمرأة المتوفاة واظن ان تلك السفينة لم تصل مطلقاً الى برستول بل فقدت في الطريق لانها كانت قد تعطلت من جملة محلات واخذ الماء يدخل اليها والنوء الاول الذي يصادفها يكون كافياً لاغراقها

انه لا حاجة الى ذكر تفصيل كل ما صادفناه من مضادة الريح وموافقتها وامور اخرى كثيرة بعد ان فارقنا السفينة المذكورة متقلين على القارىء بامور ثانوية حال كون بقية اخبارنا متعلقة بما هو مهم . ولما وصلنا درجة ١٩ ودقيقة ٣٢ كنا نرى جزائر كثيرة في البحر غير انني لم اعرف اينها جزيرتي لانني كنت قد دخلتها وخرجت منها من جهتي الشرق والجنوب اما الآن فانيت من جهة اخرى ولم يكن معي لشواطئها رسم ولا علامة فلم اعرفها . فركبت قارباً من القوارب التي نجا فيها الفرنسويون الذين ذكرتهم واخذت في التطواف من جزيرة الى اخرى عند مصب النهر اورونوكو العظيم فوجدت بعضها مأهولاً وبعضها مقفراً وفي احدها بعض اسبانيوليين فظننتهم من سكان تلك الجزيرة فلدى السؤال

وجدتهم من جزيرة فرنيداد وكانوا قد اتوها ليصنعوا ملحاً وليلتقطوا صدف در. فوجدت اني قد ارتكبت الغلط من وجهين الاول عند ما كنت في جزيرتي كنت اظن ان ما اراهُ من اليابسة هو قارة. فبان لي الآن انهُ جزيرة كبيرة او بالحري عدة جزائر بعضها قريب من البعض الاخر من مصب النهر المذكور والثاني ان البرابرة الذين كانوا يأتون جزيرتي لم يكونوا من البرابرة الذين ندعوهم كاريبين بل كانوا من سكان الجزر المجاورة لها

فبعد ان صرفت مدة في الجولان من جزيرة الى اخرى بلغت الجهة الجنوبية من جزيرتي فلما رأيتها عرفتها حالاً فاتيت بالمركب والقينا مرساتهُ في المدخل مقابل مسكني القديم

سررت بارضٍ قد ربيت بربعها   كما سرَّ مشتاقٌ بلقى الحبائبِ

الفصل الثالث والثلاثون

وصول روبنصن الى الجزيرة

وعند ما رأيت المكان دعوت جمعة اليَّ وسألتهُ هل تعلم اين انت. فتفرس برهة فيما حولهُ ثم صفق بيديهِ وصاح قائلاً نأم نأم هناك هناك. اي نعم نعم واشار بيديهِ الى منزلنا القديم في الجزيرة واخذ يرقص ويتنهنه كمن اصيب بجنون ولم يمتنع عن ان يلقي بنفسهِ الى البحر ليذهب سابحاً الى الجزيرة الا بعد عناء عظيم. ثم قلت لهُ لقد احسنت يا جمعة هل تظن اننا نرى احداً في ذلك المكان او لا وهل تظن انك ترى اباك فيهِ. فصمت متكئاً برهة طويلة وعند ما ذكرت اباهُ لاحت على وجههِ لوائح الكدر واضطراب الخاطر ورأيت الدموع تذرف من عينيهِ غزيرة فانهُ كان محبًّا ذا وداد. فقلت يا جمعة ماذا اصابك يا ترى هل

اضطربت لانك مزمع ان ترى اباك فحرك رأسهُ وقال لا لا بعد لا اراها ابدًا لا اراها بعد فقلت ماذا حملك ان تكون على يقين من هذا القبيل قال لا لا من مدة طويلة ماتت انها شيخ وكبيرة فقلت يا جمعة انك اخطأت لانك لا تعلم الواقع وهل تظن اننا نرى غيره . وكانت عيناهُ اقدر على النظر من عيني فاشار الى التل الواقع فوق منزلي القديم ونحن على بعد نصف فرسخ منهُ وقال نأم نأم نرى نرى نأم نرى كثيرين رجال هناك وهناك وهناك . فنظرت ولم ارَ احدًا حتى بنظارتي واظن ان السبب عدم تمكني من توجيهها الى المكان الذي كانوا فيهِ . اما جمعة فعلمت في الغد انهُ اصاب فانهُ رأى في ذلك المكان خمسة او ستة رجال صعدوا اليهِ لينظروا المركب لانهم لم يكونوا يعلمون الداعي الى مجيئهِ الى ذلك المكان المقفر

وعند ما قال جمعة انهُ رأى رجالاً نشرت الراية الانكليزية واطلقت ثلاثة مدافع لنبين لهم اننا اصدقاء . وبعد ذلك بنحو سبع دقائق رأينا دخانًا صاعدًا من جانب الوادي فامرت في الحال بانزال القارب وركبتهُ انا وجمعة ونشرت فيهِ راية بيضاء اي راية صداقة وسرت راسًا الى الشاطئ وذهب معي الكاهن الشاب الذي تقدم ذكرهُ . وكنت قد اخبرتهُ بعيشتي في تلك الجزيرة ووصفت له احوالها وجميع التفاصيل المتعلقة بي وبالذين كنت قد تركتهم فيها فرغب جدًا في ان يذهب اليها . وكان معنا في القارب فضلاً عن الكاهن وجمعة ١٦ رجلاً متقلدين سلاحًا كاملاً حذرًا من ان نرى قومًا يمنعون نزولنا الى البر غير اننا لم نحتج الى سلاح

وبلغنا الشاطئ والمد يكاد يبلغ عظمة فدخلنا في القارب الى الشق والرجل الاول الذي رأيتهُ هو الاسبانيولي الذي كنت قد خلصت حياتهُ فعرفتهُ حالاً من وجهِهِ اما ثيابهُ فسأتي وصفها فامرت ان لا يخرج احد الى البر في اول الامر غيري على انهُ لم يكن من سبيل الى بقاء جمعة في القارب لانهُ رأى اباهُ المحبوب عندهُ عن بعد بعيدًا عن الاسبانيولي مع انني لم أرهُ . ولو لم يسمح الملاحون له

بان يخرج الى البر اطرح نفسهُ في البحر وسار سابحاً . وبعد ما وضع رجليهِ على الشاطئ سار الى ابيهِ بسرعة كأنهُ سهم صادر عن قوس . وما من احد يقدر ان يرى ما رأينا من علامات سرور جمعة بالاجتماع بابيهِ دون ان يذرف دمعاً وان كان اشد الناس اقتداراً على ضبط نفسهِ فانهُ اعتنقهُ وقبلهُ تكراراً بوجههِ ويديهِ وحملهُ بذراعيهِ واجلسهُ على شجرة ونام بالقرب منهُ ثم وقف وتفرس فيهِ كانهُ يتفرس في صورة غريبة ربع ساعة ثم نام على الارض واخذ يلحس رجليهِ ويقبلهما ثم وقف وتفرس فيهِ . وكل من رآهُ ظن انهُ اصيب بالجنون من شدة الفرح . وفي الغد تغيرت تأثيرات الفرح فيهِ فخرج وذهب في الصباح الى الشاطئ معهُ ومسكهُ بيدهِ واخذ يتمشى معهُ ساعات وكان كل برهة يأتي القارب ليأخذ لهُ شيئاً منهُ يطعمهُ اياهُ كالسكر والكعك وبعد برهة تغيرت احوالهُ ثالثة فانهُ كان يجلسهُ على الارض ويرقص حولهُ آتياً بحركات غريبة مضحكة جداً . وكان يقوم بذلك وهو يكلمهُ ويقص عليهِ اخبار اسفارهِ وماذا صادف . وبالجملة نقول انهُ لو احب اولاد اهل الكتاب اباهم كما احب هذا البربري اباهُ انلت لولا التقى انهُ لاحاجة لهم الى الوصية الخامسة من الوصايا العشر فانا واذلك فلنرجع الى ما كنا في صددهِ . فتقدم الى البحر الرجل المذكور ومعهُ رفيق حامل راية بيضاء . ولما رآني لم يعرفني لانهُ لم يكن ظاناً اني ارجع اليهم . فقلت لهُ في اللغة البورتغالية يا سنيور الا تعرفني فلما سمع صوتي لم يتكلم بل لعطى البندقية الى رفيقهِ ودنا مني . ثم قال كيف اتى هذا الوجه الذي عند مشاهدتي اياهُ في المرة الاولى ظننتهُ ملاكاً منحدراً من السماء لينقذني . واخذ يتجمل ويلاطفني بكلام ككلام ادباء الاسبانيوليين . ثم اشار الى رفيقهِ بان يذهب ويدعو ارفاقهُ وقال لي هل تذهب الى منزلك القديم غيرانك لاتنظر فيهِ اصلاحات كثيرة فذهبت ولكنني لم اعرف الطريق المؤدية اليهِ فكنت كغريب في الجزيرة لانهم كانوا قد غرسوا فيها اشجاراً كثيرة بعضها قريب من البعض حتى انها في مدة العشر السنوات التي غبت فيها عنها كبرت جداً وسدت الطريق بحيث لايقدر

ان يسلكها الأ من عرفها مع اعوجاجها وتواريها بين تلك الاشجار الملتفة ولم يكن يعرفها غير من غرس الاشجار التي تسترها فسألته لماذا احصنتم المنزل هذا التحصين فاجاب اننا وجدنا لزومًا لذلك وسنخبرك عن التفاصيل متى اخبرناك عن تاريخ حياتنا منذ دخولنا هذه الجزيرة خاصة مدة غيابك . وسررت جدًا عندما بلغني انك قد سافرت في مركب جيد وحصلت على المرام وكان لي امل وطيد ان اراك مرة ثانية في هذا العالم على اني فرحت واندهشت جدًا عند ما رأيتك راجعًا الينا كما حزنت عندما رجعت ووجدت انك خرجت من الجزيرة

اما البرابرة الثلاثة (اي الثلاثة الاشرار الذين تركتهم في الجزيرة قبلاً) فانهم لم يحسنوا التصرف وسأخبرك امورًا كثيرة عن اعمالهم الشريرة . ونحن الاسبانيوليين كنا نفضل السكنى بين البرابرة على السكنى معهم ولو كانوا كثيرين لاهلكونا منذ زمن طويل . على انني اظن انه يسرك ان تعلم ان الضرورة الجأتنا الى ان نجردهم من الاسلحة ونتحكم فيهم وذلك لاجل صيانة انفسنا لانهم لم يكتفوا بان يكونوا سائدين علينا بل ارادوا ان يهلكونا . فاجبته ان الذي اشغل افكاري منذ خرجت من الجزيرة حتى رجعت اليها هو تعس عدم تسليمي كل ما فيها الحكم قبل خروجي منها وجعلكم سائدين على اولئك الاوباش الثلاثة لانني كنت اعرف انهم من الناس الاشرار الادنياء وانهم لا يتأخرون مطلقًا عن فعل الشر والقبيح

فعند ما فرغت من الكلام وصل الينا الرجل الذي كان قد ارسله ليدعو ارفاقه ومعه ١١ رجلاً فحجبت عني ثيابهم معرفة جنسية كل منهم غير انه اخبرني عن كل واحد منهم واخبرهم عني فعند وصولهم التفت اليّ وقال لي يا سيدي هولاء هم مخلّصوك ثم التفت اليهم وقال لهم هوذا مخلّصكم فتقدموا اليّ الواحد بعد الآخر وسلموا عليّ بخلوص واعتبار ولطف ورزانة . ثم اخذوا يجملون بعبارات ادبية لطيفة حتى انني كدت اقصر عن الجواب . وبعد ذلك اخبرني احدهم بتفاصيل ما طرأ عليهم اثناء غيابي ولا يمكن القارىء من الوقوف عليه اذكره

بجملتو لانني وجدت في ذلك التاريخ اموراً وحوادث اذبتة مفردة غريبة جداً
تشابه ما صادفت في بادىء الامر وللتوضيح ارى من اللازم ان استأنف خبر
خروجي من الجزيرة واصفاً الحالة التي تركتها عليها مع ذكر اسماء الذين خلفوني
فاقول . اني كنت قد ارسلت ابا جمعة والاسبانيولي الذي خلصته من ايدي
البرابرة في قارب من قواربهم الى المحل الذي كانا قد امرا فيو لكي يأتيا بارفاق
الاسبانيولي الذي كان قد تركهم فيها . ولتخلصهم من شدتهم ولنتعاون على ايجاد
طريقة للخروج من الجزيرة ولنشترك مع اهل العالم بلذاتو ولم يكن لي حينئذٍ
اقل امل بالنجاة ولالاح لي قط ان مركباً انكليزياً يأتيها ويذهب بي منها ولا
ريب ان ابا جمعة والاسبانيولي اندهشا جدًا عند ما رجعا ووجدا انني ذهبت
عنها وتركت فيها اولئك الاشرار الثلاثة الذين تملكوا كل ما كان لي فيها ولو
لم يكونوا غائبين لسلمتها ذلك اجمع

فسألت الاسبانيولي عن تفاصيل ما طرأ عليو وعلى ابي جمعة في سفرهما الى
الجزيرة الثانية ليأتيا باولئك الاسبانيوليين . فقال لي انا لم نصادف شيئاً يستحق
الذكر في البحر لانة كان هادئاً . اما ابناء وطني ففرحوا فرحاً لامزيد عليو عند
ما رأوني راجعاً اليها (الظاهر ان هذا كان كبير ارفاقو وعدتهم بعد ان مات
رئيس المركب الذي انكسر بهم) واشتد فرحهم برجوعي وتعجبهم لعلمهم بوقوعي
في ايدي البرابرة اسيرًا وظنوا انهم اكلوني كما اكلوا سائر اسراهم . فلما اخبرتهم
بواسطة خلاصي من ايديهم اندهشوا وتعجبوا جدًا ولم يكن اندهاشهم اقل من
اندهاش اخوة يوسف عند ما اظهر لهم نفسة واخبرهم بعظمتو ومجدو ولاحت على
وجوههم لوائح الارتياب في خبري غير انهم رجعوا الى انفسهم وتحققوا صحة كلامي
بمشاهدة الاسلحة والبارود والرصاص والزاد الذي كان معي لنقتات بو في البحر
فالحصول على قوارب تركبها الى هنا خدعنا اصحابنا البرابرة وطلبنا اليهم
ان يعيرونا قاربين كبيرين للنزه والصيد فاجابوا طلبنا وفي صباح اليوم الثاني
ركبنا واتينا هذه الجزيرة ولم يكن معنا ما يعيننا من اثاث وملابس وزاد لانة لم

يكن معنا غير ما علينا من الملابس وبعض ثمار اشجار تزودناها لنتقات بها في البحر مدة السفر ولم نكن نحتاج اليها لان الزاد الذي اعطينا اياهُ كان كافيًا وكان غيابنا انا وابي جمعة عن الجزيرة ٢٢ اسابيع ففي غضون ذلك اي المركب الانكليزي الذي سافرت انت فيهِ (كما تقدم في الجزء الاول من هذا الكتاب) تاركًا ٣ من اشر الرجال واردإهم ولا ريب في ان ذلك كدر الاسبانيوليين كل الكدر

وكنت قد تركت عند اولئك الرجال الثلاثة مكتوبًا للاسبانيوليين واوصيتهم ان يسلموهم اياهُ عند رجوعهم ففعلوا واعطوهم زادًا وورقة طويلة كتبت عليها تفاصيل صنع الخبز وتربية الجداء وزرع القمح وصنع الزبيب والفخار الى غير ذلك فادخلوهم الى المنزل واعطوهم كل ما طلبوهُ منهم لانهم كانوا في اول الامر متقنين جدًا وذلك جميعهُ كنت قد امرتهم بهِ قبل خروجي من الجزيرة . وكان الاسبانيولي الكبير وابو جمعة يهيئون ويدبرون كل شيء لانهم تعلموا ذلك مني بمرافقتي زمانًا طويلاً . اما الرجال الانكليز فلم يفعلوا شيئًا بل كانوا يتيهون في الجزيرة من مكان الى آخر يصطادون الطيور ويلتقطون السلاحف وعند رجوعهم الى البيت في المساء كانوا يجدون طعامًا قد هيأهُ الاسبانيوليون ولو تأدبوا وارتضوا بهذه الحال لما تذمَّر الاسبانيوليون ولكنهم لم يستمروا عليها الا مدة يسيرة . وبعد ذلك اخذوا في اجراء ما يأول الى ضرر الجميع فكانوا كالكلاب التي اذا اجتمعت على فريسة تشتغل عن الاكل بالنزاع وسيأتي ذكر ما وقع بينهم من الانشقاق والخيانات والشر

ولكن قبل تدوين ذلك اذكر ما قد نسيت ان اذكرهُ مما حصل عند ما كان ملاحو المركب الانكليزي الذي خلصني من جزيرتي يرفعون المرساة وهو وقوع منازعة في المركب خشيت ان تكون عاقبتها ردية وتفضي بالملاحين الى الحرب بالمركب ثانيةً ولم يخمد نارها الرئيس حتى شدَّد عزائمهُ واستغاث بنا جميعًا وفرَّق المتنازعين بالقوة الجبرية ثم القى القبض على اثنين من اشرّهم وطرحهما في السجن وقال لهما انكما كنتما من الذين حركوا الفتنة الاولى وقد اهجتما العصيان

ثانيةً فسأذهب بكما الى انكلترا مقيدين بالسلاسل واسلمكما الى الحكومة واطلب اليها شنقكما لانكما حاولتما الهرب بالمركب رغما عني . فاوقعت هذه الكلمات الرعبة في قلوب الملاحين فقال بعضهم في انفسهم ان الرئيس يعطينا الآن من طرف لسانهِ حلاوة ولكن متى وصل بنا الى انكلترا يسلمنا الى الحكومة ويطلب تأديبنا كهذين المقيدين . فبلغ ذلك النائب وعلمنا بهِ فقر القرار على ان اذهب الى الملاحين واخاطبهم بما يطيب قلوبهم ويريح افكارهم لانهم كانوا يظنون انني رجل عظيم حاكم تلك الجزيرة وكانوا يثقون بما اقوله لهم . فتقدمت اليهم وقلت لهم انني اعدكم باحسن المعاملة والعفو ان احسنتم سيرتكم واقسم لكم بشرفي انهُ لا يصيبكم اذى ولا يغدركم احد اذا رجعتم عن غيكم . ثم امرت باطلاق المسجونين من السجن وحل قيودهما وعفوت عن سيئاتهما فاثَّر ذلك تأثيرًا حسنًا في الملاحين وسكن بلبالهم . فاخرنا النزاع عن السفر تلك الليلة فلما اصبح الصباح كانت الريح ساكنة . فبعد برهة رأينا الرجلين اللذين كانا مقيدين قد اخذا بندقيتين واسلحة اخرى وكمية من البارود والرصاص وركبا قارب المركب وذهبا بهِ الى ارفاقهم الاشقياء في الجزيرة فلما تأكدنا ذلك امرت اثني عشر ملاحًا والنائب ان يتقلدوا الاسلحة ويركبوا القارب الثاني ويجدُّوا في طلب ذينك الشقيين الهاربين . فلما وصلوا الى الشاطئ لم يجدوا احدًا لانهما كانا قد هربا الى الغابات داخل الجزيرة مع الملاحين الثلاثة الذين كنت قد تركتهم فيها . فاوشك النائب ان يحرق مزروعاتهم واثاث بيتهم دون ان يبقي على شيء من مقتضيات المعيشة لان ما فعلاهُ يستوجب قصاص اشدَّ من هذا غير انهُ امتنع عن ذلك لانني لم آمرهُ بان يفعلهُ ورجع الى المركب وقد ارجع معهُ القارب الذي كانا قد هربا منهُ . وهكذا بلغ عدد الرجال المتروكين في الجزيرة الخمسة . غير ان الثلاثة الاولين كانوا اشد شرًّا وقساوة وخبثًا من الاثنين الآخرين لانهم بعد ان صرفوا يومين او ثلاثة سوية قاموا عليهما وطردوهما من المنزل ولم يعطوهما قوتًا الَّا بعد مدة طويلة . اما الاسبانيوليون فكان ذلك قبل رجوعهم الى الجزيرة

فلما اتاها الاسبانيوليون حاولوا ان يصلحوا احوالهم وطلبوا الى الثلاثة الانكليز ان يعيشوا مع الجميع في وطنهم كعائلة واحدة بالمحبة والسلامة ولكنهم لم يجيبوا طلبهم بل طردوهما من بينهم . فاضطرهما الامر الى الاجتهاد في حراثة الارض وغرس الاشجار لانهما دون ذلك لم يقدرا ان يحصلا على وسائط المعيشة المريحة فضربا خيامهما في الجهة الشمالية الغربية لئلا يعرضا انفسهما لخطر هجمات البرابرة الذين كثيرًا ما اتوا الجهة الشرقية . وبنيا هناك كوخين الواحد لسكناهما والآخر لخزنا فيه زادهما . واخذا بذارًا من الاسبانيوليين وزرعا في قطعة صغيرة من الارض قمحًا وحبوبًا مما كنت قد تركته لم فحصدوا منها ما يكفيهما وهكذا حصلا على ما يسد احتياجاتهما من المأكولات . وكان احدهما معاون طباخ المركب فكان يطبخ احيانًا مرقًا وبودينا ومأكولات اخرى من الحليب والارز واللحم وما شاكلها

على المرء ان يسعى بما فيه نفعهُ وليس عليهِ ان تتم المطالبُ

الفصل الرابع والثلاثون

النزاع في الجزيرة

فبينما كان الرجلان المذكوران مجتهدين في ترقية اسباب معيشتهما بالاجتهاد والكد واذا الثلاثة الرجال الاشقياء الذين قد سبق ذكرهم قد اتوهما واخذوا يهددوهما ويهينوهما بكلمات غير لائقة دون داعٍ . وقالوا لهما ان حاكم الجزيرة (اي انا) قد وهبنا اياها بجملتها فاذًا هي ملكنا نتصرف بها كيفما نشاء وليس لاحد حق تملكها ولا التصرف بها . فلذلك لا نسمح لكما ان تبنيا فيها بيوتًا وتحرثا اراضيها ان لم تدفعا لنا اجرة . فظنا انهما يمازحونهما فقالا لهم تعالوا واجلسوا

معنا وانظروا جمال البيتين اللذين قد بنيناها واخبرونا عن المبلغ الذي يجب علينا ان ندفعهُ لكم. ثم قال احدهما وهو يضحك . ان كنتم اصحاب الملك المأمول انكم تنعمون بمدة نستغل فيها المحصولات دون ان تقاسمونا عليها حسب عادة اصحاب الاملاك اذ اننا جددنا فيها اغراساً كثيرة واصلحنا اراضيها فنرجو ان تحضروا معكم كاتباً يكتب لنا صكوك المساقاة . فاجابهما احدهم وهو يشتمهما ويلعنهما وقد تولى امرهُ الغضب الحق اقول لكما اننا لا نمازحكما . ثم ذهب الى الجهة التي كانا قد اشعلا فيها ناراً يطبخا عليها اكلهما . واخذ عوداً مشتعلاً من الحطب ورماهُ على حائط احد كوخيهما . فشبّت النار في الكوخ. فوثب احدهما ودفعهُ الى الوراء وداس النار برجليهِ حتى اطفأها . ولولا ذلك لاحترق الكوخ وكل ما فيهِ . فاشتعل الغضب في صدر ذلك الشقي ووثب عليهِ وقد قبض على عمود من الخشب وضربهُ بهِ ولو لم يجد المضروب يدخل الكوخ لامسى قتيلاً. فلما رأى رفيقهُ الخطر الذي كان يتهددهما تبعهُ الى الكوخ . ثم خرجا وقد تقلدا اسلحتهما . فوثب المضروب على ضاربهِ وضربهُ باسفل بندقيتهِ وطرحهُ صريعاً. فلما رأى ذلك رفيقا الضارب وثبا عليهما لينتقما منهما . فوجه المضروب ورفيقهُ في بندقيتهما اليهما . فقال لهما احدهما وقد ملأ الغضب فؤادهُ الحذر الحذر فمن يحرك منكما يداً او رجلاً يموت قتلاً بالرصاص . ثم قال لهما بشجاعة وهو يزبد اطرحا اسلحتكما على الارض وسلما فسلما . فلما رأيا منهُ ذلك ارتعدت فرائصهما وملأ الخوف قلبيهما وتأكدا انهُ لا نجاة لهما الاّ بالتسليم. على انهما لم يسلما اسلحتهما بل وعدا بشرفيهما انهما لا يعارضانهما في شيء في ما بعد وان يذهبا عنهما برفيقهما المجروح جرحاً بليغاً بتلك الدفعة الشديدة. ولا ريب انهما ارتكبا الغلط في تركهما الاسلحة بيد اولئك الاشقياء الذين لم يكونوا يفعلون غير الشر والقبائح بعد ان اصبحوا قادرين ان يجرادنها منهم ثم يذهبان ويخبران الاسبانيولين بما فعلوهُ وانهم لا يتعاطون غير زرع الفساد .

انهُ لا لزوم لذكر تفاصيل ما فعلهُ بعد ذلك اولئك الاشقياء الثلاثة من

تعطيل مزروعاتهما وقتلهم رمياً بالرصاص ثلاثة جديان وعنزة كانا قد امسكاهما ليحفظاها عندهما ويتمتعا بلبنها . وكانوا لا يفترون لا ليلاً ولا نهاراً عن فعل ما يضر بهما حتى آيسا من السلامة ما دام اولئك الاشرار في الجزيرة . فاعتمدا ان يحارباهم عند ما يصادفانهم . ففي احد الايام نهضا باكراً وذهبا الى المنزل وناديام باسمائهم فاجابهما احد الاسبانيوليين . فقالا له نريد ان نكلم الثلاثة الرجال الانكليز

وكان قد صادف في امس ذلك اليوم الاسبانيوليان احد الانكليزيين اللذين ادعوهما من الآن فصاعداً العاقلين للفرق بينهما وبين الثلاثة الاشرار. فاخبراها بتفاصيل ما فعله بهما اولئك الائمة من تخريب مزروعاتهما وتعطيل القمح الذي كانا قد زرعاهُ بكدهما واجتهادهما وقتل الجدايا والعنزة وان ذلك هو جميع ما تزوداهُ لبقائهما به . وانهما يموتان جوعاً ان لم يساعدهما اصحابهما الاسبانيوليون . ففي المساء رجع الاسبانيوليان الى المنزل وبينما كانا جالسين يتناولان الطعام مع سائر رفاقهما قال احدهما بلطف وادب للثلاثة الاشرار لماذا تعتدون على القريب وتضرون بابني وطنكم اللذين قد انفردا في محل واخذا يشتغلان بالكد ليحصلا قوتهما . ألم تعلموا ان ما عطلتموهُ من مزروعاتهما قد بذلا في سبيل ايجادهِ اتعاباً ومشاقَّ لا مزيد عليها

فاجاب احدهما بغضب انهما قد دخلا الجزيرة دون اذن فاذاً لا يحق لهما ان يبنيا فيها او يحرثا اراضيها فانها لا تخصهما. فاجابه احد الاسبانيولين بلطف. يا ايها المستر الانكليزي اتتركها يهلكان جوعاً . حاشا . فاجاب الانكليزي بغضب وفظاظة وكان منظرهُ حينئذٍ كمنظر وحش مفترس . فليموتا جوعاً وليل . . . . . روحيها . انهُ لا يحق لهما ان يبنيا ويزرعا في الجزيرة فقال الاسبانيولي ماذا تريد ان يفعلا. فاجاب الانكليزي الآخران يفعلا ما يذهب بهما عنا الى جهنم وبئس . . . . لانهُ يجب عليهما ان يخدمانا كعبيدنا. فاجابه انك لم تشترهما بدرهمك فلا يحق لك ان تستعبدهما . فقال الانكليزي ان الجزيرة

لنا لان حاكمها وهبنا اياها ولا يحق لغيرنا ان يتصرف فيها مطلقاً . ثم حلف بالله انهم يذهبون ويحرقون كوخيهما لانه ليس لهما حق ان يبنياها في ارضهم . فاجابه الاسبانيولي ينبغي ان نكون نحن ايضاً عبيداً لكم . فاجابه ذلك الفاجر الدنيّ وقد مزج عباراته بعدة شتائم ولعنات نعم انكم ستكونون عبيداً لنا قريباً . فبهم الاسبانيوليون عند استماع هذه الكلمات ولم يجيبوهم بشيء . فاضرم هذا الكلام نار الغضب في قلوب الاشرار ونهضوا وقال احدهم لرفيقه ويل اتكنز هلمّ يا جاك نذهب ونتارعهما فلا بد من قتل كل مواشيهما وتعطيل مزروعاتهما لانني اقسم لك باننا لن نسمح لهما ان يمتلكا ارضاً في جزيرتنا . فعند ذلك تقلد كل منهم بندقية وغدارة وسيفاً وخرجوا من المنزل وهم يقولون انه لابد من ان يخضعوا لسطوتهم الاسبانيوليين ايضاً متى سنحت لهم الفرصة . والظاهر ان الاسبانيوليين لم يفهموا كل ما قالوهُ غير انهم فهموا فقط انهم كانوا يلومونهم على مدافعتهم عن الرجلين العاقلين

فقال لي الاسبانيوليان انا لا نعلم هل ذهبوا اليهما ام لا والى اي محل مضوا . والظاهر انهم جالوا في الجزيرة بعض الليل فغلب عليهم النعس والتعب فناموا . على انني فهمت منهم انهم كانوا قد عزموا على ان يفاجئوا الرجلين العاقلين في نصف الليل وهما نائمان وان يحرقا فيهما كوخيهما فاذا استفاقا وارادا الخروج قتلوهما ذبحاً وهما خارجان من الباب والاّ يموتا حرقاً في الكوخ . ولكنهم لم يستفيقوا من النوم في الوقت المعيَّن . فيا للعجب كيف انهم غفلوا والحسد الذي لا ينقطع يقاوم احشاءهم ويضرم فيها نيران محبة الانتقام . فلما انفجر الفجر استفاقوا وذهبوا الى الرجلين العاقلين ولكنهم لم يجدوهما فيه لانه كما تقدم كانا قد صمما على دفع ضررهم وكانا قد عزما على ان يحارباهم جهاراً وليس خداعاً ومداهنة . ولذلك كانا قد خرجا من كوخيهما قبل ان وصل اليهما اولئك الدمويون

فلما وصلوا الى الكوخين صرخ اتكنز وكان قد سبق رفيقه ما هوذا الوكر ولكن ال . . . . بل هما العصفوران قد فرّا منه . ثم اخذوا يتفكرون

في ما ألجاها الى الخروج باكرًا فقال بعضهم للبعض الآخران الاسبانوليين قد اخبروهما بما اضمرناه من الشر. فشتموا الاسبانوليين وتعاهدوا بيمين على الانتقام منهم والاضرار بهم . فلما فرغوا من هذا التعهد المبني على شر المقاصد اخذوا يهدمون كوخيهما حتى انهم لم يبقوا منهما اثرًا ثم فرقوا ما كان فيهما من الملابس ورموا امتعتهما الى الخارج وبعد رجوعهما وجدا بعض امتعتهما بعيدة عن منزلهما مسافة نحو ميل . فلما فرغوا من ذلك شرعوا في استئصال الاشجار الصغيرة التي كان قد غرسها الرجلان العاقلان ثم هدموا حاجزًا بنياهُ ليصونا بهِ مواشيهما وبالاختصار لم يتركوا حجرًا على حجر ولا عودًا على عود ولا شجرة مغروسة ولا متاعًا محفوظًا ففاقوا بالتخريب والنهب القبائل الغازية . اما الرجلان العاقلان فكانا قد خرجا ليفتشا عليهم لكي يحارباهم ولو صادفاهم لكان دون ريب اريق دم لانهما كانا من الشجاعة والاقتدار على جانب عظيم وكانا قد عزما على ان يجازياهم شرًا على ما فعلوهُ من القبح

غير ان العناية الالهية دبرت بحكمتها الفائقة ان لا تجمع الفريقين المتنازعين مع ان كلاًّ منهما كان يطلب باجتهاد عدوهُ . ولما اتى الثلاثة الاشرار الى الكوخين كان العاقلان قد ذهبا الى المنزل . وبعد ذلك حينما ذهب العاقلان الى منزلهما في طلبهم كانوا قد رجعوا الى المنزل . فلما وصلوا اليهِ كانت لوائح الغضب وشر المقاصد وافظ الطباع تلوح على وجوههم لان ما فعلوهُ من الاذى حرّك فيهم حب الشر فتقدموا الى الاسبانوليين واخبروهم بما فعلوهُ وهم يطنبون بمدح شجاعتهم ويفتخرون بهم . ثم تقدم احدهم الى امام احد الاسبانوليين ورفع برنيطتهُ عن رأسهِ وادارها بيدهِ ثم رماهُ بها في وجههِ وقال لهُ وانت يا سنيور جاك الاسبانيولي سيصيبك ما اصابهم ان لم تصلح تصرفك معنا (عنى بهِ جمهور الاسبانوليين) وكان ذلك الاسبانيولي رجلاً عاقلاً لطيفًا رزينًا ذا شجاعة وقوة شديدة فتقدم برزانة اليهِ وضربهُ بقبضة يدهِ ضربة القاهُ بها صريعًا . فلما رأى ذلك احد الاشرار رمى الاسبانيولي برصاصة من غدارتهِ لكنهُ اخطأهُ فمرّ الرصاص

من شعرهِ دون ان يؤذيهُ غير انهُ مس قليلاً احدى اذنيهِ فسال الدم . فلما شعر الاسبانيولي بجريان الدم من اذنهِ ظن انهُ قد اضر بهِ كثيرًا فتشددت عزائمهُ وجرى الدم حارًا في عروقهِ وهاجت فيهِ الحمية وعزم على القيام بحق ثارهِ فانحنى وتناول بندقية الذي صرعهُ ورفعها الى كتفهِ واوشك أن يطلقها عليهِ . فعند ذلك صرخ سائر الاسبانيوليين من المغارة ونادوهُ لا تفعل . ثم تقدموا وقبضوا على المتعدين وجردوهم من اسلحتهم

فلما رأى الاشقياء انهم قد تجردوا من اسلحتهم واغاظوا جميع الاسبانيوليين وابني وطنهم اخذوا يتجملون بالكلام ويظهرون الرقة والرزانة وطلبوا اليهم ان يردوا اسلحتهم . غير ان الاسبانيوليين رفضوا اجابة طلبهم لانهم علموا انهُ اذا سلموهم اسلحتهم يوقعون الانكليزيين العاقلين تحت خطر الموت قتلاً لان العداوة بينهما وبينهم كانت شديدة جدًا. فقالوا لهم اننا لا نؤذيكم البتة ان احسنتم سيرتكم وتصرفكم لا بل نعيش معكم بالسلامة ونمد لكم يد المساعدة كما كنا نفعل قبلاً . على اننا نرى ان رد اسلحتكم هو مما لا يوافق الصالح العمومي ويؤول الى ضررنا جميعًا لانكم قد اظهرتم ميلاً شديدًا الى الشر وفعلتم ما يجلب عليكم الحكم بالموت خاصةً لانكم تهددتمونا بالاستعباد

فلما سمعوا هذه الكلمات صار الضياء في وجوههم ظلامًا وغابوا عن الصواب ووثبوا من امكنتهم وفروا من بينهم وهم يشتمونهم ويلعنونهم ويهددونهم بالاذى. اما الاسبانيوليون فلم يبالوا بتهديداتهم بل قالوا لهم الحذر الحذر من فعل ما يؤذينا من تعطيل مزروعاتنا وقتل مواشينا فاذا فعلتم ذلك نقتلكم رميًا بالرصاص اينما وجدناكم كما نقتل الوحوش الضارية وان امسكناكم نشنقكم لامحالة . فلم تؤثر فيهم هذه التهديدات بل زادت غضبهم وشرهم ففروا وهم يلعنون ويشتمون كانهم شياطين افلتت من جهنم . فبعد ذلك اتى العاقلان منزلهما وشاهدا ما فعلهُ الاشقياء بكوخيهما ومزروعاتهما . ولا ريب انَّ ذلك يحرك الغضب ويحمل الانسان بطلب بحق ثارهِ . فاخذا يقصان على الاسبانيوليين ما حدث

لها وهولاء يقاطعونها في الكلام ليخبروها بما حدث وما يستحق الذكر ان ثلاثة رجال سخروا بتسعة عشر رجلاً واتعبوهم واضروا بهم دون ان يردعهم احد

فعزم العاقلان ان يجازياهم على ما فعلوهُ ويجبراهم على تعويض ما عطلوهُ ولو التزموا ان يبذلوا من التعب والجد ما لامزيد عليهِ غير ان الاسبانيوليين تعرضوا لهما وقالوا اننا قد جردناهم من الاسلحة فلا يوافق ان نسمح لكما ان تجتازا السير وراءهم وانتما متسلحان لئلا تقتلا احدهم. ثم قال كبير الاسبانيوليين ان سلمتما الينا تسوية هذا الامر نستخدم الوسائل التي من شأنها اجبارهم على ان يعوضوا اضراركم لاننا لا نرتاب في انهم يرجعون الينا عن قريب بعد ان تخمد نار غضبهم لانهم لا يقدرون ان يعيشوا دون مساعدتنا فتيقنا اننا لا نصالحهم قبلما تحصل لكما منهم الترضية التامة فبناء على ذلك المأمول انكما لا تفعلان ما يجلب عليهم ضرراً ما لم يتعرضوا. فوعدا بذلك رغماً عنهما. فقال لهما الاسبانيوليون الحق نقول لكم اننا لم نطلب اليكما ذلك الاَّ لنجتنب الدم ولتعويض الاضرار التي تكبدتماها فابقيا معنا هذه المدة فنعيش سوية بالاتحاد والاتفاق كاصحاب مخلصين لان محلنا يكفيكم ويكفينا. فاجابا طلبهم وبقيا عندهم برهة ينتظران تسوية الامر

فبعد ان صرف الاشرار خمسة ايام وهم يتيهون في الغابات من مكان الى آخر غلب عليهم التعب والجوع لانهُ لم يكن لهما ما يتقاتون بهِ غير بيض اليمام واصول الاشجار فاقتربوا من المنزل فصدفوا كبير الاسبانيوليين واثنين من ارفاقهِ يتمشون قرب الشاطئ فتقدموا اليهم بذل وخضوع لامزيد عليهما وتوسلوا اليهم ان يدخلوهم الى المنزل ليعيشوا معهم كما كانوا قبلاً. فعاملهم الاسبانيوليون باللطف والرحمة وقالوا لهم ان تصرفكم بالنظر الينا والى ابناء وطنكم قبيح جداً فلا نقدر ان ندخلكم الى المنزل ما لم يقبل بذلك الانكليزيان وسائر ارفاقنا. فان شئتم نذهب ونخبرهم بذلك وبعد نحو نصف ساعة نأتيكم بالجواب. فاجابوا كيف لا. فان الجوع قد فعل فينا ونكاد نموت فنتوسل اليكم ان تتكرموا بارسال ما نتقات بهِ عند وصولكم لانهُ لاطاقة لنا على الصبر.

فبعد وصولهم الى المنزل ارسلوا اليهم فخذ ماعز مشويًا وبغالاً مسلوقًا فاكلوهما بشراهة لامزيد عليها

فبعد ان تشاور الاسبانيوليون والانكليزيان نحو نصف ساعة في شأن قبولهم بينهم نادوهم ان يأتوا اليهم فاتوا . فبعد ان تكلموا برهة عن قبيح ما فعلوهُ ادعى عليهم العاقلان انهم عطلوا كل ارزاقهما وحاولوا قتلهما . فلم ينكروا ذلك لانهم كانوا قد اقروا بهِ قبلاً . وكان الاسبانيوليون يتوسطون في انهاء تلك الصعوبات الكائنة بين الفريقين وكما انهم طلبوا الى العاقلين ان لا يفعلوا ما يضر بالمتعدين وهم مجردون من الاسلحة طلبوا الى الاشرار ان يبنوا الكوخين اللذين هدموهما وان يكون احدهما اكبر مما كان قبل الهدم والآخر على اصلهِ والحائط الذي كان يحيط بحظيرة مواشيهم وان يغرسوا اشجارًا عوضًا عن التي اقتلعوها وان يحرثوا الارض ويزرعوا بها قمحًا عوضًا عن الذي داسوهُ وبالجملة ان يردوا كل ما عطلوهُ وخربوهُ الى ما كان عليهِ فقبلوا بكل ذلك وابتدأوا في الشغل وكانوا منقادين لا يفعلون ما يهين او يضر غيرهم لان الاسبانيوليين كانوا يقدمون لهم كل ما لزمهم من الزاد . وهكذا عاشوا سوية بالرغد والسرور غير ان الاشرار لم يحبوا ان يجهدوا في ترقية احوال معيشتهم . فقال لهم الاسبانيوليون ان احسنتم تصرفكم وعشتم بالسلامة والمحبة وفعلتم ما يؤول الى خير الجمهور وليس الى ضررهِ نقدم كل ما يلزم لكم . اما انتم فاذا شئتم ان تتخطروا من مكان الى آخر ولا تفعلوا شيئًا فلا بأس عليكم . فلما رأى الاسبانيوليون انهم قد احسنوا التصرف مدة نحو شهرين ردوا عليهم اسلحتهم وأذنوا لهم بالذهاب الى الخارج كالماضي . فبعد ذلك بنحو اسبوع اخذوا بالرجوع الى ما كانوا عليهِ من سوء التصرف غير انهُ حدث حينئذٍ ما الزمهم ان يملوا عن اعمالهم السيئة وينظروا في امر تخليص انفسهم من الاخطار التي كانت تتهددهم جميعًا

ففي احدى الليالي قلق كبير الاسبانيوليين الذي ندعوهُ من الآن وصاعدًا الوالي الذي خلصت حياتهُ من الموت وشعر في ارتباك افكارهِ وكان يلوح

امامهُ رجال يتحاربون ويتقاتلون ولم يكن ذلك في الحلم بل كان في يقظة فاخذ يتقلب من جهة الى اخرى حتى اضناهُ التعب فعزم ان ينهض من فراشهِ فنهض ولبس ثوبهُ ونظر الى الخارج فلم يرَ شيئاً غير السماء ونجومها لانهُ فضلاً عن ظلام الليل كانت الاشجار المحيطة بالمنزل تحجب عنهُ منظر ما يجاورهُ ولم يسمع صوتاً فرجع ونام في فراشهِ ولم ينم ولاقدر ان يميل افكارهُ عن تلك التخيلات والتصورات . فاستفاق احد النائمين بصوت قيامهِ وخروجهِ فسأل من هو المستفيق منا يا ترى فقال لهُ الوالي انا ثم اخبرهُ بكل ما حصل لهُ فقال أهذا هو واقع فلا ينبغي ان نستخف بتصورات كهذه وعندي انهُ لابد من اجراء اعمال شريرة بالقرب منا . ثم سألهُ ابن الرجال الانكليز . فقال انهم جميعاً في منازلهم فلا خطر منهم فانهُ منذ اظهر الاشرار العصيان بنى الاسبانيوليون لهم مسكناً منفرداً لايمكنهم الوصول منهُ الى سائر المنازل وسكنوا هم المنزل القديم . فقال الاسبانيولي لابد من وجود شيء غير اعتيادي بالقرب منا لان اختباري بامور كهذه يقودني الى هذا الظن . فاجاب في الطبيعة اسرار لانعلم حقيقتها تجري في الكون وكأنها تنبه الانسان في بعض الاحوال الى امور لايراها فلا ينبغي ان نستخف بها . هلمَّ اذاً نذهب وننظر الى ما حولنا فان لم نجد ما يحقق لك ذلك اخبرك عن حادث يؤكدهُ لك

فخرجا ليصعدا على رأس التل الذي كنت اصعد عليهِ ليشرفا منهُ على ساحل الجزيرة والاماكن المجاورة للمنزل فبينما هما يتقدمان في الطريق دون خوف واختشاء واذا نور قد لاح بالقرب منهما وضجيج اصوات كثيرة طرق اذانهما فجفلا ورجعا الى الوراء

لما كنت في الجزيرة اعتنيت جداً بان لااظهر نفسي للبرابرة الذين كانوا يأتونها ومع ذلك كانوا احياناً يشاهدونني ولكنني كنت افتك بهم بالاسلحة النارية التي كانت تحملهم على الظن بان اهاليها هم من المعبودات فكان الخوف الشديد يتولى عليهم حتى انهم عند وصولهم الى اوطانهم لم يكونوا يقدرون ان يخبروا

قاطنيها بصفات اهلها . ولم ينجُ من الذين رأوني غير الثلاثة البرابرة الذين ركبوا قاربهم حالاً وذهبوا وذلك في المحاربة الاخيرة التي انتشبت نارها بيني وبينهم . حتى انني كثيرًا ما خشيت انهم يذهبون الى وطنهم ويرجعون بجيش جرار وربما كان الذي حمل عدد غفير منهم على الاتيان هذه المرة وانا غائب عن الجزيرة هو الاخبار التي بلغهم اياها اولئك الثلاثة . على ان الاسبانيوليين لم يقفوا على حقيقة سبب مجيئهم فلا يبعد انهم اتوا لمجرد اكل من اسر من اعدائهم حسب عادتهم القبيحة . ولو احسن التدبير الاسبانيوليون حينئذٍ لكانوا استتروا لكي لا يعلم البرابرة ان الجزيرة مأهولة وهجموا عليهم وقطعوا الطريق بينهم وبين القوارب لكي لا ينجو احد منهم

فلما رأى الوالي ورفيقه ذلك المنظر رجعا الى المنزل واخبرا ارفاقهما بما رأيا وبالخطر الذي كان يهددهم فخرجوا جميعًا ليشاهدوهم . ولم يقدر الوالي ان يمنعهم عن الخروج ويضبطهم داخل المنزل . فلم ينظرهم الاعداء لان الظلام كان يحجبهم عن اعينهم فكانوا ينظرون اليهم بالنار التي كانوا يشبونها في ثلاثة اماكن غير انهم لم يكونوا يعلمون ماذا كانوا يصنعون هناك ولا عرفوا بماذا ينقذون انفسهم من الخطر لان الاعداء كانوا كثيرين متفرقين اقوامًا اقوامًا فارتعدت فرائص الاسبانيوليين خوفًا منهم خاصةً عند ما رأوا انهم متفرقون فكانوا يخشون هجوم بعضهم عليهم او على قطيع الماعز الذي كانوا يتغذون بلبنهِ ولحمهِ فبعد ان تشاوروا برهة قرَّ الراي على انهم يرسلون رجلين اسبانيوليين ورجلاً انكليزيًا ليذهبوا بقطيع الماعز الى وادي المغارة واذا اقتضى الامر يدخلونها الى المغارة . ثم اخذوا يتبصرون في طريقة يتخلصون بها من الخطر فعزموا ان يرسلوا ابا جمعة جاسوسًا اليهم ليتحقق عددهم وسبب مجيئهم فاجاب طلبهم وبعد ان جرَّد نفسهُ من الملابس كعادة اكثر البرابرة ذهب مسرعًا ولو كان البرابرة مجتمعين في مكان واحد وبعيدين عن قواربهم لهجموا عليهم غير مبالين بكثارة عددهم . فبعد نحو ساعة او ساعتين رجع ابو جمعة اليهم وقال لهم ان

اولئك البرابرة هم من شعبين مختلفين وقد وقعت حرب عظيمة بينهما في بلادهما وكان كلٌّ من الفريقين قد اسر رجالاً من الفريق الآخر وقد اتى بعضهم الى هنا ليأكلوا الاسرى فصادف مجيء بعض الشعبين الى محل واحد وقد وقع النزاع بينهم ولا ريب في انهم متى طلع الفجر يتقاتلون لان بعضهم قريب جدًّا من البعض الآخر والظاهر انهم لا يعلمون ان هذه الجزيرة مأهولة فلم ينتهِ ابو جمعة من الكلام حتى سمعا صوت غوغاء غير اعتيادي فاستنتجا منه ان القتال قد ابتدأ

فتوسل ابو جمعة الى الاسبانيوليين ان لا يظهروا انفسهم بل يختبئوا وقال لهم ان سلامتكم تتوقف على ذلك فاذا اختفيتم ولم يعرف البرابرة بكم يتقاتلون حتى يفني فريق منهما الآخر ومن ينجو منهما يرجع الى وطنه غير ان الانكليز لم يضبطوا انفسهم لان محبة الفرج على حرب بربرية غلبت على الخوف فكانوا يخرجون من المنزل ويذهبون الى الغابات من حيث كانوا ينظرون الحرب دون ان يراهم احد

وكانت الحرب شديدة جدًّا اما المتقاتلون فكانوا على جانب عظيم من الشجاعة ومعرفة ادارة الحرب والقوة فبقيت نارها مضطرمة نحو ساعتين قبلما ظهرت اشارات الغلبة على احد الفريقين غير انه بعد برهة لاحت لوائح الضعف على الفريق الذي كان في جهة منزل الانكليزيين ثم فرَّ بعضهم من معمعة القتال فلما رأى ذلك الانكليزيان خافا لئلا يأتي احد الفارين الى منزلهما ليختبي هناك فيقتفي اثرهُ الغالبون فعزما على الرجوع الى منزلهما وان يتقلدا الاسلحة واذا اتاهما احد البرابرة يقتلانهِ بالسيف او بحربات بندقيتهما وليس رميًا بالرصاص لئلا يسمع الباقون صوت اطلاق البنادق فبعد ذلك فرَّ ثلاثة من المغلوبين وركضوا الى ناحية المنزلين ليختبئوا من هجمات العدو غير عالمين بما يصادفون فلم يقتفِ الغالبون اثرهم ولا رأوا الجهة التي فرّوا اليها فبلغ خبرهم الوالي وكان ذا حنو وشفقة فارسل ثلاثة رجال لنجدة الانكليز وامرهم ان لا يرموهم بالرصاص بل ان يكمنوا لهم وراء التل فمن جازهُ يداهمونهُ من وراء

ويلقون القبض عليهِ فاجابوا طلبهُ ولسروهم

اما بقية المغلوبين فنزلت الى قواربها وسارت في البحر . واما الغالبون فاجتمعوا في مكان واحد وصاحوا صيحتين عظيمتين علامة للانتصار ثم في نفس ذلك اليوم بعد رابع ركبوا قواربهم ايضاً وذهبوا. وهكذا نجا اهل الجزيرة من الخطر الذي كان يتهددهم وبقوا وحدهم فيها دون معارض ولا عدو وخرجوا من خيامهم وذهبوا الى ساحة الحرب فرأوا فيها نحو اثنين وثلاثين قتيلاً بعضهم مقتول بسهام طويلة جدًّا منها كان باقياً في اجسادهم غير ان اكثرهم كانوا مقتولين بسيوف من خشب كبيرة جدًّا منها في ساحة الحرب نحو ١٧ سيفاً ونحوها من الاقواس وكثير من السهام . اما السيوف فكانت غريبة المهنة ثقيلة جدًّا لا يقدر ان يضرب بها الا من كان قويًّا للغاية . اما فعلها في جسد الانسان فهو كسر الجمجمة وسائر الاعضاء . وذلك يظهر لنا شدة قتالهم واقتدارهم . ومن عوائدهم ان يبقى القاتل قرب الجريح من اعدائهِ حتى تخمد روحهُ او ان يذهب بهِ الى قومهِ فلذلك لم يروا مجروحاً بين القتلى فاثّر ذلك المنظر تأثيرًا حسنًا في الانكليز الاشقياء وارتعدت منهُ فرائصهم خاصة عند ما يلوح لهم انهم ربما يقعون في ايدي اولئك الوحوش الذين ليس فقط يقتلونهم بل ياكلونهم كما ناكل نحن الحيوانات فقالوا ان مجرَّد الفكر بانهم ربما يبتلعوننا كما نبتلع نحن لحم الشاة هو الذي كان يزعجهم ويملأ قلوبهم رعدة وخوفاً فحملتهم هذه الافكار على الاعتناء باشغالهم ومزروعاتهم فكانوا يحرثون الارض ويزرعون القمح ويغرسون الاشجار كسائر ارفاقهم غير انهم لم يبقوا على هذه الحالة مدة طويلة

اما الثلاثة الاسراء الذين كان قد القي القبض عليهم فكانوا اشداء فاستعبدوهم وعلموهم الحراثة وكل متعلقاتها فنجحوا جدًّا في ذلك غير انهم لم يعلّموهم ما من شأنهِ ان يهذبهم ويمدنهم ويغرس في عقولهم المبادئ الادبية والدينية ولا اظهروا محبتهم باخبارهم اياهم انهم قد خلصوهم من الموت ولم يسمحوا لهم ان يشتركوا معهم في مصادمة الاعداء كما كنت افعل انا مع جمعة وكان ذلك بحيلة

الى كل الميل فكان يجيني كما يجب نفسه لكن كانوا يشغلونهم و يقدمون لهم قوتاً

فبعد ذلك اخذوا يتبصرون في احوالهم ومصالحهم العمومية لان الخطر الذي كان يتهددهم جميعاً كان قد اصلح داخليتهم حتى انه ارتفع من بينهم النزاع ومن ذلك لزوم نقل محل سكنهم الى جهة اخرى من الجزيرة تصلح لزرع مزروعاتهم لا يأتيها البرابرة لينجوا من الخطر والوقوع في ايديهم. فبعد التبصر في ذلك برهة قرَّ رأيهم على انهم لا ينقلون محل سكنهم لانه ربما ارسل حاكمهم (اي انا) من يذهب بهم من هناك او يحضر لهم زاداً وملبوساً فان لم يجدهم الرسول في المحل الذي يشير اليه الحاكم ينثني راجعاً دون ان يبحث عنهم ظاناً ان البرابرة قد اهلكوهم ولم يبقوا على احد منهم . على انهم عزموا ان ينقلوا بعضاً من مواشيهم الى وادي المغارة وان يحرثوا بعض الارض هناك حتى اذا قتل البرابرة المواشي التي كانت موجودة بقرب المنزل تبقى الموجودة في الوادي وكذلك اذا عطلوا مزروعاتهم الموجودة عند منزلهم . وانهم لا يعلمون بذلك عبيدهم البرابرة ولا يخفى ما بذلك من الحكمة اما برميلا البارود اللذان كنت اعطيتهم اياها عند خروجي من الجزيرة فنقلوها الى المغارة التي لم يعلم بها ايضاً العبيد . وتأكد لهم حينئذٍ انهم ليستأمنوا على حياتهم ينبغي ان لا يظهروا انفسهم للبرابرة بل يختبئوا عند ما يأتون الجزيرة فصمموا على ان يزيدوا حصون المنزل التي كنت بنيتها بانشاء البنايات وغرس الاشجار فلذلك غرسوا تلك الاشجار الغضة التي سبق ذكرها حول المنزل الى مسافة بعيدة من الاشجار السريعة النمو الغضة التي تعلو جداً ففي ٤ سنين كبرت جداً وسترت المنزل ومرابض المواشي ومحل المزروعات حتى ان من نظر الينا من خارج لا يرى شيئاً داخلها ولو اراد احد ان يدخلها ممن لا يعلم مسالكها الضيقة المعوجة لا يقدر على ذلك ان لم يكن معهُ جمهور المعاونين لقطع تلك الاشجار الممتدة مسافة نحو ميل من كل الجهات ولا يخفى ما في ذلك من الصعوبة وهكذا استأمنوا على انفسهم وعلى مقتنياتهم . اما مسلكهم من جهة التل فكان بواسطة السلم الذي كانوا يصعدون به عليهِ ومتى

رفموهُ لايقدر غير الطائر ان يصل الى منزلهم ولا ريب ان ما فعلوهُ موافق جدًا . وتبرهن لهم ان حكمة العناية جعلت في الانسان ما يحملهُ على فعل ما ينتفع بهِ ولذلك لا ينبغي ان يتأخروا عن اجراء ما ينفعهم لئلا يدركهم ضرر عظيم

وكن حكيًا بتدبير الامور فقد اعطاك ربك عقلاً تستعين بهِ

الفصل الخامس والثلاثون

خروج الثلاثة الاشقياء من الجزيرة

في احد الايام صباحًا اتى الثلاثة الاشرار الى الاسبانيوليين وطلبوا اليهم بذل لامزيد عليهِ ان يسمحوا لهم ان يكالموهم فقالوا لهم تكلموا . فقالوا انا قد مللنا الحياة وسئمنا عيشتنا لاننا لانعرف ان نفعل ما يؤول الى سعادتنا وراحتنا وانا اذا بقينا دون اسعاف نموت جوعًا لامحالة . فنرجوكم ان تعطونا سلاحًا وبارودًا ورصاصًا وتأذنوا لنا ان نركب احد قوارب البرابرة التي تركوها هنا فنذهب بها الى الجزائر المجاورة لعل الله ينعم علينا بما ينقذنا من هذه الحالة التعيسة ويتكفل لنا بقيام حياتنا

فسرَّ الاسبانيوليين خبر ذهابهم . على انهم قالوا لهم انكم لا تعلمون ان في هذا المقصد حماقة لانهُ ربما افضى بكم الى الهلاك لاننا نعلم بالاخبار ان من يقطن هناك من الشعوب المتمدنة يموت جوعًا لامحالة فينبغي ان تتبصروا في غوائل هذا السفر قبلما ترمون انفسكم في خطر الموت جوعًا فاجابوهم وقد اصروا على ذلك ان بقينا هنا نموت جوعًا لانهُ لاطاقة لنا على الشغل والكد ولا ميل لنا اليهِ فان قتلنا البرابرة نخلص من اتعاب هذه الحياة الزائلة فان اعطيتمونا الاسلحة نذافع بها عن انفسنا شكرناكم والاَّ فنذهب دونها متكلين على النصيب

فاجابهم الاسبانيوليون بحنو وشفقة اذا كان لا بد من ذلك فلا نتركم تذهبون مجردين بدون شيء تدافعون به عن انفسكم لدى الاقتضاء . على انه يصعب علينا ان نعطيكم الحمة لان ما عندنا منها يكاد لا يكفينا ومع ذلك نعطيكم بندقتين وغدارة وثلاثة فؤوس ونظن انها تكفيكم ونزودكم من الخبز واللحم القديد والزبيب والماء ما يقوتكم اكثر من شهر ونعطيكم علاوة على ذلك جديًا حيًا . فبعد ان اخذوا هذه الاشياء انزلوها الى القارب وركبوه وساروا في البحر قاصدين قطع مسافة تزيد على الاربعين ميلاً قبل ان يدركوا مقصودهم ولا يخفى ما بذلك من الخطر والاهوال . وكان الاسبانيوليون قاطعين الامل من سلامتهم. ولو لم تكن الريح موافقة لهم لما امكنهم ان يدبروا القارب لانه كان كبيرًا لا يقدر ان يركبه اكثر من عشرين رجلاً ويلزم لادارته اكثر من ثلاثة ملاحين لان شراعاته كانت من جلود الماعز مرفوعة على عمود طويل عوضًا عن الصاري . فبعد ان ذهبوا بمدة قال الاسبانيوليون لبعضهم وللانكليزيين الحمد لله قد حصلنا على الراحة والسكينة منذ بعد عنا اولئك الاشرار ونظن انهم لا يرجعون الى هنا البتة على اننا نشفق عليهم جدًا ربما قد هلكوا او وقعوا في مصائب لا يخلصون منها

فبعد ذهابهم بنحو اثنين وعشرين يومًا كان احد الانكليزيين يحرث الارض بعيدًا عن المنزل فرأى عند الشاطىء ثلاثة رجال حاملين بنادق متقدمين اليه . فجفل وانثنى راكضًا الى الوالي وهو يصرخ يا للداهية لقد هلكنا فان رجالاً قد اتونا فلما سمعه الوالي تأمل قليلاً ثم قال له كيف هذا ألا تعلم انهم من البرابرة فاجابه الانكليزي كلاّ كلاّ انهم مكتسون ومتقلدون اسلحة. فاجابه الوالي اذًا لماذا تخشاهم فانهم من المتمدنين فلا يؤذوننا . فبينما هم يتكلمون اذا بالثلاثة الرجال الانكليز قد اتوا الى خارج الغابة المزروعة حديثًا ونادوهم . فلما سمعوا اصواتهم عرفوهم وزال عنهم الخوف . غير انهم اندهشوا من رجوعهم الى الجزيرة واخذوا يتفكرون في السبب الذي ارجعهم اليهم . فقالوا لهم تعالوا الينا

ثم سألوهم قائلين اين كنتم وماذا فعلتم مدة غيابكم عنا فاجابوا انا بلغنا اليابسة بعد سفرنا من هنا باقل من يومين فلما رآنا اهل ذلك المكان خافوا جداً واخذوا يهيئون قسيهم وسهامهم ليرموننا فلم ننزل اليهم لاننا خفنا سوء العاقبة بل سرنا الى الجهة الشمالية مدة ست او سبع ساعات فرأينا عن بعد جزيرة في الجهة الشمالية وجزائر اخرى كثيرة في الجهة الغربية . وكنا قد عزمنا على الذهاب الى محل من تلك المحلات فادرنا مقدم قاربنا الى الجهة الغربية فوصلنا الى جزيرة من تلك الجزر فنزلنا في الشاطئ دون تبصر في عواقب الامور . فاستقبلنا اهاليها بالترحاب واللطف وكان الرجال والنساء يتزاحمون علينا وقد احضروا لنا على رؤوسهم من مسافة بعيدة اصول اشجار وسمكاً واشياء اخرى كثيرة . فاخذنا نسألهم بالاشارات عن الشعوب التي سكنت الجزائر التي احاطت بهم فقالوا لنا ان الذين يقطنونها هم من الامم المتوحشة الذين يأكلون بعضهم . اما نحن فلا نفترس رجالاً ونساء الا اننا نولم بأكل الذين نأسرهم في الحرب فقط وجرت كل هذه المفاوضة بيننا بالاشارات . ثم سألناهم متى اولمتم وليمة كهذه فاشار احدهم الى القمر ثم رفع اصبعيه اي منذ شهرين . ثم اشاروا ان ملكهم العظيم قد اسر مئتي اسير وهم عنده الآن وهو يعلفهم جيداً لكي يولم باكلهم في العيد القادم . فاشرنا اليهم اننا نرغب جداً ان نراهم . فظنوا اننا نطلب منهم بعضهم لنأكله . فاشاروا الى المغرب ثم الى المشرق اي غداً عند شروق الشمس نأتيكم ببعضهم . ففي الغد صباحاً اتونا بخمس نساء واحد عشر رجلاً وسلمونا اياهم واشاروا الينا ان نتزودهم . فلما رأينا الاسرى كدنا نقذف ما في اجوافنا وحرنا في امرنا لاننا ان رفضناهم يغتاظون جداً فلم نعلم ماذا ينبغي ان نفعل بهم . فلدى التشاور في هذا عزمنا ان نقبل من اصحابنا البرابرة هذه الهدية النفيسة . واهديناهم قبالتها فأساً ومفتاحاً قديماً وسكيناً وست او سبع كرات من الرصاص ففرحوا بكرات الرصاص اكثر من باقي الاشياء مع انهم لم يعلموا كيف يستعملونها . فبعد ذلك تقدموا الى الاسرى واوثقوا ايديهم وراء ظهورهم

وجروهم الى القارب . فاضطرنا الامر الى الخروج من الجزيرة لاننا لو بقينا هناك لانتظر منا اولئك الذين تكرموا علينا بتلك المدبة النفيسة ان نذبح اثنين او ثلاثة منهم في صباح ذلك اليوم وربما ظنوا اننا ندعوهم ليولموا معنا . فودعناهم بعد ان شكرناهم على قدر ما امكننا ان نشكرهم بالاشارات وركبنا قاربينا ورجعنا قاصدين الجزيرة التي رأيناها في اول الامر فلدى الوصول اليها اطلقنا ثمانية من اسرانا الرجال لانه لم يكن لنا حاجة بهم جميعًا وعدنا قاصدين هذه الجزيرة . فاثناء السفر حاولنا التكلم مع الاسرى ولكن لم نقدر ان نفهمهم شيئًا لانهم ظنوا ان كل ما قلناهُ او فعلناهُ انما هو متعلق بذبحهم ففي اول الامر حللنا وثاقهم فصرخوا صرخة اليأس ولاسيما النساء لانهن ظنن ان ذلك تهيئة لذبحهن وكنَّ يفعلنَ كمن يشعر بالسكين تمسّ عنقهُ . وكانوا يظنون اننا عندما نعطيهم قوتًا نعلفهم لئلا تضعف اجسادهم ولتزيد لذة لحمهم وان نظرنا الى احدهم او بعضهم كانوا يظنون اننا نتفرس فيهم لنرى من هو اسمن لكي نذبحهُ قبل ارفاقهِ ولم يزالوا على هذه الحال حتى وصلنا الى هنا . فبعد ما انتهوا من قص قصتهم قال لهم الاسبانيوليون اين الاسرى . فاجابوا قد اتيناكم لنسألكم طعامًا لهم . فاجابوهم اننا نرغب جميعنا ان نذهب وننزرج عليهم فمضوا واخذوا معهم ابا جمعة

فلما وصلوا الى الكوخ رأوا الاسرى جالسين عراة . وايديهم موثوقة لان الانكليز لدى وصولهم الى الجزيرة اوثقوهم لئلا يركبوا القارب وينجو بانفسهم وهم ثلاثة رجال وخمسة نساء . اما الرجال منهم فكان منظرهم جيدًا واعضاؤهم قوية وسن كل منهم بين الثلاثين والخمس والثلاثين سنة . اما النساء فمنهن اثنتان قد بلغتا من العمر ما بين الثلاثين والاربعين سنة واثنتان ما بين الاربع والعشرين والخمس والعشرين اما الخامسة فكانت جارية طويلة القامة لطيفة المنظر قد بلغت من السن ما بين الست عشرة والسبع عشرة سنة . وكان منظرهنَّ جيدًا وقاماتهن معتدلة ولونهنَّ مائل الى السواد واثنتان منهنَّ لو كانتا من البيض

لكانتا تعدان من اجمل النساء حتى في نفس لوندرا

فلما نظر الاسبانيوليون ثلاثة رجال وخمس نساء عراة موثقين منتظرين ان يقادوا الى الذبح كما تقود الشاة والعجول تاثروا جدًّا لانه لا يخفى ان ذلك مما يشمئز منه الطبع وينفر منه الذوق السليم . ولا سيما من كان ذا خصال حميدة وصفات ادبية كاولئك الاسبانيوليين الذين طالما برهنوا بتصرفاتهم انهم من ذوي الاداب والحلم فبعد ان تفرسوا فيهم قليلاً قالوا يا ابا جمعة أتعرف احدهم فقال لا ثم قالوا له كلمهم . فلم يفهم غير كلام احدى النساء فقالوا له قل لهم بلسان هذه المرأة ان الذين قد اسروهم هم من المتمدنين ويكرهون اكل البشر فلا خطر عليهم من الذبح . فلما سمعوا هذه الكلمات فرحوا جدًّا واخذوا يظهرون السرور باشارات مختلفة يكل القلم عن وصفها كل منهم على حسب عادة قومه لانهم كانوا من شعوب مختلفة . ثم قال الاسبانيوليون لابي جمعة قل للترجمانة ان تسألهم هل يرغبون ان يخدموا الرجال الذين اتوا بهم الى هنا ليخلصوهم من الموت فلما بلغهم ذلك اخذوا يرقصون فرحًا ويحملون على اكتافهم كلما وجدوهُ بالقرب منهم علامة لقبولهم ما عرضوهُ عليهم

فلما رأى الوالي ان وجود النساء بينهم ربما ينجم عنه اختلاف شديد ونزاع ربما يفضي الى اراقة الدماء سأل الثلاثة رجال الذين اتوا بهم الى الجزيرة ماذا تقصدون ان تفعلوا بهاته النساء أتستخدمونهنَّ كعبدات او كزوجات يقمنَ بقضاء حاجاتكم . فاجاب احدهم بوقاحة لا مزيد عليها لقضاء الحاجتين . فاجاب الوالي اني لا امنعكم عن فعل ما تشتهون لانكم احرار في اعمالكم الخصوصية . على اني اظن الاوفق لدفع النزاع والشقاق ان تتفقوا على ان كلاًّ منكم يأخذ امرأة من هذه النساء . فاجابوا لا ثم قال بعضهم ان لنا نساء في اسبانيا وقال اخرون اننا لا نرغب في ان نتزوج نساء غير مسيحيات . ولا ريب ان ذلك هو دليل واضح على عنه لم اسمع بنظيرها حياتي بطولها . فبعد ذلك اخذوا يتبصرون في طريقة يمكنهم بها ان يختار كل من الانكليز امرأة دون ان يحصل اختلاف

ونزاع فيما بينهم على من منهم يأخذ هذه ومن تلك وبالاخص لانهم امتازوا بالطمع والدناءة وغير ذلك مما يجعلهم لا يقدرون ان يتفقوا مع اقاربهم على امور طفيفة فكم بالحري يكون اختلافهم عظيمًا على اختيار نساء لهم ثلاثة منهنَّ يمتزنَ جدًّا عن رفيقتيها بالحسن واعتدال القامة ورقة الجانب الى غير ذلك من محاسن النساء. على انهم اتفقوا على طريقة للانتخاب حسنة جدًّا وهي انهم يجلسون النساء في كوخ وحدهنَّ ويذهبون الى كوخ آخر وهناك يرمون القرعة فمن اصابته يذهب ويختار من يشتهيها منهن قبل ارفاقه. فاصابت القرعة اولاً احد الانكليزيين العاقلين فدخل عليهنَّ وهنَّ جالسات واختار لنفسه اكبرهنَّ سنًّا واقلهنَّ حسنًا لانه ظنها اعلم من غيرها في ادارة منزله وحقله واكثر رزانة وعقلاً فلما رأى رفقاؤها انه قد اخذها من بينهم ظننَّ انه يقودها الى الذبح ليأكلها فابتدأنَ يولولنَ واعتنقنها وودعنها وداعًا ابديًّا حتى ان كل من رآهنَّ على هذه الحال حنَّ اليهنَّ وبكي حزنًا عليهنَّ. ولم يقدر الانكليزي ان يفهمهنَّ بالاشارات انه لا يقصد ان يذبحها فاضطره الامر ان يرسل رسولاً ليأتي بابي جمعة ليخبرهنَّ بحقيقة الامر. فاتى واخبرهنَّ بذلك فسكن روعهنَّ وآمنوا على انفسهنَّ. فلما خرج ذاك بالتي اختارها لنفسه امرأة سخر به الانكليز وضحك الاسبانيوليون لانه لم يختر اجملهنَّ. على انه عرف ما يوافقه اكثر منهم ثم دخل رفيقه واختار امرأة له المرأة التي كانت تشابه امرأة رفيقه في الهيئة وكانت اكبر سنًّا من رفيقاتها ولا نعلم لماذا كان نصيب الرجلين العاقلين هاتين المرأتين الكبيرتين وهما اقل تدبيرًا ولطفًا من رفيقاتهنَّ واكبر سنًّا منهما. واعطي كل من اولئك الاشرار امرأة فتية لطيفة تحسن الادارة والتدبير فمن يعلم ما هو قصد الله تعالى في ذلك. على انهنَّ جميعًا كنَّ حسنات ذات طباع وخصال حميدة يحسنَّ الخدمة غير ان الثلاثة النساء اللواتي تزوجنَ الاشرار فقنَ امرأتي العاقلين بالنعل والمروءة واللطف والنظافة

فبعد ان اختار كل منهم امرأة تقدم الاسبانيوليون وعاونوهم على بناء اكواخ

كل منهم لان اكواخهم القديمة كانت مملوءة زاداً وآلات الزراعة والفلاحة . ففي برهة يسيرة تم بناء الكوخين للرجلين العاقلين لجهة المنزل القديم وثلاثة اكواخ للاشرار ابعد عنه منها وجميعها عند شاطىء الجزيرة الشمالي. وهكذا صار بناء مدن في جزيرتي

وما يستحق الذكر ويجلب العار على الكسلان المتهامل والثناء على المجتهد هو اني عندما اتيت الجزيرة واخذت في التفرج على الاصلاحات التي اوجدوها والاراضي التي حرثوها وغرسوا فيها الاشجار فوجدت ان الرجلين العاقلين فاقا كثيراً في ذلك الثلاثة الاشرار مع ان كلاً من الفريقين كان له ارض قدر رفيته ليحرثها ويزرعها غير ان نتيجة الكسل والاجتهاد ظهرت فيها فان بساتين الاشقياء وكرومهم كانت مملوءة شوكاً وعايقاً وما يحيطها من الحواجز الخشبية مكسراً فكان يصح فيها ما قاله سليمان الحكيم . اما بساتين العاقلين وكرومهم فكانت متقنة جداً ومحروثة جيداً تروق العين بالنظر اليها ويصبو الانسان الى التفرس فيها فلا شوك ولا عايق فيها مع ان الاشرار كانوا قد عطلوها مرة ثم عطلها غيرهم مرة ثانية كما سيأتي ان شاء الله وليس فقط ذلك ولكن مواشيهما كانت اكثر عدداً من مواشي الاشرار وزادها اكثر جداً من زادهم الى غير ذلك من كل مقتضيات الحياة فلا ريب ان ايدي المجتهد تجني ذهباً واما ايدي الكسلان فتجني فاقة وحزناً ووجدت ايضاً انهما لا يستأمنان على امرأتيهما واولادهما فكانا قد وضعاهم في غار في وسط الغابات الملتفة حفروه بايديهما

اما نساء الثلاثة الاشرار فكنّ محبّات نظيفات يحسنّ ادارة البيت وكنّ قد تعلمنَ ان يلبسنَ حسب عادة الانكليز واتقنّ الطبخ الذي تعلمنه من احد الانكليزيين العاقلين الذي كان نائب طباخ المركب كما تقدم . فكان الرجل المذكور يهيء الطعام اما الثلاثة الاشرار فكانوا يتخترون من مكان الى آخر لا يفعلون شيئاً مما يؤول الى ترقية حالة معيشتهم فكانوا يأتون ببيض اليمام ويصطادون السمك الى غير ذلك الا انهم لم يكونوا يشتغلون في حقولهم فكانت

معيشتهم بالفاقة والاقلال لقلة اجتهادهم . اما المجتهدان فعاشا جيداً براحة وهذا هو حال اهل هذا العالم لان من كد وجد منهم ينال الراحة ويخلفها لمن يأتي بعدهُ ومن تكاسل وتهاون يعيش بالذل والفاقة وكذلك من يخلفهُ . وحدث في الجزيرة بعد ذلك في احد الايام انهُ اتاها خمسة او ستة قوارب ولا ريب انهم اتوا حسب عادتهم ليولموا باكل اسراهم . فلم يخف منهم اهل الجزيرة لانهم عرفوا بالاختبار انهم ان لم يظهروا لهم انفسهم يذهبون عنهم بعد انتهاء وليمتهم لانهم لم يكونوا يعلمون انها مأهولة. فاوصى بعضهم البعض الآخر ان لا يخرج من الاكواخ الى ان يذهبوا عنهم وذلك بخلاف ما كنت افعل لانهُ لم يكن لي الاختبار الذي كان لهم . ففعلوا كذلك ووضعوا حارساً في مكان مشرف ليخبرهم بذهابهم . فبعد ان اولموا ركبوا قواربهم وذهبوا فاخبر الحارس اهل الجزيرة فخرج الجميع من اكواخهم . فاراد بعض الاسبانيوليين ان يذهبوا الى حيث كانوا ليشاهدوا آثارهم فلما وصلوا الى المكان رأوا ثلاثة رجال منهم نياماً على الارض فاجفلهم ذلك وقالوا لبعضهم نظن ان هولاء الرجال اما اكثروا من اكل لحم البشر فابطنهم الطعام فناموا ولم ينتبهوا حين ذهب ارفاقهم واما تاهوا في غابات الجزيرة ولم يرجعوا حتى ذهب الباقون . وكان الوالي معهم فسألوهُ عن رأيهِ في ما يجب ان يفعلوا . فقال انني لا اعلم لانهُ لا حاجة لنا الى العبيد وعندنا منهم فوق احتياجنا ولا اظنهُ من الصواب والجسارة ان نقتلهم لانهم لم يؤذونا ولا رغبة لنا في سفك دم زكي . ولا ريب ان ما اظهرهُ هولاء الاسبانيوليون من الشفقة والرحمة والطهارة والامانة واللطف هو ما لا نظير لهُ. وقد شاعت اخبار كثيرة عن الافعال الفظيعة والشر المريع والقساوة البربرية التي عامل بها الاسبانيوليون اهل مكسيكو وبيرو عند ما دخلوها. ومع ذلك اقول ان هولاء السبعة عشر رجلاً لم اصادف في كل سياحاتي احداً يشابههم برقة الجانب وحسن التصرف والشفقة والرأفة. وما احتملوهُ من اولئك الثلاثة البرابرة هو كاف لتأكيد صحة ما قلتهُ عنهم . فبعد ان تشاوروا قليلاً عزموا على ان يختبئوا قليلاً لعلهم ينتبهون

ويذهبون عنهم وساروا نحو منازلهم فقال لهم الوالي ان ليس لهم قوارب يرجعون بها الى اوطانهم وان تركناهم فبعد قليل يستفيقون من الغفلة وياخذون في الجولان في الجزيرة فيعلمون انها مأهولة فيفضي بنا ذلك الى الهلاك . فانثنوا راجعين الى المكان الذي رأوا فيه البرابرة وكانوا لا يزالون نياماً فعزموا على ان يلقوا القبض عليهم ويأسروهم ففعلوا . فجفل البرابرة وارتعدت فرائصهم خوفاً عند ما رأوا انهم قد اسروا واوثقوا لانهم ظنوا انهم يذبحونهم وياكلونهم . فاولئك البرابرة ظنوا ان كل الناس مثلهم ياكلون لحماً بشرياً فاخبرهم ابو جمعة الذي كان قد ذهب معهم الى هنالك انه لا خطر عليهم من هذا القبيل فزال خوفهم وسكن بلبالهم فذهبوا بهم الى المحل الذي كانوا يضعون فيه مواشيهم وهو مركز اشغالهم . وبعد ذلك اخذوهم الى منزل العاقلين على انه لم يعد اهل الجزيرة لم يروهم القلعة اعني مسكني القديم الذي كان قرب التل . فاشغلوهم معهم في الحراثة هناك الا انه لم يكن عندهم شغل كثير وشاق . ففي احد الايام فرّ احدهم الى الغابات ولم يسمعوا بعد ذلك عنه خبراً فلا اعلم هل تمكن من الهرب باهمالهم المحافظة عليهم لانهم ظنوا انه لا يقدر على الفرار من الجزيرة او لسبب اخر فاتت بعد ذلك بثلاثة او اربعة اسابيع قوارب برابرة حسب العادة . وبعد ان صرفوا يومين في الجزيرة رجعوا فخاف اهلها ان يكون قد رجع معهم لانهم علموا انه ان رجع الى قومه يخبرهم لا محالة ان جزيرتهم مأهولة وان اهلها قليلون جداً على انه لم يعرف عددهم ولا مغارتهم ولا محل سكنهم ولم يسمع قط صوت اطلاق بنادقهم وذلك ما اضعف خوفهم . والذي جعلهم يتأكدون انه رجع بسلامة الى قومه هو انه بعد فراره بنحو شهرين اتى الى الجزيرة ستة قوارب من قوارب البرابرة في كل منها من السبعة الى العشرة رجال واقتربوا من الجهة الشمالية التي لم يأتوها قبلاً قط ونزل الرجال الى البر في مكان يبعد نحو ميل فقط عن مسكن العاقلين

فقال لي الوالي لو كنا مجتمعين حينئذٍ في محل واحد لكنا صادمناهم

واهلكناهم جميعاً ولكن لسوء الحظ لم يكن منا هناك وقتئذ غير الاثنين العاقلين ولا يخفى انهما لا يقدران وحدهما ان يصادما خمسين رجلاً . فلما رأيا ان البربري الذي كان قد فرّ منهم قد اعلم قومهُ بكل شيء عن الجزيرة واهلها وظهر لهم ذلك من مجيء البرابرة الى نحو اكواخهم اوثقوا البربريين وسلموهما الى عبدين من الثلاثة البرابرة الذين اتوا بهم مع النساء وكانوا امينين جدًّا وارسلوهم مع نسائهم الى خبائهم في الغابات واوصوهم ان يوثقوا ارجلهم عند وصولهم اليهِ ويحفظوهم هناك الى ان يرجعوا اليهم . واثناء ذلك كان البرابرة يتقدمون رويدًا رويدًا نحو كوخيهما . ثم اطلقا مواشيهما في الغابات لكي لا يظن البرابرة انها لهما بل انها وحشية على ان البربري الذي فرّ من بينهم كان قد اتى مع ارفاقهِ وعلم ان تلك المواشي هي لهم . فلما فرغا من ذلك ارسلا العبد الثالث الذي كان معهم ليستنجد الاسبانيوليين ثم نقلا امتعتهما واخذا في الذهاب رويدًا رويدًا الى الخباء في طريق كانا يتمكنان من ان يريا البرابرة منها عن بعد . فلم يبعدا كثيرًا حتى رأيا من تل مرتفع ان البرابرة وصلوا الى اكواخهما وبعد برهة نظرا اللهيب يتقذف منها فاحزنهما ذلك جدًّا لان خسارتهما كانت عظيمة . ثم رأياهم يجولون عند منزلهما يعطلون ويخربون كلما وجدوهُ ويفتشون على امتعتهما لينهبوها وعليهما ليذبحوهما . فلما رأيا ذلك ظنا ان لا امنية في المكان الذي كانا قد وقفا فيهِ لانهما ظنا ان بعضًا من البرابرة يدركهم فابتعدا نحو نصف ميل وقالا في نفسيهما انهم ربما يتفرقون ليفتشوا علينا فندركهم بعد ان يكونوا قد فتشوا فنفتك بكل فريق وحدهُ وهكذا لا ينجو منهم احد

ومن عجب الدنيا تقلب حالها تبيت على شيء وتصبح في شيء

الفصل السادس والثلاثون

البرابرة في الجزيرة

ثم تقدما قليلاً نحو الوادي فوصلا الى غابة ملتفة جدًّا حيث وجدا جذر شجرة مجوفًا كبيرًا جدًّا . فوقفنا وراءهُ وقد عزما ان يبقيا هناك ليريا ماذا يكون من البرابرة . فبعد برهة يسيرة رأيا بربريين راكضين نحوهما كانهما عرفا موقفهما وتقدما لهجما عليهما ثم رأيا ايضًا وراءهما ثلاثة آخرين تابعينهما ووراءهم خمسة يقتفون اثرهم وغيرهم سبعة او ثمانية رجال يركضون الى جهة اخرى فكانوا يركضون من محل الى آخر كما يركض الصياد في طلب الطريدة

فلما رأيا ذلك خافا جدًّا وتحيرا في امرهما لانهما لم يعرفا هل يصادمانهم او يهربان من امامهم فلدى التشاور قليلاً قالا لا ريب ان البرابرة يجولون في كل الجزيرة وربما يدركون خيامنا ويهلكوننا اجمع . فالاوفق لنا ان نصادمهم هنا وان تكاثروا علينا بحيث لا نقدر ان نصادمهم نصعد على الشجرة ولا شك اننا نقدر على مدافعتهم منها الى ان يفرغ بارودنا ورصاصنا ما لم يحرقوها بنا . ثم قالا الاوفق ان لا نرمي الاثنين الاولين بالرصاص ما لم يريانا بل نصبر الى ان يصل الينا الثلاثة الذين وراءهما وهكذا نفرق بينهم وبين الخمسة الذين كانوا يتبعونهم فساروا الى الشجرة كانهم عرفوا اننا مختبئون هناك . فلما رأيا انهم اتوهما عزموا على ان يرموهم وهم متقدمون اليها وان لا يطلقا بندقيتيهما دفعة واحدة بل الواحدة ثم الاخرى فوضع الذي عزم على ان يطلق بندقيته اولاً ثلاث رصاصات ليتمكن من اصابة ثلاثة باطلاق واحد وحكم توجيهها نحوهم من ثقب في الشجرة وانتظر الى ان اقتربوا منهُ ولم يبقَ بينهم غير نحو اربعين ذراعًا

لكي لا يخطئ رصاصة . وكان البرابرة اثناء ذلك يتقدمون نحوها فلما اقتربوا منها رأيا البربري الذي كان قد هرب من الجزيرة فقالا لا بد من قتلو فاذا اخطأهُ احدنا يرميو الثاني . فهيأ الثاني نفسهُ ليطلق بندقيته لدى الاقتضاء . فلما اقترب الثلاثة البرابرة منهما رماهم احدهما فاصاب راس الاقرب اليهما فسقط على الارض مائتًا واصاب الثاني وهو البربري الذي كان قد هرب في جسدهِ فنفذ منهُ الرصاص فسقط على الارض ولكن لم يمت حالاً اما الثالث فجرحهُ جرحًا خفيفًا في كتفو وربما تم ذلك بالرصاصة التي نفذت من جسد رفيقو . فلما سمع صوت اطلاق البندقية وشعر بالجرح خاف خوفًا لا مزيد عليهِ وارتعدت فرائصهُ وطرح نفسهُ على الارض واخذ يصرخ صراخًا شديدًا جدًا . فلما سمع الصوت الخمسة الذين كانوا وراءهم اندهشوا جدًا وارتعدت فرائصهم ووقفوا دون ان يتحركوا لانهم خافوا الصوت اكثر من الخطر لانهم لم يشعروا بهِ خاصةً لان صداهُ كان شديدًا مرعبًا والطيور اخذت تتطاير من محل الى آخر وهي تصرخ خوف الصوت الذي سمعتهُ واثر فيها كما اثر صوت البندقية الاولى التي اطلقتها في الجزيرة . وبعد برهة سكن الصوت والصراخ فتقدم البرابرة نحو ارفاقهم وهم لا يعلمون مصدر الخطر الذي يتهددهم حتى وصلوا اليهم ورأوا انهم في حالة ردية جدًا فاجتمعوا حول الرجل المجروح واخذوا يتكلمون معهُ . واظن انهم سألوهُ ماذا الذي اضر بهِ وجرحهُ . ولا ريب ان جوابهُ كان هكذا ان لهيب نار انحدر من معبوداتهم ثم رعد فاصاب رفيقيهِ وقتلهما . ومما حملني على هذا الظن عدم مشاهدتهم احدًا بالقرب منهم حال كونهم لم يكونوا قد سمعوا صوت اطلاق بندقية قبلاً ولو عرفوا سبب ذلك لما اجتمعوا حول جريحهم بل كانوا تجنبوا ذلك المكان لئلا يصيبهم ما اصاب ارفاقهم وبحثوا عن الذي اطلق البندقية عليهم

ان الرجلين العاقلين اخبراني حينما رجعت الى الجزيرة انهما حزنا جدًا على قتل اولئك البرابرة الذين لم يعلموا الخطر الذي كان يتهددهم . وكان الذي

قد اطلق بندقية قد حشاها ورأيا ان البرابرة مجتمعون بحيث يقدرون ان يرمياهم جميعًا دفعة واحدة فعزما ان يطلقا بندقيتيهما معًا فاشار كل منهما الى الذين قد وجه بندقيته نحوهم لكي لا يوجهاها الى جهة واحدة واطلقاها فجرحا وقتلا اربعة منهم والخامس ارتجف وكاد يموت خوفًا فسقط معهم على الارض دون ان يصيبه اذى . فلما رآهم مجندلين سوية ظنوا انهم قد قتلوا . فتقدما اليهم قبل ان ملآ بندقيتيهما وهذا خطأ مبين . فاندهشا جدًّا عندما وجدا اربعة منهم احياء واثنين لم يمسهم ضرر فاضطرهم الامر الى ان يفتكوا بهم بحربات بنادقهم فاراحوا من هذه الحياة البربري الهارب الذي جلب عليهم كل هذه الخسارة والتعب والخطر قبل الجميع . ثم رجلاً ثانيًا مجروحًا في ركبته ثم رفيقه . اما الرجل الرابع فتقدم اليهما وجثا على ركبتيه عند اقدامهما ورفع يديه واخذ يتضرع اليهما بكلمات واشارات محزنة موثرة جدًّا ان يعفيا عن حياته . فلم يفهما شيئًا مما قاله فاشارا اليه ان يجلس عند جذر الشجرة فجلس فتقدم اليه احدهما واوثق يديه وراء ظهره بقطعة حبل كان في جيبه فتركاهُ هناك واسرعا في طلب الاثنين الاولين اللذين كانا قد تقدما الى امامهما لانهما خشيا انهما او بعض ارفاقهما يجدون خباءهما في الحرش حيث كانت النساء وكل ما بقي من امتعتهما . فبعد ان ركضا برهة بسرعة رأياهما بعيدًا جدًّا ذاهبين الى جهة الشاطىء وليس الى جهة خبائهما فزال خوفهما من ذاك القبيل ورجعا الى الشجرة التي تركا بالقرب منها الاسير الموثق . فلما وصلا اليها رأيا انه قد ذهب ووثاقه مطروح عند جذر الشجرة فعلما ان ارفاقهُ قد خلصوهُ فاحتارا في امرهما ولم يعلما اين العدو ولا عدد رجاله . فصمما ان يذهبا الى الخباء ليريا ماذا طرأ على زوجتيهما اللتين وان كانتا من البرابرة كانتا تخافان جدًّا الوقوع في ايديهم لانهما عرفتا ماذا يصيبهما . فلما وصلا اليه وجدا ان البرابرة كانوا قد اتوا الغابة قرب الخباء ولكنهم لم يجدوهُ لان الاشجار كانت محيطة به من كل جانب حتى ان من لا يعرف طريقه لا يقدر ان يجدهُ . اما امرأتاهما فكانتا في خوف شديد . وبعد برهة اتى

لتجدتها سبعة من الاسبانيوليين. اما الباقون منهم وحشيهم وابو جمعة فذهبوا لحماية مزروعاتهم ومواشيهم ولكن البرابرة لم يصلوا اليها واتى مع الاسبانيوليين احد الثلاثة الاسرى والبربري الذي كان الانكليزيان قد اوثقاهُ عند الشجرة فانهم مروا بذلك المكان ورأوا مقتلة البرابرة وحلوا وثاقات البربري واتوا بهِ الى الخباء حيث اوثقوهُ ثانيةً ووضعوهُ مع البربريين رفيقي الهارب. فبعد ذلك اخذوا يتشاورون في امر قتل الاسرى لانهم اتعبوهم جدًّا وكانوا يخافون ان يهربوا ويرجعوا بجيش من قومهم فيهلكونهم جميعًا. غير ان الوالي لم يقبل بذلك بل امر اثنين من الاسبانيوليين ان يذهبا بهم الى مغارتي في الوادي ويحرساهم ويقوتاهم ويبقياهم موثقي اليدين والرجلين الليل بطولهِ. فلما رأى الانكليزيان ان الاسبانيوليين قد انجدوها نشطا جدًّا ولم يرتضيا ان يبقيا هناك بل اخذا معهما خمسة اسبانيوليين واربع بنادق وغدارة وذهبا في طلب البرابرة مارين بالشجرة المعهودة فرأوا جثتي قتيلين مجرورتين مسافة الى جهة الشاطئ فعلموا من ذلك ان البرابرة كانوا قد اتوها وحاولوا ان يأخذوا معهم جثث قتلاهم والظاهر انهم عدلوا عن اخذها معهم فتركوها وذهبوا. ثم تقدموا الى التل الذي كان الانكليزيان قد رأيا منهُ خراب اكواخهما ومزروعاتهما فرأوا ان الدخان لم يزل يتصاعد منها ولكنهم لم يروا احدًا من البرابرة فصمموا على ان يذهبوا الى المزروعات التي عطلوها فبينما هم في الطريق رأوا عن بعد البرابرة عند الشاطئ وقد اخذوا في ركوب قواربهم قاصدين الرجوع الى اوطانهم فغمهم ذهابهم دون ان يفتكوا بهم على انهم سروا بالتقلص منهم

فهذه هي المرة الثانية التي تعطلت فيها مزروعات الانكليزيين وخربت مساكنهما فافضى بهما ذلك الى حالة الفقر. فاجتمع الاسبانيوليون والثلاثة الاشرار الذين لم يفعلوا قبلاً شيئًا يؤول الى اسعاف ارفاقهم حتى ولا نفع انفسهم ولم يكونوا عالمين بما حدث من مجيء البرابرة وتعطيل مزروعات رفيقيهم لانهما كانا ساكنين بعيدًا عنها واخذوا يسعفون العاقلين في تصليح ما تخرب وبناء

اكواخها وفي زمن قصير تعوضت كل اضرارها

فبعد نحو يومين رأى اهل الجزيرة قاربين من قوارب البرابرة تدفعها الامواج والرياح الى الشاطئ وبالقرب منها جثتي بربريين فسرهم ذلك جدًا لانهم استنتجوا منه ان نوءًا صادف البرابرة الذين نجوا من الجزيرة واغرقهم لان الريح كانت تهب بعنف لامزيد عليهِ في ليل اليوم الذي ذهبوا فيهِ على انهم لم يتأكدوا ذلك ولا يبعد ان بعضهم نجا واخبر قومهُ بما فعلوهُ وصادفوهُ وربما انهضوا همتهم لمهاجمة الجزيرة ثانيةً . غير انهم لم يعلموا شيئًا عن احوالها وساكنيها لانهم لما اتوها لم يروا احدًا بها والاسير الذي كان قد اخبرهم عنهم كان قد قتل كما ذكرت آنفًا ولم يبقَ من يعرف بحقيقة حالهم وربما قلل ذلك جراءتهم على مهاجمتهم ثانيةً . فمضى نحو خمسة او ستة اشهر دون ان يأتيهم احد من البرابرة. فظنوا انهم ربما نسوا ما لقوا فيها او آيسوا من النجاح في الفتك باهاليها. ولكن في احد الايام رأوا في البحر نحو اثنين وثمانين قاربًا من قوارب البرابرة وفيها عدد غفير من الرجال متسلح بقسيٍّ وسهام واعمدة وسيوف خشب الى غير ذلك من اسلحتهم. فملأ ذلك المنظر قلوب اهل الجزيرة خوفًا ورعبة وحيرة لامزيد عليها فنزلوا في المساء في شاطئ الجزيرة الشرقي . اما اهاليها فاخذوا في ذلك الليل يتشاورون في ما ينبغي ان يفعلوا لصيانة انفسهم وعيالهم ومزروعاتهم ومواشيهم فقالوا ان نجاتنا تتوقف على عدم اظهارنا انفسنا لهم فلا بد من ان نهدم الاكواخ التي بنيناها للانكليزيين ونرسل مواشينا الى المغارة القديمة لان البرابرة يأتون لامحالة ذلك المحل ليفعلوا ما فعلوهُ قبلاً . فارسلوا الى المغارة كل مواشي الاسبانيوليين التي كانت في قصري القديم وكانوا ساكنين فيهِ ولم يتركوا اثرًا يدل على وجود سكان في الجزيرة مما يمكنهم ان يمحوهُ . وفي الصباح اجتمعوا عند محل مزروعات الانكليزيين وانتظروا قدوم جيش البرابرة . اما البرابرة فتركوا قواربهم عند الشاطئ الشرقي واسرعوا نحو المكان المذكور وكان عددهم نحو مائتين وخمسين رجلاً . اما جيش الجزيرة فكان مؤلفًا من

سبعة عشر اسبانيوليًا وخمسة من الانكليز وابي جمعة والثلاثة العبيد الذين اتوا بهم مع النساء وقد اظهروا امانة وصداقة لامزيد عليها والثلاثة العبيد الذين كانوا عند الاسبانيوليين . اما اسلحتهم فكانت احدى عشرة بندقية وخمس غدارات وثماني بنادق صغيرة منها خمس كنت قد اخذتها من الملاحين العصاة وسيفان وثلاث حراب واثنان وعشرون فأسًا . اما العبيد فتقلد كل منهم عمودًا طويلًا في رأسهِ حربة وفاس واتت معهم اثنتان من النساء اصرتا على المحاربة معهم وكانتا متنكبتين قوسين وسهامًا كان قد اخذها الاسبانيوليون من ميدان الحرب التي جرت بين البرابرة عند الشاطئ وكان معها فاسان . اما القائد فكان الوالي وول انكتر الذي كان على جانب عظيم من الشجاعة كان كقائد تحت يدهِ فتقدم البرابرة اليهم وهم يزأرون كالاسود . وكان مركز جيش الجزيرة رديًا جدًا على ان وول انكتر الذي برهن باعمالهِ عن اهمية وجودهِ معهم وستة رجال معهُ كانوا جالسين امام الجميع وراء لفيف غض جدًا من الاشجار . وكان قد امرهُ الوالي بانهُ عند ما يصل اليهِ البرابرة لا يرميهم بالرصاص بل يترك جملة منهم يمرون بهِم ثم يطلقون البنادق في وسطهم وبعد ذلك يذهبون من وراء غابة دون ان يظهروا انفسهم للاعداء الى ان يصلوا الى وراء الاسبانيوليين فيجلسون هناك وراء غابة غضة تحجبهم من نبال العدو . فبعد برهة وصل اليهم البرابرة افواجًا افواجًا يتقدمون بسرعة دون انتظام وترتيب فمر نحو خمسين منهم على انكتر وارفاقهِ وتبعهم جمهورٌ غفير فامر ثلاثة من رجالهِ ان يرموهم ففعلوا وكانوا قد وضعوا في كل بندقية ست او سبع رصاصات من رصاص الغدارات . فلما سمع البرابرة صوت اطلاق البنادق المخيف ورأوا رجالهم يسقطون على الارض قتلى وجرحى دون ان يروا مصدر ذلك تحيروا وارتعدت فرائصهم وملأ الخوف قلوبهم . ثم اطلق انكتر ورفيقاهُ بنادقهم على جمهور غفير منهم ثم بعد لحظة ملأ الثلاثة الاولون بنادقهم واطلقوها دفعة ثانية ولو ذهب انكتر وارفاقهُ الى وراء الاسبانيوليين كما امرهُ الوالي ان يفعل او لو رماهم الاسبانيوليون

ومن معهم بطلقات متتابعة لكانوا هزموهم هزيمة مهولة لان الذي زاد خوفهم هو انهم ظنوا ان المعبودات تقتلهم ببرق ورعد دون ان يروهما . ولكن بقي وول في مكانه ثم بلاً بنادقه فرآه بعض الاعداء فهجموا عليهم من وراء . ومع ان انكنز وارفاقه رموهم مرتين او ثلاث مرات وقتلوا منهم اكثر من عشرين رجلاً وهم يحاولون الذهاب الى وراء الاسبانيوليين لم يرتدوا بل هاجموهم وجرحوهم بسهامهم وقتلوا احد ارفاقه الانكليز وهو الذي ضرب العبد المسكين بالفاس وجرحهُ. ثم حاول ان يقتل الاسبانيولي وبعد ذلك قتلوا اسبانيوليًا وعبدًا من الذين اتي بهم مع النساء وهذا كان ذا شجاعة واقدام واقتدار عجيب فانه صادم العدو بعزم لا يفتر وهمة لا تخمد فقتل منهم خمسة بفاسه لانه لم يكن معهُ من الاسلحة غيرها ولم يزالوا يهاجمون انكنز وارفاقه حتى ضايقوهما . فلما رأى انه قد جرح وان اثنين من رجاله قد قتلوا رجع وقومهُ الى تل في الغابة . اما الاسبانيوليون فبعد ان اطلقوا ثلاث طلقات رجعوا ايضًا الى الوراء لان عدد البرابرة كان كثيرًا وحربهم شديدة فلم يقدروا ان يصادموهم ومع ان خمسين من رجالهم سقطوا على الارض قتلى واكثر من ذلك جرحى لم يرجعوا الى الوراء بل هجموا كالاسود الضارية عليهم وكادوا يلقون القبض على بعضهم ونبالهم قد حجبت نور البدر من كثرتها اما الجرحى الذين لم يتألموا كثيرًا فهاجوا وماجوا كالذئاب الكاسرة وكانوا كمن قد اصيب بالجنون . فلما رجع جيش الجزيرة الى الوراء ترك جثتي الانكليزي والاسبانيولي وراءهُ فلما صادفهما البرابرة قتلوهما مرة ثانية اي اخذوا في تكسير اعضاء جسديهما وراسيهما بسيوفهم واعمدتهم . فلما نظروا ان جيش الجزيرة قد تقهقر لم يقتفوا اثرهُ بل اجتمعوا على هيئة دائرة وصرخوا كعادتهم صرختين عظيمتين علامة للانتصار ولكنهم حزنوا جدا عندما شاهدوا بعد ذلك ان مجاريحهم كانوا يقعون على الارض موتى من خسارة الدم

وبعد ذلك جمع الوالي جيشهُ حولهُ على رابية وقال لهم انكنز هلموا نهجم عليهم جميعًا ونفتك بهم فلا نبقي على احد منهم . فاجابهُ الوالي يا مستر انكنز

انك رأيت عزم من جرح منهم وشعر بالالم وكيف انهم يهجمون علينا غير مبالين بخطر الموت وما ذلك الاَّ لانَّ المهم قد حملهم على القيام بحق الثار والانتقام لانفسهم فالاوفق ان نصبر الى الغد وحينئذٍ تبرد جراحهم ويقل دمهم فلا يقدرون ان يهاجمونا بعزم شديد ويقل عدد رجالهم فاجابهُ انكتز وهو يتهم احسنت ولذلك ارغب ان لاابقي القتال للغد بل ان اهاجمهم قبل ان يبرد جرحي ويقل دمي . فقال لهُ حقًّا انك قد فعلت ما عليك اليوم يا مستر انكتز واظهرت شجاعة وبسالة لامزيد عليها فطوبى لك . فان لم تستطع ان تحارب معنا في الغد نحارب عنك نحن فالاوفق ان لانهاجمهم اليوم . وكان البدر ينير تلك الاماكن فرأى الاسبانيوليون جيش الاعداء في ارتباك عظيم وعدم انتظام بسبب ما قتل منهم واوجاع مجاريحهم . وقد علا منهم ضجيج وعويل فعزموا على ان يداهموهم ليلاً ويطلقوا بنادقهم بينهم مرة واحدة على الاقل قبل ان يعلموا حقيقة عددهم خاصة عند ما رأوهم في اختلال يمكنهم من الفتك بهم دون ان يقدروا ان يدافعوا عن انفسهم . فذهب بهم احد الانكليزيين وهو الذي ابتدأ القتال في حقلهِ الى الغابة ثم مال بهم الى الجنوب فاوصلهم الى القرب من جمهور غفير منهم دون ان يشعر باقترابهم منهُ واطلق ثمانيَ بنادقهم في وسطهم وقتلوا وجرحوا كثيرين . ثم بعد لحظة اطلق غيرهم بنادقهم ايضًا في وسطهم فاذاقوهم كاسات الحمام وجرحوا عددًا غفيرًا جدًّا قبل ان رآهم البرابرة او عرفوا من اين اتاهم الموت او الى اين يفرون منهُ . ثم ملأُوا بنادقهم بسرعة وقسموا جيشهم الى ثلاثة اقسام كل قسم ثمانية رجال فكان عدد الجيش اجمع اثنين وعشرين رجلاً وامرأتين قاتلتا بشجاعة وجسارة كابطال الرجال . وقسموا الاسلحة بينهم وطلبوا الى الامرأتين ان يرجعا الى الخباء فقالتا لانرجع بل نموت في الحرب مع رجلينا . ثم ذهب كل فريق من جهة وهاجموا العدو من ثلاث جهات وهم يصرخون ويصيحون باصوات شديدة جدًّا . فاجتمع جيش البرابرة ووقفوا متحيرين لايعرفون ماذا يفعلون لانهم سمعوا اصوات اعدائهم من جهات مختلفة

في وقت واحد دون ان يروهم ولو رأوهم لرموهم بالنبال . وعند ما اقتربوا منهم ورأوا بعضهم رموهم بسهامهم وجرحوا ابا جمعة جرحًا خفيفًا . على ان جيش الجزيرة لم يمكنهم من الفرصة الكافية ليدافعوا عن انفسهم بل هجم عليهم ورماهم بالرصاص من ثلاث جهات ودنا منهم واخذ يفتك بهم بحربات البنادق والسيوف والحراب والفؤوس حتى كلت من الرجال الايدي والبرابرة يصرخون ويولولون ويصيحون ويفرون طالبين النجاة بانفسهم . وكان عدد الذين قتلوا في الموقعتين نحو مائة وثمانين رجلاً . واما الباقون فافضى بهم الخوف الى اعمال كاعمال المجانين وفروا كانهم راكبون اجنحة الرياح الى الغابات والجبال والاودية على انهم لم يقتفوا اثرهم فاجتمعوا بعد برهة عند الشاطئ حيث كانوا قد تركوا قواربهم وارادوا الذهاب ولكن كانت الريح عاصفة جدًا والنوء شديدًا فلم يقدروا ان يذهبوا . واخذ النوء يزداد الليل بطولهِ وفي وقت المد رفعت به قواربهم الى البر فباتوا لا يقدرون ان ينزلوها الى البحر الا باتعاب عظيمة جدًا وتكسر بعضها بالصخور وبعضها بالشاطئ فتعاظمت مصيبتهم واشتدت احزانهم وصار الضياء في اوجههم ظلامًا واصبحوا متحيرين لا يعلمون ماذا يصنعون لينجوا من البلاء الذي وقعوا فيهِ

فسر اهل الجزيرة بالنصر وملأ الفرح قلوبهم . وبعد ان ارتاحوا قليلاً قصدوا ان يذهبوا الى المكان الذي فرَّ اليهِ البرابرة ليشاهدوا ماذا يكون منهم فروا في وسط المكان الذي جرت فيهِ الحرب فوجدوا كثيرين من مجاريح البرابرة في حالة النزاع ولم يبقَ امل في شفائهم . فاثر فيهم ذلك المنظر المحزن جدًا لانهُ لا يخفى ان صاحب القلب السليم والشفقة والاحساس يشمئز من مناظر كهذه وان يكن قد اضطرهُ الامر بحسب اصول الحرب الى ان يهلك عدوهُ فلا يفرح بمصائبهِ . فكان يدنو من هولاء المنكودين الحظ عبيدهم البرابرة ويضربونهم بفؤوسهم فيبعثون ارواحهم الى عالم الارواح دون ان يأمرهم احد لانهُ لا يخفى ان ما تعودهُ الانسان من الفعل قبيحًا كان او حسنًا تقودهُ الى فعلهِ

العادة رغمًا عن انفو . فبعد برهة اشرفوا على المكان الذي كانت بقايا جيش البرابرة جالسة فيو . فرأوا نحو مائة رجل اكثرهم جالسون مغطون اوجههم وقد القوا رؤوسهم على ركابهم . فلما دنوا منهم مسافة رمية رصاص امر الوالي ان تطلق بندقيتان حاوِيتان بارودًا فقط لتخيفهم بصوتها وذلك ليرى هل هم مستعدون للمصادمة او لم يبقَ لهم اقتدار على المحاربة . فلما سمعوا الطلق الاول ثم رأوا شهب الثاني وثبوا على ارجلهم وفرائصهم ترتعد وقلوبهم تخفق . فتقدم اليهم جيش الجزيرة بسرعة ففروا هاربين صارخين صراخات عظيمة لم يسمعوا مثلها وذهبوا قاصدين الوديان والجبال

فقال اهل الجزيرة بعضهم للبعض الآخر يا حبذا لو كان البحر هادئًا وذهبوا عنا . على انهُ لم يخطر لهم حينئذٍ انهم اذا مضوا الى اوطانهم ربما ينهضون جيشًا عرمرمًا ويهجمون عليهم فيهلكونهم ويخربون مساكنهم ويعطلون مزروعاتهم فقال لهم ول انكتر الذي كان يقاتل معهم مع انهُ كان مجروحًا من الصواب ان نعطل قواربهم لنمنعهم عن العود الى اوطانهم . وهذا هو الصواب . فاخذوا يتشاورون مدة طويلة بهذا الشان . فقال بعضهم اذا عطلنا قواربهم يفضي بنا البأس الى الفرار الى الغابات ويهاجموننا حينًا بعد حين ويعطلون مزروعاتنا وكرومنا وينهبون مواشينا ويقتلون من يجدونهُ وحدهُ منا فنلتزم ان لا نخرج غير اقوام وان نصطادهم كالوحوش الضاربة وهكذا تكثر اتعابنا ويطول همنا وعذابنا . فاجابهم ول انكتر ان نحارب مائة شخص اسهل من ان نحارب مائة شعب فاذا عطلنا قواربهم يهون علينا اخضاعهم لسلطتنا او اهلاكهم وربما افضى بهم الجوع الى الطاعة او الهلاك فاذًا لابد من تكسير القوارب . وهكذا برهن على لزوم ذلك فوافقوهُ وشرعوا في جمع حطب يابس لاحراقها . ووضعوهُ في القوارب واشعلوهُ فلم يفعل فيها لانها كانت رطبة جدًا على انها احرقت اغلبها وعطلتها فكانت لا تصلح للسفر فلما رأى البرابرة دخان قواربهم يتصاعد اتى بعضهم راكضين الى اهل الجزيرة وجثوا على ركابهم عند اقدامهم وصرخوا قائلين

بلغتهم وارا وارا موكوا وكلمات اخرى لم يفهموها وابتدأوا يشيرون بحزن ويصرخون صرخات غريبة ففهموا من لسان حالهم انهم يتوسلون اليهم ان لا يعطلوا قواربهم بل يسمحوا لهم بالذهاب وانهم لا يأتونهم ايضاً. فاشار اهل الجزيرة انهم لا يقدرون ان يرحموهم لانهم كانوا قد تأكدوا ان سلامتهم وسلامة عيالهم واموالهم تتوقف على عدم تمكن احد البرابرة من الرجوع الى وطنه ليخبر قومه بما صادفوا لئلا يأتوهم جيشاً جراراً لا يقدرون ان يصادموهُ وهكذا اسرعوا بتكسير القوارب التي لم تكسرها الامواج. فلما رأى ذلك البرابرة صرخوا صرخة هائلة واخذوا يركضون في الجزيرة من مكان الى آخر كمن قد اصابهُ جنون. فتحير اهل الجزيرة بما ينبغي ان يفعلوا بهم واتفقوا على اقامة حراس يحرسون كرومهم ومزروعاتهم من تعدياتهم فان اليأس ومحبة الانتقام حملاهم على تعطيل كل المزروعات والكروم التي قاربت ان تنضج وتخريب كل حواجزها. على انهم لم يجدوا المواشي لانها كانت في خباء لم يعرفوهُ ولم يعطلوا كل الحقلات المزروعة قمحاً والمغروسة فيها الكروم بل عطلوا الحقل القديم الذي كنت قد غرستهُ قبل خروجي من الجزيرة ومع ذلك كانت خسارتهم جسيمة جداً اما البرابرة فلم يجدهم ذلك نفعاً

ولم يقتفوا اثرهم ليهلكوهم لانهم لم يكونوا يستطيعون ان يدركوهم عندما كانوا يرونهم افراداً لانهم كانوا يركضون ركضاً سريعاً جداً. ومن ذلك الوقت لم يتجاسر اهل الجزيرة ان يخرجوا الا معاً لانهم خافوا ان يدركهم البرابرة افراداً فيحيطون بمن يدركونهُ منهم ويهلكونهُ. على انهُ لم يبقَ معهم اسلحة لان سهامهم كانت قد فرغت واما الاعمدة والسيوف فرموها وهم هاربون لانها كانت تثقل عليهم

فاصبح اولئك البرابرة في حالة يرثى لها اوشكت تفضي بهم الى الهلاك. وكذلك اهل الجزيرة لانهم عطلوا كل مزروعاتهم ومغروساتهم وبعض منازلهم ولم يبقَ سالماً غير القلعة والاخبية والمواشي وقليل من القمح المزروع عند الاخبية

فاحتاروا في امرهم ولم يعلموا ماذا ينبغي ان يصنعوا . اما مزروعات ول انكنز ورفيقيهِ الشريرين فعطلوها واخربوها جميعها وقتلوا احدهم بنبلة اصابتهُ في صدرهِ فطرحتهُ على الارض قتيلاً وهو نفس ذلك القاسي الذي كان قد جرح العبد المسكين وحاول قتل الاسبانيولي فباعدالة وحكمة مدبر الانفس وحافظها فلا شك ان الحالة التي وقعوا فيها من اردإ الاحوال التي اوصلني اليها نحسي بعد ان زرعت قمحًا وارزًا وربيت الماعز لانهم فضلاً عن التعطيل الذي طرأ عليهم كان في الجزيرة مائة رجل كالذئاب الكاسرة يخربون وينهبون كل ما كانوا يصادفونهُ اما الوصول اليهم فكان صعبًا جدًّا

فلدى التبصر في حالتهم عزموا على ان يطردوهم الى الجهة الجنوبية الشرقية من الجزيرة فاذا اتى غيرهم من البرابرة لا يمكنهم الوصول اليهم وعلى اقتفاء اثرهم الى ان يهلكوا اكثرهم فان تمكنوا بعد ذلك من اخضاع الباقين لسطوتهم يفرزون لهم حقولاً ويعطونهم قمحًا وارزًا ليزرعوهُ فيها ما يلزمهم لقيام حياتهم بالشغل في الارض فشرعوا في ذلك . وفي زمان قصير تمكنوا من ايقاع الرعب في قلوبهم حتى انهم من مجرَّد استماع صوت اطلاق بنادقهم كانوا ينبطحون على الارض دون ان يصيبهم اذًى واخذوا في الابتعاد عنهم . واستمروا على ذلك مدة وكل يوم يقتلون او يجرحون واحدًا منهم حتى اسكنوهم الاوجار والمغائر فامسوا في حالة يرثى لها من الجوع بل مات كثيرون منهم جوعًا في الغابات

فاثر ذلك في عواطفهم جدًّا ولانت قلوبهم وتحركت فيهم الشفقة خاصةً الوالي المتصف بالرأفة والحنو فقال ينبغي ان نحاول القاء القبض على واحد منهم لنخبرهُ باننا نحب ان نصالحهم ونتشلهم من ضيقهم الذي يفضي بهم دون ريب الى الهلاك فنعاهدهم على الاقلاع عما يؤُول الى ضررنا وضررهم . فبعد برهة ليست بقصيرة القوا القبض على بربري لانهُ لم يستطع الركض من شدة الجوع. ففي اول الامر كان صامتًا ولم ياكل ولم يشرب الا انهُ عندما رأى انهم يلاطفونهُ ويعاملونهُ بالشفقة والرحمة دون اهانة وانهم قدموا لهُ طعامًا رجع الى نفسهِ

وآنس اليهم واكل حتى اكتفى. فاحضروا ابا جمعة ليكلمهُ فتقدم اليهِ وقال لهُ اذهب الى ارفاقك وقل لهم ان اهل الجزيرة لا يرغبون في ان يضروهم ولا ان يفعلوا ما يفضي بهم الى الهلاك بل ان يعطوهم طعاماً يقتاتون بهِ في الحاضر ويفرزون لهم قسماً من الجزيرة ليسكنوهُ و يحرثوا اراضيهِ وبذاراً ليزرعوهُ وماعزاً ليقتاتوا بلحمها ولبنها. هذا اذا وعدوا بان لا يتجاوزوا حدّاً يعينونهُ لهم ولا يفعلون ما يؤذيهم. فذهب اليهم واخبرهم بذلك فلم يمتنعوا عن القبول لان الجوع كان يكاد يفضي بهم الى الهلاك. وتوسلوا اليهم ان يعطوهم ما يقتاتون بهِ. فبعد ذلك تسلح اثنا عشر اسبانيوليًا وانكليزيان وابو جمعة وثلاثة عبيد وذهبوا الى المكان الذي كان يقيم فيهِ البرابرة. اما الثلاثة العبيد فاخذوا معهم كمية وافرة من الخبز والارز المسلوق الذي كانوا يصنعونهُ ويجففونهُ كعكاً في الشمس وثلاثة من الماعز. فلما وصلوا اليهم حملوا لهم الطعام الى جانب التل فجلسوا هناك واكلوهُ ثم نهضوا وشكروهم واقاموا بحق وعدهم ولم يتجاوزوا الحد الذي عينوهُ لهم الاّ عند ما كانوا ياتونهم طالبين زاداً او معلوميات تختص بالزراعة والفلاحة. ولما اتيت الجزيرة وجدتهم هناك فذهبت اليهم ورأيتهم. وعلّموهم الحراثة والزراعة وعمل الخبز وتربية الماعز وحلبها فكانت الاراضي المخصوصة في الجهة الجنوبية الشرقية من الجزيرة تشرف على البحر ووراءها صخور عالية وكانت مخصبة جداً وطولها نحو اربعة اميال وعرضها ميلان ونصف ميل. وعلّموهم ايضاً عمل المجارف الخشبية كالتي كنت اصنعها. واعطوهم اثنتي عشرة فأساً الى غير ذلك من الآلات وهكذا عاشوا طائعين لا يفعلون شرّاً ولا خيراً

ولم يحصل بعد ذلك ما يكدر اهالي الجزيرة ويوقعهم في خطر الهلاك من هجمات البرابرة حتى اتيتها بعد تلك الحوادث بنحو سنتين. على انهُ كان يأتي احيانًا البرابرة الى الجزيرة ليولموا بأكل اسراهم ولكن كانوا من شعوب واماكن مختلفة فربما لم يسمعوا قط بالذين اتوها قبلاً فلم يبحثوا عن البرابرة الذين كانوا فيها ولو بحثوا عنهم لما وجدوهم الاّ بعد اتعاب كثيرة واوقات طويلة لان محلهم

كان في الجهة الثانية من الجزيرة التي لم يمكن البرابرة ان يأتوها

وعلموهم صناعة عمل السلال من القصب فبرعوا فيها وفاقوا معلميهم فكانوا يصنعون منها اشياء كثيرة غير السلال منها الاقفاص والكراسي والاسرة . وكانوا حاذقين باشغال كهذه ومدنوهم تمدينًا حسنًا جدًا وكانوا يزورونهم الّا انهم لم يكونوا يسمحون لهم ان يزوروهم لئلا يعرفوا منازلهم ومقدار عددهم فوضعوا قانونًا وهو ان من تجاوز الحدود المعينة من البرابرة يموت قتلاً

هذا ما جرى في جزيرتي مدة غيابي اي ما استحق الذكر من الحوادث واظن انني لم انسَ منها شيئًا مع انني لم ادون حوادثها في اوقاتها بل كان اعتمادي على الذاكرة

ان مجيئي الى الجزيرة رقّى راحة اهلها وسعادتهم لانني اتيتهم بما يسهل اعمالهم بسكاكين ومنصات ومجارف ومعاول وفؤوس الى غير ذلك من الآلات الشديدة اللزوم لمن كان في حالتهم . فشرع البرابرة بعمل اشياء كثيرة بها فانشأوا منازل جيدة جدًا من القصب مثل صنع السلال وكان منظرها من خارج مضحكًا على انها كانت مريحة جدًا . فلما رآها الانكليزيون طلبوا اليهم ان يصنعوا لهم مثلها لانها اعجبتهم جدًا . ولما زرت منازل الانكليز ظننتها عن بعد بيوت نحل . اما ول انكنز فصنع لنفسو بمساعدة البرابرة بيتًا كبيرًا جميلاً جدًا . فكان محيطهُ من خارج مائة وعشرين ذراعًا وارتفاعهُ سبع اقدام وكان مقسومًا خارجهُ الى عشر غرف وداخلهُ الى ست ولم يكن عندهُ اسباب اتقان الصناعة ومع ذلك اخترع بحكمتهِ ما احكم عملهُ وحسنهُ كثيرًا فكان يحسب من المخترعات المفيدة

اما الدين فكان مهملاً جدًا حتى انهم لم يتمموا شيئًا من فروضهِ . وكان تذكرهم الخالق كالعادة الجارية بين الملاحين بالحلف باسمهِ الكريم . وكذلك النساء فانهم لم يعلموهنّ شيئًا من الفروض الدينية لان معرفتهم كانت قليلة جدًا من هذا القبيل حتى انهم لم يقدروا ان يفيدوهنّ شيئًا على انهم علموهنّ التكلم

باللغة الانكليزية فبرعنَ بذلك الاَّ ان لفظهنَّ كان غير صحيح وكذلك اولادهم فانهم علموهم اياها منذ الطفولية فكان لفظهم في بداءة الامر غير صحيح ايضاً . اما عددهم فكان عشرين واكبرهم سناً كان عمرهُ ست سنوات عند ما اتيت الجزيرة. لانهُ لم يكن لهم اكثر من سبع سنوات قد اتوها. على ان ارحامهنَّ كانت مثمرة جدًا فامرأة الطباخ ولدت له سبعة اولاد ولما اتيت كانت حاملاً . اما النساء فكنَّ عاقلات بعضهنَّ يحب البعض الآخر ويسمعنَ مطيعات لازواجهنَّ على انهُ لا يسوغ ان ادعوهم ازواجًا لهنَّ لانهم اقترنوا بهنَّ دون مراعاة الفروض الدينية

بين النساء تفاوتٌ لكنما خير النساء ودودةٌ وولوده

الفصل السابع والثلاثون

تاريخ ما حدث للاسبانيوليين

قد ذكرت كل ما طرأ على الانكليزيين المقيمين في الجزيرة . فيلزم ان اذكر ما حدث للاسبانيوليين الذين كانوا اكثر منهم عددًا لانهُ يستحق الذكر ويصبو الى معرفته كل من طالع هذا الكتاب المملوء من الحوادث الغريبة والنوادر اللطيفة فسألتهم في اول الامر عما صادفوا وهم بين البرابرة في الجزيرة التي اتى بهم منها الاسبانيولي الذي كنت قد خلصته هو وابو جمعة . فقالوا اننا كنا هناك في حالة تعيسة جدًا مكموري الخاطر منتظرين الموت جوعًا يومًا فيومًا فلم نفعل شيئًا يستحق الذكر لان مصيبتنا العظيمة كانت قد افضت بنا الى اليأس حتى انهُ لم يبقَ لنا امل بالنجاة ولا بتحسين حالة معيشتنا . لاننا كنا قليلي العدد ممتهنين لا يلتفت الينا انسان

فقلت له ان بين الحالتين بونًا عظيمًا لان امواج المحيط قذفتكم على شاطئ

جزيرة البرابرة دون شيء مما يلزم للمعيشة بل دون ما تقتاتون به وقتًا الى ان تجدوا طريقة لحصول على القوت . اما انا فان العناية الالهية مكنتني من الحصول على بعض الزاد من المركب المكسور فتحسنت حالتي جدًّا وتقويت وشرعت ازرع الى غير ذلك من الاعمال التي آلت نتائجها الى تحسين الحال وترقية معيشتي . ولا ريب ان كل من كانت له الوسائل التي كانت لي حينئذٍ لا يتأخر عن فعل ما فعلت . فاجاب سيدي لو كنا نحن جمهور الاسبانوليين في الحالة التي كنت فيها لما خطر ببالنا ان نصنع طوقًا نطوف به نحن الى البر ونخترع له ما يسير به دون شراعات او مجاذيف . هذا اذا كنا جملة . ولو بات واحد منا في ما بت فيه لكان مات في بقايا المركب المكسور دون ان يعرف ماذا يصنع لينجو بنفسهِ . فقلت له دعنا من هذا التجمل واقصص علينا قصتك . فقال ليتم المحس . نزلنا في جزيرة فيها سكان دون زاد مع ان البعض اخبرونا انه بالقرب منا جزيرة فيها زاد وليس فيها سكان لان الاسبانوليين اهالي ترنيداد كانوا يأتونها ويتركون ماعزًا واكباشًا فيها فتكاثرت جدًّا وملأت الجزيرة وان فيها كثيرًا من بيض اليمام والطيور المختلفة الاجناس فلو اتيناها لكنا وجدنا لحمًا كافيًا . فلم نجد في الجزيرة غير اصول الاشجار وبعض اعشاب كان يعطينا اياها اهل الجزيرة . ولم يكن لنا شيء آخر نقتات به غير لحم البقر وذلك من الحقر ماكولات اهل تلك الجزيرة . وهو كما لا يخفى مكروه جدًّا لدينا

فبعد دخولنا الجزيرة بمدة يسيرة اخذنا بالاجتهاد في تعليم البرابرة الذين كنا معهم عوائد الشعوب المتمدنة من جهة الاكل ولكنهم لم يتعلموها . فامتنعنا عن ذلك قائلين في انفسنا لا ينبغي ان نكون معلمين لمن يقدم لنا احتياجاتنا اليومية . لانه كما لا يخفى ان مواعظ من لا يحتاج الى المتعظين تكون اشد تأثيرًا ونفعًا من مواعظ الذي يحتاج اليهم فكنا نطوي اياما دون ان نتناول طعامًا . ولا ريب ان يد العناية كانت تدبر كل هذه الامور فلا نقدر ان ننكر ذلك ابدًا وكيف ننكرهُ حال كوننا عالمين انه لو افضت بنا الحاجة الى الخروج من تلك

الجزيرة والبحث عن غيرها لما كنا فزنا بالنجاة التي فزنا بها بانقاذك ايانا والاتيان بنا الى جزيرتك

وكنا نذهب معهم الى حروبهم ولكن في ابتداء القتال لم نكن نقدر ان نفعل شيئًا لانهُ لم يكن معنا بارود ورصاص لنملي بنادقنا بها ولو كان معنا ذلك لنفعنا اصحابنا واوقعنا الرعبة والخوف في قلوبهم وقلوب اعدائهم . ولم نكن نقدر ان نمتنع عن الذهاب معهم فكنا نقف في وسط المعمعة والسهام تتساقط حولنا وكانت تجرحنا احيانًا دون ان نقدر ان نفعل شيئًا لانهُ لم يكن لنا معرفة في رمي النبال فكانت حالتنا اسوأ من حالتهم . على اننا كنا نفتك بالعدو فتكًا شديدًا بالحراب التي كانت معنا وذلك عند ما نهاجمهم ونقترب منهم وكثيرًا ما هزمنا جيشًا كاملاً بها وبالحراب الجارحة التي كنا نضعها في افواه بنادقنا على ان جماهير الاعداء كانت احيانًا تحيط بنا وترمينا بالنبال فكنا نقع احيانًا في خطر الموت بل كثيرًا ما قطعنا الامل من السلامة والنجاة ولكنا في نهاية الامر اخترعنا دروعًا صنعناها من خشب وغطيناها بجلود وحوش ما عرفنا اجناسها فكانت تحمينا من نبالهم ومع ذلك كنا احيانًا نقع في خطر الموت . ففي احدى الوقائع ضرب الاعداء باعدتهم خمسة منا دفعة واحدة والقوهم على الارض . واسروا ذا ست احدنا وهو الاسبانيولي الذي نجا باقدامك ورحمتك من الموت وجسدهُ من الاكل . فظننا انهُ قتل ولكن بلغنا بعد ذلك انهُ بات اسيرًا فملأ هذا الخبر قلوبنا حزنًا وغمًا وكنا اجمع نحب ان نخاطر بحياتنا لانقاذهِ من الاسر . فلما رأى الباقون انهم قد طرحوا خمسة منهم على الارض تقدموا اليهم واحاطوا بالمطروحين ودافعوا عنهم بشجاعة لا مزيد عليها فنهضنا واخذنا في مساعدتهم على مصادمة الاعداء . الأ ان الاسبانيولي بقي مطروحًا على الارض . فظننا انهُ قد مات قتلاً فتركناهُ مجندلاً وقوّمنا اسلحتنا الخشبية واجتمعنا ثم اصطففنا صفًا واحدًا وهجمنا على جيش يبلغ عددهُ الافًا فمزقناهُ ومررنا في وسطهِ . وكنا نقتل كل من عارضنا وهكذا انتصرنا عليهم على ان سرورنا لم يكن يعادل كدرنا وذلك

لخسارة احد ارفاقنا والظاهر ان البرابرة رأوهُ حيًّا فاسروهُ وساروا بهِ . ولا نقدر ان نقوم بحق وصف فرحنا وسرورنا وحبورنا الناشيء عن رجوع صاحبنا ورفيقنا وشريكنا في المصائب بعد ان كنا متيقنين انهُ امسى فريسة لاولئك الاقوام المتوحشين . ويكل اللسان عن وصف فرحنا باستماع وجود رجل مسيحي متمدن في جزيرة مجاورة لنا قادر على انقاذنا من تلك الحالة التعيسة التي اوقعنا فيها سوء الحظ . وخاصة عند ما راينا الزاد الذي تكرمت بهِ علينا فان منظر الخبز الذي لم نرهُ منذ اتينا المكان القذر انعش قلوبنا فاخذنا نباركهُ مرة بعد مرة فكان كانهُ مرسل الينا من السماء . ولما اكلنا منهُ ومن سائر الزاد تقوينا وشعرنا بفرح عظيم عند ما ابصرنا القارب وملاحيهِ الذين اتوا من لدن ذلك الذي كان مصدرًا لجميع هذه النعم والخيرات . ان اللسان يقصر عن تأدية فريضة الشكر وعن وصف علامات الفرح التي كانت تظهر في كل منا عندما تأكدنا ان وقت نجاتنا قد دنا . فبعضنا بات راقصًا وبعضنا بات باكيًا ومنا من غنى وقد اغمي على البعض

فأثرت فيَّ هذه الاخبار تأثيرًا شديدًا وذكرتني بفرح جمعة عند ما قابل اباه وتأثيرات الحبور التي ظهرت في اولئك المنكودي الحظ الذين انقذتهم من وسط اللهيب . وسرور نائب القبطان الذي نال الخلاص حينما ترقب الهلاك وفرحي بالحصول على مركب يخلصني من الاسر في الجزيرة ويذهب بي الى بلادي بعد ان بقيت مسجونًا فيها مدة ثماني وعشرين سنة . وآلت اخبار تلك المصائب الى تمكين علائق الحب والمودة والخلوص بيني وبين اولئك الاسبانوليين وزاد اهتمامي بهم وبما من شأنهِ ان يؤول الى ترقية اسباب راحتهم وسعادتهم

فهذا ما اخبرني بهِ اهل الجزيرة مما طرأ عليهم في تلك الجزيرة وفي جزيرتي من المصائب والمساعدات والحروب الى غير ذلك مما قد تقدم ذكرهُ . فلم يبقَ الا ذكر ما فعلتهُ لاجل ترقية اسباب راحتهم . وكان يلوح لي ولهم انهُ لا خوفَ عليهم من هجمات البرابرة لانهم اصبحوا قادرين على اهلاكهم جميعًا اذا

انوهم ولوكان عددهم ضعف العدد الذي هاجمهم فاصبحوا في راحة بال وطانينة ثم اخذت في التكلم مع الوالي على سمعهم جميعاً بشأن سكنهم في الجزيرة . فقلت له اني لست بات ٍ لاخرج بعضكم من الجزيرة اذ ليس من العدالة اخراج البعض منها وترك البعض الآخر فيها الذين ربما كانوا لا يرغبون ان يبقوا وحدهم بعد ان تضعف قوتهم بسبب قلة عددهم بل اتيت لاوصيكم على السكنى هنا فقد اتيتكم باشياء كثيرة من احتياجات الحياة وقد بذلت مالاً كثيراً لابتياعها لاجل راحتكم والمدافعة عن انفسكم واموالكم ولم اكتف ِ بذلك ولكنني قد اتيت باشخاص لازدياد عددكم فتتمكنوا من التغلب على اعدائكم فضلاً عن ذلك و يساعدونكم على عمل ما تحتاجون اليه لانهم من ارباب الصنائع واعطي كلاً منكم ما اتيت به له . على انني قبل ذلك اسأل كلاً منكم هل هو مستعد ان يغفر لاخيه زلاته وينسى كل ما قد تعدى به عليه و يصالح كلٌ منكم ارفاقه و يعاهدهم على الصداقة والمحبة والتعاون في الاعمال وتكونون كانكم اعضاء عائلة واحدة لا يداخلكم الحسد ولا يخامر حياتكم الاختلاف والبغض

فاجاب ول اتكنز بسلامة ضمير ولطف ان ما المَّ بنا من المصائب هو كافٍ ليستأصل منا الشر وما صادفناهُ من مهاجمة الاعداء هو كافٍ ليمكن علائق المحبة بيننا . اما انا فاني اعيش واموت معهم دون ان يلوح في فكري الاضرار بالاسبانيوليين لانهم لم يعاملوني الاّ بما استحقته اعمالي الشريرة . ولو كنت انا هم وهم انا لفعلت بهم مثلما فعلوا بي بل اكثر كثيراً فان شئت اطلب منهم ان يغفروا زلاتي و يصفحوا عن تلك الاعمال والاقوال الشيطانية ونهاية ما اتمناهُ الاتفاق والاتحاد معهم . اما الذهاب الى انكلترا فلا اميل اليه

فقال الاسبانيوليون حقًّا ان تصرفات ول اتكنز ورفقة القبيحة الزمتنا ان نجردهم من الاسلحة كما عرضنا لك قبلاً . على انَّ ما اظهرهُ مستر اتكنز في المحاربة العظيمة مع البرابرة من الشجاعة وحسن التدبير والمروءة والاهتمام بخير الجمهور والامانة انسانا كل اعماله السابقة فنحن من الآن فصاعداً نحق الاركان

اليه والى ابني وطنه كما نحن الاركان الى انفسنا . والدليل القاطع على ذلك تعيينها ول انكتز نائب الوالي ولقد انتهزنا هذه الفرصة لاظهار افكارنا وحاسياتنا من هذا القبيل . ولان نبين اننا لانريد تفريق الصوالح ولكننا نرغب في ان تبقى واحدة

فلما سمعت تلك العبارات الناشئة عن محبة وخلوص دعوتهم اجمع لتناول الطعام سوية في ظهر الغد فاتيت بطباخ المركب ومعاونه ليطبخا لنا طعام الوليمة وساعدهما معاون الطباخ الذي كان في الجزيرة . فاتينا من المركب بلحم بقر وغنم مقدد ومشروبات مختلفة من الروم والبيرا والبراندي وغيرها من التي لم يذقها الاسبانيوليون منذ سنين عديدة . فشووها وارسلنا الى ملاحي المركب لحمًا جديدًا ليولموا باكل لحم طري من الجزيرة كما اولمنا نحن باكل لحم قديد من المركب فسرُّوا جميعًا

فبعد ان انتهينا من تناول الطعام اتيت بالاشياء التي كنت احضرتها معي . لمجانبة وقوع نزاع عند قسمتها اريتهم ان عندي اشياء كافية لجميعهم وقلت لهم انني اقسم بينكم الملبوسات بالاسوة . وهكذا اعطيت كلاًّ منهم كتانًا كافيًا لصنع اربع قمصان . فسأَل الاسبانيوليون الزيادة لجميع فزدتها قميصين اي لكل منهم ستة قمصان فسرُّوا جدًّا بها . اما الانسجة الانكليزية التي سبق ذكرها فاعطيت منها كلاًّ منهم ما يكفيه لعمل ثوب مصنع للوقاية من حرارة الشمس في فصل الصيف . وقلت لهم عند ما تفنى اصنعوا غيرها وعندي اقمشة تكفيكم زمنًا طويلاً وهكذا فرقت عليهم باقي الملبوسات من احذية وجرابات وبرانيط وهلمّ جرًّا

انني عاجز عن وصف لوائح السرور والشكر التي كانت تلوح على اوجه الرجال المنكودي الحظ عند ما كانوا يعاينون نتائج اعتنائي بهم وتقديمي لهم كل ما يحتاجون اليه . فقالوا لي حقًّا انت ابونا وشخص مثلك في اقصى اقطار العالم كان ليسلينا ويقنعنا باننا لسنا بمنقطعين عن باقي البشر فنوعدك اننا لانترك هذه الجزيرة دون ارادتك

فبعد ذلك احضرت الذين اتيت بهم وكانوا لا يزالون في المركب ومنهم رجل سمينة معلم كل الصنائع وخياط وحداد ونجار. اما الخياط فليظهر مروّتة واهتمامة بهم شرع باذني بصنع قميصاً لكل منهم. اما النجاران فكانا مهتمين جداً في الجزيرة فاخذا في اصلاح كل ما كنت قد صنعتهُ من الكراسي والموائد وغيرها لانها كانت غير متقنة واتقنا صنعها وصنعوا اسرة وخزائن ومغالق ورفوفاً وكل ما يحتاجون اليهِ من صنعة النجارة فاخذتهما الى منزل انكلتر القصي لاريهما الحذاقة الطبيعية التي اظهرها في صناعتهِ. فلما رأياهُ قالا حقاً اننا لم نرَ قط شيئاً نظير هذا المنزل. ثم قال احدهما بعد ان تفرس برهة في البيت الحق اقول لك ان صاحب هذا البيت لا يحتاج قط الينا لانك ان اعطيتهُ الآت يصنع ما يريد ان يصنعهُ

وبعد ان فرقت عليهم الامتعة اخذت في تفريق الآلات فاعطيت كلاً منهم مرّاً ومجرفة ومعولاً لانهُ لم يكن لهم محاريث فكانوا يستخدمون هذه الآلات عوضاً عنها. ثم اعطيت كل قوم منهم فاساً وقدوماً ومنشاراً وقلت لهم ان احتاج احدكم الى هذه الآلات او تعطلت عندهُ فليستعض ما في المخزن العمومي دون ان تختلفوا على ذلك واعطيتهم ايضاً كثيراً من المسامير والرزز والخالع والمطارق والسكاكين والمقصات وبالجملة كل ما يحتاجون اليهِ. واعطيت الحداد اربعة قناطير من الحديد غير المصنوع

فلما رأوا الاسلحة والبارود والرصاص التي اتيت بها فرحوا جداً لانها كانت كثيرة كافية ولو تقلد كل منهم بندقيتين كما كنت افعل انا فيتمكنون من مصادمة الف من البرابرة ان كان موقفهم جيداً

وانزلت الى الجزيرة الفتى الذي ماتت امهُ جوعاً والجارية التي كانت ذات طباع حميدة ولطف وذات معارف اعتيادية شأنها المحافظة على ديانتها وكان الجميع يعتبرونها وكانت عيشتها معنا في المركب صعبة جداً لانهُ لم يكن معنا انثى غيرها ولكنها كانت تعتصم بالصبر الجميل. فلما رات ان امور اهل الجزيرة

ومعيشتهم حسنة وهنية مقترنة بالسعد والتوفيق وانه لم يكن لها غرض بحملها على الذهاب الى الجزائر الهندية البعيدة ومقاساة مشاق البحر ومخاطره . اتت اليّ مع الفتى وطلبا اليّ ان اسمح لها بالسكنى في جزيرتي وبان ينخرطا في سلك عائلتي وكان اهل الجزيرة ينسبون اليّ فاجبت طلبهما دون تردد وعينت لها قطعة من الارض ملكًا لها وبنيت لها ثلاثة بيوت واحطتها بحائط من قصب نظير حائط انكتر لكل منها بيت للنوم وبيت مشترك لوضع المونة والاكل وكان ذلك المنزل بقرب منزل انكتر . اما الانكليزيان العاقلان فنقلا منزليهما الى جانب منزل انكتر . وهكذا اصبح في جزيرتي ثلاث مدن فالاسبانيوليون وابو جمعة والعبيد الثلاثة الذين اسروهم في اول الامر كانوا يسكنون في قلعتي القديمة وهي عاصمة المملكة . وكانوا قد وسعوا دائرة اشغالهم جدًّا وحرثوا كل الاراضي المجاورة لهم فكانت معيشتهم بالراحة والاكتفاء دون ان يقدر احد ان يرى منزلهم او اراضيهم من خارج . ولا ريب انه لم تبنَ قط مدينة عظيمة مثلها مخفية في وسط الغابات لانه لو اتى الف من البرابرة وجالوا في الجزيرة لما قدروا ان يجدوا محلهم ولو عرفوا بها وبحثوا عنها لما وجدوها لان الاشجار الملتفة احاطت بها من كل جانب وكان يلتزم من اراد ان يدخلها من سبيل غير السبيلين المذكورين ان يقطع الاشجار لينفتح سبيلاً له . وكانت معرفة الطريقين المذكورين صعبة جدًّا لانهما كانا كسائر جهات الغابة . اما المدينة الثانية فكانت منزل انكتر وبالقرب منه مسكن اربع عائلات انكليزية اي الثلاثة الانكليز الذي كنت قد تركتهم هناك وثلاثة عبيد وارملة الانكليزي الذي قتل في الحرب واولادها والفتى والجارية اللذان انقذتهما من الموت جوعًا والنجاران والخياط والحداد الذي نفعهم مجيئه الى الجزيرة خاصة فصلح الاسلحة وحفظها والرجل الذي دعوته معلم جميع الصنائع كان نافعًا جدًّا وبشوشًا

فلنذكر الكلام الذي جرى بيني وبين الخوري الشاب الذي كما سبق الذكر انقذته من قارب المركب الذي احترق . ولابد من تكرار ذكر صفاته

واعماله الحسنة لانه كان رزيناً صالحاً عاقلاً تقياً جداً ذا خصال حميدة واعمال مفيدة ونفع اهل الجزيرة

وبعد ان عزم على الذهاب معي الى الجزائر الهندية حدثني بما يتعلق بالاديان بلطف فقال يا سيدي انك بعد الله خلصت حياتي وسمحت لي ان اسافر في مركبك وقد ادخلتني كما يقال في سلك عائلتك واذنت لي ان اتكلم بما اراهُ موافقاً ولا ريب انك بالنظر الى هيئة ثيابي تقدر ان تعلم ما هو عملي وانا بمعرفة جنسيتك اعرف مذهبك . وعندي انهُ من اعظم فروضي ان اجتهد في كل حال في اكتساب كل من اصادفهُ وان احاول ادخالهُ في حظيرة خراف الكنيسة الكاثوليكية . ولكنني الآن تحت ادارتك وفي عائلتك فارى نفسي مجبوراً نظراً لحنوك وفروض حسن السلوك ان اكون خاضعاً لاوامرك فلا اتعرض لذكر شيء من المبادىء الدينية التي تختلف ارآؤنا عليها دون اذنك

فاجبتهُ ان لطافة عبارتك وحشمتك تحملاني على القول اننا من الشعب المتدين بدين غير دينكم غير انك لست الاول الذي صادفتهُ من الكاثوليكيين دون ان يفضي بنا الكلام الى الجدال . وان كونك كاثوليكياً ذا راي يختلف عن رايي لا يقلل مطلقاً اعتبارك في عيني ولا محبتي وحسن معاملتي فان افضى الحديث بنا الى الغضب يكون ذلك منك وليس مني لانهُ لا يمكن الانسان ان يبدي فكرهُ دون ان ينازع من يفاوضهُ . فاجابني اظن اننا نقدر ان نبتعد عن اسباب الجدال لانه ليس من فروضي ان اجادل كل من رأيتهُ اذا خالفني بالراي والقاعدة واحب ان تكلمني كشخص تجرد عن الرتبة الدينية . وان سمحت لي ان اكلمك عن امور دينية فلا اتأخر ولا ريب انك تسمع ان ادافع عن ارآئي وافكاري على قدر امكاني ومعرفتي . على انني كما سبق الكلام لا اتعرض لذلك دون اذنك كما انني لا افتر عن اجراء ما تفرضهُ عليَّ اصول ديانتي ككاهن وكرجل من اهل الصلاة لاجل حماية المركب ومن فيهِ من الخطر . ومع انهُ ربما تريدون ان تشتركوا معي في تلك الصلاة لا اقدر ان اشترك معكم في

صلواتكم والمأمول ان صلاتي تكون مقبولة عن نفسي وعن انفسكم . وجرى بيننا الحديث مدة فوجدته على جانب عظيم من الرقة والعلم ومعرفة التصرف الحسن ثم اخذ يخبرني بتفاصيل ما طرأ عليهِ من الحوادث الغريبة والمصائب الكثيرة التي المت بهِ وهو سائح مدة ثلاث سنوات في العالم خاصةً بما صادف في هذه السياحة فقال انني في هذه السياحة قد غيرت مركبي خمس مرات ولم يصل بي مركب واحد منها الى مقصدي فان الاول كان قاصدًا مارتينيكو . غير انه صادفتنا ريح ذهبت بنا رغمًا عنا الى ليسبون وتعطل المركب هناك لانها دفعته الى البر عند مصب نهر تاكسوس فوجدت في لسبون مركبًا برتوغاليًا ذاهبًا الى ماديراز فقلت انني ربما اجد مركبًا ذاهبًا الى مارتينيكو فركبته على ان قبطانه اضاع طريقهُ فذهب بهِ الى قابيل حيث باع شحنته التي كانت من القمح بسعر جيد . فعدل عن الذهاب الى ماديراز وعزم ان يشحن المركب ملحًا من جزيرة ماي وان يذهب من هناك الى نيوفوندلند فالتزمت ان اذهب معهُ فذهبت حتى وصل بي المركب الى التكبس (هذا اسم محل يصطادون فيهِ السمك) فصادفت هناك مركبًا فرنسويًا ذاهبًا الى كويبك ومن هناك الى مارتينيكو ليبتاع زادًا فركبته ولما وصل الى كويبك مات قبطانه وتأخر المركب عن السفر. ثم ركبت المركب الذي احترق بنا قاصدًا فرنسا . فجرى ما جرى لنا فركبت مركبك قاصدًا الجزائر الهندية . فلنرجع الى صدد ما كنت في صددهِ عن احوال الجزيرة لانهُ كما لا يخفى لا يعنيني التعرض لذكر ما اصاب غير الذين لم تعلق معي بالمصائب والاتعاب

ما مضى فات والمؤمل غيبٌ ولك الساعة التي انت فيها

الفصل الثامن والثلاثون

اعمال روبنصن في الجزيرة

ففي صباح احد الايام اتاني الخوري الشاب الذي كان ينام في الجزيرة معنا اثناء المدة التي كنا فيها عند استعدادي للذهاب الى منزل الانكليز بين في الجهة الاخرى من الجزيرة وقال لي ولوائح الاهتمام تلوح على وجهه انني منذ يومين او ثلاثة ارقب فرصة لاكلمك عما من شأنه ترقية صوالح اهالي جزيرتك ويؤول الى نجاحهم وحلول بركة الله عليهم والمأمول ان يكون ذلك مما ترغب فيه ولا ريب انه يوافق مقاصدك الخيرية

فلما سمعت هذه الكلمات نظرت اليه نظرة مندهش وقلت له يا سيدي كيف تقول ما يأول الى حلول بركة الله عليهم هل ترتاب في حلولها منذ زمن طويل بعد ما اخبرتك به عن الاتفاقات الغريبة والمساعدات العجيبة التي حصلنا عليها بعناية الله سبحانه تعالى منذ اتينا هذه الجزيرة . فاجابني بخشوع ولطف وسرعة يا سيدي لو سمعت ما ارغب في ان اعرضه تفصيلاً وتفسيراً لما قلته لما اثرت فيك ملاحظاتي . فحاشا ان اقول بعد ان وقفت على تفاصيل حوادث هذه الجزيرة ان بركة الله لم تحل على اهاليها . ولا ريب انك قد حصلت عليها منذ زمن طويل لان مقاصدك في حسنة وخالية من كل غش وشر . على انني اظن ان بينهم من لا يسلك سبيل الله . ولا يخفاك ان غضب الله حل على بني اسرائيل وقتل منهم ستة وثلاثين رجلاً لان واحداً منهم خالف نواميسه فجلب غضب الله على نفسه وعلى الآخرين من الذين كانوا يساكنونه ويعاملونه فاثرت فيّ تأثيراً حسناً هذه الكلمات وقلت له ان ما ذكرته هو صحيح

ومقاصدك في جليلة خيرية توافق روح الديانة كل الموافقة فارجو المعذرة على معارضتي اياك واتوسل اليك ان تكمل خطابك . ولكن لما كان ذلك لا ينتهي في لحظة ارجوك ان ترافقني الى منزل الانكليزيين فنتحدث في الطريق فيما يؤول الى خيرنا اجمعين . قال لي ان ذلك مما يسرني جدًا ويوافق مقصدي لان ما اريد ان اكلمك به يتعلق بالانكليزيين . فذهبنا وطلبت اليه ان يتكلم بحرية عما يلوح له واظن انه يؤول الى خير اهالي الجزيرة

فقال لي يا سيدي ان هذه هي ارادتك فارجوك ان تسمح لي ان اخبرك بامور تكون اساسًا لما ابديه لكي لا نختلف في المبادىء الاصلية وان اختلفنا في بعض خصوصيات . فاقول اولاً اننا لسوء الحظ نختلف في بعض مبادىء دينية خاصة فيما ارغب ان اكلمك به ولكن الاصول العمومية متفق عليها . فمنها الاقرار بوجود الله . وان ذلك الاله قد سن نواميس عمومية لا ينبغي ان نخالف عمدًا ولا باهمال اجراء ما يأمرنا به وقد اجمع الناس على ان الله سبحانه وتعالى لا يسبغ بركته على من خالف نواميسه . فكل من تمسك بحبال التقوى يهمه جدًا ان لا يدع من كان مسلمًا الى ادارته يستخف بنواميسه ويخالفها . لا اقول هذا لان من اشرت اليهم هم من التابعين مذهبًا يختلف في بعض احواله عن مذهبي لان ذلك لا يعفيني عن الاهتمام بما من شأنه ان يخفف عنهم ثقل غضب خالقهم ويقربهم منه خاصة ان سمحت لي ان اتخذ الوسائل التي تتكفل بنوال المقصود

فلم افهم قصده . فقلت له انني اقبل كل ما قلته واشكرك على اهتمامك بنا وعلى الغيرة التي ابديتها وارجوك ان توضح كلامك لافهم غايتك وانني اقول كما قال يشوع انه ينبغي ان نستأصل من بيننا ما وقعت عليه لعنة الله

فاجاب اقول ان ثلاثة اشياء تعوق حلول بركة الله على اعمالك واجتهادك في ترقية صوالح اهالي هذه الجزيرة واني اسر جدًا اكرامًا لك ولهم عندما ارى هذه الموانع في خبر كان . ولا ريب انك لدى الوقوف على حقيقتها تسلم معي في صحة ما عرضت لك عنه خاصةً عندما ترى ان التخلص منها هو سهل جدًا

ويحصل على تمام مصادقتك . وهي اولاً ان خمسة رجال انكليزيين قد ذهبوا وانقوا لانفسهم بنساء بربريات وقد ولدن لهم اولاداً وذلك دون ان يعقد الزواج حسب سنة الله وقوانين البشر . فاذاً هذا الزواج زنى فربما قلت انهم عند ما تزوجوهن لم يكن لهم كاهن ليتم الفروض حتى ولا حبر ولا ورق لكتابة صك الزواج (ان كتابة صك ممضى من الفريقين المتزوجين هو من مقتضيات قوانين الافرنج وهو من قبيل عقد الزواج عند العرب) وقد بلغني ما اخبرك به الوالي وهو ان الزواج تم بالرضى وان من تزوج واحدة لا تكون له الاخرى وهذا ليس هو تمام الفروض ولا يتم الاتفاق الذي ينبغي ان يكون بين الجارية والشاب قبل ان يتزوجا . ولكنه اتفاق منحصر في الرجال لمنع وقوع النزاع بينهم . لانه لا يخفى عليك ان فروض الزيجة لا تتم الا بقبول الفريقين المتزوجين بالتعاهد الاصولي الذي يلزم كل منهما في جميع الظروف والاحيان ان يكرس للثاني وان لا يرتبط الرجل الا مع المرأة التي تعاهد معها ما دامها حية وان يقدم لها ولاولادها ما يقوم باحتياجاتها وكذلك النساء . اما الواقع فهو بخلاف ما تقرر لانه ما من شيء يمنع الرجال عن ترك نسائهن واولادهن الى رحمة الطبيعة والتزوج بغيرهن وهن في قيد الحياة فهذا يغيظ الله وينزل عليهم غضبه ويحجب حلول بركاته . فان كانت مقاصدك خيرية ونواياك حسنة فبقاء من هم تحت سلطتك المطلقة في حالة الزناء كان لخراب كل ما تبنيه ولسقوط كل ما تشيدهُ

فاثرت كلماته فيَّ كل التاثير واعجبتني فصاحة عباراته وقوة براهينه لانه غني عن البيان انه لم يكن لهم كاهن يتم الفروض حسب اللازم ومع ذلك كان ضمن دائرة امكانهم ان يشهدوا على انفسهم قبل التزوج متعهدين بانهم قد تزوجوا زيجة شرعية لا يبطلها شيء وكذلك النساء وهذا كافٍ في حالة كحالتهم ولا ريب انهم اهملوا الواجب عليهم . فلابرر نفسي عند الخوري قلت له ما جرى قد جرى اثناء غيابي عن الجزيرة فلست مسئولاً به ولا حيلة في رد ما فات

فقال يا سيدي ارجوك المعذرة في ما ابديه بعد ان اقول انك لست

بمسئول عما جرى من مخالفة الناموس اثناء غيابك أفلا تكون مسئولاً اذا لم تفعل ما يصلح الخلل باجراء ما ينهي هذه الحال. فاذا وقعت مسؤولية المستقبل تقع عليك وحدك لانك قادر على الاصلاح

فلما سمعت كلامه خال لي ان مقصوده أنه من فروضي ان افصل الرجال عن النساء لمنع الزناء. فاجبته وقد لاحت على وجهي لوائح الغيظ انه لا اقتدار لي على فصل الرجال عن نسائهم لان ذلك يؤول الى خراب الجزيرة. فلما سمع كلامي اندهش جدًّا وقال لالابس هذا هو المقصود ولكنه ان تأمر بتتميم فروض الزواج. وربما كانوا لا يقبلون ان ازوجهم انا حسب فروض مذهبي مع ان ذلك ما يسلم بصحته مذهبكم فلا يتأخرون عن قبول تتميم الفروض عن يدك. وذلك بكتابة صكوك بين كل رجل منهم وزوجته بحضور شهود وهو ما تسلم به سنَّة الله وقوانين كل ممالك اوربا

فاذهلتني تقواهُ الشديدة وغيرته وعدم تعصبه وتمسكهُ بفروض مذهبه واهتمامه باتخاذ الوسائل التي تجعل اولئك الرجال الذين لم يعرفهم قط يرتدون الى سبيل الحق والتقوى. وقال انه يصح عقد الزواج بصك يمضيه كل من المتزوجين قلت له انني اسلم بصحة كل ما قلته واشكر غيرتك وحمتك وتقواك التي لا مزيد عليها. فعند وصولنا اليهم احدثهم بهذا ولا ريب انهم يقبلون به لان ما تفعله من هذا القبيل يكون قانونيًّا في انكلترا كما لو فعله احد قسوسنا. وسيأتي ذكر ما حصل بهذا الشان ان شاء الله بالتفصيل

فبعد ذلك الححت عليه ان يخبرني بالشيء الثاني مظهرًا امتناني الشديد لتنبيهه افكاري الى تصليح الاول. فقال انني بسطت لديك الامر الاول بحرية تامة فابسط الثاني دون تردد ولا ريب انك تصادق عليه كما صادقت على الاول. وهو ان هولاء الرجال الانكليز قد عاشوا مدة سبع سنوات مع نسائهم وقد علموهنَّ التكلم باللغة الانكليزية حتى القراءة. وقد ظهر لي انهنَّ ذوات فهم وادراك وان تعليمهنَّ سهل ومع ذلك لم يحصلنَ الى الآن على

ارشادات دينية مسيحية حتى انهم لم يخبروهنّ بوجود الهٍ خالق او ديانة ولا علموهنّ العبادة وطاعة الله ولان عبادتهنّ للاصنام باطلة لاتجدي نفعاً . فهذا تغافل يحاسبهم عليهِ الله لامحالة وربما انزل بهم ما يضرهم تأديباً لتهاونهم . فينقضي بهم ذلك الى الخساسة والهوان . ولو كان هولاء الرجال في بلاد البرابرة التي اتوا بنسائهم منها لكان قد اعتنى البرابرة بامر تعليمهم عبادة الاوثان اكثر ما اعتنوا هم بتعليم نسائهم الديانة المسيحية فها قد اوضحت لك يا سيدي افكاري من هذا القبيل وكل منا لايقر بصحة مذهب الثاني ومع ذلك نسرّ جداً ان نرى عابدات الاوثان السالكات سبل الشيطان يتعلمنَ مبادئ الديانة المسيحية واصولها لكي يعرفنَ وجود الله والمخلص والقيامة اذا تعسر تعليمهنّ اكثر من ذلك وقد اجمع على هذا الامر كل المسيحيين فنرغبهنّ من الديانة الصحيحة فينقطعنَ عن عبادة الاصنام وممارسة افعال ابليس

فلما سمعت منه ذلك تحركت فيّ حاسيات الغيرة والمحبة فنهضت وهجمت عليهِ واعتنقتهُ قائلاً انني كنت بعيداً عن معرفة اهم فروض من تدين بدين المسيح . وهي الغيرة على الديانة وحب تخليص انفس الآخرين . حقاً انني لم اكن اعرف فروض الرجل المسيحي . فقال يا سيدي لاتقه بمثل هذا الكلام لانك لا تلام على ذلك فاجبته انني الوم نفسي عن التغاضي عن امرهم وعدم الاهتمام بهِ قبل الآن فقال لم تفت الفرصة فلا تسرع بلوم نفسك . فاجبته انك تعلم انني راحل عن الجزيرة فاذا اقدر ان افعل وانا بعيد عنها . فقال أتسمح لي ان اخبر هولاء المنكودي الحظ بذلك . فاجبته كيف لا وسآمرهم بان يصغوا الى ما تقولهُ . فاجاب ان هذا ليس مما نقدر عليهِ الاّ ان رحمة المخلص تفتح آذانهم لاستماع كلامهِ وقلوبهم لحلول روحهِ . على انهُ من الواجب عليك ان تحرضهم على التعليم والتقوى وعندي انهُ مع بركة الله تُرد الانفس الضالة الى حظيرة المخلص والمأمول ان يتم ذلك قبل ذهابك . فقلت لقد اذنتك بان تفعل ما تشاء من هذا القبيل واشكرك سلفاً . وسيأتي ان شاء الله ذكر ما جرى

ثم طلبت اليه ان يخبرني بالشيء الثالث الذي تلام على التغافل عنه .
فقال الحق اقول لك انه يشبه ما ذكرت جدًّا وبعد الاستئذان منك اخبرك بتفصيله . فيا سيدي ان من اعظم مبادئ الديانة المسيحية نشر بشارتها في كل اقطار العالم في كل حال بالوسائل الممكنة فكنيستنا قد ارسلت القسوس الى بلاد العجم والهند والصين وكهنتنا حتى الذين هم من اعلى درجة يذهبون بمطلق الارادة الى اماكن بعيدة يسكنون فيها بين البرابرة والمتوحشين وعبدة الاوثان معرضين انفسهم لخطر الموت في كل حين مرتكبين اخطارًا ومشاق يكل اللسان عن وصفها ليبشروا بينهم معرفة الله ويردوهم الى حضن الايمان فقد سمحت لك الفرصة لرد نحو ستة وثلاثين رجلاً عن الضلال والديانة الوثنية الباطلة وتبشيرهم بوجود الله خالق الجميع ومخلص فداهم اجمع . واعجب من انك تغافل عن اغتنام فرصة كهذه ينشأ عنها خلاص انفس كثيرة من الذين ينسبون اليك وهذا لا يؤثر فيه شيء من الاعمال الخيرية

فلما سمعت كلام هذا الرجل المزين بالغيرة المسيحية والتقوى اندهشت وحرت في امري وحزنت على نفسي لانه لم يخطر امر كهذا ببالي ولولاه لم انتبه اليه قط. فانني اعتبرت اولئك البرابرة كعبيد لو وجدنا ما نستخدمهم به لاستخدمناهم لامحالة . وكنا نحب جدًا ان نتخلص منهم بارسالهم الى مكان آخر لان جل اهتمامنا كان بايجاد طريقة للتخلص من اتعابهم دون ان يتمكنوا من الرجوع الى بلادهم. فاخجلتني كلماته جدًا فصمت

فلما رآني على هذه الحال تفرس فيَّ برهة ثم قال لي يا سيدي تكدرت لاني اغضبتك بملاحظاتي . فاجبته لا لا لم اغضب بها ولكنني غضبت من نفسي وبت في خجل لان هذه الامور لم تخطر ببالي قط قبل الآن على انك تعلم انني مرتبك جدًا لانني اتيت هذا المكان في مركب مشحون ببضاعة التجار وتاخيره مما لا يوافق ولا يكون من العدل لاسيما ان ملاحيه ياكلون ويأخذون اجرة من مال صاحبه الذي اتفقت معه ان ينتظرني هنا ١٢ يومًا واذا زاد انتظاره عن المدة

المذكورة ادفع له كل يوم ٣ ليرات انكليزية . فلا اقدر ان امكث اكثر من ثمانية ايام فوق المدة المعينة وقد صرفنا ١٣ يوماً . فلا يمكنني ان ابتدئ بتلك الاصلاحات ما لم ابقَ هنا بعد ان يذهب المركب الذي ربما عاقة امر عن الرجوع من هنا فابقى مسجوناً في هذه الجزيرة كما كنت قبلاً . فاجاب لا ريب في ذلك ولكن ألا تظن ان الثواب الذي تناله على رد ٣٧ نفساً عن الضلال يوازي كل ما لك في هذه الدنيا اني اترك الحكم في ذلك لضميرك . فلم اشعر بان ذلك مفروض عليَّ كما شعر هو به . فاجبته لا ريب في ذلك ولكن انت من المجردين لافعال كهذه فاظن ان هذا الامر هو من فروضك اكثر ما هو من فروضي

فلما سمع هذه الكلمات وقف بغتةً في الطريق وتقدم اليَّ واحنى رأسه علامة للشكر وقال الشكر لله ثم لك يا سيدي على ايصال الانعام اليَّ بعمل مبارك كهذا فان كنت تعتذر عن تتميم هذا العمل وتسلمه اليَّ انجرد له بكل فرح وسرور واعتبر ذلك جائزة نفيسة تزيد عن المشاق والمصائب التي صادفتها في هذه السفرة المشؤومة

وكان يتكلم ولوائح السرور تلوح على وجهه الذي علاه الاحمرار ثم الاصفرار ثم الاحمرار . وكانت عيناه لامعتين كانهما تبعثان شهباً نارية فاصبح متهللاً فرحاً جداً لانه فاز بالاهتمام بعمل جليل كهذا . فابكمني وادهشني منظرهُ ولم اعلم بماذا اجيبه لانني عجبت جداً من شدة غيرته وسروره ومحبته لغيره وفعل الخير. وقد فاق بذلك كل البشر سواء كانوا من اهل رتبته او من غيرها ثم سألته هل صممت على ذلك وهل ترضى ان تحبس نفسك في هذه الجزيرة القفرة لمجرد تبشير اولئك القوم الذين ربما كانوا لا ينتفعون بتبشيرك

فنظر اليَّ وقال هل تعلم ما الذي حملني على الذهاب معك الى الجزائر الهندية . قلت لا ولكنني اظن تبشير الهنود . قال نعم وليس امراً آخر. او لا تظن اني اذا قدرت ان ارد سبعة وثلاثين رجلاً عن ضلالهم واكون الواسطة لخلاصهم يكون ذلك سبباً كافياً مستحقاً ان افرغ له جهدي وكل حياتي وابقى

في هذه الجزيرة وان كنت على يقين انني لا افوز بالخروج منها . او لا تظن ان تخليص انفس جمهور كهذا من الهلاك يستحق بذل حياة مثل حياتي بل اقول بذل حياة ٣٠ كائناً مثلي . وانني يا سيدي اشكر القادي كل ايامي على جعلي احقر واسطة لنجاة انفس هولاء المنكودي الحظ وان حرمني الرجوع الى وطني. وقد فوضت اليَّ هذا الامر المهم الذي لاجلهِ اصلي لا جلك حياتي بطولها . فاتوسل اليك ان تجيب سؤالي . فقلت . ماذا عسى ان يكون . قال هو ان تسمح لخادمك جمعة ان يبقى معي هنا ليسعفني في ذلك ويترجم بيني وبينهم لانهُ لا يخفاك انهُ لا اقتدار لي على ذلك دون ترجمان

فكدر في هذا الطلب لانهُ لم يكن لي اقتدار على مباينة جمعة لانهُ كان رفيقاً لي في كل اسفاري وامينًا في اعمالهِ محبًا لي محبة لا مزيد عليها وكنت قد عزمت على ان انعم عليهِ بانعامات عظيمة ان بقي حيًّا بعد موتي وفضلاً عن ذلك علمت ان تعلمهُ ديانة غير التي كنت قد علمتهُ اياها يفضي بهِ الى الارتباك اذ انهُ لا يمكن ان يصدق ان معلمهُ القديم من اهل الهلاك الابدي وربما افضى بهِ ذلك الى الرجوع الى عبادة الاوثان فيهلك لا محالة . فتحيرت برهة ثم لاح لي امر مكنني من اكتشاف عذر فقلت لهُ صعب عليَّ مباينة جمعة وان كانت هذه الخدمة تكسبهُ ثوابًا ابديًا اثمن وانفع جدًا مني واظن انهُ لا يرضى ان يفارقني . فلا اقدر ان اغصبهُ مع مراعاة روح العدالة والحق وقد وعدتهُ ان لا اطردهُ من خدمتي مطلقًا ووعدني هو ايضًا بانهُ لا يتركني دون ان اطردهُ من خدمتي . فارتبك جدًا لانهُ لم يكن قادرًا ان يكلمهم دون ترجمان . فقلت لهُ تسهيلاً للعمل ان ابا جمعة قد تعلم اللغة الاسبانيولية وانت تقدر ان تتكلم فيها فيكون نعم الترجمان . فسرهُ ذلك جدًا واجتهدت ان اميلهُ عن قصدهِ لئلا يبيت مسجونًا لكنهُ لم يقبل بل اصرَّ على البقاء ليبشر القوم بشارة الخلاص

فلما وصلنا الى منازل الانكليز جمعتهم حولي واخذت اقول لهم انني قد انهيت لكما بكل ما تحتاجون اليهِ من لوازم الحياة وقد وزعتها على جميعكم بالاسوة.

فشكروني جداً من صميم قلوبهم ثم قلت لهم ان معيشتكم في غير صالحة . ثم اخبرتهم بملاحظات الخوري وسالتهم أأنتم متزوجون ام لا . فقال اثنان منهم اننا تزوجنا في بلادنا ثم ترملنا وقال الباقون اننا لم نتزوج قط فقلت لهم انهُ لا يخفى عليكم ان اقترانكم منهنَّ دون عقد زواج ناموسي محرَّم . فلا تحسبنَ زوجات لكم واولادهنَّ اولاداً شرعيين الاَّ بعقد موافق لاصول الديانة ومبادئ الآداب

فاجابوني انهُ لم يكن لنا من يزوجنا زيجة شرعية على اننا تعهدنا بحضور الوالي ان لا نتركهنَّ بل نبقيهنَّ عندنا ونقوم بحاجاتهنَّ ونظن ان ذلك كافٍ في حالتنا الحاضرة وهو قانوني كما لو تزوجنا في انكلترا حسب القانون

فقلت لهم لاشك انكم متزوجون ناموسياً وملزومون بحسب الضمير ان لا تفارقوهنَّ لكن قوانين البشر لا تكتفي بذلك فيمكنكم ان تهجروهنَّ واولادكم متى شئتم وليس لهم من يعولهم فاذا تركتموهم يموتون جوعاً . فاذا لم تبتغوا ان نواياكم حسنة من هذا القبيل لا امتعكم بشيء بل كل المساعدة تكون للنساء وللاولاد دون الالتفات اليكم . وما لم تثبتوا ان زيجتكم قانونية لا يوافق ان تعيشوا معهنَّ كما يعيش الرجل مع زوجتهِ لان ذلك عثرة للغير ورذيلة في عيني الله الذي لا يسبغ عليهم بركاتهِ

فاجابني ول انكتز بالاصالة عن نفسهِ وبالوكالة عن ارفاقهِ . اننا نحب نساءنا كما لو كنَّ من بنات وطننا ولا نفارقهنَّ البتة . ولا ريب انهنَّ افضل منا واكثر تهذيباً ويفرغنَ جهدهنَّ في الاعتناء بنا وباولادنا فما جرى لا نفارقهنَّ . اما انا فان اتاني من عرض عليَّ الذهاب الى انكلترا مع رياسة مركب حربي من اعظم المراكب لا اذهب معهُ ان لم يذهب بي وبامرأتي وباولادي وان كان في المركب كاهن فلا مانع من تتميم الفروض الآن وهذا هو غاية ما اطلب

اما الكاهن فلم يكن واقفاً بجانبي حينئذٍ بل كان بعيداً عني مسافة قصيرة فلامتحن ول قلت له هوذا الخوري فان شئت يقوم بعقد الزواج غداً فتأمل في ذلك واخبر بهِ الباقين . فاجاب اما انا فلا حاجة عندي الى زيادة التأمل

في ذلك فانني مصمم عليه اما الباقون فلا اظن انهم يرفضونه . ثم قلت له ان صاحبي الخوري هو فرنسوي ولا يتكلم اللغة الانكليزية على انني اترجم بينكم وبينه . فلم يسألني هل الخوري كاثوليكي او بروتستانتي . وهذا كما لا يخفى ما شغل فكري فذهب ولم يخبر بذلك ارفاقه اما انا فتقدمت الى الخوري واخبرته بما حدث وطلبت اليه ان لا يقول لهم شيئاً حتى تنتهي العملية

فبعد ذلك برهة اتوني جميعاً وقالوا اننا بالتأمل بما قلته قرّ الرأي ان نظهر لك شكرنا على ما ابديته من الاهتمام وسرورنا بوجود كاهن معك لاننا نرغب ان نخضع لاوامرك وتتم فروض الزيجة الشرعية لاننا نترك نساءنا وعند ما اختار كل منا واحدة منهنّ لم يقدر ان يفعل ما لا تسلم به السنة الشرعية . فاجبتهم انني اطلب اليكم ان تستعدوا لمقابلتي غداً صباحاً وان تخبروا نساءكم بعقد الزيجة وان ذلك ليس لمجرد منع الاختلافات ولكنه قيد يلزمهم بان لا يتركوهنّ مطلقاً لاية علة كانت

اما النساء ففهمنَ حالاً المقصود من تتميم فروض الزيجة وسررنَ جداً به ففي الصباح اتوا جميعهم الى منزلي . فخرجت اليهم والخوري ولم يكن معه الثوب الكنائسي حسب عادة القسوس الانكليز ولا عادة الكهنة في فرنسا ولم يكن منظرهُ بعيداً عن منظر الكهنة لانه لبس صدرية سوداء ووضع بطرشيناً حول عنقه فاخذت اترجم بينه وبينهم . فاعتبرهُ الجميع جداً خاصةً عند ما رأوا ما ابداهُ من الرزانة والتمنع عن تزويجهم لان النساء لم يكن قد تنصرنَ ولا عرفنَ شيئاً من اصول الديانة . على انني خشيت ان الموانع التي ابداها من هذا القبيل تؤخرهُ عن تزويجهم فاجتهدت ان اقنعهُ بعدم لزوم ذلك فرفض بوداعة ان يتم فروض الزيجة قبلما يكلمهم بهذا الشان فتأخرت في اول الامر عن اجابة طلبه على انني عند ما رأيت سلامة نيته وحسن مقصده وافقته على رأيه

فلما دنا منهم قال لهم ان صاحب الجزيرة (اي انا) اخبرني عن جميع احوالكم واعتمادكم على تتميم فروض الزيجة . انني اسر جداً بالقيام بهذا النوع من

فروضي . ولكن قبل ذلك اقول لكم انهُ حسب سنة الله وقوانين البشر تزوجكم بهولاء النساء زناءٌ ولا سبيل الى التخلص من ذلك ما لم يتم بتلك الفروض الآن او فصل كل رجل عن امرأتهِ . اما تتميم فروض الزيجة فمستصعب لان النساء غير مسيحيات وتزويج مسيحي بوثنية قبل ان تعتمد هو مما لا تسلم بهِ السنّة على اني لا ارى وقتًا كافيًا لتعليمهنَّ المبادئ المسيحية وردهنَّ عن عباداتهنَّ الباطلة وتعميدهنَّ . اما انتم فاظن انكم من المتدينين غير السالكين بحسب اصول ديانتكم ومعرفتكم بسنن الله ووصاياهُ في قليلة جدًّا فلم تتخذوا الوسائل اللازمة لرد نسائكم الى حظيرة الكنيسة فلا ارى نفسي مقتدرًا على تتميم فروض الزيجة ما لم تعدوا وعدًا صحيحًا بان تفرغوا جهدكم في رد نسائكم عن ضلالهنَّ وان تعلموهنَّ الايمان بالله وبالمسيح الذي قد فداهنَّ . لان سنّة الكنيسة لا تسمح بان ازوج مسيحيين بغير مسيحيات

فكانوا يصغون الى كلماتهِ كأَن على رؤُوسهم الطير اما انا فكنت اترجمها دون زيادة ولا نقصان . على انني كنت ازيد احيانًا بعض كلمات من عندي تبيينًا لما كان يقولهُ واظهارًا لصحتهِ وموافقتهِ وكنت ابين لهم انها مني وليس منهُ فقالوا ان ما قال الخوري يوافق الواقع تمامًا لاننا لم ننتبه قط الى فروضنا الدينية كما اننا لم نذكر شيئًا منها لنسائنا . ثم قال ول اتكنز يا سيدي كيف نعلمهنَّ اصول الديانة ونحن لا نعرف شيئًا منها وفضلاً عن ذلك لو اخبرناهنَّ بوجود الله والمسيح والسماء وجهنم لسألنا عن ايماننا فان قلنا لهنَّ اننا نؤْمن بما اخبرناهنَّ بهِ وان الصالحين ينالون الثواب والطالحين العقاب لسألننا الى اين نقصد نحن ان نذهب وقد تمرغنا باوحال الخطية والشر

فقلت لهُ يا ول اقول بحزن لا مزيد عليهِ ان ما قلتهُ هو لسوء الحظ صحيح . ولكن هل تخبر امرأتك ان ايمانها بمعبوداتها باطل وانهُ يوجد الله وديانة يفوقان جدًّا معبوداتها الباطلة وديانتها الوثنية وان معبوداتها لا تسمع ولا تتكلم وانهُ يوجد كائن عظيم جدًّا خلق جميع ما نراهُ وما لا نراهُ وهو قادر ان يجعلك في

عدم بكلمة واحدة ويجازي الصالحين خيراً والطالحين شراً كلاً بحسب اعمالهِ وهو الديان العظيم واظن انك لست بجاهل فتعلم هذه الامور جميعها لان الطبع يدل عليها ولا ريب انك تعرفها وتؤمن بها . فاجاب ول حقاً يا سيدي ولكن لا اقتدار لي ان اخبر امرأتي بكل هذه الامور لانهُ لا ريب انها لا تصدقني . قلت كيف هذا يا ول . قال نعم يا سيدي لا ريب انها تجيبني ان لا صحة لما اقولهُ لها عن الهنا ولا تصدق ان لهُ الاقتدار على الثواب والعقاب ولا انهُ عادل لانهُ لم يعاقبني ويهلكني لانها تعلم انني لم اسلك سبيلاً مستقيماً في معاملتها بل تبعت الشر وفعلت الاثم وما ينافي كلامي وما اظهرهُ كمفروض علينا لارضاء ذلك الاله القادر الحليم . فقلت لهُ وقد ادهشتني كلماتهُ يا ول عندي انهُ لا ريب فيما قلت. ثم ترجمت كلامهُ للخوري الذي كان قد فرغ صبرهُ ليعرف معنى كلامهِ . فقال الخوري ارجوك ان تقول لهُ عليهِ بالتوبة والرجوع عن طريق الضلال وذلك يؤهلهُ لان يكون واعظاً لامرأتهِ ويردها عن ضلالها ويخبرها بالله عادل حليم شفوق قادر يجازي كلاً حسب اعمالهِ يحب خلاص الخاطىء وان يتوب عن طريق الخطية ويعيش وانهُ رؤوف كثيراً ما يؤجل مكافاة البار وقصاص الخاطىء الى بعد الموت ليمكنهُ من الزمان الكافي للتوبة والرجوع عن سبيلهِ المعوجة ويسلك السبيل المستقيم المؤدي الى الخلاص . وان ذلك هو اكبر برهان على خلود النفس والابدية والقيامة والحشر بعد هذه الحياة وهكذا يعلمها تعاليم الديانة ومتعلقاتها. ولربما كانت توبتهُ واسطة لتوبة زوجتهِ وخلاصها

فترجمت كل هذه العبارات وافهمتها لاتكنز وكانت لوائح الرزانة والاصغاء والتأمل تلوح على وجههِ وظهر لي انها اثرت فيهِ تأثيراً لامزيد عليهِ حتى انهُ قاطع حديثي وقال بحرارة وحزن شديد يا سيدي انني عالم بذلك اجمع بل باكثر منهُ. على انني لا اتجاسر ان اكلم بهِ زوجتي والله وضميري وامرأتي يشهدون باني ملت عن طريق الحق وتعديت نواميس الرب وخالفت وصاياهُ وسلكت سبيل الشر والشقاء كانني لا اعلم بوجود الخالق ولا بالخلود والثواب والعقاب

ثم قال وقد تنفس الصعداء وادمعة تتلالأ في عينيه اما التوبة فوا اسفاه ويا حسرتاه قد مضى زمانها وقد فاتني اوانها فقلت كيف هذا كيف فاتك يا تكتر. نعم يا مولاي قد مضت عني ولا امل لي بنوالها

فترجمت كلامهُ للخوري صاحب الغيرة الشديدة والمحبة المفرطة الذي لا ريب انهُ يهتم كثيرًا بخلاص انفس البشر فكيف لا يهتم بامر خلاص نفسهِ . وكانت الدموع تتساقط على وجنتيهِ وهو يكاد يغيب عن الصواب . فبعد برهة رجع الى نفسهِ وقال لي سلهُ سؤالاً واحدًا فقط وهو هل يسرّ بفوات زمان التوبة او هو في كدرمنهُ ويشتهي ان ينالها من كل قلبهِ . فترجمت هذا السؤال فاجاب على الفور كيف لا هل يسر احد بان يعلم ان ما هو طيهِ يفضي بهِ الى الهلاك الابدي . فلا راحة في هذه الدنيا لانني لمؤكد ان اليأس يسوقني الى الهلاك . فقلت لهُ ما هذا الكلام يا ول قال لا ريب انني اساق الى قتل نفسي لاخلص من خوف العذاب

فلاحت لوائح الاهتمام والامال على وجه الخوري وقال بسرعة قل لهُ ان زمان التوبة لم يفت وان المسيح يبهالهُ لانهُ لا يخلص احدًا الاّ بهِ وطلب النعمة بحرارة يتكفل بحلولها وبالحصول على رحمة الله التي لا تفوت احدًا فهل يظن ان خطاياهُ تفوت حدود رحمة الله . لا . على انهُ قد يحجب الله رحمتهُ عنا ان توغلنا بالخطايا والاثام وبالتعدي على وصاياهُ ويسد اذنيهِ عن استماع طلباتنا . ولكن زمان طلب الرحمة لن يفوت ونحن المبشرين برحمة الفادي قد امرنا ان نبشر بها في كل حال جميع الذين يتوبون توبة حقيقية

فترجمت هذه الكلمات فكان يصغي كل الاصغاء ولكنهُ قطع الحديث بقولهِ انني ذاهب لاحدث زوجتي فخرج . ثم اخذنا نكلم الباقين عن امور كهذه . فظهر لنا انهم على جانب عظيم من الجهل والغباوة من جهة الامور الدينية . فكانت حالتهم كحالتي عند ما فارقت والدي تائهًا في هذا العالم المخيف . على انهم كانوا يصغون لما قلناهُ بسرور ووعدوا جميعًا انهم يكلمون نساءهم بهذه الامور

ويفرغون الجهد في امر اقناعهم بصحة الديانة

فلما اخبرت الخوري بما قالوا تبسم وهز رأسهُ وقال نحن خدام المسيح نعلّم ونحرك في الغير الحاسيات الدينية ولا نقدر ان نفعل اكثر من ذلك . فان اذعنوا لاقوالنا وشعروا بخطاياهم وبصحة ما قلناهُ لم نركن اليهم ونثق بهم . ثم قال يا سيدي الحق اقول لك انني اظن ان الرجل الذي تدعوهُ ول انكتز قد رجع عن خطاياهُ التي كانت كالجبال واظن انهُ يكون اشدهم انتباهًا الى الفروض الدينية ولست في يأس من جهة نجاة الآخرين ولكنني ارى انهُ قد ندم جدًا وتاب عن خطاياهُ وشروره . وبالتكلم مع امرأتهِ بالديانة وتعليمها يثبت فيها ويمكنها في قلبهِ لان من يعلّم شيئًا لابد ان تزداد معرفتهُ فيهِ . انني اعرف رجلًا امتاز بالتقوى والصلاح وكان قد ارتكب المعاصي والشرور . فاصلح نفسهُ وسيرتهُ باجتهادهِ في تنصير يهودي فان اخذ ونكتز في تبشير زوجتهِ احتم انهُ يبشر نفسهُ ويتوب راجعًا الى الله . وما ادراك ماذا ينجم عن ذلك

ثم قمنا بعقد زواج الرجلين والمرأتين لانهما وعدا ان يفرغا الجهد في اقناع امرأتيهما ان تتنصرا . اما ول وزوجتهُ فكانا لا يزالان غائبين فبعد برهة يسيرة قال لي الخوري احب ان اعرف الى اين ذهب انكتز . فاتوسل اليك ان تسمح لي بالخروج من هنا لنرى ماذا يكون منهُ على انني اظن اننا نجدهُ مختليًا مع امرأتهِ يكلمها باجتهاد بالامور الدينية فاجبتهُ نعم وخرجنا وذهبت بهِ في طريق لم يعرفها احد غيري بين الاشجار الشامخة الغضة التي تحجب النظر عما حولها وعما فيها لان سالكها لا ينظر الآ ما هو امامهُ . فلما وصلنا الى طرف الغابة نظرت امامي واذا ول جالس وامرأتهُ في ظل لطيف يتحدثان باجتهاد لا مزيد عليهِ فوقفت في مكاني حتى ادركني الخوري الذي كان متأخرًا . فاشرت اليهما ووقفنا نتفرس فيهما مدة طويلة فرأيناهُ مجتهدًا جدًا يشير احيانًا الى الشمس والجلد ثم الى الارض والبحر ثم الى نفسهِ واليها والى الغابات والاشجار . فلما رأى ذلك الخوري قال لقد صدق ظني فانهُ يبشرها ويقول لها ان الله قد خلقهُ

وخلقها وخلق كل شيء . فاجبته نعم واذا ول قد وثب من مكانهِ وجثا على ركبتيهِ ورفع يديهِ ولم نسمع كلامهُ لبعد المسافة فبقي على تلك الحال نحو نصف دقيقة ثم نهض وجلس بالقرب منها واخذ يكلمها وكانت تصغي جدًّا غير اننا لم نعلم هل كانت تجيبهُ ام لا . وكان ول جاثيًا على ركبتيهِ وادمع الخوري تهطل على وجنتيهِ فكدت ابكي مثلهُ وتأسفنا جدًّا لاننا لم نكن بالقرب لنسمع حديثهما وكان احيانًا يقبلها وهو يحدثها بمحبة شديدة وكرَّر ذلك ثلاث مرات ثم اخذ منديلاً ومسح بهِ عينيها ثم قبلها ونهض من مكانهِ واخذ يدها واوقفها وتقدما قليلاً ثم جثيا على ركبتيهما نحو دقيقتين

فلما رأى ذلك منها الخوري لم يقدر ان يضبط نفسهُ بل صرخ قائلاً يا قديس بولس يا قديس بولس هوذا هو يصلي . فتوسلت اليهِ ان يضبط نفسهُ ويصمت برهة لئلا يريانا فيتأخرا عن الصلاة فنخسر هذا المنظر الذي سررت بهِ جدًّا فضبط نفسهُ برهة ولكنهُ لم يقدر ان يضبط عواطفهُ فبكي بكاءً شديدًا لان تنصُّر امرأة وثنية ارعب قلبهُ حبورًا . ثم رفع يديهِ نحو السماءِ واخذ يقول كلامًا لم افهمهُ شكرًا لله الذي جعل النجاح يصحب اعمالنا المتعلقة باولئك القوم فكان يتكلم تارة بصوت منخفض وطورًا بصوت غير مسموع تارةً باللغة اللاتينية واخرى باللغة الفرنسوية على ان البكاءَ كان يتغلب عليهِ احيانًا فيمنعهُ عن الكلام فتوسلت اليهِ ثانية ان يضبط نفسهُ لنرى ماذا يكون منها فصمت برهة . اما زوجة ول انكنتر فكانت لم تزل تصغي لما كان يقولهُ وفهمنا من بعض اشاراتها انهُ كان لكلامهِ تأثير عظيم فيها . فبعد نحو سبع دقائق ذهبا فقلت للخوري ان ما رأيناهُ قد سرني جدًّا مع انني قليل الركون الى تغييرات سريعة كهذه واظن ان ول وامرأتهُ قد تغيرا من جهة الامور الدينية تغيرًا كاملاً وان كانا يجهلانها . ونسأل الله ان يجعل ذلك لخير من في الجزيرة . قال بل لخيرهم اجمع فاذا اعتنقا الديانة المسيحية لا يفترقان الاَّ بعد ان يهديا الجميع الى السبيل المستقيم المؤدي الى الحياة الابدية . لان من كان ذا ديانة حقيقية وايمان صحيح لا يفتر عن التبشير

حتى يرد كل ضال الى الله لان الديانة الثابتة لاتخمد نارها في صاحبها بل تنتشر منهُ الى كل ما حوله . فقلت ان ذلك من اعظم المبادىء المسيحية وهي تصدر منك عن غيرة شديدة وقلب طاهر . ولكن يا صاح اصغَ لهذا الاعتراض وهو ان مذهبك الكاثوليكي لا يسلّم بخلاص من لا يعتنقهُ والذين هم مثلنا يحسبون عندكم من الضالين تحكمهم حكم الوثنيين فكيف تسران تراهم قد اعتنقوا مذهبنا

فقال يا سيدي انني كاثوليكي وكاهن من كهنة القديس باندكت واؤمن بكل ما تؤمن به الكنيسة الكاثوليكية ولكنني اقول دون تحمل وتملق عندي بانكم انتم الذين تحسبون انكم اصلحتم مبادئكم الدينية لستم بعيدين عن الحق . ولا اقول انكم تهلكون اجمع لان رحمة الفادي عظيمة قادرة على تخليصكم بطريق لا نعلمها . هذا واني اصلي يوماً فيوماً متوسلاً الى الله ان يردكم الى حظيرة الراعي الحقيقي بالطريقة التي تخصصها حكمته غير المتناهية ولاريب ان الفرق عظيم بين بروتستانتي ووثني . لان البروتستانتي يعتقد بالمسيح وان كان اعتقادهُ بحسب مذهبي ليس هو الاعتقاد التام . واما الوثني فلا يعرف الله ولا المسيح الفادي وانتم لستم من اهل هذا المذهب المستقيم ولكنكم اقرب الى الوصول اليهِ من الذين لا يعرفون شيئاً من الديانة المسيحية . فاسر عند ما ارى ان الرجل الذي اخبرتني انهُ عاش في حالة الكفر وكاد يقتل رفيقة يجثو على ركبتيهِ ويصلي الى المسيح . واني اؤمن ان الله مصدر جميع هذه الامور فيردهُ الى المذهب الحقيقي متى شاء وان مكة تعالى من رد امرأتهِ عن ضلالها لاريب انهُ يخلص من الهلاك . فهذا يجعلني افرح عند ما ارى البعض يؤمنون بالمسيح وان كان ذلك ليس بحسب المذهب الكاثوليكي والفادي هو الذي يقربهم منهُ . فافرح ان رأيت كل الوثنيين يصلون الى الله مثل تلك المرأة وان كانت صلاتهم بحسب المذهب البروتستانتي ومن الموكد ان الذي فداهم يسكب عليهم من روحهِ ويأتي بهم متى شاء الى حظيرتهِ الخاصة

لاخير في الدنيا بغير ديانة فاعلم وثق بالله فهو الاعظمُ

الفصل التاسع والثلاثون

حديث ول اتكنز وامرأته

فاعجبني غيرة ذلك الكاهن الكاثوليكي وهمة ورافته . وابكمتني فصاحة عباراته وقوة براهينه وصحة افكاره حتى لاح لي انه لو كانت افكار الجميع كافكاره لكنا جميعاً مسيحيين حقيقيين مع قطع النظر عن الكنيسة التي تخرط في سلك اعضائها . وهكذا نصبح جميعنا سالكين السبل المستقيمة حاصلين على ما يقوّي علاقات الاتحاد . وقد اقتصرنا على هذا القدر من الكلام لاننا كنا نجتنب الجدال لعدم خلوه من الضرر فعوضاً عن ان يقترب الانسان من اراء مجادله يبعدهُ عنها و يثبته في ارائه منتصراً لها قاطعاً النظر عن صحتها وعدمها . وبعد ذلك امسكت يدهُ وقلت له يا حبذا لو كان جميع الكهنة مثلك من جهة حرية الافكار والبعد عن التعصب للاراء الخصوصية . وانني اسلم حق التسليم بما ابديته على انني متيقن انه لو فهت بتلك العبارات في ايطاليا او اسبانيا لتكدر بعض رؤسائك منك . ولا ريب ان الابتعاد عن التعصب ليس بكفر

ثم رجعنا الى البيت لان ول اتكنز وامرأته كانا قد ذهبا اليه . ولما وصلنا الى المنزل وجدناهما منتظرين من يدعوهما الى الدخول . فسألت الخوري هل يوافقنا ان نخبرهما اننا قد رأيناهما وهما يتحدثان عند اللفيف . قال لا فالاوفق ان نحدثه قبلاً لنسمع ماذا يقول . فادخلناهُ ولم يكن احد غيرنا هناك . ثم سألته قائلاً

يا ول اتكنز ماذا تعلمت في حداثتك وماذا كانت مهنة ابيك

ول . يا سيدي كان قسيساً . انني لا اقدر ان ادرك درجة صلاحهِ

روبنصن . ماذا علمك

ول . اجتهد كثيرًا في امر تعليمي ولكنني احتقرت العلم والآداب والفضائل فكنت كالبهائم

روبنصن . حقًا قال سليمان الحكيم من احتقر الاصلاح اشبه بالحيوان

ول . نعم يا مولاي اني حقًا اشبهت الحيوان لاني قتلت والدي . اتوسل اليك يا سيدي ان لاتكلمني بهذا الامر . نعم اني قتلت لشقاوتي وتعاستي ابي المسكين الحنون

الخوري . تبًا لك يا قاتل

وكنت اترجم كلماتهِ حرفًا بحرف فعند ما سمع هذه العبارت اضطرب وعلا وجهه الاصفرار . فالظاهر انهُ ظن ان ول كان قد قتل اباهُ فعلاً . فقلت له انك لم تفهم قصدهُ فقلت لانكتر. قل هل قتلت اباك فعلاً بيديك

ول . لا يا سيدي اني لم اذبحهُ . ولكنني سلبت راحتهُ وسعادتهُ وقصرت ايام حياتهِ وكسرت قلبهُ باعمالي الشريرة وافعالي القبيحة فانني كافأت حنوهُ ورأفتهُ بالقساوة والشر

روبنصن . انهُ لم يكن قصدي ان تقر بجميع هذه الاشياء واني اسأل الله المغفرة لك على ذلك وعلى جميع خطاياك . على انني سألتك عند ما رأيت ان معرفتك في الامور الدينية ليست قليلة وان تكن غير تامة والظاهر انك عرفت من الدين اكثر مما تدل عليهِ افعالك

ول . ان لم تسألني الاقرار فضميري يحملني على ذلك رغمًا عني لانهُ عند الحامل نقف لننظر في خطايانا الماضية فيبكتنا ضميرنا على ما فعلناهُ من الشر المضادة والدينا اشد تبكيت

روبنصن . يا ول ان كلامك يؤثر فيّ جدًا فلا اقتدار لي على استماعهِ

ول . يا مولاي اظن انك لا تعرف خطايا كهذه . فلا اظن ان ذكرها يكدرك

روبنصن . بلى بلى يا أكتر . ان كل وادٍ وجبل بل كل شجرة في هذه الجزيرة تشهد بخطاياي ومخالفتي ابًا حنونًا ورؤوفًا تشبه صفاته صفات ابيك . فها انني قد قتلت ابي كما قتلت انت اباك اما توبتي فلا تعادل توبتك

ثم اقتصرت عن الحديث لانني لم اقدر ان اضبط نفسي واخذت افتكر ان توبة ذلك الرجل هي افضل من توبتي فكدت اقرّ خارجًا من ذلك المكان لان ما قاله ادهشني جدًا ورأيت انه عوضًا عن ان اكون واعظًا له صار واعظًا لي

فاخبرت الخوري بجميع هذه الامور . فتأثر جدًا وقال اما قلت لك يا سيدي ان هذا الرجل يعظنا اجمع بعد ان يتوب عن خطاياهُ . الحق اقول لك ان تاب هذا الرجل التوبة الحقيقية يستغنى به عني وبنصّر جميع اهالي الجزيرة فبعد ذلك رجعت الى نفسي واخذت في الحديث فقلت يا ول ماذا حرّك فيك هذه الاحساسات الحرة الآن

ول . ان الامر المهم الذي سلمتني اياهُ قد رماني بسهم اصاب قلبي . لانني بينما كنت اخبر امرأتي بوجود الله والديانة لكي انصرها وعظتني وعظة لا انساها حياتي بطولها

روبنصن . لا لا ليس امرأتك بواعظة لك بل ضميرك لان ما قلته لها من هذا القبيل كان صالحًا لك ويعود منها اليك

ول . نعم كان يرجع اليّ بقوة لا طاقة لي على مصادمتها

روبنصن . يا ول ارجوك ان تخبرني شيئًا مما حدث بهِ امرأتك

ول . يا مولاي لا اقدر ان اخبرك بتفصيل ما تكلمنا به لان لساني عاجز ولا اقتدار لي على ضبط نفسي فما لنا ولذلك على انني اقول انني قد عزمت على اصلاح حياتي والرجوع عن الشرور والخطايا

روبنصن . اخبرنا ببعض كلامك وكيف فتحت الحديث لان ذلك من خوارق العادة وتأثيراتها تظهر انها حقيقية وقد ارشدتك ارشادًا تامًا

ول . فتحت الكلام باظهار فروض الزيجة عندنا التي لا يقدر احد من

المتزوجين ان يتعداها وانه لولا ذلك لكان كثيرون يتركون نساءهم ويقترنون بغيرهنّ . وهكذا يفسد النسل والنظام واصول الارث الى غير ذلك ما يستغنى عن ذكره

روبنصن . انك تكلمت معها كفاض . فهل فهمت معنى النظام والارث

اظن ان ذلك اشكل عليها فهمه لانه قد بلغني انه ما من اصول وروابط كهذه عند البرابرة ولكنهم يتزوجون بمن شاءوا دون التفات الى قرب النسب والنظام العائلي فيتزوج الاخ اخته حتى الاب ابنته والابن والدته فانهم كالحيوانات

ول . يا مولاي اظن ان ذلك ليس من عاداتهم لان امرأتي اكدت لي انهم لا يخالطون من كان قريباً منهم ويكرهون ذلك جدًّا على انهم لا يحافظون على اصول كاصولنا من جهة التزوج بمن ليس قريباً منهم

روبنصن . ماذا قالت هل فضلت عاداتنا على عادات قومها

ول . قالت انها تحب فروضنا جدًّا

روبنصن . هل اخبرتها بفاد الزيجة القانونية ومعناها

ول . نعم نعم هذا الذي جعل حديثنا طويلاً . لانني عند ما سألتها هل تتزوجنّ حسب فروضنا قالت ما هي فروضكم . قلت ان الله قد عين الزيجة . فلما سمعت ذلك اخذت بالتكلم بما يدهش العقول

ان ما يأتي هو المحاورة التي حدثت بين ول وامرأته وقد نسختها عن قرطاس دونتها فيه عند ما فرغ اكثر من قصتها وهي كما يأتي

المرأة . كيف هذا الله عين الزيجة واعجبا هل اله في بلادكم

ول . يا ميتي نعم ان الله في كل مكان

المرأة . لا الحكم في بلادي . بلادي الهها بانا بوكي الله القديمة العظيمة

ول . يا عزيزتي ان لساني يقصر عن وصف الاله لانني شقي . ان الله هو في السماء وقد خلقها وخلق الارض والبحار وكل ما فيها

المرأة . لم تأمل الارض . لا الحكم تامل كها الارض . لم تأمل بلادتي

فتبسم ول لما قالت ان الله سبحانه وتعالى لم يخلق بلادها

المرأة . لا تضحك . ليش تضحكيني . هذا لا يضحك (اي لا تضحك)

لاريب انه استحق هذا التوبيخ . لانها في اول الامر ذكرت الخالق باعتبار يزيد عن اعتباره عند ما ذكره

ول يا مهجتي لا اضحك . فاني قد اخطأت بالاستهزاء بامر مهم كهذا

المرأة . كيف هذا . قلت ان اله انتم خلقت الكل

ول . نعم ان الهنا قد خلق العالم باسره وخلقك وخلقني وسائر الاشياء وهو الاله الحقيقي واحد احد لا سواه سرمدي لا ابتداء له ولا انتهاء سبحانه وتعالى

المرأة . ليش ما قلت لي هيدا من زمان كبير

ول . لانني كنت رجلاً شريرًا اثيمًا فاهملت اخبارك به وعشت كمن لا اله له

المرأة . كيف اله عظيمة في بلاد انت ولا تأرضا . ما كنت تقول لها وا (اي تصلي له) وما تأمل شي طيب منشانه انا لا اصدق

ول . حقًا قلتِ . ومع ذلك جميعهِ كنت عائشًا كمن لا اله له في السماء وكمن له اله لا سلطة له على الارض

المرأة . ليش الله بتكليك تاملي هيك . ليش ما بتأملك تعيش طيب

ول . ان الذنب ذنبي

المرأة . كيف لكان بتقولي لي هو كبير كبير كتير قوي كتير . لما بتريد بتموت ليش هو ما بتاملكي تموتي لما لا تفكر فيها منه ولا تقولي وا لها وبتكون رجالات طيبين كتير

ول . لاريب في ذلك ولا يبعد انه يهتني يومًا ما ومن الواجب عليَّ ان انتظر عقابًا لانني قد تعديت شرائعهُ وخالفت وصاياهُ . على انه رحوم شفوق لا يشاء موت الخاطىء ولكنه يرغب في ان يتوب عن خطاياهُ ويرجع اليهِ . فهو لا يعاملنا كاستحقاقنا

المرأة . وانت ما بتقولي لله كتير خيرك منشان هيدا كله

ول . واحسرتاهُ اني لم اشكرهُ قط على رحمتهِ ورأفتهِ ولا كنت اخشى سطوتهُ وعدالتهُ

المرأة . لكان اللهكم مش الله انا ما بفتكر هو قوي بت وعظيم كثير حيث ما يقتلك وانت بتعلها هالقد جكران

ول . يا لتعاستي وشقاء حالتي هل تعرض اثامي وخطاياي دونك ودون الايمان وتوخرك عن اعتناق الديانة الحقيقية وا اسفاهُ لا ريب ان اعمال المسيحيين الشريرة تعيق الوثنيين عن الدخول في حظيرة الله الحقيقية

المرأة . كيف انا بفتكر في الحكم المتي جدًّا اغلبية فوق هونيك (تشير الى السماء) وانتم تأملون لا شي طيب لا أمل شي هل بأرف . هقًا لا يُولم ماذا انتم يتاملون

ول . بلى بلى انهُ يعرف كل شيءٍ وينظر جميع اعمالنا ويسمع كلامنا ويفحص افكارنا وضمائرنا

المرأة . كيف هو لا يسماك تسبي وتهلني وتتولي لاناث الكبير

ول . بلى بلى انهُ يسمع ذلك

المرأة . اين اذًا قوته كبيرة كثير

ول . هو رحوم ورؤوف جدًّا ما يثبت لنا انهُ الاله القدير العظيم وانهُ اله يرحم عبيدهُ ويحبهم ولذلك لا يعاملنا حسب اعمالنا

فقال لنا ول انهُ احتار في امرهِ وارتبك جدًّا وحزن حزنًا لا مزيد عليهِ لانهُ التزم ان يقول لامرأتهِ ان الله يرى ويعرف كل ما تقولهُ وتنويهِ حال كونهِ تجاسر ان يرتكب الشرور والآثام

المرأة . رحوم ماذا تأتي يهنا

ول . هو الهنا السماوي وخالقنا فيشفق علينا ويعفو عن زلاتنا

المرأة . اذا هو لا يقتل ابدًا ولا يصير جكران لما انت بتامل مشطيب اذًا هو مش طيب يا ما قوي كثير

ول . بلى بلى يا مهجتي انهُ لحناو في الجودة والاقتدار واحياناً اظهاراً لعدلهِ وشدة انتقامهِ من الخطاة يسكب كاس غضبهِ على الاشرار لموّدب بهم غيرهم فيمهلهم في خطاياهم قبل ان يجني ظهرهم طول الزمان

المرأة . لكنها لم يقتلك بعد . يمكن هي بقول لك ابها ما يقتلك وهيك انت ما هو فزان انك تامل اشيا مشطهب وهو ما يصير زالان منك يصير جكران من كيير ناسات

ول . لا لا ان خطاياي وطول اناتهِ يشهدان بشدة حلمهِ ورأفتهِ وجودتهِ ولو اماتني كغيري لكان عاملني بالعدل

المرأة طيب وما هيدا لا يقتلك شو تقوله مشان هيداك ما بقول له كتر خيرك كتير كتير

ول . اني اثيم نجس مملوءٌ من الخيانة والرجس

المرأة . ليش ما بتاملك كتير احسن انت بقول هو يعاملك هيك

ول . انهُ خلقني كما خلق غيري من البشر ولكنني نجست نفسي وتعديت وصاياهُ حتى صرت شقياً نجساً

المرأة . يا ريت انت بتامل الله بتارفني انا ما بامله جكران انا ما بامل شي مشطهب

فقال ول انهُ لما سمع هذه الكلمات منها كاد قلبهُ ينفطر حزناً لانهُ راى امامهُ مخلوقة جاهلة الامور الدينية تطلب الى رجل شقي اثيم جاهل الامور الدينية ان يعرفها بخالق السماوات والارض فارتبك جداً ولكنهُ كلمها لانهُ راى انهُ بكلامهِ واعمالهِ السابقة ابعدها عن معرفة الحق وكانت قد قالت لهُ انها لا تقدر ان تؤمن بالله سبحانهُ وتعالى لانهُ لم يهلك رجلاً شريراً نظيرهُ

ول . يا مهجتي قصدتِ ان تقولي انكِ ترغبين ان اعلمكِ كيف تقدرين ان تعرفي الله وليس ان اعرف الله بكِ لانهُ يعرفك وقد اطلع ولا يزال يطلع على كل افكارك وسرائر ضمائركِ

المرأة . اذًا هو بيارف شو أمال بتقول انالك هلق . و بيارف اني بتريد ان ارفه كيف بتارف انا من أملي

ول . يا مهجتي هو يعلمك وليس انا لانهُ لا اقتدار لي على ذلك . على انني اصلي لهُ ان يسكب عليك من نعمتهِ و يظهر لكِ نفسهُ وان يغفر لي لانني لا استحق ان اكون معلمًا لكِ في امور كهذه

فتأثر ول جدًا من كلامها عند ما طلبت منهُ ان يعرفها بالله . فجثا على ركبتيهِ امامها وصلى الى الله ان ينير عقلها بمعرفة يسوع المسيح وان يغفر لهُ خطاياه ويؤهلهُ لان يكون الواسطة لارجاع تلك الوثنية عن الضلال . فبعد ان انتهى من الصلاة جلس بجانبها واخذا يتحدثان ثانيةً

المرأة . ليش انت بتركا . وليش بتنهض ايديك . شو قلت . ما مين حكيت . ليش كل هل امل

ول . يا منيتي انني جثوت على ركبتي خضوعًا لمن خلقني وقلت لهُ وا . كما تقولون في بلادكم عند ما يجثو شيوخكم امام صنمهم باناموكي . اي صليت لهُ

المرأة . ليش بتقلها وا

ول . توسلت اليهِ ان يفتح عينيكِ و ينير عقلكِ لتعرفيهِ معرفة تؤهلكِ لان تكوني مقبولة عندهُ

المرأة . هو بتقدر تامل هيك

ول . نعم انهُ قادر على كل شيء

المرأة . أمرك تصلي . امتين أمرك . كيف امرك . شو انت بتسماها بتحكي

ول . نحن لا نسمعهُ يتكلم ولكنهُ قد اظهر لنا ارادتهُ بطرق مختلفة

فارتبك ول جدًا هنا ولم يعلم كيف يفهمها ان الله اظهر لنا ارادتهُ بكتابهِ ولكن بعد برهة قال لها

ول . ان الله منذ زمن طويل كلم بعض الصالحين من السماء مظهرًا لهم ارادتهُ ووصاياهُ وغيرهم قد سكب عليهم من روحهِ والهمهم ان يكتبوا نواميسهُ

فكتبوها جميعها في كتاب

المرأة . انا ما بتفهم شو . وين كتابه

ول . وا اسفاهُ ان ذلك الكتاب ليس عندي . على ان المأمول الحصول عليهِ يوماً ما فاعطيكِ اياهُ واعلمكِ قرأتهُ

فبعد هذا قبلها والحزن قد ملأَ فؤادهُ لانهُ لم يكن لهُ توراة

المرأة . كيف بتاملي اصدق ان الله بتالمم يكتبوا هيداك الكتاب

ول . مثلما علمتكِ اننا نعرف الاله الحقيقي

المرأة . كيف . كيف بتار في انهُ الاله الحقيقي

ول . لانهُ لم يعلمنا غير ما يحملنا على فعل الصالحات وتجنب الطالحات ويوول الى راحتنا وسعادتنا وان نبتعد عن الشر وما ينجم عنهُ

المرأة . انا بتريد افهم هيدا كله . هو بتالم كل شي مليه . ويكلك كل شي طيب . وبتاطي كل شي . وبتسامحي لما بقله وا . متل ما انت بتامل هلق . وبتاملني طيب ان بريد تكون طيب . في ما بتقتلني ان ما املت مليه . انت بتقولي في يامل هيدا كله . وما هيدا هو الله كبير . انا بتريد بتامن هو الله كبير وبقوله وا ماك يا ازيزتي

فلما سمع هذه الكلمات منها لم يقدر ان يضبط نفسهُ بل وثب من مكانهِ واقامها معهُ واركعها بجانبهِ وصلى الى الله بصوت ان يسكب عليها من روحهِ لتدرك سمو صفاتهِ واقتدارهِ وان يرسل اليهِ بعنايتهِ توراة لتعلم منها وصاياهُ وعلو مجدهِ ورحمتهِ . وقد سبق ذكر هذا لانهُ جرى عند ما كنت مع الخوري نراقبهما

وجرى بينهما محاورات كثيرة في هذا المعنى بعد ذلك لا محل لذكرها بالتفصيل هنا . فجملتهُ بعدها انهُ يرجع عن طريقهِ الردية ويسلك سبيل الله المؤدي الى الحياة الابدية ويجتنب فعل ما يغضبهُ لئلا يهلك فتبقى في وحدها دون احد يعلمها صفات ذلك الاله القدير

فتأثرنا جدًّا من هذه المحاورة خاصة الخوري فانه تحير جدًّا واندهش وحزن حزنًا لا مزيد عليه لانه لم يقدر ان يكلمها باللغة الانكليزية بحيث تفهم كلامه ولا ان يفهم كلامها لانها لم تتكلم جيدًا بل غيرت اساليب الجمل وصيغ الكلمات وافسدت اللفظ . فالتفت اليّ وقال ان مجرد تزويج هذه المرأة حسب الاصول غير كافٍ . فلم افهم المقصود من هذه العبارة فطلبت الايضاح فقال يجب علينا ان نعمدها فاجبت طلبهُ وقلت له هيا بنا نفعل ذلك . فقال لا بل يلزم قبل ذلك ان نرى هل تكون ول من جعلها تعتقد بوجود الاله العادل وصحة ديانته فترضى بالاختيار التام ان تعتنق مذهبهُ وتسلك بحسب ناموسه ووصاياهُ وتؤمن بقدرته ورحمته وكلمته وعدالته وبالفادي وخلاص الخطاة ونوال الثواب به وبالروح القدس والقيامة والحشر والحياة بعد الموت

فناديت ول وسألته عن ذلك جميعه . فاجاب والدموع تتساقط من عينيه قد اخبرتها بجميع هذه الحقائق . غير ان فرائصي كانت ترتعد خوفًا وقلبي كاد ينفطر حزنًا عند ما رأيت ان آثامي وخطاياي ومعاصيّ التي اطلعت عليها جميعها امرأتي تضعف ايمانها بكل تلك الامور وتجعلها تستخف بالديانة الحقيقية وتكرهها على انهُ لاريب انها في غاية الاستعداد لان تؤمن بها اجمع وان تكلمت معها بهذا الشأن ترى صدق مقالي وحسن عقلها وادراكها وان الكلام لا يذهب سدًى بل يؤثر فيها تأثيرًا حسنًا جدًّا

فبناء على ذلك ادخلتها واخذت اترجم بينها وبين الخوري وهو يكرر عليها بشارة الخلاص بطريقة حسنة جدًّا . فقلت له ان غيرتك وتقواك ادهشتاني . فاقنعها بقوة براهينه وصحة اقواله فاعتنقت الديانة المسيحية بالفرح والايمان وليس بالخوف والتعجب كما في اول استماعها عن الله والديانة الى غير ذلك وادركت جيدًا حقائق الديانة واسرارها حتى انها طلبت اليه من تلقاء نفسها ان تعتمد فعمدها .

فما كان الخوري يهيئ نفسهُ لان يعمدها توسلت اليه ان يفعل ذلك ان

امكنة بحيث لا يظهر لزوجها انه من مذهب غير مذهبنا لئلا ينجم عن اختلافنا في المذهب ضرر لاولئك الذين كنا نعلمهم الحقائق الدينية . فقال ليس عندنا كنيسة مدشنة ولا الاشياء اللازمة لتتميم الفروض الكنائسية فافعل ذلك بحيث لا يعلم اني كاثوليكي حتى انت لو لم تكن عالمًا بهِ . وهكذا لانهُ فاه ببعض كلمات لاتينية بصوت منخفض فلم افهمها وسكب ماءً على راسها وقال يا مريم (وهو الاسم الذي طلب زوجها ان اسميها بهِ لانني كنت عرابها) اعمدك باسم الآب والابن والروح القدس . فبعد ذلك باركها باللغة الفرنسوية . اما ول فلم يعلم انهُ كاثوليكي لانهُ لم يفهم كلماتهِ . وبعد ذلك عقدنا عقد الزواج ثم قال الخوري لول ان لا يرجع الى ما كان عليهِ من الشر والاثم بل يسلك السبيل المرضي للخالق عز وجل وابان لهُ كيف ان الله قد اختارهُ لان يكون واسطة لرد امراتهِ عن ضلالها المبين . فعليهِ بالمحافظة على وصاياهُ فان لم يفعل ذلك تصبح امراتهُ اتقى منهُ وافضل في كل الامور وهكذا نرى ان الواسطة المسيحية تطرح الى الخارج اما الوثنية فتبلغ المراد وقال اشياء كثيرة مما يؤول الى اصلاح حالتها واعمالها ثم باركها ثانيةً وانصرفا وكنت اترجم لهما كل ما قالهُ وكان ذلك اليوم اسعد كل ايام حياتي

اما الخوري فلم يسكن بلبالهُ ولم يرق لهُ بال لانهُ كان دائم التفكر في رد اولئك السبعة والثلاثين رجلاً وكان يحب ان يبقى في الجزيرة ليتم ذلك المقصد الجليل . ولكنني اقنعتهُ بان لا يبقى لانهُ لا سبيل الى ذلك بواسطتهِ وعدتُ اياهُ ان اقوم بما يتكفل بذلك ونحن غائبون عن الجزيرة . وسيأتي ذكر هذه الامور ان شاء الله

فبعد ان فرغت من ترتيب مهام المملكة واحكام اصولها وحكومتها وداخليتها وخارجيتها اخذت في الاستعداد لركوب المركب . واذا الفتى الذي كنت قد اخرجتهُ من المركب الذي امات والدتهُ فيهِ الجوعُ قادم اليَّ فعند وصولهِ وتسليمهِ عليَّ قال لي بلغني وجود كاهن معك في الجزيرة وانك قد زوّجت

الرجال الانكليز بالنساء البربريات فارغب ان اعقد عقد زواج اثنين مسيحيين قبل ذهابك بالسلامة والمأمول ان ذلك يحوز رضاك

فعرفت ان المقصود هو الجارية التي كانت معهُ في المركب المذكور فاخذت اقول لهُ انهُ لا يلزم ان يفعل ما كان لا يفعلهُ لو كان في بلادهِ لانهُ ربما ارجعتهُ المقادير الى وطنهِ وثروتهِ واصحابهِ وربما رجعت معهُ الخادمة. فالتزوج بها لا يوافق حالتهُ مطلقًا لانهُ فضلاً عن انها فقيرة هي اكبر منهُ سنًّا فانها قد بلغت سن السبعة والعشرين . واما هو فلم يتجاوز الثاني عشرة سنة . وقلت لهُ انني سأمد يد المساعدة لارجاعهِ الى بلادهِ فمتى وصل اليها يندم جدًّا على ما فعل وربما افضى ذلك الى شقائهِ. فاجاب وهو يبسم وقد اوقفني عن الحديث يا سيدي انك لم تصب في ظنك لانهُ ليس لي ميل الى ذلك وانني اشكرك على قصدك ان ترجعنا الى وطننا فان الذي اخرني عن الذهاب معك الى الجزائر الهندية هو مخاطر السفر ومشقاتهِ والبعد الذي يفصلني عن بلادي واهلي وقومي فاطلب اليك ان تفرز لي قطعة ارض حيث اسكن الآن وان تعطيني خادمًا او خادمين وبعض اشياء مما يحتاج اليها الانسان لقيام الحياة وهذا كافٍ . اما انا فابقى هنا منتظرًا حلول ذلك الوقت السعيد الذي بهِ تخرجنا من هنا بعد وصولك الى انكلترا الذي ان شاء الله يكون مقرونًا بالسلامة والتوفيق واني اعطيك رسالات لاصحابي هناك مخبرًا اياهم بها عن شدة حنوك ومعروفك وعن احوالي واعمالي ومقري . وان قدر الله ورجعت الى وطني سأترك لك ملكًا الارض التي وهبتني اياها الآن مع جميع الاصلاحات والزيادات

فسرني كلامهُ وحسن اسلوبهِ ورقة جانبهِ خاصةً لانهُ كان صغير السن واكد لي انهُ لم يقصد ان يتزوج الجارية . فاجبتهُ قائلاً ان وصلت بالسلامة الى انكلترا اسلم رسالاتك الى اصحابها واتم اشغالك على احسن منوال . وانني اؤكد لك انني لا انساك مطلقًا بل افعل ما من شأنهِ ان يتكفل بترجيعك الى وطنك. فرغ اصطباري ورغبت في معرفة الذي يريد ان يتزوج الجارية فسألتهُ

فقال هو معلم جميع الصنائع فادهشني وسرني جدًا هذا الخبر لانني علمت انهُ موافق جدًا خاصةً لان الجارية كانت ذات امانة ووداعة ورزانة وصلاح وكانت على جانب عظيم من الرقة والعقل والفصاحة والحشمة واللطف لا تداخل فيما لا يعنيها ولا تتأخر عن اجراء ما يطلب اجراؤُهُ منها وتحسن ادارة البيت حتى انها استحقت ان ترقى الى درجة عليا بحيث تصير حاكمة الجزيرة . اما الرجل فقد سبق الكلام عن اوصافهِ

ففي ذلك اليوم عقدنا عقد زواجها اما انا فنبت عن والدها وهنأتهُ واعطيتها اشياء كصداقها عن زوجها وافرزت لها قطعة ارض واسعة فحملني ذلك مع طلب الفتى قطعة ارض على قسم الاراضي بين اهالي الجزيرة لمجانبة وقوع النزاع بينهم

ففوضت امر تقسيم الاراضي الى ول اتكنز الذي كان قد هجر المعاصي والشر وتسربل بالرزانة والتقوى. فاحسن التقسيم جدًا واحكم التقارير ولم يفضل احدًا على رفيقهِ بل عامل الجميع بالعدالة والحق فسرُّوا بذلك وشكروهُ جدًا . ثم طلبوا اليَّ حجة عمومية في تلك الاقسام فكتبتها لهم محددًا ما هو لكل منهم من اربع جهاتهِ وذكرت فيها انني قد وهبت كلاًّ منهم قسمهُ هبة شرعية قاطعة ماضية وملكتهم اياها ملكًا شرعيًّا. اما بقية الاراضي فحفظتها ملكًا لي وفرضت اجورًا على كل قسم يُعطى لي او لمن يأتي الجزيرة من ورثائي او وكلائي وابرزت صورة مثبتة من تلك الحجة لبعد مرور احدى عشرة سنة

اما حكومتهم وقوانينهم فلم اغيرها بل قلت لهم انهُ لا اقتدار لي على فرض قوانين اوفق من التي يقدرون ان يفرضوها على انفسهم ولا اعدل منها على انني جعلت كلاًّ منهم يعد بالسلوك الحسن وحب قريبهِ كنفسهِ

فبعد ان فرغت من جميع هذه الامور والتحسينات المفيدة قلت في نفسي ان لمن المضر والمخالف لاصول الهيئة الاجتماعية والانسانية ان اترك سبعة وثلاثين بربريًّا يعيشون في قطعة الارض وحدهم بالاستقلال التام والتكاسل وعدم

الاشتراك مع باقي اهل الجزيرة في الاعمال والاشغال . فقلت للوالي اطلب اليك ان تذهب اليهم مع ابي جمعة ونعرض عليهم الانتقال من ذاك المضيق الى مكان آخر من الجزيرة يحرثونهُ ويعيشون من محصولاتهِ او ان تأتوا بهم الى هنا وتعتقدوا بعضهم في كل عائلة من عيالكم ليس كعبيد بل كاحرار . لانني رفضت التسليم باستعبادهم لانهم كما لا يخفى عند ما عقدوا الصلح تعاهدوا مع اهالي الجزيرة الاصليين بان لا يتداخلوا في اشغالهم بل يتركوهم يعيشون وحدهم واعتبرت هذا التعاهد صحيحًا ومن تعداهُ يتعدى اصول الصلح بعد الحرب والتسليم

فذهبا اليهم واخبراهم بذلك فسروا جدًّا وأتوا معهم فافرزنا لاربعة منهم ارضًا ليحرثوها ويعيشوا منها اما الباقون ففضلوا الدخول في خدمتهم فكان تقسيم مملكتي هكذا . الاسبانيوليون سكنوا مسكني القديم وكان يدعى قصبة المملكة وحرثوا كل الاراضي المجاورة حتى الساقية التي قد تقدم ذكرها تكرارًا . اما الانكليز فسكنوا في الجهة الشمالية الشرقية حيث كان ول اتكنز ورفقاؤهُ قد بنوا منازلهم وحرثوا الاراضي في الجهة الجنوبية الغربية وكان لهم ارض واسعة ليحرثوها عند الاقتضاء لمجانبة التنازع على الحدود . اما الجهة الشرقية فكانت خالية لا يقطنها احد فاذا اتى البرابرة ليولموا كعادتهم لا يعلمون بوجود سكان في الجزيرة . وبلغني انهم اتوها جملة مرات وذهبوا عنها دون ان تقع حرب بينهم وبين اهاليها

وبعد ذلك تذكرت ما قلت للخوري وهو انهُ يمكننا ان نجد واسطة تتكفل برد البرابرة عن ضلالهم دون ان يبقى في الجزيرة فقلت لهُ ان البرابرة قد اقتربوا من المسيحيين وخالطوهم فعلى كل منهم ان يجتهد في ارجاعهم عن الضلال ويلوح لي ان ذلك لا بد من ان يتكلل بالنجاح

قال نعم ان اجتهد كل من المسيحيين في ذلك ينبغي ان نجعلهم يجتهدون بالاجتهاد . فاجبتهُ يلزم ان نجمعهم ونفوض ذلك اليهم او يذهب كل منا الى بعضهم ويطلب الى كل منهم على انفراد القيام بحق هذا الامر المهم . فوقع منهُ هذا

الراي الاخير موقع القبول والاستحسان . فذهب هو ليعلم بذلك الاسبانيوليين لانهم كانوا من ابناء مذهبهِ . واما الانكليز فذهبت انا اليهم لانهم من مذهبي فالح كل منا على فريقهِ بالاعتناء في ذلك فوعدانا وعدًا شافيًا وبانها لا يتعرض كل منها في ارشاداتهم لذكر الفرق الكائن بين البابويين والبروتستانت في الامور المذهبية بل يعلمونهم تعليمًا عموميًا معرفة الاله الحقيقي والفادي . ولما اتيت منزل ول الغريب الذي سبق ذكر بنائهِ وجدت الجارية المذكورة جالسة مع امرأة انكتز وقد وقع حب كل منها في قلب الاخرى واكملت ما ابتدأ بهِ ول بارشادها وتعليمها الفروض الدينية ففي اربعة او خمسة ايام بعد ان عمدناها فهمت الاصول الدينية وتمسكت بها حتى بلغت درجة قصوى من التقوى بواسطة تلك الجارية الشديدة التقوى والغيرة

وكان قد لاح لي قبل الذهاب اليهم انني اعطيتهم كل ما يلزمهم خلا التوراة والانجيل فخجلت من هذا التغافل لان صديقتي الارملة كانت اكثر انتباهًا مني في الامر لانها عند ما ارسلت اليّ الامتعة من لصيون ارسلت معها ثلاث نسخ من التوراة واناجيل نفعت نفعًا كثيرًا يزيد عن انتظارها . وكنت قد وضعت في جيبي توراة وانجيلاً فعند ما وصلت الى منزل ول رأيت امرأتهُ والجارية يتحدثان في امور دينية فدخلت البيت فقال انكتز يامولاي انهُ عند ما يشاء الله ان يرد خاطئًا عن ضلالهِ ويأتي بهِ الى السبيل المستقيم يخلق لهُ الاسباب الموصلة الى المقصود فقد ارسل سبحانهُ وتعالى لامرأتي مرشدة لم تخطر لها ببال . لانني عرفت انهُ لا اقتدار لي على ارشادها حق الارشاد فلا ريب ان العناية الالهية هي التي قدرت اتيانها الينا . وهذه المرشدة هي على جانب عظيم من التقوى والمعرفة ولها اقتدار باذن الله على ارشاد اهالي الجزيرة كلهم . فلما سمعت الجارية هذه الكلمات صبغ بياض وجهها الاحمرار ونهضت لتذهب . فقلت لها لا تذهبي لان ما تفعلينهُ من الخير يكفل بنوال الثواب فاسأل الله ان يبارك عملكِ ويسبغ عليهِ نعمتهُ . فتحدثنا برهة بهذا الشان فلحظت انهُ ليس لهم كتاب

فاخرجت التوراة والانجيل من جيبي وقلت لاتكتر انظر قد اتيتكم بعين لا وجود له عندكم . فلما رآهما اندهش وابكاه الفرح وبعد برهة تقدم اليَّ واخذهما من بدي يديو والتفت الى امرأتهِ وقال انظري ياهجتي ألم اقل لكِ ان الله سبحانهُ يسمع طلباتنا وهو في الاعالي. هوذا الكتاب الذي طلبت اليهِ ارسالهُ الينا بالصلاة فقد اجاب الطلب وارسلهُ. فتحركت عواطفهُ بالتكلم وملأ السرور قلبهُ فبكى وهو يخبرها بهِ ويقدم الشكر الى الله

فاندهشت جدًّا امرأتهُ وصدقت ان الله انزل ذلك الكتاب بنوع عجيب من السماء اجابةً لطلب بعلها. وهذا هو الواقع ولكنهُ لم يتم كما توهمت بمعجزة. ولو قلنا لها ان الكتاب هبط من السماء لصدقت ولكن حاشا ان اسمح بخداعها في ايمانها. فقلت للجارية اننا لا نرضى بايمانها غير الواقع فاطلب اليكِ ان تفسري لها كيفية ارسال الله هذا الكتاب اجابةً لطلب زوجها لانهُ يجيب مسئولنا دون ان يفعل شيئًا خارق العادة وقد اجاب الناس انكتر باستخدامهِ اياي واسطة للاتيان بما طلبهُ اليهِ عز وجل فلا سبيل الى انتظار اجابة طلباتنا منهُ بطرق عجيبة فانهُ قادر على كل شيء دون خرق النواميس التي سنها لجميع الامور والتي يحفظها بيمينهِ ويجريها بحسب قوانينها ونظامها

فاخبرتها بذلك بعدان ذهبنا وفسرت لها كل ما يلزم تفسيرهُ ولم يبقَ في فكرها ريب ولاشك . اما فرح ول من هذه العناية فيصعب وصفهُ . واظن انهُ لم يشكر انسان ربهُ لحصولهِ على توراة وانجيل اكثر مما شكرهُ ذلك الرجل مع انهُ كان من اشر البشر واردئهم وكانت لوائح التقوى والفكر ظاهرة في وجههِ ظهورًا يكل القلم عن وصفهِ وهذا من اكبر البراهين واحسنها على اتقان التربية قبل خشونة اظفارهِ . فلا ينبغي ان يهمل الوالدون تربية اولادهم منذ الصغر ولاان يقطعوا الامل من بلوغ المقصود من التربية الحسنة . فاذا كان الاولاد غير مبالين بارشاداتهم ومطيعين لاوامرهم في بداءة الامر لا بد من حصول فائدة عظيمة لهم منها حتى بعد زمن طويل عند ما يهدون الى الانتصار لمحق .

فان التربية لابد من ان تستفيق وتوْدي الواجب عليها ولو بقيت مدة طويلة في حالة الغفلة . فان ول كان جاهلاً امور الديانة فوجد شخصاً اجهل منهُ يفتقر الى معرفة القليل الذي يعرفهُ . وهكذا وجد ان اقل المعلومات الدينية التي كان قد اكتسبها من ابيهِ كانت ترجع اليهِ وتفيدهُ في ذلك العمل الجليل . وقال انهُ كان يتذكر كلمات ابيهِ الذي كان يقول لهُ في الانجيل فائدة لا تحصى ولا توصف وبركة للامم والعيال والاشخاص لا تدرك . على انهُ لم يدرك حقيقة هذا المقال حتى حل زمان ارشادهِ الوثنيين ورأى نفسهُ مفتقراً جدًّا الى معاونة ذلك الكتاب الطاهر

اما الجارية فسرت جدًّا بالكتاب لانها كانت في غاية الاحتياج اليهِ وكان عندها انجيل واحد عند الفتى سيدها غير انهُ كان في المركب مع ثيابهِ

قد سبق وصف الضيقة التي بلغتها تلك الجارية وموت سيدتها في المركب الذي صادفناهُ في البحر بعد ان فرغ زاد راكبيهِ وذكرنا تغافل ملاحي المركب في بداية الامر عن تقديم كل ما يسد احتياجاتها واحتياجات سيدتها وسيدها الفتى واخيراً تركوهم ولم يفتكروا بهم البتة . ففي احد الايام كنت اكلم الجارية عن المشاق والاوجاع التي تكبدوها فسألتها ان تصف ما حل بها من جرى شدة الجوع وفعلهِ فيها . فقالت يا سيدي انهُ في بداءة الامر لم يكن لنا الا شيء يسير جدًّا نقتات بهِ . فقاسينا اوجاعاً لا توصف من جرى الجوع ولكن في نهاية الامر لم يبقَ لنا شيء نقتات بهِ غير السكر وقليل من الخمر والماء ففي اليوم الاول الذي لم اذق فيهِ طعاماً شعرت في مسائهِ في خلو جوفي ووجع معدتي وعند ما جن الظلام غلب عليَّ النعاس واكثرت من التمطي فشربت كاس خمر والقيت جنبي على فراش في ارض المركب فنمت نحو ثلاث ساعات . فلما استيقظت وجدت نفسي منتعشة قليلاً فبعد ان صرفت نحو ثلاث ساعات دون نوم وكان قد اصبح الصباح شعرت ثانيةً بعظيم ألم في المعدة فاتكأْت ثانيةً ولكن لم يغمض جفني النوم وقد ضعفت قواي وكاد يغشى عليَّ فبقيت على تلك الحال

كل ذلك اليوم اشعر تارةً بالجوع وطورًا باحتراق المعدة وكثر عليَّ التمطي حتى جنَّ الليل الثاني فنمت دون ان اذوق قوتًا على انني شربت جرعة ماء عذب فحلمت انني في بار بادوز والزاد قد تكاثر في اسواقها وانني اشتريت منهُ لسيدتي واكلت حتى امتلأت . فكان يخيل لي في الحلم انني شبعت . غير انهُ عندما اصبحت حزنت جدًّا لانني وجدت انني قد بلغت حد الموت جوعًا . فبعد ذلك احضروا كاس خمر وهو نهاية ما اعطي لنا من المئونات فوضعت فيهِ قليلاً من السكر لانهُ كما لا يخفى من المغذيات وشربتهُ فاسكرني جدًّا حتى انهُ طرحني على الفراش مدة دون انتبه وقد فقدت القوة والتمييز والاحساس لان معدتي كانت فارغة فتصاعد منها بخار الى راسي وفعل فيَّ ذلك الفعل الغريب . ففي صباح اليوم الثالث بعد ان صرفت ليلاً مكدرًا بالاحلام الغريبة والمريعة والمختلطة دون ان استغرق في النوم استيقظت وقد افضى بي الجوع الى تجاوز حدود البشرية فهجت وكدت اجن حتى انهُ لو كان لي ولد صغير هناك لاوقع جوعي حياتهُ في خطر الموت قتلاً لسد جوعي وقطع اوجاعي التي يكل اللسان عن وصفها . فبقيت على تلك الحال نحو ثلاث ساعات وانا اشب واصرخ كمن قد اصابهُ ضرب من الجنون وقد وصف حالتي سيدي الصغير وهو يقدر ان يصفها الآن

وبينما كنت نائمة سقطت على الارض وصدم وجهي تختًا كانت نائمة فيهِ سيدتي فانفجر الدم من انفي فاحضر لي طستًا فاذرفت فيهِ مقدارًا عظيمًا من الدم فرجعت الى نفسي وبردت حرارة الحمى التي كانت قد تولت امري وسكن ألم الجوع الذي كان يقطع احشائي بعض السكون ثم شعرت بأَلم شديد في معدتي وكثر عليَّ القيء ولم اقدر ان اخرج شيئًا من جوفي لانهُ كان فارغًا . فبعد ان سال الدم من انفي مدة اغشي عليَّ فظن من معي انني قد توفيت . فبقيت على هذا الحال مدة ثم رجعت الى نفسي وشعرت بأَلم شديد جدًّا يكل عن وصفهِ لساني وكاد يقطع احشائي واشتدت عليَّ جدًّا قابلية الاكل فاخذت اعض باسناني .

ولما جن الليل زال القيء واشتد عليَّ ألم قابلية الاكل فكنت اتوجع كالمرأة في مخاضها. فجرعت جرعة ماء ممزوج بسكر فلم تهضمها معدتي بل تقيأتها فشربت جرعة ماء بسيط فبقي في بطني فالقيت نفسي على الفراش وتوسلت الى الله بحرارة ان يميتني ويريحني من تلك العذابات الشديدة . فاراح فكري امل الموت فنمت برهة ثم استيقظت وكانت الابخرة تتصاعد من بطني الخالي الى راسي فتخيل لي انني في حالة النزع فسلمت امري الى الله وتمنيت ان اطرح في البحر لاخلص من تلك الآلام الشديدة

وكانت سيدتي في كل تلك البرهة نائمة بالقرب مني وكنت اظنها في حالة النزع وكان صبرها اعظم من صبري واعطت قطعة صغيرة من الخبز كانت معها الى ولدها فلم يرضَ ان ياخذها منها ولكنها الزمته بان ياكلها وكانت علة نجاتهِ من الموت جوعًا

فلما اصبح الصباح نمت برهة وعندما استيقظت غلب عليَّ البكاء فبكيت بكاء شديدًا . وبعد ذلك تحركت فيَّ قابلية الاكل فهجت ومجت وبلغت درجة من التعاسة والألم تكل الاقلام عن وصفها وكنت احب سيدتي حبًّا شديدًا ومع ذلك لو ماتت لاكلت قطعة من جسدها دون ان تشمئز نفسي او ابالي بكراهة الطعام . وهممت تكرارًا ان اعض زندي لآكل منهُ قطعة . فبعد برهة لاحت مني التفاتة نحو الطست الذي كان قد سال فيهِ دم من دمي فعمدت اليهِ وشربت ما فيهِ من الدم بعجلة وشراهة كأن منازعًا ينازعني اياهُ او اخشى ان يخطفهُ احد من يدي . فلما فرغت من شرب ما فيهِ اضطربت امعائي من تذكري كراهة مشروبي على ان ذلك اوقف اوجاع الجوع قليلاً فشربت قليلاً من الماء فانتعشت ورجعت الى نفسي . فبعد نحو ثلاث ساعات طرأ عليَّ ما كان قد طرأ قبلاً بتتابع وشدة لا مزيد عليها فكنت اشعر بألم ثم بنعاس ثم بجوع شديد ثم بتهيج الهيجان ثم اجن ثم ابكي ثم اضحك الى غير ذلك حتى ضعفت قواي جدًّا . فلما جن الليل الرابع القيت نفسي على الفراش وامل الموت يعزيني

عن اوجاعي الشديدة

فلم يغمض لي جفن الليل بطوله وسبَّب لي الجوع مرضاً فاخذت في تقيء هوائي لانهُ لم يكن في جوفي طعام لاتقيأهُ وبقيت على تلك الحال حتى الصباح واذا سيدي يبكي وينوح ويقول لي ان امي قد ماتت . فنهضت رأسي قليلاً لاراها لانهُ لم يكن لي اقتدار على الجلوس فوجدت انها حية ولكنها في حالة النزع فبعد ذلك اشتد الجوع عليَّ ثانيةً وكثرت اوجاعي وعلاماتي التي فاقت عذابات الموت واذا صوت ظهر من المركب قد طرق اذني وسمعت شخصاً يقول هوذا شراع ثم اخذ الملاحون يقفزون و يركضون من مكان الى آخر كمن اصيب بجنون فلم نقدر ان نخرج لنرى سبب تلك الحركة لان قوانا اجمع كانت قد خارت . اما ملاحو المركب فكان قد مضى عليهم اكثر من يومين دون ان يأتينا احدهم لانهم كانوا قد اخبرونا انهُ قد فرغ قوتهم واخبرونا بعد ذلك انهم ظنوا اننا قضينا نحبنا

فهذه هي الحالة التي وجدتمونا عليها عند ما ارسلتكم يد العناية لتخليصنا وما جرى بعد ذلك انت يا سيدي تعرفهُ كما اعرفهُ انا

فادهشني جداً هذا الخبر وعندي انهُ صحيح والتي اخبرني بما هو قريب من خبر الجارية. ولولم نصادفهم في ذلك الوقت لماتوا جميعاً بعد يومين لانهُ لم يكن لهم شيء يقوتهم ليعيشوا بهِ ما لم ياكل بعضهم البعض الآخر

فلنرجع الآن الى ما كنا في صددهِ عما فعلتهُ في الجزيرة فاقول انني لم استحسن ان اخبر اهاليها بانني قد احضرت معي مركباً صغيراً لانني خشيت ان يؤول ذلك الى تكثير الانشقاق والاختلاف اللذين كانا واقعين بينهم لان مركباً كهذا ربما حملهم على ركوبهِ والذهاب بهِ الى مكان آخر او ان يصيروا لصوص بحر وهكذا تصير الجزيرة ملجأً للصوص عوضاً عن ان تكون مسكن رجال يتعاطون الزراعة و يعيشون بالحب والسلامة كما هو القصد من تقويتهم وتركهم هناك . ولم اعطهم مدافع لئلا يهاجموا قبائل البرابرة بل اعطيتهم من الاسلحة ما

يلزم للمدافعة عن انفسهم لدى الاقتضاء

وهكذا فرغت من اعمالي واصلاحاتي في الجزيرة وتركتها في حالة النجاح والاتفاق في اليوم السادس من شهر ايار (مايس) بعد ان صرفت فيها خمسة وعشرين يوماً ووعدتهم بارسال بعض اشياء لم ما يحتاجون اليه من البرازيلز ان امكن خاصةً بعض حيوانات . وقالوا انهم يرغبون ان يسكنوها الى ان انتهم بقصد اخراجهم منها

القرب افرحني والبعد احزنني وصنعة الدهر تفريحٌ وتحزين

الفصل الاربعون

خروج روبنصن من الجزيرة

في الغد نشرنا شراعات مركبنا بعد ان ودعنا اهل الجزيرة باطلاق خمسة مدافع وسرنا قاصدين خليج القديسين في البرازيلز فبلغناهُ بعد نحو اثنين وعشرين يوماً دون ان نصادف ما يستحق الذكر ولكن سفرنا بعد نحو ثلاثة ايام كان هادئاً والمياه تجري الى الجهة الشرقية الشمالية نحو خليج في البر فخرجنا قليلاً عن طريقنا فرأى الملاحون عن بعد اليابسة في الجهة الشرقية ولم نعلم هل هي قارة او جزائر في المحيط . ففي اليوم الثالث عند المساء كان البحر ساكناً فرأينا كأن البحر في جهة اليابسة مغطى بشيء حالك السواد . فلم نعلم ما هو . فبعد برهة صعد نائب القبطان على صارٍ ونظر النظارة وصاح هوذا جيش عرمرم . فلم افهم كلامهُ واظهرت علامات الغضب وبختهُ . فقال يا سيدي لا تغضب فانني ارى جيشاً في نحو الف قارب من قوارب البرابرة فانظر اليهم فانهم متقدمون نحونا

فاندهشت جدًا وكذلك ابن اخي الرئيس وارتعدت فرائصه لان ما سمعه عن اعمالم الوحشية في الجزيرة آل الى تراكم الخوف عليه من هجماتهم . فكان يقول انهم سيبتلعوننا اجمع. اما انا فعند ما رأيت ان الريح لا تهب ومجرى المياه ضدنا يذهب بنا على غير ارادتنا الى الشاطئ خفنا من سوء العاقبة على انني تشجعت وقلت لملاحي المركب لا تجزعوا بل ارموا المرساة عند ما تتأكدون انه لابد من مصادمتهم

وبعد برهة يسيرة رأيت ان الجزر يزول هادئًا والجيش يتقدم نحونا فامرت الملاحين ان يلقوا المرساة و يلقوا الشراعات وقلت لهم لا تخشوهم وكونوا على حذر لئلا يحرقوا المركب بنا فينبغي ان تنزلوا الى البحر قاربين من قواربنا وتضعوا واحدًا عند المقدم والآخر عند المؤخر ويكون فيها رجال متقلدون الاسلحة وبايديهم آنية لسكب الماء لاطفاء النار ان اوقدها البرابرة في خارج المركب . ففعلنا واخذنا ننتظر وصولهم الينا ونحن على تلك الحال حتى دنوا من مركبنا فارتعدت فرائصنا منهم. اما عدد القوارب فكان اقل ما خمنه نائب الرئيس واظنه نحو مائة وستة وعشرين قاربًا مملوءة رجالاً في بعضها نحو ستة عشر رجلاً وبعضها اقل او اكثر. فلما رأونا اندهشوا جدًا لانهم لم يروا قط مركبًا كبيرًا نظير مركبنا ولا على هيئته . ومع ذلك تقدموا الى المركب بجسارة لا مزيد عليها وحاولوا ان يحيطوا به . فامرنا الرجال الذين في القاربين ان لا يمكنوهم من ان يدنوا منهم كثيرًا وكان ذلك سببًا لاصلاء نار الحرب بيننا . لانه تقدم احد القاربين نحو خمسة او ستة قوارب من اكبر قواربهم فاشار اليهم رجالنا بان يرجعوا عنهم الى الوراء فرجعوا ولكنهم وهم راجعون رمونا بنحو خمسين سهمًا فجرحوا رجلاً من الذين في القارب جرحًا بليغًا جدًا . ومع ذلك قلت لرجالنا ان لا يطلقوا بنادقهم واعطينا الذين في القاربين اخشابًا يستترون بها من نبالهم . اما النجار فصنع حاجزًا من اخشاب مسترها من سهام العدو . وبعد نحو نصف ساعة تقدموا بقواربهم الينا فوجدنا انهم من البرابرة كالذين كانوا يأتون الجزيرة على

اننا لم نعلم ما في الغاية من الاقتراب منا ثم بعد برهة رجعوا قليلاً واوقفوا قواربهم ثم هجموا علينا بجهة واحدة واقتربوا جدًّا حتى كادوا يسمعون كلامنا . فامرت جميع الملاحين ان لا يظهروا انفسهم لئلا يرموهم بالسهام وهيأت المدافع والبنادق للقتال . ثم قلت لجمعة لقد اقتربوا فنقدر ان نكلمهم فاصعد على ظهر المركب واسألهم بلغتهم لماذا يتقدمون منا . فصعد وفعل . فلما سمع كلامهُ ستة منهم قريبون منا اداروا لنا ادبارهم وغير ذلك من الاشارات القبيحة الرذيلة وربما كان المراد من ذلك احتقارنا . ثم صاح جمعة قائلاً انهم على همة من رمي النبال . فرمانا نحو ثلاثمائة رجل منهم بنبالهم فاصابت ثلاث نبال جمعة فوقع على الارض قتيلاً . فشق عليَّ موتهُ جدًّا وملأ قلبي حزنًا وكآبة . ولم يصيبوا غيرهُ لانهُ اظهر لهم نفسهُ

فهاج الدم في عروقي وملأ الغضب قلبي بمشاهدة خادمي القديم الامين ورفيقي مطروحًا على ظهر المركب . فامرت على الفور ان تملأ خمسة مدافع برصاص وقطع حديد واربعة بكلل وان يطلقوها عليهم فنفتك بهم فتكًا لم يروا نظيرهُ فاطلقوها وهم يبعدون عنا مسافة نحو عشرين ذراعًا وقد احكم ملاحونا توجيهها فكسروا ثلاثة او اربعة من قواربهم

اما ما اظهروهُ قبل ان رميناهم بالرصاص والكلل من الاشارات القبيحة لم يحرك فينا الغضب ومحبة الانتقام لاننا لا نبالي بافعال كهذه . وكنت قد عزمت قبل قتلهِ على ان اطلق اربعة او خمسة مدافع ليس فيها غير بارود لكي تقع في قلوبهم الخوف والرعبة . ولكن عندما رأيت انهم قد رمونا بنبالهم وقتلوا خادمي جمعة المحبوب وجدت نفسي مضطرًا الى المدافعة عن المركب وعرفت ان مسئولية نتائج الكفاح لا تقع عليَّ بل عليهم والله لا يحاسبني على اراقة الدم . ولهذا رغبت في ان اكسر كل قواربهم وان اغرق كل الذين فيها

انني لا اعرف عدد الذين قتلوا وجرحوا بالطلقات المذكورة . ولكننا رأينا ثلاثة او اربعة عشر قاربًا مكسرًا ومن فيها سابحًا . اما الباقون فارتعدت

فرائصهم وتحيروا ولم يعلموا الى اين يفرون من الموت فعلت ضجاتهم وتصادمت قواربهم ورجعوا بسرعة الى الوراء دون ان يهتموا بمن اصيح دون قارب منهم فاظن ان الذين هلكوا كثيرون . فوجد ملاحونا رجلاً منهم يسبح على وجه المياه بعد ذهابهم بنحو نصف ساعة فاتوا به الى المركب . وبعد نحو ثلاث ساعات غابوا عن نظرنا الاَّ ثلاثة او اربعة قوارب من التي تعطلت ولم تحسن المسير بسرعة ولم نرَ غيرهم بعد ذلك . وفي مساء ذلك اليوم هبت ريح جيدة فرفعنا المرساة وسرنا قاصدين البرازيل آخذين معنا ذلك الاسير البربري الذي كان قد تولى امرهُ الخوف حتى انه لم يتكلم ولا اراد ان ياكل طعامًا فظننا انه ربما مات جوعا . واخيرًا وجدت طريقة لالزامهِ بان يتكلم وهي جعل بعض الملاحين يتزلون الى قارب ويوهمونه ان قصدهم ان يطرحوهُ في البحر من حيث انهُ بهِ ما لم يتكلم . فلم يجدِ ذلك نفعًا فرموهُ في البحر وتركوهُ وحدهُ فاخذ يسبح وراءهم كانهُ سمكة وينادبهم بلسانهِ فلم يفهموا كلامهُ ولكنهم اخرجوهُ ووضعوهُ في القارب فرجع الى نفسهِ وآنس اليهم . ولم اكن قاصدًا ان اقتلهُ غرقًا

فحزنت جدًا من جرى موت خادمي الامين لاني كنت في غاية الاحتياج اليهِ وكنت ارغب في الرجوع الى الجزيرة لآخذ من اهلها من يقوم مقامهُ في هذه السفرة على ان ذلك كان غير ممكن . اما الاسير المذكور فلم يفهم لغتنا ولا فهمنا لغتهُ وبعد مدة طويلة تعلم بعض كلمات وجمل من لغتنا فسألناهُ عن بلادهِ . ولكننا لم نفهم جوابهُ لان الفاظهُ كانت تخرج من الحلق فكان كمن ليس لهُ شفتان ولسان واسنان . فكان صوتهُ كصوت خارج من بوق فارغ وبعد مدة تعلم بعض الكلام فقال انهم كانوا ذاهبين مع بعض ملوكهم لحرب عظيمة . فلما قال مع ملوكنا سألناهُ كم عددهم قال نحنا خمسي امة قاصدة امة ثنين . فلم نقدر ان نعلمهُ الجمع والتثنية . فقلنا لهُ ماذا حملكم على الاقتراب منا . قال لكي نعل شي عجيبة من كنارتنا . فكان يذكر المؤنث وبالعكس . والظاهر ان ذلك من الاغلاط التي لا تقدر ان تغلب عليها اكثر الامم الغربية ولو صرفوا مدة طويلة

بيننا . وكذلك جمعة الذي كثيراً ما كنت اصلح غلطة من هذا القبيل ومع ذلك كان كثيراً ما يقع فيه

لا ينبغي ان اغفل عن ذكر دفن جمعة المسكين وبعد ان اودعهُ بهذا التفصيل انقطع عن ذكره . فدفناهُ بعظمة واحترام لا مزيد عليها فاننا بعد ان وضعنا جثتهُ في تابوت رميناهُ في البحر واطلقنا احد عشر مدفعاً احتراماً لهُ . وهكذا انتهت حياة ذلك الخادم الذي فاق جميع الناس امانة وحبّاً وحنوّاً

وكانت الريح تهب هبوباً موافقاً لنا وتذهب بنا نحو البرازيل . فبعد نحو اثني عشر يوماً وصلنا الى البر واخذنا نسير بالقرب من الشاطئ فبقينا على تلك الحال اربعة ايام الى ان بلغنا راس سان اغوستين . وبعد ثلاثة ايام دخلنا خليج جميع القديسين فالقينا المرساة هناك وهو محل مصدر نجاتي وشقائي ومع انهُ كانت لي اشغال كثيرة في ذلك المحل لم تسمح لنا حكومتهُ ان ندخلهُ ولا ان نخابر الاهالي حتى شريكي الذي كان لم يزل في قيد الحياة وكان من اعيان البلد ولا وكيلي مع انني كنت من المشهورين بغرابة ما حدث لي من المصائب والمساعدة الربانية التي نشلتني منها . فتذكر شريكي انني كنت قد وهبت دير الاغستانيين مبلغ خمسمائة ريال وفرقت على الفقراء مائتين واثنين وسبعين ريالاً فذهب الى رئيس الدير وطلب اليهِ ان يطلب لي اذناً من الوالي لادخل انا والرئيس وثمانية ملاحين لا غير ففعل . فاذن لنا الوالي بشرط ان لا ننزل من المركب ارزاقاً ولا ان نأخذ احداً من الاهالي معنا دون رخصة . فدققوا جدّاً بذلك حتى انهُ بصعوبة كلية ادخلت الى البلد ثلاث حزم من البضائع الانكليزية من قطن رفيع منسوج وكتان وغيرها وذلك هدية لشريكي المذكور الذي كان كريماً محبّاً للضيف وكان مثلي قد استغنى بعد الفقر . فارسل لي هدية من الزاد الفاخر والحلويات والخمر والتبغ وثلاث او اربع قطع من النقود القديمة تساوي قيمتها نحو ثلاثين ريالاً وذلك قبل أن عرف مرادي ان اهدية الاشياء المذكورة . اما هديتي لهُ فكانت قيمتها نحو مائة ليرا انكليزية . وطلبت

اليوان بركب المركب الذي كنت قد ابتنيت بو قطعاً كما تقدم الكلام لكي ارسل بو زاداً وبعض احتياجات الى جزيرتي . فاستأجر فعلة واكمل العمل في ايام قليلة . ووصفت لرئيس المركب الجزيرة بدقة ووضوح بحيث لا يشكل عليو وجودها . وبلغني بعد ذلك انه وصل اليها دون صعوبة . فشحنته بما يلزم فطلب اليّ احد الملاحين الذين كانوا معي في الجزيرة ان يذهب في المركب اليها ليسكنها ويتعاطى اشغال الفلاحة وان اعطيه امراً لواليها ان يفرز له قطعة ارض ليحرثها . فاجبت سؤاله واعطيته بعض اشياء وآلات زراعة . فقال انه يعرف فن الزراعة حق المعرفة لانه كان فلاحاً في ماريلند فقويت عزمه على الذهاب باعطائه كل ما طلب ووهبته الاسير البربري الذي كنا قد اسرناهُ في المحاربة الاخيرة ليكون خادماً له . فلما رأى ذلك شريكي قال عندنا رجل امين جداً محب للسلامة والخير من فلاحي برازيل وقد وقع تحت غضب الكنيسة ولا اعلم السبب على انني اظن انه هرتوقي ولذلك قد اضطرهُ الامر الى التخفي لئلا يقع في يد الفاحصين الكاثوليكيين فلا ريب انه يسر ان يجد فرصة للنجاة بنفسو وبامرأتو وبابنتو . فان سمحت لهم بالذهاب الى الجزيرة وافرزت لهم قطعة ارض ليحرثوها سأسعفهم بقليل من الدراهم لياخذوا في الشغل بها . فان مأموري الفحص قد ضبطوا كل ارزاقو واموالو خلا كوخ صغير وعبدين . انني اعاونه مع كرهي لمبادئو وافكارو لانكنه من ان ينجو بنفسو . فاجبت سؤاله واتينا بو وبامرأتو وبابنتو وعبديو واخفيناهم في مركبنا حتى نشر شراعاتو المركب الصغير الذي كان مسافراً الى الجزيرة فوضعناهم فيو مع كل امتعتهم . فسر الانكليزي برفيقو جداً اما آلات الزراعة التي اخذوها فكانت جيدة لا يعوزها شيء واخذوا بعض آلات لزرع قصب السكر الذي اخذوا منه مقداراً ليس بقليل . وارسلت اشياء الى الجزيرة لمنفعة شركائي منها ثلاث بقرات وخمسة عجول ونحو عشرين خنزيراً وثلاث خنزيرات حوامل وفرسين وحصاناً . وارسلت ايضاً ثلاث بنات برتوغاليات ليذهبنَ الى الجزيرة قياماً بحق وعدي للاسبانيوليين واوصيتهنَّ ان

يتزوجنَ بهم ويرضينهنّ بسلوكهنّ . وكان لي اقتدار على ايجاد بنات غيرهنّ ولكنني قلت في نفسي ان الرجل المسكين المضطهد لهُ ابنتان وليس في الجزيرة من الاسبانيوليين غير خمسة رجال عُزب واما الباقون فان لهم نساء في بلادهم وبلغني ان ذلك المركب وكل من فيهِ وصلوا بالسلامة الى الجزيرة . ولا ريب ان اهاليها تلقوهم بالترحاب والسرور . وكان قد بلغ عددهم مع هولاء الآخرين ما بين الستين والسبعين شخصاً عدا الاولاد . ولما رجعت الى لوندرا وجدت رسالات من بعضهم وردت الى هناك عن طريق لسبون وسيأتي ذكرها ان شاء الله

انني قد فرغت من الكلام عن الجزيرة ومن يتصفح بقية كتابي ينتفي لهُ ان يميل افكارهُ عنها ويتبع اخبار رجل شيخ احمق لم تعلمهُ مصائبهُ ولا مصائب غيرهِ ان يتجنب الوقوع في الرزايا والمخاطر . ولا اضعفت همتهُ باربعين سنة صرفها بالمشاق والمهالك . ولا اقنعهُ النجاح الذي لم ينتظرهُ . انهُ لم يكن لي غرض البتة في الجزائر الهندية وذهابي الى هناك كان كذهاب رجل حرّ لا ذنب عليهِ من تلقاء نفسهِ الى السجن . فكان من الواجب عليَّ نظرًا لسني وغناي ورغبتي في ترقية صوالح الجزيرة ومن فيها ان اذهب الى انكلترا وآخذ مركبًا صغيرًا واذهب بهِ مقومًا سبيلي الى الجزيرة آخذًا معي المهام اللازمة للفلاحة والزراعة والمدافعة واللبس كما فعلت في المرة الاولى . واطلب امرًا من دولة الانكليز بان الجزيرة تخصني حال كونها تحت حماية الدولة الانكليزية وهكذا احصنها واقويها باسم انكلترا وازيد اهاليها او ان ابقى في الجزيرة واجلب اليها ما يلزم بالمركب الذي كنت قد اتيت بهِ . ولكنني لم انتبه الى ذلك لان افكاري كانت تتيه في اقاصي الارض . وميلي نحو السفر والجولان يشتد فيَّ بكبر سني . واكتفيت بان اكون مدبرًا للذين اسكنتهم الجزيرة مقدمًا كل احتياجاتهم من مالي

اما الاخبار التي وردت عليَّ من اهاليها فكانت رسالات ارسلوها بواسطة شريكي الذي ارسل اليهم مركبًا ثانيًا فلم تبلغني الاّ بعد سنين عديدة لانني كنت

غائبًا عن لوندرا . فاخبروني ان احوالهم كانت غير جودة وقد سئموا من المقام في الجزيرة مدة طويلة . وان ول انكتر كان قد توفي وان خمسة من الاسبانيوليين خرجوا من الجزيرة ورجعوا الى اوطانهم . وان البرابرة لم يضايقوهم غير انه وقعت بعض مناوشات وفضلاً عن ذلك يطلبون اليَّ ان اقيم بحق وعدي باخراجهم منها ليروا اوطانهم قبل الموت

فلم اقدر ان اجيب طلبهم لانني كنت غائبًا عن لوندرا عند ورود رسالاتهم تائهًا في الارض فمن شاء ان يقف على حقيقة اخباري فليشمر اذياله ويقفو اثري لمطالعة اخبار حماقتي ويتأمل في المصاعب التي اوقعتني فيها يد العدل تأديبًا من جرى طمعي فيشعر باقتدار العدل الالهي لانه يقوي اميالنا الى بعض الامور ويجعل اعظم مشتهياتنا واسطة لقصاصنا واظهار عدلهِ فينا . فالنا ولذلك لان ما يهمنا هو ما طرأ عليَّ والواقع انني عزمت على السفر

اما الخوري فعزم على الذهاب الى لسبون في مركب كان هناك على همة السفر . فاستأذنني وقال انني ارجع الى حيث خرجت لانه قد قدر عليَّ ان لا ابلغ مقصدي فلو ذهبت معهُ لتم سعدي ولكن هل من دافع للقدر ولكن لو رافقته لحرم من طالع اخباري الاولى مطالعة اخبار سفر روبنصن الثاني . فذهبنا من البرازيل قاطعين الاتلانتيك الى ان وصلنا الى راس الرجاء الصالح . فكان سفرنا مقرونًا بالراحة والتوفيق الا ان الرياح ضادتنا دون ان نقع في بلاء فان الظاهر ان مصائب البحار قد انتهت وابتدأت بلايا اليابسة وهذا دليل على ان في اليابسة اخطارًا كما في البحار

وكان مركبنا مشحونًا ارزاقًا لبعض التجار وكان فيهِ وكيل من قبلهم لكون المركب خاضعًا لاوامرهِ بعد الوصول الى راس الرجاء الصالح من جهة الذهاب الى بعض بلدان لتصريف البضائع وقد عينت مدة لذلك فلم اتداخل في هذه الامور لانها كانت من تعلقات الوكيل المذكور وابن اخي رئيس المركب

فلا تحسبنَّ الدهر يبقى على الصفا ... بو للهنا يومٌ وللبؤس ايامُ

الفصل الحادي والاربعون

مقاتلة

فلم نطل الاقامة في راس الرجاء الصالح وسرنا قاصدين كوروماندل بعد ان اخذنا ما نحتاج اليه من الماء العذب . فبلغنا ان مركبًا فرنسويًا حربيًا كان قد ذهب الى الجزائر الهندية فخشيناهُ لان دولتنا الانكليزية كانت تحارب الفرنسويين حينئذٍ ولكنهُ لحسن الحظ لم يصادفنا

لا لزوم للتثقيل على من يطالع اخباري بوصف جميع الاماكن التي رأيناها ولا بذكر تفصيل كلما صادفناهُ فاكتفي بذكر اسماء المحلات التي اتيناها مع ما طرأ علينا في خلال السفر من الامور المهمة . فالمحل الاول الذي اتيناهُ جزيرة ماداكسكر فاستقبلنا اهاليها بالترحاب وكانوا يتقلدون من الاسلحة القسي والنبال والرماح ولهم براعة لا توصف في استخدامها فاعطيناهم اشياء قليلة من سكاكين ومقصات وغير ذلك فاعطونا احد عشر ثورًا سمينًا فاخذناها وابقينا بعضها لنذبحهُ في السفر واما الباقي فتزوَّدنا لحمهُ . واستمرت الحال على هذا المنوال مدة فلم نذهب بعد ان فرغنا من التزود بل التزمنا ان نصرف برهة هناك . وكان لي ميل شديد الى التفرج على كل ما حولي فذهبت الى الجزيرة مرات عديدة. ففي احدى الليالي ذهبنا الى الجهة الشرقية منها فاجتمع الينا اهلها لانهم كانوا كثيري العدد ووقفوا عن بعد يتفرسون فينا فلم نخشَ سوء العاقبة لاننا كنا قد تعاطينا الابدال معهم دون ان يحصل ما يكدرنا او يكدرهم . وكنا قد قطعنا ثلاثة اغصان من شجرة وغرسناها في الارض امامنا . وعندهم ان هذا علامة السلام . ومن عاداتهم انهم اذا قبلوا بالسلم يقابلون تلك الاشارة بمثلها اي

يقطعون ثلاثة اغصان ويغرسونها امامهم. ومن شروط هذا النظام ان لا يتجاوز احد الفريقين اغصان الفريق الثاني وان شاء احد الفريقين ان يكلم احد الذين في الجهة المقابلة يجرد نفسه من سلاحه ويضعه عند اغصان قومه ويتقدم مجردًا الى الفسحة الواقعة بين اغصان الفريقين وكذلك يفعل الفريق الثاني. وان وقع اثناء ذلك نزاع او نقض عهد يرجعون الى وراء اغصانهم ويتقلدون اسلحتهم ويهاجمون الفريق المعتدي. وهكذا تنتهي المسالمة وتبتدئ الحرب

ففي ذات الايام ذهبنا الى الشاطئ فاجتمع حولنا من اهالي الجزيرة جمهور يزيد عدده عن العدد الاعتيادي وكانوا يأتوننا بزاد مختلف وكنا نعطيهم العابًا وآلات افرنجية وكذلك النساء فكنَّ يأتينَ الينا حاملات اللبن واصول اشجار. فكان التبادل يجري بيننا وهم يظهرون علامات الترحاب والسرور. فاستأمنّا وصنعنا لانفسنا مظلة من اغصان الاشجار وبتنا تلك الليلة في الشاطئ. اما انا فرفضت ان ابقى في الجزيرة مع ارفاقي ولا اعلم سبب ذلك فناديت احد الملاحين الذين كان في قاربنا على بعد مسافة رمية حجر عن البر ان يتقدم بالقارب. فاتى فقطعت بعض اغصان ووضعتها في القارب لكي استظل بها من رطوبة الهواء ونمت فيه. فعند الفجر سمعت صوت احد ارفاقي الذين كانوا في البر يصرخ قائلاً اغيثونا وتقدموا بالقارب واذهبوا بنا والاَّ نموت قتلاً. ثم سمعت صوت اطلاق خمس بنادق ثلاث مرات متتابعة. والظاهر ان اهالي هذه الجزيرة لم يكونوا يخشون الاسلحة النارية مثل البرابرة في امركا. فتحيرت في امري ولم اعلم ماذا ينبغي ان اصنع فوثبت وتقدمت بالقارب الى الشاطئ وعزمت على نجدة ارفاقي واسعافهم في القتال بثلاث بنادق كانت معنا في القارب. فلما وصلنا الى الشاطئ تقهقر الينا ارفاقنا الذين كانوا في البر غائصين في المياه لان القارب كان لا يزال بعيدًا مسافة يسيرة عن اليابسة وكان نحو ثلاثمائة او اربعمائة رجل يجدّون السير وراءهم ليتناولوهم وكان عدد رجالنا تسعة. خمسة منهم كانوا متقلدين بنادق والباقون غدارات وسيوفًا ولكنهم لم يجدهم نفعًا

فاصعدنا منهم سبعة الى القارب بصعوبة كلية لانهُ كانت قد اصابت اثنين او ثلاثة منهم السهام وجرحتهم جراحات بليغة جدًّا وفضلاً عن ذلك كنا نصعدهم الى القارب ونحن في خطر من نبال الاعداء كما كانوا هم في البر لانهم كانوا يرموننا بنبال تتساقط حولنا بكثرة لا توصف فسترنا القارب من جهتهم بلوحين او ثلاثة الواح وجدت بالمصادف في القارب وهذا من اكبر التوفيقات. ولو وقع الخصام في النهار لقتلونا جميعًا لانهم كانوا يحسنون رمي النبال وكانوا يصيبون الاغراض برميها. اما نحن فكنا نرى بعضهم بنور القمر وهم واقفون عند الشاطئ يرموننا بالنبال والاخشاب. فملأنا بنادقنا واحكمنا توجيهها نحوهم واطلقناها عليهم فعلا منهم ضجيج وعويل فعرفنا بذلك اننا قد اصبنا كثيرين منهم. ومع ذلك لم يذهبوا بل بقوا واقفين عند الشاطئ وهم مستعدون للقتال حتى اصبح الصباح. فعرفنا ان قصدهم ان يرمونا بالنبال وهم ناظرون الينا ليحققوا صحة فعل نبالهم

فبقينا على تلك الحال ونحن لا نقدر ان نرفع المرساة وننشر الشراعات. لان ذلك لا يتم الاَّ بالوقوف في القارب وان وقفنا نعرض انفسنا لنبال العدو التي تصيب من ترمى عليهِ لا محالة. فاظهرنا اشارات الضيقة لمركبنا فعرف منها ابن اخي ومن اطلاق البنادق نحو البر اننا في ضيق وكان بعيدًا عنا نحو ميل. فرفع مرساة مركبهِ وتقدم بسرعة نحو الشاطئ على قدر امكانهِ وارسل قاربًا ثانيًا فيهِ عشرة ملاحين لنجدتنا. فناديناهم ان لا تقتربوا من الشاطئ لان خطر الموت يتهددنا فتوقعوا انفسكم في خطر الهلاك. فوقفوا بقاربهم بالقرب منا. ثم امسك احدهم طرف حبل وخلع ثيابهُ ونزل في البحر واخذ يسبح حتى وصل الى قاربنا الذي كان بسترهِ عن اعين الاعداء لانهُ حال بينهُ وبينهم فربطهُ بالحبل فافلتنا سلسلة مرساة قاربنا بعد ان ربطنا بهِ علامة لكي لا يضيع فجرونا بالحبل اليهم فبعدنا عن الشاطئ بحيث لا تدركنا سهام الاعداء وكنا في غضون ذلك مستترين بالالواح المار ذكرها

فبعد ان خرجنا بقاربنا من المكان الواقع بين المركب وبين الشاطئ وجه جانب المركب نحو الاعداء واطلقت المدافع المملوءة حديداً ورصاصاً عليهم فقتل وجرح منهم كثيرون

فبعد ذلك تقدمنا الى مركبنا وصعدنا اليه وهكذا ابتعدنا عن خطر القتل بالنبال فاخذنا نفحص عن سبب ما جرى بين ملاحينا واهالي الجزيرة . فقال لي وكيل الشحن الذي كان في المركب وكان له اختبار في عوائد اهالي تلك الاقطار لانه كان قد اتاها قبلاً ان اهل الجزيرة لا يغدرون على احد بعد ان يقبلوا السلام دون سبب كافٍ لخرق العهود . فاصاب بظنه لان سبب ذلك جميعه هو ان امرأة مسنّة اتت داخل اغصاننا لتبيع ارفاقنا لبناً واتت معها فتاة حاملة بعض اصول اشجار واعشاب (ولا نعلم هل هي ام الفتاة او نسيبتها) فبينما كانت المرأة المسنة مشتغلة في بيع اللبن تقدم احد رجالنا الى الفتاة وتجاوز حدود الادب في الاشارات معها . فلما رأت ذلك المرأة المسنة اخذت تصرخ وتستغيث بقومها ولم يمتنع ذلك الرجل عن قبيح فعله لانه كره ان يخسر تلك الفرصة . بل ذهب بالفتاة من امام عين المرأة ودخل بها الى بين لفيف من الاشجار ونال منها مأربه . وكان الظلام قد غشى وجه الارض حينئذ فرجعت المرأة وحدها وقد تركت الفتاة . ولا ريب انها اخبرت قومها فاجتمع منهم جيش عرمرم في برهة ثلاث او اربع ساعات ولولا مساعدة العناية لهلكنا اجمع

ففي اول معمعة رموا احدنا بحربة وهو خارج من المظلة التي صنعوها من اغصان الاشجار فوقع قتيلاً . اما الباقون فنجوا بانفسهم ما عدا الرجل الذي فعل القبيح وهو سبب جميع هذا الشر فانه وقع في ايديهم ولا ريب ان حب معلقته (كما تقول العامة) السوداء نشا عنه موته . ومضت مدة طويلة دون ان نقف على حقيقة خبره فبقينا ننتظره في المركب مدة يومين ونحن نرفع له اشارات ليأتي الينا مع ان الريح كانت تهب معنا . ثم ارسلنا قارباً الى قرب الشاطئ فسار من جهة الى اخرى املاً بان يراه فيأتي اليه ولكن لم يجدِ ذلك نفعاً

فقطعنا الامل من رجوعهِ واجمع ظننا على انهُ قد هلك . ويا حبذا لوكان ذلك نهاية البلايا

فلم ارغب في الذهاب من هناك دون ان انزل الى البر لكي اقف على حقيقة خبرهِ وارى نتائج المحاربة وعدد القتلى منهم فذهبت الى البر في الليل لئلا يرانا اهالي الجزيرة فيهاجمونا ويضايقونا كما فعلوا المرة الاولى على انهُ كان من المقتضى ان اخضع الرجال الذين اخذتهم معي من المركب الى سلطتي لئلا يبدو منهم ما لا يوافق . وكان عددهم نحو عشرين رجلاً خلا وكيل الشحن وكانوا من اقوى رجال المركب واشجعهم . فوصلنا قبل نصف الليل الى المحل الذي كان اعداؤنا واقفين فيهِ الليلة الماضية واتيت ذلك المكان لارى هل رجعوا الى محلاتهم او لم يزالوا باقين هناك . وكان قصدي ان اقبض على اثنين منهم ان امكن فلا نسلمها الى قومها حتى يسلمونا رجالنا

فوصلنا الى البر دون ان تعلو لنا ضجة وقسمنا رجالنا قسمين وسلمت قيادة احدها الى وكيل الشحن وتوليت انا قيادة الثاني وتقدمنا الى داخل الجزيرة على اننا لم نرَ احدًا ولا سمعنا صوتًا . فبعد برهة عثر احد المتقدمين بجثة قتيل ووقع على الارض فوقف وانتظر قدومي لانهُ عرف اننا قد وصلنا الى حيث كان اعداؤنا واقفين . فلما وصلت اليهم عزمنا ان نبقى هناك حتى طلوع القمر لنرى بنورهِ القتلى الذين قتلوا في الحرب . وبعد برهة قصيرة ارسل البدر نورهُ ونظرنا بهِ ان عدد المقتولين من اعدائنا هو اثنان وثلاثون رجلاً وكان اثنان منهم لا يزالون في قيد الحياة . فبعضهم كانوا دون يد وآخرون دون ارجل الى غير ذلك مما يظهر براعة رجالنا في اطلاق المدافع والبنادق . اما بقية الجاريح فاظن انهم اخذوهم معهم الى منازلهم . فبعد ان فرغنا من البحث عن عدد قتلى اعدائنا عزمت على ان ارجع بالرجال الى المركب . فعارضني رئيس القارب وجماعتهُ قائلين اننا قد عزمنا على التقدم حتى ندرك هؤلاء الهنود الكلاب . فان ادركناهم لا ريب اننا نأتي بالغنائم وربما وجدنا توم جفري (وهو الرجل المفقود) فطلب

اليك ان تذهب معنا . فلو طلبوا اليَّ ان آذن لهم بالذهاب لكنت رفضت اجابة طلبهم وامرتهم ان يرجعوا حالاً الى المركب لانهُ ليس من خصائص من سلمت اليهم ادارة مركب فيهِ شحن ان يتركوهُ ويذهبوا قاصدين شن الغارات واغتنام الغنائم فاذا فقد بعضهم يقع ضرر عظيم على المركب لافتقارهِ الى رجال خاصة وهو في وسط البحر . فرفضت ان اذهب معهم ووثبت من مكاني قاصداً الذهاب الى القارب فشرع احد الرجلين اللذين كانا معي ان يقويني وينهض همتي لكي اساهمهم على اجراء مقصدهم . ولكنهُ عند ما رأى انهُ لا فائدة من ذلك اخذ يتذمر وقال اننا لسنا بخاضعين لاوامرك ثم التفت الى رفيقهِ وقال هلمَّ يا جاك نذهب . فاجابهُ هيا بنا ثم تبعهُ آخر ثم غيرهُ وبالاختصار لم يبقَ غير رجل واحد حملتهُ على الامتناع عن الذهاب معهم فرجعت معهُ ومع وكيل الشحن الى القارب الذي كان فيهِ ولد بحرية فدخلناهُ وبقينا فيهِ ننتظر رجوعهم لاننا وعدناهم ان لا نذهب بالقارب حتى يرجع الينا من يبقى سالماً منهم لانني ظننت انهم سيذوقون كاس الحمام التي ذاقها رفيقهم توم جفري

وكنت قد اخبرتهم قبل ذهابهم بذلك . فاجابوني كعادة الملاحين من عدم التبصر في عواقب الامور انهم يرجعون بعد برهة يسيرة لا محالة . وانهُ لا خطر عليهم الى غير ذلك مما يسلي بهِ انفسهم الجهلة عند ما يرغبون مهاجمة صعوبة او ارتكاب مخاطر . فقلت لهم اتوسل اليكم ان لا يبرح من الكم انكم اسم لانفسكم بل للمركب لانهُ قد سلمت اليكم ادارتهُ وان اصابكم ضرر لا سمح الله ربما اصاب المركب داهية تفضي بهِ الى الغرق لافتقارهِ اليكم . فماذا تجيبون الديان متى سألكم عن ذلك . على انني لو كلمت صاري المركب لاثر فيهِ كلامي اكثر منهم لان الميل الى الشر كان قد غلب عليهم وتولى امرهم . ولكنهم لم يتفوهوا بما يغضبني بل طلبوا اليَّ ان لا اغضب عليهم لانهم لا يشكون في انهم يرجعون بعد نحو ساعة لان مدينة الهنود لا تبعد عن الشاطئ اكثر من نصف ميل والحقيقة كانت بعيدة عنهُ نحو ميلين

ومع ان اخطاراً عظيمة كثيرة كانت تهددهم لم يبالوا بها بل تقدموا اليها كانهم متقدمون الى وليمة فيحق لهم الشكر على شجاعتهم التي لامزيد عليها واللوم لانه لايفتهم ما افتضوه من تزين بحسن العقل والتمييز. وكانت اسلحتهم كاملة جيدة جداً فكان كل منهم متقلداً بندقية وحربة وغدارة ومنهم من كان معهُ قوس وبعضهم سيوف الى غير ذلك من الاسلحة. ولاريب ان العالم لم يرَ قط رجالاً اشد منهم بأساً وشجاعة متقدمين الى فعل الشر

وكان مقصدهم اغتنام الغنائم وظنوا انهم ربما وجدوا في البلدة ذهباً. ولكنهم صادفوا ما لم يكونوا يترقبون فملأ قلوبهم غيظاً واهاج الدم في عروقهم وحرك فيهم الشر فاصبح كل منهم كانهُ عشرون ابليساً قد اطلقوا من جهنم. فلما بلغوا بيتاً من بيوت الهنود وهي التي رأوها عن بعد وظنوا انها البلدة خاب املهم. لانها كانت قليلة وليس سواها في تلك الجهة. وكانت نحو ١٢ بيتاً. فقال بعضهم للبعض الآخر انا نظن ان هذه البيوت الحقيرة ليست بالبلدة التي خرج منها جميع الجيش الذي هاجمنا. فلا نعرف موقعها ولاعدد سكانها فاخذوا يتشاورون في ما ينبغي ان يفعلوا فتحيروا في امرهم جداً وقالوا ان هاجمنا ساكني هذه البيوت القليلة نبلغ منهم المنى لامحالة ونذبحهم اجمع لاننا اكثر منهم عدداً. على انهُ ربما نجا واحد منهم وسار مستنجداً اهاليها فيخرجون الينا الوفاً. وان ذهبنا قاصدين المدينة دون ان نوقع بهولاء الويل لانعلم الى اية جهة يجب ان نذهب على انهم استحسنوا الرأي الاخير وهو ان يذهبوا دون ان ينبهوا من في تلك المنازل القليلة ويجهدوا في البحث عن البلدة على قدر الامكان. فلما تقدموا قليلاً وجدوا بقرة مربوطة بشجرة. فعزموا على ان يحلوا رباطها ويطلقوا سبيلها قائلين لاريب انها لبعض اهالي البلدة فان ذهبت الى جهة غير البيوت التي رأيناها نقفو اثرها لانها تذهب الى البلدة فقطعوا رباطها وكان ذلك من الآراء المصيبة. فاخذت بالمسير امامهم فتبعوها حتى وصلوا الى البلدة التي قالوا انها تحتوي على نحو مائتي بيت فلما اقتربوا منها لم يسمعوا صوتاً لان اهاليها كانوا

جميعاً راقدين . فعقدوا ديوان مشورة في ما ينبغي ان يفعلوا . والنتيجة انهم عزموا على ان يقسموا جمهورهم الى ثلاث فرق . كل فرقة تهاجم البلدة من جهة وان يقبضوا على كل من خرج نحوهم ويوثقوهُ . فان مانعهم احد يقتلوهُ . ثم يشرعون في البحث في سائر البيوت عن الغنائم التي فيها . على انهم عزموا ان يسيروا قبل مهاجمتها بهدو في وسطها مستكشفين . فان وجدوها كبيرة وان ساكنيها كثيرو العدد بحيث لا يمكنهم التغلب عليهم يرجعوا عنها

ففعلوا وصمموا على مهاجمتها غير مبالين بسوء العاقبة ونتائج تلك المحاربة. فبينما كان بعضهم يحرض البعض الآخر على الاقدام والثبات صرخ ثلاثة منهم كانوا قد تقدموهم قليلاً هوذا توم جفري . فاسرعوا اليهم فعند ما وصلوا رأوا جثة ذلك المنكود الحظ معلقة بشجرة بيدهِ الجردة وهو مذبوح . وبالقرب منهُ منزل فيهِ نحو ستة عشر رجلاً من اعيان الهنود الذين حاربوهم قبلاً وبينهم ثلاثة رجال جرحى برصاص بنادقنا ومدافعنا . وكانوا في يقظة يتكلمون وهم داخل البيت

فاثر فيهم جداً منظر رفيقهم المقتول. وهاج الدم في عروقهم وملأ الغضب افئدتهم وتحالفوا بانهُ لابد من الانتقام منهم وانهم لا يرحمون من وقع منهم في ايديهم بل يذيقونهُ مرارة الموت . وهكذا شرعوا في جمع مواد سريعة الاشتعال ليحرقوا بها البلدة . فبعد البحث عن ذلك برهة قال بعضهم للبعض الآخر لا حاجة الى ذلك لان البيوت من اخشاب واقمشة قديمة واوراق اشجار يابسة فيمكننا ان نحرقها حالاً . فاخذوا قليلاً من البارود ورطبوهُ بقليل من الماء في ايديهم وجبلوهُ وهذه الجبلة تدعوها العامة نبع الشيطان . واحرقوهُ وبهِ احرقوا برهة وجيزة اربعة او خمسة بيوت في اقطار مختلفة من البلدة منها البيت الذي وجدوا فيهِ الرجال المار ذكرهم

فلما شبت النار بادر الذين في البيوت الى الخروج لينجوا بانفسهم من الموت حرقاً . وكانت فرائصهم ترتعد وقد علا منهم عويل وضجيج . فكان رجال

المركب واقفين خارجها يقتلون كل من خرج منها . اما الذين كانوا في البيت المذكور آنفًا فعند ما شعروا باللهيب خرجوا فصدمهم رئيس القارب وقتل اثنين منهم فرجع الباقون الى الوراء ودخلوا البيت . فاخذ قنبلة (وهي كلة مجوفة داخلها بارود ورصاص وقطع حديد) ورماها في وسطهم فلما رأوها فزعوا جدًا . فبعد برهة انفجرت واضرت جميع من في البيت خلا قليلين جدًا . فصرخوا صرخة هائلة وضجوا ضجة مريعة . فقتل وجرح منهم كثيرون خلا ثلاثة حاولوا الخروج من الباب فقتلهم الرئيس وهم خارجون طعنًا بحربتو . هذا ما جرى خارج تلك الدار

وجرى ذلك دون ان يطلق الملاحون بندقية لانهم لم يريدوا ان يوقظوا اهالي البلدة في وقت واحد لئلا يتكاثروا عليهم . اما النار فكانت تمتد من مكان الى آخر فيستفيق من في البيوت التي تدركها النار فيقتلهم الملاحون وهم خارجون منها لينجوا بانفسهم لانهم كانوا يتتبعون اثر النار . على انهم لم يتفرقوا كثيرًا ولكنهم اجتمعوا في اربعة او خمسة محلات . وكان كلما خرج احدهم من بيتو يرام خارجهُ فيقتلونهُ طعنًا او ضربًا . وكان في غضون ذلك كل فريق منهم ينادي الآخر قائلاً لا تنسَ توم جفري . ثم اخذوا في اطلاق البنادق لان اعداءهم كانوا قد تكاثروا

فلما رأيت النار وسمعت اطلاق البنادق ارتبكت جدًا وتحيرت في امري وملأ الخوف قلبي لانني لم اعلم السبب ولا ماذا اصاب رجالنا . اما ابن اخي الرئيس فايقظهُ ملاحو المركب عند ما رأوا اللهيب فصعد على ظهره . فلما رآهُ يتقذف وصوت اطلاق البنادق متصل ارتعدت فرائصهُ خوفًا لانهُ لم يعلم ماذا حل بنا من الوبل خاصةً لانهُ لم يعلم هل انا ووكيل الشحن من الاحياء او الاموات ولم يكن يقدر ان يأتي بجميع الملاحين لنجدتنا لانهُ ظن اننا في ضيقة شديدة

فلما وصل الينا نحن الذين بقينا في القارب اندهش جدًا عند ما رأى وكيل الشحن والولد الحارس ورجلاً آخر . فسرتهُ سلامتنا على انهُ الح في طلب

الموضع عما كان جاريًا في البادرة . لان اللهيب كان يزداد واصوات اطلاق البنادق تتكاثر والضجيج يشتد . فلا ريب ان كل من نظر ما هو كذلك يشتاق جدًا الى الوقوف على حقيقة الجاري وتأكيد سلامة الرجال . فقال لي الرئيس اني ذاهب لنجدة رجالي مع قطع النظر عما ينجم عن ذلك من الشر او الخير . فقلت له لا تنسَ ان سلامة المركب والشحن ومن فيه تتوقف عليك فلا تخاطر بنفسك وتجلب الضر والاذى على اصحاب الشحن . فابقَ انت هنا واذهب انا وهذان الرجلان ونحاول الوقوف على حقيقة احوالهم دون ان نشترك معهم في عملهم ونرجع اليك بالخبر . فلم يؤثر فيه كلامي باكثر ما اثر في ملاحيه . فقال لابد من الذهاب ويلزمني اتيت بجميع ملاحي المركب لنجدتهم . لانه حاشا ان اترك رجالي يهلكون لعدم اسعافي اياهم فانني افضل ان اضر المركب وما فيه بل ان اهلك على ذلك . ثم ذهب . فلما رأيته قد ذهب لم اقدر ان اضبط نفسي عن ان اتبعه فقفوت اثرهُ حتى ادركته . وكان قد امر اثنين من الملاحين ان يرجعوا بالقارب الذي اتى فيه الى المركب ويأتوا باثني عشر رجلاً . اما القارب الذي اتينا فيه نحن فالقينا مرساته وتركناه وقال لها متى رجعتما بالرجال ابقيا ستة منهم في القاربين ليحرسوها . واما الستة الباقون فليخرجوا لنجدتنا . وهكذا لم يبقَ في المركب من كل الرجال غير ستة عشر رجلاً . فكان جميع من فيه نحو خمسة وستين رجلاً فقد منهم اثنان في المحاربة الاولى التي جلبت كل هذا الشر

فبعد ان ادركت الرئيس ومن معه اخذنا في المسير كهبوب الريح قاصدين المحل الذي كان يتقذف منه اللهيب . فكنا كلما تقدمنا يشتد صوت الضجيج والعويل والصراخ وكان يفوق صوتهما صوت اطلاق البنادق وملأ قلوبنا خوفًا ورعدة خاصة قلبي لانني لم ارَ قبلاً محاصرة مدينة وفتحها . على انني كنت قد قرأت كثيرًا عما فعله تيمورلنك العاتي الظالم عند ما فتح مدينة دمشق وقتل كبارها وصغارها وبنى برجًا من مائة الف جمجمة . ولكن السماع والقراءة ليسا كمشاهدة حقيقة البلاء والويل والقساوة والظلم التي تقع في مواقع كهذه وهي مما

يقصر القلم بل اللسان عن وصفهِ . فصرنا الى ان وصلنا الى البلدة . على اننا لم
نقدر ان نسير في ازقتها لان اللهيب كان قد اكتنفها . فالشيء الاول الذي
نظرناهُ من آثار اعمال رجالنا الوحشية كان بيتاً مهدوماً وامامهُ على الارض جثث
اربعة رجال وثلاث نساء شاهدناها بنور اللهيب . واظن اننا رأينا جثتين غيرها
مطروحتين في وسط اللهيب . وتلك المناظر يقشعر منها البدن وتكرهها الانسانية
وتدل على ان فاعليها ليسوا من البشر بل من الحيوانات بل من الابالسة . فلم
اصدق ان رجالنا هم الذين ارتكبوا تلك القبائح والشرور . فحكمنا ان كلاً منهم
يستحق ان يقتل معذباً قصاصاً على قبيح فعلهِ . ثم تقدمنا قليلاً وكانت النار
تزداد واللهيب يشتد والعويل يزق كبد السماء فارتبكنا وتحيرنا جداً . ونحن
على تلك الحال واذا ثلاث نساء عريانات خارجات تعلو منهنَّ اصوات مريعة
راكضات طالبات النجاة من الموت وفي اثرهنَّ ثلاثة من رجالنا الوحوش بل
الابالسة يحاولون ادراكهنَّ وذبحهنَّ . فلما رأوا انهُ لا امل لهم بالقاء القبض عليهنَّ
اطلقوا بنادقهم عليهنَّ فاصابوا احداهنَّ فسقطت على الارض مقتولة تتخبط بدمائها
ولما رآنا الجنود ظنوا اننا مطاردوهم فصرخوا صرخة هائلة خاصةً النساء وسقط
على الارض اثنان منهم من شدة الخوف . فلما رأيت تلك المناظر المزعجة وسمعت
ذلك الصراخ المحزن خنق قلبي وجرى الدم بارداً في عروقي وهاجت فيَّ
النخوة والمروءة حتى انهُ لو بقي اولئك الثلاثة الانكليز يطاردون ذلك الجمهور
المنكود الحظ لجعلت رجالي يرمونهم بالرصاص . فاظهرنا للمطرودين اشارات
بها يعلمون اننا لا نوقع بهم ضرراً ولا اذى . فدنوا على الفور منا وجثوا على
ركبهم عند اقدامنا رافعين ايديهم نحو السماء وطلبوا الينا باصوات محزنة مؤثرة
ان ننقذهم من الهلاك الذي كان يهددهم . فاشرنا اليهم اننا نجيب توسلاتهم
فنهضوا واجتمعوا وراء ظهورنا وهم يرجفون خوفاً وينوحون حزناً ولوعةً .
فاوصيت رجالي ان لا يؤذوا احداً بل ان يبقوا مجتمعين في مكانهم حتى ارجع
اليهم وذهبت قاصداً تخميد نار تلك الفتنة والوقوف على ما حملهم على اصلاء

نارها . وان اخبرهم انهم ان بقوا الى الصباح هناك ربما بداهم مائة الف رجل يجتمعون من اقاصي الجزيرة لينتصروا لقومهم. فتقدمت الى وسط المعمعة مستصحباً معي اثنين من رجالي فرأيت ما يكل قلبي عن وصفه من المصائب التي نزلت باولئك الاقوام . فكنت ارى هذا يصرخ من ألم جرح وذلك قد أحرقت رجلة وتلك يدها وهذه ظهرها . ومنهم من يدوس النار طالباً الفرار . ورأيت امرأة كانت قد سقطت في وسط اللهيب فاحترق جسدها فكانت تنوح خوفاً والماً . ورجلاً اصابة رصاص في ظهره فخرج من صدره فسقط على الارض ومات على مرأى مني

فرغبت في ان اقف على حقيقة اسباب هذه الاعمال ولكني لم افهم ما كانوا يقولونه على اني رأيت من بعض اشاراتهم انهم لم يعملوا سبباً لذلك. فاحت نظري عما امامي لانه لم يكن لي طاقة على مشاهدة اعمال فظيعة وحشية كهذه وانثنيت راجعاً الى رجالي وقد عزمت على ان اذهب بهم الى محل الكفاح بل محل المذبحة خائضاً في وسط اللهيب المتقذف لكي اردع المعتدين عن شرهم غير مبال بسوء العواقب . فلما اتيت رجالي اخبرتهم بعزمي وامرتهم ان يقتفوا اثري واذا اربعة من رجالنا وفي مقدمتهم رئيس القارب قد تقدموا الينا دائسين جثث القتلى الذين جندلوهم بحد سيوفهم والدم والرماد قد البسهم ثوباً فوق ثيابهم وهم يزارون كالاسود الضارية . فالوا عنا وذهبوا قاصدين الفتك في اولئك الاقوام . فناداهم رجالنا بصوت عال ان يأتوا اليهم فلم يسمعوهم. ثم ناداهم احدهم بصوت مزق احشاء السماء فسمعوهُ واتوا . فلما رآنا رئيس القارب صاح فرحاً لانهُ ظن اننا اتينا لمساعدتهِ على قبيح عملهِ . فتقدم الينا وقبل ان كلمناهُ قال لي ايها الرئيس انعم بك انني لمسرور من حضورك لاننا الى الآن لم نتم نصف العمل . تباً لهم من انذال انني لاقتلنَّ منهم قدر شعر راس توم المسكين ولأستاصلنَّ هذه الامة . ثم ركض بسرعة قاصداً تتميم الشر دون ان اكلمهُ

فتحركت فيَّ كامنة عواطف الغضب وناديتهُ بصوت مرتفع ايها الكلب

المتوحش ماذا تفعل . ان اضر احدكم احد اهالي هذه الجزيرة يموت قتلاً بحد صارمي . فقف هنا ولا تتحرك والّا فلا تحسبنّ نفسك من الاحياء فقال يا سيدي ما هذا هل تعلم ماذا تقول وماذا فعل هولاء الوحوش اهالي هذه البلدة . فان كنت ترغب ان تنظر ماذا حملني على فعل هذه الافعال اتبعني . فتبعته قليلاً فاشار الى شجرة واذا توم المنكود الحظ معلق في احد اغصانها وهو مذبوح . فلما رأيته اشتعلت فيّ نار الغضب ولو لم يكونوا قد تجاوزوا حدود الاعتدال في فتكهم بهم لكنت حاولت القيام بحق ثاره . وتذكرت كلام يعقوب لولديه سمعان ولاوي وهو ملعون هو غضبهما لانهُ كان شديدًا وحقدهما لانهُ كان شريرًا . فلما رأى من معي من الرجال رفيقهم على تلك الحال هاجوا وطلبوا الانتقام فاخذت اخمد نار غضبهم وتكبدت اتعابًا توازي اتعابي مع الباقين لردعهم عن قبح فعلهم . وابن اخي هاج واخذ في مساعدتهم عند ما رأى راس المقتول . وقال على مسمع منهم انني لا اخشى غير تكاثر الاعداء علينا . اما اهالي هذه البلدة فعندي انهُ يجوز قتلهم اجمع لانهم قد اشتركوا في قتل ذلك المنكود الحظ . فلما سمع هذه الكلمات رجالي ذهب منهم ثمانية مع جماعة رئيس القارب ليتمموا ما ابتدأوا بهِ من قبيح فعلهم . فلما رأيت انهُ لا اقتدار لي على ردعهم انثنيت راجعًا بحزن ولوعة . لانهُ لم يكن لي طاقة على التفرس في تلك المناظر المريعة خاصةً استماع صراخ اولئك الذين يوقعهم نحسهم في ايدي رجال المركب

فلم يرجع معي غير وكيل الشحن ورجلين اخرين . فسرنا قاصدين القارب . فكان من الواجب عليّ ان لا ارجع وحدي مع ارفاقي الثلاثة بل ننتظر رجوع الباقين لان الصباح كان قد اصبح وخبر ما حصل ملأ الجزيرة . وكان عند البيوت القليلة المذكورة نحو اربعين رجلاً متقلدين قسيًّا وسهامًا ورماحًا . على انني بالصادف بلت عنهم وذهبت من طريق اخرى حتى وصلت الى الشاطئ وكانت الشمس قد طلعت . فنزلت مع من معي في القارب وذهبت قاصدًا المركب . ثم ارجعتهُ ليأتي بالباقين

فلما وصلت الى القارب لاحت مني التفاتة نحو البلدة فرأيت ان اللهيب قد خمد والصراخ قد قلّ . على انهُ بعد ان وصلت الى المركب بنحو نصف ساعة سمعت صوت اطلاق بنادق ورأيت دخانًا كثيفًا يتصاعد . فاخبروني بعد رجوعهم انهم رموا به الرجال الذين كانوا واقفين عند البيوت القليلة المذكورة آنفًا . فقتلوا منهم ستة عشر او سبعة عشر رجلاً واحرقوا جميع البيوت الّا انهم لم يؤذوا النساء والاولاد

فلما وصل القارب الذي اتيت بهِ من المركب الى الشاطئ اخذ رجالنا بالرجوع فلم يرجعوا جملة بل كل واحد او اثنين سوية حتى انهم لو ادركهم جمهور قليل من الاعداء لكان اهلكهم اجمع ولكنهم انزلوا الرعبة والخوف في قلوب اهالي تلك البلاد حتى لو صادف مائة منهم خمسة من رجالنا لفروا هاربين والنجاة طالبين . اما اهالي البلدة فلم يدافعوا اقل المدافعة عن انفسهم لانهم داهموهم ليلاً وهم غير مترقبين خطرًا وزادت حيرتهم وخوفهم عند ما وجدوا انفسهم في وسط اللهيب والموت يحل بمن خرج منهم وكان الظلام قد حجب اعداءهم عن ابصارهم فلم يعرفوا عددهم . فكانوا لا يعلمون الى اين يفرون لانهم كانوا اذا ذهبوا من جهة ادركهم فريق وفتك بهم وان مالوا الى اخرى ادركهم آخر وانزل بهم الوبال اما رجالنا فلم يصبهم ضرر . غير ان واحدًا منهم صدع رجلهُ وآخر احرق احدى يديهِ

فاستشطت غضبًا عليهم خاصةً على ابن اخي الرئيس لانهُ لم يتصرف كرئيس مركب عليهِ مسؤولية الشحن . فعوضًا عن ان يخمد نار الفتنة اضرمها وقوى رجالهُ على فعل قبيح . فلما اخبرتهُ بذلك اجاب بوقار قائلاً عند ما رأيت جثة ذلك الملاح المسكين الذي مات قتلاً بايدي اولئك البرابرة هاج الدم في عروقي فغبت عن الصواب ولم اقدر ان اضبط نفسي . على انهُ كان من فروضي ان اردعهم عن التعدي ولكنني بشر ذو طبيعة ضعيفة مائلة الى الشر . اما الملاحون فانهم غير خاضعين لسلطتي فلم يبالوا بغضبي

ففي اليوم التالي نشرنا شراعات المركب واخذنا في المسير فلم نسمع شيئًا عن الجزيرة بعد ذلك . اما عدد القتلى الذين قتلوا من الهنود في المعركة فلم يكن معروفًا لان كل واحد من الرجال خالف رفيقه بالخبر . على ان المظنون ان عددهم نحو مائة وخمسين نفسًا رجالاً واولادًا . اما توم جفري فلم يأتوا بجثته الى المركب بل دفنوهُ في الجزيرة

فقلت للملاحين لا ريب ان الله سبحانهُ وتعالى ينتقم منكم على هذا الشر وينزل بنا وبلاً وهوانًا . لان توم جفري كان المعتدي بخرق العهود وافتراسهِ تلك الفتاة التي اتتكم مستأمنة على نفسها وعرضها بناء على المعاهدة الجارية بينكم وبين قومها

فاجابني رئيس القارب مدافعًا عن نفسهِ ان من نظر الى ظاهر ما قد جرى يظهر لهُ اننا قد تعدينا العهود ولكن ذلك ليس هو مغايرًا للصواب لان اهالي الجزيرة قرروا بخرق التسالم وابتدأوا بالحرب منذ يومين لانهم رمونا بسهامهم وقتلوا احدنا دون سبب كافٍ لنقض المعاهدة . ولما كنا قد وجدنا انفسنا قادرين على القيام بحق الثار يحق لنا ان نقوم بهِ بحسب الحال . نعم ان توم المنكود الحظ تعدى على تلك الفتاة لكنهُ لا يستحق قتلاً وحشيًا . فوالحالة هذه لم نفعل الا ما تسلم لنا بهِ سنن الله وقوانين البشر

من اطلع على تفاصيل ما جرى في جزيرة مادا كسكر يظن انهُ من المستبعد ذهابنا مرة ثانية الى بلاد البرابرة . ولكن لا يخفى ان الانسان قلما يتعلم من مصيبة واحدة تجنب المصائب وكان القصد الذهاب الى خليج العجم ومن ثم الى ساحل قوروماندل مارين بسوراق . اما وكيل الشحن فاراد المرور ببنغاليا . فان تعسر ذلك يلتزم بان يذهب الى الصين ويمر بهذه السواحل وهو راجع الى انكلترا

فلما دخلنا خليج العجم ذهب خمسة من ملاحي المركب قاصدين شاطئ بلاد العرب . فلما اتوهُ احاط بهم البدو ولا نعلم ماذا فعلوا بهم فلا بدَّ من ان

يكونوا قتلوهم او استعبدوهم . اما رفاقهم في المركب فلم يتمكنوا من الفرصة اللازمة لنجدتهم . فهذه اول مصيبة دهمتنا . فاخذت اقول للملاحين ان ذلك هو نتيجة الشرور التي ارتكبتموها في الجزيرة ولا بد ان العدل الالهي يأخذ حقهُ منكم . فاجابني رئيس القارب اراك تحكم علينا باكثر مما يسمح لك الكتاب فانهُ قد قيل فيه ان الذين سقط عليهم برج سلوام لم يكونوا اشد شرًّا من الجليليين . فاحجمني خاصة لان الذين اسروا لم يكونوا من الذين اشتركوا في ذبح اهالي الجزيرة واحراق بيوتها

فلم تؤثر فيهم توبيخاتي البتة على انهُ نجم عنها شر لم يخطر لي ببال . ففي احد الايام تقدم اليَّ رئيس القارب الذي كان مقدام ذلك الشر وقال بجسارة لا مزيد عليها انك كثيرًا ما وبختنا على ما فعلناهُ في الجزيرة واكثرت من الطعن واللوم الشديد فاغظت بذلك الملاحين ولاسيما انا . فاعلم انك راكب في المركب وليس لك ادنى سلطة فيهِ ولا امر على ملاحيهِ فلا طاقة لنا على احتمال ذلك . وما ادرانا ان مقاصدك هي سليمة من نحونا لانهُ ربما حملك جهلك على التشكي للحكومة بما فعلناهُ في الجزيرة عند رجوعنا الى انكلترا . فان رجعت عن غيك ووعدت بحسن التصرف نعمًا والاَّ فاني لاتركنَّ المركب لانهُ يلوح لي ان لا امنية لنا بعد الوصول الى بلادنا وانت معنا

فلما فرغ من الكلام اجبتهُ نعم اني قد وبختكم توبيخًا شديدًا على ما ابديتموهُ من الشر في الجزيرة وابديت افكاري من ذلك القبيل بوضوح وحرية على اني لم أملك اكثر من غيرك . اما من جهة عدم سلطتي في المركب فاسلمك بذلك على انهُ يحق لي ان ابدي افكاري في ما يهمنا جميعًا خاصة لان قسمًا كبيرًا من المركب يخصني فلذلك ارى ان المداخلة من حقوقي دون ان يعارضني فيها احد . وكان الغضب قد ملأ قلبي وجرى الدم بحرارة في عروقي . فلم يجبني على ذلك فظننت ان هذه المسأَلة قد انتهت . وكنا حينئذٍ سائرين نحو بنغاليا . فعند ما وصلنا اليها ذهبت الى الشاطئ مع وكيل الشحن قاصدًا التنزه والتفرج . فعند

المساء اخذت اهيئ نفسي للرجوع الى المركب واذا ملاح قد تقدم اليَّ وقال
ارجوك ان لا تزعج نفسك بالنزول الى القارب لاننا قد أُمرنا بان لا نرجع بك
اليهِ فتحيرت جدًّا وملأ الغيظ قلبي من هذه الكلمات المهينة . فسألت الملاح من
امرك . فقال نائب رئيس القارب . فلم اجبهُ على الفور الامر ولكن اخبرتهم انهُ قد
اخبرني بما امروهُ واني لم اجبهُ بشيء .

فتوجهت على الفور واخبرت وكيل الشحن بذلك وقلت لهُ انني اظن انهُ
يقع عصيان في المركب فانوسل اليك ان تستأجر قاربًا من الحدود وتذهب
الى المركب وتخبر رئيسهُ بذلك . ولم يكن لزوم لهذه الافادة لانهُ قبل ان اخبرتهُ
به وقع العصيان في المركب على الصورة الآتية . ان رئيس القارب وناظر المدافع
والنجار وسائر مأموري المركب تقدموا الى الرئيس وقالوا لهُ بعد ان اخبرهُ
رئيس القارب بما جرى بينهُ وبيني من الكلام ان روبنصن قد ذهب بسلام الى
الشاطئ ولو لم يذهب من تلقاء نفسهِ لاكرهناهُ على الخروج من المركب وان
يكن ذلك مما يشق علينا . فنعرض لجنابك الكيفية . وقد دخلنا في خدمة
المركب لنخضع لاوامرك ولا نتأخر عن ذلك ولكن بشرط ان تخرج روبنصن
منهُ فان لم تخرجهُ نترك المركب ونمتنع عن السفر معك . فلما قال جميعنا التفت
الى جهة صاري المقدم حيث كان جميع الملاحين مجتمعين فقالوا جميعنا جميعنا
والظاهر ان كلمة جميع كانت الاشارة بينهم

وكان ابن اخي ذا طبع لين . ومع ان تلك الكلمات ادهشتهُ جدًّا قال لم
يبدُ اني سائعن في هذا الامر ولا اقدر ان اجري شيئًا من هذا القبيل حتى اكلم
عمي بشأنهِ . ثم اخذ يحاول اقناعهم بان طلبهم غير عادل . ولم يجدهِ ذلك نفعًا .
فانهم اخذوا يتحالفون بحضرتهِ على انهم يهجرون المركب ما لم يتعهد لهم بانهُ لا
يسمح لي بالرجوع اليهِ

فارتبك جدًّا خاصةً لانني كنت قد غمرتهُ بافضالي منذ صبوتهِ . فاخذ
يكلمهم بحرارة قائلاً ان عمي صاحب قسم عظيم من المركب فلا اقتدار لي على

اخراجهِ من ملكو فان اصررتم على ذلك بالحكم الوبل والهوان متى وصلتم الى انكلترا . واني افضل ان يغرق بنا المركب في لجة البحر على ان اطردهُ منهُ . فافعلوا ما بدا لكم . على اني اذهب الى الشاطئ وآخذ معي رئيس القارب وهناك نتكلم بهذا الشان وربما اصلحت الامر . فرفضوا قبول ذلك قائلين ان اتى روبنصن المركب نخرج جميعنا منهُ ونذهب الى الشاطئ . فاجابهم الرئيس لمن كان لابد من ذلك اذهب الى الشاطئ وآكلهُ . فاتى الشاطئ ووصل اليَّ بعد ان اخبر في نائب رئيس المركب بما أمر بهِ بمدة يسيرة

فلا يخفى انني فرحت جدًّا بهذا النبإ . لانني خشيت ان الملاحين يتركونني في البحر ثم يقبضون عليهِ ويسجنونهُ ويفرون بالمركب . وهكذا اصبح غريبًا تائهًا شريدًا في بلاد بعيدة عن وطني دون مسعف ولا مجير . فامسي في سوء حال كما كنت في الجزيرة . ولكنهم لم يتصلوا الى ذلك . فلما اخبرني ابن اخي بجميع ما قالوهُ وفعلوهُ قلت له لا تضطرب فانني ابقى هنا . على انني ارجوك ان ترسل لي كل احتياجاتي وامتعتي ومبلغًا كافيًا من النقود فانهُ لا يصعب عليَّ وجود طريقة للعود الى انكلترا

فحزن جدًّا وتكدر كدرًا يصعب على القلم وصفهُ . ولكنهُ لم يقدر على التخلص من هذا المشكل بطريقة اخرى . فرجع الى المركب واخبرهم بان عمهُ قد خضع لارادتهم وارسل يطلب امتعتهُ . وهكذا ارتضى الملاحون وسروا جدًّا واخذ كل منهم في تتميم فروضهِ . اما انا فاخذت في التفكر في ماذا ينبغي ان افعل لكي ارجع الى وطني

الفصل الثاني والاربعون

روبنصن في ماداكسكر

وهكذا اصبحت منفردًا في اقصى اقاصي الارض لان المسافة بيني وبين اهل انكلترا كانت نحو ثلاثة آلاف فرسخ اطول من المسافة التي كانت بيني وبينها عند ما كنت في جزيرتي . على انه كان يمكنني الوصول اليها من هنا . وذلك بان اقطع بلاد المرغوليين حتى الملغ سوراته . ومن هناك اذهب بحرًا الى البصرة ثم اذهب مع القافلة قاطعًا صحراء العرب الى حلب ومنها الى اسكندرونة ومن ثمَّ بحرًا الى ايطاليا وفرنسا وهكذا اكون قد درت حول الارض . او ان انتظر قدوم مركب انكليزي من الصين الى بنغاليا مارًا بجزيرة سوماطره ومن ثم الى انكلترا . على انه كان يلزم لحصول على ذلك اجازة من الشركة الانكليزية التي تخصها تلك المراكب واما من مدبري معاملها واما ان يسمح لي بذلك احد روساء مراكبها من تلقاء نفسو جودًا وتكرمًا . وكنت ارى صعوبة في ذلك لانني لم اكن اعرف احدًا منهم

واثناء غوصي في بحر من هذه الافكار نشر مركبنا شراعاته ورفع مرساته وسافر تاركًا اياي في تلك البلاد البعيدة . فحزنت جدًا لانني لا اظن ان احدًا صادف ما صادفته من سوء المعاملة هلا الذين يعصيهم ملاحوهم فيتركونهم في مكان قفر ويفرون بالمركب . على ان جودة ابن اخي لم تجردني من الاسعافات والاحتياجات الضرورية لانه ترك لي خادمين يصح ان ادعو احدهما رفيقًا ونديمًا . فهذا كان كاتبًا في المركب والآخر كان خادمهُ الخصوصي فاستأجرت منزلاً في بيت احدى النساء الانكليزيات المتوطنات هناك وكانت قد اعدت

منازل لمن يرغب ان يستأجر منها محلات لسكنه. وكان فيه جملة تجار فرنسويين وايطاليانيان من الارلنديين وانكليزي . فحصلت في المحل المذكور على جميع احتياجات الحياة وصرفت فيه نحو ثلاثة اشهر انبصر في ما ينبغي ان افعل لئلا تزل بي القدم اذا اقتحمت الصغر قبل التمعن . وكان معي بضاعة انكليزية ثمينة جداً ومبلغ وافر من النقود فان ابن اخي اعطاني قبل ذهابه الف قطعة من النقود ثمن كل منها ثمانية غروش وصك حوالة باكثر من ذلك لاقبضه لدى الاقتضاء لئلا تفرغ مني النقود فاصبح في سوء حال

فبعتها جميعها باثمان جيدة جداً واشتريت جواهر ثمينة جداً لانني كنت في بلاد غريبة بعيدة عن وطني فالجواهر يمكن وضعها كلها في ثيابي دون ان يعلم بها احد

فبعد ان صرفت مدة طويلة انفتح باب لرجوعي الى انكلترا ولكنني لم اتوجه لعدم موافقة الطريق ثم اتاني في صباح احد الايام التاجر الانكليزي الذي كان في البيت الذي كنت فيه . وكانت قد تمكنت بيني وبينه علاقات المحبة والصداقة وقال لي يا ابن وطني اصغ لما اقوله واظن انه يوافقك لانه قد وافقني وهو ان التقادير قد اوجدتك واوجدتني في هذه البلاد البعيدة عن وطننا . وهي من الاماكن التي يقدر من هو مثلنا قد اختبر الامور التجارية ان يجمع ثروة عظيمة . فان شئت يدفع كل منا الف ليرا راس مال ونترقب ورود مركب يوافقنا فنشتريه. اما انت فتكون رئيساً له وانا اكون التاجر فنذهب الى الصين آخذين معنا ما تروج سوقه فيها

فوقعت مني كلماته موقعاً حسناً جداً خاصةً لانه تفوه بها واوقفني على حقيقة افكاره بخلوص ووضوح لامزيد عليهما . فقلت في نفسي انني غير عازم على ان افعل شيئاً مخصوصاً الآن فاظن من الموافق ان اجيب طلب هذا المحتر. ولولا ذلك لما كان لي استعداد لمعاطاة الاشغال خاصةً لان التجارة لم تكن من اعمالي ؛ على انه يسوغ ان يقال ان التجارة ليست من اعمالي ولكن الجولان والتيه

في الدنيا والتفرج على بلدان غريبة كانت من اعظم مقاصدي . ومضت برهة طويلة قبل ان وجدنا مركبًا موافقًا . على اننا وجدناهُ اخيرًا فاشكل علينا وجود ملاحين انكليز ليقوموا باعمال المركب وادارتهِ مع من نستأجر من ملاحي تلك البلاد . فبعد الفحص المدقق وجدنا نائب قبطان ورئيس قارب ومدبر مدافع من الانكليز ونجارًا وثلاثة ملاحين من الجرمانيين . فهولاء مع من استأجرناهم من ملاحي تلك البلاد كانوا كافين لادارة المركب وتسفيرهِ فنشرنا شراعاتهِ قاصدين الصين ومن ثم صيام ثم سوسكان . ولا حاجة الى التثقيل على القارىء باخبار تفاصيل ما حدث لنا في مدة السفر وما رأيناه من البلدان والشعوب لانهُ كثيرًا ما تعرض لذكر ذلك السياح الذين يجوبون تلك الاقطار . فلما وصلنا الى صيام بدلنا بعض ما كان معنا من البضائع بالافيون والعرق . اما الافيون فكانت سوقة في رواج دائم في الصين وصودف وصولنا اليها حينما كان قد فرغ منها هذا النوع فبعناهُ باثمان جيدة جدًا . ومن ثم توجهنا الى سوسكان ثم رجعنا الى بنغاليا بعد ما صرفنا ثمانية اشهر في السفر والمتاجرة . فسرّنا جدًا التوفيق الذي صادفناهُ في جميع تلك المدة . وكثيرًا ما تعجب التجار الانكليز من حصول من ترسلهُ الشركة الشرقية او من يذهب من التجار الى تلك الاقطار على ثروة عظيمة في برهة وجيزة . فمنهم من يرجع الى بلادهِ وقد كسب ستين او سبعين الف ليرة . على اني اقول انهُ لا غرابة في ذلك لوجود الوسائل الممكنة منهُ كما يتضح من ذكري الاماكن والمحلات المفتوحة كي يتعاطى بها من رغب منهم في التجارة خاصة لان الطلب في جميعها كثير على البضائع ومحصولات البلدان الاجنبية

ان المكاسب التي اكسبتني اياها هذه السفرة والتوفيق الذي فزت بهِ وما رأيتهُ من سهولة الحصول على ثروة عظيمة جدًا حركت فيَّ الميل الى التوطن هناك ومعاطاة التجارة . ولو كنت اصغر عشرين سنة ما كنت حينئذٍ لبثت هناك لا محالة ولكن ماذا ينفع زيادة الغنى رجلًا غنيًا مثلي قد جاوز حد الستين سنة

على السفر والجولان في العالم شدة الميل الى التفرج لا الى اكتساب الاموال . ولا ريب ان ميلي الى مجرد الجولان في الدنيا هو عدم القيام في محل واحد وهو الذي حملني على ارتكاب تلك الاخطار والمشاق لانني عند ما كنت في وطني رغبت جدًّا في الابتعاد عنه . وعند ما ابتعدت اشتد فيَّ الميل الى الرجوع اليهِ. هذا ولم تكن لي رغبة شديدة في الحصول على ثروة فوق ثروتي. على ان مقصدي انما هو التفرج على قسم من العالم كثيرًا ما سمعت عنهُ ورغبت في التفرج عليهِ ولم انتفع غير هذا النفع لانهُ لم يقربني من وطني بل ارجعني الى حيث اوصلني حظي المنكود

فكانت اميالي تختلف جدًّا عن اميال شريكي المذكور. لا اقول هذا تنكيتًا عليهِ واقتصارًا لنفسي لاني اقران اميالهُ شديدة الموافقة لمن هو نظيرهُ غايتهُ اكتساب الاموال والحصول على الثروة والغنى . ولذلك كان قد تغرب عن وطنهِ وجاء بلادًا تبعد عنهُ جدًّا . فكان يرغب في اعادة سفراتهِ فمثلهُ كمثل جواد البريد الذي يذهب حياتهُ بطولها الى المكان الذي رجع منهُ . اما انا فكنت كمن اصابهُ جنون ولا طاقة لي على القيام في محل واحد فكنت اميل دائمًا الى السفر والجولان واكره ان ارى محلاً غير مرة واحدة . وليس ذلك فقط ولكنني رغبت جدًّا في الرجوع الى وطني . على انني كنت محتارًا في امري لا اعلم من اي طريق اذهب اليهِ. فبينما كنت غائصًا في تلك الافكار تقدم اليَّ شريكي الذي كان يهتم في ايجاد وسائط لاكتساب الاموال وقال لي هلمَّ نذهب الى جزائر البهارات فناتي من المنيلاز بشحنة كبش قرنفل . وكانت تلك الجزائر تخص مملكة اسبانيا . اما الجرمانيون فكانوا كثيرًا ما يأتونها لمعاطاة التجارة . فتمنعت مدة عن اجابة طلبهِ . على انني عند ما رأيت انهُ ما من شيء يشغلني عن ذلك وان المكاسب هي باهظة وانني التذ بها اكثر من القيام في محل واحد وذلك هو ما انماهُ اجبت طلبهُ واخذنا نهيء انفسنا للسفرة وبعد مدة يسيرة سافرنا الى المكان المقصود ورجعنا بعد نحو خمسة اشهر مارين بجزيرة بورنو ومحلات اخرى

كثيرة قد نسيت اسماءها . وكانت هذه السفرة مقرونة بالنجاح والتوفيق الزائد . فبعنا البهارات التي اتينا بها من هناك الى تجار فارس الذين ذهبوا بها الى خليج العجم فكان مكسبنا كثيرًا فان القرش كسب خمسة قروش

فلما فرغنا من حساب مكاسبنا التفت اليَّ شريكي وهو يبسم وقال . كيف تقول اليس هذا افضل من التبختر في هذا المكان كمن لاشغل له نحتقر بخرافات الوثنيين وعاداتهم . فاجبتهُ كيف لا يا صديقي فاني ارى نفسي الآن تميل الى الاعمال التجارية . على انك لا تعلم عوائدي فينبغي ان اخبرك بها وهي انني مع كل ما تراهُ فيَّ من التقاعد الآن ان تقدمت الى السفر بميل شديد اقطع بك الدنيا من مشرقها الى مغربها دون سكون ولا فتور حتى تسأم من الحياة مع ان الايام قد صبغت سواد شعري بالبياض

فبعد برهة قصيرة الى مينا بنغالها مركب جرماني من باتافيا محمولهُ نحو مائتي طن . فبلغنا ان رئيسهُ يرغب ان يبيعهُ لان ملاحيهِ زعموا ان لا اقتدار لهم على القيام بادارتهِ لانهم مرضوا ولذلك التزم الرئيس ان ينشر اعلانات بانهُ يرغب في بيعهِ . فبلغني ذلك قبل شريكي فرغبت في ابتياعهِ فذهبت اليهِ واخبرتهُ بهِ . فتأمل برهة لانهُ لم يكن عجولاً في اعمالهِ ثم قال ان هذا المركب كبير . ويفوق احتياجنا ومع ذلك لا بأس من ابتياعهِ . فاشتريناهُ ودفعنا ثمنهُ وتصرفنا بهِ . وبعد ذلك عزمنا على ان نتفق مع ملاحيهِ ان لا يتركوهُ بل يبقوا في خدمتنا فانهم مع بقية ملاحينا يقدرون ان يقوموا بحق ادارتهِ . على اننا بحثنا عنهم ولكن لم نجد احدًا منهم فبلغنا انهم حينما قبضوا معاشاتهم وحصة كل منهم من ثمنهِ توجهوا الى مكان مجهول عند الناس . وبلغنا لدى الفحص المدقق انهم ذهبوا جميعًا الى اكرا قصبة مملكة المغوليين قاصدين ان يذهبوا من هناك الى سورات ومن ثم بحرًا الى خليج العجم

فلما بلغني ذلك قلت في نفسي يا ليتني توجهت معهم فاستأمن برفقتهم على نفسي من اخطار الطريق وارى ما اشتهي ان اراهُ من العالم واقرب من وطني .

ولكني فرحت جدًا لاني لم اذهب معهم عند ما بلغني بعد ايام انهم لصوص وما يأتي هو من اخبارهم. ان الرجل الذي باعنا المركب لم يكن رئيسهُ بل المدفعي. فبينا كان رئيسهُ في حجرة هاجمهُ الماليون وقتلوهُ مع ثلاثة من رجالهِ . فبعد ان قتل الرئيس فرّ بالمركب ملاحوهُ وهم احد عشر رجلاً بعد ان تركوا نائب رئيسهِ وخمسة من ملاحيهِ هناك واتوا بهِ الى بنغاليا . وسيأتي ذكر تفاصيل ذلك في مكانهِ

فما لنا ولذلك لاننا لم نسرق المركب بل اشتريناهُ بمالنا . على انهُ كان من الواجب علينا ان ندقق الفحص لاننا لو سألنا كلاً منهم على حدتهِ لتناقضت اخبارهم وتقاريرهم . فنستنتج من ذلك انهم قد ارتكبوا الحرام فنتمنع عن ابتياعهِ . اما الذي باعنا اياهُ وادعى انهُ رئيسهُ وصاحبهُ ارانا صك رجل يدعى عمانوئيل كلوتاشوفن وقال انهُ هو ذلك الرجل غير انني اظن ان الصك المذكور مزوّر ولكن لم يبلغنا ما يجعلنا نرتاب في صدق كلامهِ فاخذناهُ على محمل الصدق واشترينا المركب دون ان نفحص تفاصيل اخبارهِ

فاستأجرنا جملة ملاحين انكليز وجرمانيين لادارتهِ وعزمنا ان نذهب مرة اخرى الى الجزائر لجلب البهارات ولا حاجة للاسهاب باخبار اسفاري هنا وتجارتي بل يقتضي ان نتقدم الى ذكر ما هو اهم . ولكن اقول انني صرفت ست سنوات في هذه البلاد في الذهاب من مكان الى آخر في طلب الارباح التجارية فنجحت جدًا . ففي السنة الاخيرة من تجارتي مع شريكي المذكور ركبنا المركب قاصدين الذهاب الى الصين مارين بصيام لنشحن منها ارزًا

فصادفتنا رياح كثيرة مضادة فصرفنا مدة طويلة نصادمها في مضيق ملقا وبين الجزائر فلما خرجنا من بينها بعد مشاق كثيرة وجدنا ان الماء يدخل المركب دون ان نرى محل دخولهِ . فاضطرنا الامر ان نذهب الى فرضة لتصليحهِ فقال شريكي الذي كان يعرف تلك المحلات انهُ ينبغي ان نذهب الى نهر كامبوديا وكنت قد سلمت ادارة المركب الى النائب الانكليزي الذي يدعى تومسون

لانني لم ارضَ ان القي على عاتقي مسؤولية ادارتهِ . اما النهر المذكور فكان مصبهُ شمالي الخليج الذي يدخل في اراضي صيام . فذهبنا اليهِ . وكنت اذهب الى الشاطئ لقضاء بعض الحاجات . ففي احد الايام تقدم اليَّ رجل انكليزي ظهر لي من منظرهِ انهُ مدفعي في احد مراكب الهند الشرقية الانكليزية الذي كان راسيًا حينئذٍ في نفس الخليج الذي كنا فيهِ بالقرب من مدينة كامبوديا . ولا اعلم ماذا اتى بهِ اليَّ . فبعد ان حيَّاني قال لي باللغة الانكليزية يا سيدي انت لا تعرفني وكذلك انا لا اعرفك على انني ارغب ان اكلمك بما يهمك جدًّا

فتفرست فيهِ برهة ولاح لي انني اعرفهُ ولكنني اخطأت في ظني . فاجبتهُ ان كان ذلك يهمني جدًّا ولا يهمك فماذا يحملك على ان تخبرني بهِ . قال ان الذي يحركني اليهِ هو الخطر الذي اراهُ يتهددك والذي يلوح لي انك لا تدري بهِ فاجبتهُ انني لا اعلم بخطر يتهددني غير ان الماء يدخل مركبي ولا اعلم من اي مكان وقد عزمت على ان اصعدهُ الى البرغداً . قال انهُ لا يخفى عليك ان مدينة كامبوديا لا تبعد من هنا اكثر من مسافة خمسة واربعين ميلاً حيث يوجد مركبان كبيران انكليزيان وثلاثة مراكب المانية . فاجبت ماذا عسى ان يكون منها فانهُ لا غرض لي بها . فقال ياسيدي اظن انهُ لا يخفى عليك انهُ من المفروض على من كان في بلاد غريبة بعيدة عن بلادهِ مثلك ان يبحث قبل الدخول الى مينا عن المراكب الموجودة فيها . وهل يقدر ان يصادمها او لا . واظن انهُ لا يلوح لك انك قادر على مصادمة تلك المراكب . فاضحكتني غرابة احاديثهِ على انها لم تدهشني لانني لم افهم المقصود منها . فقلت لهُ ارجوك ان تفهمني المقصود . لانني لا اعلم سببًا يجعلني ان اخشى مراكب الشركة الانكليزية ولا مراكب الجرمانيين لانني لست بلص ولا قاطع طريق . فلاحت على وجههِ لوائح الغضب والابتهاج في وقت واحد وقال وهو يبسم ان كنت لا تخشى احدًا فافعل ما بدا لك غير انني اكون قد برَّرت نفسي مما يحل بك وانني لحزين جدًّا ان ارى الندر قد سد اذنيك عن الاصغاء لراي مصيب . واعلم انك ان

لم تفر هاربًا بمركبك من هنا على الفور يهاجمك خمس سفن مملوءة رجالاً تأتيك مع المد الآتي فان ادركتك برجالها يلقون القبض عليك ويشنقونك كلص بحر وبعد ذلك يبحثون عن حقيقة الامر . وكنت اترقب منك مقابلة احسن من هذه مقابلةً لهذا الخبر الذي ينجيك من الهلاك . فاجبته حاشا ان انكر فضل من يحسن اليَّ على انني لا افهم مرادك ولا ادرك الاسباب التي تحمل اصحاب تلك المراكب على مهاجمتي . ومع ذلك حيث انك قد قلت انهُ لا يجب ان نضيع الفرصة لئلا يدركنا الهوان فانا ذاهب الى المركب على الفور لافرَّ بهِ الى وسط البحار ان ابطلنا دخول الماء اليوم لم نبطلهُ . ولكن هل يسوغ ان اذهب وافعل ذلك دون ان اعلم سببًا يلجئني اليهِ . ألا تقدر ان تخبرني شيئًا عن ذلك . فاجاب يا سيدي انني اخبرك بعض الامر ومعي ملاح جرماني اظنهُ يخبرك بتتمةٍ. على ان الفرصة لا تكفي لهذا اجمع . اما بعض الخبر فهو هذا واظن انك تعرف اساسهُ . انك كنت في هذا المركب في سومطره وفيها قتل الماليون رئيس المركب وثلاثة من رجالهِ . ثم انت او البعض من ارفاقك هربوا بالمركب واستملكوهُ وصاروا لصوص بحر فهذا هو الامر . فان وقعتم في ايدي مطارديكم يشنقونكم لا محالة لانهُ لا يخفى عليك ان اصحاب المراكب التجارية لا يرحمون لصوص البحر ولا يعاملونهم بحسب القوانين متى القوا عليهم القبض . فقلت لهُ لقد فهمت مرادك فاشكر معروفك . على انهُ لا علم لي انني فعلت ما نوهت عنهُ بل اعلم اننا قد اشترينا المركب بطريقة قانونية وسافرنا بهِ بقصد المتاجرة كما يفعل الجميع. ولكن لما كان الخطر يهددنا وكنت ارى لوائح الصدق تلوح على وجهك لا بد من ان اكون على حذر من الوقوع في ايديهم. فقال ان ذلك لا يكفي بل يجب ان تهرب من الخطر هذا ان اردت ان تنجو بنفسك وبملاحيك فان ذهبت الآن تبعد كثيرًا قبل ان يأتوا الى هنا فانهم يطاردونك حتى المد . فان صادفك سعد يحصل نوء فلا يتجاسرون ان يتوغلوا في البحر . فشكرتهُ وقلت لهُ بماذا تريد ان اكافي معروفك . فاجاب يا سيدي ربما لا ترغب ان تكافيني لانك

ربما لا تصدقني ومع ذلك اقول انه قد استحق لي اجرة تسعة عشر شهراً من اخذ المراكب . اما الجرماني الذي معي فقد استحق له اجرة سبعة اشهر فان تكفلت لنا بدفع هذه الاجرة ندخل في خدمتك . فان تحقق لديك اننا انقذناك وملاحيك من الموت تكرمنا بما يشاء خاطرك والاَّ فلا تعطنا شيئاً . فاجبت طلبهم وذهبت حالاً الى المركب مستصحباً اياهما معي . فلما دنوت منه صعد شريكي الى ظهره وناداني بسرور لا مزيد عليه قائلاً بشراك لقد سددنا مدخل المياه . فاجبته الحمد لله . فارفع المرساة حالاً . فاجاب كيف هذا ماذا تعني بهذا الكلام يا ترى ماذا قد حصل . فاجبته لا تسل بل مر الملاحين حالاً ان يرفعوا المرساة بسرعة عظيمة . فادهشه كلامي جدًّا على انه امر الرئيس ان يرفعها وينشر الشراعات ففعل . وسرنا بريح نفخت من البر ولكنها لم تكن شديدة . فبعد ذلك دخلت به الى قاعة المركب واخبرته بما يلزم . فاحضرنا الرجلين الينا فاخبرانا ببقية الامر وكان الخبر طويلاً جدًّا . وفي اثناء استماعه اتى ملاح باب القاعة وقال قد اخبرني الرئيس ان اخبركما ان مراكب تطاردنا . فقلت كيف هذا . فقال ان خمس سفن مملوءة رجالاً تطاردنا . فقلت الظاهر ان في كلامهما صدقاً فجمعت حولي جميع الملاحين وقلت لهم ان البعض يحاولون القاء القبض علينا ومعاملتنا كلصوص بحر فهل تتكاتفون معنا على المدافعة عن انفسنا وعن المركب فاجابوا جميعاً بسرور نعم نعم حتى الموت ثم سألت الرئيس كيف نظن هل ينبغي ان ندافع عن انفسنا لانني قد عزمت على مصادمتهم حتى الموت . فاجاب الاوفق ان نرميهم بكللنا الكبيرة بحيث لا يقدرون ان يدنوا منا فان لم يفد ذلك نرميهم بالرصاص متى اقتربوا منا لنمنعهم عن الصعود الى المركب ونقاتلهم . والمظنون انه ليس معهم ما يكسرون به الجوانب ليدخلوا الينا

فامرت المدفعي ان يوجه مدفعين من مؤخر المركب نحو السفن القادمة وان يملأها برصاص وقطع حديد وما اشبهها وهكذا تهيأنا للمدافعة عن انفسنا . هذا وكنا نستخدم كل الوسائل لاسراع سير المركب . اما الريح فكانت جيدة .

وكما نرى السفن الخمس المذكورة عن بعد تجد المسير وقد نشرت جميع شراعاتها فلكي نحقق النظر فيها ونعرف جنسيتها نظرنا اليها بالمكبرة فرأينا ان اثنتين منها كانتا انكليزيتين وقد تقدمتا البقية نحونا مسافة نحو ميلين . اما مسيرهما فكان اسرع من مسير مركبنا . فتأكدنا انهما تدركاننا عن قريب . فلما دنتا منا قليلاً اطلقنا مدفعاً ملوءا باروداً فقط لنبيّن اننا نرغب ان نكلم من فيهما قبل القتال ورفعنا راية بيضاء علامة المسالمة . فلم تجيبا على ذلك بعلامة القبول وهي راية بيضاء ايضاً بل نشرتا في السفينتين رايتين حمراوين علامة لطلب القتال فسارتا حتى دنتا منا مسافة رمية كلة مدفع . فانزلنا راية المسالمة ورميناها برصاص . فلم تتأخرا بل تقدمتا مسافة يسمع من فيها كلامنا ببوق التكلم . فكلمناهم بو قائلين لهم لاتدنوا منا لئلا يصيبكم ضرّ . فلم يجدِ ذلك نفعاً فانهما طاردتانا وحاولتا الاقتراب من موّخر المركب ليصعد من فيهما اليه . فلما تأكدنا انه لانجاة الاّ بالمصادمة لانهم تشجعوا بالثلاث السفن التابعة فامرت الملاحين ان يديروا المركب بحيث تصير السفينتان عند جنبيه ففعلوا . فاطلقنا خمسة مدافع عليهما فاصاب احدها السفينة المتأخرة وكسر موّخرها . فاضطر من فيها ان يلفوا شراعاتها ويتقدموا الى مقدمها لئلا يدخلها الماء فتغرق فوقفت عن المسير . اما السفينة المتقدمة فلم تتأخر بل جدت في المسير فهيّئنا انفسنا لرميها بالرصاص والحديد . وفي اثناء ذلك وصلت احدى السفن المتأخرة الى السفينة التي لحق الضرر بها لتخلص من فيها من الغرق . فعرضنا ثانيةً المسالمة على الذين في السفينة التي اقتربت منا وسألناهم ماذا يريدون منا . فلم يجيبونا بشيء . بل تقدموا بالسفينة الينا قاصدين الصعود الى المركب من الموّخر . فلما رأى مدفعي مركبنا وكان ذا حذاقة في اطلاق المدافع وتحكيم توجيهها اطلق مدفعين عليها فاخطأا . فضج من فيها ولاحوا ببرانيطهم (علامة للسرور عند الافرنج) ودنوا منا . على ان المدفعي ملأهما حالاً واطلقها ثانيةً فلم يصب السفينة بل اصاب من فيها ورأينا ان الكلة اضرت بكثيرين منهم . ثم حولنا جانب المركب اليها

واطلقنا عليها ثلاثة مدافع فاصابتها حتى كادت تغرق لان احدى الكرات كسرت دفتها وقسمًا من موّخرها فلفوا شراعاتها واضطربوا جدًا . ثم اطلق المدفعي مدفعين عليها ولسوء حظ من فيها اصابها على اننا لم نرَ في اي مكان بل رأيناها تغرق وبعض من ملاحيها يسبحون في البحر. فلما رأيت ذلك انزلت قاربًا من مركبنا وامرت من فيه ان يخلصوا من الغرق من يدركونه من ملاحيها وان يرجعوا بهم حالاً الى المركب لان بقية السفن كانت قد دنت منا . فذهبوا وخلصوا ثلاثة رجال كادوا يغرقون . فلما رجعوا الينا نشرنا كل ما عندنا من الشراعات وجددنا المسير. فلما وصلت تلك السفن الثلاث ورأت ما قد حل بالسفينتين المذكورتين رجعت عنا وقد عدلت عن مكافحتنا . وهكذا نجونا من الخطر الذي كان يهددنا وكان عظيمًا على انني لم اعلم سببًا له . فعزمنا ان نغير طريقنا بحيث لا يعلم احد مقصدنا . فتوغلنا في الجهة الشرقية من البحر متجنبين السبيل الذي تمرّ فيه مراكب اوربا وهي ذاهبة الى الصين ومحلات اخرى

فلما ابتعدنا عن الخطر وزال الخوف اخذنا نسأل الملاحين اللذين انذرانا بالخطر عما حمل من كان في تلك السفن على مطاردتنا ومحاربتنا. فقال الجرماني ان الذي باعكم المركب هو لص سرقه بعد ما قتل رئيسه وثلاثة من ملاحيه عند ملقا . اما انا واربعة من ملاحي المركب غير الذين قتلوا فكنا معه . فلما حل بو الموان هربنا الى الغابات وبهنا فيها برهة طويلة . فساعدني المقادير على الوصول الى الشاطئ فنزلت في البحر واخذت اسبح حتى ادركت مركبًا جرمانيًا كان قريبًا من الشاطئ لانه كان قد ارسل قاربًا طالبًا الماء . فلما وصلت الى باتافيا صادفت ملاحين من ملاحي مركبنا وكانا قد تركا الباقين فاخبراني ان الذي فرّ هاربًا بالمركب باعهُ في بنغاليا لجمهور من اللصوص الذين ركبوهُ وساروا بهِ قاصدين نهب المراكب . وانهم كانوا قد هاجموا مركبًا انكليزيًا ومركبين جرمانيين مشحونين باثمن البضائع فاستولوا على ما فيها

فلما سمعنا هذا اندهشنا جدًا . فقال شريكي باصابة لو تغلب علينا مطاردونا

مَلَكنا لا محالة لان ما بلغهم عنا كان كافيًا لان يحكموا علينا بالقتل خاصةً لان قاضينا هو خصمنا . فالاوفق ان نذهب الى بنغاليا دون ان نأتي غير مكان . فنقرر هناك عما طرأ علينا ونبرهن اننا اشترينا المركب بمالنا دون قصد السلب والنهب . فان التزمنا ان نخضع لمحاكمة يكون ذلك امام قضاة منصفين فلا يحكمون علينا بالقتل ثم يبحثون عن تفاصيل الدعوى

فاستصوبت رأيه في اول الامر ولكن لدى التأمل في نتائجه قلت له يلوح لي ان في رجوعنا الى بنغاليا خطرًا عظيمًا لاننا في الجهة الثانية من مضيق ملقا فان عرف بنا الانكليز والجرمان يحيطون بنا من كل جهة ويلقون القبض علينا ونحن فارّون فيحكمون علينا بالقتل بسبب مجرد الفرار من امامهم . ثم سألت الملاحين الانكليز عن آرائهم فاجابوا اننا نقع لا محالة في ايديهم . فازعج ذلك شريكي وكل من في المركب فصممنا على تغيير طريقنا والذهاب الى شاطئ تونكان ومن ثم الى الصين قاصدين التجارة وبيع المركب ثم الرجوع في مراكب اهالي تلك البلاد الى بنغاليا . فاستحسن الجميع هذا الراي فلنا عن طريقنا الاول وتوغلنا في البحر لئلا نصادف مراكب انكليزية او جرمانية . فتضايقنا من جرى طول السفر لانه فضلاً عن مضادة الريح كان قد قلّ زادنا وكنا دائمًا في خطر الوقوع في ايدي مطاردينا لانه ربما سبقنا احدهم الى الفرضة التي كنا قاصديها او صادفنا مركب لمن فيه اطلاع على اخبارنا فيهاجمنا قاصدًا الاستيلاء على المركب والقبض على من فيه . فارتبكت جدًّا وحرت في امري لان المخاطر التي داهمتنا والتي كنا في خطر الوقوع فيها كانت كثيرة . فوجدت نفسي حينئذٍ في اسوءِ حال ولم ابت قط في مثلها لانه لم يطاردني احد حياتي كلها من جرى عمل مغاير للديانة والمروءة لا بل لم افعل شيئًا يجلب عليَّ العار والهوان . فان المصائب التي المت بي كانت شخصية ونشأت عن حوادث مكدرة عند من تصفح اخباري . اما الآن فبغير الواقع لانني بريءٌ ومع ذلك كان يطاردني من ساء الظن فيَّ ولا يصغي لكلماتي لابرئ نفسي بل يحكم عليَّ قبل استنطاقي . فهذا هو

الذي حركني الى الجد في طلب النجاة . على انني لم اعلم الى اين ينبغي ان اذهب لانجو . اما شريكي فخاف جدًّا ولكن عند ما رأى ارتباكي وتحيري اخذ يقويني ويشجعني على مصادمة الرزايا بقلب صخري وقدم ثابتة وابتدأ بوصف محاسن المرافىء التي كنا ذاهبين اليها . وقال انه يذهب بنا الى الصين الداخلية او خليج تونكان ومن ثم الى مكايو وهي من المدن التي تولاها البورتوغاليون وكان فيها كثيرون من الاوربيين خاصةً القسوس الذين جاؤوها ليدخلوا الصين

فصممنا على الذهاب الى هنالك واخذنا في المسير وبعد مدة واتعاب كثيرة وضيق بسبب قلة الزاد اشرفنا صباحًا على المكان المذكور . فلدى التأمل في الاحوال الماضية وفي الخاطر تجنبنا الدخول الى الفرضة فادخلنا المركب في نهر صغير فيه ماء كافٍ وذلك خوفًا من المراكب التي نخشاها . وللوقوف على حقيقة ذلك ارسلنا قارب المركب الى الفرضة فنجونا بذلك من خطر مبين لانه في صباح اليوم الثاني دخل تلك الميناء مركبان المانيان ومركب غير رافع راية على اننا ظنناهُ المانيًا وكان قاصدًا الصين . وفي نفس ذلك النهار مرّ مركبان انكليزيان قاصدين المحلات نفسها وهكذا رأينا اننا محاطون بالاعداء . اما المكان الذي كنا فيه فكان كانه قفر . اما سكانه فمن ابرع اللصوص لان السرقة كانت من مهنتهم . ومع انه لم يكن لنا تعلق بهم الاّ لاجل ابتياع قليل من الزاد التزمنا بان نتجنبهم كل التجنب خوفًا من الاهانة . اما المكان الذي التجأنا فهو مرساة المركب فيبعد بعض اميال عن ينبوع ماء النهر . فانزلنا القارب وذهبنا الى الجهة الشمالية الشرقية الى الارض الداخلة في المياه التي ضمنها خليج تونكان العظيم فرأينا منها ان اعداءنا في كل جانب . واما سكان تلك الاقطار الذي سبق ذكر بعض صفاتهم فمتوحشون جدًّا يفوقون بالتوحش جميع اهالي تلك النواحي لانه لم يكن لهم تعلق بشعوب اخرى . وكانوا يتعاطون بيع السمك والزيت وما شاكلها . ومن عوائدهم ان يأسروا ملاحي المراكب الذين تنكسر عند سواحلهم ويستعبدونهم . وقد تبرهن لنا صحة ذلك من معاملتهم ايانا هذه المرة كما سترى

قد تقدم الكلام ان الماء كان يدخل المركب من حيث لا نعلم واني عندما اتيت المركب لنفرّ به من وجه الانكليزيين والالمانيين القاصدين القاء القبض علينا وجدت لعظم حظي انهم سدوا مكان دخوله . ولكن عند الوصول الى هذا المكان وجدنا ان المركب ليس بذي ضبط تام فعزمنا ان نصعده الى البر فنصلحه بعد ان نخرج منه ما فيه من الاثقال ثم ننظف قعره . فشرعنا في اخراج الاثقال من مدافع وغيرها الى البر وبعد ذلك اوشكنا ان نصعده الى البر ولكن تأخرنا عن ذلك لانه لم يكن لزوماً شديداً له فضلاً عن عدم صلاحية المكان . فقر رأينا ان نميله الى جانب واحد ونفحص الجانب الآخر وهكذا فعلنا فلما رأى اهالي ذلك المحل المركب على هذه الحال ظنوا انه قد غرق لانهم لم يروا قبل مركباً مائلاً خاصةً لانهم لم يروا الرجال الذين كانوا يشتغلون في الجانب الآخر . فكنا نراهم يتقدمون الى الشاطئ من كل ناحية . ثم بعد نحو ساعتين او ثلاث ركبوا احد عشر او اثني عشر قارباً في كل منها ثمانية او عشرة رجال قاصدين دخول المركب ونهب ما فيه واسر ملاحيه ليقدموهم عبيداً لملكهم او حاكمهم الذي لم يسمع عنا شيئاً البتة . فتقدموا الى المركب واخذوا يسيرون حوله حتى وصلوا الينا ووجدونا نشتغل بجد في تنظيفه ودهنه وما اشبه فوقفوا بقواربهم قبالتنا واخذوا يتفرسون فينا برهة . فادهشنا منظرهم لاننا لم نعلم مقصدهم وما الذي حملهم على الاتيان الينا . على اننا استصوبنا ان نهيئ انفسنا للمدافعة . فاستغنمنا سنوح هذه الفرصة واصعدنا بعضنا الى المركب ليأتوا باسلحة لمن في القوارب التي كنا نشتغل فيها . فلما رأى اولئك المتوحشون اننا ننقل بعض الاسلحة الى القوارب قرّ رأيهم لدى المخابرة مدة ربع ساعة ان المركب مكسور واننا اخذنا في نقل بعض امتعة منه الى القوارب لنخلصها من الغرق وان ما كنا نشتغله في جانبه هو وسائط لتخليصه فان لم يصح هذا نكون على الاقل قد خلصنا بعض امتعة ثمينة فبناء على ذلك هجموا هجمة واحدة على رجالنا الذين في القوارب لانهم ظنوا ان المركب وما فيه وملاحيه لهم لانه كان قد غرق

فلما رأى ذلك رجالنا وتحققوا كثرة عددهم خافوا جدًّا وتحيروا في امرهم لان مركزهم كان رديئًا جدًّا فنادونا قائلين ماذا ينبغي ان نفعل. فقلت لمن على جانب المركب هلموا ادخلوا حالاً المركب ثم امرت من في قواربنا ان يأتوا الجهة الثانية منهُ ليصعدوا اليهِ . اما نحن الذين كنا في المركب فشرعنا بكل قوانا ان نقوّمهُ . على ان الذين كانوا على جانبهِ وكذلك الذين كانوا فيهِ لم يقدروا ان يمتثلوا اوامري لان الصينيين وصلوا اليهم . وقاربان من قواربهم وصلا الى قاربنا الكبير واخذ من فيهما يلقون القبض على بعض رجالنا ليأسروهم . فاول من قبضوا عليهِ كان ملاحًا انكليزيًا وهو من ذوي القدرة وكان في يدهِ بندقية لم يحاول اطلاقها بل القاها بجانبهِ كمن قد اصابهُ جنون . ولكنهُ عرف كيف يصادم عدوهُ بطريقة اخرى وهي انهُ قبض عليهِ وجرَّهُ بالقوة الى قاربهِ ثم امسك اذنيهِ وضرب رأسهُ على جانب القارب فقتلهُ حالاً فبغضون ذلك اخذ بارودتهُ احد الملاحين الجرمانيين وكان واقفًا بجانبهِ وقتل خمسة منهم طعنًا بحربتها وكانوا قد حاولوا الدخول الى قاربنا . على ان ذلك لم يكن كافيًا لردع اربعين او خمسين بربريًا لا يخشون الموت لانهم لم يعلموا انهُ يهددهم . فاخذوا يدخلون القارب الكبير وكان فيهِ فقط خمسة من رجالنا ليدافعوا عنهُ

وكان النجار قد ذوَّب زفتًا في قدر وزيتًا حارًا في آخر ليدهن بهِ المركب ويزفت المكان الذي دخلت منهُ المياه . وكان بيد مسعفهِ مغرفة كبيرة من حديد . فدخل اثنان من الاعداء القارب الذي كان فيهِ مسعف النجار فملأ المغرفة زفتًا وزيتًا مغليًا جدًّا ورماهما بها فاصابهما حال كونهما يكادان يكونان عريانين فتالما جدًّا وصاحا وطرحا أنفسهما في البحر من شدة ألم حريق الزفت والزيت. فلما رأى ذلك النجار ناداهُ قائلاً لا شلت يداك يا جاك ارمهم بهِ وتقدم هو وملأ مغرفة ثانية كبيرة جدًّا ورماهم بما فيها وهكذا حتى اصاب ذلك كل من كان منهم في القوارب الثلاثة فعلا لهم ضجة وعويل وصياح لم يطرق اذني صوت اكره منهُ . واكثر الناس يصرخون متى تالموا . على ان كل امة تصرخ في

ظروف كهن باصوات تختلف عن غيرها بحسب لغتها . اما اصوات هولاء البرابرة فلا اقدر ان اصفها وصفًا صحيحًا . على اني اقول انها حاكت اصوات الذئاب التي سمعتها في الغابة بالقرب من لاتكبروك كما تقدم الكلام . فانهزم البرابرة هزيمة هائلة مضحكة جدًّا فسررت في ذلك لاننا دافعنا عن انفسنا واموالنا دون ان نهرق دماء كثيرين . لان قتل رجال برابرة كان يكدرني جدًّا وان يكن ذلك للمدافعة عن حياتي لانني كنت اعرف انهم كانوا يظنون ان ما يفعلونهُ هو ما يحق لهم فعلهُ . وكنت اقول في نفسي ان من اكره الامور عندي ان التزم بان اهرق دماء ابناء جنسنا البشري للمدافعة عن انفسنا . وكنت افضل احتمال مصائب واخطار كثيرة على سفك دم اردإ البشر واشر اعدائي . ولا ريب ان كل من تزين بالتمييز ومحبة الانسانية من الذين يدركون مقدار عزة الحياة يسلمون معي في ذلك ان تمعنوا فيهِ

وكنت انا وشريكي والملاحون الذين صعدوا الى المركب نجتهد في ترجيعهِ الى مركزهِ الاصلي فبعد اتعاب قليلة نجحنا وارجعنا المدافع الى محلاتها . فبعد ذلك ناداني المدفعي قائلاً يا سيدي مر الذين في قواربنا من رجالنا ان يجيئوا من امام المدافع لانني ارغب ان اطلق المدافع عليهم . فاجبتهُ ان لا يفعل لان التجار يحاربون عنا . فامرتهُ ان يزيد القدر رزقًا وزيتًا ويوصي الطباخ ان يعتني بحفظها غالية ولم نحتج اليها لان الرعبة التي حلت في قلوب اعدائنا اخرتهم عن مهاجمتنا ثانيةً . اما ارفاقهم الذين لم يصلوا الينا فلما رأوا ما حل بهم وان المركب عائم على وجه المياه رجعوا عن مقصدهم لعلمهم انهم قد ارتكبوا الغلط في ما فعلوهُ وهكذا تخلصنا من هذه المعمعة المضحكة . وبعد ما تزودنا ارزًا واصول التجار وخبز ونحو ستة عشر خنزيرًا عزمنا على الرحيل مع قطع النظر عما ربما صادفناهُ من المصائب . لاننا تاكدنا ان الاقامة هناك تجعل جمهورًا غفيرًا من البرابرة يحيط بنا فلا يقدر التجار على مصادمتهم رزقتو . فهيأنا المركب للسفر في الغد . واثناء ذلك التهيأ المرساة في مكان بعيد عن الشاطئ وهيأنا انفسنا للقتال . فلم نخشَ

عدواً . ففي الغد بعد ان فرغنا من تنظيم داخلية المركب ووجدنا ان الماء لا يدخلهُ رغبنا في ان نذهب الى خليج تونكان لنقف على حقيقة مقاصد المراكب الانكليزية والجرمانية ولكننا لم نتجاسر ان نأتيهُ لئلا يحل بنا الويل والهوان . فحولنا طريقنا الى الجهة الشمالية الشرقية قاصدين جزيرة فورموزا وفرائصنا ترتعد خوفاً لئلا نصادف سفناً انكليزية او جرمانية . فسلكنا سبيلاً يؤدي الى جزائر مانايلس او الفيلبية وذلك تجنباً للسبيل الذي تسلكهُ مراكب اوربا . وبعد مدة سرنا الى الشمال فوصلنا الى جزيرة فورموزا ودخلنا ميناها لكي نتزود ماء وقوتاً . اما اهاليها فكانوا من اللطف والرقة والعدالة والامانة والصدق على جانب عظيم . فقدموا لنا كل ما نحتاج اليهِ دون ان يحاولوا مخادعتنا في الاسعار والاخذ والعطاء وما ذلك الا من جملة تأثيرات الديانة المسيحية التي يشرحها احد القسوس الالمانيين . ومن جملة ما لاحظتهُ في اسفاري هو ان الديانة المسيحية اثرت تأثيرات حسنة جدًّا في من اعتنقها وان لم تبلغ بهِ الى الخلاص بتأخرهِ عن القيام بحق سننها ونواميسها

ثم سافرنا الى الجهة الشمالية قاصدين سواحل بلاد الصين حتى قطعنا جميع الفرص التي تأتيها مراكب اوربا وكنا نجتهد جدًّا ان لا نقع في ايديهم خاصةً في تلك البلاد البعيدة لانهم اذا القوا القبض علينا فيها يملكوننا ويملكون المركب وما فيهِ . فلما ظننا اننا قد تجاوزنا الاماكن التي نخشى ان نصادف فيها مراكب اوربا عزمنا على الذهاب الى الميناء الاولى التجارية فسرنا نحو الشاطيء واذا قارب قد اقترب قليلاً منا وفيهِ دليل بورتغالي اتانا عارضاً علينا خدماتهِ لانهُ عرف من منظر المركب انهُ من المراكب الاورباوية الغريبة . ففرحنا جدًّا لاننا كنا في احتياج اليهِ واصعدناهُ الينا . فعند ذلك رجع القارب الذي اتانا بهِ دون ان يسألنا عن مقصدنا

فلاح لي اننا قد حصلنا على دليل يذهب بنا حيثما شئنا . فشرعت اتكلم معهُ عن الذهاب الى خليج تانكين وهو في شمالي الصين . فقال وقد تبسم انني

اعرف حق المعرفة ذلك الخليج ولكن ماذا تقصدون ان تفعلوا هناك . فاجبته نرغب ان نبيع بضائعنا وان نشتري بضائع صينية وحريرًا منسوجًا وغير منسوج الى غير ذلك ثم نرجع في الطريق التي اتينا بها فقال ان احسن مكان لبيع بضائعكم وشراء بضائع صينية هو مدينة ماكاوو . فان فيها كل ما تريدون واثمانها بخسة فقلت له وقد كدرني بكثرة كلامه وتعرضه لما لا يعنيه . اننا نرغب في التفرج على مدينة باكين العظيمة عاصمة مملكة الصين وكرسي ملكها المشهور . فاجاب ينبغي ان تذهبوا الى تانكيبو ومن ثم تصعد في النهر الذي يمر في وسط تلك البلاد العظيمة حتى مدينة باكين . فاجبته انه لاميل لي الى ذلك غير انني ارغب ان اسألك هل تقدر ان تذهب بنا الى مدينة نانكين ومن ثم تذهب الى باكين . فاجاب كيف لا . وقد ذهب الى هناك منذ برهة يسيرة مركب جرماني كبير . فلما سمعت هذا الخبر ارتجف جسدي خوفًا لانني كنت افضل مصادفة ابليس على ان اصادف مراكب المانية . لانه لم يكن عندنا اقل ريب ان ذلك يؤدي بنا الى الهلاك لعدم اقتدارنا على مصادمتها خاصةً لان جميع المراكب التي تأتي تلك الجهات هي من المراكب التي تفوق مركبنا حجمًا وقوة

فلما رأى الدليل ارتباكي وحيرتي من جرى ذكرهِ مركبًا المانيًا قال يا سيدي لاتخف الجرمانيين لانني اظن ان دولكم لاتحارب الآن دولتهم . فاجبته نعم على انني لا اعلم ماذا يصنع بنا مركب اقوى من مركبي اذا صادفته في محلات لاتبلغها قوانين مملكتو . فقال انكم لستم بلصوص فماذا تخشون . ألا تعلم انهم لا يتعرضون للمراكب التجارية

فلما سمعت هذه الكلمات تصاعد الدم بعنف الى وجهي وتغيرت حركته في عروقي فارتبكت جدًا حتى انني لم اقدر ان اضبط نفسي . اما الدليل الشيخ فلحظ ذلك بسهولة

فقال لي يا سيدي اراك مرتبكًا في افكارك بسبب ما ابديته لك فارجوك ان تقبل ذيل المعذرة لانني قد اطلت الحديث واكثرت السؤال عما لا يعنيني .

فاذهب الى حيثما تشاء . اما انا فافعل كل ما تأمرني بهِ . فاجبته لاريب ان افكاري مخبرة لانني لم اصمم على الذهاب الى مكان معلوم خاصةً لانك ذكرت لي شيئاً عن مراكب اللصوص وحالة المركب وقوته غير كافية لمصادمتهم على اني اظن انهُ ما من مراكب من مراكبهم في هذه النواحي . فاجابني لاتخش ضرراً لاني لم اسمع بهم في هذه البحار منذ خمس عشرة سنة غير انهُ منذ نحو شهر بلغنا ان في صيام مركب لصوص . ولكنهُ ذهب الى الجهة الجنوبية . اما ذلك المركب فلم يكن قوياً وقادراً على المهاجمة لانهُ لم يبنَ لذلك . وبلغنا ان ملاحيهِ الاشقياء الذين فرّوا بهِ بعد ان قتل قبطانهُ المالبون في جزيرة سوماطره قد حولوهُ الى مركب لصوص . فاجبتهُ متجاهلاً . هل قتل الملاحون قبطانهم . اجاب لا ولكن المظنون انهم اهاجوهم الى قتلهِ او كان لهم في قتلهِ يد لانهم بعد موتهِ استغنموا الفرصة وفروا بالمركب . اجبتهُ انهم يستحقون القتل كانهم قتلوهُ بايديهم . قال كيف لا ولابد من ذلك متى صادفهم مركب انكليزي او جرماني وقد اتفقوا بانهم ان صادفوهُ لا يرحمون من فيهِ بل يعاقبونهم اشد العقوبات . فاجبتهُ قد اخبرتني انهُ قد خرج من هذه البحار فكيف يصادفونهُ . قال ان ذلك لمستصعب غير ان جميع المراكب التي تأتي هذه البحار عندها وصف تام لهُ فمن مجرد النظر اليهِ عن بعد يعرفونهُ فبناء على ذلك يمكنهم القاء القبض عليهِ في هذه البحار او في سواها ولا اظنهُ قد بعد كثيراً عنها لانهُ منذ مدة طويلة اتى خليج صيام في نهر كامبوديا وراَهُ بعض ملاحيهِ الجرمانيين الذين تركهم ارفاقهم في البر مع القبطان عند ما فروا بهِ فاقتفتهُ سفن انكليزية والمانية كانت راسية هناك حينئذٍ وكادت تلقي القبض عليهِ لو ساعدت السفن المتأخرة السفينتين المتقدمتين حق المساعدة ولكنها تأخرت عن ذلك فاستغنم الفرصة من فيهِ ورموها بطلقات المدافع فعطلوها قبل ان تتقدمت لنجدتها السفن المتأخرة وبعد ذلك توغل في البحار فتأخرت عن ان تقفو اثرهُ السفن المذكورة بعد ان حصل لبعضها ما حصل ولذلك قد اضمرلهُ ولمن فيهِ جميع اصحاب المراكب التجارية الشر وتحالفوا على

شنق كل من يقع في ايديهم من راكبيه

فاجبته هل يشنقونهم قبل الوقوف على خبرهم والبحث عن حقيقة ذنبهم .

اجاب يا سيدي لا يخفى عليك انه لا حاجة الى الفحص والتدقيق في امر رجال اشرار كربانه وملاحيه لانهم ان اوثقوا بعضهم بالبعض الآخر وعلقوا كلة مدفع في اعناقهم واغرقوهم في لجة البحر يكونوا منصفين

ولم اكن اخشى الدليل لانه كان تحت سلطتي في المركب فقلت له يا سيدي الدليل اعلم اني خوفاً مما ذكرته طلبت الملك ان تذهب بنا الى نانكين دون الذهاب الى ماكاوو او الى محل آخر حيث ربما صادفتنا مراكب انكليزية او جرمانية . لانه لا يخفى عليك ان روساءها من الغليظي الطباع المتكبرين الذين لا يعرفون الحق والعدل ولا ان يسلكوا بحسب سنن الله وقوانين البشر . ولكنهم نظراً لافتخارهم بمناصبهم وعدم ادراكهم حقيقة فروضهم يرتكبون القتل لمناصة اللصوص . ويقاصون من اتهم تهمة باطلة دون الفحص عن الحقيقة . فاسأل الله ان يلقيني حيّاً ومن عليّ بالرجوع الى وطني لاطلب بعضهم الى المحاكمة على افعال كهذه فيعلمون كيف ينبغي ان يسلكوا مع مراعاة الحق والعدالة . ولا ينبغي ان يعامل احد نظير مذنب حتى يثبت عليه الذنب . ثم قلت له ان هذا نفس المركب الذي تكلم عنه والذي هاجمته مراكبهم . ثم وصفت له المعركة وسوء ادارة من هاجمنا منهم . واخبرته عن كيفية ابتياع المركب وعن معاملة الجرمانيين لنا . وعن الاسباب التي تجعلني ان اصدق ان ملاحي المركب الاولين فروا به بعد ان قتل قبطانه الماليون . واما ما قالوا من ان ملاحيه صاروا لصوص بحر فلا اصل له وكان من فروض من هاجمنا منهم ان يبحثوا عن حقيقة ذلك قبل ان يداهمونا ويلزمونا بان نصادمهم للمدافعة عن انفسنا واموالنا ولا ريب ان دم من قتل منهم في تلك المعمعة يطالبهم الله به . فادهش الدليل هذا الخبر فقال لنا انكم قد اصبتم في تجنبكم المرافئ التي تأتيها مراكب الاوربيين وذهابكم الى شمالي الصين فاشير عليكم بان تبيعوا المركب هناك لان ذلك سهل وان تشتروا

مركبًا آخر صينيًا وإن لم يكن محكم البناء كمركبكم لترجعوا به برجالكم واموالكم الى بنغاليا او مكان آخر. فاجبتهُ ان هذا هو مقصدي بعد وصولي الى مكان اقدر ان ابيع فيهِ مركبي او اشتري غيرهُ. فقال ان كثيرين يرغبون في ابتياع المراكب في نانكين وفيها مراكب يمكنكم الرجوع فيها الى بلادكم. ولا ريب اني اقدر ان اجد من يشتريهِ ومن يبيعكم غيرهُ فاجبتهُ بارك الله في همتك. على اني اخشى ان أكون واسطة لجلب الهوان والويل على من يشتريهِ فانك اخبرتني ان الانكليز والجرمان يعرفون المركب من وصفهِ فحيثما صادفوهُ يحكمون على من فيهِ بالقتل دون فحص وإن يكونوا غير الذين فرّوا بهِ. فاجاب اني سأتخذ الوسائط التي تكفل بردعهم عن المعارضة للمركب ومن فيهِ. لانهُ لا يخفى عليك اني اعرف جميع رؤساء المراكب التي تأتي هذه الجهات فسأخبرهم عن حقيقة الامر وانهم قد ارتكبوا الغلط فيما فعلوهُ. لانهُ مع ان ملاحيهِ فرّوا بهِ لم يكونوا لصوصًا. وفضلًا عن ذلك ان الذين اشتروهُ هم غير الذين فروا بهِ وقد اشتروهُ لمعاطاة التجارة. ولا ريب عندي انهم يصدقونني ويمتنعون عن الحكم على من فيهِ بالموت قبل ان يفحصوهم ويقفون منهم على حقيقة خبرهم

وكنا نسير قاصدين نانكين. فبعد ان سرنا نحو ثلاثة عشر يومًا وصلنا الى الجهة الشرقية الجنوبية من خليجها. فبلغنا هناك انهُ قد تقدمنا مركبان جرمانيان فتشاورت انا وشريكي على ماذا ينبغي ان نفعل لنتخلص من الخطر الذي كان حينئذٍ يهددنا فارتبكنا ولم نعلم ماذا نفعل وكنا نشتهي ان نأتي مكانًا نستأمن بهِ على انفسنا مع قطع النظر عن بعدهِ وقربهِ. فسألت الدليل أَما من مكان وراء صخور او في مصب نهر نقدر ان ندخلهُ ونرسو فيهِ دون ان يرانا مركب اوربي ويمكننا فيهِ ان نتم اشغالنا مع الصينيين. فقال لي ان خليجًا قرب كانتشكان صغيرًا يبعد عنا الى الجنوب مسافة قصيرة ويأتيهِ القسوس ليذهبوا منهُ الى داخلية الصين ليعلموا الصينيين الديانة المسيحية. ولا تأتيهِ مراكب اوربا. اما المكان فليس من المحلات التجارية. غير ان اليابانيين يأتونهُ احيانًا ليشتروا

البضائع الصينية

فاجمع رأينا على الذهاب اليو . اما اسمهُ فقد برح عن فكري وليس لهُ قيد في اوراقي وكنت قد دونتهُ في مفكرة مع اسماء محلات اخرى ولكنها تعطلت بالماء . على اني اذكر ان التجار الصينيين او اليابانيين الذين تعاملوا معنا حينئذٍ يدعونهُ باسم هو غير الذي اخبرنا عنهُ الدليل . فقبل ان ذهبنا الى المحل المذكور اتينا مرتين الشاطئ حيث رسونا في بداءة الامر لنتزود ماء فتلقانا اهالي تلك المحل بالترحاب واحضروا كل ما نحتاج اليو من الارز واصول اشجار وشاي وطيور فاخذناها منهم باثمانها. ثم رفعنا المرساة ونشرنا الشراعات وسرنا قاصدين المحل المذكور آنفًا . وكانت الريح ضدنا فلم نصل الاَّ في خمسة ايام . فلما دخلنا ذلك الخليج فرحنا جدًّا وشكرنا العناية التي اوصلتنا اليو سالمين وسمحت لنا ان ندوس اليابسة ثانيةً . وعزمت انا وشريكي على ان لا نركب ذلك المركب المنكود الحظ اذا وفق الله سبحانهُ وتعالى اشغالنا فاتضح لي مما قاسيتهُ في هذه السفرة من المخاوف والمشاق ان اشقى حياة واتعبها حياة من يخامرهُ الخوف دائمًا فهي امرُّ من الموت لانها تثقل على الفكر وتسلب راحة الانسان وتجعلهُ يتوهم على الدوام ان عدوهُ قريب منهُ . وكان يخال لي ان رؤساء المراكب الانكليزية والجرمانية هم من الذين لا يصغون لصراخ المظلوم ولا ينصفونهُ ولا يميزون بين الابرياء والاشرار ولا بين الصحيح والكذب . ولو وقعنا في ايديهم واصغوا لما نبديهِ من اخبار ما حصل لنا لا قتنعوا انا لسنا من اللصوص . واكبر برهان على ذلك هو البضائع التي كانت معنا ودخولنا الى فرض يتجنبها لصوص البحر وعدد رجالنا قليل . ومن قصد السلب في البحر ينبغي ان يكون عندهُ من المدافع والمهمات الحربية والرجال ما يكفيهِ لمقاومة اعظم المراكب للاستيلاء عليها . اما نحن فلم يكن عندنا ما يكفي من هذا القبيل . اما الذين في المركب من الملاحين والمتوظفين فكانوا من شعوب مختلفة وذلك هو برهان كافٍ لمن يستولي علينا من اوربا . اننا لسنا من الذين فروا بالمركب لانهُ كان قد بلغني

ان عندهم اسماء ملاحيهِ الاولين مع اوصاف كل منهم ولكن قوة الخوف اعمتني عن هذه الامور جميعها واولتني من جنودها جيشًا عرمرمًا فهاجمني وكسر كل جنود المدافعة . فكنت اخاف ما لا يمكن حدوثهُ . وقلنا في انفسنا ان الذين طاردونا في تلك السفن تكدروا جدًّا من عدم نجاحهم ومن الخسارة التي المت بهم حتى انهم ان تمكنوا من القبض علينا يهلكوننا قبل الفحص وما يؤكد لهم ظنهم ويثبت ما بلغهم عنا هو كون المركب الذي كنا فيهِ هو نفس المركب الذي فرَّ بهِ ملاحوهُ خاصة بعد ما صاد مناهم. ولوكنت انا في ظروفهم وهم في ظروفي ربما كنت احكم عليهم انهم لصوص دون فحص واصغاء لما يبدونهُ لتبرير انفسهم

فاقلقتني واقلقت شريكي هذه الامور ونفت النوم من اجفاننا . فكنا كثيرًا ما نحلم بالحبل والاخشاب (اي المشنقة) وبالمحاربة والكفاح وبانهم القوا القبض علينا . ففي احدى الليالي حلمت حلمًا مخيفًا جدًّا فتراءى لي ان الجرمانيين قد دخلوا مركبنا وانني ادافع عنهُ واطعن ملاحًا منهم فاشتد عليَّ الخوف بهذا المقدار حتى اني ضربت جانب المركب بقبضة يدي ضربة شديدة جدًّا فجرحتهُ وانكسرت مفاصل اصابعي فايقظني الألم

وما كان يزيد خوفي وبلبالي هو تصوري قبح المعاملة التي ربما عاملونا بها ان استولوا علينا خاصةً ان كانوا من الجرمانيين الذين كانوا قد ساءوا معاملة بعض ابناء وطننا وانهم بالعذابات المختلفة ربما ساقوا بعض ملاحينا الى الاقرار بذنوب لم يرتكبوها قط او ان يجازوهم لانهم اثبتوا لصوصيتنا وهكذا يقتلوننا جميعًا بشهادة باطلة صدرت ممن كان يعذب بعذابات لا تطاق . وربما حملهم على فعل ذلك طمع الاستيلاء على المركب وما فيهِ . وثمنهُ نحو اربعة او خمسة الاف ليرا انكليزية

فسلبت هذه التصورات راحتي وراحة شريكي ليلاً ونهارًا . فلم يلح لنا قط ان روساء المراكب ليس لهم سلطة ليقاصونا. واننا ان سلمنا لهم لا تسلم لهم القوانين بقتلنا وتعذيبنا . وان فعلوا ذلك يطالبون بهِ عند وصولهم الى اوطانهم . ولكن

هذا لم يسكن بلبالي لانه ما الفائدة بعد انقضاء الاجل

انه يليق بي ان اذكر هنا التأملات التي كانت تطرق افكاري من جهة احوالي العمومية والخصوصية وكنت اقول في نفسي اني انا الذي صرفت نحو اربعين سنة من حياتي في الرزايا والمخاطر حتى ادركت الغاية التي يطالبها كل البشر وهي الاقتدار على المعيشة الهنيئة دون تعب وكد قد طرحت نفسي في مخاطر ومشاق ورزايا لا طاقة لي على احتمالها. واني انا الذي قد تخلصت من مصائب ومخاطر كثيرة في صغر سني وتغلبت عليها سائر ايام غربتي في هذا العالم معلقًا بشبنة في محل يبعد جدًّا عن وطني كمجرم حال كوني بريئًا. فكانت افكار الديانة تتعرض لي وانا غائص في بحار هذه التأملات. فكنت اقول في نفسي الظاهر ان العناية الالهية قد قدرت عليَّ ذلك فليس لي منها مهرب فينبغي ان اخضع لها بشكر. لانه مع اني بريءٌ من الخطايا ضد ابناء جنسي الادميين لست بطاهر من الخطايا ضد خالقي. فالواجب عليَّ ان افحص نفسي لارى ما هي الخطايا التي اذكرها واستحق القصاص عليها. فاذًا من الواجب عليَّ الخضوع التام كما لو حدث لمركبي حادث باذن الله فانكسر. ولكن ضعف الطبيعة البشرية وشرها قد ذهب بي من هذه الافكار وقادني عن غير معرفة الى الاحساسات الطبيعية. فكنت اقول اني لا اسلم قط ان اقع في يد اقوام ظلمة اشرار ليقتلوني. انه احب اليَّ الوقوع في ايدي البرابرة الذين لا محالة يفترسونني اما اولئك فربما يعذبونني بعذابات وحشية لا طاقة لي على احتمالها. كيف اسلم بذلك وانا نفس ذاك الذي كنت اصمم وانا اكافح البرابرة ان ادافع عن نفسي بالقوة حتى الموت. فاذا يمنعني عن ذلك الآن وانا اعلم ان الوقوع في ايدي اولئك هو اشد هلاكًا من الوقوع في ايدي البرابرة. لان البرابرة لا يأكلون اسيرهم حتى يموت. اما اولئك فالعذابات التي يعذبون بها من وقع في قبضة ايديهم هي فائقة الحد والوصف فعند ما كانت تغلب هذه الافكار تلك كان يجري الدم بحرارة في جسدي واشعر كأن عينيَّ تقذفان لهيبًا كأني في وسط

المعركة معتمدًا على المدافعة حتى الموت ولو غلبت قبل ان يأتيني داعي البين ورأيت انني على حمة الوقوع في ايديهم لحرقت المركب بنا اجمع غير تارك لهم ما يغتنمونهُ منهُ

فلما نزلنا الى البر زالت تلك المخاوف والتصورات التي اقلقتنا. اما شريكي فاخبرني انهُ حلم ان حملاً ثقيلاً جدًّا موضوعًا على ظهره ليصعد بهِ على جبل عالٍ فاتى الدليل البرتوغالي وازالهُ عن ظهره اما الجبل فاختفى من امام عينيهِ فرأى ان الارض امامهُ سهلة هينة المسلك . فلا ريب ان جميع من كان في المركب عند ما وصلنا الى اليابسة شعر ان حملاً ثقيلاً ارتفع عن ظهره . اما انا فشعرت ان ثقلاً زال عن فؤادي . فصممنا على ان لا نسافر بعد في ذلك المركب . فلما وصلنا الى الشاطئ هيأ لنا الدليل منزلاً ومخزنًا لبضائعنا . اما المنزل فكان بيتًا صغيرًا واما المخزن فكان مثلهُ وهما مبنيان من قصب يحيط بهما حاجز من قصب كبير لئلا يدخلها اللصوص وكانوا كثيرين جدًّا في تلك البلاد. فلكي نستأمن على اموالنا ارسل لنا حاكم تلك البلدة حرسًا وفضلاً عن ذلك كان عندنا جندي متقلد عند الباب . فكنا نعطيهِ قليلاً من الارز ونحو غرش ونصف كل يوم فكان يجهد نفسهُ ليرضينا ويؤمننا على اموالنا

وكان قد مضى الوقت الذي تروج فيهِ السوق في هذا المكان غير انهُ كان لم يزل راسيًا في المينا اربع سفن ومركبان يابانيان مشحونان بضائع صينية وعرفنا الدليل بثلاثة قسوس كاثوليكيين ساكنين في تلك البلدة يعلمون الصينيين الديانة المسيحية وكان احدهم فرنسويًا يدعى الاب سمعان والثاني برتوغاليًا والثالث جنويًا . اما الاب سمعان فكان لطيفًا رقيق الجانب . واما الاثنان الآخران فكانا يتجنبان المعاشرة وظهر لنا من سلوكهما انهما غير متقنين اصول التداخل واللطف . فكانا يجتهدان جدًّا في القيام بحق فروضهما الدينية من تعليم وصلاة وغير ذلك . اما المبشرون فلا يعلمون الصينيين من الديانة المسيحية غير بعض صلوات يرددونها ومع ذلك كان القسوس شديدي الايمان

بانهم ينالون الخلاص بواسطتهم ولذلك كانوا يقاسون مشاق شديدة واخطارًا كثيرة واضطهادًا لا مزيد عليهِ لاجل تعليمهم بعض امور من الديانة المسيحية . فكنا نزور كثيرًا هولاء القسوس وناكل معهم . اما الاب سمعان فكان قد امرهُ رئيس القسوس في الصين ان يذهب الى باكين قصبة المملكة . فكان ينتظر قدوم قسيس آخر من ماكودا ليذهب معهُ . فكان كل ما اجتمعنا يلح عليَّ بالذهاب معهُ الى هناك ويقول اني اريك كل ما يستحق النظر والاعتبار في هذه المملكة العظيمة واريك اكبر مدينة في العالم وهي باكين التي تفوق كبرًا لوندرا وباريز معًا (هذا في الزمان الماضي)

ففي احد الايام كنت جالسًا عندهُ نتناول الطعام ولوائح السرور تلوح على وجهينا فاخذ يلح عليَّ بالذهاب معهُ الى باكين فاظهرت ميلاً الى ذلك فازداد بالالحاح عليَّ وعلى شريكي بمرافقتهِ واعدًا ايانا باننا نرى ما تصبو اليهِ العين . فلما فرغ من كلامهِ قال لهُ شريكي كيف هذا يا ابانا سمعان الا تعلم اننا من المراتقة فهل تلذ لك مرافقتنا . فاجاب ان جل عملي هنا هو تبشير الوثنيين وما ادراك انني لا ابشركما وادخلكما في حيز الكنيسة البطرسية الجامعة المقدسة. فقلت لهُ اذًا لا تفتر عن تبشيرنا الطريق بطولها . فاجاب انني لا اثقل عليكما بذلك لانهُ لا يخفى عليكما ان مذهبنا لا يطلب الينا التجرد عن الصفات التي تقتضيها رقة الجانب واصول المعشر . وفضلاً عن ذلك نحن الآن كابناء وطن واحد اذ اننا وجدنا في بلاد بعيدة غريبة في غير قارتنا ونحن من قارة واحدة . فان كنتما انتما الآن كفرة مثلاً وانا مسيحي ربما بعد مدة نصير جميعنا مسيحيين . ألسنا من ارباب التمدن . فاذًا نقدر ان نلتقي ونتحدث ونترافق كمتمدنين دون ان يثقل بعضنا على البعض الآخر او يهين احدنا حاسيات رفيقهِ

فسرتني جدًا كلماتهُ وذكرتني الخوري الذي كان معي في الجزيرة ولكنهُ فاق هذا كثيرًا في جملة امور منها الغيرة الدينية والاشعار بشدة الخطايا والتقوى ومحبة الديانة المفرطة الى غير ذلك من الصفات التي تزين من تعاطى مهنة

خدمة الدين وارشاد البشر

فلنرجع الى ذكر ما فعلنا لجهة تصريف بضائعنا ومركبنا تاركين ذكر الاب سمعان برهة . ولئن كان لم يفارقنا قط ونحن هناك ولافتر عن الالحاح علينا بالذهاب معهُ الى باكين . فاقول انا ارتبكنا جدًّا في امر تصريفها لانهُ لم يكن رواج لسوق التجارة فكدت اذهب الى نانكين لاجل تتميم اشغالي على ان العناية الالهية اعتنت بنا وباشة الناحية حينئذٍ وسهلت سبيلنا جدًّا فتقوى بعو وطدت امالي بالرجوع الى وطني . على انني لم اكن اعلم حينئذٍ كيف يتيسر لي ذلك ففي احد الايام اتانا الدليل البرتوغالي ومعهُ تاجر ياباني وسألنا عن انواع البضائع الموجودة معنا فاخبرناهُ . فاشترى منا كل الافيون الذي كان معنا بثمن جيد ودفع لنا الثمن قطع ذهب منها من معاملتهم ومنها سبائك وزن الواحدة نحو احدى عشرة اوقية . فظننتهُ يرغب ان يشتري المركب ايضًا فسألتهُ فابى هازئًا كتفيهِ . على انهُ بعد مرور بضعة ايام اتاني ومعهُ احد القسوس ليترجم بيني وبينهُ وقال لي بلسان الترجمان انني اشتريت كثيرًا من بضائعكم ولم يكن لي حينئذٍ ميل الى ابتياع المركب لانهُ لم يكن معي مبلغ كافٍ لدفع ثمنهِ . ولكن ان سمحت للملاحي المركب ان يسيروا بهِ معي الى يابان ادفع لك اجرتهُ ومن ثم ارسلهم بهِ الى الجزائر الفيلبية بشحنة بضائع . وادفع لك اجرتهُ قبل ذهابهِ ولدى رجوعهِ الى يابان اشتري المركب نفسهُ وادفع ثمنهُ لمن تفوض بقبضهِ . فاصغيت الى كلماتهِ بلذة وملت الى الذهاب معهُ بنفسي لانني مع كل ما حصل لي من الاخطار والمصائب لم ازل اميل كل الميل الى التيه والجولان في العالم . فسألتهُ هلا تقدر ان تستأجر المركب لينقل بضائع الى الجزائر الفيلبية دون ان يرجع الى يابان لانهُ كان قد خطر لي ببال ان اذهب منها الى البحار الجنوبية . فقال لا لانني ارغب في ان يرجع المركب الى يابان بشحنة تخصني . فاستأجر المركب الى يابان ومن هناك اذهب حيثما شئتم فملت الى قبول ما عرضهُ . على ان شريكي الذي كان احكم مني منعني عن ذلك قائلاً ان اخطار البحار كثيرة وفضلاً عن

ذلك ان اليابانيين هم من الذين لا يرعون ذماماً ويتعدون على كل من مكنتهم الفرصة من التعدي عليه واشر منهم الاسبانيوليون القاطنون الجزائر الفيلبية .
والخلاصة عزمنا على ان نسأل الرئيس والملاحين هل يرغبون في الذهاب الى يابان ففي اثناء ذلك تقدم اليّ الفتى الذي كان قد تركهُ لي ابن اخي الرئيس عند ما اخرجوني من المركب وقال يلوح لي ان في هذه السفرة مكاسب باهظة فيسرني ان اذهب معك الى يابان على انه ان تمنعت عن ذلك ارجوك ان تسمح لي ان اذهب كتاجر او كوكيلك كما يحسن لديك . فان رجعت الى انكلترا او قدر الاله اجتماعي بك اقسم الارباح بيني وبينك . فشق عليّ مفارقته ولكني لدى التأمل في النجاح الذي ربما صادفته وفي انه فتى يقدر على مصادمة الاهوال واحتمال المصائب اذنت له بالذهاب . على اني اخبرته انه ينبغي ان استشير شريكي في ذلك ففي الغد اعطيك جواباً قاطعاً . فاخبرت شريكي فقال لا يخفى عليك ان الفتى قد تولى امر هذا المركب وقد عزمنا ان لا نسير فيه بعد . فان رغب فتاك في الذهاب به فاعطيه هبة نصف حصتي في المركب . فان احيانا الله واجتمعنا به في انكلترا يقاسمنا على نصف الارباح . اما النصف الثاني فيبقى له هذا ان قدر الله له نجاحاً والا فلا حول ولا قوة الا بالله

فلما رأيت ان شريكي الذي لم يكن له اقل تعلق بذلك الفتى قد وهبه تلك الهبة العظيمة تحركت فيّ الغيرة وعواطف الكرم ووهبته مثلها . وجميع الملاحين رغبوا جدًّا في الذهاب الى يابان فسمحت لهم بذلك بعد ان كتبنا صكاً للفتى بان نصف المركب له واخذنا منه صكاً آخر به يتعهد ان يقاسمنا على نصف الارباح ثم ركبوا المركب وساروا به قاصدين يابان . اما التاجر الياباني فذهب معهم واحسن معاملتهم جدًّا وسلك بامانة لا مزيد عليها . وصان الفتى من تعديات اليابانيين وجلب له رخصة من الحكومة ان ينزل الى البر لانه لم يكن حينئذٍ مأذوناً للاوربا ويين ان يدخلوا البلاد اليابانية دون اذن مخصوص ودفع له اجرة المركب وذهب الى الجزائر الفيلبية وقد شحن المركب بضائع

يابانية وصينية وارسل معهم وكيل شحن ياباني فبدل ما كان معهُ من البضائع
ببضائع اوربية واطياب مختلفة وعند ما وصل الى يابان دفع لهُ ذلك التاجر
اجرة حسنة جدًّا . وعند ما رأى ان الفتى لا يرغب في ان يبيع المركب شحنهُ شحنة
ثالثة وارسلهُ لحسابهِ الى جزائر مانانيس . فاخذ معهُ الفتى بعض بضائع تخصهُ
وباعها هناك باثمان جيدة جدًّا . وتعرَّف باشخاص من ذوي الثروة والاعتبار.
فاستاجر منهُ المركب والي مانيلا ليأخذ لهُ بعض سهام الى كابليكو في اميركا وهي
في مكسيكو واعطاهُ ورقة رخصة لينزل الى البر ويسافر الى مدينة مكسيكو
ومن ثم يذهب مع كل رجالهِ الى اوربا في اي مركب اراد . فصادف توفيقًا في
سفرهِ الى اكابليكو وباع مركبهُ هناك وحصل اذنًا ان يذهب برًّا الى بورتو باللو
ومن ثم الى جاميكا بكل اموالهِ . وبعد نحو ثماني سنين رجع الى انكلترا بمال
غزير جدًّا وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله

اما الملاحان اللذان انقذانا من الوقوع في ايدي من طاردنا من الانكليز
والجرمان ونحن في نهر كامبوديا فيستحقان الشكر الوفي والاكرام الزائد والجائزة
النفيسة لانهما انقذانا من هلاك كان يهددنا دون ان نعلم بهِ . وكانا شريرين
طالبين الدخول في سلك لصوص البحر . لانهما ظنانا منهم فلذلك اخبرانا
بقصد الانكليز والجرمان لنأخذهما معنا ونقسم عليهما ما نسلبهُ . وقال احدهما لي
ان الذي حملنا على اخباركم بما اخبرناكم بهِ هو امل الدخول في سلك قوم
اشرار تجول في البحار معهم قاصدين السلب والنهب ومع ذلك كانا يستحقان
خير المجازاة نظرًا لمعروفهما وقيامًا بحق وعدي لهما بالمكافاة ان صدق خبرهما
دفعت لهما الاجرة التي ادعيا انها مستحقة لهما من مركبهما ومبلغًا وافرًا من النقود
وهدية ورقيت الانكليزي الى رتبة مدفعي في المركب لان المدفعي كان قد رقي
الى رتبة نائب القبطان . اما الجرماني فرقيتهُ الى رتبة رئيس القارب فسرَّا جدًّا
بذلك وخدما في المركب بهمة وامانة لا مزيد عليها

وهكذا اصبحت في مكان يبعد جدًّا عن وطننا . فالظاهر اني كما كنت

اطلب القرب اليه كان يحدث ما يبعدني عنه . فان كنت اعد نفسي بعيدًا ومنفيًّا عن وطني وانا في بنغاليا فماذا يحق لي ان اقول الآن وقد ابتعدت عنه مسافة طويلة واصبحت غريبًا في سواحل الصين دون امل الرجوع اليه . على ان الامل الفريد بالرجوع هو انه بعد نحو اربعة اشهر بروج السوق في المكان الذي كنت مقيمًا فيه فياتي اليه كثيرون من تجار الصين ويابان فابتاع منهم بضائع كثيرة ومركبًا صينيًّا اذهب بهما فيه الى حيثما شئت . فعزمت على ان انتظر ذلك . وفضلاً عنه اني انا وشريكي لم نكن نحسب من اللصوص ونحن خارج المركب المذكور فكان يمكننا ان نسافر الى اوربا بمركب انكليزي او جرماني هلا اذا اتت المراكب ذلك المكان فعزمنا على القيام فيه الى ان ندرك الغاية وامل الرجوع قريبًا يسلينا. فلكي نتنزه ونتفرج على البلاد كنا نذهب احيانًا الى داخليتها فاول مكان اتيناهُ مدينة نانكين وهي من المدن التي تستحق الذكر وفيها ما يلتذ زائروها به. اما عدد سكانها فهو حسب زعم اهاليها نحو ربوة . اما ازقتها فهي مستقيمة جدًّا . على انه لدى التقدم لمقابلة ساكنيها وحالتهم ومعاملهم وكيفية معيشتهم وحكومتهم وغناهم ومجدهم ببلادنا يبان الفرق وانهم لا يستحقون الذكر بالمقابلة . ولا ريب ان غنى هذا الشعب وقوته ومعاملته وتجارته تدهشنا جدًّا .ليس لانه ليس عندنا نظيرهُ او لاننا لم نرَ له شبيهًا ولكن لاننا لم ننتظر ان نجد شيئًا من ذلك في بلاد نسمع ونحن بعيدون عنها ان اهاليها جهلة متوحشون فعند ما نأتيها نرى ما نراهُ من تلك الاشياء فتمتلئ قلوبنا عجبًا ودهشة لاننا لم نكن ننتظر ان نرى اشياء كهذه . فان قطعنا النظر عن ذلك فما هي المشابهة بين قصورها وقصور اوربا الملكية وقوة مدنها وغناها ومجدها وقوة مدن اوربا وغناها ومجدها وبين تجارتهم وتجارة انكلترا وهولاندا وفرنسا واسبانيا وليست مشابهة بين مراكبنا ومراكبهم وحصوننا وحصونهم وتجارتهم البحرية وتجارتنا . ايسوغ ان نقابل بعض مراكب صغيرة غير محكمة البناء بمراكبنا العظيمة المتينة ومراكبُ دولنا الحربية القوية التي يكل عن وصفها القلم . ولا شك ان تجارة

لوندرا وحدها تفوق نصف تجارة كل مملكة الصين العظيمة. وان مركبًا حربيًا واحدًا انكليزيًا او جرمانيًا او فرنسويًا محمولة ثمانون مدفعًا يقدر ان يصادم كل عمارات الصين الحربية ويتغلب عليها. وكذلك يصح القول في جيوشهم وفي كل قوات مملكتهم. لانهُ لاريب لو اجتمع مليون مقاتل من جيشهم الجرار حول مدينة محصنة في اوربا وهاجمها عشر سنين لايقدر ان يفتحها وكذا ان صادمهُ ساعة واحدة لابل لو اجتمع ثلاثون الف راجل وعشرة آلاف فارس من جيوش الانكليز او جرمانيا المنظمة يقدرون في ان يهزموا جميع قوات الصين وفرسانها. لانهُ ما من مدينة محصنة في الصين تقدر ان تدافع شهرًا واحدًا جيشًا نظير الجيش المذكور. لان اسلحتهم النارية غير محكمة الطلق وبارودهم ضعيف جدًا وعساكرهم غير منظمة ولاتعرف صناعة المهاجمة والمدافعة والرجوع فبناء على ذلك اندهشت كل الاندهاش عند ما رجعت الى وطني وسمعت اخبارًا كثيرة عن قوة الصين ومجدها وعظمتها وغناها وتجارتها. لان الذي ظهر لي من امرهم انهم بالاجمال على جانب عظيم من الجهل وكذلك حكومتهم التي لاتليق ان تتولى امر غير من كان مثلهم. ولو لم تكن المسافة بين الصين وروسيا بعيدة جدًا لهاجمهم امبراطور الروسيين واستولى على مملكتهم دون صعوبة البتة. ولو اتى امبراطور الروسيين الحالي الذي يقال انهُ طالب التقدم والارتقاء وحاربهم عوضًا عن محاربتهِ ملك اسوج ونروج الذي قد بلغني انهُ غلب جيشهُ في معركة اخيرة لاصاب ومرّن عسكرهُ في فن الحرب واستولى على مملكة الصين عوضًا عن ان يكسرهُ عدوهُ المذكور. اما زراعة الصينيين فهي في عدم كفوتهم وتجارتهم ومعاملهم. اما علومهم فناقصة فاسدة فلا يتعمقون فيها ولايبحثون عن حقائقها ومع ذلك يظنون انهم يفوقون كل اهل العالم علمًا. اما علم الفلك فلا يعرفون منهُ شيئًا حقيقيًا ومما يثبت ذلك هو انهم عند انكساف الشمس يظنون ان تنينًا قد صعد عليها واخذ في بلعها فيشرعون في القرع لالقاء الرعب في قلب التنين فيركن الى الفرار

هذا كل ما تعرضت لذكره من حالة البلدان السياسية فلا اتعرض لمثل ذلك بعد بل اقتصر على اخباري لان المقصود انما هو الوقوف على غرائب الحوادث التي طرأت عليّ

الفصل الثالث والاربعون

ذهاب روبنصن الى باكين وسفره من الصين

اني كنت بعيداً جداً عن وطني ومع ذلك كنت اميل كل الميل الى الذهاب الى باكين لاجل التفرج على تلك المدينة العظيمة التي كثيراً ما اطنب بوصفها صاحبي القسيس سمعان . فبعد برهة اتى القسيس المنتظر من مدينة ماكاو ففوضت الامر كله الى ارادة شريكي . فلدى التأمل برهة في ذلك قرّ رأيه على السفر معها وذلك ما يتكفل لنا بعدم الخروج عن السبيل. اما الوالي فهو من جملة نواب الملك الذين يحكمون على مقاطعات مختلفة . فعند ما يذهب الولاة من مكان الى آخر يستصحبون معهم من الحشم والخدم جمهوراً غفيراً ويعتبرهم الشعب جداً واهالي المدن والقرى المجاورة للطرق التي يسلكونها يقدمون لهم ولمن معهم كل ما يلزم من المأكولات والمشروبات . وكثيراً ما لحق بهم الفقر من جرى كثرة المصاريف التي يتكبدونها للقيام بحق اعتبار حاكمهم الذي يشرفهم الطريق التي تجاور قراهم يحملونهم ما لا طاقة لهم على حمله عوضاً عن ان يتكرم عليهم بما يرقي اسباب راحتهم ورفاهيتهم . اما سفرنا فكان برفقة الحشم وكان يقدم لنا اهالي البلاد اكلنا لاننا مرافقون للنائب المفخم . على ان وكيل خرجه كان يطلب الينا كل يوم دفع ثمن ذلك بحسب اسعار البلاد وهكذا يكون النائب قد سمح لنا بالسفر معه حال كون سفرنا يكسبه مالاً . فكان

عدد الذين سافروا معهُ مثلنا نحو ثلاثين رجلاً وكان يقدم لهم الاهالي الزاد والنائب المخم كان يقبض الثمن

فبعد نحو خمسة وعشرين يومًا بلغنا باكين وقد قطعنا مسافة طويلة جدًّا من بلاد الصين مملوءة من السكان . على اني اظن ان زراعتها غير متقنة بل في درجة منحطة جدًّا . اما معيشة الاهالي فدنية تعوسة جدًّا بالنسبة الى معيشة اهالي بلادنا ولكنهم لا يسلمون بذلك لانهم لم يروا معيشة امم اخرى ليدركوا التفاوت الكائن بينهم و بين شعوب اخرى . ومع ذلك نرى انهم من الكبرياء والافتخار على جانب عظيم . اما انا فلاح لي ان معيشة اهالي امركا العراة الاصليين تفوق كثيرًا معيشة الشعب الصيني . فان اولئك غير حاصلين على شيء ما يرقي اسباب راحتهم وهم مرتضون بحالهم غير طالبين الزيادة لانهم لا يعلمونها اما هولاء فمع فقرهم نراهم متكبرين يفتخرون بما ينبغي ان يخجلوا منهُ فمنهم من يقتني الجوار والعبيد عددًا لا طاقة لهُ على القيام بمعيشتهِ كأنهُ يجهل مثل العامة القائل على قدر بساطك مد رجليك . ومع ان الطرق كانت سهلة جدًّا لان الحكومة كانت تعتني بها كل الاعتناء كنت افضل السفر في صحاري بلاد التتر على السفر في هذه البلاد التي اهاليها وهم في حضيض الجهالة والفاقة يظهرون من التجبر والتكبر والتعظم ما لا مزيد عليهِ . فكثيرًا ما سخرت انا وصاحبي النسيس بهم وصرفت معهُ اوقاتًا كثيرة بالسرور ونحن نشاهد فقراء ذلك الشعب يتفاخرون ويظهرون من الكبرياء ما يضحك . مثلاً في احد الايام مررنا بجانب منزل شيخ فلاح وكان يبعد عن مدينة نانكين نحو عشرة اميال وكنا قد تشرفنا برفقتهِ نحو ميلين . فكان مسافرًا في هيئة ملكية نظرًا لكثرة عدد حشمهِ فكان معهُ نحو اثني عشر رجلاً وكان ثوبهُ وسخًا قذرًا جدًّا وهو من نسيج ملون من القطن تشبهِ العباية شبهًا . وكان معلقًا في اطراف ردنيهِ اشياء مختلفة الهيآت والالوان . اما صدريتهُ فكانت اقذر من صدرية اللحام التي يلبسها وهو يقطع اللحم تنبعث منها رائحة تجلب الطاعون . وهذا يدل على ان حضرة الشيخ المذكور

هو من الاكولين الذين يعتنون جدًّا في امر تسمين اجسادهم . اما جواده فكان ضعيفًا جدًّا حتى كاد يسقط تحت ثقل جناب فارسهِ المحترم . وكان وراءهُ عبدان يضربان الحيوان المنكود الحظ . وكان بيد جناب المذكور عصًا يضرب بها الفرس على راسهِ كلما كان يضربهُ عبدهُ على كفلهِ . فهذا هو وصف الشيخ المذكور . فكان يتقدمنا في الطريق هو وحشمهُ . فلما وصلنا الى القرية اقمنا فيها نحو ساعة للراحة . فلما سرنا مررنا بجانب منزل جنابهِ فرأيناهُ جالسًا في حديقة صغيرة امام باب منزلهِ ياكل بايدي جاريتين فعرفنا انهُ اذا اطلنا التفرس فيهِ يسرّ جدًّا ظانًّا اننا قد ادهشنا بعظمتهِ وكرامتهِ فوقفنا برهة نتفرس فيهِ . فكان جالسًا في ظل شجرة وفي يد كل من الجاريتين المذكورتين ملعقة كانت تطعمهُ والاخرى تلتقط بالملعقة ما كان يسقط من الارز على لحيتهِ وصدرهِ . فتأملت اذ ذاك بجهالة الانسان وما بجهلهِ افتخارهُ على فعلهِ من الامور المتعبة التي لا نفع لها . فبعد ان تفرسنا فيهِ برهة سرنا وقد خلفنا لهُ من الافتخار باندهاشنا بعظمتهِ ما سرَّهُ جدًّا . اما القسيس فتأخر عنا وتقدم منهُ ليتحقق الطعام الذي كان ياكلهُ جناب الشيخ المذكور فكان من ارز واعشاب تفوح منها رائحة مسكية ومعهُ قطعة لحم مسلوق فهذا كان طعام جنابهِ وربما اكل منهُ ايضًا اربعة او خمسة خدامين كانوا واقفين بعيدًا عنهُ

اما نائب الملك الذي سافرنا معهُ فلم نرَ كثيرًا من خصوصيتهِ واحوالهِ لانهُ كان محاطًا بالحشم من جميع الجهات . على انهُ لاح لي انهُ ليس معهُ فرس كريم وان فرسهُ كاضعف الافراس التي تجر عجلات البضائع عندنا ولم اتمكن من تحقيق النظر فيهِ لانهُ كان مغطّى باغطية ثمينة فلم يكن يظهر منهُ غير رجليهِ ويديهِ وراسهِ

وكان السرور مالئًا قلبي لانهُ لم يكن ما يكدرني او يخيفني الّا ان فرسي زلت بهِ القدم وهو قاطع بي نهرًا فرماني فيهِ وبلّ ثيابي وعطّل كتابًا صغيرًا كنت اكتب فيهِ اسماء البلدان والمدن التي كنا نأتيها . وبعد مدة دخلنا مدينة

باكين وكان معي الخادم الذي تركهُ لي ابن اخي وكان اميناً صادقاً نبيهاً . اما شريكي فلم يكن معهُ غير خادم من اقاربهِ . اما الدليل البرتوغالي فاحب ان يرى عاصمة بلاد الصين فاخذناهُ معنا اليها ودفعنا عنهُ جميع مصاريفهِ وكان يترجم بيننا وبين الصينيين لانهُ كان يعرف لغتهم ولغة الفرنساويين وقليلاً من اللغة الانكليزية . وانتفعنا بهِ جدًّا . فبعد ان صرفنا اسبوعاً في القاعدة المذكورة تقدم اليَّ وقال وهو يبسم يا سيدي ارغب ان اخبرك ما يسر قلبك . فاجبتهُ يسر قلبي ماذا عساهُ ان يكون . انني اظن انهُ ما من شيء في هذه البلاد يسرني او يكدرني . فاجاب نعم اخبرك بما يسرك ويكدرني . فاجبتهُ كيف هذا فاجابني نعم يكدرني لانكما (اي انا وشريكي) قد اتيتما بي مسافة بعيدة عن البلدة التي اسكنها والآن انتم تذهبون الى وطنكم اما انا فكيف ارجع الى بلادي دون فرس ومركب ودراهم . فطلبت اليهِ ان يوضح كلامهُ فقال ان هنا قافلة من التجار الروسيين والهولانديين آخذة في الاستعداد للذهاب برًّا الى مدينة موسكو وستذهب بعد نحو اربعة او خمسة اسابيع . فلا ريب انكما تذهبان معها وتتركاني ارجع وحدي الى بلدي

فسرني جدًّا هذا الخبر حتى انني لم استطع التكلم فبعد برهة رجعت الى نفسي وقلت لهُ من اخبرك بذلك هل تحققت الخبر . قال نعم فانني صادفت هذا الصباح تاجرًا ارمنيًّا وهو من اصحابي وقد عزم على الذهاب معهم ومنذ برهة وجيزة رجع من استراكان وكان يقصد الذهاب الى تونكان ولكنهُ عدل عن رأيهِ الاول وقد عزم على ان يذهب مع القافلة الى موسكو ومن ثم يذهب في نهر ولكا الى استراكان . فاجبتهُ اننا لا نتركك ترجع وحدك الى ماكاوو . لانني ان وجدت سبيلاً الى الرجوع الى انكلترا ارغب ان تكون معي فان رفضت تجلب على نفسك الخسارة والهوان . ثم اتيت شريكي لاستشيرهُ بذلك فاجابني انني منقاد كل الانقياد الى ارادتك لانهُ ما من شيء يعيقني عن السفر لانني قد سلمت نفسي وبضائعي الى من اركن اليهِ في بنغاليا واحب ان نشتري من نفائس

البضائع الصينية ونذهب بها الى انكلترا ونبيعها هناك ومن ثم يمكنني الرجوع الى بنغاليا بمراكب الشركة الهندية وهكذا قرّ رأينا على الذهاب وعزمنا على ان نأخذ الدليل البرتوغالي معنا الى موسكو وان شاء الله فالى انكلترا دون ان يتكبد شيئًا من المصاريف حتى الشخصية . وهذا لا يوازي اتعابهُ لان مرافقتهُ لنا كانت نافعة لنا جدًا فكان دليلنا في البحر وسمسارنا في البر . فكل ما بعناهُ من البضائع التي كانت معنا في تلك البلاد كان باجتهادهِ ومروتهِ خاصةً تعريفنا بذلك التاجر اليابانيّ . وهذا وحدهُ يساوي اكثر من مائة ليرة . فلدى التأمل في ذلك قر راينا ان ندفع لهُ مبلغ من النقود يساوي حسب تخميني نحو مائة وخمس وسبعين ليرة انكليزية علاوة على مصروفهِ ومصروف فرسهِ ليشتري بها بضائع صينية ليبيعها في انكلترا وينتفع بارباحها . اما مصروف الفرس الذي يحمل تلك البضائع فمن مالهِ . فاحضرتهُ اليَّ وقلت لهُ بناء على شكواك من الرجوع وحدك الى وطنك قد صممنا ان لا ندعك ترجع البتة بل ان تذهب معنا الى اوربا مع القافلة التي اخبرتني عنها . وقد احضرتك امامي وامام شريكي لنقف على ارادتك من هذا القبيل . فقال وقد هزّ رأسهُ ليس معي دراهم لسد احتياجاتي في الطريق قبل وصولي الى اوربا . فاجبتهُ اننا نعلم ذلك وقد صممنا على ان نمد لك يد المساعدة نظرًا لمروّتك واجتهادك ومودتك . ثم اخبرتهُ بتفاصيل ما عزمنا عليهِ من هذا القبيل . فلما سمع ذلك كاد يطير فرحًا وقال اني اذهب معكما حيثما تروما ولو قطعتما الارض من مشرقها الى مغربها ثم اخذنا نهيي انفسنا للسفر فاقتضى ذلك اربعة اشهر وبضعة ايام لانهُ لا يخفى ان جميع اللاهين مع القافلة هم من التجار فيصرفون زمانًا طويلاً لابتياع البضائع وتهيئة انفسهم للسفر

فذهب شريكي والدليل الى المدينة التي دخلناها في اول الامر لينهوا بعض اشغال لنا كانت متعلقة هناك . اما انا فذهبت الى نانكين مع تاجر تعرفت بهِ فيها وكان قد اتى الصين لقضاء بعض الحاجات . فاشتريت من ذلك المكان تسعين قطعة من الاطلس الصيني السميك ونحو مائتي قطعة مختلفة الالوان

من نسيج الحرير الثمين وبعضها مطرز بالنقوش الذهبية . واتيت بها الى باكين حيث انتظرت رجوع شريكي والدليل . واشترينا ايضاً كمية وافرة من الحرير الغير المنسوج وغير بضائع . فبلغ ثمن ما اشتريناه من البضائع الصينية نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة ليرة انكليزية وكما قد اشترينا ايضاً كمية من الشاي وجوز الطيب وكبش القرنفل والانسجة القطنية الثمينة فحملناها جميعها على ثمانية عشر جملاً خلا التي ركبناها والفرسين اللتين حملناهما زادنا والثلاثة جمال التي اخذناها علاوة عليها . فبلغ عدد الجمال والخيل التي كانت لنا الستة والعشرين. فخرجنا من باكين برفقة القافلة في غرة شهر شباط . اما القافلة فكانت عظيمة جداً واظن ان عدد الخيل التي كانت معها تبلغ الاربعمائة والرجال المائة والعشرين وجميعهم متقلدون اسلحة تامة متقنة للمدافعة عن انفسهم ما ربما يداهمهم من العدوان. لانه كما ان عرب البادية يهاجمون قوافل الشرق يهاجم التتر قوافل هذه البلاد . على ان اولئك هم اشد فتكاً وقساوة . اما جنسية رجال القافلة فخمنانه على ان نحو ستين رجلاً منهم كانوا من تجار موسكو . ولعظم حظنا وجدنا بينهم خمسة تجار من اهالي اسكوتلاندا وكانوا من ذوي الاختبار والاقدام على الاشغال . فبعد ان قطعنا مسافة يوم جمع حراسنا الخمسة جميع القافلة خلا الخدم للمشورة وهذا الاجتماع هو للنظر في ما يلزم لراحة القافلة وتأمينها . فدفع كل منا مبلغاً من النقود للتزود واجرة الحراس والحشم وما اشبه وصار ترتيب القافلة وتنظيم احوالها. فصار تعيين مدبرين وقواد لادارة رجال القافلة لدى الاقتضاء لاجل مصادمة من ربما يهاجمنا وهذا من الزم الامور لانه ظهر لنا انه لابد من اخذ الاحتياطات اللازمة لئلا يحل بنا الدمار والهوان

اما البلاد التي سلكناها فكانت مملوءة من السكان ومن عملة الخزف المعروف بالفخار الصيني . ففي احد الايام تقدم اليَّ الدليل الذي كثيراً ما نبهني الى التفرج على ما لم انتبه اليه من نفسي وقال لي هلمَّ اريك ما لم ترَ مثله فيمكنك ان تقول انك رأيت شيئاً في هذه البلاد.. فطاوعته باكحاح اين

يخبرني ماذا عسى ان يكون ذلك الشيء . فاخبرني انه بيت مبني من الخزف الصيني . فقلت له هل بيوتهم مبنية من تراب اراضيهم فاذًا في جميعها مبنية من الخزف الصيني . فاجاب لا لا ليس هذا المقصود لان ذاك البيت انما هو مبني من الخزف الصيني الذي يرسل الى بلادنا ونفتخر به جدًّا وهو ثمين . فقلت له ان ذلك لممكن ألا نقدر ان نضع ذلك البيت في صندوق ونذهب به الى انكلترا فان كان ذلك من الممكن نشتريه حالاً . فاجاب مندهشًا أتحمله على جمل فهو عائلة نحو ثلاثين نفسًا . فلما سمعت ذلك رغبت في التفرج عليه فقصدته واذا هو بيت من خشب مغطًّى بالتراب الذي يصنع منه الخزف الصيني اما خارجهُ فكان ابيض لامعًا جميلاً جدًّا لان الشمس كانت قد احرقته وكان منظرهُ كمنظر الخزف الصيني المحروق الذي يباع باثمان عالية في انكلترا . اما داخله فكان مغطى بالفخار المذكور منقوشًا بنقش جميل جدًّا بعضه بالذهب وكذلك ارض الحجر واسقفتها ومنها ما كان لونه يضرب الى السواد يلمع كالبلور الصافي . هذا هو وصف ذلك البيت المدهش ولاريب انه يحق لاهل الصين ان يفتخروا بتلك الصناعة المتقنة على سواهم من الامم . ولو امكنني لصرفت عشرة ايام في التفرج على ذلك البيت وصناعته الغريبة وبلغني ان في حد بقانو بركًا مصنوعة من ذلك الفخار واشغالاً دقيقة تظهر براعة الصينيين في تلك الصناعة . على ان ما بلغني عنها وانا في انكلترا يفوق جدًّا الحقيقة ولا يصدقه صاحب العقل السليم الذي من جملته انهم يصنعون سفنًا من ذلك الفخار وكذلك صواريها وشراعاتها . اما مقدارها فقالوا انه يسع خمسين رجلاً وذلك كما لا يخفى ضرب من المحال ولم اصدق شيئًا منه . فاخرني عن القافلة تفرجي على ذلك البيت نحو ساعتين عند ما ادركتها فرض عليَّ رئيسها جزاء نقديًا نحو ثمانية عشر غرشًا وقال لي اننا الآن لم نزل داخل سور الصين العظيم ولو تأخرت عن القافلة ونحن خارجهُ لكان الجزاء اربعة اضعاف هذا المبلغ ولجعلتك تطلب العفو من مجلس المشورة . فوعدته بان لا افعل ما يخل باصول القافلة ورأيت

ان المحافظة على قوانينها هو من الامور الضرورية التى تكفل بدفع الخطر عن نفسي

فبعد يومين قطعنا السور المظيم الفاصل بين بلاد الصين وبلاد التتر وقد بناهُ احد ملوك الصين لمنع هجمات التتر وهو من العجائب التي تستحق الذكر والتأمل فانهُ مبني فوق جبال وفي اودية صعبة المسلك اما طولهُ فهو نحو الف ميل انكليزي وهو اطول من تلك البلاد لانهُ مائل في اكثر المواضع . اما علوهُ فهو نحو اربعة باعات وكذلك سماكتهُ في اكثر المحلات . استمرت القافلة نحو ساعة تمر من باب ذلك السور وكنت قد وقفت في اولها كل تلك المدة اتفرس في ذلك الحائط . اما دليل القافلة وهو من الصينيين فكان قد اطنب بوصفهِ فعند ما رآني اتفرس فيهِ رغبت في ان يقف على حقيقة ما اقولهُ عنهُ . فقلت لهُ انهُ نافع جدًّا لردع التتر فاثنى وقد استحسن الجواب . اما الدليل البرتوغالي فضحك حتى استلقى على ظهرهِ وقال يا سيدي ان في كلامك معنيين. فاجبتهُ ماذا تعني بذلك فاجاب ان لظاهر كلامك معنى ولباطنهِ آخر لانك قلت انهُ نافع لردع التتر اي انهُ لا ينفع لغير شيء . واني فهمت المقصود من كلامك اما الدليل الصيني فقد فهم منهُ ما يوافقهُ . فقلت هل تظن انهُ يمنع جيشًا من جيوشنا عن الدخول الى الصين او لا تهدمهُ طلقات مدافعنا في عشرة ايام وما اسهل هدمهُ ببارود يوضع في اساساتهِ فقال لا ريب في ذلك . اما الدليل الصيني فرغب جدًّا ان يعرف ما قلت للدليل البرتوغالي عن ذلك السور . فاذنت لصاحبنا الدليل ان يخبرهُ بذلك بعد بضعة ايام وكان قد قرب وقت رجوعهِ الى وطنهِ لاننا كنا قد خرجنا منهُ ولم يكن لنا حاجة بهِ . فلما بلغهُ ما قلتهُ عنهُ صمت ولم يفهِ بشيء فيما بعد بخصوص اقتدار بلادهِ وعظمها

فبعد ان قطعنا ذلك السور العظيم العديم المنفعة دخلنا بلادًا قليلة السكان واهاليها ساكنون المدن والقرى الكبيرة لانهُ لا امنية لهم خارجًا فان التتر يهاجمون كل من صادفوهُ منفردًا او ضعيفًا غير قادر على مصادمتهم . فالتزمنا

بان نسافر معاً دون ان يتأخر احدنا عن القافلة لاننا رأينا كثيرين من جماهير التتر يجولون حولنا على اني عند ما رأيتهم عن قرب عجبت من ان مملكة قادرة نظير مملكة الصين تخشى مهاجمات امة نظير امة التتر لانهم لا يعلمون صناعة الحرب ولا لهم من الاسلحة ما يمكنهم من الفتك بجمهور منظم يحسن المحاربة متقلد الاسلحة القوية . اما خيلهم فهي ضعيفة جداً غير قادرة على الركض وشن الغارات.
ففي احد الايام اعطى دليلنا اذناً لخمسة عشر رجلاً منا ان يذهبوا ويصطادوا الغنم البرّي . وكانت سريعة الجري على انها لا تستطيع الركض مسافة بعيدة ولا بد من ان المطارد يصطاد منها شيئاً لانها تكون قطعاناً كل قطيع نحو ثلاثين او اربعين كبشاً وعند ما يطاردها الصياد يهرب من امامهِ وبعد ان تركض مسافة قصيرة تتعب فتربض فبينا كنا نصطاد الغنم صادفنا نحو اربعين تتريًا ربما كانوا يصطادون الغنم مثلنا او كانوا يترقبون شيئاً آخر فلما رآنا احدهم نفخ في بوق كان معهُ اما صوت البوق فهو رائع ولا ارغب في ان اسمع مثلهُ قط . فلما سمعناهُ ظننا انهُ علامة يجتمع بها جميع المترافقون وهكذا حصل فانهُ في برهة وجيزة جداً تراءى لنا على بعد نحو ميل جمهور منهم يبلغ نحو الاربعين او الخمسين رجلاً . فلما سمع صوت البوق احد ارفاقنا وكان تاجراً روسيًا ساكناً في موسكو قال لنا لا ينبغي ان نضيع لحظة واحدة بل ينبغي ان نهاجمهم حالاً .
فاوقفنا اجمع في صف واحد وقال لنا هل عزمتم على المصادمة . فاجبناهُ نعم قد عزمنا على ان نفعل ما تراهُ موافقاً . فتقدم نحوهم وتبعناهُ . اما هم فاجتمعوا سوية دون انتظام ولا ترتيب يتفرسون فينا . فلما رأونا نتقدم نحوهم رمونا بنبالهم على انها لم تصب احداً منا . وذلك ليس لانهم لا يحسنون الرماية بل لان المسافة التي حالت بيننا وبينهم كانت بعيدة فلم تقطعها نبالهم فوقعت امامنا . فلو كنا تقدمنا نحو ثلاثين ذراعاً نحوهم لاصابت كثيرين منا وجرحت البعض ان لم تقتلهم . فلما رأينا ذلك وقفنا وكانت المسافة بيننا وبينهم بعيدة ومع ذلك امرنا قائدنا ان نطلق عليهم بنادقنا . ثم نهجم حالاً عليهم ونقابلهم ضربًا بالسيوف

ففعلنا كذلك . اما قائدنا فمع انهُ كان تاجرًا كان من التأني والشجاعة وحسن التدبير على جانب عظيم وكانت فيهِ الاهلية لان يستلم امرة جيش في معمعة القتال . فلما ادركناهم اطلقنا غداراتنا في اوجههم ثم جردنا سيوفنا . ففروا هاربين وللنجاة طالبين قبلما اعملنا الضرب فيهم . على ان ثلاثة منهم كانوا في الجهة الشرقية منا فانهم لم يفروا بل اومأوا الى ارفاقهم ان يرجعوا ليصادمونا وكانوا متقلدين الاخشاب اما قسيهم فعلقوها في اكتافهم . فلما رآهم قائدنا البطل الصنديد هجم عليهم دون ان يطلب مساعدة احدنا وضرب احدهم باسفل بندقيتهِ فالقاهُ على الارض وقتل الآخر بغدارتهِ اما الثالث ففر هاربًا . وهكذا تم لنا الانتصار ولاعدائنا الكسرة والعار . على اننا خسرنا ما كنا نؤمل ان نصطادهُ من قطيع الغنم الذي اجفلهُ صوت اطلاق البنادق فهربت من هناك . فلم يقتل ولا جرح احد منا . اما التتر فقتل منهم خمسة ولم نعلم عدد الجرحى . وكنا حينئذٍ لم نزل في مملكة الصينيين ولذلك لم يكن للتتر قوة وجسارة كالتي لهم في بلادهم . فبعد نحو خمسة ايام دخلنا قفرًا واسعًا جدًّا فسرنا فيهِ ثلاثة ايام فالتزمنا ان نحمل الماء فوضعناهُ في آنية من جلد كما يفعل من يقطع صحراء بلاد العرب . فسألت حراسنا لمن عسى ان تكون هذه الاراضي . فاجابوا انها التخم بين بلاد قراقاش او التتر والصين فلا تخص احدًا . على انها تحسب من المملكة الصينية التي لا تعتني البتة في ان تحميها من هجمات اللصوص وقطاع الطرق . ولذلك هذا هو اشد الاماكن التي نقطعها خطرًا مع اننا نأتي قفارًا اوسع منها

فبينما كنا نسير في ذلك القفر المخيف صادفنا مرتين او ثلاثًا بعض التتر . على انهم لم يتعرضوا لنا والظاهر انهُ كان لهم مقصد آخر فكان مثلنا مثل الذي يمر على المجلس عازمًا ان لا يكلمهُ ان لم يكن البادي معهُ في الكلام . غير انهُ بعد ذلك صادفنا جمهورًا منهم فدنوا منا كثيرًا وتفرسوا فينا ليروا هل يقدرون على مهاجمتنا فلما ابعدنا عنهم مسافة قريبة وقف منا اربعون رجلاً مستعدين للمصادمة . اما القافلة فتقدمتنا فبعد ان تفرسوا فينا برهة ونحن على تلك الحال

اشتوا راجعين على اثرهم وهم راجعون رمونا بخمسة نبال فاصابوا فرسًا من خيلنا واضروا به جدًا . فتركناهُ وراءنا وتقدمنا في سبيلنا ولو رمونا حينئذٍ بالنبال لما اصابتنا لبعد المسافة بيننا وبينهم . فسرنا بعد ذلك مدة شهر وكنا لم نزل في اراضي الصين اما الطرق فلم تكن سهلة كالطرق التي داخل السور العظيم . اما الاهالي فكانوا يسكنون المدن والقرى المحصنة لتحميهم من هجمات التتر . فبعد برهة وصلنا الى بلدة تبعد مسافة يومين ونصف يوم عن مدينة قادم فرغبت ابتياع جمل منها لان فيها جمالاً كثيرة للبيع وخيولاً . وكثيرًا ما كانت تطلبها القوافل التي تمر من هناك . ففوضت ذلك الى رجل صيني وحماقتي حملتني على الذهاب معهُ بقصد التفرج عليها اما المكان الذي فيهِ تروج سوق بيع الجمال والخيل فكان يبعد عن البلدة نحو ميلين حيث يحافظ عليها حرس معين لذلك من قبل الحكومة المحلية وكنت قد تعبت من ركوب الخيل فاتيت ذلك المكان ماشيًا ومعي الدليل البرتوغالي والرجل الصيني . فلما دخلنا البلدة وجدناها مبنية في مكان واطئ قذر محاطة بسور مبني بحجارة دون كلس او طين وعند بابهِ واقف بعض جنود صينيين للمحافظة على البلدة . فبعد ان اشتريت الجمل ودفعت الثمن انثنيت راجعًا قاصدًا القافلة . اما الرجل الصيني الذي كان معي فسار بالجمل . فبينما كنا سائرين هجم علينا قوم من التتر فتقدم اثنان منهم وقبضا على الصيني واخذا منهُ الجمل اما الثلاثة الباقون فلما رأوني انا وشريكي مجردين من الاسلحة خلا سيف كنت متقلدًا بهِ تقدموا الينا فسللت سيفي فلما رأى ذلك الذي تقدم اليَّ وقف لانهُ لا يخفى ان التتر من الجبانة على جانب عظيم . فتقدم اليَّ الآخر وضربني على راسي فسقطت على الارض مغشيًا عليَّ ولم اشعر حينئذٍ بالم الضربة فكنت كمن في غيبة واندهشت كل الاندهاش عند ما رجعت الى نفسي ورأيت اني على تلك الحال . اما الدليل البرتوغالي الذي قدر لي الله عن يدهِ النجاة فكان قد وضع قبل ان اتينا المدينة غدارة في جيبهِ دون ان اعلم بها ولو عرف بذلك التتر لما تجاسروا ان يهاجمونا لانهُ كما لا يخفى يصبح

الجبان شجاعاً عند ما لايرى خطراً يهدده . فلما رآني على تلك الحال كاد يغيب عن الصواب غضباً وجرى الدم بحرارة في عروقهِ فتقدم الى الرجل الذي كان قد ضربني وامسك يده باحدى يديهِ واماله نحوهُ واطلق الرصاص في راسهِ فالقاه قتيلاً على الارض يخبط بدمائهِ . ثم تقدم بسرعة شديدة الى الذي اوقفنا عن المسير ورماه بسهم كان دائماً يتقلدهُ فاخطاهُ على انهُ اصاب جوادهُ وجرحهُ جرحاً بليغاً في وجههِ وقطع بهِ احدى اذنيهِ . فلما شعر الجواد بالم الجرح هاج وماج حتى انهُ اعيا فارسهُ عن تدبيرهِ وجدَّ المسير كهبوب الريح اما فارسهُ فثبت في ظهرهِ . ثم وقف الجواد على رجليهِ فسقط التتري عن ظهرهِ . ثم سقط الجواد عليهِ . وتقدم الصيني الذي كان يقود الجمل وعند ما رأى التتري ساقطاً على الارض هجم عليهِ ولم يكن معهُ ما يطعنهُ بهِ فتناول حربة قديمة كانت على جانب التتري الساقط وطعن بها راسهُ فاخمد انفاسهُ . اما الدليل فكان لايزال يبارز التتري الثالث . على انهُ لم يهاجمهُ لانهُ كان واقفاً يتفرس فيهِ عن بعد كمن قد اصابهُ جنون . فوقف الدليل في مكانهِ واخذ يملأ غدارتهُ فلما رآها التتري المذكور فرّ هارباً وهكذا فتك بهم الدليل الذي دعوتهُ من ذلك الوقت البطل

وفي اثناء ذلك كنت مطروحاً على الارض لااشعر بما يجري . فلما فرغ الدليل من قتالهم كنت قد رجعت قليلاً الى نفسي فامسيت كمن يستيقظ من نوم لذيذ . على اني عجبت لانني لم اعلم اين كنت ولا ماذا طرأ عليَّ فبعد برهة وجيزة شعرت بالم في جسدي فوضعت يدي على راسي فشعرت برطوبة فنظرتها واذا هي مخضبة بالدم فشعرت حينئذٍ ان الالم في راسي . ثم رجعت كل الرجوع الى نفسي وتذكرت ما حصل لي فوثبت على رجليَّ واخذت سيفي ونظرت الى ما حولي فلم ارَ لي عدواً هناك الاَّ التتري المقتول وجوادهُ واقف بجانبهِ ثم نظرت واذا منقذي الدليل الصنديد قادم اليَّ بعد ان ذهب ليرى ماذا فعل الصيني بالتتري الساقط . فلما رآني واقفاً فرح فرحاً لامزيد عليهِ ووثب واعتنقني بحنو لامزيد عليهِ . لانهُ كان قد ظن ان تلك الضربة ذهبت بمائع الدنيا روبنصن

الى عالم الارواح للطواف فيه . فلما رأى الدم يقطر من رامي سبر الجرح ليرى مقدارهُ فرأى انه لم يكن بليغًا بل جرحًا صغيرًا . وفي نحو ثلاثة ايام شفي الجرح ولم اشعر به فيما بعد

فلم تكسبنا هذه النصرة شيئًا لاننا خسرنا جملاً وكسبنا حصانًا . فلما رجعنا الى البلدة طلب اليَّ الرجل الصيني ثمن الجمل المنهوب فلم ادفعهُ له . فرفعنا الدعوى الى قاضٍ صيني فتصرف بحكمة وانصاف لا مزيد عليهما. فلما قرر كل من المدعي والمدعى عليه دعواهُ سأل القاضي الصيني برزانة انت خادم من . فاجابهُ اني لست بخادم بل ذاهب مع هذا الغريب (اي انا) . فقال القاضي ومن طلب اليك ان تذهب معهُ . قال هو طلب اليَّ ذلك .فاجاب اذًا انت خادمهُ وانت ذاهب معهُ . ولما كان الجمل قد تسلم الى خادمه كان كانهُ قد سلم اليه فمن الواجب عليه ان يدفع ثمنهُ . فلما رأيت عدالة حكمه اندهشت جدًا واستحسنت مبناهُ واصدارهُ فدفعت ثمنهُ دون تردد وارسلت من يشتري جملاً آخر ولم اذهب معهُ لان ما طرأ عليَّ في المرة الاولى كان كافيًا ليؤخرني عن ذلك

اما مدينة تولم فهي مبنية على حدود مملكة الصين وعند اهل تلك البلاد انها مدينة منيعة الحصون وبالحقيقة هي حصينة جدًا بالنسبة الى مدن تلك الاقطار لانهُ لا ريب لو اجتمع كل تتر قرقاش وهم عدة ملايين لما امكنهم ان يهدموا سورها بنبالهم . على ان بعض طلقات مدافع لا تبقي منهُ حجرًا على حجر. فقبل ان وصلنا اليها بنحو يومين ارسل حاكمها رسلاً الى جميع الطرقات المجاورة لما ليخبروا من يسلكها من السياح والقوافل ان لا يتقدموا حتى يرسل لهم عساكر تدافع عنهم لان جيشًا عرمرمًا من التتر كان يجول في نواحيها على بعد نحو ثلاثين ميلاً

فاحزننا هذا الخبر وسرَّنا اعتناء الوالي بالمسافرين وحصولنا على حرس من المدينة . فبعد يومين اتانا معتمدًا جندي من جيش الصينيين الذي كان في الجهة

الشمالية وثلاثمائة آخرون من مدينة توام وساروا دون خوف . اما الثلاثمائة جندي الذين من مدينة توام فساروا في مقدمة القافلة والمائتان ساروا في موخرها ورجال القافلة على جانبي الجمال . فجددنا المسير ونحن على تلك الحال وقد هيأنا انفسنا المدافعة وكنا نظن اننا قادرون على مصادمة عشرة الاف من التتر . على ان اراءنا تغيرت عند ما رأيناهم يتقدمون

ففي احد الايام صباحًا بعد ان كنا قد خرجنا من بلدة محصنة تدعى شانكو وصلنا الى نهر فقطعناهُ . ولو علم جيش التتر اننا نعبرهُ في ذلك الوقت لهاجمونا لاننا كنا في عدم انتظام وحرس موخرة القافلة كان بعيدًا عنها . ولكنهم لعظم حظنا لم يدركونا حينئذٍ

فبعد نحو ثلاث ساعات وكنا قد دخلنا قفرًا واسعًا نظرنا امامنا واذا الغبار قد حجب نور الشمس ورأينا العدو مقبلاً وقد اطلق اعنة خيلهِ

فلما رأى ذلك الحرس الذي في مقدمة القافلة وكان قد اطنب في الكلام عن فروسيتهِ ارتعدت فرائصهُ واخذ الجنود يلتفتون الى الوراء وذلك كما لا يخفى علامة الخوف والاستعداد للفرار . فلما رأى منهم ذلك الدليل البرتوغالي ناداني قائلاً لابد من تشجيعهم والا فيهربون فيجلبون على كل القافلة الويل والهوان . فاجبتهُ لقد احسنت فماذا ينبغي ان نفعل . فقال ينبغي ان يتقدم من رجال القافلة خمسون رجلاً يعضدونهم على الجانبين ويقوون عزمهم ولا ريب انهم يشجعون ويدافعون عنا كل المدافعة والا فيفرون من امام وجه العدو فتقدمت حالاً الى قائدنا واخبرتهُ بذلك فاستحسنهُ جدًا وارسل خمسين رجلاً منا لمعاضدة حرس المقدمة فسار خمسة وعشرون رجلاً منا على الجانب الايمن وخمسة وعشرون على الايسر . اما حرس المؤخرة فسلمنا اليهِ امر المدافعة عن الجمال والبضائع واذا مست الحاجة يجدوننا بمئة رجل

وفي اثناء ذلك كان يدنو منا جيش التتر الجرار على اننا لم نعلم حقيقة عدده ولكنهُ لم يكن اقل من عشرة آلاف رجل . فدنت منا فرقة منهم لتري عددنا

وقوتنا . فلما رأى قائدنا ان الرصاص يصيبهم امر الذين على جانبي حرس المتقدمة ان يهجموا بسرعة عليهم ويرموهم بالرصاص فنعلوا كذلك . فرجعت تلك الفرقة الى بقية الجيش ربما تخبرهم بما يصادفهم ان هاجمونا . فاثر فيهم ذلك الطلق جدًّا وافزعهم حتى انهم مالوا عنا بعد ان وقفوا برهة يتشاورون في ما ينبغي ان يفعلوا وهكذا عدلوا عن مهاجمتنا حينئذٍ . فسررنا ذلك جدًّا لانهُ كان من المستصعب ان ننتصر على جيش يفوق عددنا كثيرًا

فبعد يومين وصلنا الى مدينة تورام فذهبنا الى الوالي وشكرناهُ جدًّا لاجل اعتنائهِ بنا وجمعنا من رجال القافلة نحو مائة ليرة انكليزية وقدمناها هدية للحرس الذي ارسلهُ لنا . واقمنا فيهـــا يومًا واحدًا لنستريح من اتعاب السفر ومشاقهِ . وكانت من المدن المحصنة وفيها تسعمائة من الجنود لاجل صيانتها وذلك لان الروسيين كانوا قد هجروا البلاد المجاورة لها لصعوبة حفظها وتأمين اهاليها لبعدها عن بلادهم . فتولى ذلك الصينيون لانهم اقرب اليها من الروسيين

فبعد ذلك سرنا وعبرنا نهرين عظيمين وقفرين مخيفين وسرنا في احدهما ستة عشر يومًا وفي اليوم الثالث عشر من شهر نيسان وصلنا الى حدود بلاد روسيا . اما القلعة الروسية التي عند الحدود فاظن ان اسمها قلعة اركونا وهي مبنية في غربي نهر اركونا

ففرحت جدًّا عند ما رأيت اني قد دخلت بلاد ملك متمدن غير وثني . ومن جال في العالم نظيري بين الشعوب المتوحشة والوثنية يرى ان بونًا عظيمًا بين المغربين اولئك الاقوام الذين يعبدون المنحوتات والمصنوعات والحيوانات الى غير ذلك تاركين سبيل الله سالكين في سبيل الشيطان وبين الجولان بين شعوب متمدنة متدينة بدين حقيقي . فناديت التاجر الاسكوتلاندي المتقدم ذكرهُ وقلت لهُ السلام عليك ها قد دخلنا بين شعب متمدن فليتبارك اسم الاله الذي حفظنا واوصلنا الى هنا بسلام . فتبسم وقال لا تفرح كثيرًا بذلك لان اهالي هذه البلاد حاصلون من التمدن على اسمهِ ومن النصرانية على رسمها . فقلت لهُ ومع

ذلك افضلهم على عبدة الاوثان وابليس . فاجاب بل هم شر منهم خلا بعض العساكر الروسية سكان المدن وجميع سكان هذه البلاد على مسافة نحو الف ميل هم وثنيون

ان الافاعي وان لانت ملامسها عند التقلب في انيابها العطبُ

الفصل الرابع والاربعون

سفر روبنصن في بلاد روسيا

ودخلنا اكبر اقسام اليابسة فكان البحر بعيدًا عنا شرقًا مسافة نحو اثني عشر الف ميل و بحر البلطيك نحو الفي ميل لجهة الغرب والمضيق بين انكلترا وفرنسا نحو ثلاثة الاف ميل لجهة الغرب ايضًا . و بحر العجم لجهة الجنوب نحو خمسة آلاف ميل . والبحر المتجمد الشمالي نحو ثمانمائة ميل . فلما دخلنا مملكة روسيا وذلك قبل ان نصل الى مدن كبيرة لم نرَ ما يستحق الذكر . على اننا راينا ان جميع الانهر التي عبرناها تسري الى الجهة الشرقية . ووقفنا على حقيقة ذلك من مطالعة الرسوم التي كانت موجودة مع بعض رجال القافلة . وان جميع تلك الانهر كانت تصب في نهر عظيم يدعى امور . وذلك النهر لابد له من ان يصب في الاوقيانوس الصيني . وكان قد اخبرنا البعض ان مصب ذلك النهر مسدود بقصب كبير جدًّا محيط كل منه نحو ثلاث اقدام وطوله عشرون او ثلاثون قدمًا على اني لم اصدق هذا الخبر ولم يحققه احد لانه من الانهر التي لا تاتيه المراكب ولذلك لا يهتم احد بالفحص عن عمقه واحواله . فانا ولذلك فلنرجع الى ما كنا في صدده من اخبار تلك السفرة العظيمة . فبعد ان عبرنا نهراكون اخذنا في السفر رويدًا رويدًا دون ان نجهد انفسنا وكنا نتفاهد

بسرور لا مزيد عليه المدن التي اعتنى امبراطور روسيا ببنائها في محلات مختلفة
من تلك البلاد وكان يرسل العساكر اليها للمحافظة على اهاليها والمسافرين
الذين تذهب بهم التقادير اليها كالحراس الذين كانت ترسلهم المملكة الرومانية
الى اطراف ممالكها فحيثما توجهنا كنا نصل الى مدن حكومتها وعساكرها من
النصارى . واما اهاليها فمن الوثنيين الذين يقدمون الذبائح للاصنام ويعبدون
الشمس والقمر وكل نجوم السماء . وكانوا اشد توحشًا من جميع الوثنيين الذين
صادفناهم . على انهم لم يكونوا ياكلون لحوم الادميين . ففي احد الايام كنا سائرين
في قفر واسع جدًا في اول مملكة روسيا بين نهر اداكوانا ومدينة تدعى
نرتزنسكو اهاليها من الروسيين والتتر فبلغنا قرية فدخلنا للتفرج على كيفية معيشة
اهاليها التي كانت تشبه معيشة الوحوش . وكانوا يقدمون حينئذٍ ذبيحة لمعبودهم
وكان على خشبة قديمة صنم من خشب هيئته تحكي هيئة ابليس المخيفة . اما راسه
فلم اقدر ان اصفه ولا اشبهه بشيء مما نراهُ في هذه الدنيا . اما اذناهُ فكانتا طول
اذني الحمار مرتفعتين وعيناهُ كبيرتين جدًا تشبهان جمجمة الانسان . وانفه يحكي
طوله واعوجاجهُ قرني الجاموس . وفمه ذو اربع زوايا مفرنة كفم الاسد وفيه من
الانياب والاسنان ما يحكي انياب الخنازير واسنانها . اما ثيابه فكانت وسخة قذرة
جدًا . وكانت عباءته من جلد الغنم صوفه من الجهة الخارجية وكان على راسه
قبع تتري كبير جدًا يخرج منه قرنان معوجان . اما علوهُ فكان نحو ثماني اقدام
وذلك دون ان يكون له رجلان او ساقان

وكان هذا الصنم المخيف موضوعًا خارج القرية فلما دنوت منه وجدت
ستة عشر او سبعة عشر شخصًا مطروحين على الارض حول تلك الخشبة القذرة
الرائعة التي لا تسمع ولا تبصر . فلم يظهر لي من ثيابهم هل هم من الرجال او من
النساء لانه لا فرق بينهما في الملبوس ولم يكونوا يتحركون فامسوا كتلك الخشبة
الموضوعة بينهم وكنت قد ظننت في اول الامر انهم اخشاب . على اني عند ما
دنوت منهم وثبوا من اماكنهم واقفين على ارجلهم وصرخوا صرخة هائلة تحكي

عوي جملة كلاب ثم ذهبوا من هناك وقد لاحت على اوجههم لوائح الكدر لتعرضنا
لهم وهم يصلون لمعبودهم المصنوع بايديهم . فنظرت الى امامي فرأيت عند
باب كوخ مصنوع من جلود غنم وبقر ثلاثة رجال كالذين يذبحون الغنم
وظننتهم منهم . ولكن عند ما دنوت منهم قليلاً رأيت في يد كل منهم سكيناً
طويلة وفي وسط الكوخ المذكور عجلاً صغيراً وثلاثة كباش مذبوحة والظاهر
ان هذه الحيوانات هي ذبيحة قدموها عن اولئك الذين كانوا مطروحين حول
هذا الصنم يصلون والثلاثة رجال هم الكهنة الذين ذبحوا تلك الذبائح

فتحركت فيَّ عواطف الحزن والاسف الذي لا مزيد عليه عند ما رأيت ابناء
البشر الذين خصهم الله بهبات وبركات لا تحصى وفضلهم على سائر مخلوقات يديه
ووهبهم نفساً مميزة وعقلاً لتمجيد خالقه وتمجيده بجحودهِ اياهُ جاحدين تلك
النعم والبركات كافرين بالمهم الحليم الجواد مطروحين حول تلك الخشبة القذرة
صنعة ايديهم وهم يقدمون لها التمجيد والعبادة والوقار الذي يليق بالله الحقيقي
جل شأنه . فلا ريب ان ذلك هو من نتائج الجهل والغباوة التي يعمي بها ابليس
اعين بني البشر لانه يغار من عبادتهم لخالقهم . فدبر بخداعهِ واسطة يكتسبهم
بها اليه فيبعدهم عن الرب سبحانه وتعالى فيذهب بهم الى اسفل السافلين الى
حالة ترتعد منها فرائص الطبع البشري وتهتز من رداءتها الطبيعة باسرها . على
انه ماذا يفيد اولئك الوثنيين تأملي وتعجبي من الحالة التي اوصلتهم اليها جهالتهم
بعد ان اكون تأكدت ذلك بالعيان لانه لا اقتدار لي على ازالة ذلك الغطاء
عن اعينهم . فلدى التأمل في حالهم تحول حزني الى غضب . فتقدمت بسرعة
الى ذلك الصنم المخيف وضربت بسيفي فيه فقطعته قطعتين ثم تقدم احد رجالي
وامسك الجبة ومزقها . واذا صرخة هائلة قد ارتفعت من ذلك الجمهور ورنت
في الآفاق وتبعتها صرخات رائعة تصاعدت من كل جهات تلك القرية .
وفي برهة وجيزة اجتمع حولي منهم اكثر من مائتين او ثلاث مئة بعضهم متنكبين
قسياً ونبالاً فتخلصت من بينهم وعزمت ان آتيهم ثانية

اما القافلة فمكثت في البلدة التي كانت تبعد عن قرية الصنم قليلاً مدة ثلاثة ايام لقضاء بعض الحاجات منها ابتياع افراس عوضاً عن التي عجزت بسبب رداءة الطريق وطول المسافة . فرأيت انه يمكنني تتميم مقصدي بالرجوع الى القرية المذكورة . فاخبرت بقصدي التاجر الاكومي الذي كان من الجسارة والشجاعة على جانب عظيم وقصصت عليه ما رأيته واوقفته على حقيقة حاساتي ومقدار الغضب الذي تولاني عند ما رأيت انه من الممكن ان ينحط الجنس البشري الى تلك الحالة . واني ان وجدت اربعة او خمسة رجال يذهبون معي اذهب واحرق تلك الخشبة المنحوتة فابين لمن يعبدها انه لا اقتدار لها على انقاذ نفسها من الهلاك ولذلك لا يمكن ان تستحق العبادة لانها لا تقدر ان تنفع من يعبدها او ان تضر به

فضحك بي التاجر المذكور وقال وهو يبسم ان غيرتك محمودة ولكن ماذا ينفعك ذلك . فقلت اني اقوم بحق فروضي نحو خالقي الذي تعدى حدود شريعته هولاء الوحوش الجهلة . فاجابني ان ذلك لا يجديك نفعاً لانك لا تقدر ان تدرك الغاية المقصودة وهي تبليغ عبدة ذلك الصنم الاسباب التي حملتك على احراقه واقناعهم ان هذه العبادة هي باطلة ولا تخلصهم بل تجلب عليهم غضب الاله الحقيقي ولا ريب انهم يهجمون عليك وعلى من معك وينزلون بكم الويل والهوان لان هولاء الاقوام هم من الذين لا يقدرون عواقب الامور بل يصادمون الموت محاماة عن عبادتهم الوثنية . اما اقناعهم بالحقائق المذكورة فهو ضرب من المحال لانك لا تحسن التكلم بلغتهم . قلت مندهشاً كيف هذا أليس في كل هذه البلاد من يحسن الكتابة او القراءة . قال ليس من يميز بين الالف والمأذنة

فقلت يا لتعاسة حالهم ومهما قلت لا بد من احراق هذا الصنم . لانه قد يكون احراقه دليلاً يبين لهم قباحة عبادتهم وبطلها . فقال رويداً رويداً فان التأمل في عواقب الامور ينجي من سوء العاقبة . انني لا انهاك عن الذهاب والانقياد الى ما تحرضك عليه غيرتك الشديدة . على اني اقول لك تأمل في

عواقب الامور قبل فعل ما ربما اورث الندامة . لانهُ لا يخفاك ان امبراطور روسيا قد تسلط بالقوة الجبرية على هولاء التتر. فان احرقت صنمهم اظن انهم يجتمعون لا محالة الوفًا ويذهبون الى والي نادتزنكول الروسي ويطلبون اليهِ ترضية فان لم يرضهم ربما جاهروا بالعصيان على الحكومة واثاروا عليها فتنة وهكذا تكون قد تجددت بسببك الحرب بين روسيا والتتر

فتأملت كثيرًا في ما قالهُ على اني لم اعدل عن عزمي بل بقيت مصرًّا كل الاصرار وصرفت كل ذلك النهار وافكاري مرتبكة طالبًا تتميم مقصدي . فعند المساء اخذت اجول في شوارع المدينة فصادفت التاجر الاكوسي المذكور فقال لي ارغب ان اكلمك . فقلت لهُ قل عسى ان يكون خيرًا . قال اظن اني قد اخرتك بكلامي عن تتميم مقصدك الجليل وقد اقلقني ذلك جدًّا لاني اكره عبادة الاصنام قدر ما تكرهها انت .فاجبتهُ حقًّا انك قد اخرت تتميم ذلك العمل على ان كلماتك لم تمتأصلهُ من افكاري واظن انهُ لابد من اجراء ذلك قبل السفر من هذا المكان لاني وقعت في هلاك ايدي البرابرة كترضية على ما افعلهُ بمعبودهم . قال لاسمح الله ان تموت بايدي برابرة مثل هولاء لانهم يعذبونك لا محالة اشد العذابات . قلت لهُ كيف تظن انهم يعاملونني . قال بكل قساوة وكفاك شاهدًا ما فعلوهُ برجل روسي كان قد اهان عبادتهم كما فعلت انت . فالقوا القبض عليهِ واستأسروهُ بعد ان اصابوهُ بسهم في رجلهِ بحيث لم يقدر على الفرار من امامهم . وبعد ان جردوهُ من جميع ثيابهِ اجلسوهُ على مكان مرتفع قليلاً واحاطوا بهِ واخذوا يرمونهُ بالنبال فكانت تدخل حتى اخترقت جسدهُ ثم احرقوهُ والنبال في جسدهِ ليجعلوهُ ذبيحة للصنم . فسألتهُ ألنفس هذا الصنم . قال نعم . فقلت لهُ اني اخبرك بما فعلهُ ملاحو مركبنا باهالي بلدة مادكسكر لانهم قتلوا احدهم فقصصت عليهِ خبر تلك الحادثة بالتفصيل ثم قلت لهُ انهُ لمن الواجب ان نفعل باهالي هذه القرية كما فعل اولئك باهالي تلك البلدة

فتأمل كل التأمل بما قلت وقال لي عندما قلت لهُ انهُ من الواجب معاملة

اهالي هذه القرية كما عامل الملاحون سكان تلك البلدة انك لاخطأت كل الخطاء لان الذين قتلوا الروسي ليسوا اهالي هذه القرية بل قرية تبعد عن هذه مسافة نحو مئة ميل . اما الصنم فهو نفسه لانهم يذهبون به بالاحتفال من مكان الى آخر . فقلت من الواجب علينا ان نقاص الصنم ولابد من ذلك ان بقيت في قيد الحياة هذه الليلة

فلما رأى انه لابد من تنفيذ المآرب قال وقد استحسن الغاية اني لا اتركك تذهب وحدك بل اذهب معك ونستصحب معنا احد ابناء وطني وهو من الاشداء اصحاب غيرة خاصة من جهة ما يمس راية ابليس . وبعد ذلك ذهب ثم رجع اليّ بذلك الرجل وهو من الاكوسيين يدعى القبطان رشادسون واخبرهُ بما شاهدت وبقصدي . فقال لي اني اذهب معك ولو افضى بي ذلك الى الهلاك . فعزمنا على الذهاب نحن الثلاثة لاغير وكنت قد طلبت مساعدة شريكي فقال اني ابذل نفسي للمدافعة عنك ولكن هذا العمل لا يهمني . فتعاهدنا على القيام بحق ما عزمنا عليه في الليل القادم دون ان يعلم بنا احد وقد رأينا ان نأخذ خادمي معنا

غير انه لدى التامل في ذلك برمة نقضنا ما تعاهدنا به قبلاً وعزمنا ان نؤخر ذلك الى الليلة الثانية لان القافلة كانت صممت على السفر في صباح تلك الليلة فان طلب الوثنيون ترضية من الوالي الروسي على ما فعلناهُ لا يقدر ان يطلب ذلك منا بعد ان نكون قد خرجنا من البلد . اما التاجر الاكوسي فكان يهتم كثيراً بامر تتميم المقصد دون ان يعلم بنا احد ودون ان يعرفنا الوثنيون فاتاني بثوب وقبع من التي يلبسها التتر وقوس ونبال وبمثله لنفسه وللقبطان المذكور . فصرفنا الليلة الاولى بتحضير ما يشعل حالاً لنحرق به الصنم فمزجنا باروداً باجزاء اخرى سريعة الاحتراق واخذنا مواد تمكننا من نوال المرغوب بوقت قريب

فلما جن الليل وكان حينئذٍ قبل نصفه بساعة اتينا المكان الذي كنا قد

رأينا الصنم فيهِ . اما اهالي القرية فظهر لنا انهم لم يخشوا ان يصيب صنمهم ضررًا . وكانت الغيوم مظللة الفلك والبدر يرسل نورهُ منها وينير قليلاً سبيلنا وما حولنا فرأينا الصنم وما يحيط بهِ فنظرنا الى ناحية البيت الذي كنا قد رأينا فيهِ كهنة ذلك الصنم فرأينا نورًا . فتقدمنا الى البيت فسمعنا صوت حديث نحو خمسة او ستة رجال . فقلنا ان احرقنا الصنم يعرف هولاء فيخرجون ويخمدون النار ويخلصونهُ فماذا ينبغي ان نفعل . فصرفنا مدة في التشاور وتحيرنا في امرنا جدًا فبعد برهة لاح في افكارنا ان نذهب بالصنم من هناك الى مكان آخر حيث نحرقهُ دون ان يشعر بنا احد . فلما تقدمنا اليهِ وجدناهُ ثقيلاً جدًا بحيث لا نقدر ان ننهضهُ عن الارض البتة فارتبكنا جدًا . فقال القبطان اظن من الموافق ان نحرق البيت باولئك الرجال وكل ما خرج احدهم نضربهُ على راسهِ فنقتلهُ فاجبتهُ اني لا اسلم بقتل احدهم ما لم تلجئنا الضرورة اليهِ . فاجاب التاجر الاكوسي قائلاً ان الاوفق ان نأسرهم ونوثقهم ونجلسهم بقرب صنمهم وهو يحترق

فاستحسنا اجمع هذا الرأي كل الاستحسان خاصةً لانهُ كان معنا من الحبال ما يكفينا لربطهم وعزمنا عليهِ وان نفرغ الجهد في ان لا يعلو لهم ضجيج او صوت يستيقظ بهِ سائر اهالي القرية فيتكاثرون علينا . فتقدمنا الى باب البيت المذكور وقرعناهُ فلما سمع الكهنة الذين داخلهُ صوت قرعهِ خرج احدهم ليرى من يقرع الباب فالقينا حالاً عليهِ القبض وسددنا فاهُ واوثقنا يديهِ وراء ظهرهِ وذهبنا بهِ الى قرب الصنم واوثقنا هناك رجليهِ ايضًا واجلسناهُ على الارض . وبعد ذلك رجع اثنان منا الى الباب ينتظران خروج رجل آخر ليفعلا بهِ كالاول . فانتظرا مدة طويلة ولكن لم يخرج احد . فلما رأى الرجل الذي كنا قد خلفناهُ ليحرس الرجل الموثوق اننا قد ابطأنا رجع الينا ليرى ماذا عاقنا . فقرعنا الباب ثانيةً قرعةً خفيفة واذا رجلان خارجان ليريا من الذي يقرع الباب ففعلنا بهم كالاول وذهبنا جميعًا بهما الى قرب الصنم لئلا يفلتا والقيناهما بالقرب منهُ . ثم رجعنا الى البيت واذا اثنان خارجان من باب البيت ويتبعهما ثالث

فالقينا القبض بسرعة لا مزيد عليها على الاثنين واوثقناهما حالاً . فلما رأى ذلك الثالث رجع الى الوراء وصرخ صوتًا عاليًا . فتبعهُ التاجر الاكوسي وقد اخرج من جيبهِ اجزاء مركبة ان احرقت تدخن جدًا ورائحتها خبيثة . فاشعلها ورماها بين بقيتهم في البيت . فبغضون ذلك كنا قد اوثقنا الرجلين واسلمناهما الى القبطان وخادمي وبعد ان ربطنا ايديهما ربطنا احدهما برفيقهِ . فاخذاهما الى محل الصنم وتركاهما هناك ليريا هل يخلصهم معبودهم من الاسر والضيق ورجعا على الفور الينا . فلما ملأ الدخان البيت حتى كاد يختنق بهِ من كان باقيًا فيهِ واشعلنا جراب جلد مملوًّا مزيجًا بنور كعدة مصابيح دخلنا البيت فوجدنا فيهِ اربعة رجال فقط وقد تولى امرهم الخوف وفرائصهم ترتعد وقد خارت قواهم وباتوا لا يقدرون على التكلم لان الدخان كاد يخنقهم . فالقينا القبض عليهم واوثقناهم كالآخرين دون ان يعلو لهم صوت وذلك بعد ان اخرجناهم من البيت لانهُ لم يكن لنا طاقة على احتمال الدخان الذي كان حينئذٍ قد ملأهُ . ثم ذهبنا بهم اجمع الى محل الصنم واجلسناهم هناك واخذنا في تدبير ما يمكننا من احراقهِ بسرعة فدهناهُ بمزيج بارود وحجر جهنم وغيرهِ اجزاء من التي تحترق حالاً وملأنا عينيهِ وفمهُ واذنيهِ بارودًا ووضعنا كمية وافرة من البارود المجبول (يقال لهُ في لسان العامة قبع الشيطان) في قبهِ ووضعنا عليهِ كل الاجزاء السريعة الاحتراق التي كنا قد اتينا بها وشرعنا نبحث عن شيء آخر سريع الاحتراق يسعفنا في نيل المرغوب . فقال التاجر الاكوسي اني رأيت قرب البيت عشبًا يابسًا وسار هو والقبطان واتيا بكثير منهُ فوضعناهُ حول الصنم ثم حللنا قيود ارجل المحبوسين ووضعنا ما كنا سددنا بهِ افواههم امام الصنم ثم اشعلناهُ . فمكثنا هناك نحو ربع ساعة حتى احترق البارود الموضوع في عينيهِ واذنيهِ وانفهِ وشق راسهُ وغير هيئتهُ كل التغيير واصبح قطعة من خشب دون هيئة فوضعنا حولهُ من العشب الجاف ما يكفي لحرقهِ بجملتهِ حتى لا يبقى منهُ غير الرماد . وشرعنا نهيّئ انفسنا للرجوع الى البلدة فقال التاجر الاكوسي لا نذهب الآن لئلا يطرح

انفسهم هولاء الجهلاء في اللهب ليهلكوا مع معبودهم لانهم لا يحبون المعيشة بعده
فبقينا هناك حتى احترق الخشب اجمع وخمدت النار ثم اشتهينا راجعين الى البلدة
في صباح ذلك اليوم اشتغلنا في تهيئة انفسنا للسفر . اما ارفاقنا فلم يعلموا بما فعلناه وكانوا يظنون اننا كنا نائمين في فرشنا لانه لا يخفى ان من يصمم على السفر في الصباح لابد له من ان ينام ليقدر على ذلك دون انزعاج

اما ما فعلناه بالصنم فلم يتنو امره لانه في نفس ذلك الصباح اتى جمهور غفير جدًّا الى امام ابواب المدينة وطلبوا الى الوالي الرومي بالحاح وكلام قبيح الترضية لاجل اهانة كهنتهم وحرق صنمهم شامشيشونكو . فخاف منهم جدًّا اهل المدينة لانهم قالوا ان عدد التتر الذين احاطوا بالمدينة حينئذٍ لم يكن اقل من ثلاثين الف رجل . فارسل الوالي الرومي معتمدين من قبله ليطفئوا نيران الفتنة ويحسنوا الكلام معهم ويوكدوا لهم انه ليس له اطلاع على ما اخبروهُ به وانه لم يخرج من معسكره احد في تلك الليلة التي احترق فيها معبودهم . فان اقروا له باسماء الذين صنعوا ذلك يجرى قصاصهم لا محالة . فاجابوهُ بلسان معتمديهِ بكلام قاسٍ ملخصهُ ان جميع اهالي تلك البلاد يقدمون الاحترام لشمشيشونكو العظيم الساكن الشمس فلا يتجاسر بشر ان يهين مثاله خلا احد النصارى الكفرة فاذًا لابد من ان نشهر الحرب عليك وعلى جميع الروسيين النصارى الكفار

وكان امبراطور الروسيين قد امر الوالي ان يعامل التتر معاملة حسنة وان يجتنب اجراء ما يهينهم ويغضبهم . فلم يجاوبهم بحسب كلامهم غير اللائق لئلا يتسبب الى فتح حرب بينهم وبين ملكه . فجاوبهم ان هنا قافلة ذاهبة اليوم الى روسيا وربما فعل احد رجالها ذلك فالوقوف على الحقيقة بدعوهم ويسألهم . فلما بلغهم ذلك سكن بلبالهم نوعًا . اما الوالي فتيامنًا بحق وعده ارسل واستحضرنا الى حضرته واخبرنا بتفاصيل ما حصل ثم قال ان كان احدكم قد فعل ذلك فعليه بالفرار . وعلى كل الاحوال سرعة خروجكم من هذه البلاد اوفق لكم

فاذهبوا اما انا فارضيهم بالكلام على قدر امكاني . فتمم ما صنع الوالي المذكور ولا ريب انه احسن معاملتنا جدًّا . اما رجال القافلة فلم يكن لاحدهم اطلاع على ما فعلناهُ ولم يسئ الظن فينا احد لاننا لم نكن من محبي التعدي والنزاع . فلما سمع قائدنا كلام الوالي استغنم الفرصة وسرنا بسرعة يومين وليلتين دون راحة . فوصلنا الى قرية تدعى بلوتوس. فلم نمكث فيها برهة طويلة بل اسرعنا في المسير قاصدين اقليمًا من روسيا طالبين الاستئمان على انفسنا . ولكن بعد ان خرجنا من بلوتوس يومين وكنا سائرين في الطريق لاحت منا التفاتة الى الوراء فرأينا الغبار قد حجب نور الشمس . فعلمنا من ذلك ان التتر يطاردوننا . فلما دخلنا قفرًا عظيمًا مررنا في الجهة الغربية من بحيرة كبيرة تدعى ساكش اوزر فرأينا جيشًا عرمرمًا من الفرسان سائرين الى الجهة الشمالية ثم توجهوا نحو الجهة الغربية التي كنا سائرين نحوها لانهم ظنوا انا نسير الى تلك الجهة اما نحن فغيرنا طريقنا وسرنا نحو الجهة الجنوبية. فبعد يومين انحجبوا عنا والظاهر انهم ظنوا انا تقدمناهم فجدوا المسير في طلبنا حتى وصلوا الى نهر اورا وهو نهر عظيم عند مصبهِ . اما المكان الذي عبرناهُ فهو ضيق وماؤُهُ قليل

والظاهر انهم بعد ان وصلوا الى النهر ولم يدركونا عرفوا انهم قد اخطأوا في الذهاب نحو الجهة الشرقية فرجعوا الينا في اليوم الثالث وادركونا عند الغروب . اما نحن فلمظ الحظ كنا قد ضربنا خيامنا في مكان موافق جدًّا لنبيت فيهِ تلك الليلة . لانهُ لم يكن في تلك القفار مدن او قرى نقدر ان نبيت فيها غير مدينة جاراوبنا التي كانت بعيدة عنا نحو يومين . اما القفر فكان يجري فيهِ بعض نهيرات صغيرة تصب في نهر اورا وكانت بعض اشجار غضة نابتة على ضفافها وكنا قد ضربنا خيامنا في مضيق في وسط غابة غضة . وكنا ننتظر مهاجمة التتر في صباح ذلك المساء

ولم يعلم احد غيري وغير من احرق معي الصنم سبب مهاجمتهم لنا لانهم ظنوا ان ذلك بحسب عادة التتر في تلك القفار الذين كثيرًا ما كانوا يهاجمون

القوافل فمن عوائد السياح ان يحصنوا انفسهم اينما نزلوا لئلا يداهمهم اولئك الوثنيون فينزلون بهم الويل والدمار وكان مركزنا في ذلك المكان من احصن المراكز التي نزلنا فيها في مدة سفرنا . فكان يحيط بنا على جانبينا غابتان وامامنا نهر فلا يقدر العدوان يهاجمنا الأ من وراء او من امام وهذا صعب لان النهر كان يحول بيننا وبينهم وفضلاً عن ذلك سترنا انفسنا من تلك الجهة بالاحمال والجمال والخيل واما من ورائنا فقطعنا اشجاراً وسددنا بها المدخل . وهكذا صرفنا ذلك الليل ولم يهاجمونا كلصوص بل ارسلوا الينا رسولاً من قبلهم يقول سلمونا الثلاثة الذين اهانوا رجال صنمنا واحرقوا معبودنا بالنار لكي نحرقهم كما احرقوه فان اجبتم طلبنا ذهبنا عنكم دون ان نؤذيكم والاَّ فنهلككم جميعاً . فاندهش رجال القافلة عند ما سمعوا هذه الكلمات واخذ بعضهم يتفرس في البعض الآخر ليروا من تلوح على وجهه لوائح الخوف . ولكن لم يقفوا بذلك على الحقيقة ولا اقرَّ احد . فاجابهم قائدنا بلسان معتمدهم انه لم يفعل ذلك احد منا ونحن تجار نجد في طلب الرزق لانؤذي احداً ولانتعدى على حقوق احد . فاذاً عليهم بالبحث عن غرمائهم في مكان آخر فالاوفق ان لايتعدوا علينا فان فعلوا فنحن مستعدون ان ندافع عن انفسنا

فلم يرتضوا بهذا الجواب بل تقدم منهم جمهور غفير الينا فلما رأوا اننا محصنون انفسنا لم يتجاسروا ان يعبروا النهر بل وقفوا في الجهة الثانية . فعند ما رأينا انهم كثيرون جداً ارتعدت فرائصنا خوفاً لانهم كانوا نحو عشرة آلاف فارس فوقفوا هناك برهة ثم صرخوا صرخة هائلة ورمونا بنبالهم . على انها لم تصب احداً لاننا كنا قد سترنا انفسنا . ثم بعد ذلك ببرهة مالوا الى يميننا فظنناهم قاصدين ان يهاجمونا من وراء . فلما رأى ذلك رجل قوساقي من مدينة جاراوينا وكان من الماهرين في اختراع الحيل قال لقائدنا اني ذاهب لارسل كل هذا الجيش الى مدينة ساهيلكا وهي تبعد عنا مسافة نحو اربعة او خمسة ايام الى الجهة الشرقية منا . فتقلد قوسه وسهامه وركب فرسه وسار من ورائنا في الطريق التي تؤدي

الى تاتزتزكوا . فبعد ان سار مسافة دار دورة كبيرة واتى جيش التتر فكان كانه اتى من المدينة المذكورة عن قصد ليخبرهم ان الذين احرقوا معبودهم قد ذهبوا الى ساهيلكا برفقة قافلة كفار اي مسيحيين وانهم قد عزموا ان يحرقوا ايضاً المعبود سالهزر العظيم وهو معبود التوكيزيين . وكان هذا الرجل من التتر فصدقوهُ ومالوا عنا وقد جدوا المسير الى ساهيلكا . فبعد نحو ثلاث ساعات توارينا عنا في تلك القفار فسرنا نحو جاراوينا وفيها عسكر روسي مقيم وقد استأمنا منهم على انفسنا . فلما وصلنا الى هناك كان التعب قد اضنانا فمكثنا خمسة ايام

وكان امامنا مفازة متسعة لانقدر ان نقطعها الاّ في ثلاثة وعشرين يوماً . فاشترينا خياماً لنبيت فيها ليلاً . اما دليلنا فابتاع ست عشرة عجلة لنقل زادنا والماء فكنا نحيط بها محل نزولنا في الليل لتحمينا من هجمات التتر ان داهمنا احد منهم وكانت حاجزاً منيعاً فلو اتانا جمهور لايقدر ان يضر بنا ما لم يكن غفيراً جدّاً

فقطعنا تلك المفازة التي لاينبت فيها شجر ولايقطعها احد على اننا رأينا بعض اكواخ يقطنها التتر وهم الذين يصطادون الوحوش . واحياناً يداهمون القوافل الصغيرة . اما نحن فلم نبق منهم جمهوراً وبعد قطعها وصلنا الى بلاد مأهولة اي ان فيها مدناً وحصوناً وفيها عساكر امبراطور الروسيين للمحافظة على القوافل والمدن والقرى من هجمات التتر ولولا ذلك لما تمكن احد ان يسلك تلك البلاد وقد اصدر الامبراطور اوامر مشددة جداً الى جميع ولاة تلك البلدان ان يجهدوا كل الاجتهاد في وقاية التجار والقوافل وحمايتهم وصيانتهم واذا علموا ان التتر قد خرجوا بقصد الفتك والنهب ان يرسلوا مع القوافل جنوداً لصيانتها والمدافعة عنها فاخذني التاجر الاسكوتلاندي الذي كان يعرف والي ارتسكوى الى مركزه فقابلني بالترحاب وقال لنا ان ظننتم انكم محتاجون الى الحراس ارسل معكم خمسين جندياً

وكنت اظن ان اقترابنا من اوربا يجعلنا في بلاد اهاليها متمدنون . على اني اخطأت بظني ووجدت انه لابد من اجتياز بلاد المنغوليين الذين من الجهالة والغباوة على جانب عظيم ويعبدون الاصنام مثل التتر . ولكن لما كانوا تحت سلطة الروسيين كانوا لا يعتدون على احد مع انهم متوغلون كل التوغل في عبادة الاصنام . اما لباسهم فهو جلود الوحوش وكذلك بيوتهم ولا يفرق الناظر اليهم بين نسائهم ورجالهم من اللبس . ولما يكسو الثلج وجه الارض يسكنون مغارات تحت الارض لها مسالك توصل من واحدة الى الاخرى

اما معبوداتهم فهي عديدة جداً منها النجوم والبدر والشمس والماء والثلج وكل ما لا يدركون حقيقة صفاته ومتى عملوا شيئاً يقدمون الذبائح والعبادة لجميع العناصر وكل بيت من بيوتهم فيه صنم يقيم له من فيه العبادة فسرنا في القفر نحو اثني عشر يوماً دون ان نرى بيتاً او شجرة فالتزمنا ان ناخذ معنا زادنا وماءنا فبعد ان قطعناهُ وسرنا يومين وصلنا الى مدينة مبنية على شاطئ نهر جانيزي العظيم تدعى باسيو وهي الحد الكائن بين قارتي اوربا وآسيا . اما اهالي هذه البلاد فهم من الوثنيين المتمرغين في اوحال الجهالة والغباوة والتوحش خلا الروسيين الساكنين بينهم . فقلت لواليها الذي تشرفت بمقابلته ان اهالي ولايتك ليسوا بحاصلين على وسائط التمدن وتعلم الديانة المسيحية مع انهم من رعايا الدولة الروسية . فقال لا ريب في ذلك على انه ليس من متعلقات ملكنا ان يهتم في تنصر رعاياهُ التتر المغوليين اما اعتناءه فهو باتقان سياستهم واخضاعهم لسلطته . فتنصيرهم يكون بارسال قسوس مبشرين لا بولاة وجنود قال ذلك بجدة . فسرنا من هناك الى نهر اوبي قاطعين بلاداً مخصبة ولكن اراضيها غير محروثة واهاليها قليلون وسياستها غير جيدة مع انها من احسن تلك البلدان . اما اهاليها فهم وثنيون خلا الروسيين المتولين سياستهم . وهذه هي البلاد التي ينفي اليها ملك الروسيين الذين يقاصهم قصاصاً شديداً ولا يقدرون ان يخرجوا منها

ولم اصادف اثناء ذلك شيئاً يستحق الذكر حتى اتينا مدينة توبولسك وهي

قاعدة سيبيريا وكان لنا حينئذٍ مدة سبعة اشهر نسافر في تلك البلاد قاصدين انكلترا وليس موسكو كبقية القافلة وكان قد ابتدأ فصل الشتاء فعقدنا ديوان مشورة انا وشريكي لنتشاور في ما ينبغي ان نفعله لنصل الى مقصدنا بعد ان ننفصل عن القافلة. وكان قد اخبرنا اهل تلك البلاد اننا ان اردنا السفر نقدر ان نسافر في وسط فصل الشتاء والثلج مغطٍ وجه الارض بعجلات تزحف زحفاً على وجه الثلج الجامد يجرها الابل ليلاً ونهاراً دون فتور البتة ويسافر الروسيون في الشتاء اكثر من الصيف لان الثلج يغطي كل وجه الارض جبالها مع اوديتها فلا يرى منها غير سطح مستوٍ ابيض وكذلك الانهر والبحيرات فمن اراد ان يسافر فيها يقدر على ذلك دون خطر لان المياه تبيت صلدة كالصخر الاصم. على انني لم اكن اميل الى السفر والبرد يعجز اللسان عن وصفه وربما اضر بمن عرض نفسه له وكان مقصدي الذهاب الى انكلترا وليس الى موسكو كما سبق الكلام. فكان لا بد من ان اذهب مع القافلة حتى جاروسلو ومن ثم غرباً الى الى نادفا وخليج فينلند ثم الى واتنزك حيث ربما تيسر لي بيع ما معي من البضائع الصينية باثمان جيدة او ان انفصل عن القافلة في بلدة دوينا ومن ثم اذهب ببرهة ستة ايام الى اركانجيل ومن ثم اركب مركباً يذهب بي الى انكلترا او هولاندة او همبرغ

اما السفر في فصل الشتاء في احدى هاتين الطريقين فهو كما تقدم صعب ودونه اخطار. لان البلطيك يجلد في ذلك الوقت ولا تسري فيه السفن. اما السفر براً فهو اشد خطراً من السفر في بلاد التتر والمغوليين. واما السفر عن طريق اركانجيل فهو ضرب من المحال لانه عند وصولنا اليها لا نجد فيها سفناً لانها تذهب عنها في الشتاء وكذلك التجار يذهبون الى موسكو. فان اتيتها التزم ان اصرف الشتاء في بلدة باردة خالية من السكان والزاد فيها قليل. فلذلك عزمت على ان انفصل عن القافلة وابقى في توبولسك لان فيها من الزاد ما يكفيني ومن الناس من تطيب معاشرتهم. ولا اخشى ان يضر بي البرد

او يلسعني لاقتداري على ان استأجر حجرة محكمة البناء واضرم فيها نارًا تطرد عني برودة الشتاء

اما هواء هذه البلاد فيختلف جدًا عن هواء جزيرتي المحبوبة حيث لم اشعر ببرد فيها الاَّ حينا مرضت بالحمى والبرداء . ولم اضرم نارًا الاَّ لطبخ الطعام اما الآن فصنعت ثيابًا ثقيلة جدًا وعباءة تستر في حتى القدم جميعها من الفرو السميك الذي كان يحميني من البرد

اما طريقة تدفئة المحلات هنا فهي غير طريقة انكلترا اي اضرام النار في كل مخدع من الدار فمتى انطفأت احدى هذه النيران الموقدة في امكنة تصنع لها في حائط الحجر يبرد المخدع بالهواء الذي يدخله من الداخون . اما في هذه البلاد فيضرمون النار في محل من حديد يوضع في مكان مخصوص وتنبعث منه انابيب تمد من مكان الى آخر في الدار فيصعد منها الدخان مارًّا في كل المخادع التي تمر فيها . فان خرج احد من مخدع الى آخر يجد الحرارة بدرجة واحدة فلا يضر به التغيير واختلاف درجات الحرارة . وهكذا كنا نستدفئ في دارنا في هذه البلاد دون ان نرى محل النار ولا تكون الحرارة في حجرة من البيت اشد منها في سائر الحجر ولا يدخلها الدخان الذي يضر بالاعين

لمن الامور المستغربة ان اناسًا من ذوي اللطف يكونون في بلاد نظير هذه قريبة من الاوقيانوس المتجمد واهاليها غير متمدنين . ومنهم كانتيزن روبوستسكي وغيرهم وبعض خواتين . فعرفني بكثيرين منهم التاجر الاسكوتلاندي قبل ان سافر مع القافلة . فكان يزورني كثيرون منهم ويصرفون معي سامرتي ليالي الشتاء الطويلة . فكان ذلك يسرني جدًا

اني اقمت هنا ثمانية اشهر اي مدة الشتاء وكان باردًا جدًا واشتد البرد علينا فلم نقدر ان نخرج من البيت دون ان نلف اجسادنا بالفرو ونغطي به اوجهنا تاركين منفذًا صغيرًا للتنفس ومنفذين صغيرين للعينين . اما النهار فكان من الخمس الى الست ساعات لا اكثر . على ان صفاء الجو في اكثر الاحيان وبياض

الثلج الساتر وجه الارض كانا يتبران قليلاً في الليل فلم يكن في تلك البلاد ليل حالك السواد الا في النادر . اما خيلنا فوضعناها في مكان تحت الارض وكادت تموت من قلة الاكل . اما الخدام الذين استأجرناهم ليعولونا ويسوسوا خيلنا فكنا نلتزم حيناً بعد حين ان نعتني بهم لئلا يؤثر البرد في اطراف اجسادهم فتسقط ومع ذلك لم نشعر ببرد داخل مخادعنا لان حيطانها كانت سميكة وبناؤها محكماً ونوافذها صغيرة وزجاجها مزدوجاً . اما طعامنا فكان في الغالب لحم الابل والضان والجاموس القديد والخبز الجيد المخبوز كالبقسماط والسمك القديد من انواع مختلفة . وهذه جميعها يهيئونها في فصل الصيف لاجل الشتاء . وكنا نشرب الماء الممزوج بمشروب حار وكان الصيادون يخرجون للصيد غير مبالين بشدة البرد والثلج والمطر ويأتوننا بلحم جيد لذيذ جداً واحياناً بلحم الضباع على اننا لم نأكله . وكانت معنا كمية وافرة من الشاي فكنا نقدم منه لاصحابنا المنفيين ليشربوا . وهكذا كنا نصرف اوقاتنا بالراحة والحبور

ففي شهر آذار اخذت الايام تطول والبرد يقل فابتدأ المسافرون والتجار يستأجرون مركبات زحف لتذهب بهم فوق الثلج الى مقاصدهم . ولما كنت قاصداً ان اذهب الى اركانجيل وليس الى البلطيك او موسكو فلم اهيئ نفسي حينئذٍ لان المراكب تأتي ذلك المكان من الجنوب قبل شهري ايار وحزيران فان وصلت اليه في اوائل آب اصل في الوقت الذي تبتدئ المراكب فيه ان ترجع من هناك الى بلاد روسيا في اوربا للاتجار ببيع الفرو هناك وابتياع ما يحتاجون اليه في فصل الشتاء والبعض ذهبوا للمقصد نفسه الى اركانجيل . ولكن لما كانوا ملتزمين ان يرجعوا قاطعين المسافة نفسها سبقوني لئلا يداهمهم الشتاء وهم راجعون في الطريق الى اوطانهم

وكنت قد اشتريت كمية وافرة من الافرية الثمينة بدلتها ببعض بضائع من التي اتيت بها من الصين خاصة بكبش القرنفل وجوز الطيب فبدلت اكثرها وبانيها بعته في اركانجيل باثمان تزيد كثيراً عن التي يمكنني ان ابيعها في لوندرا .

اما شريكي فسرته جدًّا اقامتنا في تلك المدينة مدة طويلة لانه كان يهتم اكثر مني في امر تصريف البضائع باربابها

ففي اوائل شهر حزيران خرجت من هذه المدينة المبنية في اقصى الارض التي قلما يسمع احد باخبارها لقلة اهميتها التجارية . اما قافلتنا حينئذٍ فكانت قليلة جدًّا وكان معنا من الخيل والجمال نحو اثنين وثلاثين منها احد عشر حصانًا وكان كل من رآني مع هذا الحشم يظنني رجلاً عظيمًا جدًّا . فبعد ان سافرنا برهة وصلنا الى مفازة طويلة صعبة المسلك وهي من اردإ المفازات التي قطعتها لانها لم تكن مستوية بل بعضها عالٍ جدًّا وبعضها منخفض جدًّا على اننا كنا نظن انه لا خطر فيها علينا من اللصوص وانهم لا يأتون هذه الجهة من نهر اوبي

وكان مع رفيقي الذي لحق بي من هنا من اغنياء الروسيين خادم امون من سيبيريا يعرف جيدًا الطرقات فكان يميل بنا عنها لئلا نلتزم ان نمر في المدن الكبيرة التي منها تومان وسولوس وكامسكوس وغيرها وفيها جنود روسية كانت تدقق البحث عن كل من كان يمر بها لئلا يفر احد المنفيين المشهورين فيأتون بلاد روسيا في اوربا . فكنا نمر في القفار ونبيت في خيامنا خارج المدن التي يمكننا ان نجد فيها كل ما نطلبه من لوازم المعيشة . اما الامير فعرف حق المعرفة اننا كنا نتكبد تلك الاتعاب والاخطار لاجلهِ . فكان يلزمنا ان ندخل المدن ونبيت فيها اما هو فكان ينام خارجها وفي الصباح يوافينا الى مكان نعينهُ له قبل الافتراق مساءً

فبعد ان عبرنا نهر كاما وهو الحد بين قارتي اسيا واوربا . واتينا المدينة الاولى في اوربا وهي سولوس كامسكوس وكنا توهمنا اهاليها واهالي البلاد المجاورة لها اكثر تمدنًا واحسن حالاً من اهالي بلاد التتر على اننا وجدناهم مثلهم في حالة الجهل والغباوة يعبدون الاوثان واهالي الصحراء العظيمة التي طولها نحو سبعمائة ميل على ان طولها من حيث قطعناها لم يكن اكثر من مئتي ميل . اما عبدوها فالاصنام مالكتها . واما معيشتهم فهي وحشية خلا اهالي المدن والقرى المجاورة لها

واماليها من النصارى ولكنهم على جانب عظيم جدًّا من الجهل والغباوة الدينية
فبينما كنا سالكين تلك الصحراء رأينا نحو اربعين او خمسة واربعين فارسًا
متنكبين القسي والنبال فلم نعلم من هم ولاجنسيتهم ولا مقصدهم . فتقدموا منا
مسافة رميتي رصاص دون ان يتكلموا معنا على انهم احاطوا بنا من كل جهة
وتفرسوا فينا برهة يسيرة . ثم تقدموا وسدوا الطريق دوننا فلما رأينا ذلك تقدمنا
اجمع وكنا نحو ستة عشر رجلاً الى امام جمالنا واصطففنا بانتظام ثم وقفنا عن
المسير وارسلنا خادمًا ليرى ماذا يكون منهم . فتقدم اليهم الخادم وفي يده راية
بيضاء علامة للمسالمة وناداهم ولكنه لم يفهم كلامهم مع انه كان يتكلم جملة من لغاتهم
وهي فروع من اللغة الاصلية . على انهم اشاروا له ان لا يتقدم وان نتقدم برمونة
فيفتلونه . فرجع الينا دون ان يتحقق خبرهم . ولكنه قال يلوح لي من ثيابهم انهم
من تتر كالملوك فلا بد من ان يكون غيرهم في هذه الصحراء

فبعد نحو نصف ساعة تقدموا الينا ليهاجمونا فتواروا في غابة صغيرة
لينظروا منها من اين ينبغي ان يهجموا علينا . وبعد برهة عدلوا عن ذلك وذهبوا
عنا عند ما رأونا مستعدين ان نصادمهم كل المصادمة . اما نحن فعزمنا على ان
لانذهب من هناك في ذلك الليل . وكان في الجهة الشمالية منا غابة صغيرة تبعد
عنا ربع ميل فصممنا على ان نأتيها ونحصن انفسنا هناك من هجمات اللصوص
الذين ربما هاجمونا . لانه لايخفى ان اشجار الغابة الغضة تحمينا من نبالهم وفضلاً
عن ذلك لايقدرون ان يهجموا علينا دفعة واحدة وهكذا تتبدد قوتهم بالتفريق .
وذلك هو رأي الدليل البرتوغالي الذي فاق جميعنا في حسن التدبير والشجاعة
في الضيقات . فتقدمنا بسرعة شديدة الى الغابة ودخلناها . اما اللصوص
فكانوا واقفين في مكانهم دون ان يتعرضوا لنا . فلما دخلنا الغابة رأينا ان ينبوعًا
عظيمًا يخرج من جانبها ويجري في احدى جهاتها ثم يلتقي بينبوع آخر ويجريان
سوية وهما ينبوع نهر كبير يدعى وارتكا . اما الارض التي تحيط بالغابة فكانت
موحلة فلا تقدر الخيل ان تسلكها بسهولة والاشجار التي هي اكثر من مئتي شجرة

غصة كبيرة جداً. فاستأمنا فيها على انفسنا من هجمات اللصوص ما لم يهاجمونا مشاة

فبينما كنا ننتظر هجوم الاعداء الذين لم يزالوا واقفين في موقفهم كان الدليل يقطع بعض اغصان الاشجار ويسترنا بها . فقبل الغروب بساعتين هجموا علينا وقد انهم نجدة صغيرة فبلغ عددهم اجمع نحو الثمانين فارساً . وترآى لنا ان بعضهم كان نساء . ولما حملوا علينا اطلقنا بندقية دون رصاص وناديناهم في اللغة الروسية ماذا تريدون لا تقتربوا منا . على انهم هجموا بسرعة شديدة حتى وصلوا الى جانب الغابة فظهر لنا انهم لم يعلموا اننا قد حصنا انفسنا بحيث لا يقدرون ان يصلوا الينا بسهولة . وكان قد تولى امرتنا الدليل البرتوغالي فقال لنا لا تطلقوا البنادق الا بعد ان يدنوا منكم مسافة رمية رصاصة غدارة لكي لا يخطئهم رصاصنا فقلنا له ما تراهُ موافقاً مرنا بهِ . فلم يدعنا نرميهم حتى اقترب منا بعضهم مسافة ذراعين . فعند ذلك قال لنا اطلقوها . فاطلقناها بعد ان احكمنا توجيهها فقتلنا اربعة عشر رجلاً منهم وجرحنا كثيرين من الرجال والخيل . لان كلاً منا وضع رصاصتين او ثلاثاً في بندقيتهِ

فارتبكوا ورجعوا الى الوراء مسافة نحو مئتي ذراع . ففي اثناء ذلك ملأنا بنادقنا وخرج بعضنا من الغابة وامسكنا اربعةً او خمسةً من خيلهم التي كان قد قتل فرسانها ودنونا من بعض القتلى فظهر لنا من ثيابهم انهم من التتر فادهشنا وجودهم في تلك القفار البعيدة جداً عن بلادهم

ففي ذلك لم ننم كثيراً بل صرفنا الليل نحصن مركزنا . فلما اصبح الصباح رأينا الاعداء الذين خال لنا انهم قد انكسروا كسرة تنذرهم بان لا يعودوا الى المهاجمة قد تكاثروا جداً وبنوا احد عشر او اثني عشر كوخاً على مسافة تبعد عنا ثلاثة ارباع الميل كانهم قاصدون ان يحاصرونا . فادهشنا ذلك كل الاندهاش . اما انا فقلت في نفسي ان حمامي قد دنا فلا مهرب منهُ . ومع ان الخوف من فقدان كل اموالي كان عظيماً لم يعادل خوفي من الوقوع في ايدي اقوام برابرة متوحشين في نهاية سفري بعد ان اكون قد نجوت من كل المصاعب

والرزايا والاخطار التي داهمتني واموت قتيلاً وانا في منظر من البلدة التي اسافر منها في مركب من مراكب وطني . اما شربكي فاشتد غضبهُ وقال ان فقدان اموالي بفضي بي الى الهوان فاحب اليّ الموت قتلاً من الموت جوعاً . ولذلك عزم على المدافعة حتى يقتل

اما الدليل البرتوغالي فقال اننا لا نقدرون على مصادمتهم والتغلب عليهم وهكذا صرفنا ذلك النهار في التشاور في ما ينبغي ان نفعل . فعند المساء وجدنا ان عدد اعدائنا اخذ في التكاثر شيئاً فشيئاً وقلنا انهم في الصباح ربما ازدادوا . فاخذت استخبر من الخدامين الذين اتينا بهم معنا من توبولوسكي عن طريق يمكننا المرور بها دون ان يدري بنا اعداؤنا فنصل الى احدى المدن او القرى التي يمكننا ان نأخذ منها حراساً يحرموننا في الطريق حتى نقطع هذه الصحراء . فقال خادم الامير ان كنتم ترغبون ان تتخلصوا من محاربتهم فانا اذهب بكم بطريق شمالية الجهة نهر بيتر دون ان يدري بكم اللصوص ولكن لا افعل هذا دون امر سيدي . لانهُ قال انهُ لا يرغب في الفرار بل يفضل المحاربة . فقلت لهُ انك لم تفهم مقصد سيدك فانهُ عاقل حكيم ولا يطلب القتال دون سبب يلجئهُ الى ذلك . ونحن نعلم انهُ من الشجاعة على جانب عظيم واعمالهُ تشهد لهُ بذلك . ولكنهُ يعرف حق المعرفة ان ثمانية عشر رجلاً لا يقدرون ان يصادموا خمسمائة رجل ولا يجب ان يفعلوا ذلك ان وجدوا سبيلاً الى التخلص . فان كنت تظن انهُ من الممكن ان ننجو منهم ان جددنا المسير في الليل فعلينا ان نذهب . فاجاب ان امرني سيدي ان افعل ذلك ارهن حياتي ان اصابكم ضرر فطلبنا الى سيده سراً ان يصدر هذا الامر فتكرم باصداره وشرعنا نهيئ انفسنا للفرار

فلما اسبل الليل ستره اضرمنا ناراً في المحل الذي نزلنا فيهِ لكي تبقى مشبوبة بعد ذهابنا من هناك فيظن التتر اننا باقون في الاجمة . اما دليلنا فلم يمض بنا حتى طلعت النجوم ليعرف بها طريقهُ وكنا حينئذٍ قد حملنا الجمال والخيل فخرج بنا من الاجمة وقد استدل على الطريق بنجم القطب الشمالي . وبعد ان سرنا نحو

ساعتين طلع البدر فغمنا ذلك لاننا خشينا ان يرانا اعداؤنا بنوره . وقطعنا مسافة نحو ثلاثين ميلاً قبل ان اصبح الصباح على اننا اتعبنا خيلنا جدًا . فوصلنا الى قرية روسية تدعى كرمازنسكوس فنزلنا فيها وارتحنا من التعب ولم نسمع شيئًا عن اعدائنا المذكورين

وقبل الغروب بنحو ساعتين نمنا حتى صباح الغد . وبعد ان عبرنا نهرًا صغيرًا يدعى كارتزا وصلنا الى بلدة كبيرة تدعى اوزومبز اهاليها من الروسيين فبلغنا هناك ان جماهير عديدة من التتر كانت تجول في القفار . على انه بلغنا ايضًا انه لا خطر علينا منهم لاننا قد قطعنا الاماكن التي يأتونها فسررنا جدًا بهذا الخبر . واخذنا خيلاً غير التي كانت معنا لان التعب كان قد اضناها . ومكثنا خمسة ايام في تلك البلدة نستريح من مشاق الطريق . فعزمت انا وشريكي على ان نعطي الدليل ثمن عشر غدارات هدية لانه خلصنا من الهلاك

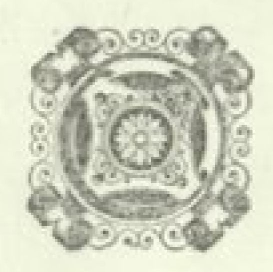
ثم سرنا مدة خمسة ايام فوصلنا الى مدينة فيسليما المبنية على شاطئ نهر ورتزوكرا الذي يصب في دوانا . وكنا قد قاربنا الوصول الى نهاية سفرنا لانه يمكننا السفر على ذلك النهر الذي يأتي بنا الى اركانجيل في برهة سبعة ايام . ففي اليوم الثالث من شهر تموز اتينا لاورنسكوي فاستأجرنا قاربين للشحن وقارب ركوب فانزلنا اليها بضائعنا وركبنا احدهما في اليوم السابع من تموز فوصلنا بسلام الى اركانجيل في اليوم الثامن عشر منه بعد ان صرفنا في السفر مدة سنة وخمسة اشهر وثلاثة ايام مع الثمانية الاشهر التي صرفناها في توبولسكي . فبقينا هنا سبعة اسابيع ننتظر قدوم المراكب واذا مركب من همبرغ قد دخل الميناء وذلك قبل الوقت الذي تدخل فيه غيره مراكب بنحو شهر . فعلمنا اننا ربما قدرنا ان نبيع بضائعنا في مدينة همبرغ باسعار لوندرا نفسها فاستأجرنا ذلك المركب وانزلنا اليه البضائع . ووضعت حافظًا عليها

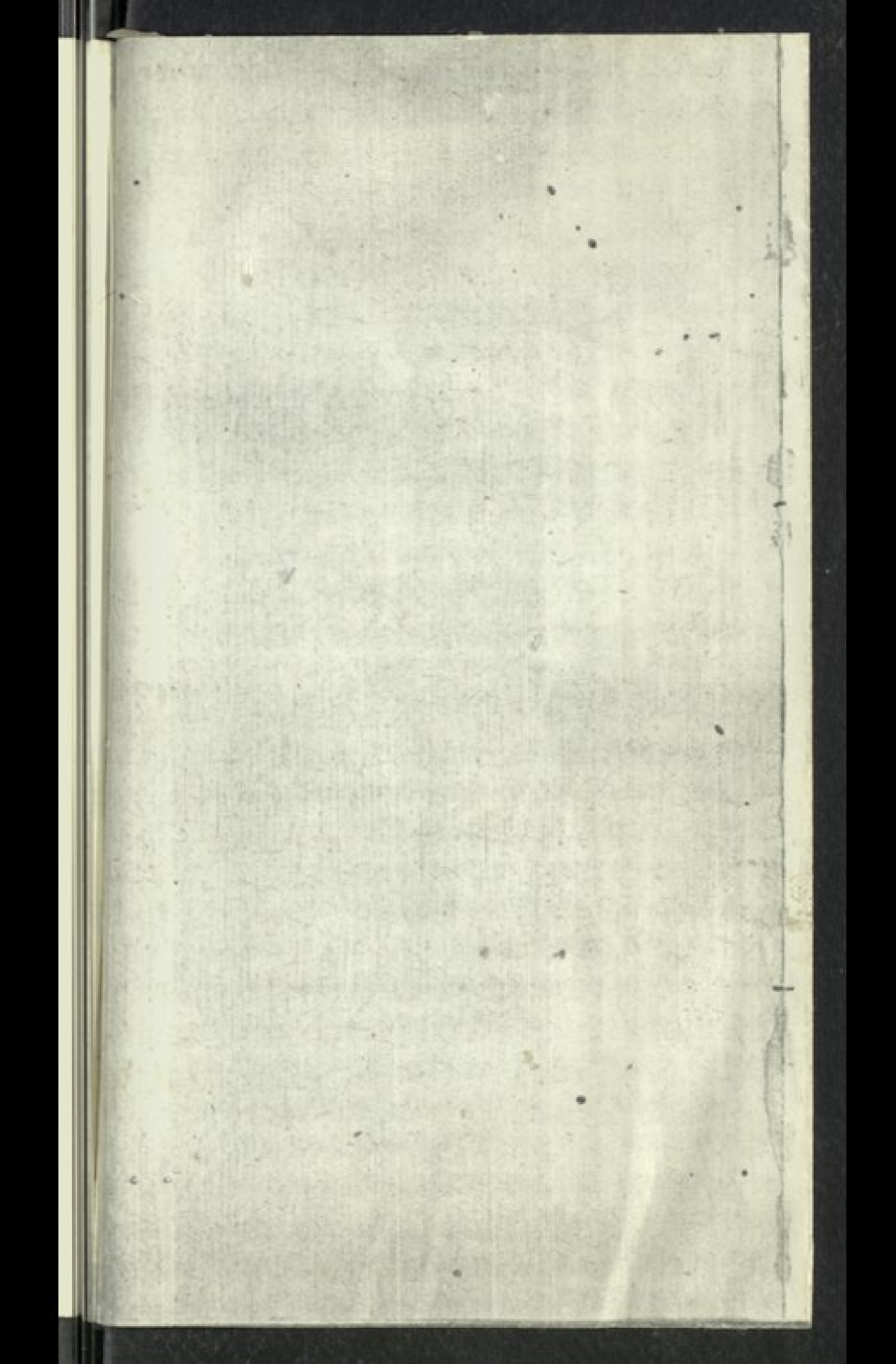
ففي اليوم العشرين من شهر آب سرنا في المركب المذكور ووصلنا الى الالب في اليوم الثامن عشر من شهر ايلول . فبعنا هناك بضائعنا الصينية

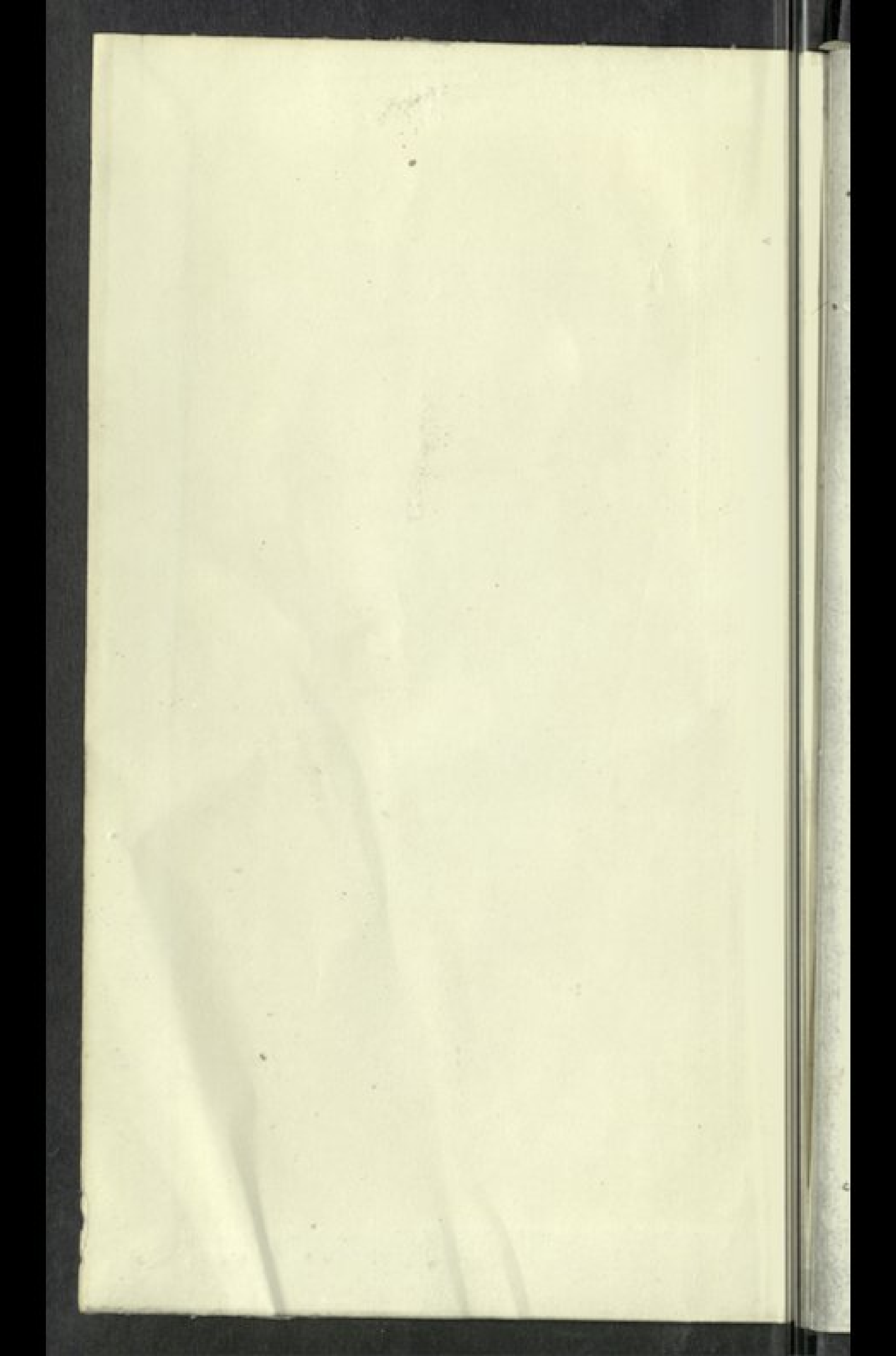
والسبيرية باثمان جيدة جدًّا اما الربح فقسمناهُ بيننا وكان نصيب كل منا منهُ ثلاثة آلاف واربعمائة وخمسًا وسبعين ليرة انكليزية وسبعة عشر شلينًا وثلاثة بنسات مع نحو ستمائة ليرة قيمة جواهر اتيت بها من بانغاليا

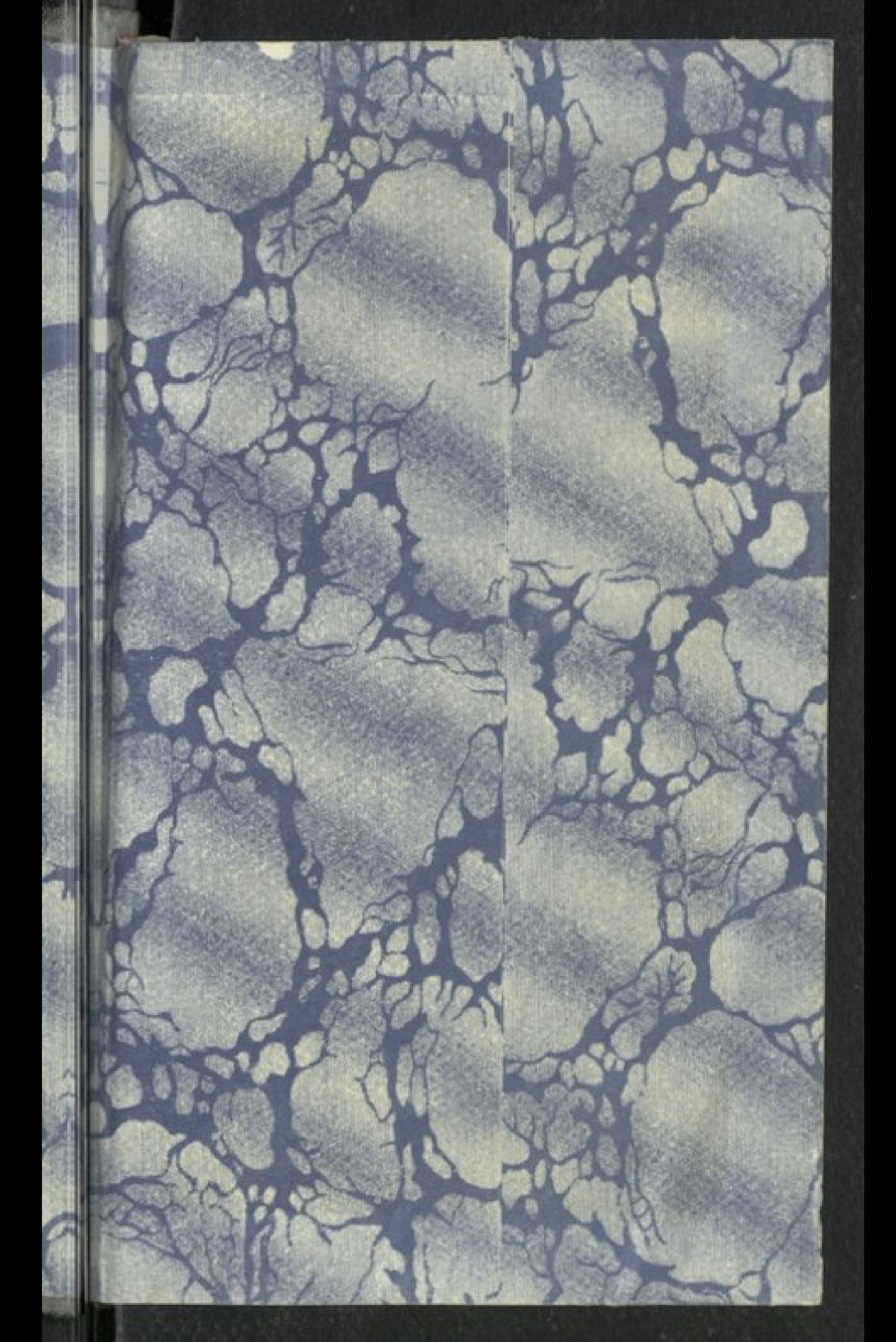
وبالتالي اتيت برًّا الى هناك بعد ان صرفت مدة اربعة اشهر في هامبيج ومن ثم ركبت مركبًا واتيت لوندرا فدخلتها في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني سنة ١٧٠٥ بعد ان غبت عن انكلترا عشر سنوات وتسعة اشهر. فمكثت فيها وقد عزمت على ان اهيّئ نفسي لسفر اطول جدًّا من جميع هذه الاسفار وهو سفر الابدية بعد ان صرفت اثنتين وسبعين سنة بالجولان والمصائب والاتعاب فادركت بذلك قيمة السكينة والراحة وبركة ختام ايامنا بالسلام

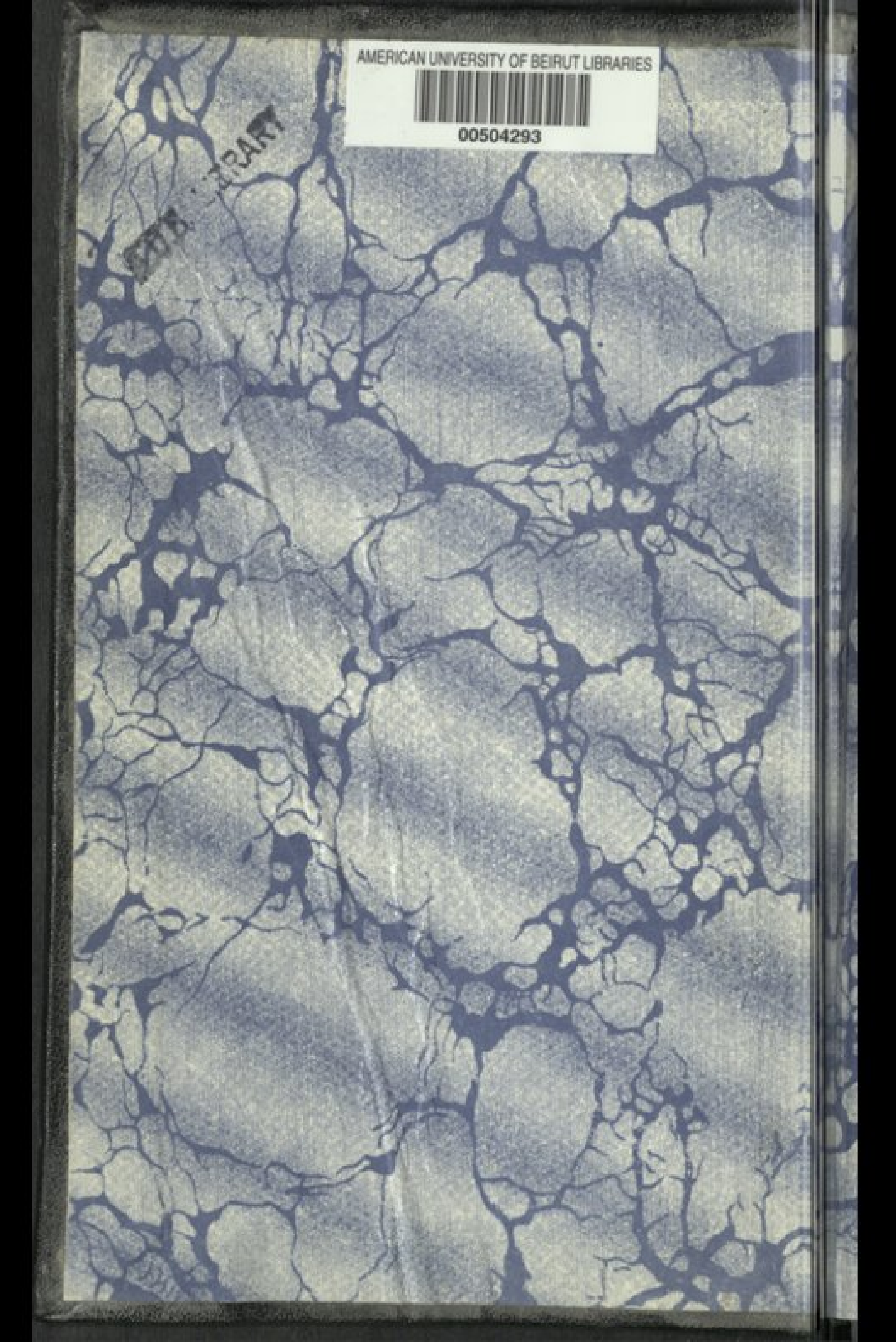
قد انتهى الجزء الثاني من سيرة روبنصن كروزي وبهِ انتهت اسفارهُ










AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00504293

